اللؤلؤ المكنون

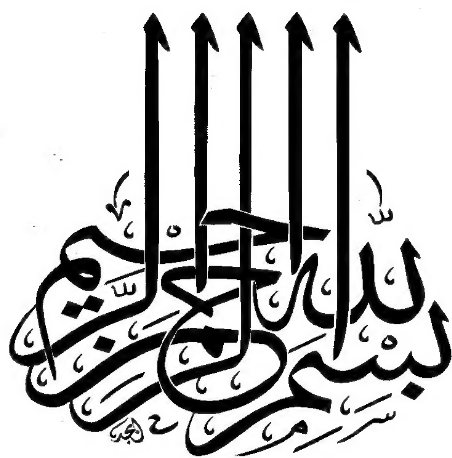
في سيرة النبي المأمون

دراسة محققة للسيرة النبوية

تأليف
موسى بن راشد العازمي

الجزء الأول

دار الصميعي للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار الصميعي للنشر والتوزيع، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العازمي، موسى راشد
اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون: دراسة محققة للسيرة النبوية/ موسى راشد العازمي-
الرياض، ١٤٣٤هـ
٤ مج
ص: ؛ سم: ١٧× ٢٤
ردمك: ١- ٢٣- ٨١٣٣- ٦٠٣- ٩٧٨ (مجموعة)
٨- ٢٤- ٨١٣٣- ٦٠٣- ٩٧٨ (ج١)
١- السيرة النبوية ٢- أصول الفقه أ. العنوان
ديوي: ٢٣٩ ٦٢٩٦/ ١٤٣٤

رقم الإيداع: ٦٢٩٦/ ١٤٣٤
ردمك: ١- ٢٣- ٨١٣٣- ٦٠٣- ٩٧٨ (مجموعة)
٨- ٢٤- ٨١٣٣- ٦٠٣- ٩٧٨ (ج١)

الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣

دار الصميعي للنشر والتوزيع، المركز الرئيسي السويدي، شارع السويدي العام -الرياض
ص.ب: ٤٩٦٧/ الرمز البريدي: ١١٤١٢ هاتف: ٤٢٦٢٩٤٥، ٤٢٥١٤٥٩ فاكس: ٤٢٤٥٣٤١
فرع القصيم: عنيزة، بجوار مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية
هاتف: ٣٦٢٤٤٢٨، فاكس: ٣٦٢١٧٢٨ مدير التسويق: ٠٥٥٥١٦٩٠٥١
المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: daralsomaie@hotmail.com

دار الصميعي للنشر والتوزيع

اللؤلؤ المكنون

في سيرة النبي المأمون

١

تقديم الشيخ مشهور حسن آل سلمان
للطبعة الثالثة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فهذه دُرَّة نفيسة، معروضة بثوب زاهٍ قشيب، تعب في صنعتها الأخ الحبيب/ موسى العازمي.

دلَّت على همَّة وعزيمة، ونهمة قوية، في النظر والبحث، وازدانت هذه الطبعة بمزيد تفتِيش بعد تَقْمِيش، وتحقيق بعد جمع، وأيُّ خيرٍ في سيرةٍ اختلط صحيحُها بِوَاهِيها، وأنت لا تَفْليها، ولا تبحث عن ناقليها.

جهد الأخ موسى بن راشد ـ وفقه الله ـ على الاستيعاب، مع بيان غريب الأخبار، وبيان درجتها من حيث الصحة والحسن والضعف، ونقل أحكام الأئمة المعتبرين من السابقين واللاحقين بإنصاف مع اختصار.

فالكتاب مميَّز بشموله، وحسن عرضه، وسهولة أسلوبه، وجَودة نقده، وبيان السليم من السقيم، والصحيح من المعلول، وفيه مُلَح وأشعار، ونكت وفوائد الأخبار على وجه ـ أحسبه ـ يعجب الأخيار من طلبة العلم الأبرار، وذوي الأوطار ممن يرغب بالوقوف على المصفَّى من سيرة المختار صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم الحائزي مراتب الفخار.

أحسن الله لمؤلِّفه، ونفع به، وجعل صنيعه من حسناته التي ينال عليها ـ إن شاء الله تعالى ـ الأجرين، ورزقنا وإيَّاه الاتِّباع، وغلَّق بنا أبواب الابتداع، وجعلنا من المهديِّين إلى يوم الدِّين.

رقَّم ذلك وقاله

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان

الثلاثاء ١٦/ ذو القعدة ١٤٣٣هـ ـ ٢/١٠/٢٠١٢م

تقديم الشيخ أ. د/ خالد بن علي المشيقح
للطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فقد قرأت في كتاب اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون لمؤلفه الشيخ موسى بن راشد العازمي فألفيته كتابا جيدًا شاملاً لسيرة النبي ﷺ، وقد اجتهد في تحرِّي الصحيح من السيرة وهذا في جملة الكتاب، فأسأل الله عز وجل أن ينفع به كاتبه وقارئه إنه ولي ذلك والقادر عليه، وبالله التوفيق.

كتبه:

د/ خالد بن علي المشيقح

١٧/٣/١٤٣٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ الدكتور
محمد رواس قلعه جي
حائز على الجائزة الأولى الدولية للتقدم العلمي
خبير في الموسوعة الفقهية (الكويت)
خبير في المجمع الفقهي الدولي
عضو شرف في المجمع الفقهي (الهند)

ص ب ١٣ الصفاة ١٣٠٠١ ـ الكويت
هاتف المكتب ٢٤٨٧٤٠٣
هاتف وفاكس المنزل ٥٧١٤٦٦٣ـ٩٦٥
جوال ٦٢٤١١٦٨

هذا عمل رائع، فيه جهد
مبارك، وتحقيق، واستشهاد
جميل، وتوثيق هو محل الاعجاب.
اسأل الله لصانعه الثواب
العظيم ورفقة صاحب السيرة
في الجنة

أ.د. محمد رواس قلعه جي

تقديم الشيخ عثمان بن محمد الخميس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين، أما بعد:

فإن النظر في سيرة النبي الكريم ﷺ يبعث في النفس الرضى، ويؤنس القلب ويريحه، وكم يتمنّى القارئ لسيرة النبي ﷺ أن يجد كتابًا جامعًا، وفي الوقت ذاته حريصًا على صحة ما ينسب إلى النبي ﷺ، وقد أهداني أخي موسى بن راشد العازمي كتابه الموسوم بـ«**اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون**» فألفيته ماتِعًا كاسمه، قد أتى فيه جامعه على كل جوانب سيرة النبي ﷺ فيما أعلم، مع حرصه على صحة الروايات، وإن ذكر غيرها نبَّه على ذلك، ولقد أكثر من النقل عن علماء السير، وقد أحسن الانتقاء من دُرَرِهم، ولا أُخفي خبرًا إن قلت إني استفدت منه كثيرًا أثناء قراءتي كتابه فجزاه الله خيرًا، ونفعه الله ونفع به.

وكتبه

عثمان بن محمد الخميس

٢٩/١٢/١٤٣٠هـ

المُقَـدِّمَة

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ والسَّلامُ عَلَىٰ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ، وإِمَامِ المُتَّقِينَ، ورَحْمَةِ اللهِ لِلْعَالَمِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِينَ، وعَلَىٰ كُلِّ مَنْ سَارَ عَلَىٰ مَنْهَجِهِ، واقْتَفَىٰ أَثَرَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وبَعْدُ:

لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ أَيِّ مُسْلِمٍ مَا لِسِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ أَهَمِّيَّةٍ كُبْرَىٰ فِي حَيَاةِ المُسْلِمِينَ، إِنَّهَا اليَنْبُوعُ الصَّافِي لِطَالِبِ الفِقْهِ، والدَّلِيلُ الهَادِي لِبَاغِي الصَّلَاحِ، والمَثَلُ الأَعَلَىٰ لِلْأُسْلُوبِ البَلِيغِ، والدُّسْتُورُ الشَّامِلُ لِكُلِّ شُعَبِ الخَيْرِ.

ولَقَدْ كانَ سَلَفُ هَذِهِ الأُمَّةِ يُدْرِكُونَ مَا لِسِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ آثَارٍ حَسَنَةٍ في تَرْبِيَةِ النَّشْءِ، وتَنْشِئَةِ جِيلٍ صَالِحٍ لِحَمْلِ رِسَالَةِ الإِسْلَامِ، فَمِنْ ثَمَّ كَانُوا يَتَدَارَسُونَ السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ ومَغَازِيَهُ ﷺ.

ومَنْ دَرَسَ سِيرَتَهُ ﷺ وأعْطَاهَا حَقَّهَا مِنَ النَّظَرِ والفِكْرِ والتَّحْقِيقِ رَأَىٰ نَسَقًا مِنَ التَّارِيخِ العَجِيبِ، اسْتَعْلَىٰ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَالْفِئَةُ المُؤْمِنَةُ مَعَهُ عَلَىٰ عَنَاصِرِ المَادَّةِ، وعَوَامِلِ الجَذْبِ الأَرْضِيِّ، وارْتَقَوْا بِالْإِنْسَانِيَّةِ إِلَىٰ دَرَجَاتٍ لَمْ تَشْهَدْهَا عَلَىٰ امْتِدَادِ عُصُورِهَا وأزْمِنَتِهَا.

وبِمَا أَنَّ السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ جُزْءٌ مِنَ التَّارِيخِ، والتَّارِيخُ إِنَّمَا يَتَنَاقَلُهُ النَّاسُ عَنْ طَرِيقِ الأَخْبَارِ والتَّحْدِيثِ والسَّمَاعِ، فَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَعْتَرِيَ هَذِهِ الأَخْبَارَ دَرَجَاتُ الصِّحَّةِ والضَّعْفِ، ومِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ هَذِهِ الأُمَّةِ أَنْ قَيَّضَ لَهَا عُلَمَاءَ حُفَّاظًا أَفْذَاذًا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الصَّحِيحِ والضَّعِيفِ مِنَ الأَخْبَارِ، والغَثِّ والسَّمِينِ مِنَ الحَوَادِثِ المُخْتَلِفَةِ.

قالَ الحَافِظُ العِرَاقِيُّ[1] رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي نَظْمِ السِّيرَةِ:

فَلْيَعْلَمِ الطَّالِبُ أَنَّ السِّيَرَا تجمع ما صَحَّ وَمَا قَدْ أُنْكِرَا

وقَالَ الحَافِظُ الدِّمْيَاطِيُّ[2] فِيمَا نَقَلَهُ عَنْهُ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ:

وكُنْتُ قَدْ تَبِعْتُهُ ـ أي ابْنَ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ ـ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ في السِّيرَةِ[3]،

---

(١) هوَ الإمامُ الحَافِظُ زَيْنُ الدِّينِ عبدُ الرَّحِيمِ العِرَاقِيُّ، وُلد سنة خمس وعشرين وسبعمائة للهجرة، واشتَغَلَ بالعُلُومِ، وأَحَبَّ الحديثَ، فأكْثَرَ مِنَ السَّمَاعِ، وتقدَّم في فَنِّ الحدِيثِ بِحَيْثُ كان شُيُوخُ عَصْرِهِ يُبَالِغُونَ في الثَّناء عليه بالمَعْرِفَةِ.
لهُ نَظْمٌ في السِّيرة النَّبويَّة فِي أَلْفِ بَيْتٍ.
تُوُفِّي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ سنة ست وثمانمائة للهجرة. انظر شذرات الذهب (٩/٨٧).

(٢) هوَ الإمامُ الحافِظُ الحُجَّةُ عبدُ المُؤْمِنِ بنُ خَلَفٍ الدِّمْيَاطِي الشَّافعي، وُلِدَ في آخر سنة ثلاث عشرة وستمائة للهجرة، وتَفَقَّهَ بِدِمْيَاطَ وبَرَع، ثم طلبَ الحديث، وكتب العَالِي والنَّازل، وجمعَ فأوْعَىٰ، وكان صَادقًا حافظًا متقنًا، توفي سنة خمس وسبعمائة للهجرة.
له مُصنَّفاتٌ نَفِيسَةٌ، منها: «السِّيرة النَّبوِيَّة»، في مجلدٍ، وغَيرها. انظر تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي (٤/١٤٧٧).

(٣) الذي ذَكَرَهُ هوَ أَنَّ رسول الله ﷺ كان في غزوَةِ حُنين علىٰ بَغْلَته المعروفة باسم: «دُلْدُل»، وهو قولُ ابنِ سعدٍ في طبقاته، والصَّحيح أَنَّ البَغْلَةَ التي كان رسول الله ﷺ=

وكُنْتُ حِينَئِذٍ سِيرِيًّا مَحْضًا، وكَانَ يَنْبَغِي لَنَا أنْ نَذْكُرَ الخِلَافَ.

وعَلَّقَ الحَافِظُ في الفَتْحِ عَلَىٰ كَلَامِ الحَافِظِ الدِّمْيَاطِيِّ بِقَوْلِهِ:

ودَلَّ قَوْلُ الدِّمْيَاطِيِّ أَنَّهُ كانَ يَعْتَقِدُ الرُّجُوعَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا وَافَقَ فِيهِ أَهْلَ السِّيَرِ، وخَالَفَ الأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ، وأَنَّ ذَلِكَ كانَ مِنْهُ قَبْلَ أنْ يَتَضَلَّعَ(١) مِنَ الأحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، ولِخُرُوجِ نُسَخٍ مِنْ كِتَابِهِ وانْتِشَارِهِ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ تَغْيِيرِهِ(٢).

وقَدْ تَتَبَّعْتُ السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ قُرَابَةَ العَشْرِ سَنَوَاتٍ، وقَرَأْتُ خِلَالَهَا كَثِيرًا مِنْ كُتُبِ السِّيَرِ والمَغَازِي، وكُتُبِ الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، حَتَّىٰ مَيَّزْتُ كَثِيرًا مِنَ الحَوَادِثِ الصَّحِيحَةِ والحَسَنَةِ عَنِ الضَّعِيفَةِ، وحَرِصْتُ كُلَّ الحِرْصِ عَلَىٰ بَيَانِ مَعْنَىٰ الكَلِمَاتِ التِي قَدْ يَصْعُبُ فَهْمُهَا مِنْ كُتُبِ اللُّغَةِ المُعْتَمَدَةِ، كَلِسَانِ العَرَبِ، والقَامُوسِ المُحِيطِ، وأَمَّا الأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ، وكَذَلِكَ الحَوَادِثُ التَّارِيخِيَّةُ التِي ذُكِرَتْ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ كانَ حُكْمِي عَلَيْهَا مِنْ نَاحِيَةِ الصِّحَّةِ والضَّعْفِ هُوَ مِنْ خِلَالِ حُكْمِ العُلَمَاءِ عَلَىٰ هَذِهِ الأَحَادِيثِ والحَوَادِثِ، وبَعْضُهَا لَمْ أَجِدْ مَنْ حَكَمَ عَلَيْهَا فتَرَكْتُهَا عَلَىٰ حَالِهَا، وعَزَوْتُهَا إِلَىٰ مَصْدَرِهَا.

= عليها في غزوة حُنين هي البغلةُ التي أهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بنُ نُفَاثَةَ الجُذَامِيُّ، كما روىٰ ذلك الإمام مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (١٧٧٥) (٧٦)، وسيأتي تفصيل ذلك في غَزْوَة حُنَين إن شاء الله.

(١) يُقال: فُلان مُضْطَلِعٌ بهذَا الأمْرِ: أي قَوِيٌّ عَليه. انظر لسان العرب (٨/٨٧).

(٢) انظر فتح الباري (٨/٣٤٨).

ولَا يَسَعُنِي فِي هَذَا المَقَامِ إِلَّا أَنْ أَشْكُرَ كُلًّا مِنْ:

١ ـ الدُّكْتُور مُحَمَّد الشَّطِّي.

٢ ـ الدُّكْتُور خَالِد الصَّافِي.

٣ ـ الشَّيْخ سَالِم خَلِيفَة الهَوَّاش.

٤ ـ الأُسْتَاذ مُحَمَّد كُوهية.

٥ ـ الأَخ يَزِيد القَطَّان.

٦ ـ الأَخ مُهَنَّد الخَارْجِي.

عَلَىٰ مَا قَدَّمُوهُ لِي مِنْ مُلَاحَظَاتٍ هَامَّةٍ، وأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي هَذَا خَالِصًا لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وأَنْ لَا يَحْرِمَنِي الأَجْرَ، وأَنْ يَنْفَعَ بِهِ عَامَّةَ المُسْلِمِينَ، إِنَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرٌ، وبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ، وآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وصَلَّىٰ اللهُ وسَلَّمَ وبَارَكَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وعَلَىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وكتبه

موسى بن راشد العازمي

١٢ ربيع الآخر ١٤٣١هـ

٢٠١٠/٣/٢٨

الكويت

قَالُوا فِي أهَمِّيَّةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

قالَ زَيْنُ العَابِدِينَ عَلِيُّ بنُ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ: كُنَّا نُعَلَّمُ مَغَازِي رَسُولِ اللهِ ﷺ وَسَرَايَاهُ، كَمَا نُعَلَّمُ السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ(١).

وقَالَ الإمَامُ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: فِي عِلْمِ المَغَازِي عِلْمُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ(١).

وقَالَ إسْمَاعِيلُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ: كانَ أَبِي يُعَلِّمُنَا مَغَازِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، ويَقُولُ: يَا بَنِيَّ هَذِهِ مَآثِرُ آبَائِكُمْ، فَلَا تُضَيِّعُوا ذِكْرَهَا(١).

وقَالَ الخَطِيبُ البَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: تَتَعَلَّقُ بِمَغَازِي رسُولِ اللهِ ﷺ أحْكَامٌ كَثِيرَةٌ، فَيَجِبُ كَتْبُهَا والحِفْظُ لَهَا(١).

وقَالَ الإمَامُ ابْنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وأَصْلُ الأُصُولِ العِلْمُ، وأَنْفَعُ العُلُومِ النَّظَرُ فِي سِيَرِ الرَّسُولِ ﷺ وأَصْحَابِهِ، قالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾(٢).

(١) انظر الجامع لأخلاق الرواي وآداب السامع (٢/٢٨٧ ـ ٢٨٨) للخطيب البغدادي.

(٢) سورة الأنعام آية (٩٠) ـ وانظر كلام ابن الجوزي في صيد الخاطر ص ١٢٧.

وقالَ الشَّيْخُ عَلِي الطَّنْطَاوِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ رَبِّ أُسْرَةٍ أَنْ يَكُونَ في بَيْتِهِ كِتَابٌ جَامِعٌ مِنْ كُتُبِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وأَنْ يَقْرَأَ فِيهِ دَائِمًا، وأَنْ يَتْلُوَ مِنْهُ عَلَىٰ أَهْلِهِ وأَوْلَادِهِ، وأَنْ يَجْعَلَ لِذَلِكَ سَاعَةً كُلَّ يَوْمٍ، لِيَنْشَؤُوا عَلَىٰ مَعْرِفَةِ سِيرَةِ الرَّسُولِ الأَعْظَمِ ﷺ، فَإِنَّ سِيرَتَهُ اليَنْبُوعُ الصَّافِي لِطَالِبِ الفِقْهِ، والدَّلِيلُ الهَادِي لِبَاغِي الصَّلَاحِ، والمَثَلُ الأَعْلَىٰ لِلأُسْلُوبِ البَلِيغِ، والدُّسْتُورُ الشَّامِلِ لِكُلِّ شُعَبِ الخَيْرِ[1].

وقالَ أَيْضًا الشَّيْخُ عَلِي رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ فِي السِّيرَةِ يَا أَيُّهَا الإخْوَانُ قِصَصًا كَامِلَةً، فِيهَا كُلُّ مَا يَشْتَرِطُ أَهْلُ القَصَصِ مِنَ العَنَاصِرِ الفَنِّيَّةِ، وفِيهَا فَوْقَ ذَلِكَ الصِّدْقُ، وفِيهَا العِبْرَةُ[2].

وقالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَنِ النَّدْوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: إنَّ السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ وسِيَرَ الصَّحَابَةِ وتَارِيخَهُمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مِنْ أَقْوَىٰ مَصَادِرِ القُوَّةِ الإِيمَانِيَّةِ والعَاطِفَةِ الدِّينِيَّةِ، التِي لا تَزَالُ هَذِهِ الأُمَّةُ والدَّعَوَاتُ الدِّينِيَّةُ تَقْتَبِسُ مِنْهَا شُعْلَةَ الإِيمَانِ وتَشْتَعِلُ بهَا مَجَامِرُ القُلُوبِ، التِي يُسْرِعُ انْطِفَاؤُهَا وخُمُودُهَا في مَهَبِّ الرِّيَاحِ والعَوَاصِفِ المَادِيَّةِ، والتِي إِذَا انْطَفَأَتْ فَقَدَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ قُوَّتَهَا ومِيزَتَهَا وتَأْثِيرَهَا وأَصْبَحَتْ جُثَّةً هَامِدَةً تَحْمِلُهَا الحَيَاةُ عَلَىٰ أَكْتَافِهَا[3].

---

(١) انظر كتاب رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي ص ٢١.

(٢) انظر ذكريات الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ (١٢٧/٦).

(٣) انظر كتاب حياة الصحابة للشيخ الإمام العلامة محمد يوسف الكاندهلوي (١٥/١).

وقَالَ الدُّكْتُور مُحَمَّد أبُو شَهْبَه رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى: إنَّ خَيْرَ مَا يَتَدارَسُهُ المُسْلِمُونَ، ولَا سِيَّمَا النَّاشِئُونَ والمُتَعَلِّمُونَ، ويُعْنَىٰ بِهِ البَاحِثُونَ والكاتِبُونَ دِرَاسَةُ السِّيرَةِ المُحَمَّدِيَّةِ، إذْ هِيَ خَيْرُ مُعَلِّمٍ وَمُثَقِّفٍ، ومُهَذِّبٍ، ومُؤَدِّبٍ، وآصَلُ مَدْرَسَةٍ تَخَرَّجَ فِيهَا الرَّعِيلُ الأوَّلُ مِنَ المُسْلِمِينَ والمُسْلِمَاتِ، الذِينَ قَلَّمَا تَجُودُ الدُّنْيَا بِأَمْثَالِهِمْ، فَفِيهَا ما يَنْشُدُهُ المُسْلِمُ، وطَالِبُ الكَمَالِ مِنْ دِينٍ، ودُنْيَا، وإيمَانٍ واعْتِقَادٍ، وعِلْمٍ، وعَمَلٍ، وآدَابٍ وأَخْلَاقٍ، وسِيَاسَةٍ وكَيَاسَةٍ[1]، وإمَامَةٍ وقِيَادَةٍ، وعَدْلٍ، ورَحْمَةٍ، وبُطُولَةٍ وكِفَاحٍ، وجِهَادٍ واسْتِشْهَادٍ في سَبِيلِ العَقِيدَةِ والشَّرِيعَةِ، والمُثُلِ الإنْسَانِيَّةِ الرَّفِيعَةِ، والقِيَمِ الخُلُقِيَّةِ الفَاضِلَةِ.

ولَقَدْ كَانَتِ السِّيرَةُ النَّبَوِيَّـةُ مَدْرَسَةً تَخَرَّجَ فِيهَا أَمْثَلُ النَّمَاذِجِ البَشَرِيَّةِ، وهُمُ الصَّحَابَةُ الكِرَامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ أجْمَعِينَ، فَكَانَ مِنْهُمُ: الخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ، والقَائِدُ المُحَنَّكُ، والبَطَلُ المِغْوَارُ، والسِّيَاسِيُّ الدَّاهِيَةُ، والعَبْقَرِيُّ المُلْهَمُ، والعَالِمُ العَامِلُ، والفَقِيهُ البَارِعُ، والعَاقِلُ الحَازِمُ، والحَكِيمُ الذِي تَتَفَجَّرُ مِنْ قَلْبِهِ يَنَابِيعُ العِلْمِ والحِكْمَةِ، والتَّاجِرُ الذِي يُحَوِّلُ رِمَالَ الصَّحْرَاءِ ذَهَبًا، والزَّارِعُ والصَّانِعُ اللَّذَانِ يَرَيَانِ في العَمَلِ عِبَادَةً، والكَادِحُ الذِي يَرَىٰ فِي الاحْتِطَابِ عَمَلًا شَرِيفًا يَتَرَفَّعُ بِهِ عَنِ التَّكَفُّفِ والتَّسَوُّلِ، والغَنِيُّ الشَّاكِرُ الذِي يَرَىٰ نَفْسَهُ مُسْتَخْلَفًا في هَذَا المَالِ يُنْفِقُهُ في الخَيْرِ والمَصْلَحَةِ العَامَّةِ، والفَقِيرُ الصَّابِرُ الذِي يَحْسَبُهُ مَنْ لَا يَعْلَمُ حَالَهُ غَنِيًّا مِنَ التَّعَفُّفِ، وكُلُّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ ثَمَرَاتِ الإيمَانِ باللهِ، وبِرَسُولِهِ ﷺ،

(١) الكَيْسُ: بفتح الكاف وسكون الياء: هو العَقْلُ. انظر النهاية (٤/١٨٨).

وبهَذَا كَانُوا الأمَّةَ الوَسَطَ، وكانُوا خَيْرَ أمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ[1].

وقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّد الغَزَالِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: إنَّ حَيَاةَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَتْ بالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِ مَسْلَاةَ شَخْصٍ فَارِغٍ، أَوْ دِرَاسَةَ نَاقِدٍ مُحَايِدٍ، كَلَّا كَلَّا إنَّهَا مَصْدَرُ الأُسْوَةِ الحَسَنِة التِي يَقْتَفِيهَا، ومَنْبَعُ الشَّرِيعَةِ العَظِيمَةِ التِي يَدِينُ بِهَا، فَأَيُّ حَيْفٍ فِي عَرْضِ هذِهِ السِّيرَةِ، وأَيُّ خَلْطٍ في سَرْدِ أَحْدَاثِهَا إسَاءَةٌ بَالِغَةٌ إلَىٰ حَقِيقَةِ الإيمَانِ نَفْسِهِ... إنَّنِي أَكْتُبُ في السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ كمَا يَكْتُبُ جُنْدِيٌّ عنْ قَائِدِهِ، أَوْ تَابعٌ عَنْ سَيِّدِهِ، وتِلْمِيذٌ عَنْ أُسْتَاذِهِ.. إنَّ المُسْلِمَ الذِي لا يَعِيشُ الرَّسُولُ ﷺ في ضَمِيرِهِ، ولا تَتْبَعُهُ بَصِيرَتُهُ في عَمَلِهِ وتَفْكِيرِهِ لا يُغْنِي عَنْهُ أَبَدًا أَنْ يُحَرِّكَ لِسَانَهُ بِأَلْفِ صَلَاةٍ فِي اليَوْمِ واللَّيْلَةِ[2].

** ** **

(١) انظر السِّيرة النَّبوِيَّة في ضوء الكتاب والسنة للدكتور محمد أبو شهبة رَحِمَهُ اللهُ (١/٧ - ٨).

(٢) انظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ٥.

مَزَايَا السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

تَجْمَعُ السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ عِدَّةَ مزايا تجعَلُ دِراسَتَهَا مُتْعَةً رُوحِيَّةً وعَقْلِيَّةً وتَارِيخِيَّةً، كمَا تَجْعَلُ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ ضَرُورِيَّةً لِعُلَمَاءِ الشَّرِيعَةِ، والدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، والمُهْتَمِّينَ بالإِصْلَاحِ الاجْتِمَاعِيِّ، لِيَضْمَنُوا إِبْلَاغَ الشَّرِيعَةِ إِلَىٰ النَّاسِ بأُسْلُوبٍ يَجْعَلُهُمْ يَرَوْنَ فِيهَا المَثَلَ الأَعْلَىٰ عِنْدَ اضْطِرَابِ السُّبُلِ واشْتِدَادِ العَوَاصِفِ، ولِتَتَفَتَّحَ أَمَامَ الدُّعَاةِ قُلُوبَ النَّاسِ وأَفْئِدَتَهُمْ، ويَكُونَ الإِصْلَاحُ الذِي يَدْعُو إِلَيْهِ المُصْلِحُونَ، أَقْرَبَ نَجَاحًا وأَكْثَرَ سَدَادًا.

۞ ونُجْمِلُ فِيمَا يَلِي أَبْرَزَ مَزَايَا السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ:

أَوَّلًا: إِنَّها أَصَحُّ سِيرَةٍ لِتَارِيخِ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ عَظِيمٍ مُصْلِحٍ فَقَدْ وَصَلَتْ إِلَيْنَا سِيرَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ أَصَحِّ الطُّرُقِ العِلْمِيَّةِ وأَقْوَاهَا ثُبُوتًا، مِمَّا لا يَتْرُكُ مَجَالًا لِلشَّكِّ في وَقَائِعِهَا البَارِزَةِ وأَحْدَاثِهَا الكُبْرَىٰ، ومِمَّا يُيَسِّرُ لَنَا مَعْرِفَةَ مَا أُضِيفَ إِلَيْهَا في العُصُورِ المُتَأَخِّرَةِ مِنْ أَحْدَاثٍ أَوْ مُعْجِزَاتٍ أَوْ وَقَائِعَ أَوْحَىٰ بِهَا العَقْلُ الجَاهِلُ الرَّاغِبُ في زِيَادَةِ إِضْفَاءِ الصِّفَةِ المُدْهِشَةِ عَلَىٰ رسُولِ اللهِ ﷺ أَكْثَرَ مِمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ مِنْ جَلَالِ المَقَامِ وقُدْسِيَّةِ الرِّسَالَةِ، وعَظَمَةِ السِّيرَةِ.

قَالَ الإِمَامُ الذَّهَبِيُّ: ...فَبِاللهِ عَلَيْكَ، إِذَا كَانَ الإِكْثَارُ مِنَ الحَدِيثِ فِي دَوْلَةِ عُمَرَ ﷺ، كَانُوا يُمْنَعُونَ مِنْهُ[١]، مَعَ صِدْقِهِمْ وَعَدَالَتِهِمْ وَعَدَمِ الأَسَانِيدِ، بَلْ هُوَ غَضٌّ لَمْ يُشَبْ، فَمَا ظَنُّكَ بِالإِكْثَارِ مِنْ رِوَايَةِ الغَرَائِبِ وَالمَنَاكِيرِ فِي زَمَانِنَا مَعَ طُولِ الأَسَانِيدِ، وَكَثْرَةِ الوَهْمِ وَالغَلَطِ، فَبِالحَرِيِّ أَنْ نَزْجُرَ القَوْمَ عَنْهُ، فَيَا لَيْتَهُمْ يَقْتَصِرُونَ عَنْ رِوَايَةِ الغَرِيبِ وَالضَّعِيفِ، بَلْ يَرْوُونَ ـ وَاللهِ ـ المَوْضُوعَاتِ وَالأَبَاطِيلَ، وَالمُسْتَحِيلَ فِي الأُصُولِ وَالفُرُوعِ، وَالمَلَاحِمِ وَالزُّهْدِ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ.

فَمَنْ رَوَى ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِ بِبُطْلَانِهِ، وَغَرَّ المُؤْمِنِينَ، فَهَذَا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، جَانٍ عَلَى السُّنَنِ وَالآثَارِ، يُسْتَتَابُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنْ أَنَابَ وَأَقْصَرَ، وَإِلَّا فَهُوَ فَاسِقٌ، كَفَى بِهِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ، وَإِنْ هُوَ لَمْ يَعْلَمْ، فَلْيَتَوَرَّعْ، وَلْيَسْتَعِنْ بِمَنْ يُعِينُهُ عَلَى تَنْقِيَةِ مَرْوِيَّاتِهِ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ[٢].

ثَانِيًا: إِنَّ حَيَاةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ واضِحَةٌ كُلَّ الوُضُوحِ في جَمِيعِ مَرَاحِلِهَا، مُنْذُ زَوَاجِ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ بِأُمِّهِ آمِنَةَ إِلَىٰ وَفَاتِهِ ﷺ، فَنَحْنُ نَعْرِفُ الشَّيْءَ الكَثِيرَ عَنْ وِلَادَتِهِ، وطُفُولَتِهِ، وشَبَابِهِ، ومَكْسَبِهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، ورَحَلَاتِهِ خَارِجَ مَكَّةَ،

(١) كانوا يمنعون من رواية الحديث في خلافة عمر ﷺ لسببين:
١ ـ السبب الأول: اتساع الدولة الإسلامية في زمن عمر ﷺ، فحتى لا ينشغل أهل البلاد المفتوحة بالحديث دون القرآن.
٢ ـ السبب الثاني: أنهم كانوا يمنعون من رواية الرقائق والمواعظ، دون أحاديث الأحكام والعبادات.
وأخرج نهي عمر بن الخطاب ﷺ عن الإقلال في رواية الحديث: ابن ماجه في سننه ـ رقم الحديث (٢٨) ـ والحاكم في المستدرك ـ رقم الحديث (٣٥٣) ـ وإسناده صحيح.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/٦٠١ ـ ٦٠٢).

إلَىٰ أنْ بَعَثَهُ اللهُ رَسُولًا كَرِيمًا، ثُمَّ نَعْرِفُ بِشَكْلٍ أدَقَّ وَأوْضَحَ وأكْمَلَ كُلَّ أحْوَالِهِ بَعْدَ ذَلِكَ سَنَةً فَسَنَةً، مِمَّا يَجْعَلُ سِيرَتَهُ ﷺ وَاضِحَةً وُضُوحَ الشَّمْسِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ النُّقَّادِ الغَرْبِيِّينِ: إنَّ مُحَمَّدًا ـ ﷺ ـ هُوَ الوَحِيدُ الذِي وُلِدَ عَلَىٰ ضَوْءِ الشَّمْسِ.

وهَذَا مَا لَمْ يَتَيَسَّرْ مِثْلُهُ ولا قَرِيبٌ مِنْهُ لِرَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، فَمُوسَىٰ عَليهِ السَّلامُ لا نَعْرِفُ شَيْئًا قَطُّ عَنْ طُفُولَتِهِ وشَبَابِهِ وطُرُقِ مَعِيشَتِهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، ونَعْرِفُ الشَّيْءَ القَلِيلَ عَنْ حَيَاتِهِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ، مِمَّا لا يُعْطِينَا صُورَةً مُكْتَمِلَةً لِشَخْصِيَّتِهِ، ومِثْلُ ذَلِكَ يُقَالُ فِي عِيسَىٰ عَلَيهِ السَّلامُ، وغَيْرِهِمْ مِنَ الأنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَأَيْنَ هَذَا مِمَّا تَذْكُرُهُ مَصَادِرُ السِّيرَةِ الصَّحِيحَةِ مِنْ أدَقِّ التَّفَاصِيلِ فِي حَيَاةِ رَسُولِنَا ﷺ الشَّخْصِيَّةِ، كَأَكْلِهِ[1]، وقِيَامِهِ وقُعُودِهِ[2]، ولِبَاسِهِ[3]، وشَكْلِهِ[4]،..........................

(١) روىٰ الإمام مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٢٠٣٢) عن ابن كعب بن مالك، عن أبيه قال: رأيت النبي ﷺ يَلْعَقُ ـ أي يلحسُ ـ أصابعَهُ الثَّلاث من الطعام.
وروىٰ الإمام البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٥٣٩٨) عن أبي جحيفة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**إنِّي لا آكُلُ مُتَّكِئًا**».

(٢) روىٰ الإمام البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٤٧٥) ـ ومسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٢١٠٠) ـ عن عبّاد بن تميم، عن عمه: أنه رأىٰ رسول اللهِ ﷺ مُسْتَلْقِيًا في المسجد وَاضِعًا إحْدَىٰ رِجْلَيْهِ علىٰ الأخرىٰ.

(٣) روىٰ الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٧١١٧) ـ بسند صحيح عن أبي رِمثة قال: رأيت رسول الله ﷺ، وعليه بُرْدَانِ أخْضَرَانِ.

(٤) روىٰ الإمام البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٣٥٤٨) ـ ومسلم في صحيحه ـ رقم=

وهَيْئَتِهِ، ومَنْطِقِهِ[1]، ومُعَامَلَتِهِ لِأُسْرَتِهِ[2]، وتَعَبُّدِهِ، وصَلَاتِهِ[3]، ومُعَاشَرَتِهِ لِأَصْحَابِهِ[4]، بَلْ بَلَغَتِ الدِّقَّةُ في رُوَاةِ سِيرَتِهِ ﷺ أَنْ يَذْكُرُوا لنَا عَدَدَ الشَّعَرَاتِ

= الحديث (٢٣٤٧) ـ عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ لَيْسَ بالطَّوِيلِ البَائِنِ، ولا بالقصيرِ، ولا بالأبيض الأمْهَقِ، ولا بالآدَمِ، ولا بالجَعْدِ القَطَطِ، ولا بالسَّبْطِ.

(١) المَنْطِقُ: هو الكَلَامُ. انظر لسان العرب (١٤/١٨٨).

روىٰ الإمام البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٣٥٦٨) ـ ومسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٢٤٩٣) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: ...إن رسول الله ﷺ لم يَكُنْ يَسْرُدُ الحديثَ كَسَرْدِكُمْ.

وروىٰ الإمام البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٩٥) عن أنس بن مالك ﷺ قال: كانَ رسُولُ الله ﷺ إذا تَكَلَّمَ بكَلِمَةٍ أعَادَهَا ثلاثًا حتىٰ تُفْهَمَ عَنْهُ.

قال ابن المُنيّر فيما نقله عنه الحافظ في الفتح (١/٢٥٥): والحقُّ أنَّ هذا يختلِفُ باختِلافِ القَرَائِحِ، فلا عَيْبَ علىٰ المُسْتَفِيدِ الذِي لا يَحْفَظُ مِنْ مرَّةٍ إذا اسْتَعَادَ، ولا عُذْرَ للمُفِيدِ إذا لَمْ يُعِدْ بلِ الإعَادَةُ عليه آكَدُ منَ الابْتِدَاءِ؛ لأنَّ الشُّرُوعَ مُلْزِمٌ.

(٢) روىٰ الإمام أحمد في المسند بسند جيدٍ ـ رقم الحديث (٢٦٢٧٧) ـ عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: خرجتُ مع النبي ﷺ في بعضِ أسْفَارِهِ وأنا جَارِيَةٌ لم أحْمِلِ اللَّحْمَ ولم أبْدُنْ، فقال ﷺ للناس: «**تَقَدَّمُوا**»، فتقدَّموا، ثم قال لي: «**تَعَالَي حتَّىٰ أُسَابِقَكِ**». فسَابَقْتُهُ فسَبَقْتُهُ، فسَكَتَ عَنِّي، حتىٰ إذا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وبَدُنْتُ ونَسِيتُ، خرجتُ معهُ في بَعْضِ أسْفَارِهِ، فقال ﷺ للناسِ: «**تقَدَّمُوا**» فتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قال: «**تَعَالَيْ حتىٰ أُسَابِقَكِ**»، فسَابَقْتُهُ، فسَبَقَنِي، فجعَلَ يَضْحَكُ، وهُوَ يَقُولُ: «**هذِهِ بِتِلْكَ**».

(٣) روىٰ الإمام البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (١١٣٠) ـ ومسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٢٨١٩) ـ عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: أن النبي ﷺ صلَّى حتىٰ انْتَفَخَتْ قدَمَاهُ، فقِيلَ لهُ: أتَكَلَّفُ هذا؟ وقَدْ غفرَ الله لك ما تَقَدَّم من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ. قال: «**أفلا أكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**».

(٤) روىٰ الإمام البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٦١٢٩) ـ ومسلم في صحيحه ـ رقم=

البِيضِ في رَأْسِهِ ولِحْيَتِه[1] ﷺ.

ثَالِثًا: إنَّ سِيرَةَ رسُولِ اللهِ ﷺ تَحْكِي سِيرَةَ إنْسَانٍ أكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بالرِّسَالَةِ، فَلَمْ تُخْرِجْهُ عَنْ إنْسَانِيَّتِهِ، فَقَدْ تَزَوَّجَ وطَلَّقَ، ورَضِيَ وغَضِبَ، وبَاعَ واشْتَرَىٰ، هُوَ إنْسَانٌ بِكُلِّ ما فِي هَذِهِ الكَلِمَةِ مِنْ مَعْنًىٰ يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ قُدْوَةً لِمَنْ أرَادَ ذَلِكَ، ولَمْ تَلْحَقْ حَيَاتَهُ ﷺ بِالأَسَاطِيرِ، ولَمْ تُضِفْ عَلَيْهِ الأُلُوهِيَّةَ قَلِيلًا ولا كَثِيرًا، وإذَا قَارَنَّا هَذَا بِمَا يَرْوِيهِ المَسِيحِيُّونَ عنْ سِيرَةِ عِيسَىٰ عَليهِ السَّلامُ، ومَا يَرْوِيهِ البُوذِيُّونَ عَنْ بُوذَا، والوَثَنِيُّونَ عن آلِهَتِهِمْ المَعْبُودَةِ، اتَّضَحَ لنَا الفَرْقُ جَلِيًّا بَيْنَ سِيرَتِهِ ﷺ وسِيرَةِ هَؤُلَاءِ، ولِذَلِكَ أثَرٌ بَعِيدُ المَدَىٰ في السُّلُوكِ الإنْسَانِيِّ والاجْتِمَاعِيِّ لِأَتْبَاعِهِمْ، فَادِّعَاءُ الأُلُوهِيَّةِ لِعِيسَىٰ عَلَيهِ السَّلامُ، ولِبُوذَا جَعَلَهُمَا أبْعَدَ مَنَالًا مِنْ أنْ يَكُونَا قُدْوَةً نَمُوذَجِيَّةً للإنْسَانِ في حَيَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ والاجْتِمَاعِيَّةِ، بَيْنَمَا ظَلَّ وسَيَظَلُّ مُحَمَّدٌ ﷺ المَثَلَ النَّمُوذَجِيَّ الإنْسَانِيَّ الكَامِلَ لِكُلِّ مَنْ أرَادَ أنْ يَعِيشَ سَعِيدًا كَرِيمًا في نَفْسِهِ وأُسْرَتِهِ وبِيئَتِهِ، ومِنْ هُنَا يقُولُ اللهُ

= الحديث (٢١٥٠) - عن أنس بن مالك ﷺ قال: إنْ كانَ النبيُّ ﷺ لَيُخَالِطُنَا حتىٰ يَقُولَ لأَخٍ لي صَغِيرٍ: «**يا أَبَا عُمَيْر ما فَعَل النُّغَيْر**».

وروىٰ الإمام أحمد في المسند - رقم الحديث (٨٤٨١) - والترمذي في جامعه - رقم الحديث (٢١٠٨) بسند قوي - عن أبي هريرة ﷺ قال: قالوا: يا رسول الله، إنَّك تُدَاعِبُنَا، قال: «**إنِّي لا أقُولُ إلَّا حَقًّا**».

(١) روىٰ الإمام أحمد في المسند - رقم الحديث (١٢٦٩٠) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٦٢٩٣) بسند صحيح - عن أنس بن مالك ﷺ قال: ما عَدَدْتُ في رأسِ رسُولِ اللهِ ﷺ ولِحْيَتِهِ، إلَّا أرْبَع عَشْرَةَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ.

تَعَالَىٰ في كِتَابِهِ الكَرِيمِ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(١).

رَابِعًا: إنَّ سِيرَةَ الرَّسُولِ ﷺ شَامِلَةٌ لِكُلِّ النَّوَاحِي الإنْسَانِيَّةِ في الإنْسَانِ، فَهِيَ تَحْكِي لنَا سِيرَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ الشَّابِّ الأمِينِ المُسْتَقِيمِ قَبْلَ أَنْ يُكْرِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالرِّسَالَةِ، كمَا تَحْكِي لَنَا سِيرَةَ رسُولِ الله ﷺ الدَّاعِيَةِ إلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ المُتَلَمِّسِ أَجْدَىٰ الوَسَائِلِ لِقَبُولِ دَعْوَتِهِ، البَاذِلِ مُنْتَهَىٰ طَاقَتِهِ وجُهْدِهِ في إبْلَاغِ رِسَالَتِهِ، كمَا تَحْكِي لنَا سِيرَتَهُ ﷺ كَرَئِيسِ دَوْلَةٍ يَضَعُ لِدَوْلَتِهِ أَقْوَمَ النُّظُمِ وأَصَحَّهَا، ويَحْمِيهَا بِيَقْظَتِهِ وإخْلَاصِهِ وصِدْقِهِ بمَا يَكْفُلُ لَهَا النَّجَاحَ، كمَا تَحْكِي لنَا سِيرَةَ الرَّسُولِ الزَّوْجِ والأَبِ في حُنُوِّ العَاطِفَةِ، وحُسْنِ المُعَامَلَةِ، والتَّمْيِيزِ الوَاضِحِ بَيْنَ الحُقُوقِ والوَاجِبَاتِ لِكُلٍّ مِنَ الزَّوْجِ والزَّوْجَةِ والأَوْلَادِ، كمَا تَحْكِي لَنَا سِيرَةَ الرَّسُولِ المُرَبِّي المُرْشِدِ الذِي يُشْرِفُ عَلَىٰ تَرْبِيَةِ أَصْحَابِهِ تَرْبِيَةً مِثَالِيَّةً يَنْقُلُ مِنْ رُوحِهِ إلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ، ومِنْ نَفْسِهِ إلَىٰ نُفُوسِهِمْ، ما يَجْعَلُهُمْ يُحَاوِلُونَ الاِقْتِدَاءَ بِهِ في دَقِيقِ الأُمُورِ وكَبِيرِهَا، كمَا تَحْكِي لنَا سِيرَةَ الرَّسُولِ ﷺ الصَّدِيقِ الذِي يَقُومُ بِوَاجِبَاتِ الصُّحْبَةِ، ويَفِي بِالْتِزَامَاتِهَا وآدَابِهَا، مِمَّا يَجْعَلُ أَصْحَابَهُ يُحِبُّونَهُ كَحُبِّهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ(٢) وأَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِمْ لِأَهْلِيهِمْ وأَقْرِبَائِهِمْ، وسِيرَتُهُ ﷺ تَحْكِي لنَا

---

(١) سورة الأحزاب آية (٢١).

(٢) روىٰ الإمام البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٦٣٣٢) ـ عن عبد الله بن هشام قال: كنّا مع النبي ﷺ وهو آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ، فقال له عُمَرُ ﷺ: يا رسولَ الله لأنْتَ أَحَبُّ إليّ منْ كُلِّ شَيْءٍ، إلا نَفْسِي، فقال له النبي ﷺ: «لا والذِي=

سِيرَةَ المُحَارِبِ الشُّجَاعِ، والقَائِدِ المُنْتَصِرِ، والسِّيَاسِيِّ النَّاجِحِ، والجَارِ الأَمِينِ، والمُعَاهِدِ الصَّادِقِ.

وخُلَاصَةُ القَوْلِ: إنَّ سِيرَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ النَّوَاحِي الإنْسَانِيَّةِ في المُجْتَمَعِ، مِمَّا يَجْعَلُهُ القُدْوَةَ الصَّالِحَةَ لِكُلِّ دَاعِيَةٍ، وكُلِّ قَائِدٍ، وكُلِّ أَبٍ، وكُلِّ زَوْجٍ، وكُلِّ صَدِيقٍ، وكُلِّ مُرَبِّي، وكُلِّ سِيَاسِيٍّ، وكُلِّ رَئِيسِ دَوْلَةٍ، وهَكَذَا....

خَامِسًا: إنَّ سِيرَةَ النَّبِيِّ ﷺ تُعْطِينَا الدَّلِيلَ الذِي لَا رَيْبَ فِيهِ عَلَىٰ صِدْقِ رِسَالَتِهِ ونُبُوَّتِهِ، إنَّهَا سِيرَةُ إنْسَانٍ كَامِلٍ سَارَ بِدَعْوَتِهِ مِنْ نَصْرٍ إلَىٰ نَصْرٍ، لَا عَلَىٰ طَرِيقِ الخَوَارِقِ والمُعْجِزَاتِ، بلْ عَنْ طَرِيقٍ طَبِيعِيٍّ بَحْتٍ، فَلَقَدْ دَعَا فَأُوذِيَ، وبَلَّغَ فَأَصْبَحَ لَهُ الأنْصَارُ، واضْطُرَّ إلَىٰ الحَرْبِ فَحَارَبَ، وكَانَ حَكِيمًا، مُوَفَّقًا فِي قِيَادَتِهِ، فَمَا أَزِفَتْ سَاعَةُ وَفَاتِهِ ﷺ، إلَّا كَانَتْ دَعْوَتُهُ تَلُفُّ الجَزِيرَةَ العَرَبِيَّةَ كُلَّهَا عَنْ طَرِيقِ الإيمَانِ، لا عَنْ طَرِيقِ القَهْرِ والغَلَبَةِ، ومَنْ عَرَفَ مَا كَانَ عَلَيْهِ العَرَبُ مِنْ عَادَاتٍ وعَقَائِدَ ومَا قَاوَمُوا بِهِ دَعْوَتَهُ مِنْ شَتَّىٰ أَنْوَاعِ المُقَاوَمَةِ حَتَّىٰ تَدْبِيرِ اغْتِيَالِهِ، ومَنْ عَرَفَ عَدَمَ التَّكَافُؤِ بَيْنَهُ وبَيْنَ مُحَارِبِيهِ في كُلِّ مَعْرَكَةٍ انْتَصَرَ فِيهَا، ومَنْ عَرَفَ قِصَرَ المُدَّةِ التِي اسْتَغْرَقَتْهَا رِسَالَتُهُ حَتَّىٰ وَفَاتِهِ، وهِيَ ثَلَاثٌ وعِشْرُونَ سَنَةً، أَيْقَنَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رسُولُ اللهِ حَقًّا، وأَنَّ ما كَانَ يَمْنَحُهُ اللهُ تَعَالَىٰ

= نَفْسِي بِيَدِهِ حتَّىٰ أَكُونَ أحبَّ إليكَ مِنْ نَفْسِكَ»، فقال عمر رضي الله عنه: فأنَّه الآنَ واللهِ لَأَنْتَ أحَبُّ إليّ مِنْ نَفْسِي، فقال لهُ النبي ﷺ: «الآنَ يا عُمَرُ».

مِنْ ثَبَاتٍ وَقُوَّةٍ وتَأْثِيرٍ ونَصْرٍ لَيْسَ إلَّا لِأَنَّهُ نَبِيٌّ حَقًّا، ومَا كَانَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يُؤَيِّدَ مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِ هذَا التَّأْيِيدَ الفَرِيدَ في التَّارِيخِ، فَسِيرَةُ رسُولِ اللهِ ﷺ تُثْبِتُ لَنَا صِدْقَ رِسَالَتِهِ عنْ طَرِيقٍ عَقْلِيٍّ بَحْتٍ، وما وَقَعَ لَهُ ﷺ مِنَ المُعْجِزَاتِ لَمْ يَكُنْ الأَسَاسَ الأَوَّلَ في إِيمَانِ العَرَبِ بِدَعْوَتِهِ، بلْ إِنَّا لا نَجِدُ لهُ مُعْجِزَةً آمَنَ مَعَهَا الكُفَّارُ المُعَانِدُونَ، عَلَىٰ أَنَّ المُعْجِزَاتِ المَادِيَّةِ إِنَّمَا تَكُونُ حُجَّةً عَلَىٰ مَنْ شَاهَدَهَا، ومِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ المُسْلِمِينَ الذِينَ لَمْ يَرَوا الرَّسُولَ ﷺ، ولَمْ يُشَاهِدُوا مُعْجِزَاتِهِ، إِنَّمَا آمَنُوا بِصِدْقِ رِسَالَتِهِ لِلْأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ القَاطِعَةِ عَلَىٰ صِدْقِ دَعْوَاهُ النُّبُوَّةَ، ومِنْ هَذِهِ الأدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ: القُرْآنُ الكَرِيمُ، فإِنَّهُ مُعْجِزَةٌ عَقْلِيَّةٌ، تُلْزِمُ كُلَّ عَاقِلٍ مُنْصِفٍ أَنْ يُؤْمِنَ بِصِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ في دَعْوَىٰ الرِّسَالَةِ...

ومِنْ هُنَا نَرَىٰ هَذِهِ المِيزَةَ الوَاضِحَةَ في سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، أَنَّهُ مَا آمَنَ بِهِ واحِدٌ عنْ طَرِيقِ مُشَاهَدَتِهِ لِمُعْجِزَةٍ خارِقَةٍ، بَلْ عَنِ اقْتِنَاعٍ عَقْلِيٍّ وُجْدَانِيٍّ، وإذَا كانَ اللهُ تَعَالَىٰ قَدْ أَكْرَمَ رَسُولَهُ ﷺ بِالمُعْجِزَاتِ الخَارِقَةِ، فمَا ذَلِكَ إِلَّا إِكْرَامٌ له ﷺ وإِفْحَامٌ لِمُعَانِدِيهِ المُكَابِرِينَ، ومَنْ تَتَبَّعَ القُرْآنَ الكَرِيمَ وجَدَ أَنَّهُ اعْتَمَدَ في الإِقْنَاعِ عَلَىٰ المُحَاكَمَةِ العَقْلِيَّةِ، والمُشَاهَدَةِ المَحْسُوسَةِ لِعَظِيمِ صُنْعِ اللهِ تَعَالَىٰ، والمَعْرِفَةِ التَّامَّةِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ أُمِّيَّةٍ تَجْعَلُ إِتْيَانَهُ بِالقُرْآنِ الكَرِيمِ دَلِيلًا عَلَىٰ صِدْقِ رِسَالَتِهِ ﷺ(١).

** ** **

---

(١) انظر السِّيرة النَّبويَّة دروس وعبر للدكتور مصطفىٰ السباعي ص ١٥ ـ ٢٣.

الجَزِيرَةُ العَرَبِيَّةُ فِي العَصْرِ الجَاهِلِيِّ

أَمَّا العَرَبُ قَبْلَ الإِسْلَامِ فَسَاءَتْ أَخْلَاقُهُمْ، فأَوْغَلُوا بالخَمْرِ والقِمَارِ، وبَلَغَتْ بِهِمُ القَسَاوَةُ والحَمِيَّةُ المَزْعُومَةُ إِلَىٰ وَأْدِ[1] البَنَاتِ، وشَاعَتْ فِيهِمُ الغَارَاتُ، وقَطْعُ الطُّرُقِ عَلَىٰ القَوَافِلِ، وسَقَطَتْ مَنْزِلَةُ المَرْأَةِ، فَكَانَتْ تُورَثُ كَمَا يُورَثُ المَتَاعُ أَوِ الدَّابَّةُ، ومِنَ المَأْكُولَاتِ مَا هُوَ خَاصٌّ بِالذُّكُورِ، مُحَرَّمٌ عَلَىٰ الإِنَاثِ، وكانَ يَسُوغُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَزَوَّجَ ما يَشَاءُ مِنَ النِّسَاءِ مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ.

وكَانَتِ العَصَبِيَّةُ القَبَلِيَّةُ، والدَّمَوِيَّةُ شَدِيدَةً جَامِحَةً، وأُغْرِمُوا بالحَرْبِ، حَتَّىٰ صَارَتْ مَسْلَاةً لَهُمْ، ومَلْهًىٰ وهِوَايَةً، يَنْتَهِزُونَ لِلتَّسْلِيَةِ، وقَضَاءِ هَوَىٰ النَّفْسِ نُشُوبَ حَرْبٍ لَهَا مُسَوِّغٌ، أَوَ لَا مُسَوِّغَ لَهَا، يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ ما قَالَهُ الشَّاعِرُ الجَاهِلِيُّ (الرُّقَّادُ بنُ المُنْذِرِ بن ضِرَارٍ الضَّبِّيُّ):

إِذَا المُهْـرَةُ الشَّـقْرَاءُ أَدْرَكَ ظَهْرُهَـا ... فَشَـبَّ الإِلَهُ الحَـرْبَ بَـيْنَ القَبَائِـلِ

وأَوْقَـدَ نَـارًا بَيْـنَهُمْ بِضِـرَامِهَا ... لَهَـا وَهْـجٌ لِلْمُصْـطَلِي غَيْـرُ طَائِـلِ

وهَانَتْ عَلَيْهِمْ إِرَاقَةُ الدِّمَاءِ، فَتُثِيرُهَا حَادِثَةٌ تَافِهَةٌ، وتَدُومُ الحَرْبُ أَرْبَعِينَ

---

(١) وَأْدُ البَنَاتِ: قَتْلُهُنَّ: كانَ إِذَا وُلِدَ لِأَحَدِهم في الجاهلية بِنْتٌ دفنَهَا في التُّراب وهي حيَّة خَشْيَةَ العَارِ. انظر النهاية (١٢٥/٥).

سَنَةً يُقْتَلُ فِيهَا أُلُوفٌ مِنَ النَّاسِ.

أَمَّا مِنْ جِهَةِ الأَخْلَاقِ، فَكَانَتْ فِيهِمْ أَدْوَاءٌ وأَمْرَاضٌ مُتَأَصِّلَةٌ، وأَسْبَابُهَا فَاشِيَةٌ[1].

۞ شُرْبُ الخَمْرِ:

وَكَانَ شُرْبُ الخَمْرِ واسِعَ الشُّيُوعِ، شَدِيدَ الرُّسُوخِ فِيهِمْ، تَحَدَّثَ عَنْ مُعَاقَرَتِهَا والِاجْتِمَاعِ عَلَىٰ شُرْبِهَا الشُّعَرَاءُ، وشَغَلَتْ جَانِبًا كَبِيرًا مِنْ شِعْرِهِمْ وتَارِيخِهِمْ وأَدَبِهِمْ، وكَثُرَتْ أَسْمَاؤُهَا وصِفَاتُهَا فِي لُغَتِهِمْ، وكَثُرَ فِيهَا التَّدْقِيقُ والتَّفْصِيلُ كَثْرَةً تَدْعُو إِلَىٰ العَجَبِ، وكَانَتْ حَوَانِيتُ الخَمَّارِينَ مَفْتُوحَةً دَائِمًا يُرَفْرِفُ عَلَيْهَا عَلَمٌ يُسَمَّىٰ (غَايَةً).

قَالَ لَبِيدُ[2] بنُ رَبِيعَةَ العَامِرِيُّ رضي الله عنه:

قَـدْ بِـتُّ سَـامِرَهَا وغَايَـةَ تَـاجِرٍ   وَافَيْـتُ إِذْ رُفِعَـتْ وَعَـزَّ مُـدَامُهَا

وكَانَ مِنْ شُيُوعِ تِجَارَةِ الخَمْرِ أَنْ أَصْبَحَتْ كَلِمَةُ التِّجَارَةِ مُرَادِفَةً لِبَيْعِ الخَمْرِ[3].

---

(١) انظر السيرة النبوية ص ٣٩ لأبي الحسن الندوي رحمه الله.

(٢) هُوَ لَبِيدُ بنُ رَبِيعَةَ بنِ صَعْصعَةَ العَامِرِيُّ الشَّاعر المَشْهُورُ، كان رضي الله عنه شاعرًا مِنْ فُحُولِ الشُّعَرَاءِ، وكان فَارِسًا شُجَاعًا سَخِيًّا، وهو صاحِبُ إحدىٰ المُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ، وَفَدَ علىٰ النبي ﷺ سنَةَ وَفَدَ قَوْمُهُ بنُو جَعْفر، فأَسْلَمَ وحَسُنَ إسلامُهُ. انظر الإصابة (٥/٥٠٠).

(٣) انظر السيرة النبوية ص ٣٩ لأبي الحسن الندوي رحمه الله.

❁ القِمَارُ:

وكَانَ القِمَارُ مِنْ مَفَاخِرِ الحَيَاةِ الجَاهِلِيَّةِ، قالَ الشَّاعِرُ الجَاهِلِيُّ:

أَعَيَّرْتَنَـــا أَلْبَانَهَـــا ولُحُومَهَـــا　　　وذَلِـكَ عَـارٌ يَـا ابْـنَ رَيْطَـةَ ظَـاهِرُ
نُحَــابِي بِهَــا أَكْفَاءَنَــا ونُهِينُهَــا　　　ونَشْــرَبُ فــي أَثْمَانِهَــا ونُقَــامِرُ

وكَانَ عَدَمُ المُشَارَكَةِ في مَجَالِسِ القِمَارِ عَارًا.

قَالَ قَتَادَةُ: كانَ الرَّجُلُ في الجَاهِلِيَّةِ يُقَامِرُ عَلَىٰ أَهْلِهِ ومَالِهِ، فَيَقْعُدُ حَرِيبًا[1] سَلِيبًا، يَنْظُرُ إِلَىٰ مَالِهِ في يَدِ غَيْرِهِ، فَكَانَتْ تُورِثُ بَيْنَهُمْ عَدَاوَةً وبُغْضًا[2].

❁ تَعَاطِيهِمُ الرِّبَا:

وكَانَ أَهْلُ الحِجَازِ: العَرَبُ واليَهُودُ، يَتَعَاطَوْنَ الرِّبَا، وكانَ فَاشِيًا[3] فِيهِمْ، وكانُوا يُجْحِفُونَ[4] فيهِ، ويَبْلُغُونَ إِلَىٰ حَدِّ الغُلُوِّ والقَسْوَةِ.

قالَ الإمَامُ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: كانَ الرِّبَا في الجَاهِلِيَّةِ في التَّضْعِيفِ وفِي السِّنِينَ، يكُونُ لِلرَّجُلِ فَضْلُ دَيْنٍ، فَيَأْتِيهِ إِذَا حَلَّ الأَجَلُ، فَيَقُولُ لَهُ: تَقْضِينِي أَوْ تَزِيدُنِي؟ فإِنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ يَقْضِيهِ قَضَى، وإِلَّا حَوَّلَهُ إِلَىٰ السِّنِّ التِي فَوْقَ ذَلِكَ، إِنْ كَانَتْ ابْنَةَ مَخَاضٍ[5] يَجْعَلُهَا ....

(١) الحريب: الذي سُلِبَ ماله. انظر لسان العرب (٣/١٠١).
(٢) انظر تفسير الإمام الطبري (٥/٣٦) - آية (٩١) من سورة المائدة.
(٣) فَشَا: أي انْتَشَرَ. انظر النهاية (٣/٤٠٣).
(٤) المُجَاحَفَةُ: أَخْذُ الشّيءِ واجْتِرَافُهُ. انظر لسان العرب (٢/١٨٦).
(٥) المَخَاضُ: اسمٌ للنُّوقِ الحَوَامِلِ، وبِنْتُ المَخَاضِ وابنُ المَخَاضِ: ما دخلَ في السنةِ=

ابْنَةَ لَبُونٍ[1] في السَّنَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ حِقَّةً[2]، ثُمَّ جَذْعَةً[3]، ثُمَّ رُبَاعِيًّا[4] هَكَذا إِلَىٰ فَوْقٍ.

وفِي العَيْنِ[5] يَأْتِيهِ، فإنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ أَضْعَفَهُ في العَامِ القَابِلِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ أَضْعَفَهُ أَيْضًا، فَتَكُونُ مِئَةً، فَيَجْعَلُهَا إِلَىٰ القَابِلِ مِئَتَيْنِ، فإنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ جَعَلَهَا أَرْبَعَمِئَةٍ يُضْعِفُهَا لَهُ كُلَّ سَنَةٍ أَوْ يَقْضِيهِ[6].

وقَدْ رَسَخَ الرِّبَا فِيهِمْ، وجَرَىٰ مِنْهُمْ مَجْرَىٰ الأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ التِي صَارُوا لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُ وبَيْنَ التِّجَارَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، وقَالُوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

قالَ الإمَامُ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: إنَّ الذِينَ كانُوا يَأْكُلُونَ الرِّبَا مِنْ أَهْلِ

= الثَّانِيةِ، لأنَّ أُمَّهُ قد لَحِقَتْ بالمَخَاضِ: أي الحَوَامِلِ، وإنْ لَمْ تَكُنْ حَامِلًا. انظر النهاية (٤/٢٦١).

(١) بنتُ لَبُونٍ، وابنُ لَبُونٍ: وهُمَا مِنَ الإبلِ ما أَتَىٰ عليهِ سَنَتَانِ ودخَلَ في الثَّالِثَةِ، فصَارَتْ أُمُّهُ لَبُونًا، أي ذَاتَ لَبَنٍ، لأَنَّهَا تكُونُ قدْ حَمَلَتْ حَمْلًا آخَرَ ووضَعَتْهُ. انظر النهاية (٤/١٩٨).

(٢) الحِقَّةُ: بكسر الحاء وهو منَ الإبِلِ ما دخلَ في السنة الرابعة إلىٰ آخرها، وسُمّيَ بذلك لأنه استَحَقَّ الرُّكُوبَ والتَّحمِيلَ، ويُجمعُ علىٰ حِقاقٍ وحَقَائِقَ. انظر النهاية (١/٣٩٩).

(٣) الجَذْعَةُ: هو ما كان منها شَابًّا فَتِيًّا، فهو من الإبل ما دخل في السنة الخامسة، ومن البقر والمَعْز ما دخل في السنة الثانية، وقيل البقر في الثالثة، ومن الضَّأْنِ ما تمَّتْ له سنة، وقيل أقل منها. انظر النهاية (١/٢٤٣).

(٤) يُقالُ للذَّكر من الإبل إذا طلَعَتْ رَبَاعِيَتُهُ ـ أي أسنانه الأمامية ـ رَبَاعٌ، والأنثىٰ رَبَاعِيَةٌ بالتخفيف، وذلك إذا دخَلَا في السَّنَةِ السابعة. انظر النهاية (٢/١٧٣).

(٥) العَيْنُ: هوَ الذَّهَبُ. انظر لسان العرب (٩/٥٠٧).

(٦) انظر تفسير الطبري (٣/١٠٤).

الجَاهِلِيَّةِ، كانَ إِذَا حَلَّ مَالُ أَحَدِهِمْ عَلَىٰ غَرِيمِهِ، يَقُولُ الغَرِيمُ لِغَرِيمِ الحَقِّ: زِدْنِي فِي الأَجَلِ وأَزِيدُكَ فِي مَالِكَ، فَكَانَ يُقَالُ لَهُمَا إِذَا فَعَلَا ذَلِكَ: هذَا رِبًا لا يَحِلُّ، فإِذَا قِيلَ لَهُمَا ذَلِكَ، قالُوا: سَوَاءٌ عَلَيْنَا زِدْنَا في أَوَّلِ البَيْعِ، أَوْ عِنْدَ مَحَلِّ المَالِ[1].

❁ انْتِشَارُ الزِّنَىٰ:

ولَمْ يَكُنْ الزِّنَىٰ نَادِرًا، وكانَ غَيْرَ مُسْتَنْكَرٍ، فكانَ مِنَ العَادَاتِ أَنْ يَتَّخِذَ الرَّجُلُ خَلِيلَاتٍ، وتَتَّخِذَ النِّسَاءُ أَخِلَّاءَ بِدُونِ عَقْدٍ، وقَدْ كَانُوا يُكْرِهُونَ بَعْضَ النِّسَاءِ عَلَىٰ الزِّنَىٰ، قالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ[2] مِنكُمْ طَوْلًا[3] أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ[4] الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ[5] وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾[6].

ورَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَنَّ

---

(١) انظر تفسير الطبري (٣/١٠٤).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/٢٦٠): أي ومنْ لَمْ يَجِدْ.

(٣) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/٢٦٠): أي سَعَةً وقُدْرةً.

(٤) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/٢٦١): أي الحَرَائِر.

(٥) قال القرطبي في تفسيره (٦/٢٣٦): أي غير زَوَانٍ، أي مُعْلِنَاتٍ بالزِّنىٰ؛ لأنَّ أهل الجاهلية كان فيهم الزَّوَانِي في العَلَانِيَةِ، ولهُنَّ راياتٌ مَنْصُوباتٌ.

(٦) قال القرطبي في تفسيره (٦/٢٣٦): أي أصدقاءُ علىٰ الفاحشةِ، والآية الكريمة في سورة النساء رقم (٢٥).

النِّكَاحَ في الجَاهِلِيَّةِ كانَ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ... والنِّكَاحُ الرَّابعُ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَىٰ المَرْأَةِ لا تَمْنَعُ مَنْ جَاءَهَا، وهُنَّ البَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَىٰ أبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا[1]، فمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ[2].

وقالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[3].

ورَوَىٰ الإمَامُ مَالِكٌ في المُوَطَّأِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عن عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ ﷺ أَنَّهُ قالَ: لَا تُكَلِّفُوا الأَمَةَ غَيْرَ ذَاتِ الصَّنْعَةِ الكَسْبَ، فإنَّكُمْ مَتَىٰ كَلَّفْتُمُوهَا ذَلِكَ كَسَبَتْ بِفَرْجِهَا[4].

وقَدْ نَهَىٰ رسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ كَسْبِ البَغِيِّ، فقَدْ أخْرَجَ الإمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: نَهَىٰ رسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ كَسْبِ الحَجَّامِ، وكَسْبِ البَغِيِّ، وثَمَنِ الكَلْبِ[5].

ورَوَىٰ الإمَامُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: أَنَّ جَارِيَةً لِعَبْدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ بنِ سَلُولَ يُقَالُ لَهَا: مُسَيْكَةُ، وأُخْرَىٰ يُقَالُ لَهَا:

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٢٣٢/١٠): عَلَمًا بفتح اللام أي عَلامَةً.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب النكاح ـ باب ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ ـ رقم الحديث (٥١٢٧).

(٣) سورة النور آية (٣٣).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ـ كتاب الاستئذان ـ باب الأمر بالرِّفق بالمَمْلوك ـ وأورده ابن الأثير في جامع الأصول (٥٨٩/١٠).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٧٩٧٦).

أُمَيْمَةٌ، فكانَ يُكْرِهُهُمَا عَلَىٰ الزِّنَىٰ، فَشَكَتَا ذَلِكَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وكانَتِ المَرْأَةُ في المُجْتَمَعِ الجَاهِلِيِّ عُرْضَةَ غَبْنٍ[2] وحَيْفٍ[3]، تُؤْكَلُ حُقُوقُهَا، وتُبْتَزُّ[4] أَمْوَالُهَا، وتُحْرَمُ إِرْثَهَا، وتُعْضَلُ[5] بَعْدَ الطَّلَاقِ، أَوْ وَفَاةِ الزَّوْجِ مِنْ أَنْ تَنْكِحَ زَوْجًا تَرْضَاهُ، وتُورَثُ كَمَا يُورَثُ المَتَاعُ أَوِ الدَّابَّةُ.

۞ وَأْدُهُمُ البَنَاتِ:

وقَدْ بَلَغَتْ كَرَاهَةُ البَنَاتِ إِلَىٰ حَدِّ الوَأْدِ[6]، ذَكَرَ الهَيْثَمُ بنُ عَدِيٍّ، عَلَىٰ مَا حَكَاهُ عَنْهُ المَيْدَانِيُّ أَنَّ الوَأْدَ كَانَ مُسْتَعْمَلًا في قَبَائِلِ العَرَبِ قَاطِبَةً، فكَانَ يَسْتَعْمِلُهُ وَاحِدٌ ويَتْرُكُهُ عَشَرَةٌ، فجَاءَ الإِسْلَامُ، وكَانَتْ مَذَاهِبُ العَرَبِ مُخْتَلِفَةً في وَأْدِ البَنَاتِ، فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَئِدُ البَنَاتِ لِمَزِيدِ الغَيْرَةِ، ومَخَافَةِ لُحُوقِ العَارِ بِهِمْ مِنْ أَجْلِهِنَّ، ومِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَئِدُ مِنَ البَنَاتِ مَنْ كَانَتْ زَرْقَاءَ، أَوْ شَيْمَاءَ[7]،

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب في قوله تعالَىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ ـ رقم الحديث (٣٠٢٩) (٢٧).

(٢) الغَبْنُ: النسيان. انظر لسان العرب (١٠/١٥).

(٣) الحَيْف: الميل في الحكم، والجور والظلم. انظر لسان العرب (٣/٤٢٠).

(٤) تُبْتَزُّ أَمْوَالهَا: أي تُسْلَبُ أموالها. انظر لسان العرب (١/٣٩٩).

(٥) تُعْضَلُ: أي تُمْنَعُ. انظر النهاية (٣/٢٣٠).

(٦) وَأْدُ البناتِ: قتلُهُنَّ: كان إذا وُلد لأحدهم في الجاهلية بنت دفنَهَا في التُّراب وهي حَيَّة، خشية العارِ. انظر النهاية (٥/١٢٥).

(٧) شَيْمَاءُ: أي سَوْداءُ. انظر لسان العرب (٧/٢٦٢).

أَوْ بَرْشَاءَ[1]، أو كَسْحَاءَ[2] تَشَاؤُمًا مِنْهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

وكانُوا يَقْتُلُونَ البَنَاتِ، ويَئِدُونَهُنَّ بِقَسْوَةٍ نَادِرَةٍ في بَعْضِ الأَحْيَانِ، فَقَدْ يَتَأَخَّرُ وَأْدُ المَوْءُودَةِ لِسَفَرِ الوَالِدِ وشُغْلِهِ فَلَا يَئِدُهَا إِلَّا وقَدْ كَبِرَتْ، وصَارَتْ تَعْقِلُ، وقَدْ حَكَوْا فِي ذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مُبْكِيَاتٍ، وقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ يُلْقِي الأُنْثَىٰ مِنْ شَاهِقٍ[3].

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ حَالِهِمْ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا[4] وَهُوَ كَظِيمٌ[5] ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ[6] فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[7].

❁ قَتْلُ الأَوْلَادِ خَشْيَةَ الفَقْرِ:

وَمِنْهُمْ مَنْ كانَ يَقْتُلُ أَوْلَادَهُ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وخَوْفَ الفَقْرِ، وهُمُ الفُقَرَاءُ مِنْ بَعْضِ قَبَائِلِ العَرَبِ، فَكَانَ يَشْتَرِيهِمْ بَعْضُ سُرَاةِ[8] العَرَبِ وأَشْرَافِهِمْ،

---

(١) الأبرَشُ: الأبْرَصُ. انظر لسان العرب (٣٧٧/١).

(٢) الأكْسَحُ: الأعْرَجُ، والمُقْعَدُ أيضًا. انظر لسان العرب (٨٩/١٢).

(٣) الشَّاهِقُ: الجَبَلُ المُرْتَفِعُ. انظر لسان العرب (٢٢٩/٧).

(٤) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥٧٨/٤): أي كئيبًا مِنَ الهَمِّ.

(٥) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥٧٨/٤): أي ساكتٌ مِنْ شِدَّةِ ما هُوَ فيه مِنَ الحُزْنِ.

(٦) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥٧٨/٤): أي يَئِدَهَا، وهو أن يدفِنَهَا في التراب وهِيَ حَيَّة.

(٧) سورة النمل آية (٥٨) (٥٩).

(٨) سُرَاةُ: أي أشْرَافٌ. انظر النهاية (٣٢٧/٢).

فَصَعْصَعَةُ بنُ نَاجِيَةَ يقولُ: جَاءَ الإسْلَامُ وقَدْ فَدَيْتُ ثَلَاثَ مِائَةِ مَوْءُودَةٍ[1].

ومِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَنْذُرُ إذَا بَلَغَ بَنُوهُ عَشَرَةً نَحَرَ وَاحِدًا مِنْهُمْ، كمَا فَعَلَ عَبْدُ المُطَّلِبِ جَدُّ الرَّسُولِ ﷺ.

فَحَذَّرَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ مِنْ هَذَا الفِعْلِ، فقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ[2] نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ...﴾[3].

وقالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾[4].

ورَوَىٰ الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟، قالَ ﷺ: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا[5]، وَهُوَ خَلَقَكَ».

قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟.

قَالَ ﷺ: «أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِنْ أجْلِ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ».

قُلْتُ: ثُمَّ أيُّ؟.

---

(١) انظر الإصابة (٣/٣٤٧).

(٢) الإمْلَاقُ: الفَقْرُ. انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٦٢).

(٣) سورة الأنعام آية (١٥١).

(٤) سورة الإسراء آية (٣١).

(٥) النِدُّ: بكسر النون وتشديد الدال، هو مِثْلُ الشَّيء الذي يُضَادُّهُ في أُمُورِهِ، ويريد بها ما كانوا يَتَّخِذُونَهُ آلهةً مِنْ دُونِ الله تَعَالَىٰ. انظر النهاية (٥/٣٠).

قالَ ﷺ: «أنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ[1] جَارِكَ»[2].

ومِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: المَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ ـ تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ـ فَأَلْحَقُوا البَنَاتِ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[3].

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[4].

وقالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾[5].

۞ ظَلَامٌ مُطْبِقٌ ويَأْسٌ قَاتِلٌ:

وقُصَارَىٰ القَوْلِ: إنَّ القَرْنَ السَّادِسَ المَسِيحِيَّ الذِي كَانَتْ فِيهِ البِعْثَةُ المُحَمَّدِيَّةُ ومَا يَلِيهِ مِنْ فَتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ، كانَ مِنْ أَحَطِّ أدْوَارِ التَّارِيخِ، ومِنْ أشَدِّهَا ظَلَامًا ويَأْسًا مِنْ مُسْتَقْبَلِ الإنْسَانِيَّةِ وصَلَاحِيَّتِهَا لِلْبَقَاءِ والازْدِهَارِ[6].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (١٤/٧٥): الحَلِيلَةُ بفتح الحاء وزن عَظِيمَة أي التي يَحِلُّ له وَطْؤُهَا.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الحدود ـ باب إثم الزناة ـ رقم الحديث (٦٨١١) ـ وأخرجه في كتاب التوحيد ـ باب قول الله تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ ـ رقم الحديث (٧٥٢٠) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب كون الشرك أقبح الذنوب ـ رقم الحديث (١٤١).

(٣) انظر السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدْوي ص ٣٩.

(٤) سورة النحل (٥٧).

(٥) سورة الصافات الآيتان (١٤٩، ١٥٠).

(٦) انظر السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدْوي ص ٤٣.

لِمَاذَا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ؟

اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ تَعَالَىٰ أَنْ تَطْلُعَ هَذِهِ الشَّمْسُ التِي تُبَدِّدُ الظَّلَامَ، وَتَمْلَأُ الدُّنْيَا نُورًا وهِدَايَةً، مِنْ أُفُقِ جَزِيرَةِ العَرَبِ الذِي كَانَ أَشَدَّ ظَلَامًا، وكَانَ أَشَدَّ حَاجَةً إِلَىٰ هَذَا النُّورِ السَّاطِعِ.

وقَدِ اخْتَارَ اللهُ تَعَالَىٰ العَرَبَ، لِيَتَلَقَّوْا هَذِهِ الدَّعْوَةَ أَوَّلًا، ثُمَّ يُبَلِّغُوهَا إِلَىٰ أَبْعَدِ أَنْحَاءِ العَالَمِ، لِعِدَّةِ أَسْبَابٍ مِنْهَا:

١ - أَنَّهُمْ كانُوا عَلَىٰ الفِطْرَةِ، وأَصْحَابُ إِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ، إِذَا الْتَوَىٰ عَلَيْهِمْ فَهْمُ الحَقِّ حَارَبُوهُ، وإِذَا انْكَشَفَ الغِطَاءُ عَنْ عُيُونِهِمْ، أَحَبُّوهُ واحْتَضَنُوهُ، واسْتَمَاتُوا في سَبِيلِهِ، يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ دَلَالَةً وَاضِحَةً مَا قَالَهُ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو رضي الله عنه[1]، حِينَ سَمِعَ مَا جَاءَ في كِتَابِ الصُّلْحِ في الحُدَيْبِيَةِ: «**هَذَا مَا قَاضَىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رسُولُ اللهِ ﷺ**»، فقالَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو رضي الله عنه: واللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ ولَا قَاتَلْنَاكَ[2].

---

(١) هو سُهَيْلُ بن عَمْرٍو العَامِرِيُّ خَطِيبُ قُرَيْشٍ، وفَصِيحُهُم، ومن أَشْرَافِهِمْ، يُكنىٰ أبو زَيد، وكان من أشراف قريش وعُقَلَائِهِمْ وخُطَبَائِهِمْ وسَادَاتِهِمْ.
أسلم رضي الله عنه يومَ فَتْحِ مَكَّةَ، وحَسُنَ إِسْلَامُهُ.
مات رضي الله عنه في طاعُونِ عَمَوَاسٍ سنة ثمَان عشرة للهجرة. انظر الإصابة (١٧٧/٣).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد - رقم=

ولمَّا أسْلَمَ ﷺ كانَ كَثِيرَ الصَّلاةِ والصَّوْمِ والصَّدَقَةِ، وكانَ كَثِيرَ البُكَاءِ إذَا سَمِعَ القُرْآنَ ﷺ وأرْضَاهُ، وكانَ يَقُولُ: واللهِ لا أَدَعُ مَوْقِفًا مَعَ المُشْرِكِينَ إلَّا وَقَفْتُ مَعَ المُسْلِمِينَ مِثْلَهُ، ولا نَفَقَةً أنْفَقْتُهَا مَعَ المُشْرِكِينَ إلَّا أنْفَقْتُ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ مِثْلَهَا، لَعَلَّ أمْرِي أنْ يَتْلُوَ بَعْضُهُ بَعْضًا[1].

٢ ـ ومِنْهَا أنَّ ألْوَاحَ قُلُوبِهِمْ كَانَتْ صَافِيَةً، لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهَا كِتَابَاتٌ دَقِيقَةٌ عَمِيقَةٌ يَصْعُبُ مَحْوُهَا وإزَالَتُهَا، شَأْنَ الرُّومِ والفُرْسِ، وأهْلِ الهِنْدِ، الذِينَ كانُوا يَتِيهُونَ ويَزْهَوْنَ بِعُلُومِهِمْ وآدَابِهِمْ الرَّاقِيَةِ، ومَدَنِيَّاتِهِمُ الزَّاهِيَةِ، وبِفَلْسَفَاتِهِمُ الوَاسِعَةِ، فكَانَتْ عِنْدَهُمْ عُقَدٌ نَفْسِيَّةٌ وفِكْرِيَّةٌ، لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ حَلُّهَا.

أمَّا العَرَبُ فَلَمْ تكُنْ عَلَىٰ ألْوَاحِ قُلُوبِهِمْ إلَّا كِتَابَاتٌ بَسِيطَةٌ خَطَّتْهَا يَدُ الجَهْلِ والبَدَاوَةِ، ومِنَ السَّهْلِ المَيْسُورِ مَحْوُهَا وغَسْلُهَا، ورَسْمُ نُقُوشٍ جَدِيدَةٍ مَكَانَهَا، وبِالتَّعْبِيرِ العِلْمِيِّ المُتَأَخِّرِ كانُوا أصْحَابَ الجَهْلِ البَسِيطِ، الذِي تَسْهُلُ مُدَاوَاتُهُ، بَيْنَمَا كَانَتِ الأُمَمُ المُتَمَدِّنَةُ الرَّاقِيَةُ فِي هَذَا العَصْرِ مُصَابَةً بالجَهْلِ المُرَكَّبِ، الذِي تَصْعُبُ مُدَاوَاتُهُ وإزَالَتُهُ.

٣ ـ ومِنْهَا أنَّهُمْ ـ أي العَرَبُ ـ كانُوا واقِعِيِّينَ جَادِّينَ، أصْحَابَ صَرَاحَةٍ وصَرَامَةٍ، لا يَخْدَعُونَ غَيْرَهُمْ ولا أنْفُسَهُمْ، اعْتَادُوا القَوْلَ السَّدِيدَ، والعَزْمَ

= الحديث (٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢)، ومسلم في صحيحه ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب صلح الحديبية في الحديبية ـ رقم الحديث (١٧٨٣) ـ والإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٨٩٠٩).

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١/١٩٤) ـ الإصابة (٣/١٧٧) ـ أسد الغابة (٢/٣٩٦).

الأَكِيدَ، يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ دَلَالَةً وَاضِحَةً ما رُوِيَ فِي قِصَّةِ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ، قالَ ابنُ إسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ: لمَّا اجْتَمَعَتِ الأَوْسُ والخَزْرَجُ في العَقَبَةِ، لِيُبَايِعُوا رَسُول اللهِ ﷺ قالَ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بنِ نَضْلَةَ الخَزْرَجِيُّ رضي الله عنه: يا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ، هلْ تَدْرُونَ عَلَامَ تُبَايِعُونَ هذَا الرَّجُلَ؟

قَالُوا: نَعَمْ قالَ: إنَّكُمْ تُبَايِعُونَهُ عَلَىٰ حَرْبِ الأَحْمَرِ والأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ.

... قَالُوا: فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يا رَسُولَ اللهِ إنْ نَحْنُ وَفَيْنَا؟

قالَ ﷺ: **«الجَنَّةُ»**.

قَالُوا: ابْسُطْ يَدَكَ، فَبَسط يَدَهُ ﷺ فبَايَعُوهُ[1].

وقَدْ صَدَقُوا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ما عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ، وبَايَعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وقَدْ قَالَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ لِسَانِ الأَنْصارِ يَوْمَ بَدْرٍ:

فَوالذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا البَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ[2].

فَكَانُوا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ صَادِقِينَ مِنَ اللَّحْظَةِ الأُولَىٰ، وقَدْ تَجَلَّىٰ هَذَا الصِّدْقُ في العَزْمِ، والجِدِّ في العَمَلِ، ورُوحِ الامْتِثَالِ لِلْحَقِّ.

٤ ـ وَمِنْهَا أَنَّ العَرَبَ كَانُوا بِمَعْزِلٍ عَنْ أَدْوَاءِ المَدَنِيَّةِ والتَّرَفِ، التِي يَصْعُبُ عِلَاجُهَا، والتِي تَحُولُ دُونَ التَّحَمُّسِ لِلْعَقِيدَةِ والتَّفَانِي فِي سَبِيلِهَا.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢/٥٩).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/٢٢٧).

٥ ـ ومِنْهَا أَنَّ العَرَبَ كَانُوا أَصْحَابَ صِدْقٍ وأَمَانَةٍ وشَجَاعَةٍ، لَيْسَ النِّفَاقُ والمُؤَامَرَةُ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ، وهَذَا أَمْرٌ لا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ فَقَدْ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ وبَذَلُوا الغَالِيَ والنَّفِيسَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

٦ ـ وَمِنْهَا أَنَّهُمْ كانُوا مَغَاوِيرَ حَرْبٍ، وأَحْلَاسَ[١] خَيْلٍ، وأَصْحَابَ جَلَادَةٍ وتَقَشُّفٍ في الحَيَاةِ، وكانَتِ الفُرُوسِيَّةُ هِيَ الخُلُقَ البَارِزَ الذِي لابُدَّ أَنْ تَتَّصِفَ بِهِ أُمَّةٌ تَضْطَلِعُ بِعَمَلٍ جَلِيلٍ، لِأَنَّ العَصْرَ كانَ عَصْرَ حُرُوبٍ ومُغَامَرَاتٍ.

٧ ـ وَمِنْهَا أَنَّ العَرَبَ كَانُوا أُمَّةً نَشَأَتْ عَلَىٰ الهُيَامِ[٢] بالحُرِّيَّةِ، والمُسَاوَاةِ وحُبِّ الطَّبِيعَةِ، وعِزَّةِ النَّفْسِ، وبَعْضِ الآدَابِ التِي أَقَرَّهَا الإِسْلَامُ.

٨ ـ وَمِنْهَا أَنَّ قِوَاهُمُ العَمَلِيَّةَ والفِكْرِيَّةَ، ومَوَاهِبَهُمُ الفِطْرِيَّةَ مَذْخُورَةٌ فِيهِمْ، لَمْ تُسْتَهْلَكْ، فكانَتْ أُمَّةً بِكْرًا، دَافِقَةً بالحَيَاةِ والنَّشَاطِ، والعَزْمِ والحَمَاسِ[٣].

رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ في المُسْنَدِ وابْنُ حِبَّانَ والتِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، عنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وأَشَدُّهَا[٤] فِي دِينِ اللهِ عُمَرُ، وأَصْدَقُهَا حَيَاءً عُثْمَانُ، وأَعْلَمُهَا**

(١) أَحْلَاسُ خَيْلٍ: أي مُلَازِمِينَ رُكُوبَ الخَيْلِ. انظر لسان العرب (٣/٢٨٣).

(٢) الهُيَامُ: هو الحُبُّ الشَّدِيدُ كالمَجْنُونِ علىٰ حصُولِ الحُرِّيَّةِ. انظر لسان العرب (١٥/١٨٢).

(٣) انظر السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدْوي ص ٤٥.

(٤) قال السندي في شرح المسند (٧/٣٥٥): أي أصلبهم في مراعاة الدين، بحيث لا يراعي أحدًا فيه.

بالحَلَالِ والحَرَامِ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ، وأقْرَؤُهَا لِكِتَابِ اللهِ أُبَيٌّ، وأعْلَمُهَا بِالفَرَائِضِ[(١)] زَيْدُ بنُ ثَابِتٍ، ولِكُلِّ أمَّةٍ أمِينٌ، وأمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ»[(٢)].

وكانَتْ هَذِهِ الفَتْرَةُ التِي بُعِثَ فِيهَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ أشَدِّ الفَتَرَاتِ التِي مرَّتْ بِهَا الجَزِيرَةُ العَرَبِيَّةُ ظُلْمَةً وانْحِطَاطًا، وأبْعَدِ مِنْ كُلِّ أمَلٍ في الإصْلَاحِ، وأصْعَبِ مرحلَةٍ واجَهَهَا نَبِيٌّ مِنَ الأنْبِيَاءِ، وأدَقِّهَا[(٣)].

رَوَى الإمَامُ أحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَالبُخَارِيُّ فِي الأدَبِ المُفْرَدِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ المِقْدَادِ بنِ عَمْرٍو رضي الله عنه أنَّهُ قَالَ: ... وَاللهِ لَقَدْ بَعَثَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى أشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا فِيهِ نَبِيٌّ مِنَ الأنْبِيَاءِ فِي فَتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرَوْنَ أنَّ دِينًا أفْضَلَ مِنْ عِبَادَةِ الأوْثَانِ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الوَالِدِ وَوَلَدِهِ حَتَّى إنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَرَى وَالِدَهُ وَوَلَدَهُ أوْ أخَاهُ كَافِرًا، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ قُفْلَ قَلْبِهِ بِالإِيمَانِ، يَعْلَمُ أنَّهُ إنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ، فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أنْ حَبِيبَهُ

---

(١) قال الحافظ في الفتح (١٣/٤٨٦): الفرائض جمع فريضة، وهي المواريث، وخصت المواريث باسم الفرائض من قوله تعالى في سورة النساء آية (٧): ﴿.. نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾. أي مقدرًا أو معلومًا أو مقطوعًا عن غيرهم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ـ رقم الحديث (١٢٩٠٤)، (١٣٩٩٠)، وابن حبان في صحيحه ـ كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة ـ باب ذكر البيان بأن معاذ بن جبل كان من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ـ رقم الحديث (٧١٣١) ـ والترمذي في جامعه ـ كتاب المناقب ـ باب فضل معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي عبيدة بن الجراح ـ رقم الحديث (٤١٢٤).

(٣) انظر السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدْوي ص ٥٦.

فِي النَّارِ، وَإِنَّهَا لَلَّتِي قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾»[1].

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[3].

** ** **

---

(١) سورة الفرقان آية (٧٤) ـ والخبر أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٣٨١٠)، والإمام البخاري في الأدب المفرد ـ رقم الحديث (٦٤) ـ وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/١٣٣) وقال: وهذا إسناد صحيح.

(٢) سورة آل عمران آية (١٦٤).

(٣) سورة الجمعة آية (٢).

مِنْ قَبْلِ مَوْلِدِهِ ﷺ إِلَى مَوْلِدِهِ الشَّرِيفِ ﷺ

النَّسَبُ النَّبَوِيُّ الشَّرِيفُ

أَمَّا نَسَبُهُ ﷺ فَهُوَ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، فَلِنَسَبِهِ مِنَ الشَّرَفِ أَعَلَىٰ ذُرْوَةٍ، وأعْدَاؤُهُ كانُوا يَشْهَدُونَ لَهُ بِذَلِكَ، ولِهَذَا شَهِدَ بهِ عَدُوُّهُ إِذْ ذَاكَ أَبُو سُفْيَانَ[(١)] بَيْنَ يَدَيْ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، فأشْرَفُ القَوْمِ قَوْمُهُ، وأشْرَفُ القَبَائِلِ قَبِيلَتُهُ، وأشْرَفُ الأفْخَاذِ فَخِذُهُ ﷺ.

فَهُوَ: مُحَمَّدُ[(٢)] ﷺ بنُ عَبْدِ اللهِ، بنِ عَبْدِ المطلبِ، بنِ هَاشِمٍ، بنِ عَبْدِ مَنَافِ، بنِ قُصَيٍّ، بنِ كِلابِ، بنِ مُرَّةَ، بنِ كَعْبِ، بنِ لُؤَيٍّ، بنِ غَالِبِ، بنِ فِهْرِ، بنِ مَالِكِ، بنِ النَّضْرِ، بنِ كِنَانَةَ، بنِ خُزَيْمَةَ، بنِ مُدْرِكَةَ، بنِ إِلْيَاسَ، بنِ مُضَرَ، بنِ نِزَارِ، بنِ مَعْدِ، بنِ عَدْنَانَ[(٣)].

---

(١) جاء في حديث هِرَقْلَ مع أبي سُفْيَان أنَّهُ سأله كيفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ فقال أبو سفيان: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. رواه البخاري في صحيحه ـ باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ الرسول ﷺ ـ رقم الحديث (٧) ـ ومسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (١٧٧٣).

(٢) قال القاضي عياض فيما نقله عنه الحافظ في الفتح (٢٤٦/٧): وتسميتُهُ مُحَمَّدًا وقعتْ في القُرآنِ العَظِيمِ، وذلك أنَّهُ حَمِدَ ربَّهُ قبلَ أن يَحْمَدَهُ الناسُ، وكذلك في الآخرةِ يَحْمِدُ ربَّهُ فيُشَفِّعُهُ، فيَحْمَدُهُ الناسُ، وقد خُصَّ بسورة الحَمْدِ، وبِلِوَاءِ الحَمْدِ، وبالمَقَامِ المَحْمُودِ، وشُرِعَ له الحَمْدُ بعدَ الأكل، وبعدَ الشُّربِ، وبعدَ الدُّعاءِ، وبعدَ القُدُومِ من السَّفرِ، وسُمِيَتْ أُمَّتُهُ الحَمَّادُونَ، فجُمِعَتْ لهُ مَعَانِي الحَمْدِ وأنْوَاعُهُ ﷺ.

(٣) أخرج هذا القدر من نسبه الشريف ﷺ: البخاري في صحيحه ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب مبعث النبي ﷺ ـ وانظر طبقات ابن سعد (٢٣/١ ـ ٢٤) ـ زاد المعاد (٧٠/١) ـ=

هَذَا هُوَ القَدْرُ المُجْمَعُ عَلَيْهِ مِنْ نَسَبِ الرَّسُولِ ﷺ ولا خِلَافَ فِيهِ البَتَّةَ(١).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: وَهَذَا النَّسَبُ الذِي سُقْنَاهُ إِلَى عَدْنَانَ لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا نِزَاعَ، وَهُوَ ثَابِتٌ بِالتَّوَاتُرِ وَالْإِجْمَاعِ(٢).

أَصَالَةُ نَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ:

اخْتَارَ اللهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ ﷺ مِنْ خَيْرِ القُرُونِ، وأَزْكَىٰ القَبَائِلِ، وأَفْضَلِ البُطُونِ فَكَانَ ﷺ أَوْسَطَ قَوْمِهِ نَسَبًا، وأَعْظَمَهُمْ شَرَفًا.

قَالَ القَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللهُ: وأَمَّا شَرَفُ نَسَبِهِ، وكَرَمُ بَلَدِهِ، ومَنْشَؤُهُ فَمِمَّا لا يَحْتَاجُ إِلَىٰ إِقَامَةِ دَلِيلٍ عَلَيْهِ، ولا بَيَانِ مُشْكِلٍ، ولا خَفِيٍّ مِنْهُ، فإِنَّهُ نُخْبَةُ بَنِي هَاشِمٍ، وسُلَالَةُ قُرَيْشٍ وصَمِيمُهَا، وأَشْرَفُ العَرَبِ، وأَعَزُّهُمْ نَفَرًا مِنْ قِبَلِ أَبِيهِ وأُمِّهِ ومِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ أَكْرَمِ بِلَادِ اللهِ عَلَىٰ اللهِ وعَلَىٰ عِبَادِهِ(٣).

رَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّىٰ كُنْتُ مِنَ القَرْنِ الذِي كُنْتُ مِنْهُ**»(٤).

= تاريخ الطبري (٤٩٧/١) ـ البداية والنهاية (٦٥٣/٢) ـ دلائل النبوة للبيهقي (١٨١/١).

(١) انظر زاد المعاد (٧٠/١).

(٢) انظر الفصول في سيرة الرسول (٣٤/١).

(٣) انظر كتاب الشفا للقاضي عياض (٧٧/١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب صفة النبي ﷺ ـ رقم الحديث (٣٥٥٧) ـ وأخرجه الإمام أحمد في المسند ـ رقم الحديث (٩٣٩٢).

وجاءَ في حَدِيثِ هِرَقْل مَعَ أَبِي سُفْيَانَ ﵁ أَنَّهُ سَأَلَهُ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟

فقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ[1].

ورَوَىٰ الإمَامُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ عنْ وَاثِلَةَ بنِ الأسْقَعِ ﵁ قَالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إسْمَاعِيلَ، واصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، واصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، واصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[2].

وأَخْرَجَ الإمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عنِ المُطَّلِبِ بنِ أَبِي ودَاعَةَ ﵁ قالَ: جاءَ العَبَّاسُ ﵁ إلَىٰ رسُولِ اللهِ ﷺ، وكَأَنَّهُ سَمِعَ شَيْئًا، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ المِنْبَرِ، فَقَالَ: «مَنْ أَنا؟» قَالُوا: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْكَ السَّلَامُ، فَقَالَ ﷺ: «أَنَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، إنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ، فَجَعَلَنِي في خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتًا، فَجَعَلَنِي في خَيْرِهِمْ بَيْتًا، فأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا، وخَيْرُكُمْ نَفْسًا»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب بدء الوحي ـ باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ الرسول ﷺ رقم الحديث (٧) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل ـ رقم الحديث (١٧٧٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الفضائل ـ باب فضل نسب النبي ﷺ ـ رقم الحديث (٢٢٧٦) ـ والإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٦٩٨٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٧٨٨) ـ والترمذي في جامعه ـ كتاب المناقب ـ باب فضل النبي ﷺ ـ رقم الحديث (٣٩٣٥) ـ وأورده ابن الأثير في جامع الأصول (٦٣٣٨).

طَهَارَةُ نَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ

ولَمْ يَزَلِ الرَّسُولُ ﷺ يَتَنَقَّلُ مِنْ أَصْلَابِ الآبَاءِ الطَّاهِرِينَ إِلَىٰ أَرْحَامِ الأُمَّهَاتِ الطَّاهِرَاتِ لَمْ يَمَسَّ نَسَبَهُ الشَّرِيفَ شَيْءٌ مِنْ سِفَاحِ وأَدْرَانِ الجَاهِلِيَّةِ، بَلْ هُوَ ﷺ مِنْ سُلَالَةٍ كُلُّهُمْ سَادَةٌ أَشْرَافٌ أَطْهَارٌ.

رَوَىٰ أَبُو نُعَيْمٍ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ بالشَّوَاهِدِ عنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، ولَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَىٰ أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وأُمِّي، لَمْ يُصِبْنِي مِنْ سِفَاحِ الجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ**»[(1)].

قَالَ الدُّكْتُورْ مُحَمَّد أَبُو شَهْبَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وإِذَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ جَرَتْ سُنَّتُهُ أَنْ لا يَبْعَثَ نَبِيًّا إِلَّا في وَسَطٍ مِنْ قَوْمِهِ شَرَفًا، ونَسَبًا، فَقَدْ كانَ فِي الذُّرْوَةِ مِنْ هَذِهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَا مِنْ آبَائِهِ إِلَّا كَانَ غَنِيًّا بالفَضَائِلِ والمَكَارِمِ، ومَا مِنْ أُمٍّ مِنْ أُمَّهَاتِهِ إِلَّا وَهِيَ أَفْضَلُ نِسَاءِ قَوْمِهَا نَسَبًا ومَوْضِعًا، ولَمْ

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١/٥٧)، وأورده السيوطي في الخصائص الكبرىٰ ص ٤٢، وأورده الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في البداية والنهاية (١/٦٥٨)، وقال: هذا مرسل جيد.

قلتُ: وللحديثِ شَوَاهِدُ عن ابن عباس وعائشة وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يَرْتَقِي بها إلىٰ الحَسَنِ ـ وانظر صحيح الجامع للألباني رحمه الله ـ رقم الحديث (٣٢٢٥).

تَزَلْ هَذِهِ الفَضَائِلُ، والكَمَالَاتُ البَشَرِيَّةُ تَنْحَدِرُ مِنَ الأُصُولِ إِلَىٰ الفُرُوعِ حتَّىٰ تَجَمَّعَتْ كُلُّهَا فِي سُلَالَةِ وَلَدِ آدَمَ ومُصَاصَةِ[1] بَنِي إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ[2].

** ** **

(١) يُقَالُ: فُلَانٌ مُصَاصُ قَومِهِ: أي أَخْلَصُهُمْ نَسَبًا. انظر لسان العرب (١٣/١٢٣).

(٢) انظر السِّيرة النَّبوِيَّة في ضوء القرآن والسنة (١/١٨٥) للدكتور محمد أبو شهبة رَحِمَهُ اللهُ.

أُسْرَةُ النَّبيِّ ﷺ

تُعْرَفُ أُسْرَةُ النَّبِيِّ ﷺ بالأُسْرَةِ الهَاشِمِيَّةِ نِسْبَةً إِلَىٰ جَدِّهِ هَاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وسَنَذْكُرُ فِيمَا يَلِي شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ هَاشِمٍ ومَنْ بَعْدَهُ.

۞ هَاشِمُ بنُ عَبْدِ مَنَافٍ:

كَانَ هَاشِمٌ - واسْمُهُ عَمْرٌو - رَجُلًا مُوسِرًا ذَا شَرَفٍ كَبِيرٍ، وقَدْ تَوَلَّىٰ هَاشِمٌ السِّقَايَةَ[1] والرِّفَادَةَ[2] مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حِينَ تَقَاسَمَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ وبَنُو عَبْدِ الدَّارِ المَنَاصِبَ فِيمَا بَيْنَهُمَا.

وسُمِّيَ هَاشِمًا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ هَشَمَ الثَّرِيدَ[3] لِقَوْمِهِ بِمَكَّةَ وأَطْعَمَهُ، وهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الرِّحْلَتَيْنِ لِقُرَيْشٍ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيْفِ، وكَانَ يُطْعِمُ الحُجَّاجَ أَوَّلَ مَا يُطْعِمُ قَبْلَ التَّرْوِيَةِ بِيَوْمٍ بِمَكَّةَ، وبِمِنًىٰ، والمُزْدَلِفَةِ، وعَرَفَةَ، وكَانَ يَثْرُدُ لَهُمُ الخُبْزَ واللَّحْمَ، والخُبْزَ والسَّمْنَ، والسَّوِيقَ[4] والتَّمْرَ، ويَجْعَلُ لَهُمُ المَاءَ

---

(١) السِّقَايَةُ: هي جَمْعُ المَاءِ مِنْ آبَارِ مكَّةَ المُخْتَلِفَةِ، ووضْعُهَا قُرْبَ الكَعْبَةِ، وقَدْ تُحَلَّىٰ بشَيْءٍ من التَّمْرِ أو الزَّبِيبِ فيَشْرَبُ الحَجِيجُ منها. انظر النهاية (٢/٣٤٢).

(٢) الرِّفَادَةُ: هو طعامٌ يُوضَعُ للحُجَّاجِ علىٰ سَبِيلِ الضِّيَافَةِ. النهاية (٢/٢٢٠).

(٣) قال الحافظ في الفتح: (١٠/٦٩١): الثَّرِيدُ: بفتح الثاء وكسر الراء هو خَلْطُ الخُبْزِ بِمَرَقِ اللَّحْمِ، وهشَمَ: أي كسَرَ الخُبْزَ.

(٤) السَّوِيق: هو قمح أو شعير يُقلى ثم يُطْحن، فيتزوَّد به، ملتوتًا بماء أو سمن=

فَيَسْقُونَ بِمِنًى إِلَىٰ أَنْ يَصْدُرُوا[1] مِنْهَا فَتَنْقَطِعَ الضِّيَافَةُ.

وفِيهِ يَقُولُ عَبْدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى:

عَمْرُو الـذِي هَشَـمَ الثَّرِيـدَ لِقَوْمِـهِ ... ورِجَـالُ مَكَّـةَ مُسْـنِتُونَ[2] عِجَـافُ

سُـنَّتْ إِلَيْـهِ الرِّحْلَتَـانِ كِلاهُمَـا ... سَـفَرُ الشِّـتَاءِ ورِحْلَـةُ الأَصْـيَافِ

ومِنْ حَدِيثِ هَاشِمٍ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَىٰ الشَّامِ تَاجِرًا فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ تَزَوَّجَ سَلْمَىٰ بِنْتَ عَمْرٍو أَحَدِ بَنِي عَدِيٍّ بنِ النَّجَّارِ، وكَانَتْ قَبْلَهُ عِنْدَ أُحَيْحَةَ بنِ الجَلَّاحِ مِنَ الأَوْسِ، وكَانَ مِنْ عِظَمِ شَرَفِهَا أَنَّ العِصْمَةَ بِيَدِهَا (أَيْ هِيَ التِي تُطَلِّقُ) إِذَا كَرِهَتْ رَجُلًا فَارَقَتْهُ، فَخَطَبَها هَاشِمٌ فَعَرَفَتْ شَرَفَهُ ونَسَبَهُ فَزَوَّجَتْهُ نَفْسَهَا، وأَقَامَ عِنْدَهَا أَيَّامًا ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ الشَّامِ، وهِيَ عِنْدَ أَهْلِهَا قَدْ حَمَلَتْ بِشَيْبَةَ، فَمَاتَ هَاشِمٌ بِغَزَّةَ مِنْ أَرْضِ فِلَسْطِينَ، ووَلَدَتْ امْرَأَتُهُ سَلْمَىٰ طِفْلًا وَسَمَّتْهُ شَيْبَةَ، وكَانَ لِهَاشِمٍ أَرْبَعُ بَنِينَ وهُمْ: شَيْبَةُ، وأَسَدٌ، وأَبُو صَيْفِيٍّ، ونَضْلَةُ، وخَمْسُ بَنَاتٍ هُنَّ: الشَّفَّاءُ، وخَالِدَةُ، وضَعِيفَةُ، ورُقَيَّةُ، وَحَيَّةُ، وفِي رِوَايَةٍ حَنَّةُ[3].

۞ عَبْدُ المُطَّلِبِ بنُ هَاشِمٍ:

أَوْصَىٰ هَاشِمٌ عِنْدَ وَفَاتِهِ إِلَىٰ أَخِيهِ المُطَّلِبِ فَصَارَتِ السِّقَايَةُ والرِّفَادَةُ إِلَيْهِ مِنْ

= أو عسل. انظر شرح المواهب (٢/٣٥٣) ـ لسان العرب (٦/٤٣٨).

(١) صَدَرَ: رجَعَ. انظر لسان العرب (٧/٣٠١).

(٢) مسنتون: أي أصابتهم السَّنة، والسَّنة هي الجَدْبُ، يقال: أخذتهم السَّنةُ إذا أجدبوا وأُقحطوا. انظر النهاية (٢/٣٧١).

(٣) انظر تفاصيل ذلك في: الطبَقَات الكُبرىٰ لابن سعد (١/٣٤) ـ تاريخ الطبري (١/٥٠٤) ـ البداية والنهاية (٢/٦٥٥).

بَعْدِهِ، وكَانَ ذَا شَرَفٍ فِي قَوْمِهِ، وَفَضلٍ، وكانَتْ قُرَيْشٌ تُسَمِّيهِ: الفَيْضَ لِسَخَائِهِ وفَضْلِهِ.

ولَمَّا صَارَ شَيْبَةُ بنُ هَاشِمٍ وَصِيفًا[1] أوْ فَوْقَ ذَلِكَ سَمِعَ بِهِ، المُطَّلِبُ فَرَحَلَ في طَلَبِهِ فَلَمَّا رَآهُ عَرَفَ شَبَهَ أبِيهِ فِيهِ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وضَمَّهُ إلَيْهِ، وَكَسَاهُ حُلَّةً يَمَانِيَّةً، وأَرْدَفَهُ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ فَقَالَ شَيْبَةُ لِعَمِّهِ: لَسْتُ بِمُفَارِقٍ أمِّي إلَّا أنْ تَأْذَنَ لِي، فَسَأَلَهَا المُطَّلِبُ أنْ تُرْسِلَهُ مَعَهُ فَأَبَتْ، فَقَالَ لَهَا: إنِّي غَيْرُ مُنْصَرِفٍ حتَّىٰ أخْرُجَ بِهِ مَعِي، إنَّ ابنَ أخِي قَدْ بَلَغَ وهُوَ غَرِيبٌ في غَيْرِ قَوْمِهِ، ونَحْنُ أهْلُ بَيْتِ شَرَفٍ في قَوْمِنَا، نَلِي كَثِيرًا مِنْ أَمْرِهِمْ، وقَوْمُهُ وبَلَدُهُ وعَشِيرَتُهُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الإقَامَةِ فِي غَيْرِهِمْ، فَأَذِنَتْ لَهُ فَاحْتَمَلَهُ فَدَخَلَ بِهِ مَكَّةَ مُرْدِفَهُ عَلَىٰ بَعِيرِهِ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: هَذَا المُطَّلِبُ اشْتَرَىٰ عَبْدًا فَسُمِّيَ شَيْبَةُ عَبْدَ المُطَّلِبِ.

فَقَالَ المُطَّلِبُ: وَيْحَكُمْ! إنَّمَا هُوَ ابْنُ أخِي هَاشِمٍ قَدِمْتُ بِهِ مِنَ المَدِينَةِ[2].

۞ وفَاةُ المُطَّلِبِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ:

فَلَمْ يَزَلْ عَبْدُ المُطَّلِبِ مُقِيمًا بِمَكَّةَ حَتَّىٰ تَرَعْرَعَ ثُمَّ إنَّ المُطَّلِبَ بنَ عَبْدِ مَنَافٍ خَرَجَ تَاجِرًا فَهَلَكَ فِي مَنْطِقَةِ رَدْمَانَ مِنْ أرْضِ اليَمَنِ، فَوَلِيَ بَعْدَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ السِّقَايَةَ، والرِّفَادَةَ فَأَقَامَهَا لِلنَّاسِ، وأَقَامَ لِقَوْمِهِ مَا كَانَ آبَاؤُهُ يُقِيمُونَ

---

(١) الوَصِيفُ: هُوَ الغُلَامُ دُونَ المُرَاهِقِ. لسان العرب (٣١٦/١٥).

(٢) انظر تاريخ الطبري (٥٠١/١، ٥٠٢) ـ الطبَّقات الكُبْرىٰ لابن سعد (٣٧/١) ـ الرَّوْض الأُنُف (٢٣/١).

قَبْلَهُ لِقَوْمِهِمْ مِنْ أمْرِهِمْ، وكَانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ جَسِيمًا أَبْيَضَ، وَسِيمًا طِوَالًا فَصِيحًا، مَا رَآهُ أحَدٌ قَطُّ إلَّا أَحَبَّهُ، وَشَرُفَ في قَوْمِهِ شَرَفًا لَمْ يَبْلُغْهُ أحَدٌ مِنْ آبَائِهِ، وأحَبَّهُ قَوْمُهُ، وعَظُمَ خَطَرُهُ فِيهِمْ حَتَّىٰ عُرِفَ بَيْنَ أهْلِ مَكَّةَ: «بِشَيْبَةَ الحَمْدِ» لِكَثْرَةِ حَمْدِ النَّاسِ إيَّاهُ، وكانَ يُقَالُ لَهُ: «الفَيَّاضُ» لِجُودِهِ، ويُقَالُ لَهُ: «مُطْعِمُ طَيْرِ السَّمَاءِ»؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَرْفَعُ مِنْ مَائِدَتِهِ لِلطَّيْرِ والوُحُوشِ عَلَىٰ رُؤُوسِ الجِبَالِ.

ومِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ شُهْرَةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بِالكَرَمِ مَا رَوَاهُ الإمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ والطَّحَاوِيُّ في شَرْحِ مُشْكِلِ الآثَارِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ حُصَيْنٌ إلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ أنْ يُسْلِمَ، فَقَالَ: يا مُحَمَّدُ، كانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ خَيْرًا لِقَوْمِهِ مِنْكَ: كَانَ يُطْعِمُهُمُ الكَبِدَ والسَّنَامَ...[(١)].

هذَا ولَمْ يَكُنْ عَبْدُ المُطَّلِبِ عَظِيمًا عِنْدَ قُرَيْشٍ فَحَسْبُ وإنَّمَا كانَ عَظِيمًا كَذَلِكَ في جَمِيعِ أنْحَاءِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ ذَهَبَ إلَىٰ اليَمَنِ مُهَنِّئًا بِالمُلْكِ عِنْدَمَا تَوَلَّىٰ مَعْدِيكَرِبَ سَيْفُ بنُ ذِي يَزَنٍ عَرْشَ اليَمَنِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ كَانَ ذُو مَكَانَةٍ عِنْدَ مُلُوكِ العَرَبِ كَمَا يَدُلُّ في الوَقْتِ نَفْسِهِ عَلَىٰ مَكَانَتِهِ عِنْدَ قُرَيْشٍ حتَّىٰ أَنَّهُ كَانَ رَئِيسًا لِوَفْدِهَا فِي هَذِهِ المُهِمَّاتِ العَظِيمَةِ[(٢)].

** ** **

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٩٩٩٢) ـ والطحاوي في شرح مشكل الآثار ـ رقم الحديث (٢٥٢٥) ـ وأورده الحافظ في الإصابة (٢/٧٦) وصحح إسناده.

(٢) انظر شرح المواهب (١/٢٧١).

أَهَمُّ الأَحْدَاثِ فِي حَيَاةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ

ومِنْ أَهَمِّ الأَحْدَاثِ التِي وَقَعَتْ فِي حَيَاةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ أَمْرَانِ: حَفْرُ بِئْرِ زَمْزَمَ، وحَادِثُ الفِيلِ.

* **أَمَّا زَمْزَمُ[1]:**

فكَانَتْ سُقْيَا مِنَ اللهِ، وخُلَاصَةُ أَمْرِهَا مَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ: إِنِّي لَنَائِمٌ في الحِجْرِ إِذْ أَتَانِي آتٍ[2] فقَالَ لِي: احْفُرْ طَيْبَةَ[3] قالَ: قُلْتُ: ومَا طَيْبَةُ؟ قالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ الغَدُ رَجَعْتُ إِلَىٰ مَضْجِعِي، فَنِمْتُ فِيهِ، فَجَاءَنِي، فَقَالَ: احْفُرْ بَرَّةَ[4]

---

(١) زَمْزَمُ: هي البِئْرُ المعرُوفَةُ في مكَّةَ المُكَرَّمة. انظر النهاية (٢/٢٨٢).
وجاء في فضلِ مائِهَا أحاديثُ كثِيرةٌ منها:
روىٰ مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٢٤٧٣) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّها مُبارَكَةٌ، إنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ**».
قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٦/٢٦): أي أنَّها تُشْبِعُ شَارِبَهَا كمَا يُشْبِعُهُ الطَّعَامُ.

(٢) أي في المَنَامِ.

(٣) قال السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (١/٢٥٨): لأنها للطيِّبِين والطيِّبَاتِ مِنْ ولَدِ إبرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ عليهِمَا السَّلام.

(٤) قال السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (١/٢٥٨): وهو اسمٌ صَادِقٌ عليها أيضًا لأنَّهَا فاضَتْ للأبرارِ، وغاضَتْ عَنِ الفُجَّارِ.

قالَ: قُلْتُ: وَمَا بَرَّةُ؟ قالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي، فَلَمَّا كَانَ الغَدُ رَجَعْتُ إِلَىٰ مَضْجِعِي، فَنِمْتُ فِيهِ، فَجَاءَنِي فَقَالَ: احْفُرِ المَضْنُونَةَ[1] قالَ: قُلْتُ: ومَا المَضْنُونَةُ؟ قالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي، فَلَمَّا كانَ الغَدُ رَجَعْتُ إِلَىٰ مَضْجِعِي، فَنِمْتُ فِيهِ، فجَاءَنِي فَقَالَ: احْفُرْ زَمْزَمَ[2] قَالَ: قُلْتُ: ومَا زَمْزَمُ؟ قال: لَا تُنْزَفُ[3] أبدًا، ولَا تُذَمُّ[4] تَسْقِي الحَجِيجَ الأَعْظَمَ، وهِيَ بَيْنَ الفَرْثِ[5] والدَّمِ، عِنْدَ نَقْرَةِ الغُرَابِ الأَعْصَمِ[6] عِنْدَ قَرْيَةِ النَّمْلِ[7].

قالَ: فَلَمَّا بُيِّنَ لَهُ شَأْنَها، وَدُلَّ عَلَىٰ مَوْضِعِهَا، وعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ، غَدَا بِمِعْوَلِهِ، ومَعَهُ ابْنُهُ الحَارِثُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، ولَيْسَ لَهُ يَوْمَئِذٍ وَلَدٌ غَيْرُهُ، فَحَفَرَ فَلَمَّا بَدَا لِعَبْدِ المُطَّلِبِ الطَّيَّ، كَبَّرَ فَعَرَفَتْ قُرَيْشٌ أَنَّهُ قَدْ أَدْرَكَ حَاجَتَهُ، فَقَامُوا

---

(١) قال السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (١/٢٥٨ ـ ٢٥٩): لأنها ضُنَّ بها علىٰ غَيْرِ المُؤْمنين، فلا يَتَضَلَّعُ منها مُنَافِقٌ، والتَّضَلُّعُ يعني مَنْ أَكثَرَ مِنَ الشُّربِ حتىٰ تَمَدَّدَ جَنْبُهُ وأضْلاعُهُ، فقد قال رسول الله ﷺ: **«إن آيةَ ما بيننا وبين المنافقينَ، أنهم لا يتضلَّعونَ من زمزم»** رواه ابن ماجه في سننه ـ رقم الحديث (٣٠٦١) وإسناده ضعيف.

(٢) زمزَم: سُميت بذلك لكَثْرَةِ مائِهَا. انظر النهاية (٢/٢٨٢).

(٣) لا تُنْزَفُ: بضم التاء وفتح الزاي: أي لا يَفْنَى ماؤُهَا علىٰ كثرةِ الاسْتِقَاءِ. النهاية (٥/٣٦).

(٤) لا تُذَمُّ: أي لا تُعَابُ. انظر النهاية (٢/١٥٦).

(٥) الفَرْثُ: الكَرْشُ وما فِيهَا. لسان العرب (١٠/٢٠٨).

(٦) الغُرَابُ الأَعْصَمُ: الذي في جناحَيْه بَيَاضٌ. انظر النهاية (٣/٢٢٦).

(٧) قال الإمام السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (١/٢٦١): أما قرية النَّملِ، ففيها مِنَ المُشاكَلَةِ أيضًا والمُنَاسَبَةِ: أنَّ زمزمَ هيَ عَيْنُ مكَّةَ التي يَرِدُهَا الحَجِيجُ، والعُمَّارُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، فيَحْمِلُونَ إليها البُرَّ والشَّعِيرَ، وغير ذلك وهي لا تُحْرَثُ ولا تُزْرعُ، وقريةُ النَّملِ لا تُحْرَثُ و لا تُبْذَرُ وتَجْلِبُ الحُبُوبَ إلىٰ قَرْيَتِهَا مِنْ كُلِّ جانِبٍ.

إِلَيْهِ، فَقَالُوا: يَا عَبْدَ المُطَّلِبِ إِنَّهَا بِئْرُ أَبِينَا إِسْمَاعِيلَ، وإِنَّ لَنَا فِيهَا حَقًّا فَأَشْرِكْنَا مَعَكَ فِيهَا، فَقَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، إِن هَذَا الأَمْرَ قَدْ خُصِصْتُ بِهِ دُونَكُمْ، وأُعْطِيتُهُ مِنْ بَيْنِكُمْ، فَقَالُوا لَهُ: فأَنْصِفْنَا فَإِنَّا غَيْرُ تَارِكِيكَ حَتَّى نُخَاصِمَكَ فِيهَا، قَالَ: فَاجْعَلُوا بَيْنِي وبَيْنَكُمْ مَنْ شِئْتُمْ أُحَاكِمُكُمْ إِلَيْهِ، قَالُوا: كَاهِنَةُ بَنِي سَعْدٍ «هُذَيْمٌ» قَالَ: نَعَمْ، وكَانَتْ فِي مَنْطِقَةِ مَعَانٍ مِنْ مَشَارِفِ الشَّامِ، فَخَرَجُوا إِلَيْهَا، وخَرَجَ مَعَ عَبْدِ المُطَّلِبِ عِشْرُونَ رَجُلًا مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وخَرَجَتْ قُرَيْشٌ بِعِشْرِينَ رَجلٍ مِنْ قَبَائِلِهَا فَلَمَّا كَانُوا بِالفَقِيرِ مِنْ طَرِيقِ الشَّامِ أَوْ حَذْوِهِ فَنِيَ مَاءُ عَبْدِ المُطَّلِبِ وأَصْحَابِهِ، فَظَمِئُوا حَتَّىٰ أَيْقَنُوا بالهَلَكَةِ، فَاسْتَسْقَوْا مَنْ مَعَهُمْ مِنْ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا بِمَفَازَةٍ، ونَحْنُ نَخْشَىٰ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا مِثْلَ مَا أَصَابَكُمْ، فَلَمَّا رَأَىٰ عَبْدُ المُطَّلِبِ مَا صَنَعَ القَوْمُ، ومَا يَتَخَوَّفُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وأَصْحَابِهِ، قَالَ: مَاذَا تَرَوْنَ؟ قَالُوا: مَا رَأْيُنَا إِلَّا تَبَعٌ لِرَأْيِكَ، فَمُرْنَا بِمَا شِئْتَ، قَالَ: فَإِنِّي أَرَىٰ أَنْ يَحْفِرَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ حُفْرَتَهُ لِنَفْسِهِ بِمَا بِكُمُ الآنَ مِنَ القُوَّةِ، فكُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ دَفَعَهُ أَصْحَابُهُ فِي حُفْرَتِهِ ثُمَّ وَارُوهُ، حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا، فَضَيْعَةُ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَيْسَرُ مِنْ ضَيْعَةِ رَكْبٍ جَمِيعًا، فَحَفَرُوا القُبُورَ، ثُمَّ قَعَدُوا يَنْتَظِرُونَ المَوْتَ عَطَشًا، ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ قَالَ: وَاللهِ إِنَّ إِلْقَاءَنَا بِأَيْدِينَا هَكَذَا لِلْمَوْتِ، لَا نَضْرِبُ فِي الأَرْضِ ولَا نَبْتَغِي لِأَنْفُسِنَا، لَعَجْزٌ، فَعَسَىٰ اللهُ أَنْ يَرْزُقَنَا مَاءً بِبَعْضِ البِلَادِ، ارْتَحِلُوا، وَقَامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ إِلَىٰ رَاحِلَتِهِ فَرَكِبَهَا، فَلَمَّا انْبَعَثَتْ بِهِ، انْفَجَرَتْ مِنْ تَحْتِ خُفِّهَا عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ، فَكَبَّرَ عَبْدُ المُطَّلِبِ، وَكَبَّرَ

أَصْحَابُهُ، وشَرِبُوا جَمِيعًا، واسْتَقَوْا ثُمَّ دَعَا القَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقَالَ لَهُمْ: هَلُمُّوا إِلَىٰ المَاءِ، فَقَدْ سَقَانَا اللهُ، فَشَرِبُوا واسْتَقَوْا، وعَرَفُوا فَضْلَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَالُوا لَهُ: قَدْ وَاللهِ قُضِيَ لَكَ عَلَيْنَا يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ، وَاللهِ لَا نُخَاصِمُكَ فِي زَمْزَمَ أَبَدًا، إِنَّ الَّذِي سَقَاكَ هَذَا المَاءَ بِهَذِهِ الفَلَاةِ لَهُوَ الذِي سَقَاكَ زَمْزَمَ، فَارْجِعْ إِلَى سِقَايَتِكَ رَاشِدًا، فَرَجَعَ ورَجَعُوا مَعَهُ، ولَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ الكَاهِنَةِ، وخَلُّوا بَيْنَهُ وبَيْنَ زَمْزَمَ[1].

وحِينَئِذٍ نَذَرَ عَبْدُ المُطَّلِبِ لَئِنْ آتَاهُ اللهُ عَشَرَةَ أَبْنَاءٍ وبَلَغُوا أَنْ يَمْنَعُوهُ، لَيَنْحَرَنَّ أَحَدَهُمْ عِنْدَ الكَعْبَةِ.

❁ رِوَايَاتٌ غَيْرُ صَحِيحَةٍ:

وأَمَّا مَا ذَكَرَهُ ابنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ[2]: مِنْ أَنَّهُ لَمَّا حَفَرَ عَبْدُ المُطَّلِبِ زَمْزَمَ، وَجَدَ فِيهَا غَزَالًا، وسِلَاحًا مِنْ ذَهَبٍ، فَكُلُّهَا رِوَايَاتٌ ضَعِيفَةٌ، لَمْ يَثْبُتْ مِنْهَا شَيْءٌ.

** ** **

(١) أخرج قصة حفر زمزم على يد عبد المطلب: البيهقي في دلائل النبوة (٩٣/١).

(٢) انظر الطَّبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (٣٨/١).

حَدِيثُ الفِيلِ

وأمَّا حَادِثُ الفِيلِ فَهُوَ حَادِثٌ عَظِيمٌ، لَمْ يَحْدُثْ مِثْلُهُ فِي تَارِيخِ العَرَبِ، وكَانَ دَلِيلًا عَلَىٰ ظُهُورِ حَادِثٍ أَكْبَرَ، وَعَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُرِيدُ بِالعَرَبِ خَيْرًا، وأَنَّ لِلْكَعْبَةِ شَأْنًا لَيسَ لِغَيْرِهَا مِنْ بُيُوتِ الدُّنْيَا، ومَرَاكِزِ العِبَادَةِ، وقَدْ نِيطَتْ بِهَا رِسَالَةٌ ودَوْرٌ فِي تَارِيخِ الدِّيَانَاتِ، ومَصِيرِ الإنْسَانِيَّةِ، لابُدَّ أَنْ تُؤَدِّيَهُ، وأَنْ تَقُومَ بِهِ[1].

وكَانَ مِنْ خَبَرِ هَذَا الحَادِثِ أَنَّ أَبْرَهَةَ الأَشْرَمَ عَامِلُ النَّجَاشِيِّ عَلَىٰ اليَمَنِ بَنَىٰ بِصَنْعَاءَ كَنِيسَةً عَظِيمَةً، لَمْ يُرَ مِثْلُهَا في زَمَانِهَا بِشَيْءٍ مِنَ الأَرْضِ، سَمَّاهَا القُلَّيْسَ[2]، ثُمَّ كَتَبَ إلَىٰ النَّجَاشِيِّ: إنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكَ أَيُّهَا المَلِكُ كَنِيسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلُهَا لِمَلِكٍ كَانَ قَبْلَكَ، ولَسْتُ بِمُنْتَهٍ حتَّىٰ أَصْرِفَ إِلَيْهَا حَجَّ العَرَبِ.

فلَمَّا تَحَدَّثَتِ العَرَبُ بِكِتَابِ أَبْرَهَةَ ذَلِكَ إلَىٰ النَّجَاشِيِّ، سَمِعَ رَجُلٌ مِنْ

---

(١) انظر السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدْوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ٧٧.

(٢) قال الإمام السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (١/١١٢): ...وكان أبرَهةُ قد استَذَلَّ أهلَ اليَمَنِ في بُنْيَانِ هذهِ الكَنِيسَةِ الخَسِيسَة، وكان ينقلُ إليها العدد من الرُّخام المُجَزَّع، والحِجَارة المَنْقوشة بالذَّهب من قَصْرِ بلقيس صاحِبَةِ سليمان عليهِ السَّلامُ، ونَصَبَ فيها صُلْبانًا من الذَّهب والفضة، وكان أراد أن يرفع في بِنَائِها حتىٰ يُشرف منها علىٰ عَدَن، وكان حكمه في العامل إذا طَلَعَتْ عليه الشمس ولم يُكمل عَمَلَهُ أن يَقْطع يَدَهُ.

كِنَانَةَ فَعَزَّ عَلَيْهِ الأَمْرُ، وهُوَ مِنَ العَرَبِ الذِينَ رَضَعُوا بِلِبَانِ حُبِّ الكَعْبَةِ وتَعْظِيمِهَا، لَا يَعْدِلُونَ بِهَا بَيْتًا، وَلَا يَرَوْنَ عَنْهَا بَدِيلًا، فَخَرَجَ حَتَّىٰ أَتَىٰ الكَنِيسَةَ فَدَخَلَهَا لَيْلًا فَلَطَّخَ قِبْلَتَهَا بِالعَذِرَةِ وَجَمَعَ جِيَفًا فَأَلْقَاهَا فِيهَا.

فَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ أَبْرَهَةُ وحَلَفَ لَيَسِيرَنَّ إِلَىٰ البَيْتِ حَتَّىٰ يَهْدِمَهُ، ثُمَّ سَارَ بِجَيْشٍ عَظِيمٍ، وخَرَجَ مَعَهُ بِتِسْعَةِ فِيَلَةٍ أَوْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ فِيلًا، واخْتَارَ لِنَفْسِهِ فِيلًا مِنْ أَكْبَرِ الفِيَلَةِ، وكَانَ اسْمُهُ «مَحْمُودًا»، وسَمِعَتْ بِذَلِكَ العَرَبُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِمْ كَالصَّاعِقَةِ، وأَعْظَمُوهُ، ورَأَوْا جِهَادَهُ حَقًّا عَلَيْهِمْ، حِينَ سَمِعُوا بِأَنَّهُ يُرِيدُ هَدْمَ الكَعْبَةِ بَيْتَ اللهِ الحَرَامَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ وكَانَ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ اليَمَنِ، ومُلُوكِهِمْ يُقَالُ لَهُ: (ذُو نَفَرٍ)، فَدَعَا قَوْمَهُ، وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ العَرَبِ إِلَىٰ حَرْبِ أَبْرَهَةَ، وجِهَادِهِ عَنْ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ، ومَا يُرِيدُ مِنْ هَدْمِهِ وإِخْرَابِهِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ فَقَاتَلَهُ، فَهُزِمَ (ذُو نَفَرٍ) وأَصْحَابُهُ، وأُخِذَ لَهُ (ذُو نَفَرٍ) فَأُتِيَ بِهِ أَسِيرًا، فَلَمَّا أَرَادَ أَبْرَهَةُ قَتْلَهُ قَالَ لَهُ (ذُو نَفَرٍ): أَيُّهَا المَلِكُ، لَا تَقْتُلْنِي فَإِنَّهُ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَقَائِي مَعَكَ خَيْرًا لَكَ مِنْ قَتْلِي، فَتَرَكَهُ مِنَ القَتْلِ وحَبَسَهُ عِنْدَهُ فِي وَثَاقٍ، ثُمَّ مَضَىٰ أَبْرَهَةُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ذَلِكَ يُرِيدُ مَا خَرَجَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِأَرْضِ خَثْعَمٍ عَرَضَ لَهُ (نُفَيْلُ بنُ حَبِيبٍ الخَثْعَمِيُّ) فِي قَبِيلَتَيْ خَثْعَمَ: شَهْرَانِ، ونَاهِسٍ، ومَنْ تَبِعَهُ مِنْ قَبَائِلِ العَرَبِ، فَقَاتَلَهُ فَهَزَمَهُ أَبْرَهَةُ، وأُخِذَ لَهُ نُفَيْلٌ أَسِيرًا، فَأُتِيَ بِهِ إِلَىٰ أَبْرَهَةَ، فَلَمَّا أَرَادَ قَتْلَهُ، قَالَ لَهُ نُفَيْلٌ: أَيُّهَا المَلِكُ لا تَقْتُلْنِي فَإِنِّي دَلِيلُكَ بِأَرْضِ العَرَبِ، وهَاتَانِ يَدَايَ لَكَ عَلَىٰ قَبِيلَتَيْ خَثْعَمٍ: شَهْرَانِ وَنَاهِسٍ بِالسَّمْعِ والطَّاعَةِ،

فَخَلَّىٰ سَبِيلَهُ، وخَرَجَ بِهِ مَعَهُ يَدُلُّهُ، حتَّىٰ إذَا مَرَّ بالطَّائِفِ خَرَجَ إلَيْهِ مَسْعُودُ بنُ مُعَتِّبٍ الثَّقَفِيُّ فِي رِجَالٍ مِنْ ثَقِيفٍ، فَقَالُوا لَهُ: أَيُّهَا المَلِكُ، إنَّمَا نَحْنُ عَبِيدُكَ سَامِعُونَ لَكَ مُطِيعُونَ، لَيْسَ عِنْدَنَا لَكَ خِلَافٌ، ولَيْسَ بَيْتُنَا هَذَا البَيْتَ الذِي تُرِيدُ -يَعْنُونَ اللَّاتَ، وهُوَ بَيْتٌ لَهُمْ بِالطَّائِفِ كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ نَحْوَ تَعْظِيمِ الكَعْبَةِ-، إنَّمَا تُرِيدُ البَيْتَ الذِي بِمَكَّةَ، ونَحْنُ نَبْعَثُ مَعَكَ مَنْ يَدُلُّكَ عَلَيْهِ، فَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ، فَبَعَثُوا مَعَهُ رَجُلًا هُوَ أَبُو رِغَالٍ يَدُلُّهُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ إلَىٰ مَكَّة، فَخَرَجَ أبْرَهَةُ، ومَعَهُ الدَّلِيلُ حَتَّىٰ أَنْزَلَهُ المُغَمَّسَ[1]، وهُنَاكَ أَمَرَ أَبْرَهَةُ أَصْحَابَهُ بالغَارَةِ عَلَىٰ نَعَمِ النَّاسِ، فَبَعَثَ رَجُلًا مِنَ الحَبَشَةِ يُقَالُ لَهُ (الأَسْوَدُ بنُ مَقْصُودٍ) عَلَىٰ خَيْلٍ لَهُ، حَتَّىٰ انْتَهَتْ إلَىٰ مَكَّةَ، فَسَاقَ إلَيْهِ أَمْوَالَ قُرَيْشٍ، وغَيْرَهُمْ، فأَصَابَ مِائَتَيْ بَعِيرٍ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ جَدِّ النَّبِيِّ ﷺ، وهُوَ يَوْمَئِذٍ كَبِيرُ قُرَيْشٍ وسَيِّدُهَا، فَهَمَّتْ قُرَيْشٌ، وكِنَانَةُ، وهُذَيْلٌ، ومَنْ كَانَ بِذَلِكَ الحَرَمِ بِقِتَالِهِ، ثُمَّ عَرَفُوا أَنَّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ، فتَرَكُوا ذَلِكَ.

وبَعَثَ أَبْرَهَةُ (حُنَاطَةَ الحِمْيَرِيَّ) إلَىٰ مَكَّةَ، وقَالَ لَهُ: سَلْ عَنْ سَيِّدِ أَهْلِ هذَا البَلَدِ وشَرِيفِهَا، ثُمَّ قُلْ لَهُ: إنَّ المَلِكَ يَقُولُ لَكَ: إنِّي لَمْ آتِ لِحَرْبِكُمْ، إنَّمَا جِئْتُ لِهَدْمِ هَذَا البَيْتِ، فَإِنْ لَمْ تَعْرِضُوا لَنَا دُونَهُ بِحَرْبٍ، فَلَا حَاجَةَ لِي فِي دِمَائِكُمْ، فَإِنْ هو لَمْ يُرِدْ حَرْبِي فَأْتِنِي بِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ (حُنَاطَةُ) مَكَّةَ، واجْتَمَعَ بِعَبْدِ المُطَّلِبِ أَخْبَرَهُ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ أَبْرَهَةُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ: واللهِ مَا نُرِيدُ

(١) المُغَمَّسُ: مَوضِعٌ قُربَ مكَّةَ، في طَرِيقِ الطَّائِفِ. انظر معجم البلدان (١٨٨/٥).

حَرْبَهُ، ومَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللهِ الحَرَامُ، وبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْتُهُ وحَرَمُهُ، وإِنْ يُخَلِّ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ، فَوَاللهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ عَنْهُ، فَقَالَ حُنَاطَةُ: فَانْطَلِقْ مَعِيَ إِلَيْهِ، فانْطَلَقَ مَعَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ، ومَعَهُ بَعْضُ بَنِيهِ، حتَّىٰ أتَىٰ العَسْكَرَ فَسَأَلَ عَنْ ذِي نَفَرٍ، وكَانَ لَهُ صَدِيقًا، حتَّىٰ دَخَلَ عَلَيْهِ وهُوَ فِي مَحْبَسِهِ، فقَالَ لَهُ: يَا ذَا نَفَرٍ هَلْ عِنْدَكَ مِنْ غَنَاءٍ فِيمَا نَزَلَ بِنا؟ فَقَالَ لَهُ ذُو نَفَرٍ: ومَا غَنَاءُ رَجُلٍ أَسِيرٍ بِيَدَيْ مَلِكٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يَقْتُلَهُ غُدُوًّا أَوْ عَشِيًّا؟ مَا عِنْدِي غَنَاءٌ في شَيْءٍ مِمَّا نَزَلَ بِكَ، إلَّا أَنَّ (أُنَيسًا) سَائِقَ الفِيلِ صَدِيقٌ لِي، وسَأُرْسِلُ إِلَيْهِ فأُوصِيهِ بِكَ، وأُعْظِمُ عَلَيْهِ حَقَّكَ، وأَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَكَ عَلَىٰ المَلِكِ، فتُكَلِّمَهُ بِمَا بَدَا لَكَ، ويَشْفَعُ لَكَ عِنْدَهُ بِخَيْرٍ إِنْ قَدِرَ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَقَالَ: حَسْبِي، فَبَعَثَ ذُو نَفَرٍ إِلَىٰ (أُنَيْسٍ) فَقَالَ لَهُ: إِنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ سَيِّدُ قُرَيْشٍ، وصَاحِبُ عِيرِ مَكَّةَ، يُطْعِمُ النَّاسَ بِالسَّهْلِ، والوُحُوشَ في رُؤُوسِ الجِبَالِ، وقَدْ أَصَابَ لَهُ المَلِكُ مِائَتَيْ بَعِيرٍ، فاسْتَأْذِنْ لَهُ عَلَيْهِ، وانْفَعْهُ عِنْدَهُ بِمَا اسْتَطَعْتَ.

۞ دُخُولُ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَلَىٰ أَبْرَهَةَ الحَبَشِيِّ:

فَفَعَلَ أُنَيسٌ، وَأَذِنَ أَبْرَهَةُ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ بِالدُّخُولِ عَلَيْه، وكَانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ أَوْسَمَ النَّاسِ، وأَجْمَلَهُمْ، وأَعْظَمَهُمْ، فلَمَّا رَآهُ أَبْرَهَةُ أَجَلَّهُ، وأَعْظَمَهُ، وأَكْرَمَهُ عَنْ أَنْ يُجْلِسَهُ تَحْتَهُ، وكَرِهَ أَنْ تَرَاهُ الحَبَشَةُ يَجْلِسُ مَعَهُ عَلَىٰ سَرِيرِ مُلْكِهِ، فَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ، فَجَلَسَ عَلَىٰ بِسَاطِهِ، وأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ جَنْبِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ:

قُلْ لَهُ حَاجَتَكَ؟ فقَالَ لهُ ذَلِكَ التَّرْجُمَانُ، فقَالَ: حَاجَتِي أنْ يَرُدَّ عَلَيَّ المَلِكُ مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي، فَلَمَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ، قَالَ أَبْرَهَةُ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: قَدْ كُنْتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهِدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتُكَلِّمُنِي فِي مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لكَ وتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ ودِينُ آبَائِكَ، قَدْ جِئْتُ لِأَهْدِمَهُ، لَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ؟

فقَالَ لَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الإِبِلِ، وإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ، فَقَالَ أَبْرَهَةُ: مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي، قَالَ: أَنْتَ وذَاكَ.

فَأَمَرَ أَبْرَهَةُ أَنْ يُرَدَّ إِبِلُ عَبْدِ المُطَّلِبِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا قَبَضَهَا قَلَّدَها(١) النِّعَالَ وأَشْعَرَهَا(٢) وجَعَلَهَا هَدْيًا، وَبَثَّهَا فِي الحَرَمِ كَيْ يُصَابَ مِنْهَا شَيْءٌ فَيَغْضَبَ رَبُّ الحَرَمِ، ثُمَّ قَامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو اللهَ وَيَسْتَنْصِرُهُ، وهُوَ آخِذٌ بِحَلَقَةِ بَابِ الكَعْبَةِ ويَقُولُ:

لَاهُمَّ إِنَّ المَرْءَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ ... فَامْنَعْ رِحَالَكْ
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ومَحَالُهُمْ ... غَدْوًا مَحَالَكْ
إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وقِبْلَتَنَا ... فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

وأَشَارَ عَبْدُ المُطَّلِبِ عَلَىٰ قَوْمِهِ بالتَّفَرُّقِ في الشِّعَابِ، والتَّحَرُّزِ في رُؤُوسِ الجِبَالِ، تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرَّةِ الجَيْشِ(٣)؛ لِأَنَّهُ رَأَىٰ أَنْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِأَبْرَهَةَ

---

(١) تقْلِيدُ البُدْنِ: أن يُجعل في عُنُقِها شِعار يُعلم به أنها هَدْيٌ. لسان العرب (١١/٢٧٦).

(٢) أَشْعَرَ البَدَنَةَ: أعلَمَهَا، وهو أن يشُقَّ جلدها أو يطعنَهَا في أَسْمِنَتِهَا في أحد الجانِبَين حتىٰ يَظْهَرَ الدَّمُ ويعرف أنها هَدْي. انظر لسان العرب (٧/١٣٥).

(٣) مَعَرَّةُ الجَيْشِ: أي أذَىٰ الجَيْشِ. انظر النهاية (٤/٢٩١).

وجُنُودِهِ، وأنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَحْمِيهِ.

وتَهَيَّأَ أبْرَهَةُ لِدُخُولِ مَكَّةِ، وعَبَّأَ جَيْشَهُ[1]، وهَيَّأَ فِيلَهُ، فَلَمَّا كَانَ فِي وَادِي (مُحَسِّرٍ) بَيْنَ مُزْدَلِفَةَ وَمِنًىٰ بَرَكَ الفِيلُ، ولَمْ يَقُمْ لِيَقْدَمَ إِلَىٰ الكَعْبَةِ، ويُقَالُ: إنَّهُمْ لَمَّا وجَّهُوا الفِيلَ إِلَىٰ مَكَّةَ أقْبَلَ نُفَيْلُ بنُ حَبِيبٍ الخَثْعَمِيُّ حتَّىٰ قَامَ إِلَىٰ جَنْبِ الفِيلِ، ثُمَّ أخَذَ بِأُذُنِهِ، فَقَالَ: ابْرُكْ مَحْمُودُ، فإنَّكَ في بَلَدِ اللهِ الحَرَامِ، ثُمَّ أرْسَلَ أُذُنَهُ، فبَرَكَ الفِيلُ، وخَرَجَ نُفَيْلٌ يَشْتَدُّ حتَّىٰ أَصْعَدَ في الجَبَلِ، وضَرَبُوا الفِيلَ لِيَقُومَ فَأَبَىٰ، فَضَرَبُوا رَأْسَهُ لِيَقُومَ فَأَبَىٰ، فَوَجَّهُوهُ رَاجِعًا إِلَىٰ اليَمَنِ، فَقَامَ يُهَرْوِلُ، ووَجَّهُوهِ إِلَىٰ الشَّامِ، فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، ووَجَّهُوهُ إِلَىٰ المَشْرِقِ، فَفعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، ووجَّهُوهُ إِلَىٰ مَكَّةَ فَبَرَكَ.

۞ وُصُولُ الطَّيْرِ الأبَابِيلِ:

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أبَابِيلَ[2] مِنَ البَحْرِ، مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا: ثَلَاثَةُ أحْجَارٍ، حَجَرٌ في مِنْقَارِهِ، وحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ، وحَجْمُ الحِجَارَةِ كحَجْمِ الحُمُّصِ أوِ العَدَسِ، لَا يُصِيبُ مِنْهُمْ أحَدًا إلَّا صَارَ تَتَقَطَّعُ أعْضَاؤُهُ ويَهْلَكُ، ولَيْسَ كُلُّهُمْ أصَابَتْ، وخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطَّرِيقَ الذِي مِنْهُ جَاؤُوا، ويَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلِ بنِ حَبِيبٍ لِيَدُلَّهُمْ عَلَىٰ الطَّرِيقِ إِلَىٰ اليَمَنِ، فَقَالَ نُفَيْلٌ حِينَ رَأَىٰ مَا أنْزَلَ اللهُ بِهِمْ مِنْ نِقْمَتِهِ:

---

(١) عَبَّأَ جَيْشَهُ: أي رتَّبهم في مواضعِهِم وهيَّأَهُمْ للحَرْبِ. انظر النهاية (٣/١٥٣).

(٢) أبَابِيلُ: أي جَمَاعَاتٌ يتبع بعضُهَا بَعضًا. تفسير ابن كثير (٨/٤٨٧).

أيْـــنَ المَفَـــرُّ وَالْإِلَهُ الطَّالِـــبُ ... والأشْـرَمُ المَغْلُـوبُ لَـيْسَ الغَالِـبُ

وقَالَ أيْضًا:

أَلَا حُيِّيـــتِ عَنَّـــا يَـــا رُدَيْنَـــا ... نَعِمْنَـــاكُمْ مَـــعَ الإِصْـــبَاحِ عَيْنَـــا

رُدَيْنَـــةُ، لَـــوْ رَأَيْـــتِ فَـــلَا تُرِيـــهِ ... لَـدَىٰ جَنْـبِ المُحَصَّـبِ مَـا رَأَيْنَـا

إذًا لَعَـــذَرْتِنِي وَحَمِـــدْتِ أَمْـــرِي ... ولَـمْ تَأْسَـيْ عَلَـىٰ مَـا فَـاتَ بَيْنَـا

حَمِـــدْتُ اللهَ إذْ أَبْصَـــرْتُ طَيْـــرًا ... وَخِفْـــتُ حِجَـــارَةً تُلْقَـــىٰ عَلَيْنَـــا

وكُـــلُّ القَـــوْمِ يَسْـــأَلُ عَـــنْ نُفَيْـــلٍ ... كَـــأَنَّ عَلَـــيَّ لِلْحُبْشَـــانِ دَيْنَـــا

فَخَرَجُوا يَتَسَاقَطُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ، ويَهْلَكُونَ بِكُلِّ مَهْلَكٍ.

۞ **هَلَاكُ أَبْرَهَةَ الأَشْرَمِ:**

وأَمَّا أَبْرَهَةُ فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِ دَاءً تَسَاقَطَتْ بِسَبَبِهِ أَنَامِلُهُ[(١)]، أُنْمُلَةً أُنْمُلَةً، ولَمْ يَصِلْ إِلَىٰ صَنْعَاءَ إِلَّا وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّائِرِ، وانْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ، فَمَاتَ شَرَّ مِيتَةٍ.

يقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[(٢)].

فلَمَّا رَدَّ اللهُ تَعَالَىٰ الْحَبَشَةَ عَنْ مَكَّةَ، وأَصَابَهُمْ بِمَا أَصَابَهُمْ بِهِ مِنَ النِّقْمَةِ

(١) الأَنَامِلُ: هي رؤُوسُ الأَصَابِعِ. انظر لسان العرب (١٤/٢٩٥).

(٢) سورة الفيل آية (١ ـ ٥).

أَعْظَمَتِ العَرَبُ قُرَيْشًا، وقَالُوا: هُمْ أَهْلُ اللهِ، قَاتَلَ اللهُ عَنْهُمْ وكَفَاهُمُ العَدُوَّ، وازْدَادُوا تَعْظِيمًا لِلْبَيْتِ الحَرَامِ، وإِيمَانًا بِمَكَانِهِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ، وقَالُوا في ذَلِكَ أَشْعَارًا يَذْكُرُونَ فِيهَا مَا صَنَعَ اللهُ بِالحَبَشَةِ، ومَا رَدَّ عَنْ قُرَيْشٍ مِنْ كَيْدِهِمْ، مِنْهَا مَا قَالَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى:

تَنَكَّلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا ... كَانَتْ قَدِيمًا لَا يُرَامُ حَرِيمُهَا
لَمْ تُخْلَقِ الشِّعْرَىٰ لَيَالِيَ حُرِّمَتْ ... إِذْ لَا عَزِيزَ مِنَ الأَنَامِ يَرُومُهَا
سَائِلْ أَمِيرَ الجَيْشِ عَنْهَا مَا رَأَىٰ ... ولَسَوْفَ يُنْبِي الجَاهِلِينَ عَلِيمُهَا
سِتُّونَ أَلْفًا لَمْ يَؤُوبُوا أَرْضَهُمْ ... بَلْ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ الإِيَابِ سَقِيمُهَا
دَانَتْ بِهَا عَادٌ وجُرْهُمُ قَبْلَهُمْ ... واللهُ مِنْ فَوْقِ العِبَادِ يُقِيمُهَا

وقَدْ وَقَعَ هَذَا الحَادِثُ في شَهْرِ المُحَرَّمِ قَبْلَ مَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ بِخَمْسِينَ أَوْ بِخَمْسٍ وخَمْسِينَ يَوْمًا، وكانَ ذَلِكَ آيَةً مِنَ اللهِ، ومُقَدِّمَةً لِبِعْثَةِ نَبِيٍّ يُبْعَثُ فِي مَكَّةَ ويُطَهِّرُ الكَعْبَةَ مِنَ الأَوْثَانِ، ويُعِيدُ إِلَيْهَا مَا كَانَ لَهَا مِنْ رِفْعَةٍ وشَأْنٍ، وتَكُونُ لِدِينِهِ صِلَةٌ عَمِيقَةٌ دَائِمَةٌ بِهَذَا البَيْتِ.

واسْتَعْظَمَ العَرَبُ هَذَا الحَادِثَ فَأَرَّخُوا بِهِ، وقَالُوا: وَقَعَ هَذَا فِي عَامِ الفِيلِ، ووُلِدَ فُلَانٌ في عَامِ الفِيلِ، ووَقَعَ هَذَا بَعْدَ عَامِ الفِيلِ بِكَذَا مِنَ السِّنِينَ(١).

---

(١) تفاصيل قِصَّةِ أصحاب الفيلِ انظرها في: البداية والنهاية (٢/٥٦٥) سيرة ابن هشام (١/٧٦) ـ الرَّوْض الأُنُف (١/١١٧) ـ دلائل النبوة لأبي نعيم (١/١٤٤) ـ دلائل النبوة للبيهقي (١/١١٥).

نَذْرُ عَبْدِ المُطَّلِبِ ذَبْحَ أَحَدِ أَوْلادِهِ

رَأَيْنَا مَا لَقِيَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ مِنْ قُرَيْشٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَحْفُرَ بِئْرَ زَمْزَمَ، أَحَسَّ بالضَّعْفِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ نَصِيرٌ عَلَيْهِمْ، ولَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إِلَّا ابْنُهُ الحَارِثُ، فَنَذَرَ للهِ تَعَالَىٰ لَئِنْ وُلِدَ لَهُ عَشَرَةُ بَنِينَ، ثُمَّ بَلَغُوا مَعَهُ حتَّىٰ يَمْنَعُوهُ لَيَنْحَرَنَّ أَحَدَهُمْ عِنْدَ الكَعْبَةِ.

وفِعْلًا يُقَدِّرُ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ، ويُرْزَقُ عَشَرَةَ أَبْنَاءٍ غَيْرَ البَنَاتِ وهُمْ:

١ ـ الحَارِثُ وهُوَ أَكْبَرُهُمْ وأُمُّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ جُنْدُبٍ.

٢ ـ الزُّبَيْرُ وأُمُّهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو بنِ عَائِذٍ المَخْزُومِيَّةُ.

٣ ـ أَبُو لَهَبٍ عَبْدُ العُزَّىٰ وأُمُّهُ آمِنَةُ بِنْتُ هَاجَرَ.

٤ ـ المُقَوَّمُ وأُمُّهُ هَالَةُ.

٥ ـ ضِرَارٌ وهُوَ شَقِيقُ العَبَّاسِ وأُمُّهُ نَتْلَةُ.

٦ ـ أَبُو طَالِبٍ وأُمُّهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو بنِ عَائِذٍ المَخْزُومِيَّةُ.

٧ ـ جَحْلٌ، وَيُقَالُ حَجْلٌ بِتَقْدِيمِ الْحَاءِ عَلَى الْجِيمِ وَأُمُّهُ هَالَةُ بِنْتُ وُهَيْبٍ.

٨ ـ عَبْدُ اللهِ وَالِدُ الرَّسُولِ ﷺ وهُوَ شَقِيقُ أَبِي طَالِبٍ والزُّبَيرِ.

٩ ـ حَمْزَةُ رضي الله عنه وأُمُّهُ هَالَةُ بِنْتُ وُهَيْبٍ.

١٠ ـ العَبَّاسُ رضي الله عنه وأُمُّهُ نَتْلَةُ.

قُلْتُ: فَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَصْغَرُ أَوْلَادِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، خِلَافًا لِابْنِ إِسْحَاقَ الَّذِي قَالَ فِي السِّيرَةِ: وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَصْغَرَ بَنِي أَبِيهِ[١].

وَتَعَقَّبَهُ السُّهَيْلِيُّ فِي الرَّوْضِ الْأُنُفِ بِقَوْلِهِ: هَذَا غَيْرُ مَعْرُوفٍ، وَلَعَلَّ الرِّوَايَةَ: أَصْغَرَ بَنِي أُمِّهِ، وَإِلَّا فَحَمْزَةُ كَانَ أَصْغَرَ مِنْ عَبْدِ اللهِ، وَالعَبَّاسُ أَصْغَرَ مِنْ حَمْزَةَ[٢].

وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي أُسْدِ الْغَابَةِ: وَكَانَ الْعَبَّاسُ بنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَصْغَرَ وَلَدِ أَبِيهِ[٣].

وأَمَّا البَنَاتُ فَسِتٌّ وهُنَّ: صَفِيَّةُ، وأُمُّ حَكِيمٍ وهِيَ البَيْضَاءُ، وعَاتِكَةُ، وأُمَيْمَةُ، وأَرْوَىٰ، وبَرَّةُ[٤].

فلَمَّا بَلَغَ بَنُو عَبْدِ المُطَّلِبِ عَشَرَةً، وعَرَفَ أَنَّهُمْ سَيَمْنَعُونَهُ جَمَعَهُمْ ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بِنَذْرِهِ، ودَعَاهُمْ إِلَىٰ الوَفَاءِ بالنَّذْرِ فَأَطَاعُوهُ، وقَالُوا: كَيْفَ نَصْنَعُ؟ قالَ: لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ قِدْحًا ثُمَّ يَكْتُبَ فِيهِ اسْمَهُ ثُمَّ ائْتُونِي، فَفَعَلُوا ثُمَّ أَتَوْهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ (هُبَلٍ) وهُوَ صَنَمٌ في جَوْفِ الكَعْبَةِ، وقالَ لِصَاحِبِ القِدَاحِ[٥]: اضْرِبْ عَلَىٰ بَنِيَّ

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/١٩٠).

(٢) انظر الروض الأنف (١/٢٧١).

(٣) انظر أسد الغابة (٢/٥٤٦).

(٤) انظر الطبقات لابن سعد (١/٤١) ـ البداية والنهاية (٢/٦٥٠) ـ الرَّوْض الأُنُف (١/٢٧١).

(٥) القِدَاحُ: جمع قِدْح بكسر القاف، ويقال لها أيضًا: الأَزْلَامُ جمع زَلَم، وزُلَم وهو السهم قبل أن يُراش، ويوضع فيه النصل، وكانوا في الجاهلية يكتبون عليها الأمر والنهي، اِفعل، ولا تفعل، كان الرجل منهم يضعها في وِعَاءٍ له، فإذا أراد سَفَرًا أو زَوَاجًا أو=

هَؤُلَاءِ بِقِدَاحِهِمْ، وأَخْبَرَهُ بِنَذْرِهِ الذِي نَذَرَ فَفَعَلَ الرَّجُلُ.

۞ خُرُوجُ القِدْحِ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ:

وكَانَ عَبْدُ اللهِ أَحَبَّ وَلَدِ عَبْدِ المُطَّلِبِ إِلَيْهِ، وكَانَ يَقُولُ: لَئِنْ صُرِفَ عَنْ عَبْدِ اللهِ، فَأَنَا بِخَيْرٍ.

فَضَرَبَ بِالْقِدَاحِ فَخَرَجَ القِدْحُ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ فأَخَذَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ بِيَدِهِ وأَخَذَ الشَّفْرَةَ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ إِلَىٰ الكَعْبَةِ لِيَذْبَحَهُ فَمَنَعَتْهُ قُرَيْشٌ، وَلَاسِيَّمَا إِخْوَتُهُ وأَخْوَالُهُ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ.

فقَالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ: فكَيْفَ أَصْنَعُ بِنَذْرِي؟ فأَشَارُوا عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ عَرَّافَةً بِالحِجَازِ، فَيَسْتَأْمِرَهَا فذَهَبَ إِلَيْهَا عَبْدُ المُطَّلِبِ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا شَرَحَ لَهَا تَفَاصِيلَ القِصَّةِ، فَقَالَتْ: كَمِ الدِّيَةُ فِيكُمْ؟ قَالُوا: عَشَرَةٌ مِنَ الإِبِلِ، قَالَتْ: اضْرِبُوا القِدَاحَ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ، وعَلَىٰ عَشْرٍ مِنَ الإِبِلِ، فَإِنْ خَرَجَتْ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ فَزِيدُوهَا عَشْرًا حَتَّىٰ يَرْضَىٰ رَبُّهُ، فَإِنْ خَرَجَتْ عَلَىٰ الإِبِلِ فَانْحَرُوهَا عَنْهُ.

۞ فِدَاءُ عَبْدِ اللهِ بِمِائَةٍ مِنَ الإِبِلِ:

فَلَمَّا رَجَعُوا قَرَّبُوا عَبْدَ اللهِ، وعَشْرًا مِنَ الإِبِلِ فَخَرَجَ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ، فَزَادُوا عَشْرًا، فَخَرَجَتْ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَزِيدُ مِنَ الإِبِلِ عَشْرًا عَشْرًا، ولَا تَقَعُ القُرْعَةُ إِلَّا عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ إِلَىٰ أَنْ بَلَغَتِ الإِبِلُ مِائَةً[1] فَوَقَعَتِ القُرْعَةُ عَلَيْهَا،

= أمرًا مهمًّا أدخل يده، فأخرَجَ منها زلمًا، فإذا خرج الأمر مضىٰ لشأنِهِ، وإن خرج النَّهي كَفَّ عنه، ولم يفعله. انظر النهاية (٢/٢٨١) ـ لسان العرب (٦/٧٥) (١١/٥١).

(١) روىٰ ابن سعد في الطَّبَقَات الكُبْرىٰ (١/٤١) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال:=

فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: لَقَدْ رَضِيَ رَبُّكَ يا عَبْدَ المُطَّلِبِ، فَقَالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ: لَا حَتَّىٰ أَضْرِبَ عَلَيْهَا بِالقِدَاحِ ثَلَاثًا، فَفَعَلَ، وفِي كُلِّ مَرَّةٍ تَخْرُجُ القِدَاحُ عَلَىٰ الإِبِلِ، ثُمَّ نُحِرَت وتُرِكَتْ لَا يُصَدُّ عَنْهَا إِنْسَانٌ، ولَا طَيْرٌ ولَا سَبُعٌ[1].

۞ حَدِيثٌ وَاهٍ:

وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ»، فَقَدْ أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ[2]، وَسَكَتَ عَلَيْهِ، وَتَعَقَّبَهُ الذَّهَبِيُّ بِقَوْلِهِ: إِسْنَادُهُ وَاهٍ.

وَقَالَ الإِمَامُ القُرْطُبِيُّ: وَهَذَا الْحَدِيثُ لَا حُجَّةَ فِيهِ، لِأَنَّ سَنَدَهُ لَا يَثْبُتُ[3].

وَأَوْرَدَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ، وَقَالَ: وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جِدًّا[4].

وَأَوْرَدَهُ السُّيُوطِيُّ فِي الْفَتَاوَى، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَفِي إِسْنَادِهِ مَنْ لَا يُعْرَفُ[5].

وَأَوْرَدَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ، وَقَالَ: لَا أَصْلَ لَهُ[6].

= كانت الدِّيَةُ يومئذٍ عَشْرًا من الإبلِ، وعبد المطلبِ أَوَّلُ من سَنّ ديةَ النَّفْسِ مائةً من الإبل، فجَرَتْ في قريش والعرب مائة من الإبل، وأقرَّها رسول الله ﷺ علىٰ ما كانت عليه.

(١) انظر الطبقات لابن سعد (١/٤١) ـ البداية والنهاية (٢/٦٥٠) ـ الرَّوْض الأُنُف (١/٢٧١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك كتاب تواريخ المتقدِّمينَ من الأنبياء والمرسلين باب ذِكر من قال: إن الذَّبِيحَ إسحاق بن إبراهيم عليهِ السَّلامُ ـ رقم الحديث (٤١٠٢).

(٣) انظر تفسير القرطبي (١٨/٨٢).

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٧/٣٥).

(٥) أورده العجلوني في كشف الخفاء (١/١٩٩).

(٦) انظر السلسلة الضعيفة ـ رقم الحديث (٣٣١) (١٦٧٧).

زَوَاجُ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ

ولَمَّا بَلَغَ عَبْدُ اللهِ خَمْسًا وعِشْرِينَ سَنَةً، وكَانَ شَابًّا نَسِيبًا جَمِيلًا، وَسِيمًا غَضَّ الإهَابِ، قَوِيَّ البُنْيَانِ أرَادَ أبُوهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ أنْ يُزَوِّجَهُ، فزَوَّجَهُ آمِنَةَ بِنْتَ وَهْبِ بنِ عَبْدِ مَنَافِ، بنِ زُهْرَةَ، بنِ كِلَابِ، بنِ مُرَّةَ، وهِيَ يَوْمَئِذٍ أفْضَلُ امْرَأةٍ في قُرَيْشٍ نَسَبًا ومَوْضِعًا[(١)]، وأبُوهَا سَيِّدُ بَنِي زُهْرَةَ نَسَبًا وشَرَفًا، فَبَنَىٰ[(٢)] بِهَا عَبْدُ اللهِ في مَكَّةَ[(٣)].

قالَ ابْنُ إسْحَاقَ: فكَانَ رسُولُ الله ﷺ أوْسَطَ قَوْمِهِ نَسَبًا، وأعْظَمَهُمْ شَرَفًا مِنْ قِبَلِ أبِيهِ وأُمِّهِ[(٤)].

❁ قِصَّةٌ غَيْرُ صَحِيحَةٍ ومُنْكَرَةٌ:

رَوَىٰ ابنُ سَعْدٍ في طَبَقَاتِهِ، وابْنُ إسْحَاقَ في السِّيرَةِ: أنَّ امْرَأةً تَعَرَّضَتْ لِعَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ والِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وأرَادَتْ مِنْهُ أنْ يَزْنِيَ بِهَا، وذَلِكَ بِسَبَبِ أنَّهَا رَأَتْ في وَجْهِ عَبْدِ اللهِ نُورًا سَاطِعًا، فلَمَّا تَزَوَّجَ عَبْدُ اللهِ آمِنَةَ بِنْتَ وَهْبٍ أُمَّ الرَّسُولِ ﷺ، وَوَقَعَ بِهَا، ذَهَبَ ذَلِكَ النُّورُ الذِي كَانَ في وَجْهِ عَبْدِ اللهِ،

---

(١) أفضلُ امرَأةٍ من قُريش نسبًا مِنْ جهة الأب، ومَوْضعًا مِنْ جهة الأم. انظر شرح الزرقاني علىٰ المواهب (١/١٠٣).

(٢) البِنَاءُ: هو الدُّخولُ بالزوجة. انظر النهاية (١/١٥٦).

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/١٩٣).

(٤) انظر سيرة ابن هشام (١/١٩٤).

ثُمَّ رَجَعَ عَبْدُ اللهِ إِلَىٰ المَرْأَةِ، وقَالَ لَهَا: هلْ لَكِ فِي الذِي عَرَضْتِ عَلَيَّ؟

فَقَالَتْ: لَا، مَرَرْتَ وفي وَجْهِكَ نُورٌ سَاطِعٌ، ثُمَّ رَجَعْتَ ولَيْسَ فِيهِ ذَلِكَ النُّورُ، فَلَيْسَ لِي بِكَ اليَوْمَ حَاجَةٌ[1].

وهَذِهِ الرِّوَايَةُ مُنْكَرَةٌ سَنَدًا وَمَتْنًا، ومَنْ يَقْرَأُ الرِّوَايَاتِ المُخْتَلِفَةَ عَنْهَا يُدْرِكُ مَدَىٰ الِاخْتِلَافِ والِاضْطِرَابِ في سَوْقِهَا سَوَاءً في تَعْيِينِ المَرْأَةِ، إِذْ مَرَّةً هِيَ خَثْعَمِيَّةٌ، وأُخْرَىٰ أَسَدِيَّةٌ قُرَشِيَّةٌ، اسْمُهَا قُتَيْلَةُ، وثَالِثَةً عَدَوِيَّةٌ اسْمُهَا لَيْلَىٰ، وكَذَلِكَ فِي صِفَةِ عَبْدِ اللهِ عِنْدَمَا الْتَقَتْهُ، فَمَرَّةً هُوَ مُطَيَّنُ الثِّيَابِ، وأُخْرَىٰ هُوَ في زِينَتِهِ[2].

قالَ الدُّكْتُور مُحَمَّد أَبُو شَهْبَة رَحِمَهُ اللهُ: وفِي الحَقِّ أَنِّي فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا العَرْضِ[3]، ... واللهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ هَذِهِ القِصَّةِ[4].

۞ وفَاةُ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ:

ثُمَّ خَرَجَ عَبْدُ اللهِ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ إِلَىٰ الشَّامِ في عِيرٍ[5] مِنْ عِيرَاتِ قُرَيْشٍ يَحْمِلُونَ تِجَارَاتٍ، فَفَرَغُوا مِنْ تِجَارَاتِهِمْ ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَمَرُّوا بالمَدِينَةِ وعَبْدُ اللهِ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ يَوْمَئِذٍ مَرِيضٌ، فقَالَ عَبْدُ اللهِ: أَنَا أَتَخَلَّفُ عِنْدَ

---

(١) أخرج ذلك ابن سعد في طبقاته (١/٤٤) - وابن إسحاق في السيرة (١/١٩٢) - والبيهقي في دلائل النبوة (١٠٧/١٠).

(٢) انظر السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (١/٩٥) للدكتور أكرم العمري.

(٣) أي عَرْضِ هذه المرأةِ نفسهَا علىٰ عبدِ الله والدِ الرَّسول ﷺ.

(٤) انظر السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسنة (١/١٦٤) للدكتور محمد أبو شهبة رَحِمَهُ اللهُ.

(٥) العِيرُ: هي الإبِل التي كانوا يَتَاجِرون عليها. انظر النهاية (٣/٢٩٧).

أَخْوَالِي بَنِي عَدِيٍّ بنِ النَّجَّارِ، فأَقَامَ عِنْدَهُمْ مَرِيضًا شَهْرًا، ومَضَىٰ أَصْحَابُهُ فَقَدِمُوا مَكَّةَ، فَسَأَلَهُمْ عَبْدُ المُطَّلِبِ عنْ عَبْدِ اللهِ، فَقَالُوا: خَلَّفْنَاهُ عِنْدَ أَخْوَالِهِ بَنِي عَدِيٍّ بنِ النَّجَّارِ، وهُوَ مَرِيضٌ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ عَبْدُ المُطَّلِبِ أَكْبَرَ وَلَدِهِ الحَارِثَ فَوَجَدَهُ قَدْ تُوُفِّي ودُفِنَ في دَارِ النَّابِغَةِ، وهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ بنِ النَّجَّارِ، فَرَجَعَ الحَارِثُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ إِلَىٰ أَبِيهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فأَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللهِ قَدْ تُوُفِّيَ، فَوَجِدَ[1] عَلَيْهِ عَبْدُ المُطَّلِبِ، وإِخْوَتُهُ وأَخَوَاتُهُ وَجْدًا شَدِيدًا[2].

۞ وُلِدَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَتِيمَ الأَبِ:

ولَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ وَالِدُ الرَّسُولِ ﷺ، كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ حَمْلًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ، ابنَ شَهْرَيْنِ، فَقَدْ رَوَىٰ الحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ وصَحَّحَهُ عنْ قَيْسِ[3] بنِ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه قالَ: تُوُفِّيَ أَبُوهُ وأُمُّهُ حُبْلَىٰ[4] بِهِ[5].

قالَ الحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: والمَقْصُودُ أَنَّ أُمَّهُ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ ﷺ، تُوُفِّيَ أَبُوهُ عَبْدُ اللهِ، وهُوَ حَمْلٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ عَلَىٰ المَشْهُورِ[6].

---

(١) وَجِدَ: بكسر الجيم وفتحها أي حَزِنَ. لسان العرب (٢١٩/١٥).

(٢) انظر الطبَّقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (٤٦/١) - زاد المعاد (٧٥/١) - الرَّوْض الأُنُف (٢٨٣/١) - السِّيرة النَّبويَّة للذهبي (٦٦٥/١).

(٣) هو قيسُ بنُ مَخْرَمَةَ بن المُطَّلِبِ القرشِي المُطَّلِبي، وُلِدَ هو ورسول الله ﷺ في عام واحد، وكان من المؤلَّفَةِ قلوبهم، وكان مِمَّنْ حَسُنَ إسلامه. انظر الإصابة (٣٧٩/٥).

(٤) امرأةٌ حُبْلَىٰ: أي حَامل. انظر لسان العرب (٣١/٣).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك - كتاب التاريخ - باب زيارته ﷺ قبر أمه - رقم الحديث (٤٢٤٧) - وقال الحاكم: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم، وأقره الذهبي.

(٦) انظر البداية والنهاية (٦٦٥/٢).

وقالَ ابنُ القَيِّمِ: واخْتُلِفَ فِي وَفَاةِ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ، هَلْ تُوُفِّيَ ورَسُولُ اللهِ ﷺ حَمْلٌ، أوْ تُوُفِّيَ بَعْدَ وِلَادَتِهِ؟

عَلَىٰ قولَيْنِ: أَصَحُّهُمَا أَنَّهُ تُوُفِّيَ ورَسُولُ اللهِ ﷺ حَمْلٌ[١].

قُلْتُ: يَدُلُّ عَلَى كَوْنِ الرَّسُولِ ﷺ وُلِدَ يَتِيمًا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الضُّحَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾[٢].

۞ كَمْ كَانَ عُمُرُ عَبْدِ اللهِ لَمَّا تُوُفِّيَ؟:

وتُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ وَالِدُ الرَّسُولِ ﷺ عَنْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: هَذَا هُوَ أَثْبَتُ الْأَقَاوِيلِ[٣].

۞ مِيرَاثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَبِيهِ:

وَجَمِيعُ مَا خَلَّفَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَمْسَةٌ مِنَ الْإِبِلِ، وَقِطْعَةُ غَنَمٍ، وَجَارِيَةٌ حَبَشِيَّةٌ اسْمُهَا: «بَرَكَةُ» وَهِيَ أُمُّ أَيْمَنَ[٤] رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[٥].

---

(١) انظر زاد المعاد (١/٧٥).

(٢) سورة الضحى آية (٦).

(٣) انظر الطبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/٤٦) - شرح المواهب (١/٢٠٤).

(٤) هيَ أمُّ أيمنَ الحَبَشِيَّةُ حاضِنَةُ رسول الله ﷺ أسلَمَتْ قديمًا، وهاجرتْ إلىٰ الحبشةِ، وإلىٰ المدينة، زوَّجها رسول الله ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه، فرُزِقَتْ منه ابنها أسامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وتوفيت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. انظر الإصابة (٨/٣٥٨).
روىٰ الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٧١): عن ابن شهاب الزهري قال: وكان مِنْ شأن أُمِّ أيمن، أُم أسامة بن زيد، أنها كانت وَصيفَةً - أي أَمَةً - لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما وَلَدَتْ آمنة رسول الله ﷺ، بعدما توفي أبوه، فكانت أمُّ أيمن تحضنه، حتىٰ كبر رسول الله ﷺ، فأعتقَهَا.

(٥) الطبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/٤٦).

مِنَ الْمَوْلِدِ الشَّرِيفِ إِلَى نُزُولِ الوَحْيِ

وِلادَةُ النَّبِيِّ ﷺ

وَفِي نَهَارِ يَوْمِ الاِثْنَيْنِ الثَّانِيَ عَشَرَ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ مِنْ عَامِ الْفِيلِ وُلِدَ سَيِّدُ الْخَلْقِ مُحَمَّدٌ ﷺ فِي شِعْبِ بَنِي هَاشِمٍ بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَةَ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: هَذَا هُوَ المَشْهُورُ عِنْدَ الجُمْهُورِ وَاللهُ أَعْلَمُ[(١)].

رَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الاِثْنَيْنِ فَقَالَ: «فِيهِ وُلِدْتُ وَفِيهِ أُنْزِلَ عَلَيَّ»[(٢)].

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه قَالَ: وُلِدْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الْفِيلِ[(٣)].

وَكَوْنُهُ ﷺ وُلِدَ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ فِيهِ حِكَمٌ مِنْهَا:

١ ـ مَا فِي شَرْعِهِ ﷺ مِنْ شَبَهِ زَمَنِ الرَّبِيعِ، فَإِنَّهُ أَعْدَلُ الْفُصُولِ، وَشَرْعُهُ أَعْدَلُ الشَّرَائِعِ.

---

(١) انظر البداية والنهاية (١/٦٦٣).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الصوم ـ باب استحباب صيام ثلاثةِ أيّام من كُلِّ شهر وصوم يوم عَرَفة وعاشُوراء والاثنين والخميس ـ رقم الحديث (١١٦٢) (١٩٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٧٨٩١) ـ والترمذي في جامعه ـ رقم الحديث (٣٩٤٧) ـ وأورده الذهبي في السيرة النبوية (١/٣٣) وقال: إسناده حسن.

٢ ـ وَلِأَنَّ فِي ظُهُورِهِ فِيهِ إِشَارَةٌ لِمَنْ تَفَطَّنَ لَهَا إِلَىٰ اشْتِقَاقِ لَفْظَةِ رَبِيعٍ؛ لِأَنَّ فِيهِ تَفَاؤُلًا حَسَنًا بِبِشَارَةِ أُمَّتِهِ، فَالرَّبِيعُ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَمَّا فِي بَطْنِهَا مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ، ومَوْلِدُهُ ﷺ فِي رَبِيعٍ إِشَارَةٌ ظَاهِرَةٌ إِلَىٰ التَّنْوِيهِ بِعَظِيمِ قَدْرِهِ، وأَنَّهُ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ[١].

عَلَامَاتٌ ظَهَرَتْ عِنْدَ وِلَادَتِهِ ﷺ:

ظَهَرَتْ بَعْضُ الْعَلَامَاتِ عِنْدَ وِلَادَتِهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ:

* **ظُهُورُ نُورٍ مِنْ أُمِّهِ ﷺ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ:**

رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وابنُ حِبَّانَ والحَاكِمُ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنِّي عِنْدَ اللهِ مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِنَّ آدَمَ عَلَيهِ السَّلامُ لَمُنْجَدِلٌ[٢] فِي طِينَتِهِ، وسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ[٣]، وبِشَارَةُ أَخِي عِيسَىٰ[٤]، ورُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ حِينَ**

---

(١) انظر شرح المواهب (١/٢٤٩).

(٢) أي مُلقىٰ علىٰ الجدالة، وهي الأرض. انظر النهاية (١/٢٤٠).

(٣) قال الله تَعَالَىٰ في سورة البقرة آية (١٢٩) علىٰ لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يبنيان الكعبة: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

(٤) قال الله تَعَالَىٰ في سورة الصف آية (٦) علىٰ لسان عيسىٰ عليهِ السَّلامُ، وهو يُبشِّر بني إسرائيل بِبعْثَةِ الرسول ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وَضَعَتْنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ»(١).

ورَوَىٰ الحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ خَالِدِ بنِ مَعْدَانَ، عنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ! أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ؟

فقَالَ ﷺ: **«دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وبُشْرَىٰ عِيسَىٰ، ورَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ بُصْرَىٰ، وبُصْرَىٰ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ»**(٢).

قالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ: وتَخْصِيصُ الشَّامِ بِظُهُورِ نُورِهِ ﷺ إِشَارَةٌ إِلَىٰ اسْتِقْرَارِ دِينِهِ وَثُبُوتِهِ بِبِلَادِ الشَّامِ، ولِهَذَا تَكُونُ الشَّامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مَعْقِلًا لِلْإِسْلَامِ وأَهْلِهِ، وبِهَا يَنْزِلُ عِيسَىٰ ابنُ مَرْيَمَ عَليهِ السَّلامُ إِذَا نَزَلَ بِدِمَشْقَ بِالْمَنَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ البَيْضَاءِ مِنْهَا(٣)، ولِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ قَوْلُهُ ﷺ: **«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ»**.

وفي رِوَايَةِ البُخَارِيِّ، قالَ مُعَاذٌ: وَهُمْ بِالشَّامِ(٤).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند - رقم الحديث (١٧١٦٣) - وابن حبان في صحيحه - رقم الحديث (٦٤٠٤) - والحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٣٦١٩ - ٤٢٣٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٢٣٠) - وأورده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٧٣٠)، وقال: إسناده جيد.

(٣) أخرج نزول عيسىٰ عليهِ السَّلامُ بدمشق عند المَنَارة البيضاء: الإمام مسلم في صحيحه - كتاب الفتن وأشْرَاطُ الساعة - باب ذكر الدجال - رقم الحديث (٢٩٣٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الاعتصام - باب قول النبي ﷺ: **«لا تزالُ طائِفَةٌ من أمَّتِي ظَاهِرِينَ علىٰ الحقِّ»** - رقم الحديث (٧٣١١) - وأخرجه في كتاب التوحيد - باب=

قالَ الإمَامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ عَنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ: هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ(١).

وقالَ الإمَامُ أَحْمَدُ: إنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ الحَدِيثِ فَلَا أَدْرِي مَنْ هُمْ(٢).

وقالَ النَّوَوِيُّ في شَرْحِ مُسْلِمٍ: ويُحْتَمَلُ أنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ مُفَرَّقَةٌ بَيْنَ أَنْوَاعِ المُؤْمِنِينَ، مِنْهُمْ: شُجْعَانٌ مُقَاتِلُونْ، ومِنْهُم فُقَهَاءُ، ومِنْهُمْ مُحَدِّثُونَ، ومِنْهُمْ زُهَّادُ، وآمِرُونَ بالمَعْرُوفِ وناهُونَ عَنِ المُنْكَرِ، ومِنْهُمْ أَهْلُ أَنْوَاعٍ أُخْرَىٰ مِنَ الْخَيْرِ، ولا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونُوا مُجْتَمِعِينَ، بَلْ قَدْ يَكُونُونَ مُتَفَرِّقِينَ في أَقْطَارِ الأَرْضِ(٣).

قُلْتُ: وَالَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ.

* ظُهُورُ النَّجْمِ:

رَوَىٰ ابنُ إسْحَاقَ في السِّيرَةِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ حَسَّانَ بن ثَابِتٍ ﷺ قالَ: واللهِ إنِّي لَغُلَامٌ يَفَعَةٌ(٤) ابنُ سَبْعٍ أَوْ ثَمَانٍ، أَعْقِلُ كُلَّ مَا سَمِعْتُ، إذْ سَمِعْتُ

= قول الله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ - رقم الحديث (٧٤٥٩) (٧٤٦٠) - وأخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإمارة - باب قوله ﷺ: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتِي ظاهِرِينَ علىٰ الحَقِّ» - رقم الحديث (١٩٢٠) (١٩٢١).

وانظر كلام الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/٤٤٤).

(١) انظر صحيح البخاري - كتاب الاعتصام - باب قول النبي ﷺ: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتِي ظاهِرِينَ علىٰ الحَقِّ».

(٢) أخرجه الحاكم في علوم الحديث، فيما قاله الحافظ في الفتح (١٥/٢٢٧): وإسناده صحيح.

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/٥٧).

(٤) أيْفَعَ الغُلامُ: إذا شَارَفَ الاحْتِلَامَ ولمَّا يَحْتَلِمْ. انظر النهاية (٥/٢٥٨).

يَهُودِيًّا يَصْرَخُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ عَلَىٰ أُطُمٍ[١] بِيَثْرِبَ: يا مَعْشَرَ يَهُودَ، حتَّىٰ إِذَا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، قَالُوا لَهُ: وَيْلَكَ مَالَكَ؟، قالَ: طَلَعَ اللَّيْلَةَ نَجْمُ أَحْمَدَ الذِي وُلِدَ بِهِ[٢].

* وَقَعَ رَافِعًا رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ:

رَوَىٰ ابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ وابْنُ إِسْحَاقَ في السِّيرَةِ بِسَنَدٍ مُنْقَطِعٍ عَنْ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ أُمِّ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: ... ثُمَّ وَضَعْتُهُ، فَمَا وَقَعَ كَمَا يَقَعُ الصِّبْيَانُ، وَقَعَ وَاضِعًا يَدَهُ بِالْأَرْضِ، رَافِعًا رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ[٣].

عَلَامَاتٌ مَشْهُورَةٌ لَكِنَّهَا غَيْرُ صَحِيحَةٍ:

وَهَذِهِ العَلَامَاتُ لَمْ تَثْبُتْ بِطَرِيقٍ صَحِيحٍ، لَكِنَّهَا مَشْهُورَةٌ، فَمِنْهَا:

١ ـ أَنَّهُ لَمَّا وُلِدَ ﷺ ارْتَجَّ إِيْوَانُ كِسْرَىٰ.

٢ ـ سَقَطَتْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ شُرْفَةً مِنْ إِيوَانِ كِسْرَىٰ.

٣ ـ خَمَدَتِ النَّارُ التِي كَانَ يَعْبُدُهَا المَجُوسُ.

٤ ـ غَاصَتْ بُحَيْرَةُ «سَاوَة».

٥ ـ انْهَدَمَتِ المَعَابِدُ التِي كَانَتْ حَوْلَهَا ـ أَيْ حَوْلَ بُحَيْرَةِ «سَاوَة» ـ[٤].

---

(١) الأُطُمُ: بضم الهمزة: بناءٌ مُرتفعٌ كالحُصُونِ. انظر النهاية (١/٥٧).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/١٩٦).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ رقم الحديث (٦٣٣٥) ـ وابن إسحاق في السيرة (١/٢٠٢).

(٤) أخرج ذلك الإمام الذهبي في السيرة النبوية (١/٤٤) وقال: هذا حديث منكر غريب ـ=

قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّد الغَزَالِي رَحِمَهُ اللهُ بَعْدَ أَنْ أَوْرَدَ هَذِهِ الآثَارَ الضَّعِيفَةَ: وهَذَا الكَلَامُ تَعْبِيرٌ غَلَطٌ عَنْ فِكْرَةٍ صَحِيحَةٍ، فَإِنَّ مِيلَادَ الرَّسُولِ ﷺ كانَ حَقًّا إِيذَانًا بِزَوَالِ الظُّلْمِ وانْدِثَارِ[1] عَهْدِهِ، وانْدِكَاكِ مَعَالِمِهِ... فَلَمَّا أَحَبَّ النَّاسُ ـ بَعْدَ انْطِلَاقِهِمْ مِنْ قُيُودِ الْعَسْفِ[2] ـ تَصْوِيرَ هذِهِ الحَقِيقَةِ، تَخَيَّلُوا هَذِهِ الإِرْهَاصَاتِ[3]، وأَحْدَثُوا لَهَا الرِّوَايَاتِ الوَاهِيَةِ، ورَسُولُ الله ﷺ غَنِيٌّ عَنْ هَذَا كُلِّهِ، فإِنَّ نَصِيبَهُ الضَّخْمَ مِنَ الوَاقِعِ المُشَرِّفِ يُزَهِّدُنَا في هذِهِ الرِّوَايَاتِ وأَشْبَاهِهَا[4].

قَالَ أَحْمَد شَوْقِي رَحِمَهُ اللهُ:

تَجَلَّى مَوْلِدُ الْهَادِي وَعَمَّتْ ... بَشَائِرُهُ الْبَوَادِيَ وَالْقِصَابَا
وَأَسْدَتْ لِلْبَرِيَّةِ بِنْتُ وَهْبٍ ... يَدًا بَيْضَاءَ طَوَّقَتِ الرِّقَابَا
لَقَدْ وَضَعَتْهُ وَهَّاجًا مُنِيرًا ... كَمَا تَلِدُ السَّمَاوَاتُ الشِّهَابَا
فَقَامَ عَلَى سَمَاءِ الْبَيْتِ نُورًا ... يُضِيءُ جِبَالَ مَكَّةَ وَالنِّقَابَا

** ** **

= والبيهقي في دلائل النبوة (١/١٢٦ ـ ١٢٧).
قال الدكتور عبد المعطي قلعه جي محقق دلائل النُّبوَّة للبيهقي: «وهذا حديثٌ ليس بصحيح».

(١) اندَثَرَ: أي بَلِي. انظر لسان العرب (٤/٢٨٩).
(٢) العَسْفُ: الظُّلْمُ. انظر لسان العرب (٩/٢٠٦).
(٣) إرهَاصَاتٌ: أي مُقَدِّمات. انظر لسان العرب (٥/٣٤٣).
(٤) انظر فقه السيرة ص (٥٨ ـ ٥٩) للشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ.

خِتَانُ[1] رسُولِ اللهِ ﷺ

وأمَّا خِتَانُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَالصَّحِيحُ أنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ جَدَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَتَنَهُ يَوْمَ سَابِعِهِ عَلَىٰ عَادَةِ العَرَبِ، فَقَدْ أخْرَجَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ فِي الاسْتِيعَابِ، عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: إنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ خَتَنَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ سَابِعِهِ، وجَعَلَ لَهُ مَأْدُبَةً[2].

وَمَالَ كَمَالُ الدِّينِ بنُ الْعَدِيمِ[3]، وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ[4] إِلَى هَذَا، مِنْ أَنَّهُ ﷺ خُتِنَ يَوْمَ سَابِعِهِ عَلَى يَدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَتْ هَذِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ.

وأَمَّا الأَحَادِيثُ التِي تَذْكُرُ أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ وُلِدَ مَخْتُونًا، فَكُلُّهَا ضَعِيفَةٌ، فَمِنْهَا:

ما رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ في دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه

---

(١) قال الحافظ في الفتح (١١/٥٣٠): الخِتَان بكسر الخاء وفتح التاء مصدر خَتَنَ: أي قَطَعَ، والخَتْنُ: بفتح الخاء قَطْعُ بعضٍ مَخْصُوص مِنْ عُضْوٍ مَخْصُوص.
وقال الماوردي فيما نقله عنه الحافظ في الفتح (١١/٥٣٠): خِتَانُ الذَّكر قطعُ الجِلْدَة التي تُغَطِّي الحَشَفة.

(٢) انظر الاستيعاب (١/١٥١).

(٣) انظر زاد المعاد (١/٨١).

(٤) انظر الاستيعاب (١/١٥١).

قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «مِنْ كَرَامَتِي عَلَىٰ رَبِّي أَنِّي وُلِدْتُ مَخْتُونًا ولَمْ يَرَ أَحَدٌ سَوْأَتِي»[1].

ورَوَىٰ ابنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عنِ العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه قالَ: وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ مَخْتُونًا مَسْرُورًا[2]، قالَ: فَأَعْجَبَ ذَلِكَ عَبْدَ المُطَّلِبِ وحَظِيَ عِنْدَهُ، وقالَ: لَيَكُونَنَّ لِابْنِي هَذَا شَأْنٌ[3].

قالَ ابنُ عَبْدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: ولَيْسَ إِسْنَادُ حَدِيثِ العَبَّاسِ هَذَا بِالقَائِمِ[4].

وقالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عنْ حَدِيثِ العَبَّاسِ: وهَذَا الحَدِيثُ في صِحَّتِهِ نَظَرٌ...، وقَدِ ادَّعَىٰ بَعْضُهُمْ صِحَّتَهُ؛ لِمَا وَرَدَ لَهُ مِنَ الطُّرُقِ حتَّىٰ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مُتَوَاتِرٌ، وفي هَذَا كُلِّهِ نَظَرٌ[5].

وقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: ويُقَالُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وُلِدَ مَخْتُونًا مَسْرُورًا، ورُوِيَ في ذَلِكَ حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ، ذَكَرَهُ أَبُو الفَرَجِ ابنُ الجَوْزِيِّ في «المَوْضُوعَاتِ»

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١/١٥٤) ـ والحلية ـ رقم الحديث (٣٠٢٦) وانظر ضعيف الجامع للألباني رَحِمَهُ اللهُ ـ رقم الحديث (٥٣١٠) ـ والسلسلة الضعيفة للألباني رَحِمَهُ اللهُ ـ رقم الحديث (٦٢٧٠).

(٢) أي مَقْطُوعُ الحَبْلِ السِّرِّي.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبَقات الكُبرىٰ (١/٤٨) ـ وانظر السلسلة الضعيفة للألباني رَحِمَهُ اللهُ ـ رقم الحديث (٦٢٧٠).

(٤) انظر الاستيعاب (١/١٥١).

(٥) انظر البداية والنهاية (١/٦٦٨).

ولَيْسَ فِيهِ حَدِيثٌ ثَابِتٌ، ولَيْسَ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ ﷺ، فإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُولَدُ مَخْتُونًا[1]... وقَدْ وَقَعَتْ هَذِهِ المَسْأَلَةُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَاضِلَيْنِ، صَنَّفَ أَحَدُهُمَا مُصَنَّفًا في أَنَّهُ ﷺ وُلِد مَخْتُونًا، وأَجْلَبَ فِيهِ مِنَ الأحَادِيثِ التِي لَا خِطَامَ لَهَا وَلا زِمَامَ، وهُوَ كَمَالُ الدِّينِ بنُ طَلْحَةَ، فَنَقَضَهُ عَلَيْهِ كَمَالُ الدِّينِ بنُ العَدِيمِ، وبَيَّنَ فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خُتِنَ عَلَىٰ عَادَةِ العَرَبِ، وكَانَ عُمُومُ هَذِهِ السُّنَّةِ لِلْعَرَبِ قَاطِبَةً مُغْنِيًا عَنْ نَقْلٍ مُعَيَّنٍ فِيهَا، وَاللهُ أَعْلَمُ[2].

وأَمَّا مَا قَالَهُ الحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ: وقَدْ تَوَاتَرَتِ الأَخْبَارُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وُلِدَ مَخْتُونًا، مَسْرُورًا[3]، فَقَدْ تَعَقَّبَهُ الذَّهَبِيُّ في تَلْخِيصِهِ بِقَوْلِهِ: لا أَعْلَمُ صِحَّةَ ذَلِكَ، فَكَيْفَ يَكُونُ مُتَوَاتِرًا.

❁ فَرَحُ عَبْدِ المُطَّلِبِ بِوِلَادَةِ الرَّسُولِ ﷺ:

ولَمَّا وَضَعَتْهُ أُمُّهُ آمِنَةُ، أَرْسَلَتْ إِلَىٰ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ تُخْبِرُهُ بِوِلادَةِ حَفِيدِهِ، فَفَرِحَ عبدُ المُطَّلِبِ بِحَفِيدِهِ ﷺ واسْتَبْشَرَ بِهِ.

---

(١) قلتُ: ممن وُلِدَ مختونًا: ابن صياد، فقد أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه ـ رقم الحديث (٣٨٦٨٣) بسند صحيحٍ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ولدته أمه مسرورًا مختونًا. يعني ابن صياد.
وروى عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه ـ رقم الحديث (٢٠٨٣١) بسند صحيح عن عروة بن الزبير قال: وُلِدَ ابن صيَّادٍ أعور مختتنًا.

(٢) انظر زاد المعاد (١/٨٠).

(٣) انظر المستدرك للحاكم (٣/٤٩٨).

قَالَ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ[1] ﷺ يَمْدَحُ الرَّسُولَ ﷺ:

وأَنْــتَ لَمَّــا وُلِــدْتَ أَشْــرَقَتْ ... الأَرْضُ وَضَــاءَتْ بِنُــورِكَ الأُفُــقُ
فَـنَحْنُ فـي ذَلِـكَ الضِّـيَاءِ وَفِـي ... النُّـورِ وَسُـبُلِ الرَّشَـادِ نَخْتَــرِقُ

❁ خِتَانُ رسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ سَابِعِهِ وتَسْمِيَتُهُ مُحَمَّدًا:

وَلَمَّا كَانَ اليَومُ السَّابِعُ مِنْ وِلادَتِهِ ﷺ خَتَنَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ عَلَىٰ عَادَةِ العَرَبِ، وعَقَّ عَنْهُ بِكَبْشٍ، وجَعَلَ لَهُ مَأْدُبَةً، وسَمَّاهُ مُحَمَّدًا[2] ﷺ ولَمْ يَكُنِ العَرَبُ يَأْلَفُونَ هَذَا الاِسْمَ، فَاسْتَغْرَبَهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ، وسَأَلُوا عَبْدَ المُطَّلِبِ فَقَالُوا: لِمَ رَغِبْتَ بهِ عَنْ أَسْمَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ فَأَجَابَهُمْ: أَرَدْتُ أَنْ يَحْمَدَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي السَّمَاءِ وخَلْقُهُ فِي الأَرْضِ[3].

وقِيلَ سَبَبُ تَسْمِيَتِهِ مُحَمَّدًا: أَنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ كَانَ مُسَافِرًا إِلَىٰ الشَّامِ مَعَ

---

(١) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم عَمُّ النبي ﷺ، وُلِدَ قبل الرسول ﷺ بسنتين، وكان ﷺ من أطْوَلِ الرجال، وأحسنِهم صُورة، وأبْهَاهُم، وأجْهَرِهِم صَوتًا، مع الحلم الوافر، والسُّؤْدَة، وكان قد وُكِلَ إليه في الجاهلية السِّقَاية والعِمَارة، وحضَرَ بيعَةَ العَقَبَة مع الأنصار قَبْلَ أن يُسْلِم، وأسلم ﷺ قبل الفتح، ومات ﷺ بالمدينة سنة ٣٢هـ. انظر أسد الغابة (٢/٥٤٣).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١/٦٦٩): قال بعض العلماء: ألهَمَهُمُ الله عَزَّ وَجَلَّ أن سمُّوه محمدًا؛ لما فيه من الصِّفات الحَمِيدة؛ لِيَلْتَقِي الاسم والفعل، ويتطابَقَ الاسم والمُسَمَّىٰ في الصُّورة والمعنىٰ، كما قال حسَّان بن ثابت ﷺ:

وشَــقَّ لَــهُ مِــنِ اســمِهِ لِيُجِلَّــهُ ... فذُو العرشِ مَحْمُودٌ وهـذا محمـدُ

(٣) انظر دلائل النبوة للبيهقي (١/١١٣).

ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لِلتِّجَارَةِ، فَبَيْنَمَا هُمْ فِي الشَّامِ الْتَقَوْا بِرَاهِبٍ، فَسَأَلَهُمْ: مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ مِنْ مَكَّةَ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ بِلَادَكُمْ سَيَخْرُجُ مِنْهَا نَبِيٌّ، فَسَأَلُوهُ مَا اسْمُ النَّبِيِّ قَالَ: «اسْمُهُ مُحَمَّدٌ»، ولَمْ يَكُنْ اسْمُ مُحَمَّدٍ مَعْرُوفًا عِنْدَ العَرَبِ.

فَلَمَّا رَجَعَ هَؤُلَاءِ الأَرْبَعَةُ عَزَمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِنْ رُزِقَ بِمَوْلُودٍ يُسَمِّيهِ مُحَمَّدًا.

عَبْدُ المُطَّلِبِ كَبُرَ، فَلَمَّا رُزِقَ ابْنُهُ عبدُ اللهِ وَلَدًا سَمَّاهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وأَمَّا الثَّلَاثَةُ فَهُمْ: سُفْيَانُ بنُ مُجَاشِعٍ سَمَّىٰ ابْنَهُ مُحَمَّدًا، وأُحَيْحَةُ بنُ الْجَلَّاحِ سَمَّىٰ ابْنَهُ مُحَمَّدًا، وحِمْرَانُ بنُ رَبِيعَةَ سَمَّىٰ ابْنَهُ مُحَمَّدًا، هَؤُلَاءِ أَوَّلُ مَنْ سَمَّىٰ مُحَمَّدًا فِي العَرَبِ، كَمَا قَالَ الإِمَامُ السُّهَيْلِيُّ في الرَّوْضِ الأُنُفِ[1].

قَالَ حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه:

أَغَــرُّ عَلَيْــهِ لِلنُّبُــوَّةِ خَــاتَمٌ ... مِــنَ اللهِ مَشْــهُودٌ يَلُــوحُ ويَشْــهَدُ

وَضَمَّ الْإِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَىٰ اسْمِهِ ... إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ

وَشَــقَّ لَــهُ مِــنِ اسْــمِهِ لِيُجِلَّــهُ ... فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وهَذَا مُحَمَّدُ

نَبِــيٌّ أَتَانَــا بَعْــدَ يَــأْسٍ وَفَتْــرَةٍ ... مِنَ الرُّسْلِ وَالأَوْثَانُ فِي الْأَرْضِ تُعْبَدُ

---

(١) انظر الروض الأنف (١/٢٨٠)

وتعقَّبه الحافظ في الفتح (٧/٢٤٧) بقوله: وهذا حَصْرٌ مردُود، وقد جَمَعْتُ أسماء من تسمىٰ بذلك في جزءٍ مفرَدٍ، فبلغوا نحوَ العِشْرين لكنْ مع تكرُّرٍ في بعضهم ووهمٍ في بعض فيتلخَّص منهم خمسَةَ عشر نَفْسًا.

فَأَمْسَىٰ سِرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا ... يَلُوحُ كَمَا لَاحَ الصَّقِيلُ المُهَنَّدُ

وأنْذَرَنَا نَارًا وَبَشَّرَ جَنَّةً ... وعَلَّمَنَا الإسْلَامَ فَاللهَ نَحْمَدُ

وأنْتَ إِلَهُ الْخَلْقِ رَبِّي وخَالِقِي ... بِذَلِكَ مَا عَمَّرْتُ في النَّاسِ أَشْهَدُ

تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا ... سِوَاكَ إِلَهًا أَنْتَ أَعَلَىٰ وأَمْجَدُ

لَكَ الخَلْقُ والنَّعْمَاءُ والأَمْرُ كُلُّهُ ... فَإِيَّاكَ نَسْتَهْدِي وإِيَّاكَ نَعْبُدُ(1)

** ** **

(١) انظر ديوان حسان بن ثابت ﷺ ص ٥٤.

رَضَاعُ النَّبِيِّ ﷺ

كَانَتْ أَوَّلَ مَنْ أَرْضَعَتْهُ ﷺ هِيَ أُمُّهُ آمِنَةُ، قِيلَ أَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وقِيلَ سَبْعًا، وقِيلَ تِسْعًا. ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ ثُوَيْبَةُ[1] لَبَنَ ابنٍ لَهَا يُقَالُ لَهُ «مَسْرُوحٌ»[2]، أَرْضَعَتْهُ أَيَّامًا، قَبْلَ أَنْ تَقْدُمَ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ، وكانَتْ قَدْ أَرْضَعَتْ قَبْلَهُ حَمْزَةَ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ[3] رضي الله عنه، وأَرْضَعَتْ بَعْدَهُ أَبَا سَلَمَةَ بنَ عَبْدِ الأَسَدِ المَخْزُومِيَّ[4] رضي الله عنه.

---

(١) قال الحافظ في الفتح (١٠/١٨١): ثويبةُ مَوْلاةُ أبي لهَبٍ، ذكرها ابن منده في الصحابة، وقال: اختلف في إسلامِهَا.
وقال في الإصابة (٨/٦٠): وفي باب من أرضع النبي ﷺ من طبقات ابن سعد (١/٥١) ما يدلُّ علىٰ أنها لم تُسْلِم، ولكن لا يدفع قول ابن منده بهذا.
وقال أبو نعيم: لا نعلمُ أحدًا ذكر إسلامَهَا غيره.
وقال ابن الجوزيِّ في صفة الصفوة (١/٣١): ولا نعلم أحدًا ذكر أنَّها أسلمت.

(٢) قال الحافظ في الإصابة (٨/٦١): لم أقف في شيء من الطرق علىٰ إسلام ابنها مسروح، وهو محتمل.

(٣) هو حمزةُ بن عبدِ المطلب أبو عمارَة، القُرشي الهاشمي، عَمُّ النبي ﷺ، وأخوه من الرَّضاعة، أرضعتهما ثُويبةُ مولاة أبي لهب، وُلِدَ قبل النبي ﷺ بسنتين، وقيل: بأربع، وأسلم في السنة الثانية من البِعْثة ولازَمَ نَصْرَ رسول الله ﷺ، وهاجر معه، وشَهِدَ بدرًا، وقُتِلَ رضي الله عنه علىٰ يَدِ وحشِيٍّ بن حَرْبٍ في غزوة أُحد، وذلك في شوال من السنة الثالثة للهجرة، ودُفِنَ هو وعبد الله بن جحش في قبرٍ واحِدٍ. انظر الإصابة (٢/١٠٥).

(٤) هو عبد الله بن عبد الأسدِ المخزومي السَّيد الكبير، من السابقين الأولين إلىٰ الإسلام، أسلم بعد عشرة أنفس، وكان أخو النبي ﷺ من الرَّضاعةِ، وهو ابنُ عَمَّةِ النبي ﷺ أمه بَرَّة بنتِ=

فكانَ الرَّسُولُ ﷺ، وعَمُّهُ حَمْزَةُ، وأبُو سَلَمَةَ إِخْوَةً مِنَ الرَّضَاعَةِ.

رَوَىٰ الإمَامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ:... قُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّا نُحَدَّثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَنْكِحَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: «بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ؟»[(١)]، قُلْتُ: نَعَمْ.

قالَ: «**لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي[(٢)] فِي حِجْرِي مَا حَلَّتْ لِي، إِنَّهَا لَابْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ، أَرْضَعَتْنِي وأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ، فَلَا تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ ولَا أَخَوَاتِكُنَّ**»[(٣)].

ورَوَىٰ الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَلَا تَتَزَوَّجُ ابْنَةَ حَمْزَةَ؟

فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهَا لا تَحِلُّ لِي، إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ، ويَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ ما يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**»[(٤)].

= عبد المطلب، شَهِدَ بَدْرًا وأُحدًا وماتَ بعدَ أُحُدٍ بشَهْر، في جمادىٰ الآخرة سنة ٣ هجرية. انظر أسد الغابة (٤/٤٧٥).

(١) قال الحافظ في الفتح (١٠/١٧٩): هو استفهامُ اسْتِثْبَاتٍ لرَفْعِ الإِشْكَالِ، أو استفهامُ إنْكَارٍ، والمعنىٰ أنها إنْ كانَ بنت أبي سلمة مِنْ أمِّ سلمة، فيكون تحريمها مِنْ وَجْهَيْن: الأول أنها رَبِيبَتُهُ ﷺ، والثاني أنها ابْنَةُ أَخِيهِ منَ الرَّضَاعَةِ.

(٢) الرَّبِيبَةُ: بنت الزوجة من زوجٍ آخر. انظر النهاية (٢/١٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب النكاح ـ باب (٢١) ـ رقم الحديث (٥١٠١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الشهادات ـ باب الشهادة على الأنساب... ـ رقم الحديث (٢٦٤٥) ـ وأخرجه في كتاب النكاح ـ باب (٢١) ـ رقم الحديث (٥١٠٠) ـ=

❁ اسْتِرْضَاعُهُ ﷺ فِي بَنِي سَعْدٍ:

ثُمَّ الْتَمَسَ عَبْدُ المُطَّلِبِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ المَرَاضِعَ عَلَىٰ عَادَةِ أَهْلِ مَكَّةَ الذِينَ كَانُوا يُؤْثِرُونَ إِذَا وُلِدَ لَهُمْ وَلَدٌ أَنْ يَلْتَمِسُوا لَهُ مُرْضِعَةً مِنَ البَادِيَةِ، وسَبَبُ الْتِمَاسِ المَرَاضِعِ لِأَوْلَادِهِمْ أُمُورٌ، ذكَرَهَا الإمَامُ السُّهَيْلِيُّ فَمِنْهَا:

١ ـ لِيَنْشَأَ الطِّفْلُ في الأَعْرَابِ، فَيَكُونَ أَفْصَحَ لِلِسَانِهِ.

٢ ـ لِيَكُونَ أجْلَدَ[1] لِجِسْمِهِ، وأجْدَرَ أنْ لا يُفَارِقَ الهَيْئَةَ المَعَدِّيَةَ، كمَا قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: اخْشَوْشِنُوا، وَاخْشَوْشِبُوا[2]، واخْلَوْلِقُوا، وتَمَعْدَدُوا[3] كَأَنَّكُمْ مَعَدٌّ[4]، وإِيَّاكُمْ والتَّنَعُّمَ[5].

٣ ـ حتَّىٰ يَكُونَ أنْجَبَ لِلْوَلَدِ وأصْفَىٰ لِلذِّهْنِ[6].

قالَ الشَّيْخُ محمَّد الغَزَالِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وتَنْشِئَةُ الأَوْلَادِ في البَادِيَةِ

= ومسلم في صحيحه ـ كتاب الرضاعة ـ باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة ـ رقم الحديث (١٤٤٧) (١٢) (١٣).

(١) الجَلَدُ: بفتح الجيم: القُوَّة. انظر النهاية (١/٢٧٥).

(٢) اخشَوْشَبَ الرجل: إذا كان صُلبًا خَشِنًا في دينه، ومَلْبسه، ومَطْعمه، وجَميع أحواله. انظر النهاية (٢/٣١).

(٣) يُقال: تَمَعْدَدَ الغُلام: إذا شَبَّ وغَلُظ. انظر النهاية (٤/٢٩١).

(٤) مَعدّ: بفتح الميم وتشديد الدال: هي قبيلة معروفة، وكان أهلها أهل غِلَظ، وقَشَف. انظر النهاية (٤/٢٩١).

(٥) أخرج قول عمر رضي الله عنه: الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥/٣٣٩) ـ وإسناده صحيح.

(٦) انظر الرَّوْض الأُنُف (١/٢٨٧).

لِيَمْرَحُوا في كَنَفِ الطَّبِيعَةِ، ويَسْتَمْتِعُوا بِجَوِّهَا الطَّلْقِ وشُعَاعِهَا المُرْسَلِ، أدْنَىٰ إلَىٰ تَزْكِيَةِ الفِطْرَةِ، وإنْمَاءِ الأعْضَاءِ والمَشَاعِرِ، وإطْلَاقِ الأفْكَارِ والعَوَاطِفِ، ...وكَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ التَّرْبِيَةِ يَوَدُّ لَوْ تَكُونُ الطَّبِيعَةُ هِيَ المَعْهَدُ الأوَّلُ لِلطِّفْلِ حَتَّىٰ تَتَّسِقَ مَدَارِكُهُ مَعَ حَقَائِقِ الكَوْنِ الذِي وُجِدَ فِيهِ[١].

قالَ أحْمَد شَوْقِي رَحِمَهُ اللهُ:

يـا أفْصَـحَ النَّـاطِقِينَ الضَّـادَ قَاطِبَـةً ... حَدِيثُكَ الشَّـهْدُ عِنْـدَ الـذَّائِقِ الفَهِـمِ
حُلِّيـتَ مِـنْ عُطْـلٍ جِيـدَ البَيَـانُ بِـهِ ... فِـي كُـلِّ مُنْتَثِـرٍ فـي حُسْـنِ مُنْـتَظِمِ
بِكُــلِّ قَــوْلٍ كَـرِيمٍ أنْــتَ قَائِلُــهُ ... تُحْيِي القُلُوبَ وتُحْيِي مَيِّتَ الهِمَـمِ

❁ حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ:

رَوَى ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ بِسَنَدٍ تَالِفٍ عَنْ زَكَرِيَّا بنِ يَحْيَى بنِ يَزِيدَ السَّعْدِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَنَا أَعْرَبُكُمْ، أَنَا مِنْ قُرَيْشٍ، وَلِسَانِي لِسَانُ بَنِي سَعْدِ بنِ بَكْرٍ»**[٢].

قَالَ الأَلْبَانِيُّ فِي السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ: مَوْضُوعٌ، وَهَذَا سَنَدٌ تَالِفٌ[٣].

---

(١) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ٦٠.

(٢) أخرجه ابن سعد في طبقاته (٥٣/١). وأخرجه ابن إسحاق في السيرة (٢٠٤/١) بدون سند.

(٣) انظر السلسلة الضعيفة ـ رقم الحديث (١٦٨٩) ـ وأورده في ضعيف الجامع ـ رقم الحديث (١٣٠٣).

۞ إِقْبَالُ المَرَاضِعِ:

أَقْبَلَتِ المَرَاضِعُ مِنَ البَادِيَةِ يَلْتَمِسْنَ تَرْبِيَةَ أَوْلَادِ الأَشْرَافِ، فَاسْتَرْضَعَ عَبْدُ المُطَّلِبِ لِحَفِيدِهِ ﷺ امْرَأَةً مِنْ قَبِيلَةِ سَعْدِ بنِ بَكْرٍ، وهِيَ حَلِيمَةُ بِنْتُ أَبِي ذُؤَيْبٍ السَّعْدِيَّةُ(١)، وزَوْجُهَا الحَارِثُ بنُ عَبْدِ العُزَّىٰ، المُكَنَّىٰ بِأَبِي كَبْشَةَ مِنْ نَفْسِ القَبِيلَةِ.

۞ قِصَّةُ حَلِيمَةَ في اسْتِرْضَاعِهِ ﷺ:

تَذْكُرُ حَلِيمَةُ قِصَّةَ رَضَاعِهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فتَقُولُ: خَرَجَتْ مِنْ بَلَدِهَا مَعَ زَوْجِهَا، وابنٍ لَهَا صَغِيرٍ تُرْضِعُهُ، في نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بنِ بَكْرٍ، تَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ بِمَكَّةَ، قالَتْ: وذَلِكَ في سَنَةٍ شَهْبَاءَ(٢)، لَمْ تُبْقِ لَنَا شَيْئًا، قالتْ: فَخَرَجْتُ عَلَىٰ أَتَانٍ(٣) لِي قَمْرَاءَ(٤)، مَعَنَا شَارِفٌ(٥) لنَا وَاللهِ مَا تَبِضُّ بِقَطْرَةٍ(٦)، ومَا نَنَامُ لَيْلَنَا أَجْمَعَ مِنْ صَبِيِّنَا الذِي مَعَنَا، مِنْ بُكَائِهِ منَ الجُوعِ، ومَا فِي ثَدْيَيَّ

---

(١) هي حَلِيمة بنتُ أبي ذؤيب السَّعدية من مُضَر، أرضعَتْ رسول الله ﷺ ثم قَدِمت مع زوجها علىٰ النبي ﷺ عَقِبَ حنين، فقام إليها، وبَسَطَ لها رِدَاءَهُ فجلست عليه، وأسلمت هي وزوجها الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُما. انظر الإصابة (٨/٨٧).

(٢) سَنَةٌ شَهْبَاءُ: أي ذاتُ قَحْطٍ، وجَدْب، والشَّهْباء هي الأرض البَيْضاء التي لا خُضْرَة فيها لِقِلَّةِ المَطَر. النهاية (٢/٤٥٧).

(٣) الأتانُ: الحمارَة الأنثىٰ خاصة. النهاية (١/٢٥).

(٤) القَمْرَاءُ: أي الشديدُ البياض. النهاية (٤/٩٣).

(٥) الشَّارِفُ: هي الناقة المُسِنَّةُ. النهاية (٢/٤١٥).

(٦) ما تَبِضُّ بقَطْرَةٍ: أي ما يَقْطُرُ منها لبن. النهاية (١/١٣١).

مَا يُغْنِيهِ، ومَا فِي شَارِفِنَا ما يُغَذِّيهِ ولَكِنَّا كُنَّا نَرْجُو الغَيْثَ، والفَرَجَ، فَخَرَجْتُ عَلَىٰ أَتَانِي تِلْكَ فَلَقَدْ أَدمْتُ الرَّكْبَ حَتَّىٰ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ضَعْفًا وعَجَفًا[١]، حَتَّىٰ قَدِمْنَا مَكَّةَ نَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ، فَمَا مِنَّا امْرَأَةٌ إِلَّا وقَدْ عُرِضَ عَلَيْهَا رسُولُ اللهِ ﷺ فَتَأْبَاهُ، إِذَا قِيلَ لَهَا أَنَّهُ يَتِيمٌ، وذَلِكَ أَنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَرْجُو المَعْرُوفَ مِنْ أَبِي الصَّبِيِّ، فكُنَّا نَقُولُ: يَتِيمٌ، ومَا عَسَىٰ أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وَجَدُّهُ؟ فكُنَّا نَكْرَهُهُ لِذَلِكَ، فَمَا بَقِيَتِ امْرَأَةٌ قَدِمَتْ مَعِي إِلَّا أَخَذَتْ رَضِيعًا غَيْرِي، فَلَمَّا أَجْمَعْنَا الانْطِلَاقَ، والذَّهَابَ، قُلْتُ لِصَاحِبِي: وَاللهِ إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرْجعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي، ولَمْ آخُذْ رَضِيعًا، وَاللهِ لَأَذْهَبَنَّ إِلَىٰ ذَلِكَ اليَتِيمِ فَلَآخُذَنَّهُ، قالَ: لا عَلَيْكِ أَنْ تَفْعَلِي، عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا فِيهِ بَرَكَةً.

قَالَتْ: فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ فأَخَذْتُهُ، ومَا حَمَلَنِي عَلَىٰ أَخْذِهِ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ.

قالَتْ: فَلَمَّا أَخَذْتُهُ، رَجَعْتُ بِهِ إِلَىٰ رَحْلِي، فَلَمَّا وَضَعْتُهُ في حِجْرِي أَقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيَايَ بِمَا شَاءَ مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبَ حَتَّىٰ رَوِيَ، وشَرِبَ مَعَهُ أَخُوهُ حَتَّىٰ رَوِيَ، ثُمَّ نَامَا، ومَا كُنَّا نَنَامُ مَعَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وقَامَ زَوْجِي إِلَىٰ شَارِفِنَا تِلْكَ، فإِذَا هِيَ حَافِلٌ[٢] فَحَلَبَ مِنْهَا وشَرِبَ، وشَرِبْتُ مَعَهُ حَتَّىٰ انْتَهَيْنَا رِيًّا وشِبَعًا، فَبِتْنَا بِخَيْرِ لَيْلَةٍ، قالتْ: يَقُولُ صَاحِبِي حِينَ أَصْبَحْنَا: تَعْلَمِي واللهِ يا حَلِيمَةُ، لَقَدْ أَخَذْتِ نَسَمَةً مُبَارَكَةً، قالَتْ: فقُلْتُ واللهِ إِنِّي لَأَرْجُو ذَلِكَ، قالَتْ: ثُمَّ خَرَجْنَا ورَكِبْتُ

---

(١) العَجَفُ: أي الهُزَالُ. النهاية (٣/١٦٩).

(٢) نَاقَةٌ حَافِلٌ: أي كثيرة اللبن. النهاية (١/٣٩٣).

أَتَانِي، وحَمَلْتُهُ عَلَيْهَا مَعِي، فَوَاللهِ لَقَطَعْتُ بِالرَّكْبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ حُمُرِهِمْ حتَّىٰ إنَّ صَوَاحِبِي لَيَقُلْنَ لِي: يَا ابْنَةَ أَبِي ذُؤَيْبٍ، وَيْحَكِ أَرْبِعِي عَلَيْنَا[1]، أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَتَانُكِ التِي كُنْتِ خَرَجْتِ عَلَيْهَا؟

فأَقُولُ لَهُنَّ: بَلَىٰ وَاللهِ، إنَّهَا لَهِيَ هِيَ، فَيَقُلْنَ: وَاللهِ إنَّ لَهَا لَشَأْنًا.

قَالَتْ: ثُمَّ قَدِمْنَا مَنَازِلَنَا مِنْ بِلَادِ بَنِي سَعْدٍ، ومَا أَعْلَمُ أَرْضًا مِنْ أَرْضِ اللهِ أَجْدَبَ[2] مِنْهَا، فكَانَتْ غَنَمِي تَرُوحُ عَلَيَّ حِينَ قَدِمْنَا بهِ مَعَنَا شِبَاعًا لُبَّنًا، فَنَحْلِبُ ونَشْرَبُ، ومَا يَحْلِبُ إنْسَانٌ قَطْرَةَ لَبَنٍ، ولَا يَجِدُهَا في ضَرْعٍ، حَتَّىٰ كانَ الحَاضِرُونَ مِنْ قَوْمِنَا يَقُولُونَ لِرُعْيَانِهِمْ: وَيْلَكُمْ اسْرَحُوا حَيْثُ يَسْرَحُ رَاعِي بِنْتِ أَبِي ذُؤَيْبٍ فَتَرُوحُ أَغْنَامُهُمْ جِيَاعًا مَا تَبِضُّ بِقَطْرَةِ لَبَنٍ، وتَرُوحُ غَنَمِي شِبَاعًا لُبَّنًا[3].

---

(١) أَرْبِعِي: أي ارفُقِي واقْتَصِري. النهاية (١٧٢/٢).

(٢) يُقال أرضٌ جَدْبَاء: أي لا نَبَات بها. انظر النهاية (٢٣٥/١).

(٣) أخرج قِصَّةَ استِرْضَاعِ رسول الله ﷺ في بادِيَةِ بَنِي سعد:
ابن حبان في صحيحه ـ رقم الحديث (٦٣٣٥) بإسناد منقطع ـ وابن إسحاق في السيرة (١٩٩/١) وجَوّد إسناده الذهبي في سيرته (٥٢/١).
وضعف الألباني هذا الخبر في كتابه «دِفَاعٌ عن الحديثِ النَّبوي والسيرة».
قُلت: وهناك شواهد كثيرة وثابتة، تدل علىٰ استرضاع الرسول ﷺ في بادية بني سعد منها:
* ما رواه مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (١٦٢) (٢٦١) ـ في قصة شقِّ صدره ﷺ وهو غُلام، وهي تتفق مع رواية الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٧٦٤٨) ـ والحاكم في المستدرك ـ رقم الحديث (٤٢٨٨) ـ وابن إسحاق (٢٠١/١) بسند حسن في شق صدره ﷺ وهو مُسْتَرضَعٌ في بادية بني سعد. =

فَهَذِهِ مِنْ بَرَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةِ، وزَوْجِهَا الحَارِثِ.

ولَمْ يَزَلِ الرَّسُولُ ﷺ عِنْدَ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةِ حتَّىٰ مَضَتْ سَنَتَاهُ ﷺ وفَطَمَتْهُ وكانَ ﷺ يَشِبُّ شَبَابًا لا يُشْبِهُ الغِلْمَانَ فَلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حتَّىٰ كانَ غُلَامًا كَأَنَّهُ ابنُ أَرْبَعِ سِنِينَ.

قالتْ حَلِيمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فَلَمْ يَزَلِ اللهُ تَعَالَىٰ يُرِينَا البَرَكَةَ ونَتَعَرَّفُهَا، حتَّىٰ بَلَغَ ﷺ سَنَتَيْنِ، فكانَ يَشِبُّ شَبَابًا لا يَشِبُّهُ الغِلْمَانُ(١).

وقالَ الإمَامُ الذَّهَبِيُّ: فكانَ ﷺ يَشِبُّ في يَوْمِهِ شَبَابَ الصَّبِيِّ في الشَّهْرِ ويَشِبُّ في الشَّهْرِ شَبَابَ الصَّبِيِّ في سَنَةٍ(٢).

= * ومنها ما رواه ابن إسحاق في السيرة (٢٠٣/١) ـ وأورده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٦٧٩/٢) بَسَندٍ جيِّد قَوِي، عن خالد بن مَعْدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك؟ فقال رسول الله ﷺ: **«نَعم أنا دَعْوة أَبِي إبراهيم، وبُشرىٰ عِيسىٰ عليهِ السَّلامُ، ورأتْ أمِّي حيثُ حَمَلت بي أنه خرَج منها نُورٌ أضاءَتْ لَهُ قُصُور الشَّام، واستُرْضِعْتُ في بَنِي سعدِ بن بَكْرٍ...»**.

* ومنها ما رواه ابن إسحاق في السيرة (١٤١/٤) بسند حسن في قِصَّة قُدُوم وفْدِ هَوَازِن إلىٰ الرسول وهو بالجِعرانة مُنْصَرَفَهُ من حُنين، ولفظه: ...فقام رجل من هَوَازن، ثُمَّ أَحَدُ بني سعد بن بكر، فقال: يا رسول الله، إنَّما في الحَظَائِرِ ـ أي الأسر ـ عَمَّاتُكَ وخَالاتُكَ وحَوَاضِنُكَ اللاتي كُنَّ يَكْفُلْنَكَ.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب صفته ﷺ وأخباره ـ رقم الحديث (٦٣٣٥) ـ وإسناده منقطع، لكن للقصَّة شواهد كثيرةٌ ثابتةٌ صحيحةٌ كما مَرَّ قبل قليل.

(٢) انظر السِّيرة النَّبوِيَّة للذهبي (٥١/١).

قالَ البَرْدُونِيُّ:

وَشَبَّ طِفْلُ الْهُدَىٰ المَنْشُودِ مُتَّزِرًا   بِـالْحَقِّ مُتَّشِـحًا[1] بِـالنُّورِ وَالنَّـارِ

فِـي كَفِّـهِ شُـعْلَةٌ تَهْـدِي وفِـي فَمِـهِ   بُشْـرَىٰ وفِـي عَيْنَيْـهِ إِصْـرَارُ أَقْـدَارِ

وفِـي مَلَامِحِـهِ وَعْـدٌ وفِـي دَمِـهِ   بُطُولَـةٌ تَتَحَـدَّىٰ كُـلَّ جَبَّـارِ[2]

قالَتْ حَلِيمَةُ: فَقَدِمْنَا بهِ عَلَىٰ أُمِّهِ زَائِرِينَ لَهَا، ونَحْنُ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَىٰ مُكْثِهِ فِينَا، لِمَا كُنَّا نَرَىٰ مِنْ بَرَكَتِهِ، فَكَلَّمْنَا أُمَّهُ، وقُلْتُ لَهَا: لَوْ تَرَكْتِ بُنَيَّ عِنْدِي حتَّىٰ يَغْلَظَ، فإنِّي أَخْشَىٰ عَلَيْهِ وَبَاءَ مَكَّةَ.

قالتْ حَلِيمَةُ: فَلَمْ نَزَلْ بِهَا حتَّىٰ رَدَّتْهُ مَعَنَا[3].

وَهَكَذَا عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلىٰ بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ.

** ** **

(١) تَوَشَّحَ الرجل بِثَوبِهِ: إذا لبسه. انظر لسان العرب (١٥/٣٠٦).

(٢) انظر ديوان البردوني ص ٥٠٧.

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/٢٠١) ـ السِّيرة النَّبوِيَّة للذهبي (١/٥١) ـ وجود الذهبي إسناده.

حَادِثَةُ شَقِّ صَدْرِهِ الشَّرِيفِ ﷺ

وَقَعَتْ حَادِثَةُ شَقِّ صَدْرِ الرَّسُولِ ﷺ، وهُوَ فِي بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي رِوَايَةِ الإِمَامِ أَحْمَدَ في المُسْنَدِ، والحَاكِمِ فِي المُسْتَدْرَكِ عَنْ عُتْبَةَ بنِ عَبْدٍ السُّلَمِيِّ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: كَيْفَ كَانَ أَوَّلُ شَأْنِكَ يا رَسُولَ اللهِ؟

فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «كانَتْ حَاضِنَتِي مِنْ بَنِي سَعْدِ بن بَكْرٍ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وابْنٍ لَهَا فِي بَهْمٍ[1] لنا، ولَمْ نَأْخُذْ مَعَنَا زَادًا، فَقُلْتُ: يا أَخِي، اذْهَبْ فَأْتِنَا بِزَادٍ مِنْ عِنْدِ أُمِّنَا[2]، فَانْطَلَقَ أَخِي، ومَكَثْتُ عِنْدَ الْبَهْمِ، فَأَقْبَلَ طَيْرَانِ أَبْيَضَانِ، كَأَنَّهُمَا نَسْرَانِ، فقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَقْبَلَا يَبْتَدِرَانِي[3]، فَأَخَذَانِي فَبَطَحَانِي إِلَىٰ القَفَا، فَشَقَّا بَطْنِي، ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي، فَشَقَّاهُ، فأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَتَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ، فقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: ائْتِنِي بِمَاءِ ثَلْجٍ، فَغَسَلَا بِهِ جَوْفِي، ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِمَاءِ بَرَدٍ، فَغَسَلَا بِهِ قَلْبِي، ثُمَّ قالَ: ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ، فَذَرَّاهَا[4] فِي قَلْبِي، ثُمَّ

---

(١) البَهْمُ: بفتح الباء: جَمْع بَهْمَة، وهي ولد الضَّأْنِ الذكر والأنثىٰ. انظر النهاية (١/١٦٥).

(٢) هي حَلِيمة السعدية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) تَبَادَرَ القَوْم: أَسْرَعُوا. انظر لسان العرب (١/٣٤٠).

(٤) ذَرَّاها: أي نَثَرها.

قالَ أحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: حُصْهُ، فَحَاصَهُ[1]، وختَمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ،... ثُمَّ انْطَلَقَا وتَرَكَانِي، وَفَرِقْتُ[2] فَرَقًا شَدِيدًا، ثُمَّ انطَلَقْتُ إلىٰ أُمِّي فَأَخْبَرْتُهَا بِالذِي لَقِيتُهُ، فأشْفَقَتْ عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ أُلْبِسَ[3] بِي، قَالَتْ: أُعِيذُكَ بِاللهِ، فَرَحَلَتْ بَعِيرًا لَهَا، وَحَمَلَتْنِي عَلَىٰ الرَّحْلِ، ورَكِبَتْ خَلْفِي حتَىٰ بَلَغْنَا إِلَىٰ أُمِّي، فقَالَتْ: أَوَأَدَّيْتُ أَمَانَتِي وذِمَّتِي؟ وحَدَّثْتَهَا بِالذِي لَقِيتُ، فَلَمْ يَرُعْهَا ذَلِكَ، وقَالَتْ: إنِّي رَأَيْتُ حِينَ حَمَلْتُ بِهِ أنَّهُ خَرَجَ مِنِّي نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ»[4].

وَرَوَىٰ الإمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ، وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ القَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ[5]، ثُمَّ أَعَادَهُ في مَكَانِهِ، وجَاءَ الغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إلىٰ أُمِّهِ يَعْنِي ظِئْرِهِ[6]، فَقَالُوا: إنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وهُوَ مُنْتَقِعُ[7] اللَّوْنِ.

---

(١) حَاصَهُ: خَاطَهُ. انظر لسان العرب (٣/٣٩٤).

(٢) الفَرَقُ: بالتَّحريك الخوف والفزع. انظر النهاية (٣/٣٩٢).

(٣) أُلْبِسَ: أي خُولِطْتُ في عَقْلي. انظر النهاية (٤/١٩٦).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٧٦٤٨) ـ والحاكم في المستدرك ـ رقم الحديث (٤٢٨٨) ـ وأورد الإمام الذهبي في سيرته (١/٥٢) ـ وصحح إسناده ـ وأخرجه ابن إسحاق في السيرة (١/٢٠٣) عن خالد بن معدان بسند حسن، وأورده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٦٧٩) ـ وقال: وهذا إسناده جيد قوي.

(٥) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١/١٨٧): أي جمعه وضمَّ بعضه علىٰ بعض.

(٦) الظِّئْرُ: المُرْضِعَةُ غير ولدها. انظر النهاية (٣/١٤٠).

(٧) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١/١٨٧): مُنْتَقِعُ اللون: أي مُتَغَيِّر اللون.

قالَ أنَسٌ: وقَدْ كُنْتُ أَرَىٰ أَثَرَ ذَلِكَ المَخِيطِ فِي صَدْرِهِ[1].

قالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: والحِكْمَةُ مِنْ شَقِّ صَدْرِهِ ﷺ وهُوَ صَغِيرٌ: نَزْعُ العَلَقَةِ السَّوْدَاءِ التِي مِنْ حَظِّ الشَّيْطَانِ مِنْ كُلِّ بَشَرٍ، ثُمَّ إِخْرَاجُهَا بَعْدَ خَلْقِهَا كَرَامَةٌ رَبَّانِيَّةٌ، فَهُوَ أَدَلُّ عَلَىٰ مَزِيدٍ مِنَ الرِّفْعَةِ وَالكَرَامَةِ، وبِنَزْعِهَا مِنْهُ نَشَأَ ﷺ عَلَىٰ أكْمَلِ الأَحْوَالِ مِنَ العِصْمَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ[2].

۞ عُمُرُ رسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَمَا شُقَّ صَدْرُهُ:

ذَكَرَ ابْنُ إسْحَاقَ: أنَّ عُمُرَ رسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَمَا شُقَّ صَدْرُهُ الشَّرِيفُ، ابْنُ سَنَتَيْنِ، ولَفْظُهُ: قالَتْ حَلِيمَةُ: فَلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حتَّىٰ كَانَ غُلَامًا جَفْرًا[3].

وَعِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ: أنَّ عُمُرَهُ ﷺ عِنْدَمَا شُقَّ صَدْرُهُ الشَّرِيفُ، أَرْبَعُ سَنَوَاتٍ، ولَفْظُهُ: قَالَتْ حَلِيمَةُ: وَلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعَ سِنِينَ كَانَ يَغْدُو مَعَ أَخِيهِ وأُخْتِهِ فِي البَهْمِ...[4].

قالَ الزَّرْقَانِيُّ في شَرْحِ المَوَاهِبِ: والرَّاجِحُ أنَّ شَقَّ صَدْرِهِ ﷺ كانَ فِي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلىٰ السموات ـ رقم الحديث (١٦٢) (٢٦١).

(٢) انظر فتح الباري (٧/٦٠٤).

(٣) استَجْفَرَ الصَّبِيُّ: إذا قَوِي علىٰ الأكل، وأصله في أَوْلَادِ المَعْزِ إذا بلغَ أربعةَ أشْهُرٍ، وفُصِل عن أمِّهِ، وأخذ في الرعي، قيل له: جَفْر. انظر النهاية (١/٢٦٨).
وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (١/٢٠١).

(٤) انظر الطبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/٥٣).

الرَّابِعَةِ، كمَا جَزَمَ بهِ الحَافِظُ العِرَاقِيُّ في نَظْمِ السِّيرَةِ[1]، وتِلْمِيذُهُ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ في سِيرَتِهِ، وهِيَ صَغِيرَةٌ مُفِيدَةٌ[2].

۞ **تَكْرَارُ شَقِّ الصَّدْرِ:**

وقَدْ تكَرَّرَ شَقُّ صَدْرِهِ الشَّرِيفِ ﷺ غَيْرَ هَذِهِ المَرَّةِ، فَمِنْهَا:

۞ **المَرَّةُ الثَّانِيَةُ: وهُوَ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ ﷺ:**

رَوَىٰ الإمَامُ أحْمَدُ في مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنْ أُبِيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه: أنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه كَانَ جَرِيئًا عَلَىٰ أنْ يَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، عَنْ أَشْيَاءَ لَا يَسْأَلُهُ عَنْهَا غَيْرُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَوَّلُ مَا رَأَيْتَ مِنْ أَمْرِ النُّبُوَّةِ؟

فَاسْتَوَىٰ رسُولِ اللهِ ﷺ جَالِسًا، فَقَالَ: **«لَقَدْ سَأَلْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ، إنِّي لَفِي صَحْرَاءِ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ وأشْهُرٍ، وإذَا بِكَلَامٍ فَوْقَ رَأْسِي، وإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ لِرَجُلٍ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَاسْتَقْبَلَانِي بِوُجُوهٍ لَمْ أَرَهَا لِخَلْقٍ قَطُّ، وأَرْوَاحٍ لَمْ أَجِدْهَا مِنْ خَلْقٍ قَطُّ، وثِيَابٍ لَمْ أَرَهَا عَلَىٰ أَحَدٍ قَطُّ، فَأَقْبَلَا إِلَيَّ يَمْشِيَانِ، حَتَّىٰ أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِعَضُدِي[3]، لَا أَجِدُ لِأَخْذِهِمَا مَسًّا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا**

---

(١) ولفظهُ:

أَقَامَ فـي سَـعْدِ بـنِ بَكْـر عِنـدَهَا ... أَربعَـةَ سِـنينَ تَجْنِـي سَـعْدَهَا

وَحِـينَ شَـقَّ صَـدَرهُ جِبريـلُ ... خَافَـتْ عَليـهِ حَـدثًا يَـؤُولُ

(٢) انظر شرح المواهب (١/٢٨٢).

(٣) العَضُدُ: ما بين الكتف والمرفق. انظر النهاية (٣/٢٢٨).

لِصَاحِبِهِ: أَضْجِعْهُ، فَأَضْجَعَانِي، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: افْلُقْ[1] صَدْرَهُ، فَهَوَىٰ أَحَدُهُمَا إِلَىٰ صَدْرِي، فَفَلَقَهَا فِيمَا أَرَىٰ بِلَا دَمٍ وَلَا وَجَعٍ، فَقَالَ لَهُ: أَخْرِجِ الغِلَّ والحَسَدَ، فأَخْرَجَ شَيْئًا كَهَيْئَةِ العَلَقَةِ، ثُمَّ نَبَذَهَا فَطَرَحَهَا، فقَالَ لَهُ: أَدْخِلِ الرَّأْفَةَ والرَّحْمَةَ، فإِذَا مِثْلُ الذِي أَخْرَجَ يُشْبِهُ الفِضَّةَ، ثُمَّ هَزَّ إِبْهَامَ رِجْلِيَ اليُمْنَىٰ، فَقَالَ: اغْدُ وَاسْلَمْ، فَرَجَعْتُ بِهَا أَغْدُو بِهِ رِقَّةً عَلَىٰ الصَّغِيرِ ورَحْمَةً لِلْكَبِيرِ»[2].

❁ المَرَّةُ الثَّالِثَةُ: عِنْدَ المَبْعَثِ:

رَوَىٰ الطَّيَالِسِيُّ في مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «...هَبَطَ جِبْرِيلُ عليهِ السَّلامُ إِلَىٰ الأَرْضِ، فَسَلَقَنِي لِحَلَاوَةِ القَفَا[3]، وشَقَّ عَنْ بَطْنِي، فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ، ثُمَّ أعَادَهُ فِيهِ، ثُمَّ كَفَأَنِي كَمَا يَكْفَأُ الإِنَاءَ، ثُمَّ خَتَمَ فِي ظَهْرِي حَتَّىٰ وَجَدْتُ مَسَّ الخَاتَمِ، ثُمَّ قَالَ لِي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ولَمْ أَقْرَأْ كِتَابًا قَطُّ»[4].

❁ المَرَّةُ الرَّابِعَةُ: عِنْدَ الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ:

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَليهِ السَّلامُ، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهَا

---

(١) الفَلْقُ: الشَّقُّ. انظر النهاية (٣/٤٢٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢١٢٦١).

(٣) سَلَقَنِي لِحَلَاوَةِ القَفَا: أي أَضْجَعَني علىٰ وسط القَفَا، لم يَمِلْ بي إلىٰ أَحَدِ الجَانِبَيْنِ. انظر النهاية (١/٤١٨).

(٤) أخرجه الطيالسي في مسنده ـ رقم الحديث (١٦٤٣).

فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَعَرَجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ...» وذَكَرَ حَدِيثَ الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ(١).

قَالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: ثُمَّ وَقَعَ شَقُّ الصَّدْرِ عِنْدَ إِرَادَةِ العُرُوجِ بِهِ ﷺ إِلَىٰ السَّمَاءِ لِيَتَأَهَّبَ لِلْمُنَاجَاةِ(٢).

ويَتَرَجَّحُ لَدَيْنَا ـ بَعْدَ دِرَاسَةِ أَسَانِيدِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ ـ أَنَّ الذِي صَحَّ فِي هَذِهِ الحَادِثَةِ ـ أَيْ حَادِثَةِ شَقِّ الصَّدْرِ ـ أَنَّهَا وَقَعَتْ لَهُ ﷺ مَرَّتَيْنِ:

الأُولَىٰ: وهُوَ صَغِيرٌ عِنْدَ ظِئْرِهِ فِي بَنِي سَعْدٍ، كمَا فِي رِوَايَةِ أَنَسٍ رضي الله عنه.

والثَّانِيَةُ: فِي لَيْلَةِ الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ، كمَا فِي رِوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ، ومَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا(٣).

قَالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: وجَمِيعُ مَا وَرَدَ مِنْ شَقِّ الصَّدْرِ، واسْتِخْرَاجِ القَلْبِ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ مِمَّا يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ دُونَ التَّعَرُّضِ لِصَرْفِهِ عَنْ حَقِيقَتِهِ لِصَلَاحِيَةِ القُدْرَةِ، فَلَا يَسْتَحِيلُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الصلاة ـ باب كيف فُرضت الصلوات في الإسراء؟ ـ رقم الحديث (٣٤٩) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات ـ رقم الحديث (١٦٣).
ورواه البخاري في صحيحه من طريق مالك بن صعصعة رضي الله عنه ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب المعراج ـ رقم الحديث (٣٨٨٧) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات ـ رقم الحديث (١٦٤).

(٢) انظر فتح الباري (٧/٦٠٤).

(٣) انظر الموسوعة الحديثية (١٩/٢٥٢).

(٤) انظر فتح الباري (٧/٦٠٥).

وَلَعَلَّ أحَادِيثَ شَقِّ الصَّدْرِ تُشِيرُ إلَىٰ هَذِهِ الحَصَانَاتِ التِي أَضْفَاهَا اللهُ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ، فَجَعَلَتْهُ مِنْ طُفُولَتِهِ بِنَجْوَةٍ قَصِيَّةٍ عَنْ مَزَالِقِ الطَّبْعِ الإِنْسَانِيِّ، ومَفَاتِنِ الحَيَاةِ الأَرْضِيَّةِ[1].

۞ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ:

وهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ قِطْعَةِ لَحْمٍ نَاتِئَةٍ، عَلَيْهَا شَعْرٌ عِنْدَ كَتِفِهِ الأَيْسَرِ ﷺ، حَجْمُهَا قَدْرُ بَيْضَةِ الحَمَامَةِ[2].

وهَذَا الخَاتَمُ الذِي يُعْرَفُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ، هُوَ عَلَامَةٌ مِنْ عَلَامَاتِهِ ﷺ النَّبَوِيَّةِ في الكُتُبِ السَّابِقَةِ، كَمَا تَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ قِصَّةُ بَحِيرَا الرَّاهِبِ، وَقِصَّةُ إِسْلَامِ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ رضي الله عنه، كمَا سَيأْتِي.

وهَذَا الخَاتَمُ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا حِينَ وُلِدَ ﷺ، وإنَّمَا تَكَوَّنَ بَعْدَ الوِلَادَةِ، وأنَّهُ عَلَىٰ الأَصَحِّ كانَ بَعْدَ حَادِثَةِ شَقِّ الصَّدْرِ، وهُوَ صَغِيرٌ ﷺ[3].

قالَ العُلَمَاءُ: والسِّرُّ في وَضْعِ الخَاتَمِ عِنْدَ كَتِفِهِ الأَيْسَرِ ﷺ أَنَّ القَلْبَ فِي تِلْكَ الجِهَةِ؛ ولِأَنَّهُ ﷺ مَعْصُومٌ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ، وذَلِكَ المَوْضِعُ يَدْخُلُ مِنْهُ الشَّيْطَانُ[4].

---

(١) انظر فقه السيرة ص ٦٣ للشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) انظر فتح الباري (٧/٢٥٤).

(٣) انظر فتح الباري (٧/٢٥٥).

(٤) انظر فتح الباري (٧/٢٥٦) ـ الرَّوْض الأُنُف (١/٢٩٤) ـ صحيح مسلم بشرح النووي (٨/٨٠).

رَوَىٰ الإِمَامُ التِّرمِذِيُّ فِي الشَّمَائِلِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عنْ أَبِي نَضْرَةَ العَوَقِيِّ، قالَ: سَأَلْتُ أبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ ﷺ عَنْ خَاتَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ - يَعْنِي خَاتَمَ النُّبُوَّةِ - فَقَالَ: كانَ فِي ظَهْرِهِ بِضْعَةٌ نَاشِزَةٌ(١).

ورَوَىٰ الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا عَنِ السَّائِبِ بنِ يَزِيدَ ﷺ قالَ: ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي إِلَىٰ رسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يا رَسُولَ اللهِ! إنَّ ابْنَ أُخْتِي وَجعٌ، فَمَسَحَ رَأْسِي، ودَعَا لِي بِالبَرَكَةِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ فَشَرِبْتُ مِنْ وَضُوئِهِ، ثُمَّ قُمْتُ خَلْفَ ظَهْرِهِ فَنَظَرْتُ إِلَىٰ خَاتَمِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، مِثْلَ زِرِّ الحَجَلَةِ(٢).

ورَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ جَابِرِ بنِ سَمُرَةَ ﷺ قالَ: رَأَيْتُ خَاتَمًا فِي ظَهْرِ رسُولِ اللهِ ﷺ كَأَنَّهُ بَيْضَةُ حَمَامٍ(٣).

وأَخْرَجَ الإِمَامُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ سَرْجَسٍ ﷺ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَكَلْتُ مَعَهُ خُبْزًا وَلَحْمًا. أَوْ قَالَ: ثَرِيدًا، ... قَالَ: ثُمَّ دُرْتُ خَلْفَهُ،

---

(١) بِضْعَةٌ ناشِزَةٌ: أي قِطْعَةُ لَحْمٍ مُرْتَفِعَةٌ عنِ الجِسْمِ. انظر النهاية (٥/٤٨).
والحديث أخرجه الترمذي في: الشمائل - رقم الحديث (٢٢) - وانظر السلسلة الصحيحة للألباني رَحِمَهُ اللهُ - رقم الحديث (٢٠٩٣).

(٢) قال الإمام النووي في شرح مسلم (٨/٨٠): الحَجَلَةُ: واحدة الحِجال، وهي بيت كالقبة لها أزرار كبار وعُرى هذا هو الصواب المشهور الذي قاله الجمهور.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب المناقب - باب خاتم النبوة - رقم الحديث (٣٥٤١) - ومسلم في صحيحه - كتاب الفضائل - باب إثبات خاتم النبوة وصفته - رقم الحديث (٢٣٤٥).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب الفضائل - باب إثبات خاتم النبوة وصفته - رقم الحديث (٢٣٤٥).

فَنظَرْتُ إِلَىٰ خَاتَمِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، عِنْدَ نَاغِضِ[1] كَتِفِهِ الْيُسْرَىٰ، جُمْعًا[2] عَلَيْهِ خِيلَانٌ[3] كَأَمْثَالِ الثَّآلِيلِ[4].

وروَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي زَيْدٍ ﷺ قالَ: قالَ لِي رسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْتَرِبْ مِنِّي»، فَاقْتَرَبْتُ مِنْهُ، فَقَالَ: «أَدْخِلْ يَدَكَ، فَامْسَحْ ظَهْرِي».

قالَ: فَأَدْخَلْتُ يَدِيَ فِي قَمِيصِهِ، فَمَسَحْتُ ظَهْرَهُ، فَوَقَعَ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ بَيْنَ إِصْبَعِي، قَالَ: فَسُئِلَ عَنْ خَاتَمِ النُّبُوَّةِ؟

فقالَ: شَعَرَاتٌ بَيْنَ كَتِفَيْهِ.

وفِي رِوَايَةِ الحَاكِمِ في المُسْتَدْرَكِ: قالَ ﷺ: شَعَرٌ مُجْتَمِعٌ عِنْدَ كَتِفَيْهِ[5].

❁ رِوَايَاتٌ ضَعِيفَةٌ:

روَىٰ ابْنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا،

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٥/٨٠): النَّاغِضُ: هو أَعْلىٰ الكَتِفِ.

(٢) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٥/٨٠): جُمْعًا: فمعناه كجمعِ الكَفِّ وهو صُورته بعد أنْ تُجْمَعَ الأصابعُ وتَضُمها.

(٣) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٥/٨٠): الخِيلان: جمع خَالٍ وهوَ الشَّامَةُ في الجسد.

(٤) الثَّآليلُ: جمعُ ثُؤْلُولٍ: وهوَ هذهِ الحَبَّةُ التي تَظْهَرُ في الجلد كالحمّصَة فما دونها. انظر النهاية (١/٢٠٠).

والحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الفضائل ـ باب إثبات خاتم النبوة وصفته ـ رقم الحديث (٢٣٤٦) ـ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٠٧٧٠).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٠٧٣٢) ـ والحاكم في المستدرك ـ رقم الحديث (٤٢٥٤).

قالَ: كَانَ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ فِي ظَهْرِ رسُولِ اللهِ ﷺ مِثْلَ البُنْدُقَةِ مِنْ لَحْمٍ، عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ(١).

قال الحَافِظُ في الفَتْحِ: وأمَّا مَا وَرَدَ مِنْ أنَّهَا ـ يُرِيدُ الخَاتَمَ ـ كَانَتْ كَأَثَرِ مِحْجَمٍ(٢)، أَوْ كَالشَّامَةِ السَّوْدَاءِ، أوِ الخَضْرَاءِ، أوْ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، أوْ «سِرْ فَأَنْتَ مَنْصُورٌ»، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَلَمْ يَثْبُتْ مِنْهَا شَيْءٌ، ولَا تَغْتَرَّ بِمَا وَقَعَ مِنْهَا فِي صَحِيحِ ابنِ حِبَّانَ، فإنَّهُ غَفَلَ حَيْثُ صَحَّحَ ذَلِكَ، واللهُ أَعْلَمُ(٣).

۞ عَوْدَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ أُمِّهِ الحَنُونِ آمَنَةَ:

وَبَعْدَ حَادِثِ شَقِّ صَدْرِهِ الشَّرِيفِ ﷺ خَشِيَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّتْهُ إِلَىٰ أُمِّهِ، وكَانَ قَدْ بَلَغَ ﷺ مِنَ العُمُرِ خَمْسَ سَنَوَاتٍ.

قَالَتْ حَلِيمَةُ: قالَ لِي أَبُوهُ (أيْ زَوْجُهَا الحَارِثُ): يا حَلِيمَةُ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الغُلَامُ قَدْ أُصِيبَ، فَأَلْحِقِيهِ بِأَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ بِهِ.

قالَتْ: فَاحْتَمَلْنَاهُ، فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَىٰ أُمِّهِ، فَقَالَتْ آمِنَةُ لِحَلِيمَةَ: مَا أَقْدَمَكِ بِهِ،

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب صفة رسول الله ﷺ وأخباره ـ رقم الحديث (٦٣٠٢).

(٢) المِحْجَمُ: بكسر الميم: الآلةُ التي يجتمع فيها دَمُ الحِجَامة عند المَصِّ. انظر النهاية (٣٣٥/١).

(٣) انظر فتح الباري (٢٥٦/٧).

وَقَدْ كُنْتِ حَرِيصَةً عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ مُكْثِهِ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ حَلِيمَةُ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَ اللهُ بِابْنِي وَقَضَيْتُ الذِي عَلَيَّ، وتَخَوَّفْتُ الأَحْدَاثَ عَلَيْهِ، فَأَدَّيْتُهُ إِلَيْكِ كَمَا تُحِبِّينَ، فَقَالَتْ آمِنَةُ: مَا هَذَا شَأْنُكِ، فَأَصْدِقِينِي خَبَرَكِ.

قَالَتْ حَلِيمَةُ: فَلَمْ تَدَعْنِي حَتَّىٰ أَخْبَرْتُهَا، فقَالَتْ آمِنَةُ: أَفَتَخَوَّفْتِ عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ؟

قَالَتْ حَلِيمَةُ: نَعَمْ، فَقَالَتْ آمِنَةُ: كَلَّا، وَاللهِ مَا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ، وَإِنَّ لِابْنِي لَشَأْنًا دَعِيهِ عَنْكِ(١).

۞ وَفَاةُ آمِنَةَ أُمِّ النَّبِيِّ ﷺ:

ولَمَّا بَلَغَ ﷺ سِتَّ سِنِينَ تُوُفِّيَتْ وَالِدَتُهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ بِالْأَبْوَاءِ(٢)، وهِيَ رَاجِعَةٌ بِهِ إِلَىٰ مَكَّةَ بَعْدَ زِيَارَةٍ قَامَتْ بِهَا مَعَهُ ﷺ إِلَىٰ أَخْوَالِ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، بِالْمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ(٣).

---

(١) أخرج قصة استرضاع رسول الله ﷺ عند حليمة السعدية: ابن حبان في صحيحه ـ رقم الحديث (٦٣٣٥) ـ وابن إسحاق في السيرة (١/٢٠٢) ـ وسندها منقطع، لكن للقِصَّة شواهد صحيحة ـ كما ذكرنا ـ تدل علىٰ صحة القصة.

(٢) الأَبْوَاءُ: سُمِّيت بذلك: لتَبَوُّءِ السُّيُول بها، وهي قَرْيَةٌ مِنْ أعمال الفُرع من المدينة، بينها وبين الجُحْفَةِ مما يَلِي المدينة ثلاثة وعشرون مِيلًا، وقيل: الأبواء جَبَل علىٰ يَمين آرَةَ، ويمين الطريق للمصعد إلىٰ مكة من المدينة، وهناك بلد يُنْسب إلىٰ هذا الجبل. انظر معجم البلدان (١/٧٣).

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/٢٠٤).

قالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: ثُمَّ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ ﷺ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ ولَهُ مِنَ العُمُرِ سِتُّ سِنِينَ[(١)].

وقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: ولا خِلَافَ أَنَّ أُمَّهُ مَاتَتْ بَيْنَ مَكَّةَ والمَدِينَةِ «بِالْأَبْوَاءِ» مُنْصَرَفَهَا مِنَ المَدِينَةِ مِنْ زِيَارَةِ أَخْوَالِهِ، ولَمْ يَسْتَكْمِلْ إِذْ ذَاكَ سَبْعَ سِنِينَ[(٢)].

۞ زِيَارَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ:

وكانَ النَّبِيُّ ﷺ يَزُورُ قَبْرَ أُمِّهِ، فَقَدْ رَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَىٰ، وأَبْكَىٰ مَنْ حَوْلَهُ، ثُمَّ قَالَ: **«اِسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا، فَأَذِنَ لِي»**[(٣)].

ورَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ عَنْ بُرَيْدَةَ بنِ الحُصَيْبِ ﷺ قالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَ بِنَا، ونَحْنُ مَعَهُ قَرِيبٌ مِنْ أَلْفِ رَاكِبٍ، فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، وعَيْنَاهُ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٨/٤٢٦).

(٢) انظر زاد المعاد (١/٧٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الجنائز ـ باب استئذان النبي ﷺ ربه عزَّ وَجلَّ في زيارة قبر أمه ـ رقم الحديث (٩٧٦) ـ وأخرجه الإمام أحمد في المسند ـ رقم الحديث (٩٦٨٨).

تَذْرِفَانِ[1]، فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه، فَفَدَّاهُ بِالْأَبِ والْأُمِّ، وقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَالَكَ؟

قالَ ﷺ: **«إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي فِي الِاسْتِغْفَارِ لِأُمِّي، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، فَدَمَعَتْ عَيْنَايَ رَحْمَةً لَهَا مِنَ النَّارِ»**[2].

** ** **

(١) ذَرَفَتِ العَيْنُ: إذا جرىٰ دمعها. انظر النهاية (٢/١٤٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٣٠٠٣).

كَفَالَةُ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ

لَمَّا تُوُفِّيَتْ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ أُمُّ النَّبِيِّ ﷺ رَجَعَتْ أُمُّ أَيْمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَضَمَّهُ، وَكَفَلَهُ جَدُّهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ، ورَقَّ عَلَيْهِ رِقَّةً لَمْ يَرِقَّهَا عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ، وكانَ يُقَرِّبُهُ مِنْهُ ويُدْنِيهِ، ويَدْخُلُ عَلَيه إِذَا خَلَا، وإِذَا نَامَ، وكانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ لَا يَأْكُلُ طَعَامًا إِلَّا قَالَ: عَلَيَّ بِابْنِي فَيُؤْتَىٰ بِهِ ﷺ إِلَيْهِ[1].

❁ **قِصَّةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ شِدَّةِ مَحَبَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ لِلرَّسُولِ ﷺ:**

رَوَىٰ الحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ كِنْدِيرِ بنِ سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ، قالَ: حَجَجْتُ في الجَاهِلِيَّةِ، فإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ يَطُوفُ بالبَيْتِ، وهُوَ يَرْتَجِزُ، ويَقُولُ:

رَبِّ رُدَّ إِلَـيَّ رَاكِبِـي مُحَمَّـدَا ... رُدَّهُ إِلَـيَّ وَاصْـطَنِعْ عِنْـدِي يَـدَا

فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟

فَقَالُوا: عَبْدُ المُطَّلِبِ بنُ هَاشِمٍ، بَعَثَ بِابْنِ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ، ولَمْ يَبْعَثْهُ فِي حَاجَةٍ إِلَّا أَنْجَحَ[2] فِيهَا، وقَدْ أَبْطَأَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ مُحَمَّدٌ والإِبِلُ، فَاعْتَنَقَهُ، وقَالَ: يَا بُنَيَّ لَقَدْ جَزِعْتُ عَلَيْكَ جَزَعًا لَمْ أَجْزَعْهُ عَلَىٰ شَيْءٍ قَطُّ،

---

(١) انظر الطبقات لابن سعد (١/٥٥).

(٢) أَنْجَحْتَ حَاجَتَهُ: إذا قَضَيْتَهَا له. انظر لسان العرب (١٤/٤٤).

وَاللهِ لا أَبْعَثُكَ فِي حَاجَةٍ أَبَدًا، وَلَا تُفَارِقُنِي بَعْدَ هَذَا أبدًا[1].

۞ جُلُوسُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ فِرَاشِ عَبْدِ المُطَّلِبِ:

وكَانَ يُوضَعُ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ، فِرَاشٌ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، فكَانَ بَنُوهُ يَجْلِسُونَ حَوْلَ فِرَاشِهِ ذَلِكَ حتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْهِ، ولا يَجْلِسُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ بَنِيهِ إجْلَالًا لِعَبْدِ المُطَّلِبِ فكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَأْتِي وهُوَ غُلَامٌ جَفْرٌ، حتَّىٰ يَجْلِسَ عَلَيْهِ، فَيَأْخُذَهُ أَعْمَامُهُ لِيُؤَخِّرُوهُ عَنْهُ، فيَقُولُ عَبْدُ المُطَّلِبِ: دَعُوا ابْنِي يَجْلِسُ، فَوَاللهِ إِنَّ لَهُ لَشَأْنًا، ثُمَّ يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَى الْفِرَاشِ، وَيَمْسَحُ ظَهْرَهُ بِيَدِهِ، وَيَسُرُّهُ مَا يَرَاهُ يَصْنَعُ[2].

۞ وَفَاةُ عَبْدِ المُطَّلِبِ:

ولَمَّا بَلَغَ الرَّسُولُ ﷺ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ تُوُفِّيَ جَدُّهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ.

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: ثُمَّ كانَ ﷺ في كَفَالَةِ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، إلَىٰ أَنْ تُوُفِّيَ وَلَهُ مِنَ العُمُرِ ﷺ ثَمَانِ سِنِينَ[3].

وقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وَكَفِلَهُ جَدُّهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ، وتُوُفِّيَ ولِرَسُولِ اللهِ ﷺ نَحْوُ ثَمَانِ سِنِينَ[4].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ رقم الحديث (٤٢٤٠) ـ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرج ذلك: البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٢) ـ وابن إسحاق في السيرة (١/٢٠٥) ـ وإسناده حسن.

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٨/٤٢٦).

(٤) انظر زاد المعاد (١/٧٥).

كَفَالَةُ أَبِي طَالِبٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ:

أَوْصَىٰ عَبْدُ المُطَّلِبِ وَلَدَهُ أَبَا طَالِبٍ بِكَفَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَحِفْظِهِ، وحِيَاطَتِهِ؛ وذَلِكَ لِأَنَّ عَبْدَ اللهَ وَالِدَ الرَّسُولِ ﷺ وأَبَا طَالِبٍ أَخَوَانِ لِأَبٍ وَأُمٍّ، أُمُّهُمَا فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو بنِ عَائِذٍ، فقَامَ أَبُو طَالِبٍ بِحَقِّ ابْنِ أَخِيهِ عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ، وَضَمَّهُ إِلَىٰ وَلَدِهِ، بَلْ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدَّمَهُ عَلَيْهِمْ[1].

رَوَىٰ ابنُ سَعْدٍ في طَبَقَاتِهِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ المُطَّلِبِ قَبَضَ أَبُو طَالِبٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَيْهِ، فكَانَ يَكُونُ مَعَهُ، وكانَ أَبُو طَالِبٍ لَا مَالَ لَهُ، وكانَ يُحِبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حُبًّا شَدِيدًا لَا يُحِبُّهُ وَلَدَهُ، وكانَ لَا يَنَامُ إِلَّا إِلَىٰ جَنْبِهِ، وَيَخْرُجُ فَيَخْرُجُ مَعَهُ، وكانَ يَخُصُّهُ بالطَّعَامِ، وكانَ إِذَا أَكَلَ عِيَالُ أَبِي طَالِبٍ جَمِيعًا، أَوْ فُرَادَىٰ لَمْ يَشْبَعُوا، وإِذَا أَكَلَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَبِعُوا، فكَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُغْذِيَهُمْ قالَ: كَمَا أَنْتُمْ حَتَّىٰ يَحْضُرَ ابْنِي، فَيَأْتِي رسُولُ اللهِ ﷺ فَيَأْكُلَ مَعَهُمْ[2].

سَفَرُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ الشَّامِ مَعَ عَمِّهِ:

رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ في جَامِعِهِ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قالَ: خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَىٰ الشَّامِ، وخَرَجَ مَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَشْيَاخٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا[3]

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٢١٦).

(٢) انظر الطبقات لابن سعد (١/٥٦) - وسندها ضعيف، لكن لِحُبِّ أبي طالب لرسول الله ﷺ قصصًا صحيحة، منها ما ظَهَرَ في قِصَّةِ بَحيرا الراهب، كما سيأتي.

(٣) شَارَفَ الشَّيْءَ: دنَا منه وقَارَبَ أن يَظْفَرَ به. انظر لسان العرب (٧/٩١).

عَلَىٰ الرَّاهِبِ[١] - يَعْنِي بَحِيرَا[٢] - هَبَطُوا[٣]، فَحلُّوا رِحَالَهُمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبُ، وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ، فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ، ولا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ، قالَ: وَهُمْ يَحُلُّونَ رِحَالَهُمْ، فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ حَتَّىٰ جَاءَ فَأَخَذَ بِيَدِ رسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: هَذَا سَيِّدُ العَالَمِينَ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ، يَبْعَثُهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا عِلْمُكَ؟

قالَ: إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ العَقَبَةِ[٤]، لَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا، ولَا يَسْجُدَانِ إِلَّا لِنَبِيٍّ، وإِنِّي أَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ غُضْرُوفِ[٥] كَتِفِهِ مِثْلَ التُّفَّاحَةِ، ثُمَّ رَجَعَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا، فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِهِ، وكَانَ هُوَ - أَيِ الرَّسُولُ ﷺ - فِي رِعْيَةِ الإِبِلِ، قالَ: أَرْسِلُوا إِلَيْهِ - أَيْ إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ - فَأَقْبَلَ ﷺ وعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ القَوْمِ، وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَىٰ فَيْءِ[٦]

---

(١) قال السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (٣١٣/١): وقع في سيرة الإمام الزهري: أن بَحِيرا كان حَبْرًا من أحبَارِ يَهُودِ تَيْمَاء.

وتعقبه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٦٩١/٢) وقال: الذي يظهر من سِيَاقِ القِصَّةِ، أنه كان راهبًا نَصْرَانِيًّا، والله أعلم.

(٢) قال الحافظ في الإصابة (٤٠٥/١): بَحِيرا بفتح الباء وكسر الحاء.

قلت: جَزَم الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال (٢٢٢/٣)، في ترجمة سعيد بن عقبة: بأن بَحِيرا لم يُدْرِكِ البِعْثَةَ، وأقره علىٰ ذلك الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (٢٨٣/٣).

(٣) هَبَطُوا: أي نَزَلُوا. انظر لسان العرب (١٨/١٥).

(٤) العَقَبَةُ: الطَّرِيقُ في الجَبَل. انظر لسان العرب (٣٠٦/٩).

(٥) غُضْرُوفُ الكَتِفِ: هو رأس لَوْحِه. انظر النهاية (٣٣٣/٣).

(٦) الفَيْءُ: الظِّلُّ. انظر لسان العرب (٣٦٠/١٠).

الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ رسُولُ الله ﷺ مَالَ فَيْءُ الشَّجَرَةِ عَلَيْهِ، فقَالَ بَحِيرَا: انْظُرُوا إِلَىٰ فَيْءِ الشَّجَرَةِ مَالَ عَلَيْهِ، قالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ، وهُوَ يُنَاشِدُهُمْ أَنْ لَا يَذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ الرُّومِ، فَإِنَّ الرُّومَ إِنْ رَأَوْهُ عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ فَيَقْتُلُونَهُ، فَالْتَفَتَ فَإِذَا بِسَبْعَةٍ قَدْ أَقْبَلُوا مِنَ الرُّومِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ، فقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟

قَالُوا: جِئْنَا أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ خَارِجٌ في هَذَا الشَّهْرِ، فَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ إِلَّا بُعِثَ إِلَيْهِ بِأُنَاسٍ، وإِنَّا قَدْ أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ، فَبُعِثْنَا إِلَىٰ طَرِيقِكَ هَذَا، فقَالَ: هَلْ خَلْفَكُمْ أَحَدٌ هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ؟

قالُوا: إِنَّمَا أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ إِلَىٰ طَرِيقِكَ هَذَا.

قالَ: أَفَرَأَيْتُمْ أَمْرًا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَهُ، هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ رَدَّهُ؟

قالُوا: لَا، قالَ: فَبَايَعُوهُ، وأَقَامُوا مَعَهُ عِنْدَهُ.

قالَ: فَقَالَ الرَّاهِبُ بَحِيرَا: أَنْشُدُكُمُ اللهَ أَيُّكُمْ وَلِيُّهُ؟

قال أَبُو طَالِبٍ: فَلَمْ يَزَلْ يُنَاشِدُهُ حتَّىٰ رَدَّهُ أَبُو طَالِبٍ، وبَعَثَ مَعَهُ أَبَا بَكْرٍ وَبِلَالًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وزَوَّدَهُ الرَّاهِبُ مِنَ الكَعْكِ والزَّيْتِ[1].

۞ اخْتِلَافُ العُلَمَاءِ فِي تَصْحِيحِ هَذَا الحَدِيثِ:

اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ في تَصْحِيحِ هذَا الحَدِيثِ، فَقَدْ حَسَّنَهُ التِّرمِذِيُّ، وصَحَّحَهُ الحَافِظُ في الإِصَابَةِ، وَالْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ[2]، ....

(١) أخرجه الترمذي في جامعه ـ كتاب المناقب ـ باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ ـ رقم الحديث (٣٩٤٨).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول (٤٩/١): إسناده رجاله كلهم ثقات.

والحَاكِمُ[1]، والألْبَانِيُّ[2].

قالَ الحَافِظُ فِي الإِصَابَةِ: الحَدِيثُ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ، ولَيْسَ فِيهِ مُنْكَرٌ سِوَىٰ هَذِهِ اللَّفْظَةُ - وهِيَ ذِكْرُ أَبِي بَكْرٍ وَبِلَالٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَتُحْمَلُ عَلَىٰ أَنَّهَا مُدْرَجَةٌ فِيهِ مُقْتَطَعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ آخَرَ، وَهْمًا مِنْ أَحَدِ رُوَاتِهِ[3].

وقَالَ ابنُ القَيِّمِ: وَقَعَ فِي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ، وغَيْرِهِ أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُ بِلَالًا رضي الله عنه، وهُوَ مِنَ الغَلَطِ الوَاضِحِ، فإِنَّ بِلَالًا رضي الله عنه إِذْ ذَاكَ لَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا، وإِنْ كَانَ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَ عَمِّهِ، وَلَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه[4].

۞ **إِنْكَارُ الإِمَامِ الذَّهَبِيِّ لِهَذِهِ القِصَّةِ:**

أَمَّا الإِمَامُ الذَّهَبِيُّ فَقَدْ أَنْكَرَ الحَدِيثَ، فَقَالَ: وهُوَ حَدِيثٌ مُنْكَرٌ جِدًّا، وأَيْنَ كَانَ أَبُو بَكْرٍ؟ كانَ ابْنَ عَشْرِ سِنِينَ، فإِنَّهُ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَنَتَيْنِ وَنِصْفٍ، وأَيْنَ كَانَ بِلَالٌ فِي هَذَا الوَقْتِ؟ فإِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَشْتَرِهِ إِلَّا بَعْدَ المَبْعَثِ، ولَمْ يَكُنْ وُلِدَ بَعْدُ، وأَيْضًا، فَإِذَا كَانَ عَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَمِيلَ فَيْءُ الشَّجَرَةِ؟

لِأَنَّ ظِلَّ الغَمَامَةِ يَعْدِمُ فَيْءِ الشَّجَرَةِ التِي نَزَلَ تَحْتَهَا، ولَمْ نَرَ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَّر أَبَا طَالِبٍ قَطُّ بِقَوْلِ الرَّاهِبِ، ولَا تَذَاكَرَتْهُ قُرَيْشٌ، ولَا حَكَتْهُ أُولَئِكَ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - رقم الحديث (٤٢٨٧) - وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
(٢) انظر كتاب دفاع عن الحديث النبوي والسيرة (ص ٦٢ - ٧٢).
(٣) انظر الإصابة (١/٤٧٦).
(٤) انظر زاد المعاد (١/٧٥).

الأَشْيَاخُ، مَعَ تَوَفُّرِ هِمَمِهِمْ ودوَاعِيهِمْ عَلَىٰ حِكَايَةِ مِثْلِ ذَلِكَ، فَلَوْ وَقَعَ لَاشْتَهَرَ بَيْنَهُمْ أَيَّمَا اشْتِهَارٍ، ولَبَقِيَ عِنْدَهُ ﷺ حِسُّ النُّبُوَّةِ، ولَمَا أَنْكَرَ مَجِيءَ الوَحْيِ إِلَيْهِ أَوَّلًا بِغَارِ حِرَاءٍ، وأَتَىٰ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا خَائِفًا عَلَىٰ عَقْلِهِ... وأَيْضًا فَلَوْ أَثَّر هَذَا الخَوْفُ فِي أَبِي طَالِبٍ وَرَدَّهُ، كَيْفَ كانَتْ تَطِيبُ نَفْسُهُ أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنَ السَّفَرِ إِلَىٰ الشَّامِ تَاجِرًا لِخَدِيجَةَ؟

وفِي الحَدِيثِ أَلْفَاظٌ مُنْكَرَةٌ، تُشْبِهُ أَلْفَاظَ الطُّرُقِيَّةِ[١]، مَعَ أَنَّ ابْنَ عَائِذٍ قَدْ رَوَىٰ مَعْنَاهُ فِي مَغَازِيهِ دُونَ قَوْلِهِ: وبَعَثَ مَعَهُ أَبَا بَكْرٍ وَبِلَالًا[٢].

قُلْتُ: وَقَعَ عِنْدَ ابنِ إِسْحَاقَ[٣] بِنَحْوِ سِيَاقِ التِّرْمِذِيِّ، ولَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ أَبِي بَكْرٍ وَبِلَالٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ولَكِنَّهَا بِدُونِ سَنَدٍ، فَيُسْتَأْنَسُ بِرِوَايَتِهِ لِإِمَامَتِهِ في المَغَازِي.

ورَحِمَ اللهُ أَحْمَد شَوْقِي حَيْثُ قَالَ:

لَمَّا رَآهُ بَحِيرَا قَالَ نَعْرِفُهُ ... بِمَا حَفِظْنَا مِنَ الأَسْمَاءِ وَالسِّيَمِ[٤]

۞ رَعْيُهُ ﷺ لِلْغَنَمِ:

قالَ ابنُ سَعْدٍ في طَبَقَاتِهِ: وكَانَ أَبُو طَالِبٍ لَا مَالَ لَهُ[٥].

---

(١) الطُّرُقِيَّة: هم الصُّوفية.

(٢) انظر السِّيرة النَّبويَّة للإمام الذهبي (١/٥٨).

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/٢١٧).

(٤) السِّيَم: جمع سيمة، وهي العلامة. انظر لسان العرب (٦/٤٤١).
ومنه قوله تَعَالَىٰ في سورة الفتح آية (٢٩): ﴿... سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

(٥) انظر الطبَّقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/٥٦).

فَلَمَّا عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ هَذِهِ الرِّحْلَةِ بَدَأَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، وَقَدِ اشْتَغَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي صِبَاهُ بِرَعْيِ الغَنَمِ، وَرَعَاهَا لِبَعْضِ أَهْلِ مَكَّةَ، وَبِذَلِكَ ضَرَبَ مَثَلًا عَالِيًا مِنْ صِغَرِهِ فِي اكْتِسَابِ الرِّزْقِ بِالْكَدِّ، وَالتَّعَبِ.

قالَ أَحْمَد شَوْقِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

كَـانَ رَسُـولُ اللهِ فِـي شَـبَابِهِ ... لَا يَـدَعُ الـرِّزْقَ وَطَـرْقَ بَابِـهِ
أَيُّ رسُـولٍ أَوْ نَبِـيٍّ قَبْلَـهُ ... لَـمْ يَطْلُـبِ الـرِّزْقَ وَيَبْـغِ سُـبْلَهُ؟
مُوسَىٰ الكَلِيمُ اسْتُؤْجِرَ اسْتِئْجَارًا ... وَكَانَ عِيسَىٰ[1] فِي الصِّبَا نَجَّارًا

رَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَىٰ الغَنَمَ**»، فقَالَ أَصْحَابُهُ: وأَنْتَ؟ فقَالَ: «**نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَىٰ قَرَارِيطَ[2] لِأَهْلِ مَكَّةَ**»[3].

ورَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ في الأَدَبِ المُفْرَدِ والطَّيَالِسِيُّ في مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدَةَ بْنِ حَزْنٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**بُعِثَ مُوسَىٰ وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ،**

---

(١) لم يَثْبُتْ أَنَّ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ كان نَجارًا، وإنما كان كما قال الله تَعَالَىٰ في كتابه الكريم عنه: أنه يَشْفي المَرضىٰ، ويُبْرِئُ الأكمه، ويُحْيِي الموتىٰ بإذن الله.
وثبت في صحيح مسلم ـ رقم الحديث (٢٣٧٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كانَ زَكَرِيَّا نجارًا».

(٢) قال الحافظ في الفتح (٥/١٩٩): القِيرَاطُ: هو جُزْءٌ من الدِّينارِ والدِّرهم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب السلم ـ باب الإجارة رقم الحديث (٢٢٦٢).

وبُعِثَ داوُدُ وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وبُعِثْتُ أَنَا، وأَنَا أَرْعَىٰ غَنَمًا لِأَهْلِي بِأَجْيَادَ»[1].

الحِكْمَةُ فِي رَعْيِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ لِلْغَنَمِ:

قالَ العُلَمَاءُ: الحِكْمَةُ فِي إِلْهَامِ الأَنْبِيَاءَ مِنْ رَعْيِ الغَنَمِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ أُمُورٌ، مِنْهَا:

١ ـ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمُ التَّمَرُّنُ بِرَعْيِهَا عَلَىٰ ما يَكْفُلُونَهُ مِنَ القِيَامِ بِأَمْرِ أُمَّتِهِمْ.

٢ ـ أَنَّ فِي مُخَالَطَتِهَا مَا يُحَصِّلُ لَهُمْ الحِلْمَ والشَّفَقَةَ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا صَبَرُوا عَلَىٰ رَعْيِهَا وَجَمْعِهَا بَعْدَ تَفَرُّقِهَا فِي المَرْعَىٰ، وَنَقْلِهَا مِنْ مَسْرَحٍ إِلَىٰ مَسْرَحٍ، ودَفْعِ عَدُوِّهَا مِنْ سَبُعٍ وَغَيْرِهِ كالسَّارِقِ، وَعَلِمُوا اخْتِلَافَ طِبَاعِهَا، وشِدَّةَ تَفَرُّقِهَا مَعَ ضَعْفِهَا، وَاحْتِيَاجِهَا إِلَىٰ المُعَاهَدَةِ أَلِفُوا مِنْ ذَلِكَ الصَّبْرَ عَلَىٰ الأُمَّةِ، وعَرَفُوا اخْتِلَافَ طِبَاعِهَا وتَفَاوُتَ عُقُولِهَا فَجَبَرُوا كَسْرَهَا، ورَفَقُوا بِضَعِيفِهَا، وأَحْسَنُوا التَّعَاهُدَ لَهَا، فَيَكُونُ تَحَمُّلُهُمْ لِمَشَقَّةِ ذَلِكَ أَسْهَلُ مِمَّا لَوْ كُلِّفُوا القِيَامَ بِذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ، لِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ التَّدْرِيجِ عَلَىٰ ذَلِكَ بِرَعْيِ الغَنَمِ.

٣ ـ خُصَّتِ الغَنَمُ بِذَلِكَ؛ لِكَوْنِهَا أَضْعَفَ مِنْ غَيْرِهَا؛ وَلِأَنَّ تَفَرُّقَهَا أَكْثَرُ مِنْ تَفَرُّقِ الإِبِلِ والبَقَرِ؛ لِإِمْكَانِ ضَبْطِ الإِبِلِ والبَقَرِ بِالرَّبْطِ دُونَهَا فِي العَادَةِ المَأْلُوفَةِ، ومَعَ أَكْثَرِيَّةِ تَفَرُّقِهَا، فَهِيَ أَسْرَعُ انْقِيَادًا مِنْ غَيْرِهَا.

---

(١) أَجْيَادٌ: بفتح الهمزة وسكون الجيم، جَبَلٌ بِمَكَّةَ. انظر النهاية (٣١/١).
والحديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد ـ رقم الحديث (٤٥٠) ـ والطيالسي في مسنده ـ رقم الحديث (١٤٠٧).

٤ ـ أَنَّ فِيهِ كَسْبًا مَادِّيًا مِنْ عَمَلِ اليَدِ، وأَفْضَلُ الكَسْبِ مَا كَانَ مِنْ عَمَلِ اليَدِ.

فَقَدْ رَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنِ المِقْدَامِ بنِ مَعْدِي كَرِبَ الكِنْدِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قالَ: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا**[1] **مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيهِ السَّلامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[2].

٥ ـ وفِي ذِكْرِ النَّبِيِّ ﷺ لِذَلِكَ بَعْدَ أَنْ عَلِمَ كَوْنَهُ أَكْرَمَ الخَلْقِ عَلَىٰ اللهِ مَا كَانَ مِنْ عَظِيمِ التَّوَاضُعِ لِرَبِّهِ، والتَّصْرِيحِ بِمِنَّتِهِ عَلَيْهِ، وعَلَىٰ إِخْوَانِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ[3].

۞ فَوَائِدُ الحَدِيثِ:

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: وفِي الحَدِيثِ:

١ ـ فَضْلُ العَمَلِ بِاليَدِ، وتَقْدِيمُ مَا يُبَاشِرُهُ الشَّخْصُ بِنَفْسِهِ عَلَىٰ ما يُبَاشِرُهُ بِغَيْرِهِ.

٢ ـ والحِكْمَةُ فِي تَخْصِيصِ دَاوُدَ عَلَيهِ السَّلامُ بِالذِّكْرِ، أَنَّ اقْتِصَارَهُ فِي أَكْلِهِ عَلَىٰ مَا يَعْمَلُهُ بِيَدِهِ لَمْ يَكُنْ مِنَ الحَاجَةِ؛ لِأَنَّهُ كانَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ، كَمَا

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٥/٢٦): المراد بالخَيْرِيَّةِ ما يَسْتَلْزِمُ العمل باليدِ مِنَ الغنىٰ عن الناس.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب البيوع ـ باب كسب الرجل وعمله بيده ـ رقم الحديث (٢٠٧٢).

(٣) انظر فتح الباري (٥/٢٠٠).

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ[1]، وإنَّمَا ابْتَغَىٰ الأَكْلَ مِنْ طَرِيقِ الأَفْضَلِ، ولِهَذَا أَوْرَدَ النَّبِيُّ ﷺ قِصَّتَهُ فِي مَقَامِ الِاحْتِجَاجِ بِهَا عَلَىٰ مَا قَدَّمَهُ مِنْ أَنَّ خَيْرَ الكَسْبِ عَمَلُ اليَدِ، وهَذَا بَعْدَ تَقْرِيرِ أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لنَا، ولاسِيَّمَا إذَا وَرَدَ في شَرْعِنَا مَدْحُهُ وتَحْسِينُهُ مَعَ عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[2].

٣ ـ وفِيهِ أنَّ التَّكَسُّبَ لَا يَقْدَحُ فِي التَّوَكُّلِ.

٤ ـ وفِيهِ أنَّ ذِكْرَ الشَّيْءِ بِدَلِيلِهِ أَوْقَعُ فِي نَفْسِ سَامِعِيهِ[3].

۞ شُهُودُ النَّبِيِّ ﷺ حَرْبَ الفِجَارِ[4]:

وَلَمَّا بَلَغَ الرَّسُولُ ﷺ خَمْسَةَ عَشَرَ سَنَةً، وَقِيلَ عِشْرُونَ سَنَةً، هَاجَتْ حَرْبُ الفِجَارِ، وكَانَتْ بَيْنَ قُرَيْشٍ، وَمَنْ مَعَهَا مِنْ كِنَانَةَ، وبَيْنَ قَيْسٍ وَأَحْلَافِهَا، وكَانَ قَائِدُ قُرَيْشٍ، وكِنَانَةَ: حَرْبُ بنُ أُمَيَّةَ، وكانَ الظَّفَرُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ لِقَيْسٍ عَلَىٰ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ، حتَّىٰ إذَا كَانَ فِي وَسَطِ النَّهَارِ كانَ الظَّفَرُ لِقُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ عَلَىٰ قَيْسٍ، وَقَدْ شَهِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْضَ أَيَّامِهِ، وكَانَ يَنْبُلُ عَلَىٰ عُمُومَتِهِ: أيْ يُجَهِّزُ لَهُمُ النَّبْلَ لِلرَّمْيِ، وقِيلَ يَرُدُّ عَنْهُمْ نَبلَ عَدُوِّهِمْ[5].

---

(١) في سورة «ص» آية (٢٦).

(٢) سورة الأنعام آية (٩٠).

(٣) انظر فتح الباري (٥/٢٧).

(٤) الفِجَارُ: بكسر الفاء علىٰ وزن قِتَال، سُمِّيت بذلك لِوُقُوعِهَا في الأشهرِ الحُرُمِ التي حرم الله فيها القتال. انظر النهاية (٣/٣٧١).

(٥) انظر سيرة ابن هشام (١/٢٢١) بدون إسناد ـ وانظر الطبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/٦٠).

۞ شُهُودُ النَّبِيِّ ﷺ حِلْفَ الفُضُولِ:

قَالَ الإِمَامُ السُّهَيْلِيُّ: كانَ حِلْفُ الفُضُولِ أَكْرَمَ حِلْفٍ سُمِعَ بِهِ، وأَشْرَفَهُ في العَرَبِ(١).

وكَانَ هَذَا الحِلْفُ في ذِي القَعْدَةِ في شَهْرٍ حَرَامٍ، بَعْدَ حَرْبِ الفِجَارِ بِشَهْرٍ وقِيلَ بَأَرْبَعِ أَشْهُرٍ.

وسَبَبُ هَذَا الحِلْفِ أَنَّ رَجُلًا مِنْ (زُبَيْدٍ) بِالْيَمَنِ قَدِمَ مَكَّةَ بِبِضَاعَةٍ فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ العَاصُ بنُ وَائِلٍ، وأَبَىٰ أَنْ يُعْطِيَهُ حَقَّهُ، فَاسْتَدْعَىٰ عَلَيْهِ الزُّبَيْدِيُّ الأَحْلَافَ: عَبْدَ الدَّارِ، ومَخْزُومًا، وجُمَحًا، وَسَهْمًا، وَعَدِيَّ بنَ كَعْبٍ، فَأَبَوْا أَنْ يُعِينُوهُ عَلَىٰ العَاصِ بنِ وَائِلٍ، وَانْتَهَرُوهُ.

فلَمَّا رَأَىٰ الزُّبَيْدِيُّ الشَّرَّ، صَعِدَ عَلَىٰ جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقُرَيْشٌ عِنْدَ الكَعْبَةِ، وَنَادَىٰ بِأَبْيَاتِهِ المَشْهُورَةِ، يَصِفُ فِيهَا ظُلَامَتَهُ، رَافِعًا صَوْتَهُ:

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتَهُ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ
ومُحْرِمٌ أَشْعَثٌ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ... يَا لَلرِّجَالِ وَبَيْنَ الْحِجْرِ والحَجَرِ
إِنَّ الحَرَامَ لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُهُ ... ولَا حَرَامَ لِثَوْبِ الفَاجِرِ الغَدِرِ

فَقَامَ الزُّبَيْرُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ، وقَالَ: مَا لِهَذَا مَتْرُوكٌ فَاجْتَمَعَتْ بَنُو هَاشِمٍ، وَزُهْرَةُ، وبَنُو تَيْمِ بنِ مُرَّةَ، في دَارِ عَبْدِ اللهِ بنِ جَدْعَانَ

---
(١) انظر الرَّوْض الأُنُف (١/٢٤٢).

وتَعَاقَدُوا، وتَحَالَفُوا بِاللهِ، لَيَكُونُنَّ يَدًا وَاحِدَةً مَعَ المَظْلُومِ عَلَىٰ الظَّالِمِ، حتَّىٰ يُرَدَّ عَلَيْهِ حَقُّهُ، فَسَمَّتْ قُرَيْشٌ هَذَا الحِلْفَ (حِلْفَ الفُضُولِ) وقَالُوا: لَقَدْ دَخَلَ هَؤُلَاءِ في فَضْلٍ مِنَ الأَمْرِ، ثُمَّ مَشَوْا إِلَىٰ العَاصِ بنِ وَائِلٍ، فَانْتَزَعُوا مِنْهُ سِلْعَةَ الزُّبَيْدِيِّ فَدَفَعُوهَا إِلَيْهِ.

وقِيلَ: سُمِّيَ حِلْفَ الفُضُولِ، لِأَنَّ أَوَّلَ مَنْ دُعِيَ إِلَيْهِ، ثَلَاثَةٌ، كُلُّهُمْ اسْمُهُ الفَضْلُ، وهُمْ: الفَضْلُ بنُ فُضَالَةَ، والفَضْلُ بنُ وَدَاعَةَ، والفَضْلُ بنُ الحَارِثِ[1].

وقَدْ شَهِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هذَا الحِلْفَ، فَقَدْ رَوَىٰ الْحُمَيْدِيُّ عَنْ مُحَمَّدٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنَيْ أَبِي بَكْرٍ قَالَا: قالَ رسُولُ الله ﷺ: **«لَقَدْ شَهِدْتُ في دَارِ عَبْدِ اللهِ بنِ جُدْعَانَ[2] حِلْفًا، لَوْ دُعِيتُ بِهِ في الإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ»**[3].

ورَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/١٦٩) ـ الروض الأنف (٢/٢٤٢).

(٢) عبدُ اللهِ بنُ جُدْعَان: رجُلٌ من بني تَميم بن تَيْمِ بن مُرَّة، في قريش، وهو ابنُ عَمٍّ والد أبي بكر الصديق ﷺ، وكان شَريفًا من أشْرَافها، وكان أحد الأجْوَاد المَشْهُورين في الجاهلية، وكان كثير الطعام، أدركَ رسول الله ﷺ قبْلَ البِعْثَةِ. انظر كتاب الأعلام للزركلي (٤/٧٦).

روىٰ الإمام مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٢١٤) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جُدْعَان، كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطْعِمُ المسكين، فهل ذاك يَنْفعُهُ؟، فقال رسول الله ﷺ: **«لا يَنْفَعُهُ، إنه لمْ يَقُلْ يومًا: رَبِّ اغفِرْ لِي خَطِيئَتِي يومَ الدِّينِ»**.

(٣) أخرجه الحُمَيدي فيما نقله الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٦٩٦) ـ وإسناده صحيح.

عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ ﷺ قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**شَهِدْتُ حِلْفَ المُطَيَّبِينَ**[1] **مَعَ عُمُومَتِي، وأَنَا غُلَامٌ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ**[2]**، وإنِّي أَنْكُثُهُ**»[3].

** ** **

---

(١) قال البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٩): زعم بعض أهلُ السِّيَر أنه أراد حلف الفضول، فإن النبي ﷺ لم يُدْرِك حِلْفَ المُطَيَّبِينَ.
وعلَّق الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٦٩٦) علىٰ كلام البيهقي بقوله: وهذا لا شكَّ فيه، وذلك أن قريشًا تحالفُوا بعدَ موتِ قُصَيٍّ، وتنازعوا في الذي كان جعله قُصَيٌّ لابنه عَبْدِ الدار من السِّقَاية، والرِّفادة، واللِّواء، والنَّدْوة، والحِجَابة، وقامت مع كل طائفة من قبائل قريش، وتحالفوا علىٰ النُّصْرَة لحِزْبِهِمْ، فأحضَرَ أصحاب بني عبد مناف جَفْنَةً فيها طِيبٌ، فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا، فلما قامُوا مسحوا أيديهم بأركانَ البيتِ، فسُمُّوا المُطَيَّبِينَ، وكان هذا قديمًا.
قال ابن الأثير في النهاية (٣/٤٠٨): وإنما سَمَّىٰ رسول الله ﷺ حِلْفَ الفُضُول بالمُطَيبين، مع أنه ﷺ لم يَشْهَدْ حلف المُطَيَّبين؛ لأنه كان شَبِيهًا به في التَّنَاصح، والأخذ للضعيفِ من القَوِيِّ، وللغريب من القاطن.

(٢) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٥/١٤٥): حُمر النعم هي الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب يضربون بها المثل في نفاسة الشيء، وأنه ليس هناك أعظم منه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٦٥٥) ـ والبخاري في الأدب المفرد ـ رقم الحديث (٤٤١) ـ وابن حبان في صحيحه ـ رقم الحديث (٤٣٧٣).

خُرُوجُ الرَّسُولِ ﷺ بِتِجَارَةِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

وفِي الخَامِسَةِ والعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ المُبَارَكِ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ تاجرًا إِلَىٰ الشَّامِ في مَالِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وكانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ امْرَأَةً تَاجِرَةً ذَاتَ شَرَفٍ، وَمَالٍ، تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ في مَالِهَا وتُضَارِبُهُمْ[1] إِيَّاهُ، بِشَيْءٍ تَجْعَلُهُ لَهُمْ.

فَلَمَّا بَلَغَهَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ ما بَلَغَهَا مِنْ صِدْقِ حَدِيثِهِ، وعِظَمِ أَمَانَتِهِ وكَرَمِ أَخْلَاقِهِ، بَعَثَتْ إِلَيْهِ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ فِي مَالِهَا إِلَىٰ الشَّامِ تَاجِرًا وتُعْطِيَهُ أَفْضَلَ مَا كَانَتْ تُعْطِي غَيْرَهُ مِنَ التُّجَّارِ، فَقَبِلَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهَا.

وفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ أَبَا طَالِبٍ قالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَنَا رَجُلٌ لَا مَالَ لِي، وقَدِ اشْتَدَّ الزَّمَانُ عَلَيْنَا، وهَذِهِ عِيرُ قَوْمِكَ وقَدْ حَضَرَ خُرُوجُهَا إِلَىٰ الشَّامِ، وخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ تَبْعَثُ رِجَالًا مِنْ قَوْمِكَ فِي عِيرَاتِهَا[2]، فَلَوْ جِئْتَهَا فَعَرَضْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهَا لَأَسْرَعَتْ إِلَيْكَ، لِمَا يَبْلُغُهَا عَنْكَ مِنْ طَهَارَتِكَ، وفَضْلِكَ عَلَىٰ غَيْرِكَ، فَبَلَغَ خَدِيجَةَ الخَبَرُ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وقَالَتْ لَهُ: أَنَا أُعطِيكَ ضِعْفَ مَا أُعْطِي رَجُلًا مِنْ

---

(١) المُضَارَبَةُ: هيَ أن تُعْطِي مَالًا لغَيْرِكَ يتَّجِرُ فيه فيكون له سَهْمٌ معلومٌ من الرِّبْحِ، وهي مفاعلةٌ مِنَ الضَّرْبِ في الأرض، السَّيْر فيها للتِّجَارَةِ. انظر النهاية (٣/٧٢).

(٢) عِيرَاتُهَا: جمعُ عِيرٍ، وهي الإبل بأحْمَالِهَا. انظر النهاية (٣/٢٩٧).

قَوْمِكَ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: هَذَا رِزْقٌ قَدْ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْكَ.

فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَالِهَا، وخَرَجَ مَعَهُ غُلَامُهَا «مَيْسَرَةُ»[1] وجَعَلَ عُمُومَتُهُ يُوصُونَ بِهِ أَهْلَ العِيرِ، حتَّىٰ قَدِمَا «بُصْرَىٰ» مِنَ الشَّامِ، فَنَزَلَا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ صَوْمَعَةِ رَاهِبٍ مِنَ الرُّهْبَانِ يُقَالُ لَهُ «نَسْطُورٌ» فَاطَّلَعَ الرَّاهِبُ إِلَىٰ مَيْسَرَةَ فَقَالَ لَهُ: مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الذِي نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ؟

فَقَالَ لَهُ مَيْسَرَةُ: هذَا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ أَهْلِ الحَرَمِ، فَقَالَ الرَّاهِبُ: مَا نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ قَطُّ إِلَّا نَبِيٌّ[2].

ثُمَّ قَالَ لِمَيْسَرَةَ: أَفِي عَيْنَيْهِ حُمْرَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ لَا تُفَارِقُهُ، فَقَالَ: هُوَ نَبِيٌّ وَهُوَ آخِرُ الأَنْبِيَاءِ.

ثُمَّ بَاعَ النَّبِيُّ ﷺ سِلْعَتَهُ التِي خَرَجَ بِهَا، فَوَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَجُلٍ مُلَاحَاةٌ[3]، فقَالَ لَهُ: احْلِفْ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا حَلَفْتُ بِهِمَا قَطُّ، وإِنِّي لَأَمُرُّ فَأُعْرِضُ عَنْهُمَا»**، فَقَالَ الرَّجُلُ: القَوْلُ قَوْلُكَ، ثُمَّ اشْتَرَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَرَادَ أَنْ يَشْتَرِيَ، وأَقْبَلَ قَافِلًا إِلَىٰ مَكَّةَ، وَمَعَهُ مَيْسَرَةُ.

---

(١) قال الحافظ في الإصابة (٦/١٨٩): لم أَقِف علىٰ رِوَايةٍ صريحةٍ بأنه بَقِيَ إلىٰ البعثة.

(٢) قال الإمام السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (١/٣٢٣): يُرِيدُ ما نزل تحتَهَا هذه السَّاعة إلا نَبِي، ولم يُرِد ما نزل تحتها قَطُّ إلا نبي، لبُعْدِ العَهْدِ بالأنبياء قبل ذلك، والشَّجَرَةُ لا تُعَمَّر في العَادَةِ هذا العُمُر الطويل حتىٰ يَدْري أنه لم يَنْزِل تحتها إلا عِيسَىٰ عليهِ السَّلامُ، أو غَيْرُهُ من الأنبياء.

(٣) المُلَاحَاةُ: المُلَاومَةُ والمُبَاغَضَةُ، ثم كثر ذلك حتىٰ جعلت كل ممانعة ومدافعة، ملاحاة. انظر لسان العرب (١٢/٢٥٩).

وكَانَ اللهُ قَدْ أَلْقَىٰ عَلَيْهِ ﷺ المَحَبَّةَ مِنْ مَيْسَرَةَ، فكَانَ كَأَنَّهُ عَبْدٌ لَهُ، فَلَمَّا كَانُوا بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، قَالَ مَيْسَرَةُ: يَا مُحَمَّدُ انْطَلِقْ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَأَخْبِرْهَا بِمَا صَنَعَ اللهُ لَهَا عَلَىٰ وَجْهِكَ، فَإِنَّهَا تَعْرِفُ ذَلِكَ لَكَ، فَتَقَدَّمَ رسُولُ اللهِ ﷺ، حتَّىٰ دَخَلَ مَكَّةَ فِي سَاعَةِ الظَّهِيرَةِ، وخَدِيجَةُ فِي عِلِّيَّةٍ[1] لَهَا فَرَأَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وهُوَ عَلَىٰ بَعِيرٍ، ومَلَكَانِ يُظِلَّانِهِ، فَأَرَتْهُ نِسَاءَهَا فَعَجِبْنَ لِذَلِكَ، ودَخَلَ عَلَيْهَا رسُولُ اللهِ ﷺ، فَخَبَّرَهَا بِمَا رَبِحُوا فِي وَجْهِهِمْ، فَسُرَّتْ بِذَلِكَ، فَلَمَّا دَخَلَ مَيْسَرَةُ عَلَيْهَا أَخْبَرَتْهُ بِمَا رَأَتْ، فَقَالَ: قَدْ رَأَيْتُ هَذَا مُنْذُ خَرَجْنَا مِنَ الشَّامِ، وأَخْبَرَهَا بِمَا قَالَ الرَّاهِبُ «نَسْطُورٌ»، ثُمَّ بَاعَتْ خَدِيجَةُ مَا جَاءَ بِهِ ﷺ مِنْ تِجَارَةٍ فَرَبِحَتْ ضِعْفَ مَا كَانَتْ تَرْبَحُ، وأَضْعَفَتْ لَهُ ضِعْفَ مَا كَانَتْ تُعْطِي رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ[2].

۞ رِوَايَةٌ ضَعِيفَةٌ لِاضْطِرَابِهَا:

روَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وأَبُو دَاوُدَ وابْنُ مَاجَه فِي السُّنَنِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ لِاضْطِرَابِهِ عَنِ السَّائِبِ بنِ أَبِي السَّائِبِ قالَ: جِيءَ بِي إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَجَعَلُوا يُثْنُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا تُعَلِّمُونِي بِهِ، قَدْ كَانَ صَاحِبِي فِي الجَاهِلِيَّةِ»**.

---

(١) العِلِّيَّةُ: الغُرْفَةُ في الطابق الثاني من الدَّارِ فوقه، وجمعها عَلَالِي. انظر النهاية (٢٦٧/٣).

(٢) أخرج قِصة خُروج الرسول ﷺ في مالِ خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ابن سعد في طبقاته (٦١/١ ـ ٦٢) ـ وابن إسحاق في السيرة (٢٢٤/١) بدون إسناد ـ وأوردها الإمام الذهبي في سيرته (٦٢/١) من طريق المحاملي، عن عبد الله بن شبيب، وهو واه، ثم قال بعد أنْ سَاقَ القصة: وهو حديث منكر.

قُلْتُ: نَعَمْ يا رَسُولَ اللهِ، فَنِعْمَ الصَّاحِبُ كُنْتَ.

فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَا سَائِبُ، انْظُرْ أَخْلَاقَكَ التِي كُنْتَ تَصْنَعُهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَاجْعَلْهَا فِي الإِسْلَامِ، أَقْرِ[1] الضَّيْفَ، وأَكْرِمِ اليَتِيمَ، وأَحْسِنْ إِلَىٰ جَارِكَ»**[2].

قَالَ الحَافِظُ فِي تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ: وهَذَا الحَدِيثُ فِيمَنْ كَانَ شَرِيكُهُ ﷺ مُضْطَرِبٌ جِدًّا[3]، فَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ لِلسَّائِبِ بنِ أَبِي السَّائِبِ، ومِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ لِأَبِيهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ لِقَيْسِ بنِ السَّائِبِ، ومِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ لِعَبْدِ اللهِ ـ يَعْنِي عَبْدَ اللهِ بنَ السَّائِبِ ـ، وهَذَا اضْطِرَابٌ شَدِيدٌ.

وذَكَرَ ابنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ أَنَّ السَّائِبَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا[4]، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ أَسْلَمَ، وبَايَعَ رسُولَ اللهِ ﷺ، وحَسُنَ إِسْلَامُهُ، فَاللهُ أَعْلَمُ[5].

** ** **

---

(١) قَرىٰ الضَّيْفَ: أَضَافَهُ. انظر لسان العرب (١١/١٤٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٥٥٠٠) ـ وأبو داود في سننه ـ رقم الحديث (٤٨٣٦) ـ وابن ماجه في سننه ـ رقم الحديث (٢٢٨٧) ـ وأورده ابن الأثير في جامع الأصول ـ رقم الحديث (٣٢١٦).

(٣) ممن أعلَّ هذا الحديث بالاضطراب: ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/١٤١) ـ والسُهيلي في الروض الأنف (٣/١٧٢).

(٤) انظر سيرة ابن هشام (٢/٣٢٥).

(٥) انظر تهذيب التهذيب (١/٦٨٢).

زَوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ خَدِيجَةَ[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

كَانَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تُسَمَّىٰ سَيِّدَةَ نِسَاءِ قُرَيْشٍ، وتُسَمَّىٰ الطَّاهِرَةَ وذَلِكَ لِشِدَّةِ عَفَافِهَا، وكانَتْ نَقِيَّةً ذَاتَ عَقْلٍ وَاسِعٍ، وَحَسَبٍ، ومَالٍ.

لَمَّا سَمِعَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِعَظِيمِ أَمَانَةِ الرسُولِ ﷺ، وحُسْنِ أَخْلاقِهِ،

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/٥١٢): خَدِيجةُ سيِّدةُ نِساءِ العالمين في زَمَانها أم القاسم القرشية الأسدية، وهي ممن كَمُل من النِّساء، وكانت عاقِلَةً جَلِيلةً دَيِّنة مصونةً كَرِيمَةً: من أهل الجنة، وكان النبي ﷺ يُثني عليها، ويُفَضِّلُهَا علىٰ سائر أُمَّهات المؤمنين، ويُبَالِغُ في تَعْظِيمِهَا، وهي أوَّل مَنْ تزوَّجها النبي ﷺ، وهي بنتُ خُويلد بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي، تجتمعُ مع النبي ﷺ في قُصَيٍّ، وهي مِنْ أقرب نِسَائِهِ إليه في النَّسَبِ، ولم يتزوَّج من ذُرِّيَّةِ قُصي غيرها إلا أُمَّ حَبِيبَة، وكانت تُسمىٰ في الجاهلية الطَّاهرة، وقد تزَّوجها رسول الله ﷺ قبلَ البِعْثَةِ بخمسَ عشْرَةَ سَنَة، وكانت مُوسِرَة، وولدت من رسول الله ﷺ أولادَهُ كُلهم، إلا إبراهيم.

وكانت أوَّل من آمنَ بالله ورسوله ﷺ وصَدَّق بما جاء به، فخَفَّفَ الله بذلك عن رسول الله ﷺ، فكان لا يَسْمع شيئًا يَكْرَهُهُ منَ الرَّدِّ عليه، فيرجع إليها إلا ثَبَّتَته وتُهَوِّن عليه أمْرَ الناس، وقد تقدَّم في أبواب بدءِ الوحْيِ بيان تَصْدِيقها للنبي ﷺ في أوَّل وهْلَةٍ، ومن ثباتها في الأمر ما يدل علىٰ قوة يَقِينِها، ووفُورِ عَقْلِها، وصِحَّة عَزْمِها، لا جَرَم كانت أفضل نسائه علىٰ الراجح، روىٰ الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتىٰ جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أَتَتْ معها إناء فيه إدَام، أو طعَام، أو شَرَاب، فإذا هي أَتَتْكَ، فاقرأ عليها السلام من ربِّهَا، ومِنِّي، وبَشِّرْهَا ببيْتٍ في الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لا صَخَبَ فيهِ ولا نَصَبَ.

وصِدْقِ حَدِيثِهِ، أَحَسَّتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا وَجَدَتْ ضَالَّتَهَا المَنْشُودَةَ فِيهِ ﷺ، فَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّهُ رَجُلٌ لا تَسْتَهْوِيهِ حَاجَةٌ، وأَنَّهُ لا يَتَطَلَّعُ إِلَىٰ مَالٍ، ولا إِلَىٰ جَمَالٍ، فَحَدَّثَتْ بِمَا في نَفْسِهَا إلىٰ صَدِيقَتِهَا نَفِيسَةَ بِنْتِ مُنَيَّةَ، فَذَهَبَتْ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ خَدِيجَةَ فَرَضِيَ ﷺ بِذَلِكَ.

وسَأَدَعُ نَفِيسَةَ بِنْتَ مُنَيَّةَ تَرْوِي لَنَا قِصَّةَ زَوَاجِ النبيِّ ﷺ مِنْ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالتْ نَفِيسَةُ: كانَتْ خَدِيجةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ امْرَأَةً حَازِمَةً جَلْدَةً، شَرِيفَةً، مَعَ مَا أَرَادَ اللهُ بِهَا مِنَ الكَرَامَةِ والخَيْرِ، وهِيَ يَوْمَئِذٍ أَوْسَطُ قُرَيْشٍ نَسَبًا، وأَعْظَمَهُمْ شَرَفًا، وأَكْثَرَهُمْ مَالًا، وَكُلُّ قَوْمِهَا حَرِيصٌ عَلَىٰ نِكَاحِهَا لَوْ قَدِرَ عَلَىٰ ذَلِكَ، قَدْ طَلَبُوهَا وبَذَلُوا لَهَا الأَمْوَالَ، فأَرْسَلَتْنِي دَسِيسًا[1] إلىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ أَنْ رَجَعَ في عِيرِهَا مِنَ الشَّامِ، فقُلْتُ: يا مُحَمَّدُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَتَزَوَّجَ؟ فقَالَ: مَا بِيَدِي مَا أَتَزَوَّجُ بهِ، قُلْتُ: فإِنْ كُفِيتَ ذَلِكَ، ودُعِيتَ إِلىٰ الجَمَالِ، والمَالِ والشَّرَفِ، والكَفَاءَةِ أَلَا تُجِيبُ؟ قالَ: فَمَنْ هِيَ؟ قُلْتُ: خَدِيجَةُ، قالَ: وكَيْفَ لِي بِذَلِكَ؟ قالتْ: قُلْتُ عَلَيَّ، قالَ: فأَنَا أَفْعَلُ، قالتْ نَفِيسَةُ: فَذَهَبْتُ فأَخْبَرْتُ خَدِيجَةَ، فأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ أَنِ ائْتِ لِسَاعَةِ كذَا وكذَا، وأَرْسَلَتْ إلىٰ عَمِّهَا عَمْرِو بنِ أَسَدٍ لِيُزَوِّجَهَا، فَحَضَرَ، لِأَنَّ أَبَاهَا مَاتَ قَبْلَ حَرْبِ الفِجَارِ[2].

---

(١) الدَّسِيسُ: مَن يُرسَلُ سِرًا ليأتي بالأخبار. انظر لسان العرب (٤/٣٤٥).

(٢) انظر الطبَقَات الكُبرىٰ لابن سعد (١/٦٢).

۞ خُطْبَةُ أَبِي طَالِبٍ:

ثُمَّ إِنَّ رسُولَ الله ﷺ ذَكَرَ ذَلِكَ لِأَعْمَامِهِ، فَأَقَرُّوا لَهُ ذَلِكَ، ورَضَوْهَا زَوْجَةً لَهُ ﷺ، فخَرَجَ مَعَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، وعَمُّهُ حَمْزَةُ، حتَّىٰ دَخَلُوا عَلَىٰ عَمْرِو بنِ أَسَدٍ[1] عَمِّ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَخَطَبُوا إِلَيْهِ ابْنَةَ أَخِيهِ، وحَضَرَ العَقْدَ رُؤَسَاءُ مُضَرَ، فقامَ أَبُو طَالِبٍ فَخَطَبَ فقَالَ: الحَمْدُ للهِ الذِي جَعَلَنَا مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وزَرْعِ إِسْمَاعِيلَ، وضِئْضِئِ[2] مَعْدٍ، وجَعَلَنَا حَضَنَةَ بَيْتِهِ وسُوَّاسَ[3] حَرَمِهِ، وجَعَلَ لنَا بَيْتًا مَحْجُوجًا، وحَرَمًا آمِنًا، وجَعَلَنَا الحُكَّامَ عَلَىٰ النَّاسِ، ثُمَّ إِنَّ ابنَ أخِي هَذَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ لا يُوزَنُ بِرَجُلٍ إِلَّا رَجَحَ بِهِ شَرَفًا، ونُبْلًا، وفَضْلًا، وعَقْلًا، فَإِنْ كَانَ في المَالِ قُلٌّ، فإِنَّ المَالَ ظِلٌّ زَائِلٌ، وأَمْرٌ

---

(١) هذا هو قول الجمهور، من أن ولي خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في زواجها من رسول الله ﷺ هو: عمُّها عمرو بن أسد.
قال الإمام السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (١/٣٢٥): وهو الصحيح؛ لأن أباها خُوَيْلد كان قد هَلك قبْلَ حَرْبِ الفِجَار.
وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٧٠١): المُجْمَع عليه أن عمَّها عمرو بن أسد هو الذِي زوَّجَها من رسول الله ﷺ.

(٢) الضِّئْضِئُ: الأَصْلُ. انظر النهاية (٣/٦٤).

(٣) السِّيَاسَةُ: هي القِيَام علىٰ الشيء بما يصلحه. انظر النهاية (٢/٣٧٨).
ومنه قول الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٣٤٥٥) ـ ومسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (١٨٤٢) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كانت بَنُو إسرائيل تَسُوسُهُمُ الأنبِيَاءُ»**.
أي تتولىٰ أمورهم كما تفعل الأَمَرَاءُ والوُلاة بالرَّعِيَّة. انظر النهاية (٢/٣٧٨).

حَائِلٌ، ومُحَمَّدٌ مِمَّنْ قَدْ عَرَفْتُم قَرَابَتَهُ، وقَدْ خَطَبَ إِلَيْكُمْ رَاغِبًا كَرِيمَتَكُمْ خَدِيجَةَ، وقَدْ بَذَلَ لَهَا مِنَ الصَّدَاقِ مَا حَكَمَ عَاجِلُهُ، وآجِلُهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ أُوقِيَّةً ذَهَبًا وَنَشًّا[1]، وهُوَ وَاللهِ بَعْدَ هَذَا لَهُ نَبأٌ عَظِيمٌ وخَطَرٌ جَلِيلٌ جَسِيمٌ. فكانَ جَوَابُ وَلِيِّ خَدِيجَةَ: هَذَا البِضْعُ لَا يُقْرَعُ أَنْفُهُ[2].

وبَنَىٰ[3] رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَأَوْلَمَ عَلَيْهَا وَنَحَرَ جَزُورًا أَوْ جَزُورَيْنِ، وأَطْعَمَ النَّاسَ، فَكَانَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَوَّلَ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَها رسُولُ اللهِ ﷺ، ولَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا غَيْرَهَا، حتَّىٰ مَاتَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[4].

قَالَ البُوصِيرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

ورَأَتْــهُ خَدِيجَــةُ وَالتُّقَــىٰ وَالزُّهْــ ـــدُ فِيـــهِ سَـــجِيَّةٌ وَالْحَيَـــاءُ

وَأَتَاهَــا أَنَّ الغَمَامَــةَ وَالسَّــرْحَ[5] أَظَلَّتْـــهُ مِنْهُمَـــا أَفْيَـــاءُ

وَأَحَادِيــثُ أَوْ وَعْــدُ رَسُــولِ اللهِ بِالْبَعْــثِ حَــانَ مِنْــهُ الْوَفَــاءُ

فَدَعَتْــهُ إِلَــىٰ الــزَّوَاجِ وَمَــا أَحْسَـنَ أَنْ يَبْلُـغَ المُنَـىٰ الأَذْكِيَـاءُ

---

(١) النَّشُّ: نِصْفُ الأُوقِيَّة، وهو عِشْرُونَ درهمًا. انظر النهاية (٥/٤٨).

(٢) يُرِيدُ أنه كفءٌ كريمٌ لا يُرَدُّ نكَاحُهُ. انظر النهاية (٤/٣٩).

(٣) البِنَاءُ: الدُّخُولُ بالزَّوْجَةِ. انظر النهاية (١/١٥٦).

(٤) انظر سيرة ابن هشام (١/٢٢٦).

(٥) السَّرْحُ: هيَ الشَّجَرَةُ التي صَارَتْ أغْصَانُهَا تَتَدَلَّىٰ عليه. انظر سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد (٢/١٩١).

۞ رِوَايَةٌ ضَعِيفَةٌ:

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ خَدِيجَةَ، وَكَانَ أَبُوهَا يَرْغَبُ أَنْ يُزَوِّجَهُ[١]، فَصَنَعَتْ طَعَامًا وَشَرَابًا، فَدَعَتْ أَبَاهَا وَنَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، فَطَعِمُوا وَشَرِبُوا حَتَّى ثَمِلُوا[٢]، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ لِأَبِيهَا: إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَخْطُبُنِي، فَزَوِّجْنِي إِيَّاهُ، فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ فَخَلَّقَتْهُ[٣] وَأَلْبَسَتْهُ حُلَّةً، وَكَذَلِكَ كَانُوا يَفْعَلُونَ بِالْآبَاءِ، فَلَمَّا سُرِّيَ[٤] عَنْهُ سُكْرُهُ، نَظَرَ فَإِذَا هُوَ مُخَلَّقٌ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، فَقَالَ: مَا شَأْنِي، مَا هَذَا؟ قَالَتْ: زَوَّجْتَنِي مُحَمَّدَ بنَ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: أَنَا أُزَوِّجُ يَتِيمَ أَبِي طَالِبٍ! لَا، لَعَمْرِي.

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: أَمَا تَسْتَحِي! تُرِيدُ أَنْ تُسَفِّهَ نَفْسَكَ عِنْدَ قُرَيْشٍ؟ تُخْبِرُ النَّاسَ أَنَّكَ كُنْتَ سَكْرَانٌ؟ فَلَمْ تَزَلْ بِهِ حَتَّى رَضِيَ[٥].

قُلْتُ: أَوْرَدَ ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ نَحْوَ هَذَا الْخَبَرِ عَنْ مُحَمَّدِ بنِ عُمَرَ الْوَاقِدِيِّ، ثُمَّ قَالَ الْوَاقِدِيُّ: فَهَذَا كُلُّهُ عِنْدَنَا غَلَطٌ وَوَهْلٌ، وَالثَّبْتُ عِنْدَنَا

---

(١) قال السندي في شرح المسند (٩٧/٣): قوله: يرغب أن يزوِّجه: أي عن أن يزوجه، لا في أن يزوجه كما يفيده النظر فيما بعد.

(٢) ثملوا: أي سكروا. انظر لسان العرب (١٢٨/٢).

(٣) فخلَّقته: بتشديد اللام أي وضعت عليه الخلوق، وهو نوع من الطيب. انظر النهاية (٦٨/٢).

(٤) قال السندي في شرح المسند (٩٧/٣): سُرِّي عنه: بضمِّ السين وتشديد الراء أي أزيل وكُشف عنه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٨٤٩).

الْمَحْفُوظُ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ أَبَاهَا خُوَيْلِدَ بنَ أَسَدٍ مَاتَ قَبْلَ الْفِجَارِ، وَأَنَّ عَمَّهَا عَمْرَو بْنَ أَسَدٍ زَوَّجَهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ(١).

قُلْتُ: وَبِهِ قَالَ الزُّبَيْرُ بنُ بَكَّارٍ وَغَيْرُهُ، ذَكَرَهُ ابنُ الْأَثِيرِ(٢)، وَبِهِ قَالَ أَيْضًا الْمُبَرِّدُ وَطَائِفَةٌ مَعَهُ، ذَكَرَهُ السُّهَيْلِيُّ(٣).

۞ عُمْرُ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا تَزَوَّجَ خَدِيجَةَ:

وكَانَ عُمُرُ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تَزَوَّجَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا خَمْسًا وعِشْرِينَ سَنَةً، وذَلِكَ بَعْدَ رُجُوعِهِ منَ الشَّامِ بِشَهْرَيْنِ، وكَانَ عُمُرُهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا يَوْمَئِذٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً(٤).

وكانَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنهَا قَدْ تَزَوَّجَتْ قَبْلَ رسُولِ اللهِ ﷺ بِرَجُلَيْنِ أَوَّلُهُمَا: عَتِيقُ بنُ عَائِذٍ، فَوَلَدَتْ لَهُ عَبْدَ اللهِ، وجَارِيَةً اسْمَهَا: هِنْدٌ، فَتَزَوَّجَهَا ابْنُ عَمِّهَا صَيْفِيُّ بنُ أُمَيَّةَ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، فَوَلَدَتْ لَهُ مُحَمَّدًا، وثَانِيهِمَا: أَبُو هَالَةَ بنِ مَالِكٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، واسْمُهُ هِنْدٌ، فَوَلَدَتْ لَهُ وَلَدًا اسْمُهُ هَالَةُ، وَوَلَدًا اسْمُهُ هِنْدٌ أَيْضًا، وجَارِيَةً اسْمُهَا زَيْنَبُ.

وقَدِ ابْتَنَىٰ النَّبِيُّ ﷺ بِخَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي البَيْتِ الذِي كَانَتْ

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد (٦٣/١).

(٢) انظر أسد الغابة (٢٦١/٥).

(٣) انظر الروض الأنف (٣٢٤/١).

(٤) قال الإمام الصالحي في سيرته الشامية (١٦٦/٢): وهو الصَّحِيحُ الذي عليه الجمهور.

تَسْكُنُهُ، وفِيهِ وَلَدَتْ جَمِيعَ أَوْلَادِهَا، وفِيهِ تُوُفِّيَتْ، ولَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ سَاكِنًا فِيهِ حَتَّىٰ خَرَجَ إِلَىٰ المَدِينَةِ مُهَاجِرًا فَأَخَذَهُ عَقِيلُ بنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه[1].

۞ حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ:

رَوَىٰ الحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ عنِ الزُّهْرِيِّ قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**الحَمْدُ للهِ الذي أَطْعَمَنِي الخَمِيرَةَ، وأَلْبَسَنِي الحَرِيرَ، وزَوَّجَنِي خَدِيجَةَ، وكُنْتُ لَهَا عَاشِقًا**»[2].

فهَذَا الحَدِيثُ مَوْضُوعٌ، لا يَصِحُّ عَنِ المَعْصُومِ ﷺ.

۞ أَوْلَادُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

وَلَدَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْلَادَهُ جَمِيعًا عَدَا إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ مِنْ مَارِيَةَ[3] القِبْطِيَّةِ.

وكَانَ أَوَّلُ مَنْ وُلِدَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ خَدِيجَةَ قَبْلَ البِعْثَةِ: القَاسِمُ، وبِهِ يُكَنَّىٰ ﷺ، رَوَىٰ ابْنُ مَاجَه في سُنَنِهِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ جِدًّا عَنِ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيٍّ

---

(١) انظر تفاصيل زواج الرسول ﷺ من خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في: سيرة ابن هشام (١/٢٢٤) الروض الأنف (١/٣٢٤) ـ دلائل النبوة للبيهقي (٢/٦٨ ـ وما بعدها) ـ الطبَقَات الكُبرىٰ لابن سعد (١/٦٢).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ رقم الحديث (٤٨٩٣).

(٣) هِيَ مَارِيَةُ بنتُ شَمْعُونَ أَهْدَاهَا المُقَوْقِسُ صاحِبُ الإسْكَنْدَرِيَّةِ إلىٰ رسول الله ﷺ في سنة سبع من الهجرة، وكان رسول الله ﷺ يَطَؤُهَا بِمِلْكِ اليَمِينِ، وضربَ عليها معَ ذلكَ الحِجَابَ، فحَمَلَتْ منهُ، ووَضَعَتْ ابنَهُ ﷺ إبراهيم، وتُوُفِّيَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في خِلَافَةِ عُمَرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، وذلك في المحرم سنة ١٦هـ. انظر الإصابة (٨/٣١٠).

قَالَ: لمَّا تُوُفِّيَ القَاسِمُ ابنُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قالتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يا رسُولَ اللهِ، دَرَّت لُبَيْنَةُ القَاسِمِ، فَلَوْ كانَ اللهُ أَبْقَاهُ حتَّىٰ يَسْتَكْمِلَ رَضَاعَهُ، فقَالَ ﷺ: **«إنَّ إتْمَامَ رَضَاعِهِ في الجَنَّةِ»**.

قالتْ: لَوْ أَعْلَمُ ذلِكَ يا رَسُولَ الله، لَهَوَّنَ عَلَيَّ أَمْرَهُ.

فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: **«إنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهِ فَأُسْمِعَكِ صَوْتَهُ»**.

قالتْ: يا رسُولَ الله، بَلْ أُصَدِّقُ اللهَ ورَسُولَهُ(١).

ثُمَّ زَيْنَبُ(٢)، ثُمَّ رُقَيَّةُ(٣)، ثمَّ أُمُّ كُلْثُومٍ(٤)، ثمَّ فَاطِمَةُ(٥)، ثُمَّ وُلِدَ لهُ فِي

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ـ كتاب الجنائز ـ باب ما جاء في الصَّلاة علىٰ ابنِ رسول الله ﷺ ـ رقم الحديث (١٥١٢).

(٢) هيَ زَيْنَبُ بنتُ الرسول ﷺ، وهي أكبَرُ بناتِهِ ﷺ، وأوَّل مَنْ تزوَّج منهُنَّ، تزوجها ابن خَالَتِهَا أبُو العاص بنُ الرَّبيع العَبْسِيُّ ﷺ، أمُّهُ هالةُ بنتُ خُويلد. أسلمَتْ زَيْنَبُ، وهاجَرَتْ مع أبيها ﷺ، وماتَتْ سنة (٨هـ). انظر الإصابة (١٥١/٨).

(٣) هِيَ رُقَيَّةُ بنتُ رسول الله ﷺ وُلِدَت رُقَيَّةُ وعُمُرُ رسول الله ﷺ ثَلاثٌ وثَلاثُونَ سَنَة، وتزوَّجَهَا عُثْمَانُ بنُ عفَّان ﷺ بمكة، وهاجرَتْ معه إلىٰ أرضِ الحَبَشَةِ، وولَدَتْ لهُ هُنَاكَ ابْنًا فسمَّاهُ: عَبْدَ اللهِ، فكان عُثمان ﷺ يُكنَىٰ به، وماتَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا يومَ وقْعَةِ بَدْرٍ، ودُفِنَتْ يومَ جاءَ زَيْدُ بن حارثَةَ ﷺ بَشِيرًا بما فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ يومَ بَدْرٍ. انظر أسد الغابة (٢٨٥/٥).

(٤) هيَ أُمُّ كُلْثُومٍ بنتُ رسُولِ الله ﷺ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وهيَ أكبَرُ من فَاطِمَةَ، وتزوَّجَها عثمانُ بن عفانَ ﷺ بعدَ وَفَاةِ أُخْتِهَا رُقَيَّة، وهذا في جمادىٰ الآخرة سنة (٣هـ)، ولَمْ تَلِدْ مِنْ عُثْمَانَ وَلَدًا، وتُوُفيت سنة (٩هـ)، وصلَّىٰ عليها رسُولُ الله ﷺ. انظر الاستيعاب (٥٠٦/٤).

(٥) هي فاطِمَةُ بنتُ رسُولِ الله ﷺ سَيِّدَةُ نساءِ العَالَمِينَ في زَمَانِهَا، وهي أصْغَرُ بنَاتِ رسُول الله ﷺ، وُلِدَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا سنة إحدىٰ وأربعين من مَوْلِدِ النبي ﷺ، وتوفيت=

الإِسْلَامِ عَبْدُ اللهِ، وكانَ عَبْدُ اللهِ يُلَقَّبُ بالطَّيِّبِ والطَّاهِرِ؛ لِأَنَّهُ وُلِدَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: ثُمَّ وُلِدَ لَهُ عَبْدُ اللهِ، وَهَلْ وُلِدَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ أَوْ قَبْلَهَا؟ فِيهِ اخْتِلَافٌ، وصَحَّحَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ وُلِدَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ، وهَلْ هُوَ الطَّيِّبُ والطَّاهِرُ؟ أَمْ هُمَا غَيْرُهُ؟ عَلَىٰ قَوْلَيْنِ: والصَّحِيحُ أَنَّهُمَا لَقَبانِ لَهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ(١).

وقَدْ مَاتَ بَنُوهُ ﷺ وهُمْ صِغَارٌ، فَمَاتَ القَاسِمُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ سِنًّا تُمَكِّنُهُ مِنَ المَشْيِ، وقِيلَ سِنًّا تُمَكِّنُهُ مِنْ رُكُوبِ الدَّابَّةِ، ثُمَّ مَاتَ عَبْدُ اللهِ، وهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ.

وَأَمَّا بَنَاتُ الرَّسُولِ ﷺ فَكُلُّهُنَّ أَدْرَكْنَ الإِسْلَامَ، وأَسْلَمْنَ، وعِشْنَ حَتَّىٰ تَزَوَّجْنَ، وَكُلُّهُنَّ مِتْنَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، مَا عَدَا فَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَقَدْ تُوُفِّيَتْ بَعْدَهُ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ(٢).

۞ تَعْيِيرُ المُشْرِكِينَ بِانْقِطَاعِ نَسَبِ الرَّسُولِ ﷺ:

وَكَانَ المُشْرِكُونَ يُعَيِّرُونَ النَّبِيَّ ﷺ بِانْقِطَاعِ أَثَرِهِ، لِوَفَاةِ أَوْلَادِهِ الذُّكُورِ،

= رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بعد وفاة أبيها ﷺ بسِتَّةِ أَشْهُرٍ، وكانت أوَّلَ أَهْلِهِ لُحُوقًا به، وصلَّىٰ عليها عليُّ بن أبي طالب ﷺ، وكان عُمُرُهَا لمَّا تُوُفِّيَتْ تِسْعًا وعِشْرِينَ سَنَة، وقيل: ثَلَاثِينَ سنة، وقِيلَ: خَمْسًا وثَلَاثِينَ سنة. انظر الإصابة (٢٦٢/٨).

(١) زاد المعاد (١٠١/١).

(٢) انظر سبل الهدىٰ والرَّشاد في سيرة خير العباد (١٦/١١) ـ دلائل النبوة للبيهقي (٦٩/٢) ـ الطبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (٦٣/١).

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَاتَ القَاسِمُ، وهُوَ أَوَّلُ مَيْتٍ مِنْ وَلَدِهِ ﷺ بِمَكَّةَ ثُمَّ مَاتَ عَبْدُ اللهِ، فقالَ العَاصُ بنُ وَائِلٍ: لَقَدِ انْقَطَعَ وَلَدُهُ فَهُوَ أَبْتَرُ[١]، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[٢].

قَالَ الدُّكْتُور مُحَمَّد أَبُو شَهْبَة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وقَدْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ ـ وَلَهُ الحِكْمَةُ البَالِغَةُ ـ أَنْ لَا يَعِيشَ لَهُ ﷺ أَحَدٌ مِنَ الذُّكُورِ، حَتَّىٰ لا يَكُونَ ذَلِكَ مَدْعَاةً لِافْتِتَانِ بَعْضِ النَّاسِ بِهِمْ، وَادِّعَائِهِمْ لَهُمُ النُّبُوَّةَ، فَأَعْطَاهُ الذُّكُورَ تَكْمِيلًا لِفِطْرَتِهِ البَشَرِيَّةِ، وقَضَاءً لِحَاجَاتِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَلِئَلَّا يَنْتَقِصَ النَّبِيَّ ﷺ في كَمَالِ رُجُولَتِهِ شَانِئٌ، أَوْ يَتَقَوَّلَ عَلَيْهِ مُتَقَوِّلٌ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ فِي الصِّغَرِ، وأَيْضًا لِيَكُونَ فِي ذَلِكَ عَزَاءٌ وَسَلْوَىٰ لِلذِينَ لا يُرْزَقُونَ البَنِينَ، أَوْ يُرْزَقُونَهُمْ ثُمَّ يَمُوتُونَ، كَمَا أَنَّهُ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الِابْتِلَاءِ، وأَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ، فَالْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ[٣].

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/٥٠٥): حاشا وكلَّا، بلْ قدْ أبقىٰ اللهُ ذِكْرَهُ علىٰ رُؤُوسِ الأشْهادِ، وأوجَبَ شَرْعهُ علىٰ رِقَابِ العِبادِ، مُسْتَمِرًّا علىٰ دَوامِ الآبادِ، إلىٰ يَوْمِ الحَشْرِ والمَعَادِ، صلواتُ الله وسلامُهُ عليهِ دَائِمًا إلىٰ يَوْمِ التَّنَادِ.

وقال حَسَّان بن ثابت رضي الله عنه:

أَغَرُّ عليهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللهِ مشْهُودٌ يلُوحُ ويَشْهَدُ
وضَمَّ الإلَه اسْمَ النَّبِيِّ إلَىٰ اسْمِهِ ... إذَا قالَ في الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أشْهَدُ
وشَقَّ لَهُ مِنِ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وهَذَا مُحَمَّدُ

(٢) سورة الكوثر آية (٣) ـ والخبر في الطَّبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/٦٣).

(٣) انظر السِّيرة النَّبوِيَّة في ضوء الكتاب والسنّة (١/٢٢٤) للدكتور محمد أبو شهبة رَحِمَهُ اللهُ.

بِنَاءُ الكَعْبَةِ وَدَرْءُ فِتْنَةٍ عَظِيمَةٍ

الكَعْبَةُ(١) هِيَ أَوَّلُ بَيْتٍ بُنِيَ لِعِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الأَرْضِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٢).

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قالَ: قُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ: أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأَرْضِ أَوَّلُ؟ قالَ: «**المَسْجِدُ الحَرَامُ**»(٣).

وقَدْ تَعَرَّضَتِ الكَعْبَةُ لِلْعَوَادِي التِي زَعْزَعَتْ بُنْيَانَهَا، وَصَدَّعَتْ جُدْرَانَهَا، وَقَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِخَمْسِ سِنِينَ(٤) جَرَفَ مَكَّةَ سَيْلٌ عَرِمٌ انْحَدَرَ إِلَىٰ البَيْتِ الحَرَامِ، فَأَوْشَكَتِ الكَعْبَةُ مِنْهُ عَلَىٰ الانْهِيَارِ، وكَانَ قَدْ أَصَابَهَا مِنْ قَبْلُ حَرِيقٌ

---

(١) كلُّ شيءٍ عَلا وارْتَفَعَ فهو كَعْبٌ، ومنه سُمِّيَت الكَعْبَة، للبيتِ الحرامِ، وقيلَ: سُمِّيَتْ به لتَكَعُّبِهَا أي تَرْبِيعِهَا. انظر النهاية (٤/١٥٥).

(٢) سورة آل عمران آية (٩٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الأنبياء ـ رقم الحديث (٣٣٦٦) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ رقم الحديث (٥٢٠).

(٤) اختلف في وقتِ بِنَاءِ الكعبةِ، فروىٰ عبد الرزاق في «مصنفه» رقم الحديث (٩١٠٣) عن ابن جريج عن مُجَاهد قال:.. حتى إذا كان قبل مبعث النبي ﷺ بخمسة عشر سنة، بنته قريش.. وبه جزم موسىٰ بن عُقبة في مَغَازِيهِ، والذي جزم به ابن إسحاق أنَّ بُنْيَانَ الكعبةِ كان قَبْلَ المَبْعَثِ بخَمْسِ سِنِينَ.
قال الحافظ في الفتح (٤/٢٣٣): وقول ابن إسحاق أشهر، ويُمكنُ الجَمْعُ بينهما بأنْ يكُونَ الحَرِيقُ تقدَّم وقتُهُ علىٰ الشُّرُوعِ في البِنَاءِ.

بِسَبَبِ امْرَأَةٍ كَانَتْ تُجَمِّرُهَا، وكَانَتِ الكَعْبَةُ رَضْمًا[1] فَوْقَ القَامَةِ، فَاضْطُرَّتْ قُرَيْشٌ إِلَىٰ تَجْدِيدِ بِنَائِهَا حِرْصًا عَلَىٰ مَكَانَتِهَا، وحِفَاظًا عَلَىٰ حُرْمَتِهَا، وقَدِ اتَّفَقَتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ أنْ لَا يُدْخِلُوا في بِنَاءِ الكَعْبَةِ مِنْ كَسْبِهِمْ إلَّا طَيِّبًا، فَلَا يُدْخِلُوا فِيهَا مَهْرَ بَغِيٍّ[2] ولا بَيْعَ رِبًا، وَلَا مَظْلَمَةَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ[3].

فَلَمَّا أَرَادَتْ قُرَيْشٌ هَدْمَهَا تَهَيَّبُوا، وخَافُوا مِنْ أَنْ يُصِيبَهُمْ أذًى، لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ شَاهَدَ مَا الذِي حَدَثَ لِأَبْرَهَةَ الحَبَشِيِّ عِنْدَمَا أَرَادَ أَنْ يَهْدِمَ الكَعْبَةَ، فَقَالَ لَهُمُ الوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ المَخْزُومِيُّ: أَتُرِيدُونَ بِهَدْمِهَا الإِصْلَاحَ، أَمِ الإِسَاءَةَ؟ قَالُوا: بَلِ الإِصْلَاحَ، فقَالَ: إنَّ اللهَ لَا يُهْلِكُ المُصْلِحِينَ، وأَخَذَ المِعْوَلَ، وشَرَعَ يَهْدِمُ، فقالَ الوَلِيدُ: قُومُوا سَاعِدُونِي، فقَالُوا: لَا، نَنْتَظِرُ إلىٰ الغَدِ، فَإِنْ أُصِيبَ الوَلِيدُ لَنْ نَهْدِمَ مِنْهَا شَيْئًا، وَرَدَدْنَاهَا كمَا كَانَتْ، وإنْ لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ فَقَدْ رَضِيَ اللهُ صُنْعَنَا فَهَدَمْنَا.

فَأَصْبَحَ الوَلِيدُ مِنْ لَيْلَتِهِ لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ، فَهَدَمُوا مَعَهُ، وهُمْ يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نُرِيدُ إلَّا خَيْرًا، حَتَّىٰ إذَا انْتَهَىٰ الهَدْمُ بِهِمْ إِلَىٰ الأَسَاسِ، أَسَاسِ إبْرَاهِيمَ عليهِ السَّلامُ أَفْضَوْا إِلَىٰ حِجَارَةٍ خُضْرٍ كَأَسْنِمَةِ الإِبِلِ[4] آخِذٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ.

---

(١) الرَّضْمُ: أن تُنَضَّدَ الحجارَةُ بَعْضُهَا علىٰ بعضٍ مِنْ غيرِ مِلَاطٍ. انظر الرَّوْض الأُنُف (١/٣٣٦).

(٢) البَغِيُّ: هي المُسْتَعْمَلَةُ بالزِّنَا. انظر النهاية (١/١٤٣).

(٣) قال الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه السِّيرة النَّبويَّة (١/٢٢٧): هذا يَدُلُّ علىٰ أنَّ العربَ كان الكَثِيرونَ منهم يَتَحَرَّونَ المَكَاسِبَ الحَلَالَ، وأنَّ الرِّبَا كان طَارِئًا عليهِمْ مِنَ اليَهُودِ.

(٤) الأَسْنِمَةُ: جمع سَنَامٍ وهو أَعْلىٰ الظَّهْرِ، وأرادَ أنَّ الحِجَارَةَ دخلَ بعضُهَا في بعضٍ كما تَدْخُلُ عِظَامُ السَّنَامِ بعضُهَا في بَعْضٍ، فشَبَّهَهَا بِهَا. انظر النهاية (٢/٣٦٧).

فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِمَّنْ كَانَ يَهْدِمُهَا، وأَدْخَلَ عَتَلَةً[1] بَيْنَ حَجَرَيْنِ مِنْهَا لِيَقْلَعَ بِهَا أَحَدَهُمَا، فَلَمَّا تَحَرَّكَ الحَجَرُ تَنَقَّصَتْ[2] مَكَّةُ بِأَسْرِهَا، فَانْتَهَوْا عَنْ ذَلِكَ الأَسَاسِ.

وقَدِ اشْتَرَكَ سَادَةُ مَكَّةَ، ورِجَالَاتُهَا في أَعْمَالِ الهَدْمِ والبِنَاءِ، فَقَسَمُوا الكَعْبَةَ وجَعَلُوا لِكُلِّ قَبِيلَةٍ جُزْءًا مِنْهَا، فكَانَ شِقُّ البَابِ[3] لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وزُهْرَةَ، وكَانَ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ الأَسْوَدِ، وَالرُّكْنِ اليَمَانِيِّ لِبَنِي مَخْزُومٍ، وَقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ انْضَمُّوا إِلَيْهِمْ، وكَانَ ظَهْرُ الكَعْبَةِ لِبَنِي جُمَحٍ، وسَهْمٍ ابْنَيْ عَمْرِو بنِ هَصِيصِ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ، وكَانَ شِقُّ الحِجْرِ لِبَنِي عَبْدِ الدَّارِ بنِ قُصَيٍّ، ولِبَنِي أَسَدِ بنِ العُزَّىٰ بنِ قُصَيٍّ، ولِبَنِي عَدِيِّ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ، وَهُوَ الحَطِيمُ[4].

وقدْ شَارَكَ رسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَعْمَامِهِ في البِنَاءِ، ونَقْلِ الحِجَارَةِ، وكَانَ عُمُرُهُ ﷺ إِذْ ذَاكَ خَمْسًا وثَلَاثِينَ سَنَةً[5].

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه يُحَدِّثُ: أَنَّ

---

(١) العَتَلَةُ: حَدِيدَةٌ كَبِيرَةٌ يُقْلَعُ بها الشَّجَرُ والحَجَرُ. النهاية (٣/١٦٣).

(٢) تَنَقَّصَتْ: اهْتَزَّتْ.

(٣) الشِّقُّ: النَّاحِيةُ والجَانبُ. انظر لسان العرب (٧/١٦٦).

(٤) الحَطِيمُ: علىٰ خِلافٍ فيهِ، لكنْ أشهَرُها أنه حِجْرُ إسماعيل عليهِ السَّلامُ، وسُمِيَ الحَطِيم لازْدِحَامِ الناس فيه حتىٰ يَحْطِمَ بعضُهُم بعضًا، وقِيل: لأنَّ العربَ كانَتْ تَطْرَحُ فيهِ ثِيَابَهَا التي تَطُوفُ فيها، وتتركها حتىٰ تَتَحَطَّمَ وتَفْسُدَ بِطُولِ الزمان. انظر النهاية (١/٣٨٨).

(٥) هذا هُوَ الصَّحِيحُ في عُمُرِ الرسول ﷺ حينَ بُنِيَت الكعبةُ، وقد ثبت ذلك في مصنف عبد الرزاق الصنعاني ـ رقم الحديث (٩١٠٦) ـ وإسناده صحيح.

رسُولَ اللهِ ﷺ كانَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ الحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ وعَلَيْهِ إِزَارُهُ، فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ عَمُّهُ: يا ابنَ أَخِي لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَ عَلَىٰ مَنْكِبَيْكَ دُونَ الحِجَارَةِ، قالَ: فَحَلَّهُ، فجَعَلَهُ عَلَىٰ مَنْكِبَيْهِ، فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فمَا رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ عُرْيانًا ﷺ[1].

وفِي لَفْظٍ: لَمَّا بُنِيَتِ الكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وعَبَّاسٌ يَنْقُلَانِ الحِجَارَةَ، فقَالَ العَبَّاسُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَىٰ رَقَبَتِكَ، فَخَرَّ إِلىٰ الأَرْضِ، وطَمَحَتْ[2] عَيْنَاهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «أَرِنِي إِزَارِي، فَشَدَّهُ عَلَيْهِ»[3].

فَلَمَّا بَلَغَتِ القَبَائِلُ في البُنْيَانِ مَوْضِعَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ[4] تَنَازَعُوا فِيمَنْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الصلاة - باب كراهية التعري في الصلاة - رقم الحديث (٣٦٤) - ومسلم في صحيحه - كتاب الحيض - باب الاعتناء بحفظ العورة - رقم الحديث (٣٤٠) (٧٧).

(٢) طَمَحَ: أي امْتَدَّ وعَلَا. انظر النهاية (١٢٥/٣).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٢٥/٢): وفي الحديث أنه ﷺ كان مَصُونًا عَمَّا يُسْتَقْبَحُ قَبْلَ البعثةِ وبعدها، وفيه النهي عن التَّعَرِّي بحضْرَةِ النَّاسِ.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الحج - باب فضل مكة وبنيانها - رقم الحديث (١٥٨٢) - ومسلم في صحيحه - كتاب الحيض - باب الاعتناء بحفظ العورة - رقم الحديث (٣٤٠).

(٤) الحَجَرُ الأَسْوَدُ: هو أفضَلُ وأطْهَرُ الأحْجَارِ علىٰ وَجْهِ الأرْضِ، وقد وَرَدَ في فَضْلِ تَقْبِيلِهِ أحاديثُ كَثِيرَة منها:
ما رواه ابن حبان في صحيحه بسند صحيح - رقم الحديث (٣٧١١) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لهذَا الحَجَرِ لِسَانًا وشَفَتَيْنِ يَشْهَدُ لِمَنْ اسْتَلَمَهُ يوم القِيَامَةِ بِحَقٍّ**».
وروىٰ ابن حبان في صحيحه بسند قوي - رقم الحديث (٣٦٩٨) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَسْحُ الحَجَرِ والرُّكْنِ اليَمَانِي يَحُطُّ الخَطَايَا حَطًّا**».

يَضَعُهُ، فكُلُّ قَبِيلَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَحْظَىٰ بِهَذَا الشَّرَفِ، حتَّىٰ كَادَتِ الحَرْبُ أَنْ تَشْتَعِلَ بَيْنَهُمْ في أَرْضِ الحَرَمِ، فَهُنَا قَامَتْ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ، وقَرَّبُوا جَفْنَةً مَمْلُوءَةً بِالدَّمِ وتَعَاقَدَتْ هِيَ وبَنُو عَدِيِّ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ عَلَىٰ المَوْتِ، وأَدْخَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي تِلْكَ الجَفْنَةِ فَسُمُّوا (لَعَقَةَ الدَّمِ).

فَمَكَثَتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ ذَلِكَ أَرْبَعَ لَيَالٍ، أَوْ خَمْسًا، حتَّىٰ أَلْهَمَ اللهُ تَعَالَىٰ أَحَدَ عُقَلَائِهِمْ وَهُوَ (أَبُو أُمَيَّةَ بنُ المُغِيرَةِ المَخْزُومِيُّ)، وَالِدُ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وكانَ عَامَئِذٍ أَسَنَّ رَجُلٍ في قُرَيْشٍ، فقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ فِيمَا تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ[1] فَرَضُوا وقَبِلُوا هَذَا الرَّأْيَ جَمِيعًا.

❁ صَاحِبُ العَقْلِ الكَبِيرِ:

فَأَشْخَصُوا أَبْصَارَهُمْ إلىٰ بَابِ المَسْجِدِ، واشْرَأَبَّتِ[2] الأَعْنَاقُ إِلَىٰ مَنْ يَا تُرَىٰ يَكُونُ هَذَا الدَّاخِلُ، فإِذَا بِهِ الصَّادِقُ الأَمِينُ رسُولُ اللهِ ﷺ، كَأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ أَرْسَلَهُ لِيُخَلِّصَ قُرَيْشًا مِنْ هَذَا الشَّرِّ المُسْتَطِيرِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَذَا الأَمِينُ رَضِينَا، هَذَا مُحَمَّدٌ.

فَلَمَّا انْتَهَىٰ إِلَيْهِمْ أَخْبَرُوهُ الخَبَرَ، فَلَمْ يَلْبَثْ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى أَعْطَاهُمُ

---

(١) المعروفُ اليوم ببابِ السَّلام.

(٢) اشْرَأَبَّتْ: أي ارتفعَتْ. انظر النهاية (٢/٤٠٨).

الحَلَّ العَظِيمَ، فقَالَ ﷺ: «هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا»، فَأُتِيَ بِهِ فَأَخَذَ الحَجَرَ الأَسْوَد فَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا»، فَفَعَلُوا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ، وَضَعَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ ثُمَّ بُنِيَ عَلَيْهِ[1].

وهَكَذَا دَرَأَ[2] رسُولُ اللهِ ﷺ الحَرْبَ عَنْ قُرَيْشٍ، بِحِكْمَةٍ لَيْسَتْ فَوْقَهَا حِكْمَةٌ، وكَانَتْ مُقَدِّمَةُ دَرْئِهِ لِلْحُرُوبِ، والشُّرُورِ عَنِ الشُّعُوبِ، وَالأُمَمِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ، بِحِكْمَتِهِ وتَعَالِيمِهِ ورِفْقِهِ، وتَلَطُّفِهِ في الأُمُورِ، والإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَكُونُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، كمَا كَانَ رَحْمَةً لِلْمُتَخَاصِمِينَ، والمُتَحَارِبِينَ فِي قَوْمٍ بُسَطَاءَ أُمِّيِّينَ[3].

۞ ضِيقُ النَّفَقةِ الحَلَالِ:

ومَعَ جُهْدِ قُرَيْشٍ في بِنَاءِ الكَعْبَةِ، فَقَدْ ضَاقَتْ بِهِمْ النَّفَقَةُ الطَّيِّبَةُ عَنْ إِتْمَامِ البَيْتِ عَلَىٰ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيهِ السَّلامُ، فَاضْطُرُّوا إِلَىٰ أَنِ يَقْتَطِعُوا مِنْهُ قِطْعَةً مِنْ جِهَتِهِ الشَّمَالِيَّةِ، وبَنَوْا عَلَىٰ هَذَا الجُزْءِ الذِي احْتَجَزُوهُ جِدَارًا قَصِيرًا لِلْإِعْلامِ أَنَّهُ

---

(١) أخرج تفاصيل تحكيم رسول الله ﷺ في وضع الحجر الأسود: الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٥٥٠٤) ـ والطحاوي في شرح مشكل الآثار ـ رقم الحديث (٥٥٩٦) ـ والطيالسي في مسنده ـ رقم الحديث (١١٥) ـ والحاكم في المستدرك رقم الحديث (١٧٢٦) (١٧٢٧) ـ وعبد الرزاق الصنعاني في مصنفه ـ رقم الحديث (٩١٠٦) ـ وإسناده صحيح.

(٢) دَرَأَ: دَفَعَ. انظر لسان العرب (٤/٣١٤).

(٣) انظر السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدْوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ١١٢.

مِنَ البَيْتِ، وهُوَ مَا يُعْرَفُ بِالحِجْرِ[(١)].

وكانَ ارْتِفَاعُ الكَعْبَةِ تِسْعَةَ أَذْرُعٍ عَلَىٰ عَهْدِ إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ، وكانَ لهَا بَابَانِ: بابٌ شَرْقِيٌّ، وبابٌ غَرْبِيٌّ لِيَدْخُلَ النَّاسُ منْ بَابٍ ويَخْرُجُوا منَ البَابِ الآخَرِ، فلمَّا بَنَتْهَا قُرَيْشٌ زَادُوا في ارْتِفَاعِهَا تِسْعَةَ أَذْرُعٍ أُخْرَىٰ، واقْتَصَرُوا عَلَىٰ بَابٍ وَاحِدٍ، ورَفَعُوا بابَهَا عَنِ الأَرْضِ، فَصَارَ لا يُصْعَدُ إلَيْهَا إلَّا عَلَىٰ سُلَّمٍ لِيُدْخِلُوا مَنْ يَشَاؤُونَ، ويَمْنَعُوا مَنْ يَشَاؤُونَ.

رَوَىٰ الشَّيخانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قالَ لهَا: **«يا عَائِشَةُ! لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لأَمَرْتُ بالبَيْتِ فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فيهِ مَا أُخرِجَ مِنْهُ، وأَلْزَقْتُهُ بالأَرْضِ، وجَعَلْتُ لهُ بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وبَابًا غَرْبِيًّا فَبَلَغْتُ بهِ أَسَاسَ إبْرَاهِيمَ»**[(٢)].

ورَوَىٰ الشَّيْخانِ في صَحِيحَيْهِمَا عنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قالتْ: سَأَلْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْجَدْرِ[(٣)] أَمِنَ البَيْتِ هُوَ؟ قالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: فَلِمَ لَمْ

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم (٧٨/٩): وهوَ مِنَ البَيْتِ، ولذلك لا يَصِحُّ الطَّوَافُ إلا مِنْ ورائِهِ، وسُمِّيَ بذلك لأَنَّهُ حُجِرَ، أي اقْتُطِعَ مِنَ الكَعْبَةِ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الحج ـ باب فضل مكة وبنيانها ـ رقم الحديث (١٥٨٦) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الحج ـ باب نقض الكعبة وبنائها ـ رقم الحديث (١٣٣٣).

(٣) الجَدْرُ: بفتح الجيم وسكون الدال، هُوَ الحِجْرُ لِمَا فيهِ من أُصُولِ حائِطِ البَيْتِ، وهو اسمُ الحائِطِ المُسْتَدِيرِ إلىٰ جانبِ الكَعْبَةِ الغَرْبيّ. انظر النهاية (٢٣٩/١) ـ فتح الباري (٢٣٥/٤).

يُدْخِلُوهُ في البَيْتِ؟ قالَ: «إنَّ قَوْمَكِ قَصُرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ»، قلتُ: فَمَا شَأْنُ بَابِهِ مُرْتَفِعًا؟ قالَ: «فَعَلَ ذلِكَ قَوْمُكِ لِيُدْخِلُوا مَنْ شَاؤُوا، ويَمْنَعُوا مَنْ شَاؤُوا، ولَوْلَا أنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِالجَاهِلِيَّةِ فأَخَافُ أنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ أنْ أُدْخِلَ الجَدْرَ في البَيْتِ، وأنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالأَرْضِ»[1].

❁ **فَوَائِدُ الحَدِيثِ:**

قالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: وفي حَدِيثِ بِنَاءِ الكَعْبَةِ مِنَ الفَوَائِدِ:

١ ـ اجْتِنَابُ وَلِيِّ الأَمْرِ ما يَتَسَرَّعُ النَّاسُ إلىٰ إنْكَارِهِ، وما يَخْشَىٰ مِنْهُ تَوَلُّدَ الضَّرَرِ عَلَيْهِمْ في دِينٍ أوْ دُنْيَا.

٢ ـ وفِيهِ تَأَلُّفُ قُلُوبِهِمْ بمَا لا يُتْرَكُ فِيهِ أَمْرٌ وَاجِبٌ.

٣ ـ وفِيهِ تَقْدِيمُ الأَهَمِّ فَالأَهَمِّ مِنْ دَفْعِ المَفْسَدَةِ، وجَلْبِ المَصْلَحَةِ، وأَنَّهُمَا إذَا تعَارَضَا بُدِئَ بِدَفْعِ المَفْسَدَةِ.

٤ ـ وفِيهِ أنَّ المَفْسَدَةَ إذَا أَمِنَ وُقُوعُهَا عَادَ اسْتِحْبَابُ عَمَلِ المَصْلَحَةِ.

٥ ـ وفيهِ حَدِيثُ الرَّجُلِ مَعَ أَهْلِهِ في الأُمُورِ العَامَّةِ.

٦ ـ وفيهِ حِرْصُ الصَّحَابَةِ عَلَىٰ امْتِثَالِ أَوَامِرِ النَّبِيِّ ﷺ[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الحج ـ باب فضل مكة وبنيانها ـ رقم الحديث (١٥٨٤) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الحج ـ باب جدر الكعبة وبابها ـ رقم الحديث (١٣٣٣) (٤٠٥).

(٢) انظر فتح الباري (٤/٢٤٢).

حِفْظُ اللهِ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ مِنْ أَدْرَانِ[1] الجَاهِلِيَّةِ

ظَلَّتْ حَيَاةُ الرَّسُولِ ﷺ إلىٰ البِعْثَةِ حَيَاةً فَاضِلَةً شَرِيفَةً، لَمْ تُعْرَفْ لَهُ فِيهَا هَفْوَةٌ، ولَمْ تُحْصَ عَلَيْهِ فِيهَا زَلَّةٌ، لَقَدْ شَبَّ رسُولُ اللهِ ﷺ يَحُوطُهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِعِنَايَتِهِ، ويَحْفَظُهُ مِنْ أَقْذَارِ الجَاهِلِيَّةِ، لِمَا يُرِيدُهُ لَهُ مِنْ كَرَامَتِهِ ورِسَالَتِهِ، حتَّىٰ صَارَ أَفْضَلَ قَوْمِهِ مُرُوءَةً، وأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا، وأَكْرَمَهُمْ حَسَبًا، وأَحْسَنَهُمْ جِوَارًا، وأَعْظَمَهُمْ حِلْمًا، وأَصْدَقَهُمْ حَدِيثًا، وأَعْظَمَهُمْ أَمَانَةً، وأَبْعَدَهُمْ مِنَ الفُحْشِ والأَخْلَاقِ التِي تُدَنِّسُ الرِّجَالَ، حتَّىٰ صَارَ مَعْرُوفًا «بالأَمِينِ» ﷺ[2].

قالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: ثُمَّ قالَ اللهُ تَعَالَىٰ يُعَدِّدُ نِعَمَهُ علَىٰ عَبْدِهِ ورَسُولِهِ مُحَمَّدٍ، صَلَوَاتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾.. وذَلِكَ أَنَّ أَبَاهُ تُوُفِّيَ، وهُوَ حَمْلٌ في بَطْنِ أُمِّهِ عَلَيهِ السَّلامُ، ثُمَّ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ، ولَهُ مِن العُمُرِ سِتُّ سِنِينَ، ثُمَّ كانَ في كَفَالَةِ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، إلىٰ أَنْ

(١) الدَّرَنُ: الوَسَخُ. انظر النهاية (٢/١٠٨).
ومنه حديثُ الرَّسُولِ ﷺ الذي أخرجه البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٥٢٨) ـ ومسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٦٦٧) ـ ولفظه: «أَرَأَيْتُمْ لوْ أَنَّ نَهرًا ببابِ أَحَدِكم يغْتَسِلُ منهُ كُلَّ يومٍ خَمْسَ مرَّاتٍ، هلْ يَبْقَىٰ مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟».
قالوا: لا يَبْقَىٰ مِنْ دَرَنِهِ شيءٌ.
قال رسول الله ﷺ: «فذلكَ مَثَلُ الصَّلَواتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بهِنَّ الخَطَايَا».
(٢) انظر السِّيرة النَّبويَّة للدكتور محمد أبو شهبة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ (١/٢٣٥).

تُوُفِّيَ، ولَهُ مِنَ العُمُرِ ثَمانِ سِنِينَ، فكَفِلَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، ثمَّ لَمْ يَزَلْ يَحُوطُهُ ويَنْصُرُهُ ويَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ ويُوَقِّرُهُ، ويَكُفُّ عَنْهُ أَذَىٰ قَوْمِهِ بَعْدَ أَنْ ابْتَعَثَهُ اللهُ تَعالَىٰ عَلَىٰ رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ، هذَا وأبُو طَالِبٍ عَلَىٰ دِينِ قَوْمِهِ مِنْ عِبادَةِ الأَوْثَانِ، وكُلُّ ذَلِكَ بِقَدَرِ اللهِ تَعَالَىٰ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ، إلىٰ أنْ تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ قَبْلَ الهِجْرَةِ بِقَلِيلٍ، فأَقْدَمَ عَلَيْهِ سُفَهاءُ قُرَيْشٍ وَجُهَّالُهُمْ، فاخْتَارَ اللهُ تَعالَىٰ لَهُ الهِجْرَةَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ إلَىٰ بَلَدِ الأَنْصارِ مِنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ، كَمَا أَجْرَىٰ اللهُ تَعالَىٰ سُنَّتَهُ عَلَىٰ الوَجْهِ الأَتَمِّ والأَكْمَلِ، فَلَمَّا وَصَلَ إلَيْهِمْ آوَوْهُ، وَنَصَرُوهُ، وحَاطُوهُ، وقَاتَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجْمَعِينَ، وكُلُّ هَذَا مِنْ حِفْظِ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُ وَكَلَاءَتِهِ وعِنَايَتِهِ بِهِ ﷺ[1].

۞ بُغِّضَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ الأَصْنَامُ:

ونَشَأَ ﷺ سَلِيمَ العَقِيدَةِ، صَادِقَ الإيمَانِ، عَمِيقَ التَّفَكُّرِ، غَيْرَ خَاضِعٍ لِتُرَّهَاتِ الجَاهِلِيَّةِ، فَمَا عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ سَجَدَ لِصَنَمٍ قَطُّ، أَوْ تَمَسَّحَ بِهِ، أَوْ ذَهَبَ إلىٰ عَرَّافٍ أَوْ كَاهِنٍ، بَلْ بُغِّضَ إلَيْهِ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ، والتَّمَسُّحُ بِهَا، رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: حَدَّثَنِي جَارٌ لِخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ لِخَدِيجَةَ: **«أَيْ خَدِيجَةُ، وَاللهِ لَا أَعْبُدُ اللَّاتَ، وَاللهِ لَا أَعْبُدُ العُزَّى أَبَدًا»**. قَالَ: فَتَقُولُ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: خَلِّ اللَّاتَ، خَلِّ العُزَّى[2].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٨/٤٢٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٧٩٤٧).

ولَمَّا لَقِيَ بَحِيرَا الرَّاهِبَ، قالَ لَهُ بَحِيرَا: أَسْأَلُكَ بِاللَّاتِ والعُزَّىٰ إلَّا أَخْبَرْتَني عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ، وكَانَ بَحِيرَا سَمِعَ قَوْمَهُ يَحْلِفُونَ بِهِمَا، فقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَا تَسْأَلْنِي بِحَقِّ اللَّاتِ والعُزَّىٰ شَيْئًا، فَوَاللهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئًا قَطُّ بُغْضِي لَهُمَا»**[(١)].

وَرَوَىٰ النَّسَائِيُّ في السُّنَنِ الكُبْرَىٰ بِسَنَدٍ قَوِيٍّ عنْ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ ﷺ قالَ: ... كانَ صَنَمَانِ مِنَ نُحَاسٍ يُقَالُ لَهُمَا: إِسَافٌ، وَنَائِلَةُ يَتَمَسَّحُ بِهِمَا المُشْرِكُونَ إِذَا طَافُوا[(٢)]، فَطَافَ رسُولُ اللهِ ﷺ، وطُفْتُ مَعَهُ، فلَمَّا مَرَرْتُ، مَسَحْتُ بِهِ، فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا تَمَسَّهُ»**، قالَ زَيْدُ: فَطُفْنَا، فَقُلْتُ في نَفْسِي: لَأَمَسَّنَّهُ حتَّىٰ أَنْظُرَ ما يَكُونُ، فَمَسَحْتُهُ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا تَمَسَّهُ، أَلَمْ تُنْهَ؟»**.

قالَ زَيْدٌ: فَوَالَّذِي أكْرَمَهُ، وأَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ ما اسْتَلَمَ صَنَمًا قَطُّ حتَّىٰ أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بالذِي أَكْرَمَهُ، وأَنْزَلَ عَلَيْهِ[(٣)].

۞ بُغِّضَ إلىٰ رسُولِ اللهِ ﷺ الشِّعْرُ:

وكَذَلِكَ بُغِّضَ إِلَيْهِ ﷺ قَوْلُ الشِّعْرِ[(٤)] فَلَمْ يُعْرَفْ عَنْهُ أَنَّهُ قالَ شِعْرًا، أَوْ

---

(١) تقدَّم تخريج حديث بَحِيرا الرَّاهِب، وأنه صحيح.

(٢) يعني حَوْلَ الكَعْبَةِ.

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ ـ كتاب المناقب ـ باب زيد بن عمرو بن نفيل ـ رقم الحديث (٨١٣٢) ـ والذهبي في السيرة النبوية (١/٧٣) وقال: هذا حديث حسن ـ وأورده الحافظ في الفتح (٤/٣٠٨) ـ وقوىٰ إسناده.

(٤) روىٰ الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٥٠٢٠) ـ والطيالسي في مسنده ـ رقم=

أَنْشَأَ قَصِيدَةً، أَوْ حَاوَلَ ذَلِكَ، لِأَنَّ ذَلِكَ لا يَتَلاءَمُ ومَقَامُ النُّبُوَّةِ، ولَمْ يَكُنِ الشُّعَرَاءُ بِذَوِي الأَخْلَاقِ، والسِّيرَةِ المَرْضِيَّةِ، فَلا عَجَبَ أَنْ نَزَّهَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ عَنِ الشِّعْرِ، والرِّسَالَةُ تَقْتَضِي انْطِلَاقًا في الأُسْلُوبِ والتَّعْبِيرِ، والشِّعْرُ تَقَيُّدٌ والْتِزَامٌ، وصَدَقَ اللهُ تَعَالَىٰ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[1].

ومَعَ هَذَا فَقَدْ كَانَ ﷺ يتَذَوَّقُ ما فِي الشِّعْرِ مِنْ جَمَالٍ، وَحِكْمَةٍ، ورَوْعَةٍ، ويَسْتَنْشِدُهُ أَصْحَابَهُ أَحْيَانًا[2]، ولا عَجَبَ فَهُوَ القَائِلُ ﷺ: **«إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا، وإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حَكْمَةً»**[3].

= الحديث (١٥٩٣) بسند صحيح علىٰ شرط الشيخين عن أبي نوفلِ بنِ أبي عَقْرب قال: سألتُ عائشةَ: هل كانَ رسُولُ الله ﷺ يَتَسَامَعُ عِنْدَهُ الشِّعْرُ؟

قالتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كانَ أَبْغَضَ الحَدِيثِ إليهِ.

(١) سورة يس آية (٦٩).

(٢) روىٰ الإمام مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٢٢٥٥) عن الشَّرِيدِ بن سُوَيدٍ الثَّقَفي رضي الله عنه قال: رَدِفْتُ رسُولَ الله ﷺ يومًا، فقال ﷺ: **«هلْ معكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بن أبي الصَّلْتِ شَيئًا؟»**، قلتُ: نَعَمْ قال: **«هِيه»** فأنشَدْتُهُ بَيتًا، فقالَ: **«هِيه»** ثم أنشَدْتُهُ بيتًا، فقالَ: **«هِيه»** حتَّىٰ أنشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ.

قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٥/١٠): ومقصودُ الحديثِ أنَّ النبيَّ ﷺ استَحْسَنَ شِعْرَ أُمَيَّة، واستزادَ مِنْ إنشادِهِ؛ لِمَا فيهِ من الإقْرَارِ بالوَحْدَانِيَّةِ والبَعْثِ، ففيهِ جوازُ إنشادِ الشِّعْر الذي لا فُحْشَ فيه وسَمَاعُهُ، سَواءٌ شِعْرُ الجاهليّة وغيرهم، وأنَّ المَذْمُومَ منَ الشِّعر الذي لا فُحْشَ فيه إنما هو الإكثار مِنْهُ، وكَوْنه غَالبًا علىٰ الإنْسَانِ، فأمَّا يَسِيرُهُ فلا بأسَ بإنْشَادِهِ، وسَمَاعِهِ، وحِفْظِهِ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب النكاح باب الخطبة ـ رقم الحديث (٥١٤٦) ـ وأخرجه في كتاب الأدب ـ باب (٩٠) ـ رقم الحديث (٦١٤٥).

وهُوَ القَائِلُ لِحَسَّانِ بنِ ثَابِتٍ ﵁[1]: «**أُهْجُ المُشْرِكِينَ، فإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ**»[2].

۞ لَمْ يَشْرَبْ رسُولُ اللهِ ﷺ خَمْرًا، وَلَا قُرْبَ مِنْ فَاحِشَةٍ:

ولَمْ يَشْرَبْ خَمْرًا قطُّ ﷺ، ولا اقْتَرَفَ فَاحِشَةً، ولا انْغَمَسَ فِيمَا كَانَ يَنْغَمِسُ فيهِ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ حِينَئِذٍ مِنَ اللَّهْوِ، واللَّعِبِ، والمَيْسِرِ، ومُصَاحَبَةِ الأَشْرَارِ ومُعَاشَرَةِ القِيَانِ[3]، ... عَلَىٰ ما كانَ عَلَيْهِ مِنْ فُتُوَّةٍ وشَبَابٍ، وشَرَفٍ ونَسَبٍ، وعِزَّةِ قَبِيلَةٍ، وكَمَالٍ، وجَمَالٍ، وغَيْرِهَا مِنْ وَسَائِلِ الإِغْرَاءِ.

ولقَدْ كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ ذلكَ، وهُوَ كَبِيرٌ، ويَعُدُّهُ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيهِ، وعِصْمَتِهِ لَهُ، فقدْ رَوَىٰ ابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ والحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عنْ عَلِيِّ بنِ أبي طالِبٍ ﵁ أَنَّهُ قالَ: سَمِعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**ما هَمَمْتُ بِقَبِيحٍ مِمَّا يَهُمُّ بهِ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ، كِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللهُ مِنْهُمَا، قُلْتُ لَيْلَةً لِفَتًى كانَ مَعِيَ مِنْ قُرَيْشٍ بِأَعْلَىٰ مَكَّةَ في غَنَمٍ لِأَهْلِنَا**

---

(١) هو حسَّانُ بنُ ثابتِ بنِ المُنْذِرِ الأنصاريُّ الخَزْرَجيُّ ﵁، شاعرُ النَّبيِّ ﷺ وسيِّدُ الشُّعَراءِ المُؤْمِنِينَ، والمؤيَّدُ بِرُوحِ القُدُسِ، كان يَضَعُ لهُ النَّبيُّ ﷺ مِنبرًا في المَسْجِدِ يقُومُ عليهِ يُنَافِحُ عنهُ، عاشَ ﵁ سِتِّينَ سنةً في الجاهليَّةِ، وسِتِّينَ سنةً في الإسلامِ، وماتَ ﵁ في خِلافَةِ مُعَاوِيَةَ سنةَ أربعٍ وخَمْسِين منَ الهجرة. انظر الإصابة (٢/٥٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المغازي ـ باب مرجعِ النبي ﷺ مِنَ الأحزاب ـ رقم الحديث (٤١٢٤) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل حسان بن ثابت ﵁ ـ رقم الحديث (٢٤٨٦).

(٣) القِيَانُ: الإِمَاءُ المُغَنِّيَاتُ. انظر النهاية (٤/١١٨).

نَزْعَاهَا: أبْصِرْ لِي غَنَمِي حتَّىٰ أسْمُرَ[1] هذِهِ اللَّيْلَةَ كمَا يَسْمُرُ الفِتْيَانُ، قالَ: نَعَمْ، فَخَرَجْتُ، فلَمَّا جِئْتُ أدْنَىٰ دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ، سَمِعْتُ غِنَاءً وصَوْتَ دُفُوفٍ ومَزَامِيرَ، قُلْتُ: ما هَذَا؟

قالُوا: فُلَانٌ تَزَوَّجَ فُلَانَةً، لِرَجُلٍ منْ قُرَيْشٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَهَوْتُ بذَلِكَ الغِنَاءِ وبذَلِكَ الصَّوْتِ حتَّىٰ غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَنِمْتُ، فمَا أيْقَظَنِي إلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إلىٰ صَاحِبِي، فقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟

فأخْبَرْتُهُ، ثُمَّ فَعَلْتُ لَيْلَةً أُخْرَىٰ مِثْلَ ذَلِكَ، فَخَرَجْتُ، فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذلكَ، فَقِيلَ لِي مِثْلَ ما قِيلَ لِي، فسَمِعْتُ كمَا سَمِعْتُ، حتَّىٰ غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فمَا أيْقَظَنِي إلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إلىٰ صَاحِبِي، فَقَالَ لِي: مَا فَعَلْتَ؟

فقُلْتُ: مَا فَعَلْتُ شَيْئًا».

قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «فَوَاللهِ ما هَمَمْتُ بَعْدَهُمَا بِسُوءٍ مِمَّا يَعْمَلُهُ أهْلُ الجَاهِلِيَّةِ حتىٰ أكْرَمَنِي اللهُ بِنُبُوَّتِهِ»[2].

❁ كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَقِفُ بِعَرَفَةَ مع النَّاسِ:

وكانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَقِفُ مَعَ النَّاسِ بَعَرَفَاتٍ قَبْلَ أنْ يُوحَىٰ إلَيْهِ، وذَلِكَ

---

(١) السَّمَرُ: همُ القومُ الذينَ يَسْمُرُونَ بالليلِ أي يَتَحَدَّثُونَ. انظر النهاية (٢/٣٥٩).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب بدء الخلق ـ رقم الحديث (٦٢٧٢) ـ والحاكم في المستدرك ـ كتاب التوبة والإنابة ـ باب عصمة النبي ﷺ من عمل الجاهلية قبل النبوة ـ رقم الحديث (٧٦٩٣).

مِنْ تَوْفِيقِ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُ ﷺ، ولا يَصْنَعُ ما تَصْنَعُ قُرَيْشٌ مِن عَدَمِ وُقُوفِهَا مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ، ووُقُوفُهَا بِالمُزْدَلِفَةِ، فَقَدْ رَوىٰ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قالَ: أَضْلَلْتُ بَعِيرًا لِي، فَدَخَلْتُ أَطْلُبُهُ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَاقِفًا مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَةَ...[1].

۞ كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ مَعْرُوفًا بالأَمَانَةِ:

وكانَ ﷺ مَحَلَّ ثِقَةِ النَّاسِ وأَمَانَاتِهِمْ، لا يَأْتَمِنُهُ أَحَدٌ عَلَىٰ وَدِيعَةٍ مِنَ الوَدَائِعِ إلَّا أَدَّاهَا لَهُ، ولا يَأْتَمِنُهُ أَحَدٌ عَلَىٰ سِرٍّ أَوْ كَلامٍ إلَّا وَجَدَهُ عِنْدَ حُسْنِ الظَّنِّ بهِ، فلا عَجَبَ أنْ كَانَ مَعْرُوفًا في قُرَيْشٍ قَبْلَ النُّبُوَّةِ بالأَمِينِ.

۞ كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ مَعْرُوفًا بِالصِّدْقِ:

وكانَ الصِّدْقُ مِنْ صِفَاتِهِ ﷺ البَارِزَةِ، شَهِدَ لهُ بِذَلِكَ العَدُوُّ والصَّدِيقُ، ولمَّا بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَىٰ إلىٰ النَّاسِ جَمِيعًا، وأَمَرَهُ أَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الأَقْرَبِينَ، صارَ يُنَادِي بُطُونَ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا حضَرُوا قالَ لَهُمْ: **«أَرَأَيْتُكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ، أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟»** قالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَطُّ[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الحج ـ باب الوقوف بعرفة ـ رقم الحديث (١٦٦٤) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الحج ـ باب في الوقوف .... ـ رقم الحديث (١٢٢٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ـ رقم الحديث (٤٧٧٠) ـ وأخرجه في كتاب التفسير ـ باب سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ـ رقم الحديث (٤٩٧١) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ـ رقم الحديث (٢٠٨).

ولمَّا قَالَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ لِأَبِي سُفْيَانَ بنَ حَرْبٍ ـ وكانَ لَمْ يَزَلْ مُشْرِكًا ـ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قالَ: لَا، فقَالَ هِرَقْلُ: فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ، ويَكْذِبَ عَلَىٰ اللهِ[1].

قالَ أحْمَد شَوْقي رَحِمَهُ اللهُ:

بِسِوَى الأَمَانَةِ فِي الصِّبَا والصِّدْقِ لَمْ ... يَعْرِفْـهُ أَهْـلُ الصِّـدْقِ والأُمَنَـاءُ
يا مَنْ لَهُ الأَخْلَاقُ مَا تَهْوَىٰ العُلَا ... مِنْهَـا ومَـا يَتَعَشَّـقُ الكُبَـرَاءُ
لَـوْ لَـمْ تَقُـمْ دِينًـا لَقَامَـتْ وَحْـدَهَا ... دِينًـا تُضِـيءُ بِنُـورِهِ الآنَـاءُ
زَانَتْكَ فِي الخُلُقِ العَظِيمِ شَمَائِلٌ ... يُغْـرَىٰ بِهِـنَّ ويُولَـعُ الكُرَمَـاءُ

۞ **كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ وَصُولًا للرَّحِمِ:**

وكانَ رسُولُ الله ﷺ إلىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَصُولًا لِلرَّحِمِ، عَطُوفًا عَلَىٰ الفُقَرَاءِ، وذَوِي الحَاجَةِ، ويُقْرِي الضَّيْفَ، ويُعِينُ الضَّعِيفَ، ويَمْسَحُ بِيَدَيْهِ بُؤْسَ البَائِسِينَ، ويُفَرِّجُ كَرْبَ المَكْرُوبِينَ، وقَدْ وَصَفَتْهُ بهَذَا أُمُّ المُؤْمِنِينَ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في بَدْءِ الوَحْيِ، فقالتْ: كَلَّا وَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ[2]، وتُكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب بدء الوحي ـ باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ الرسول ﷺ ـ رقم الحديث (٧) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل.. ـ رقم الحديث (١٧٧٣).

(٢) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٧٤/٢): الكَلُّ: بفتح الكاف، وأصلُهُ الثِّقَلُ، ويدخل في حَمْلِ الكَلِّ الإنفاقُ علىٰ الضَّعِيفِ، واليتيمِ والعِيَالِ، وغير ذلك.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب بدء الوحي ـ باب رقم (٣) ـ رقم الحديث (٣) ـ=

ومِنْ هَذَا العَرْضِ المُوجزِ نَرَىٰ أنَّ حياةَ النَّبيِّ ﷺ قبْلَ البِعْثَةِ كانَتْ أمْثَلَ حيَاةٍ وأكْرَمَهَا، وأحْفَلَهَا بِمَعَانِي الإنْسَانِيَّةِ، والشَّرَفِ، والكَرَامَةِ، وعَظَمَةِ النَّفْسِ، ثُمَّ نَبَّأَهُ اللهُ تَعالَىٰ وبَعَثَهُ، فَنَمَتْ هَذِهِ الفَضَائِلُ وتَرَعْرَعَتْ، وما زَالَتْ تَسْمُو فُرُوعُهَا، وتَرْسُخُ أُصُولُهَا، وتَتَّسِعُ أفْيَاؤُهَا حتَّىٰ أضْحَتْ فَرِيدَةً في تَارِيخِ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

إنَّ هذِهِ الحَيَاةَ الفَاضِلَةَ المُثْلَىٰ لَمِنْ أكْبَرِ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ ثُبُوتِ نُبُوَّتِهِ ﷺ، فَمَا سَمِعْنَا في تَارِيخِ الدُّنْيَا قَدِيمِهَا، وحَدِيثِهَا أنَّ حَيَاةً كُلَّهَا فَضْلٌ وكَمَالٌ، وهُدًىٰ ونُورٌ، وحَقٌّ وخَيْرٌ، كحَيَاةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، ولَمْ يُعْهَدْ في تَارِيخِ البَشَرِ أنَّ شَخْصًا يَسْمُو عَلَىٰ كُلِّ مُجْتَمَعِهِ وهُوَ يَعِيشُ فيهِ، ويَنْشَأُ مُبَرَّءًا مِنْ كُلِّ نَقَائِصِهِ ومَثَالِبِهِ، وهُوَ نَابِعٌ مِنْهُ، ولا أنَّ نُورًا يَنْبَعِثُ مِنْ وَسَطِ ظُلُمَاتٍ، ولا طَهَارَةً تَنْبُعُ مِنْ وَسَطِ أدْنَاسٍ، وأرْجَاسٍ، ولا أنَّ عِلْمًا يكُونُ مِنْ بَيْنِ جَهَالَاتٍ وخُرَافَاتٍ، اللَّهُمَّ إلَّا إذَا كانَ ذَلِكَ لحِكْمَةٍ، وأَمْرًا جَرَىٰ عَلَىٰ غَيْرِ المَعْهُودِ والمَأْلُوفِ، ومَا ذَلِكَ إلَّا لِإِعْدَادِ النَّبِيِّ ﷺ لِلنُّبُوَّةِ[1].

قالَ البُوصِيرِيُّ:

كَفَاكَ بِالعِلْمِ في الأُمِّيِّ مُعْجِزَةً ... في الجَاهِلِيَّةِ والتَّأْدِيبِ في الْيُتُمِ

= ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ ـ رقم الحديث (١٦٠).

(١) انظر السِّيرة النَّبويَّة للدكتور محمد أبو شهبة (١/٢٣٩).

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ في السِّيرَةِ: فَشَبَّ رسُولُ اللهِ ﷺ، واللهُ تَعالَىٰ يَكْلَؤُهُ ويَحْفَظُهُ، ويَحُوطُهُ مِنْ أقْذَارِ الجَاهِلِيَّةِ، لِمَا يُرِيدُ بهِ مِنْ كَرَامَتِهِ ورِسَالَتِهِ، حتَّىٰ بَلَغَ أنْ كانَ رَجُلًا، وأفْضَلَ قَوْمِهِ مُرُوءَةً، وأحْسَنَهُمْ خُلُقًا، وأكْرَمَهُمْ حَسَبًا، وأحْسَنَهُمْ جِوَارًا، وأعْظَمَهُمْ حِلْمًا، وأصْدَقَهُمْ حَدِيثًا، وأعْظَمَهُمْ أمَانَةً، وأبْعَدَهُمْ مِنَ الفُحْشِ والأَخْلَاقِ التِي تُدَنِّسُ الرِّجَالَ، تَنَزُّهًا وتَكَرُّمًا، حتَّىٰ مَا اسْمُهُ في قَوْمِهِ إلَّا «الأمِينُ»، لِمَا جَمَعَ اللهُ فِيهِ مِنَ الأُمُورِ الصَّالِحَةِ(١).

وقالَ القَاضِي عِياضٌ: وكانَ ﷺ مَجْبُولًا عَلَيْهَا - أيْ الأَخْلَاقِ الحَمِيدَةِ - في أصْلِ خِلْقَتِهِ وَأَوَّلِ فِطْرَتِهِ، لمْ تَحْصُلْ لهُ بِاكْتِسَابٍ ولا رِيَاضَةٍ إلَّا بِجُودٍ إلَهِيٍّ وخُصُوصِيَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ(٢).

وقالَ الإمَامُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: والذِي لا رَيْبَ فيهِ: أنَّ المُصْطَفَىٰ ﷺ كان مَعْصُومًا قَبْلَ الوَحْيِ، وبَعْدَهُ، وقَبْلَ التَّشْرِيعِ مِنَ الزِّنَىٰ قَطْعًا، ومِنَ الخِيَانَةِ والكَذِبِ، والسُّكْرِ، والسُّجُودِ لِوَثَنٍ، والاسْتِقْسَامِ بالأَزْلَامِ، ومِنَ الرَّذَائِلِ، والسَّفَهِ وبَذَاءِ اللِّسَانِ، وكَشْفِ العَوْرَةِ، فَلَمْ يَكُنْ يطُوفُ عُرْيَانًا، ولا كانَ يَقِفُ يَوْمَ عَرَفَةَ مَعَ قَوْمِهِ بِمُزْدَلِفَةٍ، بلْ كَانَ يَقِفُ بِعَرَفَةَ، وبِكُلِّ حالٍ لَوْ بَدَا مِنْهُ شَيْءٌ منْ ذَلِكَ لَمَا كانَ عَلَيْهِ تَبِعَةٌ لِأَنَّهُ كانَ لا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٢٢٠).

(٢) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (١/٨٩).

يَعْرِفُ، ولَكِنْ رُتْبَةُ الكَمَالِ تَأْبَىٰ وُقُوعَ ذَلِكَ مِنْهُ ﷺ[1].

وقالَ الدُّكْتُور مُحَمَّد أَبُو شَهبة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: لَقَدْ قَرَأْنَا سِيَرَ الحُكَمَاءِ والفَلاسِفَةِ، والعَبَاقِرَةِ، والمُصْلِحِينَ، وأَصْحَابَ النِّحَلِ، والمَذَاهِبِ قَدِيمًا وحَدِيثًا، فمَا وَجَدْنَا حَيَاةَ أحَدٍ مِنْهُمْ تَخْلُو مِنَ الشُّذُوذِ عنِ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، والتَّفْكِيرِ الصَّحِيحِ، والخُلُقِ الرَّضِيِّ، إمَّا مِنْ نَاحِيَةِ العَقِيدَةِ والتَّفْكِيرِ، وإمَّا مِنْ نَاحِيَةِ السُّلُوكِ والأخْلَاقِ، وغَايَةُ مَا يُقَالُ في أَسْمَاهُمْ وأَزْكَاهُمْ: كَفَىٰ المَرْءَ نُبْلًا أنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ! حَاشَا الأنْبِيَاءَ والمُرْسَلِينَ، فَقَدْ نَشَّأَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ عَلَىٰ أَكْمَلِ الأَحْوَالِ، وعَظِيمِ الأخْلَاقِ، وقدْ بَلَغَ الذُّرْوَةَ في الكَمَالِ خَاتَمُهُمْ وسَيِّدُ البَشَرِ كُلِّهِمْ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ[2].

۞ قَلَقٌ غَامِضٌ وَعَدَمُ تَرَقُّبٍ لِنُبُوَّةٍ أوْ رِسَالَةٍ:

وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجِدُ في نَفْسِهِ قَلَقًا غَامِضًا لا يَعْرِفُ مَصْدَرَهُ ولَا مَصِيرَهُ، ومَا كَانَ يَخْطُرُ بِبَالِهِ لَحْظَةً، مَا اللهُ مُكْرِمُهُ بِهِ مِنَ الوَحْيِ والرِّسَالَةِ، ولا يَحْلُمُ بِذَلِكَ في يَوْمٍ مِنَ الأيَّامِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١/١٣٠، ١٣١).

(٢) انظر السِّيرة النَّبويَّة للدكتور محمد أبو شهبة (١/٢٤٠).

(٣) سورة الشورىٰ آية (٥٢).

وقالَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

إنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَسْتَشْرِفُ للنُّبُوَّةِ، ولا يَحْلُمُ بها، وإنَّما كانَ يُلْهِمُهُ اللهُ تَعالَىٰ الخَلْوَةَ لِلْعِبادَةِ تَطْهِيرًا، وإعْدادًا رُوحِيًّا لَتحَمُّلِ أعْباءِ الرِّسالَةِ، ولَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَشْرِفُ للنُّبُوَّةِ لَمَا فَزِعَ مِنْ نُزُولِ الوَحْيِ عَلَيْهِ، ولَما نَزَلَ إلىٰ خَدِيجَةَ يَسْتَفْسِرُهَا عَنْ سِرِّ تِلْكَ الظَّاهِرَةِ التِي رَآهَا في غَارِ حِرَاءٍ، ولَمْ يَتَأَكَّدْ مِنْ أَنَّهُ رسُولٌ إلَّا بَعْدَ نُزُولِ الوَحْيِ عَلَيْهِ مَرَّةً ثانِيَةً بَعْدَ فَتْرَةِ الوَحْيِ(٢).

وكانَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعالَىٰ وتَرْبِيَتِهِ، أنْ نَشَأَ رسُولُ اللهِ ﷺ أُمِّيًّا لا يَقْرأُ ولا يَكْتُبُ، فكانَ أبْعَدَ عَنْ تُهمَةِ الأَعْداءِ، وَظِنَّةِ المُفْتَرِينَ، وإلىٰ ذَلِكَ أَشَارَ القُرْآنُ الكَرِيمُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾(٣).

وقَدْ لَقَّبَهُ القُرْآنُ الكَرِيمُ بِالأُمِّيِّ فقَالَ تَعالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾(٤).

** ** **

(١) سورة القصص آية (٨٦).

(٢) انظر السِّيرة النَّبويَّة دروس وعبر ص ٤٨ للدكتور مصطفىٰ السباعي.

(٣) سورة العنكبوت آية (٤٨).

(٤) سورة الأعراف آية (١٥٧).

إرْهَاصَاتُ[1] البِعْثَةِ

۞ حَجْبُ الشَّيَاطِينِ عَنِ اسْتِرَاقِ[2] السَّمْعِ عِنْدَ قُرْبِ مَبْعَثِهِ ﷺ:

قال ابنُ إسْحَاقَ: فَلَمَّا تَقَارَبَ أَمْرُ رسُولِ اللهِ ﷺ وحَضَرَ مَبْعَثُهُ، حُجِبَتِ الشَّيَاطِينُ عَنِ السَّمْعِ، وحِيلَ[3] بَيْنَهَا وبَيْنَ المَقَاعِدِ التِي كانَتْ تَقْعُدُ لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ فِيهَا، فَرُمُوا بالنُّجُومِ، فَعَرَفَتِ الجِنُّ أَنَّ ذلِكَ لِأَمْرٍ حَدَثَ مِنْ أَمْرِ اللهِ فِي العِبَادِ، يقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ حِينَ بَعَثَهُ، وهُوَ يَقُصُّ علَيْهِ خَبَرَ الجِنِّ إذْ حُجِبُوا عَنِ السَّمْعِ، فَعَرَفُوا ما عرَفُوا، ومَا أَنْكَرُوا مِنْ ذَلِكَ حِينَ رَأَوْا مَا رَأَوْا: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[4] إلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

---

(١) الإرهَاصَاتُ: أي المُقَدِّمَاتُ. انظر لسان العرب (٥/٣٤٣).

(٢) تَسْتَرِقُ السَّمْعَ: من السَّرِقَةِ، أي أنها تَسْتَمِعُ الخبرَ مِنَ السَّماءِ مُخْتَفِيَةً كمَا يفعلُ السَّارِقُ. انظر النهاية (٢/٣٢٦).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٩/٦٧٤): حِيلَ: بكسر الحاء أي حُجِرَ ومُنِعَ.

(٤) سورة الجن آية (١ - ٦).

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[1].

فَلَمَّا سَمِعَتِ الجِنُّ القُرْآنَ عَرَفَتْ أَنَّهَا إِنَّمَا مُنِعَتْ مِنَ السَّمْعِ قَبْلَ ذلِكَ، لِئَلَّا يَشْكُلَ الوَحْيُ بِشَيْءٍ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَيَلْتَبِسَ عَلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ ما جاءَهُمْ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ فيهِ، لِوُقُوعِ الحُجَّةِ، وقَطْعِ الشُّبْهَةِ، فآمَنُوا وصَدَّقُوا، ثُمَّ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

مَتَىٰ حَدَثَ هَذَا الرَّصْدُ[3]؟:

اخْتُلِفَ في هَذَا الرَّصْدِ هَلْ كَانَ قَبْلَ البِعْثَةِ أَمْ بَعْدَهَا؟ وهَلْ كَانَ مُسْتَمِرًّا أَمْ عَلَىٰ فَتَرَاتٍ؟

رَوَىٰ الشَّيْخانِ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: مَا قَرَأَ رسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الجِنِّ وَمَا رَآهُمْ[4]، انْطَلَقَ رسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ

---

(١) سورة الجن آية (٩ ـ ١٠).

(٢) سورة الأحقاف آية (٢٩ ـ ٣٠) ـ وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (٢٤١/١ ـ ٢٤٢).

(٣) التَّرَصُّدُ: التَّرَقُّبُ. انظر لسان العرب (٢٢٣/٥).

(٤) قال البيهقي في دلائل النبوة (٢٢٧/٢): وهذا الذي حكاه ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إنما هو في أوَّل ما سمعت الجنّ قِراءة النبي ﷺ، وعلِمَتْ بحَالِهِ، وفي ذلك الوقتِ لمْ يَقْرَأْ عليهم، ولم يَرَهُمْ، كما حكاه، ثم أتَاهُ داعِي الجِنِّ مرَّة أُخرىٰ، فذهب معهُ، وقرأ عليهمُ القُرْآن، كما حكاه عبدُ الله بن مسعودٍ ﷺ، ورأىٰ آثارهُمْ، وآثَارَ نِيرَانِهِمْ، واللهُ أعلمُ. =

عَامِدِينَ[1] إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ، وقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلىٰ قَوْمِهِمْ، فقَالُوا: مَالَكُمْ؟ قَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ ومَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا ما هَذَا الذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَانْطَلَقَ الذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَىٰ رسُولِ اللهِ ﷺ، وهُوَ بِنَخْلَةٍ[2] عَامِدًا إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ، وهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الفَجْرِ[3]، فلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ، اسْتَمَعُوا لَهُ، وقَالُوا: هَذَا وَاللهِ الذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، قالَ: فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ الآية، فأَنْزَلَ اللهُ

= وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٦٢/٧): فيُجْمَعُ بين ما نَفَاهُ، وما أثبَتَهُ ابنُ عبَّاسٍ، وغيره بتعدُّدِ وُفُودِ الجِنِّ على النبي ﷺ، فأمَّا ما وَقَعَ بمكَّةَ فكان لِاسْتِمَاعِ القرآن، والرُّجُوعِ إِلىٰ قَوْمِهِمْ مُنذرينَ كما وقعَ في القرآن، وأمَّا في المدينةِ فَلِلسُّؤَالِ عنِ الأحكامِ، وذلكَ بَيِّنٌ في الحَدِيثَيْنِ المَذْكُورَيْنِ، ويحتمل أنْ يَكُونَ القُدُومُ الثاني كانَ أيضًا بِمَكَّةَ، وهو الذي يَدُلُّ عليه حديثُ ابنِ مسعودٍ، وأما حديث أبي هُريرة فليسَ فيه تَصْرِيحٌ بأن ذلك وقعَ بالمدينةِ، ويحتملُ تَعَدُّدَ القُدُومِ بمكَّةَ مرتين، وبالمدينة أيضًا.

(١) قال الحافظ في الفتح (٦٧٤/٩): عَامِدِينَ: أي قَاصِدِينَ.

(٢) نخلة: هو موضع بالحجاز قريب من مكة، فيه نخل وزرع. انظر معجم البلدان (٣٨١/٨).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٦٧٥/٩): ولا يُعَكِّر علىٰ ذلك إلا قوله في هذا الخبر إنهم رأَوْهُ يُصلي بأصحابه صَلاةَ الفَجرِ... فيكونُ إطلاقُ صَلاةِ الفَجْرِ في حديث الباب باعتبارِ الزَّمَانِ، لا لكونِهَا إحدىٰ الخَمْسِ المَفْرُوضَةِ لَيْلَةَ الإسْرَاءِ، فتكونُ قصَّةُ الجِنِّ متقدِّمةً مِنْ أوَّلِ المَبْعَثِ.

عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ...﴾، وإنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ[١].

وأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ والإمَامُ أحْمَدُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قالَ: كانَ الجِنُّ يَسْتَمِعُونَ الوَحْيَ فيَسْتَمِعُونَ الكَلِمَةَ فَيَزِيدُونَ فِيهَا عَشْرًا، فَيَكُونُ مَا سَمِعُوا حَقًّا، ومَا زَادُوهُ بَاطِلًا، وكانَتِ النُّجُومُ لا يُرْمَى بهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ كانَ أَحَدُهُمْ لا يَأْتِي مَقْعَدَهُ إلَّا رُمِيَ بِشِهَابٍ يُحْرِقَ ما أَصَابَ، فشَكَوْا ذَلِكَ إلىٰ إبْلِيسَ، فقَالَ: مَا هَذَا إلَّا مِنْ أمْرٍ قَدْ حَدَثَ. فَبَثَّ جُنُودَهُ، فإذا هُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْ نَخْلَةٍ، فأَتَوْهُ فأخْبَرُوهُ، فقَالَ: هَذَا الحَدَثُ الذِي حَدَثَ في الأَرْضِ[٢].

قالَ الإمَامُ السُّهَيْلِيُّ: ذَكَرَ عبدُ الرَّزَّاقِ، في تَفْسِيرِهِ عَنْ مَعْمَرٍ عنِ ابنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ سُئِلَ عنْ هَذَا الرَّمْيِ بِالنُّجُومِ: أَكَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ؟ قالَ: نَعَمْ، ولَكِنَّهُ إذْ جَاءَ الإِسْلَامُ غُلِّظَ وَشُدِّدَ[٣].

وفي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الأذان - باب الجهر بقراءة صلاة الفجر - رقم الحديث (٧٧٣) - وأخرجه في كتاب التفسير - باب قال ابن عباس: لِبَدًا أعوانًا - رقم الحديث (٤٩٢١) - وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب الصلاة - باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة علىٰ الجن - رقم الحديث (٤٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه - كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الجن - رقم الحديث (٣٦١٣)، وأخرجه الإمام أحمد في المسند - رقم الحديث (٢٤٨٢).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٩/٦٧٦): وهذا جمعٌ حسن.

وَشُهُبًا﴾، ولَمْ يَقُلْ: حُرِسَتْ، دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ كانَ مِنْهُ شَيْءٌ، فلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وشُهُبًا، وذَلِكَ لِيَنْحَسِمَ أَمْرُ الشَّيَاطِينِ، وتَخْلِيطُهُمْ، ولِتَكُونَ الآيَةُ أَبْيَنَ، والحُجَّةُ أَقْطَعَ، وإِنْ وُجِدَ اليَوْمَ كَاهِنٌ، فَلَا يَدْفَعُ ذَلِكَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ مِنْ طَرْدِ الشَّيَاطِينِ عَنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ، فَإِنَّ ذَلِكَ التَّغْلِيظَ والتَّشْدِيدَ كانَ زَمَنَ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ بَقِيَتْ مِنْهُ، أَعْنِي مِنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ بَقَايَا يَسِيرَةٌ بِدَلِيلِ وُجُودِهِمْ عَلَىٰ النُّدُورِ في بَعْضِ الأَزْمِنَةِ، وفي بَعْضِ البِلَادِ[1].

وَقَالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: وأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ فَمَعْنَاهُ الشُّهُبُ كانَتْ تَرْمِي فَتُصِيبُ تَارَةً ولا تُصِيبُ تَارَةً أُخْرَىٰ، وبَعْدَ البِعْثَةِ أَصَابَتْهُمْ إِصَابَةً مُسْتَمِرَّةً فَوَصَفُوهَا لِذَلِكَ بالرَّصْدِ، لأَنَّ الذِي يَرْصُدُ الشَّيْءَ لا يُخْطِئُهُ، فَيَكُونُ المُتَجَدِّدُ دَوَامُ الإِصَابَةِ لا أَصْلُهَا، وأَمَّا قَوْلُ السُّهَيْلِيِّ: لَوْلَا أَنَّ الشِّهَابَ قَدْ يُخْطِئُ الشَّيْطَانَ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَجَوَابُهُ يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ التَّعَرُّضُ مَعَ تَحَقُّقِ الإِصَابَةِ لِرَجَاءِ اخْتِطَافِ الكَلِمَةِ، وإِلْقَائِهَا قَبْلَ إِصَابَةِ الشِّهَابِ، ثُمَّ لا يُبَالِي المُخْتَطِفُ بِالإِصَابَةِ لِمَا طُبِعَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ[2].

۞ هَل انْقَطَعَ هَذَا الرَّمْيُ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ أَمْ لَا؟:

فإِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ الرَّمْيُ غُلِّظَ وشُدِّدَ بِسَبَبِ نُزُولِ الوَحْيِ، فَهَلِ انْقَطَعَ

(١) انظر الرَّوْض الأُنُف (١/٣٥٦).
(٢) انظر فتح الباري (٩/٦٧٧).

بِانْقِطَاعِ الوَحْيِ ـ أَيْ بِمَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ ـ أَمْ لَا..؟.

فالجَوَابُ: يُؤْخَذُ منْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ المُتَقَدِّمِ، فَفِيهِ: قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، ومَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«فإِنَّهَا لا يُرْمَىٰ بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ ولا لِحَيَاتِهِ، ولَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ... قَالَ: فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَوَاتِ بَعْضًا، حتَّىٰ يَبْلُغَ الخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطِفُ الجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ...»**[1].

فَيُؤْخَذُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ التَّغْلِيظِ والحِفْظِ لَمْ يَنْقَطِعْ لِمَا يَتَجَدَّدُ مِنَ الحَوَادِثِ التِي تُلْقَىٰ بِأَمْرِهِ إِلَىٰ المَلَائِكَةِ، فإِنَّ الشَّيَاطِينَ مَعَ شِدَّةِ التَّغْلِيظِ عَلَيْهِمْ في ذَلِكَ بَعْدَ البَعْثِ لَمْ يَنْقَطِعْ طَمَعُهُمْ في اسْتِرَاقِ السَّمْعِ في زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَكَيْفَ بِمَا بَعْدَهُ.

وقدْ قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه لِغَيْلَانَ بنِ سَلَمَةَ رضي الله عنه لَمَّا طَلَّقَ نِسَاءَهُ: إِنِّي لَأَظُنُّ الشَّيْطَانَ فِيمَا يَسْتَرِقُ مِنَ السَّمْعِ سَمِعَ بِمَوْتِكَ، فَقَذَفَهُ فِي نَفْسِكَ..[2].

فَهَذَا ظَاهِرٌ في أَنَّ اسْتِرَاقَهُمُ السَّمْعَ اسْتَمَرَّ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانُوا يَقْصِدُونَ اسْتِمَاعَ الشَّيْءِ مِمَّا يَحْدُثُ فَلا يَصِلُونَ إِلَىٰ ذَلِكَ، إِلَّا إِنِ اخْتَطَفَ أَحَدُهُم بِخِفَّةِ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب السلام ـ باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان ـ رقم الحديث (٢٢٢٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٤٦٣١) ـ وابن حبان في صحيحه ـ رقم الحديث (٤١٥٦) ـ وإسناده صحيح.

حَرَكَتِهِ خَطْفَةً، فَيَتْبَعُهُ الشِّهَابُ، فإِنْ أَصَابَهُ قَبْلَ أنْ يُلْقِيَهَا لِأَصْحَابِهِ فَأَتَتْ وإِلَّا سَمِعُوهَا، وتَدَاوَلُوهَا، وهَذَا يَرِدُ عَلَىٰ قَوْلِ الإمَامِ السُّهَيْلِيِّ المُقَدَّمِ ذِكْرُهُ[1].

۞ وَهْمُ ابْنِ إسْحَاقَ وابنِ سَعْدٍ:

قُلْتُ: ذَكَرَ ابنُ إسْحَاقَ[2]، وابْنُ سَعْدٍ[3]: أَنَّ إسْلَامَ الجِنِّ والْتِقَائَهُمْ بالنَّبِيِّ ﷺ وهُوَ يَقْرَأُ القُرْآنَ - لِأَوَّلِ مَرَّةٍ - كانَ بَعْدَ رُجُوعِهِ ﷺ مِنَ الطَّائِفِ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ، وخَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وهَذَا فِيهِ نَظَرٌ.

قالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: ذَكَرَ مُحَمَّدُ بنُ إسْحَاقَ في السِّيرَةِ قِصَّةَ خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ إلىٰ الطَّائِفِ، ودُعَائِهِ إيَّاهُمْ إلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وإبَائِهِمْ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ القِصَّةَ بِطُولِهَا، وأورَدَ ذَلِكَ الدُّعَاءَ الحَسَنَ: «**اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وقِلَّةَ حِيلَتِي.. إِلَىٰ آخِرِهِ**». قالَ: فَلَمَّا انْصَرَفَ عَنْهُمْ بَاتَ بِنَخْلَةٍ، فَقَرَأَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِنَ القُرْآنِ، فَاسْتَمَعَهُ الجِنُّ مِنْ أَهْلِ نَصِيبِينَ.

وهَذَا صَحِيحٌ، ولَكِنْ قَوْلُهُ: إنَّ الجِنَّ كانَ اسْتِمَاعُهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ الجِنَّ كانَ اسْتِمَاعُهُمْ في ابْتِدَاءِ الإيحَاءِ، كمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ[4].

---

(١) انظر فتح الباري (٩/٦٧٧).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/٣٥).

(٣) انظر الطَّبَقَات الكُبْرىٰ (١/١٠٢).

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٧/٢٩٠).

وَقَالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: والذِي يَظْهَرُ مِن سِيَاقِ الحَدِيثِ[1] الذِي فِيهِ المُبَالَغَةُ في رَمْيِ الشُّهُبِ لِحِرَاسَةِ السَّمَاءِ مِنِ اسْتِرَاقِ الْجِنِّ السَّمْعَ دَالٌّ عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ المَبْعَثِ النَّبَوِيِّ، وإنْزَالِ الوَحْيِ إلىٰ الأَرْضِ، فَكَشَفُوا ذَلِكَ إلَىٰ أَنْ وَقَفُوا عَلَىٰ السَّبَبِ، ثُمَّ لمَّا انْتَشَرَتِ الدَّعْوَةُ، وأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ، قَدِمُوا فَسَمِعُوا، فأَسْلَمُوا، ثُمَّ تَعَدَّدَ مَجِيئُهُمْ حَتَّىٰ فِي المَدِينَةِ[2].

وقالَ في مَوْضِعٍ آخَرَ فِي الفَتْحِ: والذِي تَضَافَرَتْ بِهِ الأَخْبَارُ أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ لَهُمْ في أَوَّلِ البِعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ... فَتَكُونُ قِصَّةُ الجِنِّ مُتَقَدِّمَةً مِنْ أَوَّلِ المَبْعَثِ، وهَذَا المَوْضِعُ مِمَّا لَمْ يُنَبِّهْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِمَّنْ وَقَفْتُ عَلَىٰ كَلامِهِمْ في شَرْحِ هَذَا الحَدِيثِ[3].

۞ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ:

وأَمَّا مَا أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ في جَامِعِهِ، وأَبُو دَاوُدَ في سُنَنِهِ عنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ لِي رسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الجِنِّ: **«مَا فِي إِدَاوَتِكَ[4]؟، أَوْ رَكْوَتِكَ؟»**[5].

---

(١) هو حديثُ ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الذِي ذكَرْنَاهُ قَبْلَ قَلِيلٍ مِنْ أَمْرِ التِبَاسِ الأَمْرِ علىٰ الجِنِّ، وبِسَبَبِ إرسَالِ الشُّهُبِ عليهم.

(٢) انظر فتح الباري (٧/٥٦٣).

(٣) انظر فتح الباري (٩/٦٧٤).

(٤) الإِدَاوَةُ: بكَسْرِ الهمزةِ إِنَاءٌ صَغِيرٌ من جِلْدٍ يُتَّخَذُ للمَاءِ. انظر النهاية (١/٣٦).

(٥) الرَّكْوَةُ: بفتحِ الرَّاء إناءٌ صغيرٌ مِنْ جِلدٍ يُشْرَبُ فيهِ الماءُ. انظر النهاية (٢/٢٣٧).

قُلْتُ: نَبِيذٌ، قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**تَمْرَةٌ طَيِّبَةٌ، وماءٌ طَهُورٌ**»، فَتَوَضَّأَ مِنْهُ[1].

فهَذَا الحَدِيثُ ضَعِيفٌ، فإنَّ رسُولَ الله ﷺ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ أحَدٌ لَيْلَةَ لِقَائِهِ بِالجِنِّ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

قال الحافِظُ في الفَتْحِ: هذَا الحَدِيثُ أطْبَقَ عُلَمَاءُ السَّلَفِ عَلَىٰ تَضْعِيفِهِ[2].

قُلْتُ: وقَدْ رَوَىٰ الإمَامُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ عنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ: أنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ لَيْلَةَ الجِنِّ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ ـ أَوَّلَ مَرَّةٍ ـ، ولَفْظُهُ: قالَ عَلْقَمَةُ: قُلْتُ لِابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: هَلْ صَحِبَ رسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الجِنِّ مِنْكُمْ أَحَدٌ؟

فقَالَ: مَا صَحِبَهُ مِنَّا أحَدٌ[3]، ولَكِنَّا قَدْ فَقَدْنَاهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقُلْنَا: أُغْتِيلَ؟ اسْتُطِيرَ[4]؟ مَا فَعَلَ؟

قالَ: فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، فلَمَّا كانَ وَجْهُ الصُّبْحِ ـ أوْ قَالَ فِي

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه ـ كتاب الطهارة ـ باب الوضوء بالنبيذ ـ رقم الحديث (٨٨) ـ وأبو داود في سننه ـ كتاب الطهارة ـ باب الوضوء بالنبيذ ـ رقم الحديث (٨٤) ـ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٣٧٨٢) (٣٨١٠) ـ وأورده ابن الأثير في جامع الأصول ـ رقم الحديث (٥٠٤٧).

(٢) انظر فتح الباري (١/٤٧١).

(٣) قال النووي في شرح مسلم (٤/١٤١): هذا صريح في إبطال الحديث المروي في سنن أبي داود وغيره المذكور فيه الوضوء بالنبيذ، وحضور ابن مسعود ﷺ معه ﷺ ليلة الجن، ... وحديث النبيذ ضعيف باتفاق المحدثين.

(٤) قال النووي في شرح مسلم (٤/١٤١): معنى استُطِير: أي طارت به الجنّ.

السَّحَرِ ـ إِذَا نَحْنُ بِهِ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ، فقُلْنَا: يا رسُولَ اللهِ، فَذَكَرُوا الذِي كانُوا فِيهِ.

فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهُ أَتَانِي دَاعِي الجِنِّ، فَأَتَيْتُهُمْ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ».

قالَ ابنُ مَسْعُودٍ ﷺ: فانْطَلَقَ بِنَا، فَأَرَانِي آثَارَهُمْ، وآثَارَ نِيرَانِهِمْ[(١)].

۞ تَعَدُّدُ وفُودِ الجِنِّ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ:

ثَبَتَ تَعَدُّدُ وُفُودِ الجِنِّ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ الذِينَ جَاؤُوا أَوَّلًا كانَ سَبَبُ مَجِيئِهِمْ مَا ذُكِر في الحَدِيثِ مِنْ إِرْسَالِ الشُّهُبِ، وسَبَبُ مَجِيءِ الذِينَ في قِصَّةِ ابنِ مَسْعُودٍ[(٢)] أَنَّهُمْ جَاؤُوا لِقَصْدِ الإِسْلَامِ، وسَمَاعِ القُرْآنِ، والسُّؤَالِ عَنْ أَحْكَامِ الدِّينِ. وقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَىٰ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ[(٣)]، وهُوَ مِنْ أَقْوَىٰ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ تَعَدُّدِ القِصَّةِ، فإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ إِنَّمَا أَسْلَمَ بَعْدَ الهِجْرَةِ، والقِصَّةُ الأُولَىٰ كانَتْ عَقِبَ المَبْعَثِ[(٤)].

** ** **

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الصلاة ـ باب الجَهْرِ بالقرآن في الصبح والقراءة على الجنّ ـ رقم الحديث (٤٥٠) ـ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٤١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الصلاة ـ باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ـ رقم الحديث (٤٥٠) (١٥٠) ـ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٤١٤٩).

(٣) حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه: البخاري في صحيحه ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب ذكر الجن ـ رقم الحديث (٣٨٦٠).

(٤) انظر فتح الباري (٦٧٨/٩).

مُقَدِّمَاتُ نُزُولِ الْوَحْيِ

فِي الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ بَدَأَتْ تَلُوحُ آثَارُ النُّبُوَّةِ عَلَيْهِ ﷺ، فَمِنْ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ وَالْآثَارِ:

۞ أَوَّلًا: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ:

أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ النُّبُوَّةِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ[1]، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا فِي نَوْمِهِ إِلَّا جَاءَتْ كَفَلَقِ الصُّبْحِ[2]، حَتَّىٰ مَضَتْ عَلَىٰ ذَلِكَ سِتَّةُ أَشْهُرٍ، ثُمَّ بُدِئَ بِالْوَحْيِ ﷺ.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ[3].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (١/٣٤): بُدِئَ بالرُّؤيَا الصَّادقةِ ليكُونَ تَمْهِيدًا وتَوْطِئَةً لليَقَظَةِ.
وفي رواية أخرىٰ في الصَّحيح: الرُّؤيا الصَّالِحَة.
قال الحافظ في الفتح (١٤/٣٧٧): وهُمَا بمعنىٰ واحِدٍ بالنِّسبةِ إلىٰ أمُورِ الآخِرَةِ في حقِّ الأنبياءِ، وأما بالنِّسبَةِ إلىٰ أمُورِ الدُّنْيَا فالصَّالحةُ في الأصلِ أخَصُّ، فرُؤْيَا النَّبيِّ كلّهَا صَادِقَةٌ وقدْ تكُونُ صَالِحَةً وهي الأكثرُ، وغيرُ صالِحَةٍ بالنِّسْبَةِ للدُّنْيَا كمَا وقعَ في الرُّؤْيَا يَوْمَ أحُدٍ.

(٢) قال الحافظ في الفتح (١/٣٤): المُرَادُ بِفَلَقِ الصُّبْحِ ضِيَاؤُهُ، وخُصَّ بالتَّشْبِيهِ لِظُهُورِهِ الواضِحِ الذي لا شَكَّ فيهِ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب بدء الوحي ـ باب رقم (٣) ـ رقم الحديث (٣)=

❁ ثَانِيًا: حُبُّ النَّبِيِّ ﷺ لِلْخَلْوَةِ:

وَلَمَّا تَقَارَبَتْ سِنُّ النَّبِيِّ ﷺ الْأَرْبَعِينَ حَبَّبَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ الْخَلْوَةَ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ وَحْدَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَهْجُرُ مَكَّةَ كُلَّ عَامٍ لِيَقْضِيَ شَهْرَ رَمَضَانَ فِي غَارِ حِرَاءٍ[1]، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَحَنَّثُ[2] بِهِ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

= ـ وأخرجه في كتاب التفسير ـ با ب (١) ـ رقم الحديث (٤٩٢٣) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ ـ رقم الحديث (١٦٠).

(١) حِراءٌ: بكسر الحاء، غارٌ صَغيرٌ في جبَلٍ من جِبَالِ مكَّةَ، يُعرف بجبَلِ النُّورِ. انظر النهاية (٣٦٢/١).

قال ابن أبي جَمْرَةَ فيما نقله عنه الحافظ في الفتح (٣٧٧/١٤): الحكمةُ في تَخْصِيصِهِ ﷺ بالتَّخلِّي في غَارِ حِرَاءٍ أنَّ المُقِيمَ فيه كان يُمْكِنُهُ رُؤيةُ الكعبةِ، فيجتَمِعُ لِمنْ يَخْلُو فيه ثلاثُ عِبادَاتٍ: الخَلْوة، والتَّعبُّدُ، والنَّظَرُ إلىٰ البيتِ.

(٢) يَتَحَنَّثُ: أي يَتَعَبَّدُ. انظر النهاية (٤٣٢/١).

قال الحافظ في الفتح (٧٣٦/٩):... وهذا يلتفت إلىٰ مَسْألةٍ أُصُوليّةٍ، وهو أنه ﷺ هلْ كانَ قبلَ أنْ يُوحىٰ إليهِ مُتَعبدًا بشريعةِ نَبِيٍّ قَبْلَهُ؟.

قال الجمهور: لا؛ لأنه لو كان تَابعًا لاسْتَبْعَدَ أن يكونَ مَتْبُوعًا، ولأنَّه لو كانَ لنُقِلَ مَنْ كان ينسب إليه، وقِيل: نَعَمْ، واختلَفُوا في تعِيينه علىٰ ثمَانِيَةِ أقوالٍ: أَحدُها آدم عليهِ السَّلامُ، والثَّاني نوحٌ عليهِ السَّلامُ، والثالث إبراهيم عليهِ السَّلامُ ذهب إليه جماعةٌ واستدلوا بقوله تَعالَىٰ في سورة النحل آية (١٢٣): ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا...﴾، والرَّابعُ مُوسىٰ عليهِ السَّلامُ، والخامسُ عِيسىٰ عليهِ السَّلامُ، والسادس بكلِّ شيء بلغَهُ عن شَرْعِ نبيٍّ من الأنبياء وحجته قوله تَعَالَىٰ في سورة الأنعام آية (٩٠): ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، والسَّابع الوقفُ، ولا تَخفىٰ قوة الثالثِ، ولاسيما مع ما نُقِلَ من ملازمته ﷺ الحج والطَّواف، ونحو ذلك مما بَقِيَ عندهم من شريعةِ إبراهيم عليهِ السَّلامُ، والله أعلم.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَزَوَّدُ لِخَلْوَتِهِ لِبَعْضِ لَيَالِي الشَّهْرِ، فَإِذَا نَفَدَ ذَلِكَ الزَّادُ رَجَعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَزَوَّدُ قَدْرَ ذَلِكَ، فَيُقِيمُ فِي حِرَاءَ شَهْرًا مِنْ كُلِّ سَنَةٍ، وَيَقْضِي وَقْتَهُ فِي التَّفْكِيرِ فِيمَا حَوْلَهُ مِنْ مَشَاهِدِ الْكَوْنِ، وَفِيمَا وَرَاءَهَا مِنْ قُدْرَةٍ مُبْدِعَةٍ، حَتَّىٰ وَصَلَ مِنَ الصَّفَاءِ وَالْإِشْرَاقِ إِلَىٰ مَرْتَبَةٍ عَالِيَةٍ انْعَكَسَتْ فِيهَا أَشِعَّةُ الْغُيُوبِ عَلَىٰ صَفْحَةِ قَلْبِهِ الْمَجْلُوَّةِ، فَأَصْبَحَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ كَفَلَقِ الصُّبْحِ(١).

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ... ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ(٢).

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَضَىٰ جِوَارَهُ(٣) مِنْ شَهْرِهِ ذَلِكَ كَانَ أَوَّلُ مَا يَبْدَأُ بِهِ إِذَا انْصَرَفَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ الْكَعْبَةَ، فَيَطُوفُ بِهَا سَبْعًا، أَوْ مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ بَيْتِهِ.

---

(١) انظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب بَدْءِ الوحي - باب (٣) - رقم الحديث (٣) - وأخرجه في كتاب التعبير - باب أَوَّلُ ما بُدِئَ به رسُولُ الله ﷺ من الوحي - رقم الحديث (٦٩٨٢) - ومسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ - رقم الحديث (١٦٠).

(٣) الجِوَارُ: الاعْتِكَافُ. انظر النهاية (١/٣٠٢).

قال الإمام السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (١/٤٠٠): والفرقُ بينَ الجِوَار والِاعتِكافِ، أن الاعتكاف لا يكُونُ إلا داخِلَ المَسْجِدِ، وأما الجِوَارُ فإنه قَدْ يكُونُ خارِجَهُ.

وَظَلَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ ذَلِكَ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ إِلَىٰ أَنْ جَاءَهُ الْوَحْيُ وَهُوَ فِي إِحْدَىٰ خَلَوَاتِهِ تِلْكَ(١).

۞ ثَالِثًا: تَسْلِيمُ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ:

رَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»**(٢).

وَرَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ والْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ، فَخَرَجْنَا فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا، فَمَا اسْتَقْبَلَهُ جَبَلٌ، وَلَا شَجَرٌ إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ(٣).

وَرَوَىٰ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ بِكَرَامَتِهِ، وَابْتَدَأَهُ بِالنُّبُوَّةِ، كَانَ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ أَبْعَدَ حَتَّىٰ تَحَسَّرَ(٤)

---

(١) أخرج ذلك البخاري في صحيحه - كتاب بدء الوحي - باب رقم (٣) - رقم الحديث (٣) - ومسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ - رقم الحديث (١٦٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الفضائل - باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة - رقم الحديث (٢٢٧٧).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه - كتاب المناقب - باب ما جاء في آيات نبوة النبي ﷺ - رقم الحديث - (٣٩٥٤) - والحاكم في المستدرك - كتاب آيات رسول الله ﷺ - باب سلام الأشجَارِ والجِبَال عليه ﷺ - رقم الحديث (٤٢٩٦).

(٤) حسَرَ: انْكَشَفَ. انظر لسان العرب (٣/١٦٨).

عَنْهُ الْبُيُوتُ، وَيُفْضِي إِلَىٰ شِعَابِ[1] مَكَّةَ وَبُطُونِ أَوْدِيَتِهَا، فَلَا يَمُرُّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ[2]، قَالَ: فَيَلْتَفِتُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَوْلَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَشِمَالِهِ، وَخَلْفِهِ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا الشَّجَرَ وَالْحِجَارَةَ، فَمَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَذَلِكَ يَرَىٰ وَيَسْمَعُ، مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عليهِ السَّلامُ بِمَا جَاءَهُ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ، وَهُوَ بِحِرَاءٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ[3].

رَابِعًا: سَمَاعُ النَّبِيِّ ﷺ الصَّوْتَ وَرُؤْيَتُهُ الضَّوْءَ:

رَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، يَسْمَعُ الصَّوْتَ، وَيَرَىٰ الضَّوْءَ[4] سَبْعَ سِنِينَ، وَلَا يَرَىٰ شَيْئًا، وَثَمَانَ سِنِينَ يُوحَىٰ إِلَيْهِ[5].

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ عَنِ

---

(١) الشِّعْبُ: ما انْفَرَجَ بينَ جَبَلَيْنِ. انظر لسان العرب (٧/١٢٦).

(٢) قال الإمام السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (١/٣٩٩): وهذا التَّسْليمُ الأظهَرُ فيه أنْ يَكونَ حَقِيقةً، وأنَّ الله تَعالَىٰ أَنْطَقَهُ إنْطاقًا كما خَلَقَ الحَنِينَ في الجِذْعِ.
أخرج قصة حنين الجذع: البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب علامات النبوة في الإسلام ـ رقم الحديث (٣٥٨٣) (٣٥٨٤) (٣٥٨٥).

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/٢٧١).

(٤) قال القاضي عياض في شرح مسلم (٨/٨٥): أي صَوْتُ الهَاتِفِ به مِنَ المَلائِكَةِ، ويرىٰ الضَّوْءَ أي نُورَ المَلائِكَةِ، ونُورَ آياتِ الله تَعالَىٰ حتىٰ رَأىٰ المَلَكَ بَعَيْنِهِ، وشَافَهَهُ بِوَحْيِ الله تَعالَىٰ.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الفضائل ـ باب كم أقام النبي ﷺ بمكة والمدينة ـ رقم الحديث (٢٣٥٣) (١٢٣).

ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِخَدِيجَةَ: «إِنِّي أَرَىٰ ضَوْءًا وَأَسْمَعُ صَوْتًا، وَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ بِي جُنُنٌ[1]»، فَقَالَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللهِ! ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنْ يَكُ صَادِقًا، فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ[2] مِثْلُ نَامُوسِ مُوسَىٰ، فَإِنْ بُعِثَ وَأَنَا حَيٌّ فَسَأُعَزِّرُهُ[3]، وَأَنْصُرُهُ، وَأُومِنُ بِهِ[4].

** ** **

---

(١) قال السندي في شرح المسند (٣/٩٦): جُنُنٌ: هكذا في النسخ والظاهر: جُنون، فإن الجنن ـ بفتحتين: القبر، والميت، والكفن، كما في القاموس، ولا شيء منها يناسب المقصود، ثم رأيت أبا البقاء قال: أَصله: جنون ـ بالواو ـ فحذفت تخفيفًا، ولدلالة الضمة عليها، وعلى هذا فهو ـ بضمتين ـ.

(٢) النَّامُوسُ: صَاحِبُ سِرِّ الخَيْرِ، أَرَادَ بهِ جِبْرِيلَ عليهِ السَّلامُ؛ لأنَّ الله تَعَالَىٰ خصَّهُ بالوَحْيِ والغَيْبِ اللَّذَيْنِ لا يَطَّلعُ عليهمَا غيرُه. انظر النهاية (٥/١٠٤).

(٣) التَّعْزِيرُ: هاهُنَا معناهُ الإعَانةُ، والتَّوْقِيرُ، والنَّصْرُ مرَّةً بعد مرَّةٍ. انظر النهاية (٣/٢٠٦).
ومنه قوله تَعَالَىٰ في سورة الأعراف آية (١٥٧): ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٨٤٥).

الأَحْدَاثُ مِنْ نُزُولِ الوَحْيِ إِلَى الهجْرَةِ

نُزُولُ الْوَحْيِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ

وَلَمَّا تَكَامَلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَخَرَجَ إِلَىٰ حِرَاءٍ، كَمَا كَانَ يَخْرُجُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليهِ السَّلامُ، بِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَبَعَثَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَكَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا.

رَوَىٰ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَىٰ إِلَيْهِ، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ، فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ(١).

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ ﷺ بُعِثَ عَلَىٰ رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي أَطْبَقَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ(٢).

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: فَلَمَّا كَمُلَ لَهُ أَرْبَعُونَ، أَشْرَقَ عَلَيْهِ نُورُ النُّبُوَّةِ، وَأَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِرِسَالَتِهِ، وَبَعَثَهُ إِلَىٰ خِلْقِهِ، وَاخْتَصَّهُ بِكَرَامَتِهِ، وَجَعَلَهُ أَمِينَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة ـ رقم الحديث (٣٩٠٢).

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٨١).

(٣) انظر زاد المعاد (١/٧٦).

وَقَالَ جَمَالُ الدِّينِ أَبُو زَكَرِيَّا يَحْيَىٰ بْنُ يُوسُفٍ الصَّرْصَرِيُّ[1] رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

وَأَتَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ فَأَشْرَقَتْ ... شَمْسُ النُّبُوَّةِ مِنْهُ فِي رَمَضَانِ

وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[2].

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الاِثْنَيْنِ؟ فَقَالَ: «فِيهِ وُلِدْتُ، وَفِيهِ أُنْزِلَ عَلَيَّ»[3].

۞ حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

وَلْنَسْتَمِعْ إِلَىٰ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تَرْوِي لَنَا قِصَّةَ بِدْءِ الْوَحْيِ، قَالَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ

---

(١) هو الشَّيخ جمالُ الدِّين أبو زكريَّا يحيىٰ بن يُوسف الصَّرْصَرِيُّ نسبة إلىٰ صَرْصَر قرية علىٰ فرسَخَيْنِ من بَغدادَ، العلَّامةُ الحافظ اللُّغوي، كان إليه المُنتهَىٰ في معرفةِ اللُّغة، وحُسْنِ الشِّعْرِ، وديوانُه ومدائحُهُ سائرةٌ، يُشَبَّهُ في عصرِهِ بحسَّان بن ثابت ﷺ، وكان صالحًا قُدوَةً كثيرَ التلاوةِ، عظيمَ الاجتهادِ صَبُورًا قَنُوعًا، قَتَلَهُ التَّتارُ يومَ دخَلُوا بغدادَ سنة (٦٥٦هـ).
انظر شذرات الذهب (٥/٢٨٦).

(٢) سورة البقرة آية (١٨٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الصيام ـ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر... ـ رقم الحديث (١١٦٢) (١٩٨).

الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ(١) فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ...حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ(٢) وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ ﷺ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**» قَالَ: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي**(٣) **حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّيَ الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي**»(٤)، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**(٥) **فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّيَ الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي**»، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي**(٦) **الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي**»، فَقَالَ:

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٩/٧٣٥): أي في أوَّل المُبْتَدآت مِن إيجاد الوحي الرُّؤيا، وأما مُطْلَقُ ما يدلُّ علىٰ نبُوَّته، فتقدَّمَتْ له أشياء مثل: تسليمِ الحَجَر كما ثبت في صحيح مسلم.

(٢) قال الحافظ في الفتح (١/٣٥): أي الأمرُ الحقُّ، وسُمِّيَ حَقًّا لأنه وحيٌ مِنَ الله تَعَالَىٰ.

(٣) في رواية ابن إسحاق في السيرة (١/٢٧٣): فَغَتَّنِي.
قال ابن الأثير في النهاية (٣/٣٠٨): الغَتُّ والغَطُّ سواءٌ، كأنَّه أراد عصَرَنِي عَصْرًا شَدِيدًا حتىٰ وجَدْتُ منه المَشَقَّةَ.

(٤) قال الإمام النووي في شرح مسلم (٢/١٧٢): أرسَلَنِي: أي أطْلَقَنِي.

(٥) قال الحافظ في الفتح (١/٣٥): أي ما أُحْسِنُ القِرَاءَةَ، فلمَّا قال ذلك ثلاثًا قِيلَ له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي لا تقرؤُهُ بقوَّتِكَ ولا بمَعْرِفَتِكَ، لكن بحَوْلِ ربِّكَ وإعانَتِهِ، فهو يُعَلِّمُكَ، كما خلقكَ، وكما نَزَعَ عنكَ عَلَقَ الدَّمِ، وغَمْزَ الشَّيْطَانِ في الصِّغَرِ، وعلّم أُمَّتَكَ حتىٰ صارَتْ تَكْتُبُ بالقلَمِ بعدَ أنْ كانَتْ أُمِّيَّةً...، والتقدير: لسْتُ بقَارِئٍ البَتَّةَ.

(٦) قال الحافظ في الفتح (٩/٧٣٨): والحكمةُ في هذا الغَطِّ لإظهارِ الشِّدَّةِ، والجِدِّ في الأمر تَنْبِيهًا علىٰ ثِقَلِ القولِ الذي سَيُلقىٰ إليه، فلما ظهر أنه صَبَرَ علىٰ ذلك أُلْقِيَ إليه.
ولعل الحِكْمَةَ في تكريرِ الإقراءِ الإشارةُ إلىٰ انْحِصَارِ الإيمان الذي يَنْشَأُ الوحيُ بسببِهِ في ثلاثٍ: القولُ، والعملُ، والنيَّةُ، وأنَّ الوحي يشتملُ علىٰ ثلاثٍ: التوحيدُ، والأحكامُ والقصصُ، وفي تكريرِ الغَطِّ الإشارة إلىٰ الشَّدائدِ الثلاثِ التي وقعتْ لهُ ﷺ وهي: الحَصْرُ في الشِّعْبِ، وخروجُه في الهجرةِ، وما وقع له يوم أُحدٍ، وفي الإرسالاتِ الثلاثِ إشارة إلىٰ حصولِ التيسيرِ له عقب الثلاث المذكورةِ: في الدنيا، والبَرْزَخِ، والآخرةِ.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ[1] رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

فَرَجَعَ بِهَا[2] رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ[3]، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**»[4]، فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ[5]، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: «**لَقَدْ خَشِيتُ[6] عَلَىٰ نَفْسِي**»، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا[7] وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا[8]، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٧٢/٢): هذا دليلٌ صريحٌ في أنَّ أوَّلَ ما نزلَ من القرآن اقرأ، وهذا هو الصواب الذي عليهِ الجماهيرُ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٣٦/١): أي بالآياتِ أو بالقِصَّةِ.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٣٨١/١٤): الحكمةُ في العُدُولِ عن القَلْبِ إلىٰ الفُؤَادِ أن الفُؤَادَ وِعَاءُ القَلْبِ علىٰ ما قاله أهل اللغة، فإذا حصل للوعاءِ الرَّجَفَانُ حصلَ لِمَا فيهِ، فيكونُ في ذِكْرِهِ من تعظيمِ الأمرِ ما ليس في ذِكْرِ القَلْبِ.

(٤) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٧٣/١): معنىٰ زَمِّلُونِي أي: غَطُّونِي بالثياب، ولُفُّونِي بها.
وقال الحافظ في الفتح (٧٣٩/٩): قال ﷺ ذلك لشدَّةِ ما لَحِقَهُ من هَوْلِ الأمر، وجرَتِ العادة بسُكُونِ الرِّعْدَةِ بالتَّلْفِيفِ.

(٥) قال الحافظ في الفتح (٣٦/١): الرَّوْعُ: أي الفَزَعُ.

(٦) قال الحافظ في الفتح (٣٦/١): والخشيةُ المذكورةُ اختلفَ العلماءُ في المُرَادِ بها علىٰ اثْنَيْ عَشَرَ قولًا... وأولىٰ هذه الأقوال بالصواب، وأسلمها من الارتياب هوَ المَوْتُ من شِدَّةِ الرُّعْبِ أو المَرَضِ.

(٧) قال الحافظ في الفتح (٣٦/١): معناهَا النَّفْي والإبعَادُ.

(٨) قال ابن القيم في زاد المعاد (١٧/٣): انظر كيفَ استَدَلَّتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بما فيه ﷺ مِنَ الصِّفَاتِ الفاضلةِ، والأخلاقِ والشِّيَمِ، علىٰ أنَّ مَنْ كان كذلك لا يُخْزَىٰ أبدًا، فَعَلِمَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بكمَالِ عَقْلِهَا وفِطْرَتِهَا، أن الأعمال الصالحةَ، والأخلاقَ الفاضلةَ=

الْكَلَّ(١)، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ(٢)، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ(٣)، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسِد بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ ـ ابْنِ عَمِّ خَدِيجَةَ ـ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ(٤) مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ! اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي! مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَىٰ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ(٥)، يَا لَيْتَنِي فِيهَا..................................

= والشِّيَمَ الشَّرِيفَةَ، تناسب أشكالها مِنْ كرامَةِ اللهِ، وتأييدهِ، وإحسانِهِ، ولا تناسِبُ الخِزْيُ والخُذْلَانُ، وإنما يُنَاسبه أضدَادُهَا، فمن رَكَّبَهُ الله علىٰ أحسنِ الصفات وأحسنِ الأخلاق والأعمالِ إنما يَلِيقُ به كرامته وإتمامُ نعمتهِ عليهِ.

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم (٢/١٧٤): الكَلُّ: بفتح الكاف وأصله الثِّقَلُ، ومنه قول الله تَعَالَىٰ في سورة النحل آية (٧٦): ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾، ويدخُلُ في حَمْلِ الكَلِّ الإنفاقُ علىٰ الضَّعِيفِ، واليَتِيمِ، والعِيَالِ وغير ذلك.

(٢) قال الإمام النووي في شرح مسلم (٢/١٧٥): أي تُعْطِي الناسَ ما لا يَجِدُونَهُ عندَ غيركَ مِن نفائسِ الفَوَائدِ، ومكارمِ الأخلاق، أو تُكْسِب المالَ العظيمَ الذي يَعْجُزُ عنه غيرُك، ثم تَجُودَ به في وجُوهِ الخيرِ وأبواب المكارم.

(٣) قال الإمام النووي في شرح مسلم (٢/١٧٦): النَّوَائِبُ جمعُ نائِبَةٍ وهي الحَادِثَةُ، وإنما قالتْ: نوائِب الحقّ، لأن النائبةَ قد تكون في الخير، وقد تكونُ في الشّرِّ.

(٤) في رواية أخرىٰ في صحيح البخاري ـ رقم الحديث (٦٩٨٢): «... وكان يكتبُ الكتابَ العربيَّ، فيكتبُ بالعربيةِ مِنَ الإنْجِيلِ».

(٥) قال الحافظ في الفتح (١/٣٨): قال علىٰ موسىٰ ولم يقل على عيسى مع كونه نصرانيًا: لأنَّ كتابَ مُوسىٰ عليهِ السَّلامُ مُشْتَمِلٌ علىٰ أكثر الأحكامِ، بخلافِ عيسىٰ؛ ولأنَّ موسىٰ عليهِ=

جَذَعًا[(١)]، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ[(٢)] هُمْ؟» قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا[(٣)]، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ[(٤)] وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ[(٥)].

= السَّلامُ بُعِثَ بالنِّقْمَةِ علىٰ فِرْعَوْنَ ومَنْ معه، بخلافِ عيسىٰ، أو قاله تَحْقيقًا للرِّسالةِ، لأن نُزُول جِبريلَ علىٰ موسىٰ متَّفَقٌ عليه بين أهلِ الكتابِ، بخلافِ عيسىٰ فإنَّ كثيرًا من اليهودِ يُنكرونَ نُبُوَّتَهُ.

(١) قال الحافظ في الفتح (٣٩/١): الجَذَعُ: هو الصَّغيرُ منَ البَهائمِ، كأنه تمنَّىٰ أن يكون عِنْدَ ظُهور الدُّعاء إلىٰ الإسلام شَابًّا ليكونَ أمكَنَ لنَصْرِهِ، وبهذا يتبيَّنُ سِرُّ وصْفِهِ بكونهِ كان كَبيرًا أعمىٰ.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٣٩/١) (٣٨٢/١٤): استبعدَ النبيُّ ﷺ أن يُخْرِجُوهُ، لأنه لم يكنْ فيه سببٌ يقتضِي الإخراجَ، لما اشتملَ عليه مِن مَكارمِ الأخلاقِ التي تقدَّم من خديجةَ وصْفُهَا. ويحتملُ أن يكون انزعاجُهُ كان مِنْ جِهةِ خَشْيَةِ فَواتِ ما أَمَّلهُ من إيمانِ قومهِ باللهِ، وإنقاذِهِمْ من ضُرِّ الشِّرْكِ، وأدْنَاسِ الجاهليةِ، ومنْ عذابِ الآخرةِ، وليتمَّ لهُ المرادُ من إرساله إليهم، ويحتملُ أن يكونَ انْزَعَجَ منَ الأمْرَيْنِ مَعًا.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٣٩/١): أي قَوِيًّا، مأخوذٌ من الأَزْرِ وهوَ القُوَّة، ويحتمل أن يكون من الإزَارِ، أشار بذلك إلىٰ تَشْمِيرِهِ في نُصْرَتِهِ.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٤٠/١): أي لم يَلبثْ، وأصلُ النُّشُوبِ التَعَلُّقُ، أي لم يتعلَّقْ بشيءٍ من الأمورِ حتىٰ مَاتَ.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب بدء الوحي ـ رقم الحديث (٣) ـ وأخرجه في كتاب التعبير ـ باب أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصَّالحة ـ رقم الحديث (٦٩٨٢) ـ وأخرجه مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ ـ رقم الحديث (١٦٠).

قَالَ أَحْمَد شَوْقِي رَحِمَهُ اللهُ:

وَنُــودِيَ اقْــرَأْ تَعَــالَىٰ اللهُ قَائِلُهَــا ... لَمْ تَتَّصِـلْ قَبْـلَ مَـنْ قِيلَـتْ لَـهُ بِفَـمِ

هُنَــاكَ أَذَّنَ لِلــرَّحْمَنِ فَــامْتَلَأَتْ ... أَسْـمَاعُ مَكَّـةَ مِـنْ قُدْسِـيَّةِ الـنَّغَمِ

فَلَا تَسَلْ عَنْ قُرَيْشٍ كَيْفَ حَيْرَتُهَا ... وَكَيْـفَ نُفْرَتُهَـا فِي السَّـهْلِ وَالْعَلَـمِ[1]

تَسَـاءَلُوا عَـنْ عَظِيمٍ قَـدْ أَلَـمَّ بِهِـمْ ... رَمَـىٰ الْمَشَـايِخَ وَالْوَالِـدَانَ بِـاللَّمَمِ[2]

يَـا جَـاهِلِينَ عَلَـىٰ الْهَـادِي وَدَعْوَتِـهِ ... هَـلْ تَجْهَلُـونَ مَكَـانَ الصَّـادِقِ الْعَلَـمِ

❁ رِوَايَةٌ مُرْسَلَةٌ ضَعِيفَةٌ:

قُلْتُ: وَقَعَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ عَنْ عُبَيْدِ بنِ عُمَيْرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: جَاءَنِي جِبْرِيلُ، وَأَنَا نَائِمٌ، بِنَمَطٍ مِنْ دِيبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ، فَقَالَ: اقْرَأْ..[3].

وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ مَعَ ضَعْفِهَا مُخَالِفَةٌ لِرِوَايَةِ الصَّحِيحَيْنِ مِنْ أَنَّ نُزُولَ جِبْرِيلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ فِي اليَقَظَةِ لَا فِي المَنَامِ، وَالمُعَوَّلُ عَلَيْهِ مَا فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي اليَقَظَةِ لَا فِي المَنَامِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

---

(١) العَلَمُ: الجبَلُ. انظر لسان العرب (٩/٣٧٣).

(٢) اللَّمَمُ: هي صِغَارُ الذُّنُوبِ. انظر لسان العرب (١٢/٣٣٢).
ومنهُ قوله تَعَالَىٰ في سورة النَّجم آية (٣٢): ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ...﴾.

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/٢٧٣).

۞ فُتُورُ الْوَحْيِ[1]:

فتَرَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ أَوَّلِ مَرَّةٍ رَأَىٰ جِبْرِيلَ عليهِ السَّلامُ فِيهَا، مُدَّةً يَسِيرَةً، فَقَدْ رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: حُبِسَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ، وَحُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَجَعَلَ يَخْلُو فِي حِرَاءٍ[2].

قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ: وَكَانَ ذَلِكَ ـ أَيْ فُتُورُ الْوَحْيِ ـ لِيَذْهَبَ مَا كَانَ ﷺ وَجَدَهُ مِنَ الرَّوْعِ، وَلِيَحْصُلَ لَهُ التَّشَوُّفُ إِلَىٰ الْعَوْدِ[3].

۞ رِوَايَةٌ مُرْسَلَةٌ ضَعِيفَةٌ:

قُلْتُ: وَقَعَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَوْلُهُ: . . . حَتَّىٰ حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا بَلَغَنَا حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّىٰ مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَىٰ[4] بِذُرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ[5]، وَتَقَرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا

---

(١) قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٠): فتورُ الوحيِ عِبارةٌ عنْ تأخُّرِهِ مُدَّةً منَ الزَّمانِ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ـ رقم الحديث (١٥٠٣٣).

(٣) انظر فتح الباري (١/ ٤٠).

(٤) أَوْفَىٰ: أي أَشْرَفَ وطَلَعَ. انظر النهاية (٥/ ١٨٤).

(٥) الجَأْشُ: القَلْبُ، يقال: فلانٌ رابطُ الجَأْشِ: أي ثَابِتُ القَلْبِ لا يَرْتَاعُ، ولا ينزَعِجُ للعظَائِمِ والشَّدائِدِ. انظر النهاية (١/ ٢٢٥).

لِمِثْلِ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَوْفَىٰ بِذَرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ(١) .

قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ: وَهَذِهِ الْقِصَّةُ وَهِيَ مِنْ بَلَاغَاتِ الزُّهْرِيِّ، وَلَيْسَ مَوْصُولًا(٢) .

قُلْتُ: وَلِذَلِكَ لَمْ يَرْوِ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ فِي كِتَابِ بِدْءِ الْوَحْيِ ، وَإِنَّمَا رَوَاهَا فِي كِتَابِ التَّعْبِيرِ ، لِيُبَيِّنَ ضَعْفَهَا.

❁ مُدَّةُ فُتُورِ الْوَحْيِ:

أَمَّا مُدَّةُ فُتُورِ الْوَحْيِ فَرَوَىٰ ابْنُ سَعْدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّهَا كَانَتْ أَيَّامًا(٣) ، وَهَذَا الَّذِي يَتَرَجَّحُ بَلْ يَتَعَيَّنُ ، وَأَمَّا مَا اشْتَهَرَ مِنْ أَنَّهَا دَامَتْ سِنَتَيْنِ وَنِصْفٍ أَوْ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ فَلَا يَصِحُّ بِحَالٍ بَعْدَ إِدَارَةِ النَّظَرِ فِي جَمِيعِ الرِّوَايَاتِ(٤) .

قَالَ الدُّكْتُور مُحَمَّدْ أَبُو شَهْبَة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وَالَّذِي أُرَجِّحُهُ وَأَمِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا كَانَتْ أَيَّامًا ، وَأَنَّ أَقْصَاهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، أَمَّا أَنْ يَقْضِي النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَ سِنِينَ أَوْ سَنَتَيْنِ وَنِصْف مِنْ عُمُرِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ وَدَعْوَةٍ فَهَذَا مَا لَا تَقْبَلُهُ الْعُقُولُ ، وَلَا يَدُلُّ عَلَيْهِ نَقْلٌ صَحِيحٌ(٥) .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التعبيرِ ـ بابُ أوّل ما بُدِئَ به رسُولُ الله ﷺ من الوحي ـ رقم الحديث (٦٩٨٢).

(٢) انظر فتح الباري (١٤/٣٨٣) ـ وانظر السِّلسلةَ الضَّعيفة للألباني رَحِمَهُ اللهُ ـ رقم الحديث (٤٨٥٨).

(٣) انظر الطبَّقات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/٩٤).

(٤) انظر الرَّحيق المختوم ص ٦٩.

(٥) انظر السِّيرة النَّبويَّة في ضوءِ القرآنِ والسُّنةِ للدكتور محمد أبو شهبة (١/٢٦٤).

۞ نُزُولُ الْوَحْيِ مَرَّةً ثَانِيَةً وَالْأَمْرُ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ:

لَمَّا عَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعْرِفَةَ الْيَقِينِ أَنَّهُ أَضْحَىٰ نَبِيًّا للهِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، وَأَنَّ الَّذِي جَاءَهُ هُوَ الْوَحْيُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَصَارَ تَشَوُّقُهُ وَارْتِقَابُهُ لِمَجِيءِ الْوَحْيِ سَبَبًا فِي ثَبَاتِهِ، وَاحْتِمَالِهِ عِنْدَمَا يَعُودُ، جَاءَهُ جِبْرِيلُ عليهِ السَّلامُ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَثْنَاءَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ يَذْهَبُ إِلَىٰ غَارِ حِرَاءٍ، فَيَخْلُو فِيهِ، وَبَيْنَا هُوَ نَازِلٌ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَمِعَ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا جِبْرِيلُ عليهِ السَّلامُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا سَادًّا مَا بَيْنَ الْأُفُقِ، فَرُعِبَ مِنْهُ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ فَقَالَ ﷺ: «**زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي**»، فَزَمَّلُوهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ**﴾[1].

إِنَّهُ النِّدَاءُ الْعُلْوِيُّ الْجَلِيلُ، لِلْأَمْرِ الْعَظِيمِ الثَّقِيلِ... نَذَارَةُ هَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ وَإِيقَاظُهَا، وَتَخْلِيصُهَا مِنَ الشَّرِّ فِي الدُّنْيَا، وَمِنَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ، وَتَوْجِيهُهَا إِلَىٰ طَرِيقِ الْخَلَاصِ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ... وَهُوَ وَاجِبٌ ثَقِيلٌ شَاقٌّ، حِينَ يُنَاطُ بِفَرْدٍ مِنَ الْبَشَرِ ـ مَهْمَا يَكُنْ نَبِيًّا رَسُولًا ـ فَالْبَشَرِيَّةُ مِنَ الضَّلَالِ وَالْعِصْيَانِ، وَالتَّمَرُّدِ، وَالْعُتُوِّ، وَالْعِنَادِ، وَالْإِصْرَارِ، وَالِالْتِوَاءِ، وَالتَّفَصِّي مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، بِحَيْثُ تَجْعَلُ

---

(١) سورة المدثر آية (١ ـ ٥).

مِنَ الدَّعْوَةِ أَصْعَبَ وَأَثْقَلَ مَا يُكَلَّفُهُ إِنْسَانٌ مِنَ الْمَهَامِّ فِي هَذَا الْوُجُودِ[1].

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، قَالَ فِي حَدِيثِهِ ﷺ: «**فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ قَاعِدٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجُئِثْتُ[2] مِنْهُ حَتَّىٰ هَوِيتُ[3] إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي**»، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ قَالَ: ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ[4].

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ فِي الصَّحِيحِ قَالَ ﷺ: «**فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي وَصُبُّوا[5] عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا**».

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٧٥٤/٦).

(٢) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٧٩/٢): أي فزِعْتُ ورُعِبْتُ.

(٣) هويت: أي سَقَطْتُ. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٧٩/٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب التفسير - سورة المدثر - رقم الحديث (٤٩٢٦) - وأخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ - رقم الحديث (١٦١).

(٥) قال الحافظ في الفتح (٧٤٣/٩): كأنَّ الحِكمَةَ في الصَّبِّ بعدَ التَّدثُّرِ طلبُ حُصُولِ السُّكُونِ لما وقع في الباطنِ من الانزعَاجِ، أو أنَّ العادَةَ أنَّ الرِّعْدَةَ تعقبُهَا الحُمَّىٰ، وقد عُرفَ مِنَ الطِّبِّ النبويِّ معالجتُهَا بالماءِ البَارِدِ.

قَالَ: فَدَثَّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، فَنَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾(١).

كَانَتْ هَذِهِ أَوَّلُ آيَاتٍ نَزَلَتْ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَوَامِرُ الْمُتَتَابِعَةُ الْقَاطِعَةُ إِيذَانًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَنَّ الْمَاضِي قَدِ انْتَهَىٰ بِمَنَامِهِ وَهُدُوئِهِ وَسَلَامِهِ، وَأَنَّهُ أَمَامَ عَمَلٍ جَدِيدٍ يَسْتَدْعِي الْيَقَظَةَ، وَالتَّشْمِيرَ، وَالْإِنْذَارَ، وَالْإِعْذَارَ، فَلْيَحْمِلِ الرِّسَالَةَ، وَيُنْذِرِ النَّاسَ، وَلْيَأْنَسْ بِالْوَحْيِ، وَلْيَصْبِرْ عَلَىٰ عَنَائِهِ، فَإِنَّهُ مَصْدَرُ رِسَالَتِهِ وَمَدَدُ دَعْوَتِهِ(٢).

فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَظَلَّ قَائِمًا بَعْدَهَا أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ عَامًا! لَمْ يَسْتَرِحْ، وَلَمْ يَسْكُنْ، وَلَمْ يَعِشْ لِنَفْسِهِ وَلَا لِأَهْلِهِ، قَامَ وَظَلَّ قَائِمًا عَلَىٰ دَعْوَةِ اللهِ... يَحْمِلُ عَلَىٰ عَاتِقِهِ الْعِبْءَ الثَّقِيلَ البَاهِظَ، وَلَا يَنُوءُ بِه، عِبْءُ الْأَمَانَةِ الْكُبْرَىٰ فِي هذهِ الأَرْضِ، عِبْءُ البَشَرِيَّةِ كُلِّهَا، عِبْءُ العَقِيدَةِ كُلِّهَا، وعِبْءُ الكِفَاحِ والجِهَادِ فِي مَيَادِينَ شَتَّىٰ... عَاشَ فِي المَعْرَكَةِ الدَّائِبَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ عَامًا، لَا يُلْهِيهِ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ فِي خِلَالِ هَذَا الأَمَدِ، مُنْذُ أَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ الْعُلْوِيَّ الْجَلِيلَ، وَتَلَقَّىٰ مِنْهُ التَّكْلِيفَ الرَّهِيبَ.. جَزَاهُ اللهُ عَنَّا وَعَنِ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا خَيْرَ الْجَزَاءِ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب وربك فكبر ـ رقم الحديث (٤٩٢٤) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ـ رقم الحديث (١٦١) (٢٥٧).

(٢) انظر فقه السِّيرة للشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ٩٠.

(٣) في ظلال القرآن (٦/٣٧٤٢ ـ ٣٧٤٣) لسيِّد قطب رَحِمَهُ اللهُ.

۞ نُزُولُ سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ:

ثُمَّ نزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ المُدَّثِّرِ مُباشَرَةً سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ، فقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[1].

وَالسُّورَةُ تَعْرِضُ صفْحَةً مِنْ تَارِيخِ هذِهِ الدَّعْوَةِ... تَبْدَأُ بِالنِّدَاءِ الْعُلْوِيِّ الكَرِيمِ بِالتَّكْلِيفِ الْعَظِيمِ... وَتُصَوِّرُ الإِعْدَادَ لَهُ وَالتَّهْيِئَةَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، وَالصَّلَاةِ، وَتَرْتِيلِ القُرْآنِ، والذِّكْرِ الخَاشِعِ المُتَبَتِّلِ، والاِتِّكَالِ عَلَىٰ اللهِ وحْدَهُ، والصَّبْرِ عَلَىٰ الأَذَىٰ، والهَجْرِ الجَمِيلِ للمُكَذِّبِينَ.

قُمْ.. قُمْ لِلْأَمْرِ العَظِيمِ الذِي ينتَظِرُكَ، والْعِبْءِ الثَّقِيلِ المُهَيَّأِ لَكَ. قُمْ لِلْجَهْدِ وَالنَّصَبِ وَالْكَدِّ وَالتَّعَبِ. قُمْ فَقَدْ مَضَىٰ وَقْتُ النَّوْمِ وَالرَّاحَةِ.. قُمْ فَتَهَيَّأْ لِهذَا الأَمْرِ واسْتَعِدَّ....

أَجَلْ مَضَىٰ عَهْدُ النَّوْمِ ومَا عَادَ مُنْذُ اليَوْمِ إِلَّا السَّهَرُ والتَّعَبُ والجِهَادُ الطَّوِيلُ الشَّاقُّ[2].

۞ افْتِرَاضُ قِيَامِ اللَّيْلِ:

وَكَانَ قِيَامُ الليْلِ فُرِضَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وعَلَىٰ أَصْحَابِهِ الكِرَامِ رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وأَصْحَابُهُ حَوْلًا كَامِلًا حتَّىٰ وَرِمَتْ أَقْدَامُهُمْ، فأَنْزَلَ

---

(١) سورة المزمل الآيات (١ ـ ٤).

(٢) في ظلال القرآن (٦/٣٧٤٤) لسيِّد قطب رَحِمَهُ اللهُ.

اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ...﴾[1]. فصَارَ قِيَامُ الليْلِ تَطَوُّعًا بعْدَ فَرْضِيَّتِهِ.

روَىٰ الإمَامُ مسلِمٌ في صَحِيحِهِ عنْ سَعِيدِ بنِ هِشَامٍ قالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنْبِئِينِي عَنْ قِيامِ رسُولِ اللهِ ﷺ. قالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؟.

قُلْتُ: بَلَىٰ. قالَتْ: فإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَيْلِ في أوَّلِ هذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، وَأَصحابُهُ حَوْلًا، وَأَمْسَكَ اللهُ خَاتِمَتَهَا[2] اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ، حتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ، في آخِرِ هذِهِ السُّورَةِ، التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ الليْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ[3].

قالَ الإمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: في قَوْلِ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا هَذَا، ظَاهِرُهُ أَنَّهُ صَارَ تَطَوُّعًا فِي حَقِّ رسولِ اللهِ ﷺ والأُمَّةِ، فأَمَّا الأُمَّةُ فهُوَ تَطَوُّعٌ في حَقِّهِمْ بِالْإِجْمَاعِ، وأمَّا النَّبِيُّ ﷺ فاختَلَفُوا في نَسْخِهِ في حَقِّهِ، والأَصَحُّ عِنْدَنَا نَسْخُهُ[4].

---

(١) سورة المزمل آية (٢٠).

(٢) قولُها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: وأمسَكَ الله خَاتِمَتَهَا: تعني أنها مُتَأَخِّرَةُ النُّزول عمَّا قبلها، وهي قوله تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ ...﴾ إلىٰ آخر سورة المزمل.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ـ باب جامع صلاة الليل، ومن نامَ عنه أو مرض ـ رقم الحديث (٧٤٦).

(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٢٣).

قَالَ أَحْمَد شَوْقِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

يَـــا رَبِّ صَـــلِّ وَسَـــلِّمْ مَـــا أَرَدْتَ عَلَـــىٰ
نَزِيـــلِ عَرْشِـــكَ خَيْـــرِ الرُّسْـــلِ كُلِّهِـــمِ
مُحْيِـــي اللَّيَـــالِي صَـــلَاةً لَا يُقَطِّعُهَـــا
إِلَّا بِـــدَمْعٍ مِـــنَ الْإِشْـــفَاقِ مُنْسَـــجِمِ
مُسَـــبِّحًا لَـــكَ جُـــنْحَ اللَّيْـــلِ مُحْـــتَمِلًا
ضُـــرًّا[1] مِـــنَ السُّـــهْدِ[2] أَوْ ضُـــرًّا مِـــنَ الْـــوَرَمِ
رَضِـــيَّةً نَفْسُـــهُ لَا تَشْـــتَكِي سَـــأَمًا
وَمَـــا مَـــعَ الْحُـــبِّ إِنْ أَخْلَصْـــتَ مِـــنْ سَـــأَمِ
يَـــا رَبِّ صَـــلِّ عَلَـــىٰ آلٍ لَـــهُ نُخَـــبٍ
جَعَلْـــتَ فِـــيهِمْ لِـــوَاءَ الْبَيْـــتِ وَالْحَـــرَمِ
بِـــيضُ الْوُجُـــوهِ وَوَجْـــهُ الـــدَّهْرِ ذُو حلـــكٍ
شُـــمُّ الْأُنُـــوفِ وَأَنْـــفُ الْحَادِثَـــاتِ حَمِـــي

❁ وَهْمُ ابنِ إِسْحَاقَ في نُزُولِ سُورَةِ الضُّحَىٰ:

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ فَتَرَ الوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتْرَةً مِنْ ذَلِكَ، حتَّىٰ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَأَحْزَنَهُ، فجَاءَهُ جِبْرِيلُ بِسُورَةِ الضُّحَىٰ، يُقْسِمُ لَهُ رَبُّهُ، وَهُوَ الَّذِي أَكْرَمَهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ، مَا وَدَّعَهُ، وَمَا قَلَاهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا

(١) الضَّرَة: شدة الحال. انظر لسان العرب (٨/٤٥).
(٢) السُّهْدُ: القليل من النوم. انظر لسان العرب (٦/٤٠٨).

سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[1].

۞ رِوَايَةُ الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا أَصَحُّ:

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ في صحِيحَيْهِمَا عنْ جُنْدُبِ بنِ سُفْيَانَ الْبَجَلِيِّ قَالَ: اشْتَكَىٰ رسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ[2] فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرُبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ...﴾[3].

وَعَلَىٰ هَذَا فَتَكُونُ سُورَةُ الضُّحَىٰ نَزَلَتْ فِي فَتْرَةٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ هذِهِ الْفَتْرَةِ الَّتِي كانَتْ بَعْدَ ابْتِدَاءِ الْوَحْيِ، فَإِنَّ تِلْكَ دَامَتْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرْتُ فِي فَتْرَةِ الوَحْيِ، وأَمَّا هذِهِ فَلَمْ تَكُنْ أَكْثَرَ مِنْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ، فاخْتَلَطَتَا وَاشْتَبَهَتَا

(١) سورة الضحىٰ ـ والخبر في سيرة ابن هشام (١/٢٧٨).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٣/٣١٣): هي أُمُّ جميلٍ العَوْرَاءُ بنتُ حَرْبٍ، وهي أُختُ أبي سُفيان بنِ حَرْبٍ، وامرأةُ أبي لَهَبٍ، وكانتْ هذهِ المرأةُ تَمْشِي بالنَّمِيمَةِ بينَ الناسِ، وكانت تُعَيِّرُ رسول الله ﷺ بالفَقْرِ، ثم كانت معَ كثْرَةِ مالِهَا تَحْمِلُ الحَطَبَ علىٰ ظَهْرِهَا، لشِدَّةِ بُخْلِهَا، وكانت تَطْرَحُ الشَّوْكَ بالليلِ علىٰ طريق النبيِّ ﷺ، وقد بشَّرَها الله تَعَالَىٰ بالنارِ فقال الله تَعَالَىٰ في سورة المسد آية (٥): ﴿...فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي في عُنُقِهَا حبلٌ منْ نَارٍ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التهجد ـ باب ترك القيام للمريض ـ رقم الحديث (١١٢٤) ـ وأخرجه في كتاب التفسير ـ باب سورة الضحىٰ ـ رقم الحديث (٤٩٥٠) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب ما لقي النبي ﷺ من أذىٰ المشركين ـ رقم الحديث (١٧٩٧) (١٥).

عَلَىٰ بَعْضِ العُلَمَاءِ[1].

ورَوَىٰ الطَّحَاوِيُّ في شَرْحِ مُشْكِلِ الآثَارِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ مَسْأَلَةً وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ، قُلْتُ: أَيْ رَبِّ قَدْ كَانَتْ قَبْلِيَ الأَنْبِيَاءُ، مِنْهُمْ مَنْ سَخَّرْتَ لَهُ الرِّيحَ، ثُمَّ ذَكَرَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ ﷺ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ، ثُمَّ ذَكَرَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ، ومِنْهُمْ ومِنْهُمْ يَذْكُرُ مَا أُعْطُوا.

قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ، أَيْ رَبِّ.

قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُ؟ قلتُ: بلَىٰ، أَيْ رَبِّ.

قالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا[2] فَأَغْنَيْتُ؟ قلتُ: بلَىٰ، أَيْ رَبِّ.

قالَ: أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْتُ عَنْكَ وِزْرَكَ؟

قلْتُ: بَلَىٰ، أَيْ رَبِّ»[3].

۞ مَرَاتِبُ الوَحْيِ وَشِدَّةُ نُزُولِهِ:

لِلْوَحْيِ مَرَاتِبُ شَتَّىٰ بَعْضُهَا أَيْسَرُ مِنْ بَعْضٍ:

إِحْدَاهَا: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، وَكَانَتْ مَبْدَأَ وَحْيِهِ ﷺ، وَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا

---

(١) وانظر فتح الباري (٩/٧٢٧)، والبداية والنهاية (٣/٢١).

(٢) العَائِلُ: الفَقِيرُ. انظر لسان العرب (٩/٥٠٢).

(٣) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار ـ رقم الحديث (٣٩٦٦).

جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ كَمَا ذَكَرْنَا آنِفًا.

ثَانِيهَا: مَا كَانَ يُلْقِيهِ الْمَلَكُ فِي رُوعِهِ وقَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ، فعَنْ ابنِ مسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «... إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ، نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللهِ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»(١).

ثَالِثُهَا: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَمَثَّلُ لَهُ المَلَكُ رَجُلًا، فيُخَاطِبُهُ حَتَّىٰ يَعِي عَنْهُ ما يَقُولُ لهُ، وفِي هذِهِ المَرْتَبَةِ كانَ يَرَاهُ الصَّحَابَةُ أَحْيَانًا(٢).

رَابِعُهَا: أَنَّهُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وكَانَ أَشَدُّهُ عَلَيْهِ، فيَتَلَبَّسُ بِهِ المَلَكُ حَتَّىٰ إِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ(٣) عَرَقًا فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، وحَتَّىٰ إِنَّ نَاقَتَهُ لَتَبْرُكُ بِهِ إِلَىٰ الأَرْضِ إِذَا كَانَ رَاكِبَهَا، ولَقَدْ جَاءَهُ ﷺ الوَحْيُ كَذَلِكَ، وَفَخِذُهُ عَلَىٰ فَخِذِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﵁ فَثَقُلَتْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ كَادَتْ تَرُضُّهَا(٤).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب البيوع ـ باب إن الله لا يُنالُ فَضْلُهُ بمَعْصِيَةٍ ـ رقم الحديث (٢١٨١) ـ وأبو نعيم في الحلية (١٠/٢٦) ـ وهو حديث صحيح بشواهده.

(٢) انظر حديث عمر ﵁ في: صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ـ رقم الحديث (٨)، وفيه أن النبي ﷺ قال: «يا عُمَرُ أتدرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قلتُ: اللهُ ورسوله أعلمُ، قال: «فإنَّهُ جبريلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمكمْ دِينكُمْ».

(٣) يتفصَّدُ: أي يسيلُ. انظر النهاية (٣/٤٠٣).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٩/١٣٨): تَرُضُّهَا: أي تَدُقُّهَا.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ الحَارِثَ بنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فقَالَ: يا رسُولَ اللهِ: كيفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فيُفْصَمُ عَنِّي، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وأحْيَانًا يتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي ما يَقُولُ**»[1].

وعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنهَا قَالَتْ: ولَقَدْ رأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ في اليَوْمِ الشَّدِيدِ[2] البَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[3].

وفي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عنْهَا أيضًا أَنَّهَا قالتْ:... فَأَخَذَهُ ما كانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ[4] عِنْدَ الْوَحْيِ، حتَّىٰ إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ[5] مِنَ العَرَقِ، في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ ـ رقم الحديث (٢) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الفضائل ـ باب عرق النبي ﷺ في البردِ، وحينَ يأتيهِ الوحيُ ـ رقم الحديث (٢٣٣٣) (٨٧).

(٢) قال الحافظ في الفتح (١/٣٢): وفي هذا دَلالةٌ علىٰ كثرةِ مُعَاناةِ التَّعَبِ، والكَرْبِ عند نُزُولِ الوحيِ، لِما فيه منْ مُخَالَفَةِ العَادَةِ، وهو كثرةُ العرقِ في شِدَّةِ البردِ، فإنهُ يشعُرُ بوجُودِ أمرٍ طارئٍ زَائدٍ علىٰ الطِّباعِ البَشَرِيَّةِ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ ـ رقم الحديث (٢) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الفضائل ـ باب عرق النبي ﷺ في البرد ـ رقم الحديث (٢٣٣٣).

(٤) تأْخُذُهُ البُرَحَاءُ: أي شِدَّةُ الكربِ مِن ثِقَلِ الوَحْيِ. انظر النهاية (١/١١٣).

(٥) قال الحافظ في الفتح (٩/٤١٨): الجُمانُ هو اللُّؤْلُؤُ، فشُبِّهَتْ قَطَرَاتُ عَرَقِهِ ﷺ بالجُمَانِ لمُشَابهتها في الصِّفَاتِ والحُسْنِ.

الْيَوْمِ الشَّاتِي مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ(١).

خَامِسُهَا: أَنَّهُ يَرَىٰ الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ التِي خُلِقَ عَلَيْهَا، فَيُوحِي إِلَيْهِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُوحِيَهُ، وهَذَا وَقَعَ لَهُ ﷺ مَرَّتَيْنِ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ ذَلِكَ فِي سُورَةِ النَّجْمِ(٢).

سَادِسُهَا: مَا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ، وَغَيْرِهَا(٣).

سَابِعُهَا: كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ لهُ مِنْهُ إِلَيْهِ بِلَا وَاسِطَةِ مَلَكٍ، كمَا كَلَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ مُوسَىٰ بْنَ عِمْرَانَ عليهِ السَّلامُ، وهذِهِ المَرْتَبَةُ هِيَ ثَابِتَةٌ لِمُوسَىٰ عليهِ السَّلامُ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب التفسير - باب قوله تَعَالَىٰ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا...﴾ - رقم الحديث (٤٧٥٠) - ومسلم في صحيحه - كتاب التوبة - باب في حديث الإفك - رقم الحديث (٢٧٧٠).

(٢) أخرج الإمام مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب معنىٰ قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ولقدْ رآهُ نزلةً أخرىٰ - رقم الحديث (١٧٧) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «**لمْ أرَهُ** - يعني جبريل عليهِ السَّلامُ - **علىٰ صُورتهِ التي خُلِقَ عليها غيرَ هاتينِ المَرَّتَيْنِ، رأيته مُنْهَبطًا مِنَ السماء سَادًّا عِظَمُ خلقهِ ما بين السماء إلىٰ الأرض**».

وروىٰ الترمذي في جامعه بسند صحيح - كتاب التفسير - باب ومن سورة والنجم - رقم الحديث (٣٥٦٢) عن مَسْروقٍ قال: عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت:... لم يَرَ محمّد ﷺ جبريل عليهِ السَّلامُ في صُورتهِ إلا مرَّتين: مرَّة عند سِدْرَة المُنْتَهَىٰ، ومرَّة في جِيَادٍ لَهُ ستمائة جَنَاحٍ قد سَدَّ الأُفُق.

(٣) أخرج ذلك البخاري في صحيحه - كتاب مناقب الأنصار - باب المعراج - رقم الحديث (٣٨٨٧) - ومسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب الإسْرَاءِ برسول الله ﷺ إلىٰ السَّموات وفرض الصلوات - رقم الحديث (١٦٢).

قَطْعًا بِنَصِّ القُرْآنِ[١]، وَثُبُوتُهَا لِنَبِيِّنَا ﷺ هُوَ فِي حَدِيثِ المِعْرَاجِ[٢].

وقَدْ زَادَ بَعْضُهُمْ مرْتَبَةً ثَامِنَةً، وهيَ: تَكْلِيمُ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُ كِفَاحًا مِنْ غَيْرِ حِجَابٍ، وهذَا عَلَىٰ مَذْهَبِ مَنْ يَقُولُ: إنَّهُ ﷺ رَأَىٰ ربَّهُ تبارَكَ وتَعالَىٰ، وهِيَ مَسْأَلَةُ خِلَافٍ بَيْنَ السَّلَفِ والخَلَفِ[٣].

قالَ الإمَامُ البَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: الوَحْيُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَىٰ أنْوَاعٍ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ**﴾[٤]، قالَ بعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ:

الوَحْيُ الأَوَّلُ: مَا أَرَاهُمْ فِي المَنَامِ، قالَ عبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ: رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ وَقَرَأَ: ﴿**إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ**﴾[٥].

وقَالَ غَيْرُ واحِدٍ منْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ**﴾

---

(١) قال تَعَالَىٰ في سورة الأعراف آية (١٤٣): ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب المعراج ـ رقم الحديث (٣٨٨٧) ـ وأخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلىٰ السموات وفرض الصلوات ـ رقم الحديث (١٦٢).

(٣) انظر زاد المعاد لابن القيم (١/٧٩).

(٤) سورة الشورىٰ آية (٥١).

(٥) سورة الصافات آية (١٠٢).

كَمَا كَلَّمَ مُوسَىٰ عليهِ السَّلامُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ حتَّىٰ قالَ: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾[1]، وقولُهُ تَعالَىٰ: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ فهُوَ إرْسَالُ الرُّوحِ الأمِينِ، كمَا قالَ تَعالَىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾[2].

وقد كان لنبينا ﷺ جميع هذه الأنواع، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ في رؤياه: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾[3].

۞ خَوْفُ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ نِسْيَانِ القُرْآنِ:

وكانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَخَافُ مِنْ نِسْيَانِ الوَحْيِ، فَقَدْ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، في قولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ قالَ: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعالِجُ[4] مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وكانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ.. فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾[5] قالَ: جَمْعُهُ في صَدْرِكَ وَتَقْرَأُهُ،.. ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾..، قالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فكانَ رسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إذَا أتَاهُ جِبْرِيلُ عليهِ السَّلامُ اسْتَمَعَ، فإذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كمَا أقْرَأَهُ[6].

---

(١) سورة الأعراف آية (١٤٣).

(٢) سورة الشعراء الآية (١٩٣ - ١٩٤).

(٣) سورة الفتح آية (٢٨) - وانظر كلام الإمام البغوي في شرح السنة (٣٢٤/١٣).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٤٣/١): المعالجة: هي محاولة الشيء بمشقة.

(٥) سورة القيامة آية (١٦ - ١٧).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب بدء الوحي - رقم الحديث (٥) - وأخرجه في كتاب التفسير - باب فإذا قرآناهُ فاتَّبعْ قُرْآنَهُ - رقم الحديث (٤٩٢٩) - ومسلم في صحيحه - كتاب الصلاة - باب الاستماع للقراءة - رقم الحديث (٤٤٨) (١٤٨).

۞ أَدْوَارُ الدَّعْوَةِ في حيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ومَرَاحِلُهَا:

مُنْذُ أَنْ تَلَقَّىٰ النبيُّ ﷺ أَمْرَ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ في قولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ... وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ قامَ مِنْ فَوْرِهِ يدْعُو النَّاسَ إلىٰ عِبَادَةِ الله وحْدَهُ، ويَعْرِضُ عليهِمُ الأَخْذَ بهَذَا الدِّينِ الذِي أَرْسَلَهُ اللهُ تعَالَىٰ بِهِ، وقدْ مرَّتِ الدَّعْوَةُ في حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ مُنْذُ بِعْثَتِهِ إلىٰ وَفَاتِهِ بِفَتْرَتَيْنِ، تَمْتَازُ إِحْدَاهُمَا عنِ الأُخْرَىٰ تَمَامَ الامْتِيَازِ، وهُمَا:

١ ـ الفتْرَةُ المَكِّيَّةُ: اسْتَمَرَّتْ ثلاثَ عَشْرَةَ سَنَةٍ تَقْرِيبًا.

٢ ـ الفترَةُ المَدَنِيَّةُ: اسْتَمَرَّتْ عَشْرَ سَنَوَاتٍ كَامِلَةٍ.

وتَشْتَمِلُ كُلٌّ مِنَ الفَتْرَتَيْنِ عَلَىٰ مَرَاحِلَ، لِكُلٍّ منْهَا خِصَائِصُ تَمْتَازُ بِهَا عَنْ غَيْرِهَا، ويظْهَرُ ذلِكَ جَلِيًّا بَعْدَ النَّظَرِ في الظُّرُوفِ التِي مرَّتْ بها الدَّعْوَةُ خِلَالَ الدَّوْرَيْنِ.

يُمْكِنُ تَقْسِيمُ الفَتْرَةِ المَكيَّةِ إلَىٰ مَرْحلَتَيْنِ:

١ ـ المَرْحَلَةُ الأُولَىٰ: الدَّعْوَةُ السِّرِّيَّةُ، واسْتَمَرَّتْ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ.

٢ ـ المَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: الدَّعْوَةُ جَهْرًا، وبِاللِّسَانِ فَقَطْ، دُونَ قِتَالٍ، مِنْ بِدَايَةِ السَّنَةِ الرَّابعَةِ للبِعْثَةِ، حتَّىٰ الهِجْرَةِ إلَىٰ المَدِينَةِ.

أَمَّا الفَتْرَةُ المَدَنِيَّةُ فيُمْكِنُ تَقْسِيمُهَا إِلَىٰ ثَلَاثِ مَرَاحِلَ:

* **المَرْحَلَةُ الأولَىٰ:**

مَرْحَلَةٌ أُثِيرَتْ فِيها القَلَاقِلُ والفِتَنُ، وأُقِيمَتْ فيهَا العَرَاقِيلُ منَ الدَّاخِلِ، وزَحَفَ فيهَا الأعْدَاءُ إِلَىٰ المَدِينَةِ لِاسْتِئْصَالِ خَضْرَائِهَا مِنَ الخَارِجِ. واسْتَمَرَّتْ هذِهِ المَرْحَلَةُ إِلَىٰ عَامِ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ سنةَ سِتٍّ مِنَ الهِجْرَةِ.

* **المَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ:**

مرْحَلَةُ الهُدْنَةِ معَ الزَّعَامَةِ الوَثَنِيَّةِ، واسْتَمَرَّتْ حتَّىٰ فَتْحِ مكَّةَ، في رَمَضَانَ سنةَ ثَمَانٍ منَ الهِجْرَةِ، وهِيَ مَرْحَلَةُ دَعْوَةِ المُلُوكِ، والأُمَرَاءِ إِلَىٰ الإِسْلَامِ.

* **المَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ:**

مرحَلَةُ دُخُولِ النَّاسِ في دِينِ اللهِ أفْوَاجًا، وهِيَ مرْحَلةُ تَوَافُدِ القَبَائِلِ والأقْوَامِ إِلَىٰ المَدِينَةِ، واسْتَمَرَّتْ إِلَىٰ انْتِهَاءِ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ في رَبِيعِ الأَوَّلِ سَنَةَ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ مِنَ الهِجْرَةِ[1].

** ** **

---

(١) انظر الرحيق المختوم ص ٧٤.

الدَّعْوَةُ السِّرِّيةُ

بَدَأ النبيُّ ﷺ يدْعُو إلَىٰ الإسْلَامِ سِرًّا[١] لِئَلَّا يُفَاجِئَ أهْلَ مَكَّةَ بِما يُهَيِّجُهُمْ علَيْهِ، فَجَعَلَ يَعْرِض الإسْلامَ عَلَىٰ أَلْصَقِ الناسِ بِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وأَصْدِقَائِهِ، ويَعْرِضُهُ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ يَتَوَسَّمُ فِيهِ خَيْرًا مِمَّنْ يَعْرِفُهُمْ بِحُبِّ الحَقِّ، وَالخَيْرِ، ويَعْرِفُونَهُ بِالصِّدْقِ والصَّلَاحِ[٢].

۞ إسْلَامُ خَدِيجَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

كانَ أوَّلُ مَنْ آمنَ به ﷺ مِنَ النِّسَاءِ، بَلْ أوَّلُ مَنْ آمنَ به عَلَىٰ الإطْلَاقِ زَوْجُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

قالَ ابنُ الأثِيرِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: خَدِيجَةُ أوَّلُ خَلْقِ اللهِ أَسْلَمَ بِإجْمَاعِ المُسْلِمِينَ، لمْ يَتَقَدَّمْهَا رَجُلٌ ولا امْرَأَةٌ[٣].

(١) قلتُ: ممَّا يدلُّ علىٰ أن الدَّعوة أول ما بدأت كانت سِرِّية، ما رواه الإمام مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٨٣٢) عن عمرو بن عَبَسَة رضي الله عنه قال:... سمعتُ بِرَجُلٍ بمكَّة يخبرُ أخبارًا، فقعَدْتُ علىٰ راحِلَتِي، فقدمتُ عليه، فإذا رسول الله ﷺ مُسْتَخْفِيًا....

(٢) الرحيق المختوم ص ٧٥.

(٣) انظر أسد الغابة (٥/٢٦٠).

وقالَ الحَافِظُ في الإِصَابَةِ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ زَوْجُ النبيِّ ﷺ، وأَوَّلُ مَنْ صَدَّقَتْ بِبِعْثَتِهِ مُطْلَقًا(١).

وقالَ ابنُ إِسْحَاقَ: وآمَنَتْ به خدِيجَةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ، وصَدَّقَتْ بِمَا جَاءَهُ مِنَ اللهِ، ووَازَرَتْهُ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وكانَتْ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وبِرَسُولِهِ، وصدَّقَ بِمَا جَاءَ مِنْهُ، فخَفَّفَ اللهُ بِذَلِكَ عنْ نَبِيِّهِ ﷺ، فكان رَسُولُ اللهِ ﷺ لا يَسْمَعُ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُهُ مِنْ رَدٍّ عليْهِ، وتَكْذِيبٍ لَهُ، فَيُحْزِنُهُ ذَلِكَ، إِلَّا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا إِذَا رَجَعَ إِلَيْهَا، تُثَبِّتُهُ وتُخَفِّفُ عَلَيْهِ، وتُصَدِّقُهُ وتُهَوِّنُ عليْهِ أَمْرَ النَّاسِ، رحِمَهَا اللهُ تَعَالَىٰ(٢).

۞ إِسْلامُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه(٣):

ثُمَّ أَسْلَمَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه ابْنُ عَمِّ النبيِّ ﷺ، ولَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ حِينَ أَسْلَمَ، وكَانَ ابْنَ عَشْرِ سِنِينَ عَلَىٰ الصَّحِيحِ(٤)، ولَمْ يَعْبُدِ الأَوْثَانَ قَطُّ لِصِغَرِهِ،

---

(١) انظر الإصابة (٨/٩٩).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/٢٧٧).

(٣) هو عَلِيُّ بن أَبِي طَالِبٍ، ابنُ عَمِّ النبي ﷺ، وهو أَوَّلُ من أَسْلَمَ مِنَ الصِّبْيَانِ، وُلِد قبلَ البِعْثَةِ بعشرِ سنينَ علىٰ الصَّحيح، فرُبِّيَ في حِجْرِ النبي ﷺ ولم يُفَارِقْهُ، وشَهِدَ معه المَشَاهِدَ كُلَّها إلا غزْوَةَ تَبُوك، وزوَّجهُ ابنتهُ فاطمةَ، منَاقِبُهُ وفضائِلُهُ كثيرةٌ، حتَّىٰ قال الإمام أحمدُ: لم يُنْقَلْ لِأَحَدٍ منَ الصَّحابَةِ ما نُقلَ لِعَلِيٍّ، قُتل رضي الله عنه في صَبِيحَةَ يومِ الجُمُعة، في السابع عشر من رمضان، سنة أربعين من الهجرة. انظر الإصابة (٤/٤٦٤).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٧/٥٦٦): الأصحُّ في سِنِّ عليّ رضي الله عنه حينَ المبعثِ كانَ عشْرَ سنين.

وكَانَ فِي حِجْرِ[1] النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الصِّبْيَانِ[2].

رَوَىٰ الحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ وابْنُ إسْحَاقَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ مُجَاهِدِ بنِ جَبْرٍ قالَ: كانَ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، ومِمَّا صَنَعَ اللهُ لَهُ، وأَرَادَهُ بِهِ مِنَ الخَيْرِ: أَنَّ قُرَيْشًا أَصَابَتْهُمْ أَزْمَةٌ شَدِيدَةٌ، وكَانَ أَبُو طَالِبٍ ذَا عِيَالٍ كَثِيرٍ، فقَالَ رسُولُ الله ﷺ لِعَمِّهِ العَبَّاسِ، وكانَ مِنْ أَيْسَرِ بَنِي هَاشِمٍ: يَا أَبَا الفَضْلِ إنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ العِيَالِ، وقَدْ أَصابَ النَّاسَ مَا تَرَىٰ مِنْ هَذِهِ الأَزْمَةِ، فانْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِ نُخَفِّفْ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ، آخُذُ مِنْ بَنِيهِ رَجُلًا، وتَأْخُذُ أَنْتَ رَجُلًا فَنَكْفُلُهُمَا عَنْهُ.

فقالَ العَبَّاسُ رضي الله عنه: نَعَمْ، فانْطَلَقَا حتَّىٰ أَتَيَا أَبَا طَالِبٍ، فقَالَا لَهُ: إنَّا نُرِيدُ أَنْ نُخَفِّفَ عنكَ مِنْ عِيَالِكَ حتَّىٰ تَنْكَشِفَ عنِ النَّاسِ مَا هُمْ فِيهِ، فقالَ لَهُمَا أَبُو طَالِبٍ: إِذَا تَرَكْتُمَا لِي عَقِيلًا فَاصْنَعَا مَا شِئْتُمَا، فأَخَذَ رسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيًّا رضي الله عنه فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وأَخَذَ العَبَّاسُ رضي الله عنه جَعْفَرًا رضي الله عنه فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ عَلِيٌّ رضي الله عنه مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حتَّىٰ بَعَثَهُ اللهُ نَبِيًّا، فاتَّبَعَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه وَآمَنَ بِهِ، وَصَدَّقَهُ، وأَخَذَ العَبَّاسُ رضي الله عنه جَعْفَرًا رضي الله عنه، ولمْ يَزَلْ جَعْفَرُ رضي الله عنه معَ العَبَّاسِ رضي الله عنه حتَّىٰ أَسْلَمَ، واسْتَغْنَىٰ عَنْهُ[3].

---

(١) يُقالُ: نَشَأ فلانٌ في حِجْرِ فُلانٍ: أي حَفْظِهِ وسِتْرِه. انظر لسان العرب (٣/٥٩).

(٢) انظر الرَّوْض الأُنُف (١/٤٢٦) - ودلائل النبوة للبيهقي (٢/١٦١ - ١٦٥) - سيرة ابن هشام (١/٢٨٢).

(٣) أخرج ذلك: الحاكم في المستدرك - كتاب معرفة الصحابة - باب كفالة النبي ﷺ لعيال أبي طالب - رقم الحديث (٦٥٢٢) - وابن إسحاق في السيرة (١/٢٨٢).

❁ إِسْلامُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنه[(١)]:

ثمَّ أسلَمَ مَوْلاهُ[(٢)] زيدُ بنُ حَارِثَةَ الكَلْبيّ رضي الله عنه، وهُوَ أوَّلُ مَنْ أسْلَمَ مِنَ المَوَالِي، ويُقَالُ لَهُ حِبُّ النبيِّ ﷺ، وهُوَ الذِي آثَرَ رسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ وَالِدِهِ وأهْلِهِ.

وسَبَبُ وُجُودِهِ عِنْدَ النبيِّ ﷺ ما رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ في جَامِعِهِ وَحَسَّنَهُ، وابْنُ إسْحَاقَ في السِّيرَةِ: أنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ[(٣)] قَدِمَ مِنَ الشَّامِ بِرَقِيقٍ، فِيهِمْ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه، فدَخَلَتْ عليهِ خدِيجَةُ بنتُ خُوَيْلِدَ، فقالَ لهَا: اخْتَارِي أيَّ هَؤُلَاءِ الغِلْمَانِ شِئْتِ، فهُوَ لَكِ، فاختارَتْ زَيْدًا فأخَذَتْهُ، فلمَّا رآهُ النبيُّ ﷺ أعْجَبَهُ فَاسْتَوْهَبَهُ مِنْهَا، فَوَهَبَتْهُ لَهُ، فأعْتَقَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ وتَبَنَّاهُ، فكانَ يُدْعَىٰ زَيْدَ بنَ مُحَمَّدٍ، وذلِكَ قَبْلَ أنْ يُوحَىٰ إلَيْهِ، وكانَ أبُوهُ حَارِثَةُ قَدْ جَزِعَ عليهِ جَزَعًا

---

(١) هو زَيْدُ بن حَارِثَةَ بن شُرَحْبِيلَ، أبو أسامة، وحِبُّ رسولِ اللهِ ﷺ، كان لخديجةَ أوَّلًا، فوَهَبَتْهُ إلىٰ رسول الله ﷺ قَبْلَ النُّبوةِ، فتَبَنَّاهُ، فكان يُقال له: زيدُ بن محمد، ولم يَزَل كذلك حتىٰ أنزل الله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ «الأحزاب آية ٥»، وهاجرَ وشَهِدَ بَدْرًا وما بَعْدَها، إلىٰ أن بَعَثَهُ رسول الله ﷺ عامَ ثمانٍ للهجرةِ أمِيرًا علىٰ جيش مُؤْتَةَ، فلقُوا الروم هنالك في جَمْعٍ عَظِيمٍ في معركة مُؤْتَةَ، فقُتِلَ هنالكَ رضي الله عنه، وعُمْرُه خمس وخمسُونَ سنة. انظر الإصابة (٢/٤٩٤).

(٢) المَوْلَىٰ: هو المَمْلُوكُ الذي أُعْتِقَ. انظر النهاية (٥/١٩٨).

(٣) هو حَكِيمُ بنُ حِزَامِ بن خُوَيْلِدٍ، ابنُ أخِي خَدِيجة بنتِ خُويلد زَوْجِ النبي ﷺ، وُلد في جَوْفِ الكعبَةِ، وكانَ مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ، تأخَّرَ إسلامه حتىٰ أسلَمَ عامَ الفَتْحِ.
وكانَ مِنَ المُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وأعطاهُ رسُول الله ﷺ يومَ حُنَيْن مِائَةَ بَعِيرٍ، ثم حَسُنَ إسْلامُهُ.
مات رضي الله عنه سنة (٦٠ هـ)، وقيل غير ذلك. انظر أسد الغابة (٢/٤٤).

شَدِيدًا، وبكَىٰ عليهِ حِينَ فَقَدَهُ، وقالَ فِيهِ:

بَكَيْتُ عَلَىٰ زَيْدٍ ولَمْ أدْرِ مَا فَعَلْ
أحَيٌّ فَيُرْجَىٰ أمْ أتَىٰ دُونَهُ الأَجَلْ

فَوَاللهِ مَا أدْرِي وإنِّي لسَائِلٌ
أغَالَكَ بعْدِي السَّهْلُ أمْ غَالَكَ الجَبَلْ

ويَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لَكَ الدَّهْرُ أَوْبَةٌ[1]
فَحَسْبِي مِنَ الدُّنْيَا رُجُوعُكَ لِي بَجَلْ[2]

تُذَكِّرُنِيهِ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا
وَتَعْرِضُ ذِكْرَاهُ إذَا غَرْبُهَا أَفَلْ[3]

وإنْ هَبَّتِ الأَرْوَاحُ هَيَّجْنَ ذِكْرَهُ
فَيَا طُولَ مَا حُزْنِي عَلَيْهِ وَمَا وَجَلْ

سَأُعْمِلُ نَصَّ[4] العَيْشِ فِي الأَرْضِ جَاهِدًا
ولَا أسْأَمُ التَّطْوَافَ أوْ تَسْأَمُ الإِبِلْ

---

(١) الأوب: الرجوع. انظر لسان العرب (٢٥٨/١).

(٢) البَجَل: العجب. انظر لسان العرب (٣١٩/١).

(٣) أفلت الشمس: غابت. انظر لسان العرب (١٦٧/١).

ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام آية (٧٦) على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾.

(٤) النَّصُّ: منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها. انظر لسان العرب (١٦٣/١٤).

حَيَــــاتِي أَوْ تَـــأْتِي عَلَـــيَّ مَنِيَّتِـــي

فَكُـــلُّ امْـــرِئٍ فَـــانٍ وَإِنْ غَـــرَّهُ الأَمَـــلْ

فلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ بِمَكَّةَ قدِمَهَا لِيَفْدِيَهُ، فدَخَلَ حَارِثَةُ وَأَخُوهُ عَلَىٰ النبيِّ ﷺ فقالَ: يا ابنَ عبدِ اللهِ! يا ابنَ عبدِ المُطَّلِبِ! يا ابنَ هَاشِمٍ! يا ابنَ سَيِّدِ قَوْمِه! أَنْتُمْ أَهْلُ الحَرَمِ، وجِيرَانُهُ وعِنْدَ بَيْتِهِ، تَفُكُّونَ العَانِي، وتُطْعِمُونَ الأَسِيرَ، جِئْنَاكَ فِي ابْنِنَا عِنْدَكَ، فَامْنُنْ عَلَيْنَا، وَأَحْسِنْ إِلَيْنَا في فِدَائِهِ، فإِنَّا سَنَرْفَعُ لَكَ فِي الفِدَاءِ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ هُوَ»؟ قَالَا: زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَدَعَى رسولُ اللهِ ﷺ زَيْدًا، فقالَ لَهُ: «إِنْ شِئْتَ فَأَقِمْ عِنْدِي، وإِنْ شِئْتَ فَانْطَلِقْ مَعَ أَبِيكَ»، فقالَ زَيْدٌ: بَلْ أُقِيمُ عِنْدَكَ، ومَا أَنَا بِالذِي أَخْتَارُ عَلَيْكَ أحدًا، أَنْتَ مِنِّي بِمَكَانِ الأبِ وَالأمِّ، فقَالَا: وَيْحَكَ يَا زَيْدُ أَتَخْتَارُ العُبُودِيَّةَ عَلَىٰ الحُرِّيَّةِ، وعَلَىٰ أَبِيكَ وعَمِّكَ وأَهْلِ بَيْتِكَ؟ قالَ: نَعَمْ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ شَيْئًا، ما أَنَا بِالذِّي أَخْتَارُ عَلَيْهِ أحدًا أبدًا، فَلَمْ يَزَلْ زَيْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حتَّىٰ بَعَثَهُ اللهُ تَعالَىٰ، فَصَدَّقَهُ، وأَسْلَمَ، وصَلَّىٰ مَعَهُ، فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِآبَآئِهِمۡ﴾[1] قالَ: أَنَا زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ[2].

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم (٥).

(٢) أخرج ذلك: الترمذي في جامعه ـ كتاب المناقب ـ باب مناقب زيد بن حارثة رضي الله عنه ـ رقم الحديث (٤١٤٩) ـ وابن إسحاق في السيرة (١/٢٨٤).

بَنَاتُ النَّبِيِّ ﷺ:

كذَلِكَ سَارَعَ إِلَىٰ الإِسْلَامِ بَنَاتُ النبيِّ ﷺ، لأَنَّهُ لا شَكَّ في تَمَسُّكِهِنَّ قَبْلَ البِعْثَةِ بِمَا كانَ عَلَيْهِ أَبُوهُنَّ مِنَ الاسْتِقَامَةِ، وحُسْنِ السِّيرَةِ، والتَّنَزُّهِ عمَّا كانَ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ مِنْ عِبادَةِ الأَصْنَامِ، والوُقُوعِ في الآثَامِ، وفي اقْتِدَائِهِنَّ بِأُمِّهِنَّ في المُسَارَعَةِ إلىٰ الإِيمَانِ.

قالَ ابنُ إسْحَاقَ: وأمَّا بَنَاتُهُ ﷺ فكُلُّهُنَّ أدْرَكْنَ الإِسْلَامَ، فأَسْلَمْنَ وهَاجَرْنَ مَعَهُ ﷺ[1].

إسْلَامُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه[2]:

أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ خَارِجِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ أبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بالرَّسُولِ ﷺ مِنَ الرِّجَالِ البَالِغِينَ الأَحْرَارِ، وكانَ صَدِيقًا للنبيِّ ﷺ قَبْلَ البِعْثَةِ، وهُوَ أَصْغَرُ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ بِسَنَتَيْنِ وَنِصْفٍ تَقْرِيبًا، وكانَ يَعْلَمُ مِنْ صِدْقِهِ، وأَمَانَتِهِ، وحُسْنِ سَجِيَّتِهِ، وكَرَمِ أَخْلَاقِهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ الكَذِبِ عَلَىٰ

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٢٢٧).

(٢) هوَ عبد الله بن عثمان بن عامرٍ القُرَشِيُّ التَّيْمِيُّ، صدِّيقُ هذِهِ الأمةِ، وخَلِيفَةُ رسول الله ﷺ.
ولد بعد الفِيل بسنتينِ وأشهر، صَحِبَ النبي ﷺ قبلَ البِعْثَةِ، وسبقَ إلىٰ الإيمان، واستَمرَّ معهُ طُولَ إقامَتِهِ بمَكَّةَ، ورَافَقَهُ في الهِجْرَةِ، وفي الغارِ، وفي المَشَاهِدِ كُلِّهَا إلىٰ أن ماتَ ﷺ، كان لَقَبُهُ عَتِيقًا، واشتهرَ بهِ، وهو أفضَلُ هذهِ الأمَّة بعد نَبِيِّها ﷺ، ومناقِبُهُ تَفُوقُ الحَصْرَ.
تُوُفي رضي الله عنه يوم الاثنين في جمادىٰ الأولىٰ سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة. انظر الإصابة (٤/١٤٥).

الخَلْقِ، ولِهَذَا مَا إِنْ ذَكَرَ لَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ بَادَرَ إِلَىٰ تَصْدِيقِهِ، ولَمْ يَتَلَعْثَمْ.

قالَ الرَّسُولُ ﷺ عنهُ: **«مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ عِنْدَهُ كَبْوَةٌ[1]، ونَظَرٌ، وَتَرَدُّدٌ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، مَا عَكَمَ[2] عَنْهُ حِينَ ذَكَرْتُهُ لَهُ، وَمَا تَرَدَّدَ فِيهِ»**[3].

◈ الأَدِلَّةُ عَلَى تَقَدُّمِ إِسْلَامِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه:

قُلْتُ: الأدِلَّةُ كَثِيرَةٌ عَلَىٰ أنَّ أبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرِّجَالِ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ في جَامِعِهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه عِنْدَمَا بُويِعَ بِالْخِلَافَةِ: أَلَسْتُ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَا؟ أَلَسْتُ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ؟[4].

ورَوَىٰ الحاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ والإمَامُ أحْمَدُ في فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ ولَهُ شَاهِدٌ عِنْدَ البَغَوِيِّ في مُعْجَمِ الصَّحَابَةِ وسَنَدُهُ حَسَنٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ

---

(١) الكَبْوَةُ: هي الوَقْفَةُ كَوَقْفَةِ العَاثِرِ، أو الوَقْفَةُ عِنْدَ الشَّيْءِ يكرَهُهُ الإنسان. انظر النهاية (١٢٧/٤).

(٢) قال ابن هشام في السيرة (٢٨٨/١): عَكَمَ: أي تَلَبَّث.

(٣) أورد هذا الحديث ابن الأثير في جامع الأصول (٥٨٥/٨) - وعزاه إلىٰ الديلمي في مسند الفردوس عن ابن مسعود رضي الله عنه - وأخرجه ابن إسحاق في السيرة (٢٨٨/١) وإسناده منقطع.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه - كتاب المناقب - باب في مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه - رقم الحديث (٣٩٩٧) - وأورده ابن الأثير في جامع الأصول - رقم الحديث (٦٤٢٢).

قَالَ: سَأَلْتُ ابنَ عبَّاسٍ ﷺ: مَنْ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ؟، فقالَ ﷺ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ حَسَّانٍ ﷺ:

إِذَا تَـذَكَّرْتَ شَـجْوًا[1] مِـنْ أَخِـي ثِقَـةٍ ... فَـاذْكُرْ أَخَـاكَ أَبَـا بَكْـرٍ بِمَـا فَعَـلَا

التَّـالِيَ الثَّـانِيَ المَحْمُـودُ مَشْـهَدُهُ ... وأَوَّلُ النَّـاسِ مِنْهُمْ صَـدَّقَ الرُّسُـلَا

والثَّانِيَ اثْنَيْنِ فِي الغَارِ المُنِيفِ وَقَدْ ... طَـافَ العَـدُوُّ بِـهِ إِذْ صَـعَّدَ الجَبَلَا

وكَـانَ حِـبَّ[2] رَسُـولِ اللهِ قَدْ عَلِمُـوا ... مِـنَ البَرِيَّـةِ لَـمْ يَعْـدِلْ بِـهِ رَجُـلَا

خَيْــرُ البَرِيَّـــةِ أَتْقَاهَــا وأَرْأَفُهَــا ... بَعْـدَ النَّبِـيِّ وأَوْفَاهَـا بِمَـا حَمَـلَا[3]

قالَ الإمَامُ السُّهَيْلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وفي مَدْحِ حَسَّانَ الذِي قَالَ فِيهِ، وسَمِعَهُ النبيُّ ﷺ، ولَمْ يُنْكِرْهُ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرِّجَالِ[4].

وَرَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ عنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وقالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي**

---

(١) الشَّجْوُ: الحُزْنُ. انظر النهاية (٢/٤٠١).

(٢) الحِبُّ: أي مَحْبُوبُهُ. انظر النهاية (١/٣١٦).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب استنشاده ﷺ في مَدْحِ الصديق ـ رقم الحديث (٤٤٧٠) ـ وأخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة رقم الحديث (١٠٣) ـ وأخرجه البغوي في معجم الصحابة عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ بسند حسن ـ وانظر الأبيات في ديوان حسان بن ثابت ﷺ ص ١٧٩.

(٤) الرَّوْض الأُنُف (١/٤٣١).

بِنَفْسِهِ ومَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي؟» مَرَّتَيْنِ[1].

۞ مَنْزِلَتُهُ ﷺ فِي قُرَيْشٍ وَدَعْوَتُهُ لِلْإِسْلَامِ:

قالَ ابنُ إسْحَاقَ: فَلَمَّا أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ، أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ، ودَعَا إِلَىٰ اللهِ وإِلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ، . . .وكانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مُؤَلَّفًا[2] لِقَوْمِهِ، مُحَبَّبًا سَهْلًا، وكَانَ أَنْسَبَ[3] قُرَيْشٍ لِقُرَيْشٍ، وأَعْلَمَ قُرَيْشٍ بِهَا وَبِمَا، كَانَ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وكانَ رَجُلًا تَاجِرًا، ذَا خُلُقٍ ومَعْرُوفٍ، وكانَ رِجَالُ قَوْمِهِ يَأْتُونَهُ، ويَأْلَفُونَهُ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الأَمْرِ، لِعِلْمِهِ، وتِجَارَتِهِ، وحُسْنِ مُجَالَسَتِهِ، فَجَعَلَ يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وإِلَىٰ الإِسْلَامِ مَنْ وَثِقَ به مِنْ قَوْمِهِ، مِمَّنْ يَغْشَاهُ، ويَجْلِسُ إِلَيْهِ[4].

** ** **

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ـ باب قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا» ـ رقم الحديث (٣٦٦١).

(٢) قال الإمام السندي في شرح المسند (١٥/١٠٧): أي هُوَ مَحَلٌّ ومَظِنَّةٌ للإِلْفِ، لحُسْنِ خُلُقِهِ، وكَرَمِ طَبْعِهِ، ومَحَبَّتِهِ لغَيْرِهِ، مثلَ ما يُحِبُّ لنفسِهِ.

(٣) يُقالُ: رجُلٌ نَسَّابَةٌ: أي بَليغُ العِلْمِ بالأنسَابِ. انظر النهاية (٥/٣٩).

(٤) انظر سيرة ابن هشام (١/٢٨٦).

ذِكْرُ مَنْ أسْلَمَ عَلَى يَدِ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه

فأَسْلَمَ بِدُعَائِهِ رضي الله عنه: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ(١)، والزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ(٢)، وعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ(٣)، وسَعْدُ بنُ أبِي وقَّاصٍ(٤)، ....

---

(١) هو عُثْمانُ بنُ عَفَّان بن أَبِي العَاصِ، أميرُ المؤمنينَ، وُلدَ بعدَ الفِيلِ بِستٍّ سنين على الصَّحيح، أسلمَ قَدِيمًا وهاجرَ الهجرَتَيْنِ، وزَوَّجَهُ النبي ﷺ ابنَتَيْهِ رُقَيَّةَ، وأمَّ كُلْثُومٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فلذلكَ كانَ يُلقَّب ذَا النُّورَيْنِ.
وهو أحدُ العشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بالجنَّةِ.
قُتلَ يومَ الجُمُعَةِ لثمان عشرةَ خَلَتْ من ذِي الحجة بعدَ العَصْر سنة خمس وثلاثين للهجرة، ودُفِن ليلة السبت بين المغرب والعشاء، وهو ابنُ اثنينِ وثَمَانين سنة وأَشهُر على الصحيح المشهور. انظر الإصابة (٤/٣٧٧).

(٢) هو الزُّبير بنُ العَوَّام بن خُوَيلد، حَوَاري رسُولِ الله ﷺ، وأمه صَفِية بنتُ عبدِ المُطَّلِبِ عَمَّة رسُول الله ﷺ.
أسلمَ قَدِيمًا، وكانَ عُمُرُهُ إذْ ذاكَ خمسَ عشرَةَ سنة على المَشْهُورِ، ولا خِلَافَ أَنَّهُ لم يبلغ العِشرين، وهو أحدُ العشَرَةِ المَشْهُودِ لهم بالجنَّة، قُتِلَ رضي الله عنه في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين، وعمرُهُ أربعٌ وسِتُّونَ سنةً، وقيلَ أربعٌ أو سبعٌ وخَمْسُون سنة، قتَلَهُ عَمْرُو بن جُرْمُوزٍ قبَّحه الله. انظر أسد الغابة (٢/٢٠٩).

(٣) هو عبد الرحمنِ بن عَوْفٍ، أبو محمد الزهري من السَّابِقِينَ إلى الإسلام.
هاجر إلى الحبشةِ، ثُمَّ إلى المدينة، وشهِدَ بَدْرًا، وأُحدًا، والمشَاهِدَ كُلَّها، ومناقبه رضي الله عنه كثيرة، توفي سنة ثنتين وثلاثين عن خمس وسبعين سنة، ودُفِن بالبَقِيع. انظر الإصابة (٤/٢٩٠).

(٤) هو سَعْدُ بن مالكٍ، أبو إسحاق، أسلمَ قَدِيمًا سابع سَبْعَةٍ، وهو ابنُ تِسْعَ عشرة سنة.
وهو أحد العشَرَةِ المشهُودِ لهم بالجنَّة، وهو أول من رَمَى بِسَهْمٍ في سبيل الله، وكان مُجابَ الدَّعوَةِ مَشْهورًا بذلك. =

وطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ[1]. فكَانَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ الذِينَ سَبَقُوا النَّاسَ هُمُ الرَّعِيلُ الأَوَّلُ، وطَلِيعَةُ الإِسْلَامِ.

فجَاءَ بِهِمْ أَبُو بَكْرٍ إِلَىٰ رسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ اسْتَجَابُوا لَهُ، وأَسْلَمُوا وأَصْبَحُوا مِنْ جُنُودِ الإِسْلَامِ المُخْلِصِينَ لِدَعْوَتِهِ.

ثمَّ تَلاهُمْ جَمْعٌ آخَرُ منَ المُسْلِمِينَ الأَوَائِلِ وهُمْ: أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ[2]، وأبُو سَلَمَةَ بنُ عَبْدِ الأَسَدِ[3]، والأَرْقَمُ بنُ أَبِي الأَرْقَمِ[4]، وعُثْمَانُ

= توفِّي ؓ بقَصْرِهِ بالعَقِيقِ قُرْب المدينة، فحُمِلَ إلىٰ المسجِدِ النبوي، وذلك في سنة إحدىٰ وخمسين، وقيل: سِت، وقيل: سبع، وعمره ثلاث وثمانون سنة، وهو آخر العشرة المبَشَّرين بالجنةِ وفاةً. انظر أسد الغابة (٢/٣٠٧).

(١) هو طلحَةُ بنُ عُبيد الله، القُرَشِيُّ التَّيْمِيُّ، أحدُ العَشَرَةِ المشهُودِ لهم بالجنَّة، وأحدُ السِّتة أصحاب الشُّورىٰ الذين نَصَّ عليهم عُمَر بن الخطاب ؓ، بقوله: تُوُفِّي رسُول الله ﷺ وهوَ عنهُمْ راضٍ.
قُتلَ ؓ يومَ وقْعَةِ الجَمَل في العاشِرِ من جمادىٰ الآخرة سنة ست وثلاثين، وقد استَكْمَلَ مِنَ العُمُرِ يومئذٍ أربعًا وستِّين سنة. انظر الإصابة (٣/٤٣٠).

(٢) هُوَ عامرُ بنُ عَبدِ الله بنِ الجَرَّاحِ، أحدُ العَشَرَةِ المشهُودِ لهم بالجنَّةِ، وأَمِينُ هذه الأمَّة.
أسلمَ قَدِيمًا وشَهِدَ المَشَاهِدَ كُلَّها، توفي ؓ بطَاعُونِ عَمَوَاسٍ سنة ثماني عشرة، وله ثمان وخمسون سنة ؓ. انظر أسد الغابة (٢/٥١٨).

(٣) هو عبدُ الله بن عبدُ الأَسَدِ القُرَشي المَخزُومِيُّ، يكنىٰ أبا سَلَمة، وهو ابن عمَّة رسول الله ﷺ، أمُّه بَرَّة بنت عبدِ المطلب، وهو أَخُو النبي ﷺ، وحمزةُ بن عبد المطلب من الرَّضاعةِ، أرضعتْهُمْ ثُوَيْبَةُ مَوْلاةُ أَبي لَهَبٍ.
منَ السَّابقين الأولين إلىٰ الإسلام، شَهِد بدرًا وأُحُدًا، ومات في جمادىٰ الآخرة سنة أربع من الهجرة. انظر أسد الغابة (٣/١١).

(٤) هُوَ الأَرْقَمُ بنُ أَبِي الأَرْقَمِ، القُرَشِيُّ المَخْزُومِيُّ، كان مِنَ السَّابقينَ الأولينَ إلىٰ=

بنُ مَظْعُونٍ[١]، وأخَوَاهُ قُدَامَةُ[٢] وعَبْدُ اللهِ[٣]، وعُبَيْدَةُ بنُ الحَارِثِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ[٤]، وَسَعِيدُ بنُ زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ[٥]، وامْرَأَتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ

= الإسلام، شَهِدَ بَدْرًا، وهُوَ الذي اسْتَخْفَىٰ رسُول الله ﷺ في دَارِهِ، والمسلمون معه بَمَكَّةَ لمَّا خَافُوا المُشْرِكين.

توفي ﷺ سنة ثلاث وخمسين، وهو ابنُ ثلاثٍ وثمانينَ سنة، ودُفِنَ بالبقيع ﷺ. انظر الإصابة (١/١٩٦).

(١) هو عُثْمَانُ بن مظعُونِ الجُمَحِيُّ، من سَاداتِ المُهَاجرين.
أسلم بعد ثلاثةَ عشَرَ رَجُلًا، وهاجرَ الهِجْرَتَيْنِ، وشَهِدَ بدرًا، وكان مِنْ أشَدِّ الناس اجْتِهَادًا في العبادة، يصُومُ النَّهَارَ، ويقُومُ اللَّيْلَ، ويعتَزِلُ النِّسَاءَ.
توفي ﷺ بعدَ شُهُودِهِ بَدْرًا في السنة الثانية من الهجرة، وهو أوَّل مَنْ مات بالمدينةِ من المُهَاجرين، وأول من دُفن بالبَقِيعِ منهم. انظر الإصابة (٤/٣٨١).

(٢) هو قُدَامَةُ بنُ مَظْعُونِ القرشِيُّ الجُمَحِيُّ، وهو خالُ حَفْصَةَ وعبد الله ابنَيْ عُمَرَ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين، مِنَ السَّابِقِينَ الأوَّلين إلىٰ الإسلام، وشَهِدَ بَدْرًا، وأُحُدًا، وسَائِرِ المشَاهِدِ معَ رسُولِ الله ﷺ.
تُوُفِّي ﷺ سنة ست وثلاثين من الهجرةِ، وهو ابن ثمان وستين سنة. انظر أسد الغابة (٣/٤٧٨).

(٣) هو عبد الله بن مَظْعُون الجُمَحِيُّ، من السابقين إلىٰ الإسلامِ، هاجَرَ إلىٰ الحبشَةِ الهِجْرة الثانية، وشَهِدَ بَدرًا، وتوفي ﷺ في خِلافَةِ عُثْمَانَ بن عفَّان سنة ثلاثين من الهجرة وهو ابنُ سِتِّين سنة. انظر أسد الغابة (٣/٨١).

(٤) هو عُبَيْدَةُ بن الحارِثِ بن عبدِ المطلب القُرَشِيُّ، كان من السَّابقين إلىٰ الإسلام، وشَهِدَ عبيدةُ بدرًا، وقُتِل فيها ﷺ وذلك سنةَ اثنتين من الهجرة. انظر الإصابة (٤/٣٥٣).

(٥) هو سَعِيدُ بنُ زَيْدِ بن عَمْرِو بن نُفَيْلِ القُرَشِيُّ العَدَوِيُّ، أحدُ العَشَرَةِ المَشْهُودِ لهم بالجنة، وهو ابنُ عَمِّ عُمَرَ بن الخَطاب ﷺ، وكان صِهْرَ عُمَرَ زَوْجَ أختِهِ فاطِمَةَ بنتِ الخطاب.
أسلمَ قَدِيمًا، وكان مُسْتَجَابَ الدَّعْوة.
تُوُفِّي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالعقيق، فحُمِلَ إلىٰ المدينة سنة خمسين، وقيل: إحدىٰ وخمسين، وهو ابن بِضْعٍ وسَبْعِينَ. انظر أسد الغابة (٢/٣٢٥).

الخَطَّابِ[1]، وأَسْمَاءُ[2] بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وأُمُّ الفَضْلِ، وهِيَ لُبَابَةُ الكُبْرَىٰ بِنْتُ الحَارِثِ[3]، وخَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ[4]، وعُتْبَةُ بنُ غَزْوَانَ[5]، وعُمَيْرُ بنُ أَبِي

---

(١) هي فاطمَةُ بنتُ الخطَّابِ القُرَشِيَّةُ العَدَوِيَّة، أختُ عمرَ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين، أسلَمَتْ قَدِيمًا أوَّلَ الإسلام مع زَوْجِهَا سَعِيد، قبل إسلام أخِيهَا عُمَرَ رضي الله عنه. انظر الإصابة (٢١٨/٨).

(٢) هي أسماءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق، زوجِ الزُّبَيْرِ بن العوام، ووالِدَةُ عبد الله بنِ الزُّبَيْرِ، وهِيَ أُخْتُ أُمِّ المؤمِنِين عَائشَة لأبيها، أسلمت قَدِيمًا بمَكة، وهي ذاتُ النِّطَاقَيْنِ، بلغتْ رَضِيَ اللهُ عَنهَا مائةَ سنةٍ لم يَسْقُطْ لها سِنٌّ، ولم يُنْكَرْ لهَا عَقْلٌ.
تُوفيت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بعدَ مَقْتَلِ ابنها عبدِ الله بأيَّامٍ، وذلك في سنة ثلاث وسبعين للهجرةِ. انظر أسد الغابة (٢٠٩/٥).
تنبيه مهم جدًّا: ذكر ابن إسحاق في السيرة (٢٩٠/١) وغيره إسلامَ عائِشَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، في السنة الأولى للبعثة، وهو وَهْمٌ؛ لأن عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لم تكنْ وُلِدَتْ، فكيف تكونُ أسلمَتْ؟ وكان مولِدُهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا سنة أربع، وقيل: سنة خمس بعد النبوة.

(٣) هي لُبَابَةُ بنت الحارث، الهِلَالِيَّة، زوجةُ العبَّاس بنِ عبد المطلب رضي الله عنه، وهيَ أُختُ أُمِّ المؤمنين مَيْمُونَةَ، وخالةُ خَالِدِ بن الوَلِيدِ، وأختُ أسماءَ بِنْتُ عُمَيْسٍ لِأُمِّهَا.
توفِّيت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في خلافة عُثْمَانَ بن عَفَّان قبل زَوْجِها العباس. انظر الإصابة (٢٩٩/٨).

(٤) هو خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ، حَلِيفٌ لبَنِي زُهْرَةَ، كان حَدَّادًا يعمل السُّيُوفَ في الجاهلية، فأصابه سَبْيٌ فَبِيعَ بمَكَّةَ.
كان رضي الله عنه من السَّابقين الأولين إلىٰ الإسلام، ومِمَّنْ عُذِّب في سبيل الله تَعَالَىٰ، وشَهِدَ بَدرًا، وأُحدًا، والمشَاهِدَ كُلَّها مع رسول الله ﷺ.
نزلَ الكُوفَةَ ومات بها، وهو أوَّل من دُفِنَ بالكوفَةِ مِنَ الصَّحَابة، وكان موته سنة سبع وثلاثين من الهجرة وعمره ثلاث وستون سنة رضي الله عنه. انظر أسد الغابة (١٠٣/٢).

(٥) هو عُتْبَةُ بنُ غَزْوَانَ، أسلم سابعَ سَبْعَةٍ في الإِسْلَام، وهاجَرَ إلىٰ الحَبَشَةِ، وهو ابنُ أربعينَ سنةً، ثم عَادَ إلىٰ رسول الله ﷺ وهو بمَكةَ، وشَهِدَ بَدْرًا، والمَشَاهِدَ مع رسول الله ﷺ، وكان عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه أقرَّهُ علىٰ البَصْرَةِ، فاستَعْفَىٰ عُمَرَ عن وِلايتها، فأبىٰ أن يُعْفِيَه،=

وقَّاصٍ[1] أخُو سَعْدِ بنِ أبِي وَقَّاصٍ، وعَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ[2] حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجْمَعِينَ.

۞ تَسَامُعُ النَّاسِ دَعْوَةَ الإسْلَامِ:

ثُمَّ بَدَأَ النَّاسُ يَتَسَامَعُونَ بِرِسَالَةِ الإسْلَامِ، وسَارَعَ الفُقَرَاءُ إلَىٰ الدُّخُولِ في الإسْلَامِ، فأسْلَمَ مَسْعُودُ بْنُ رَبِيعَةَ القَارِي[3]، وسَلِيطُ بنُ عَمْرٍو[4]، وأخُوهُ حَاطِبٌ[5]، ....

= فقال ﷺ: اللهُمَّ لا تَرُدَّني إليها، فسَقَطَ عن راحلته، فمات سنة سبع عشرة، وهو مُنْصَرِفٌ من مَكَّةَ إلىٰ البصرة بموضعٍ يُقَالُ له: مَعْدِنُ بني سُليم. انظر أسد الغابة (٣/٢٠١).

(١) هو عُمَيْرُ بنُ أبِي وقَّاصٍ القرشي الزهري، أخُو سَعْدٍ، قَدِيمُ الإسلام، مُهاجِرِيٌّ، شَهِد بَدرًا مع النبي ﷺ، وقُتِل فيها، وذلك في السنة الثانية للهجرة. انظر أسد الإصابة (٤/٦٠٢).

(٢) هو عبدُ الله بن مسعودٍ، الإمام الحَبْرُ، فقيهُ الأُمَّة.
من السَّابِقِينَ الأولينَ، هاجرَ الهِجْرَتَيْنِ إلىٰ الحبشةِ، وإلىٰ المدينةِ، وهُوَ أوَّل من جَهَرَ بالقرآن، وأخذ مِنْ فَمِ الرَّسول ﷺ سبعين سورة، ما ينازِعُهُ فيها أحد، وشَهِدَ بدرًا، وأُحُدًا، والخَنْدَقَ، وبيعَةَ الرِّضْوَانِ، وسائرَ المَشَاهِدِ مع رسول الله ﷺ، ومناقِبُهُ غَزِيرَةٌ.
توفي ﷺ بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين، ودُفِن بالبقيع وعمره ثلاث وستون سنة. انظر أسد الغابة (٣/٧٤).

(٣) هو مَسْعُود بن عمرو بن رَبِيعَةَ القَارِئُ، أسلمَ قَديمًا، وكان علىٰ المَغَانِمِ يوم حُنَيْن، وأمرَهُ رسول الله ﷺ أن يَحْبِسَ السَّبايا والأموال بالجِعِرَانَةِ. انظر الإصابة (٦/٨٠).

(٤) هو سَلِيطُ بن عَمْرٍو القُرَشي العَامِري، كان من المُهَاجِرِين الأولين مِمَّنْ هاجرَ الهِجْرَتَيْن، وهو الذي بعثَهُ رسُول الله ﷺ إلىٰ هَوْذَةَ بنِ عَلِيٍّ الحَنَفِي مَلِكِ اليَمامة، وذلك سنة ست أو سبع من الهجرة. انظر أسد الغابة (٢/٣٦٦).

(٥) هوَ حاطِبُ بن عَمْرٍو القُرَشي العامري، أسلمَ قَبْلَ دُخُول الرسول ﷺ دار الأرقَمِ بن أبي الأرقَمِ، وهو أوَّلُ مَنْ هاجَرَ إلىٰ أرضِ الحبَشَة، وشَهِدَ بَدْرًا مع النبي ﷺ. انظر الإصابة (٢/٦).

وعَيَّاشُ بنُ أَبِي رَبِيعَةَ[1]، وامْرَأَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ سَلَامَةَ[2]، وخُنَيْس بنُ حُذَافَةَ[3]، وعَامِرُ بنُ رَبِيعَةَ[4]، وعبْدُ اللهِ بنُ جَحْشٍ[5]، وأَخُوهُ أَبُو أَحْمَدَ عَبْدُ بنُ جَحْشٍ[6]،

---

(١) هو عَيَّاشُ بن أبي رَبِيعة، أخُو أبِي جَهْلٍ لِأُمِّه، أسلم قَدِيمًا، وهاجر إلىٰ أرضِ الحَبشَة، وهاجر إلىٰ المدينة، ثم خدَعَهُ أبو جَهل، والحارِث بن هِشَام، فرجَعَ معهُمَا، فأوثَقَاهُ وحبَسَاهُ بمَكَّةَ، ولما مُنِعَ عيَّاشٌ منَ الهجرة قَنَتَ رسُول الله ﷺ يَدْعو للمُسْتَضْعَفِينَ بمَكَّة، ويُسَمِّي منهم: الوَلِيد بن الوَلِيد، وسَلَمة بن هِشَام، وعَيَّاش بن أبي ربيعة.
وقتل عَيَّاش ﷺ في معرَكَةِ اليَرْموك. انظر الإصابة (٣/٦٢٣).

(٢) هي أسماءُ بنتُ سَلَامَة، كانت من المُهَاجِرَات، هاجَرَت مع زَوْجِهَا عيَّاش بن أبي ربيعة إلىٰ أرضِ الحَبَشة، وولَدَتْ لهُ عَبْدَ الله بن عَيَّاشٍ، ثم هاجرَت إلىٰ المدينة. انظر أسد الغابة (٥/٢١٠).

(٣) هو خُنَيْسٌ - بالتصغير - بنُ حُذَافَةَ القُرَشِيُّ السَّهْمِيُّ، كان من السّابقين إلىٰ الإسلام، هاجر إلىٰ الحبشة، ثُمَّ رجع فهاجر إلىٰ المدينة، وشَهِدَ بدرًا، وأصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ يوم أُحُدٍ فمات منها، وكان زوج حفصةَ بنت عمر بن الخطاب، فلما تُوُفِّي تزَوَّجها رسول الله ﷺ. انظر الإصابة (٢/٢٩٠).

(٤) هو عامرُ بنُ رَبِيعَةَ، كان أحدَ السَّابقين الأولين، وهاجر إلىٰ الحبشة، ومعه امرأتُهُ لَيْلىٰ بنت أبي حثمة، وهاجر إلىٰ المدينة، وشَهِد بدرًا وما بعدها.
توفي ﷺ سنة اثنين وثلاثين، وقيل سبع وثلاثين بعد قَتْلِ عُثْمَانَ بأيَّام. انظر الإصابة (٣/٤٦٩).

(٥) هو عبدُ الله بن جَحْشٍ، أُمُّهُ أمَيْمَةُ بنتُ عبدِ المطلب عَمَّةُ النبي ﷺ.
أسلمَ قبلَ دُخُول الرسول ﷺ دار الأرقم، وهاجَرَ الهِجْرَتَيْنِ إلىٰ أرض الحَبَشة، وهاجَرَ ﷺ إلىٰ المَدِينة بأهلِهِ، ثم شَهِدَ بَدْرًا، وقُتِلَ ﷺ في أُحُدٍ.
وكان عُمُرُهُ حِينَ قُتِلَ في أحُدٍ نَيِّفًا وأربعينَ سَنَةً. انظر أسد الغابة (٢/٥٦٥).

(٦) هو عبدُ بنُ جَحْشٍ، يُكنىٰ عبدٌ هذا أبا أحْمَدَ، وغَلَبَتْ عليه كُنْيَتُهُ، وكان ﷺ من السَّابقين الأوَّلين إلىٰ الإسلام، وكان أعمىٰ، وكان شاعرًا، وهو مِمَّنْ هاجرَ إلىٰ أرضِ الحَبَشة مع=

وجَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ[1]، وامْرَأَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ[2]، وحَاطِبُ بنُ الحَارِثِ[3]، وامْرَأَتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ المُجَلَّلِ[4]، ....

= أخيهِ عبد الله، ثم هاجَرَ إلىٰ المدينةِ، وشَهِدَ بَدْرًا والمشَاهِدَ كُلَّهَا، وتوفي بعد وفَاةِ أُخْتِهِ زَيْنَبَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ في سنة عشرين هجرية. انظر الإصابة (٥/٧).

(١) هو جَعْفَرُ بنُ أبي طالِبِ الهَاشِمِيُّ، ابنُ عَمِّ الرسول ﷺ، كان أشْبَهَ الناس برسُول ﷺ خَلْقًا وخُلُقًا، مِنَ السَّابقين إلىٰ الإسلام.
هاجَرَ إلىٰ الحَبَشَة، فأسلم النَّجَاشِيُّ، ومن تَبِعَهُ علىٰ يَدَيْهِ، ثم هاجَرَ منها إلىٰ المدينة، فقدِمَ والنبي ﷺ بخَيْبَرَ، فتَلَقَّاهُ الرسول ﷺ واعْتَنَقَهُ.
ثم أَمَّرَهُ رسول الله ﷺ علىٰ جَيْشِ غزْوَةِ مُؤْتَةَ إن قُتِلَ زَيْدُ بنُ حارِثَةَ رضي الله عنه، واستشْهِدَ رضي الله عنه في مُؤْتَةَ، وكانُ عُمُره رضي الله عنه حين قُتِلَ إحدىٰ وأربعين سنة. انظر الإصابة (١/٣٢٧).

(٢) هي أسماءُ بنتُ عُمَيْسٍ الخَثْعَمِيَّةُ. أسلمَتْ قَدِيمًا، وهاجَرَت إلىٰ أرض الحبشةِ مَعَ زَوْجِهَا جعفر بن أبي طالب، ثم هاجَرَت إلىٰ المدينة.
ولمَّا استشهِدَ زَوْجُها جعفر في غزوة مُؤْتَة، زوَّجهَا رسول الله ﷺ أبا بكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه، فولدَتْ لهُ مُحَمَّدًا وقْتَ الإحرَامِ في حَجَّةِ الوَدَاعِ، ثم توفي الصِّدِّيق رضي الله عنه، فغَسَّلَتْهُ.
فلما ماتَ أبُو بكرٍ الصديقُ رضي الله عنه تزوَّجَها عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فولَدَتْ لهُ يَحْيىٰ، ولا خِلافَ في ذلك.
كانَتْ رَضِيَ اللهُ عَنهَا تُفَسِّرُ الأحلامَ، وكان عُمَرُ بن الخَطَّاب رضي الله عنه يسألُهَا عن تَفْسِير الأحلامِ. انظر الإصابة (٨/١٤).

(٣) هو حَاطِبُ بنُ الحَارِثِ الجُمَحِيُّ، هاجرَ هو وزوجُهُ فاطمةُ بنت المُجَلَّل القرشية العامرية إلىٰ أرض الحبشة، فولدتْ له ابنَيْه محمدًا والحارث، ومات رضي الله عنه بأرض الحبشة. انظر أسد الغابة (١/٤١١).

(٤) هي فَاطِمَةُ بنتُ المُجَلَّلِ القُرَشِيَّةُ العَامِرِيَّةُ، أمُّ جَمِيل، كانت من السَّابقين إلىٰ الإسلام، وممَّنْ هاجرَ إلىٰ الحبشة هي وزوجُهَا حاطِبُ بن الحَارِثِ، وتوفي زوْجُهَا بالحبَشَةِ، وقدِمَتْ هِيَ وابناهَا إلىٰ المَدِينَةِ. انظر الإصابة (٨/٢٧٧).

وأخُوهُ حَطَّابُ بنُ الحَارِثِ[1]، وامرَأتُهُ فُكَيْهَةُ بِنْتُ يَسَارٍ[2]، ومَعْمَرُ بنُ الحَارِثِ[3]، والسَّائِبُ بنِ مَظْعُونٍ[4]، والمُطَّلِبُ بنُ أزْهَرَ[5]، وامْرَأتُهُ رَمْلَةُ بِنْتُ أبِي عَوْفٍ[6]، ونُعَيْمُ بنُ عَبْدِ اللهِ النَّحَّامُ[7]، ....

(١) هو حَطَّابُ بنُ الحَارِثِ القُرَشي الجُمَحِيُّ، هاجر ﷺ إلىٰ أرض الحبشة مع أخيه حَاطب ومعه امرأته فكيهَةُ بنتُ يَسَار، ومات حَطَّابٌ في الطرِيقِ إلىٰ أرض الحبشةِ، لم يَصِلْ إلَيْهَا. انظر أسد الغابة (٢/٣٣).

(٢) هي فُكَيْهَةُ بنتُ يَسَارٍ امرأةُ حَطَّابِ بن الحارثِ الجُمَحِيِّ، ذكرها ابن إسحاق فيمنْ أسْلَمَ قَدِيمًا من المهاجرات، وقال ابن سعد: أسلمَتْ قَدِيمًا بمكة وبايَعَتْ وهَاجَرَتْ الهجرتَيْن. انظر الإصابة (٨/٢٨٢).

(٣) هو مَعْمَرُ بنُ الحَارِثِ القُرَشِيُّ الجُمَحِيُّ أخو حَاطِبٍ وحَطَّابٍ، أسلمَ قبلَ دُخُولِ الرسول ﷺ دارَ الأرقمِ، وهاجَرَ إلىٰ المدينة، وشَهِدَ بَدرًا، وأُحُدًا والمشاهِدَ كلهَا، وتوفي في خِلافةِ عُمَر بن الخطاب ﷺ. انظر أسد الغابة (٤/١٧٢).

(٤) هو السَّائبُ بن مَظْعُونٍ الجُمَحِيُّ، أسلم في أول الإسلام، وهاجَرَ إلىٰ الحبشة الهجرة الثانيةَ، وشَهِدَ بدرًا، والمشَاهِدَ كلهَا، وقُتل ﷺ في معركةِ اليَمَامة في خلافة أبي بكرٍ الصِّديق ﷺ، وعمره بضع وثلاثون سنة. انظر الإصابة (٣/٢٠).

(٥) هو المُطَّلِبُ بنُ أزْهَرِ بنِ عَبْدِ عَوْفٍ القُرَشِيُّ، من السابقين إلىٰ الإسلام، ومِنْ مُهَاجِرَةِ الحبشة، وبها مات. انظر أسد الغابة (٤/١٣٩).

(٦) هي رَمْلَةُ بنتُ أبِي عَوْفِ بن صبرَةَ بنِ سَهْمٍ، أسلمت بمَكة قديمًا، وبايعت وهاجرَت مع زوجها المطلبِ بن أزهرٍ إلىٰ الحبشة، وولدت له ابنهُ عبد الله. انظر الإصابة (٨/١٤٣).

(٧) هو نُعَيمُ بن عبدِ الله النَّحَّام القُرَشِي العَدَوِيُّ.
أسلم ﷺ قَدِيمًا أوَّل الإسلام.
ولم يُهَاجر إلىٰ المدينة إلا بعد سِت سنين للهجرة عام الحُدَيْبِيَةِ، وذلك بسببِ إنْفَاقِهِ علىٰ أرَامِلِ قومه، ثم شَهِدَ ما بعدها من المَشَاهِدِ، فلما قَدِمَ المدينة كان معه أربعُونَ مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ، فاعتنَقَهُ النبي ﷺ وقبَّلهُ، وقُتِلَ ﷺ يوم اليَرْمُوكِ شَهِيدًا سنة خمس عشرة في=

وعَامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ[1] مَوْلَىٰ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وخَالِدُ بنُ سَعِيدِ بنِ العَاصِ[2]، وامْرَأَتُهُ أَمِيمَةُ بِنْتُ خَلَفٍ[3]، وأَبُو حُذَيْفَةَ بْنِ عُتْبَةَ[4]، ووَاقِدُ بنُ عَبْدِ اللهِ[5]، وخَالِدٌ[6]،

= خلافة عمر رضي الله عنه، وقيل استُشْهِدَ بأَجْنَادِينَ سنة ثلاث عشرة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه. انظر أسد الغابة (٤/٢٤٦).

(١) هو عامرُ بنُ فُهَيْرَةَ، مولىٰ أبي بَكر الصِّدِّيق، وكان مَمْلُوكًا للطُّفَيْلِ بن عبدِ الله بن سخبرةَ، فأسلم، وهو مَمْلوك، فاشترَاهُ أبو بكر الصِّدِّيق من الطُّفَيْلِ، فأعتقَهُ، وأسلم رضي الله عنه قبل أن يَدْخُلَ النبي ﷺ دارَ الأرقمِ، وكان حسَنَ الإسلام، وعُذِّبَ في الله رضي الله عنه، وشهد عامرٌ غزوَةَ بَدْرٍ، وأُحُدٍ، وقُتِل رضي الله عنه يوم بِئْرِ معونة سنة أربع من الهجرة، وهو ابن الأربعين سنة. انظر الإصابة (٣/٤٨٢).

(٢) هو خالدُ بن سَعِيدِ بن العاصِ القُرَشي الأَمَوِيُّ، أحد السابقين الأولين، وهاجر رضي الله عنه إلىٰ الحبشَةِ مع امرأَتِهِ أُمَيْمَةُ بنتُ خَالِدٍ الخُزَاعِيَّةُ، وولدت له ابنهُ سَعِيد، وهاجر إلىٰ المدينة مع جَعْفَرِ بن أَبِي طالبٍ، والنبي ﷺ بخيبر، ثم استعْمَلَهُ أَبُو بكر علىٰ جيشٍ من جيوشِ المسلمين حينَ بعثَهُم إلىٰ الشام، فَقُتِل بِمَرْجِ الصُّفْرَةِ سنة أربع عشرة في صَدْرِ خِلافَةِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر الإصابة (٢/٢٠٢).

(٣) هي أَمَيْمَةُ بنتُ خَلَفٍ الخُزَاعِيَّة، وهي زوج خَالِدِ بن سَعِيدِ بن العاصِ، من السابقات إلىٰ الإسلام، هاجرت إلىٰ الحبشة وولدت له سعيد. انظر أسد الغابة (٥/٢٢٠).

(٤) هو أبو حُذَيْفَةَ بن عُتْبَةَ بن رَبِيعَةَ، واسمُهُ مِهْشَمٌ، وقيل: هُشَيْمٌ، من المهاجرين الأَوَّلين، وهاجر الهجرتين جميعًا، وشهد بدرًا، وأُحدًا، والمَشَاهد كلها، وقُتِل رضي الله عنه يوم اليمامة شهيدًا وهو ابن ثلاث أو أربع وخمسين سنة. انظر الإصابة (٧/٧٤).

(٥) هو وَاقِدُ بنُ عَبْدِ الله بنِ مَنَافِ اليَرْبُوعِيُّ، أسلم قَبْلَ دخول الرسول ﷺ دار الأرقم، وهو أول من قَتَل كافرًا في الإسلام، قَتَل عَمْرَو بن الحَضْرَمِيِّ أول مَقْتُولٍ من المشركين في الإسلام، وشَهِد بدرًا، وأُحدًا، والمَشَاهِدَ كلهَا مع رسول الله ﷺ، تُوفي رضي الله عنه في خِلافة عمر بن الخطاب. انظر أسد الغابة (٤/٣٠٣).

(٦) هو خالدُ بن البُكَيْرِ اللَّيْثِيُّ الكِنَانِيُّ، من السابقين إلىٰ الإسلام، وشهد بدرًا، وقُتِل رضي الله عنه=

وَعَامِرٌ[1]، وعَاقِلٌ[2]، وإِيَاسٌ[3] بَنُو البُكَيْرِ بنِ عَبْدِ يَالِيلَ، وعَمَّارُ بنُ يَاسِرٍ[4]، وصُهَيْبُ بنُ سِنَانٍ[5] حَلِيفِ بَنِي تَيْمِ بنِ مُرَّةَ، ....

= يوم الرَّجِيعِ في صفر سنة أربعٍ من الهجرة، وكان عُمُرُه ﷺ لما قُتل: ابن أربع وثلاثين سنة ﷺ. انظر الإصابة (٢/١٩٤).

(١) هو عامرُ بن البُكَيْرِ، من السابقين الأولين، وشَهِدَ بَدْرًا هو وأخوتُهُ: إِيَاسٌ، وعَاقِلٌ، وخالدٌ، وقُتِل عامرٌ ﷺ في معركة اليَمَامة شهيدًا. انظر أسد الغابة (٢/٥١١).

(٢) هو عاقلُ بن البُكَيْرِ، كان ﷺ من السابقين إلىٰ الإسلام هو وأخوته: خالدٌ، وإِيَاسٌ، وعامرٌ، وشهد هو وإخوته بدرًا. انظر الإصابة (٣/٤٦٦).

(٣) هو إياسُ بن البُكَيْر، من السابقين إلىٰ الإسلام، أسلم ﷺ ورسول الله ﷺ في دارِ الأرقم، وكان ﷺ من المُهَاجِرِينَ الأولين، وشهِدَ هو وأخوتُهُ بدرًا، وشهد ﷺ أُحدًا، والخنْدَقَ، والمشاهِدَ كُلَّها مع رسول الله ﷺ، وتوفي ﷺ سنة أربع وثلاثين. انظر أسد الغابة (١/١٧٨).

(٤) هو عَمَّارُ بن ياسِرٍ المِذْحَجِيُّ ثم العَنْسِيُّ، مولىٰ بني مَخْزُومٍ، أحد السابقين الأولين، وأمُّه سُمَيَّةُ، وهي أوَّل من استُشْهِدَ في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، واختُلِفَ في هِجْرَته إلىٰ الحبشة، وهاجرَ إلىٰ المدينة، وشَهِدَ بدرًا، والمشاهِدَ كلها مع الرسول ﷺ.
قُتِل ﷺ مع عليٍّ بن أبي طالب بِصِفِّينَ في ربيع الأول سنة سبع وثلاثين، وله ثلاث وتسعون سنة، ودَفَنَهُ عليّ في ثِيَابِهِ، ولم يُغَسِّلْهُ. انظر الإصابة (٤/٤٧٣).

(٥) هو صُهَيْبُ بن سِنَانٍ النَّمْرِيُّ، ويُعرف بالرُّومِيِّ؛ لأنهُ أقام في الرُّومِ مُدَّةً، وهو مِنْ أهل الجزيرةِ، سُبِيَ من قَرْيَةِ نِينَوَىٰ في العراق، ثمَّ إنهُ جُلِبَ إلىٰ مكة، فاشْتَرَاهُ عبد الله بن جَدْعَان القُرَشِيُّ التَيْمِي، وكان ﷺ من السابقين الأوَّلين، وكان ﷺ من المُسْتَضْعَفِينَ بمَكة الذين عُذِّبُوا.
وهاجر إلىٰ المدينةِ، وكان ﷺ في لسَانِهِ عُجْمَةٌ شَدِيدَةٌ، وتوفي ﷺ بالمدينة سنة ثمان وثلاثين في شوال، وقيل: سنة تسع وثلاثين وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، وقيل: وهو ابنُ سَبْعِين سنة ودُفِنَ بالمدينة. انظر أسد الغابة (٢/٤٦١).

وبِلَالُ بنُ رَبَاحٍ الحَبَشِيُّ[(١)]، ومُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ[(٢)]، وعَمْرُو بنُ عَبَسَةَ[(٣)] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجْمَعِينَ.

أسْلَمَ هَؤُلَاءِ سِرًّا، وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْتَمِعُ بِهِمْ، ويُرْشِدُهُمْ إلَىٰ الدِّينِ مُسْتَخْفِيًا، لِأَنَّ الدَّعْوَةَ كانَتْ لا تَزَالُ فَرْدِيَّةً وسِرِّيَّةً، وكانَ الوَحْيُ قَدْ تَتَابَعَ وحَمِيَ بَعْدَ نُزُولِ أوَائِلِ سُورَةِ المُدَّثِّرِ، وكَانَتِ الآيَاتُ وقِطَعُ السُّوَرِ التِي تَنْزِلُ في هَذَا الزَّمَانِ آيَاتٍ قَصِيرَةً، ذَاتَ فَوَاصِلَ رَائِعَةٍ مَنِيعَةٍ، وإيقَاعَاتٍ هَادِئَةٍ خَلَّابَةٍ تَتَنَاسَقُ مَعَ ذَلِكَ الجَوِّ الهَامِسِ الرَّقِيقِ، تَشْتَمِلُ عَلَىٰ تَحْسِينِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ،

(١) هو بِلالُ بنُ رَبَاحٍ، مَوْلىٰ أبي بكر الصِّدِّيق، مُؤَذِّنُ رسول الله ﷺ، من السَّابِقِينَ الأوَّلين.
اشتَرَاهُ أبو بكر الصِّدِّيق ﷺ، ثم أعْتَقَهُ، فلزِمَ النَّبِيَّ ﷺ وأذَّنَ له، وكان ﷺ ممن عُذِّب في الله عَزَّ وَجَلَّ، وشَهِدَ ﷺ بدرًا والمَشَاهد كلها، ومات في دمشق، وذلك في سنة عشرين من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة. انظر الإصابة (١/٤٥٥).

(٢) هو مُصْعَبُ بن عُمَيْرٍ، البَدْرِيُّ القُرَشِيُّ، كان ﷺ فتىٰ مَكَّة شَبَابًا وجَمَالًا، أسلمَ قَدِيمًا والنبي ﷺ في دار الأرقم بن أبِي الأرقَمِ، وكتَمَ إسلامَهُ خَوْفًا من أُمِّهِ وقَوْمِهِ، فعلمَهُ عثمانُ بنُ طَلْحَةَ، فأعلَمَ أهْلَهُ فأوْثَقُوهُ، فلمْ يَزَلْ محبُوسًا إلىٰ أن هَرَبَ مع مَنْ هاجَرَ إلىٰ الحبَشَةِ، ثم هاجَرَ إلىٰ المدينة بعد بَيْعَةِ العَقَبَةِ الأولىٰ ليُعَلِّمَ الناس القُرْآن، ويُصَلِّيَ بِهِمْ، وشَهِدَ مُصْعَبُ بَدرًا، ثم أحدًا، واستشهد بأُحُدٍ، قتلَهُ ابنُ قَمِئَةَ اللَّيْثِيُّ لعنَهُ الله.
وكان عمره ﷺ عندما استُشْهِدَ أربعينَ سنة أو أكثر قليلًا. انظر أسد الغابة (٤/١٣٤).

(٣) هو عَمْرُو بن عَبَسَةَ، أبو نَجِيحٍ السُّلَمِيُّ البَجَلِيُّ، أسلمَ قديمًا أول الإسلام.
وهاجر إلىٰ المدينة، وكان قُدُومُهُ المدينة بعد مُضِيِّ بدرٍ، وأُحُدٍ، والخندق، ونزل بعد ذلك بالشام.
قال الحافظ: وأظُنُّهُ ماتَ في أواخر خِلافَةِ عُثْمَانَ، فإنني لمْ أرَ لهُ ذِكْرًا في الفِتْنَةِ، ولا في خِلافَةِ مُعَاوِيَةَ ﷺ. انظر الإصابة (٤/٥٤٥).

وتَقْبِيحِ تَلْوِيثِهَا بِالشَّهَوَاتِ، تَصِفُ الجَنَّةَ والنَّارَ كَأَنَّهُمَا رَأْيَ عَيْنٍ، تَسِيرُ بالمُؤْمِنِينَ في جَوٍّ آخَرَ غَيْرِ الذِي فِيهِ المُجْتَمَعُ البَشَرِيُّ آنَذَاكَ[1].

** ** **

(١) الرحيق المختوم ص ٧٦.

بِدَايَةُ فَرْضِ الوُضُوءِ[1] والصَّلاةِ

كَانَ مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ: الأَمْرُ بالوُضُوءِ والصَّلَاةِ، فَقَدْ رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنْ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ جِبْرِيلَ عليهِ السَّلامُ، أَتَاهُ في أَوَّلِ ما أُوحِيَ إِلَيْهِ، فَعَلَّمَهُ الوُضُوءَ والصَّلَاةَ[2].

ورَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ وابْنُ حِبَّانَ والحَاكِمُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: . . .دَخَلَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وهِيَ تَبْكِي، فقَالَتْ: هَؤُلاءِ المَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدْ تَعاقَدُوا عَلَيْكَ لَوْ قَدْ رَأَوْكَ، . . . فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا بُنَيَّةُ، ايتِينِي بِوَضُوءٍ»، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ المَسْجِدَ[3].

قالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: وهَذَا الحَدِيثُ يَصْلُحُ عَلَىٰ مَنْ أَنْكَرَ وُجُودَ الوُضُوءِ قَبْلَ الهِجْرَةِ، لا عَلَىٰ مَنْ أَنْكَرَ وُجُوبَهُ حِينَئِذٍ[4].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (١/٣١٣): الوُضُوءُ بالضمِّ هو الفِعْلُ، وبالفتح الماءُ الذي يُتَوَضَّأُ به علىٰ المشهور فِيهما، وهو مشْتَقٌّ مِنَ الوضَاءَةِ، وسمِّي بذلك؛ لأنَّ المُصَلِّي يَتَنَظَّفُ فَيَصِيرُ وَضِيئًا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٧٤٨٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٧٦٢) ـ وابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب المعجزات ـ رقم الحديث (٦٥٠٢) ـ والحاكم في المستدرك ـ كتاب الطهارة ـ باب يغتسل من أربع ـ رقم الحديث (٦٠٠).

(٤) انظر فتح الباري (١/٣١٤).

❁ أَمَّا أَمْرُ الصَّلَاةِ:

قالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ في تَفْسِيرِ هذِهِ الآيَةِ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾(١): كانَتْ الصَّلاَةُ المَفْرُوضَةُ قَبْلَ الإسْرَاءِ ثِنْتَيْنِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ في وَقْتِ الفَجْرِ، وقَبْلَ الغُرُوبِ في وَقْتِ العَصْرِ، وقِيَامُ اللَّيْلِ كانَ وَاجِبًا عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وعَلَىٰ أُمَّتِهِ حَوْلًا، ثُمَّ نُسِخَ في حَقِّ الأُمَّةِ وُجُوبُهُ، ثمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَسَخَ اللهُ تَعَالَىٰ ذَلِكَ كُلَّهُ لَيْلَةَ الإسْرَاءِ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ(٢).

وقالَ القُرْطُبِيُّ في تَفْسِيرِ قَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾(٣)، قالَ: هِيَ صَلاةٌ كانَتْ بِمَكَّةَ قَبْلَ أنْ تُفْرَضَ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ رَكْعَتَانِ غُدْوَةً، ورَكْعَتَانِ عَشِيَّةً، فيَكُونُ هذَا مِمَّا نُسِخَ، واللهُ أَعْلَمُ(٤).

وقالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ قَبْلَ الإسْرَاءِ يُصَلِّي قَطْعًا، وكَذَلِكَ أَصْحَابُهُ، ولَكِنِ اخْتُلِفَ هَلْ افْتُرِضَ قَبْلَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ شَيْءٌ مِنَ الصَّلَوَاتِ أَمْ لَا؟ فَيَصِحُّ عَلَىٰ هَذَا قَوْلُ مَنْ قَالَ: إنَّ الفَرْضَ أَوَّلًا كَانَ صَلاَةً قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وصَلَاةً قَبْلَ غُرُوبِهَا، والحُجَّةُ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا...﴾(٥).

---

(١) سورة ق آية (٣٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٤٠٩).

(٣) سورة غافر آية (٥٥).

(٤) انظر تفسير القرطبي (١٨/٣٧٢).

(٥) سورة طه آية (١٣٠) ـ وانظر كلام الحافظ في فتح الباري (٩/٦٧٥).

استِخْفَاءُ النَّبِيِّ ﷺ والمُسْلِمِينَ في دَارِ الأَرْقَمِ

كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِالْتِزَامِ الحَيْطَةِ، والحَذَرِ، والتَّخَفِّي، وعَدَمِ الإِعْلَانِ عَنِ الإِسْلَامِ إِلَىٰ أَنْ يَقْضِيَ اللهُ أَمْرَهُ، فكانُوا إِذَا أَرَادُوا الصَّلاةَ خَرَجُوا إِلَىٰ الشِّعَابِ، فَاسْتَخْفَوا فِيهَا بِصَلاتِهِمْ عنْ أَنْظَارِ قُرَيْشٍ، وقَدْ بَقُوا عَلَىٰ ذَلِكَ طِيلَةَ مُدَّةِ الدَّعْوَةِ السِّرِّيَّةِ.

۞ أَوَّلُ دَمٍ أُهْرِيقَ في الإِسْلَامِ:

وبَيْنَمَا سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رسُولِ اللهِ ﷺ في شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ مَكَّةَ، إِذَا بِجَمَاعَةٍ مِنَ المُشْرِكِينَ يَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ، وهُمْ يُصَلُّونَ، فاسْتَنْكَرُوا عَمَلَهُمْ، وعَابُوا عَلَيْهِمْ ما يَصْنَعُونَ، فَلَمْ يَتْرُكْهُمُ المُشْرِكُونَ حَتَّىٰ قَاتَلُوهُمْ، واضْطَرَّ المُسْلِمُونَ أَنْ يُدَافِعُوا عنْ أَنْفُسِهِمْ، فَضَرَبَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه أحَدَ المُشْرِكِينَ بِلَحْيِ(١) بَعِيرٍ فَشَجَّهُ، فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ دَمٍ أُهْرِيقَ فِي الإِسْلَامِ(٢).

رَوَىٰ الحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عنْ سَعِيدِ بنِ المُسَيِّبِ قالَ: أَنَّ

---

(١) لَحْيُ البَعِيرِ: همَا العَظْمَانِ اللذَانِ فِيهما الأسنانُ مِنْ داخِلِ الفَمِ، ويكونُ للإنسَانِ والدَّابَّةِ. انظر لسان العرب (٢٥٩/١٢).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٣٠٠/١) ـ والكامل في التاريخ (٦٥٨/١).

سَعْدَ بنَ أَبِي وقَّاصٍ ﷺ أَوَّلُ مَنْ أَهْرَاقَ دَمًا في سَبِيلِ اللهِ(١).

هَذَا الحَادِثُ مِنَ الاِعْتِدَاءِ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ خِلَالَ صَلاتِهِمْ في الشِّعَابِ، حَمَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ نُصْحِ المُسْلِمِينَ بالتَّخَفِّي، والْتِزَامِ البُيُوتِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ حتَّىٰ تَسْتَقِرَّ الأحْوَالُ، وخَاصَّةً أَنَّ المُسْلِمِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ القُوَّةِ مَا يُوَاجِهُونَ بِهِ قُرَيْشًا، ودَخَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ وأَصْحَابُهُ دَارَ الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ المَخْزُومِيِّ عَلَىٰ الصَّفَا، وكَانَتْ بِمَعْزِلٍ عَنْ أَعْيُنِ المُشْرِكِينَ ومَجَالِسِهِمْ، فاتَّخَذَهَا مَرْكَزًا لِلدَّعْوَةِ إلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، ولِاجْتِمَاعِهِ بالمُسْلِمِينَ مِنْ أَجْلِ الإِرْشَادِ والتَّعْلِيمِ، ويَتَعَهَّدُهُمْ بِالتَّرْبِيَةِ حتَّىٰ كَوَّنَ ﷺ مِنْهُمْ أُنَاسًا يَسْتَهِينُونَ بِكُلِّ الآلَامِ والبَلاءِ في سَبِيلِ دِينِهِمْ، وعَقِيدَتِهِمْ، وكَانَ مَنْ يُرِيدُ الإسْلامَ يَأْتِي إِلَيْهَا مُسْتَخْفِيًا خَشْيَةَ أَنْ يَنَالَهُ أَذًىٰ مِنْ قُرَيْشٍ.

ومَكَثَ رسُولُ اللهِ ﷺ وأَصْحَابُهُ في دَارِ الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ إلَىٰ أَنْ صَدَعَ رسُولُ اللهِ ﷺ بالدَّعْوَةِ كمَا سَيَأْتِي.

مرَّتْ ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ، والدَّعْوَةُ لَمْ تَزَلْ سِرِّيَّةً فَرْدِيَّةً، وخِلَالَ هَذِهِ الفَتْرَةِ تَكَوَّنَتْ جَمَاعَةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ تَقُومُ عَلَىٰ الأُخُوَّةِ والتَّعَاوُنِ، وتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وتَمْكِينِهَا مِنْ مَقَامِهَا، ثُمَّ تَنَزَّلَ الوَحْيُ يُكَلِّفُ رسُولَ اللهِ ﷺ بِمُعَالَنَتِهِ قَوْمَهُ، ومُجَابَهَةِ بَاطِلِهِمْ، ومُهَاجَمَةِ أَصْنَامِهِمْ جِهَارًا(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب كان سعد ﷺ أول من أَهْرَاقَ دمًا في سبيل الله ـ رقم الحديث (٦١٦٩).

(٢) انظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ٩٦.

الجَهْرُ بالدَّعْوَةِ

وأوَّلُ ما نَزَلَ بهَذَا الصَّدَدِ قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

والسُّورَةُ التِي وَقَعَتْ فِيهَا الآيَةُ ـ وهِيَ سُورَةُ الشُّعَرَاءِ ـ ذُكِرَتْ فِيهَا أوَّلًا قِصَّةُ مُوسَىٰ عليهِ السَّلامُ مِنْ بِدَايَةِ نُبُوَّتِهِ إِلَىٰ هِجْرَتِهِ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ونَجَاتِهِمْ مِنْ فِرْعَونَ وقَوْمِهِ، وإغْرَاقِ آلِ فِرْعَونَ مَعَهُ، وقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ القِصَّةُ عَلَىٰ جَمِيعِ المَرَاحِلِ التِي مَرَّ بِهَا مُوسَىٰ عَليهِ السَّلامُ خِلالَ دَعْوَةِ فِرْعَونَ وقَوْمِهِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ.

وهَذَا التَّفْصِيلُ إنَّمَا جِيءَ بِهِ حِينَ أُمِرَ الرَّسُولُ ﷺ بِدَعْوَةِ قَوْمِهِ إِلَىٰ اللهِ، لِيَكُونَ أَمَامَهُ، وأَمَامَ أَصْحَابِهِ نَمُوذَجًا لِمَا سَيَلْقَونَهُ مِنَ التَّكْذِيبِ، والِاضْطِهَادِ حِينَمَا يَجْهَرُونَ بالدَّعْوَةِ، ولِيَكُونُوا عَلَىٰ بَصِيرَةٍ مِنْ أمْرِهِمْ مُنْذُ بِدَايَةِ دَعْوَتِهِمْ.

---

(١) سورة الشعراء الآيات من: (٢١٤ ـ ٢١٦).

ومِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ تَشْتَمِلُ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَىٰ ذِكْرِ مَآلِ المُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ، مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، وعَادٍ، وثَمُودَ، وقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ، وقَوْمِ لُوطٍ، وأَصْحَابِ الأَيْكَةِ - عِلَاوَةً عَلَىٰ مَا ذُكِرَ مِنْ أَمْرِ فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ - لِيَعْلَمَ الذِينَ سَيَقُومُونَ بِالتَّكْذِيبِ بِمَا يَؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ، وبِمَا سَيَلْقَوْنَ مِنْ مُؤَاخَذَةِ اللهِ إِنِ اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ التَّكْذِيبِ، ولِيَعْرِفَ المُؤْمِنُونَ أَنَّ حُسْنَ العَاقِبَةِ لَهُمْ لَا لِلْمُكَذِّبِينَ[1].

ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَصْدَعَ بِمَا جَاءَهُ مِنْهُ، وأَنْ يُبَادِيَ النَّاسَ بِأَمْرِهِ، وأَنْ يَدْعُوَ إِلَيْهِ، وكَانَ بَيْنَ مَا أَخْفَىٰ رسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرَهُ، واسْتَتَرَ بِهِ إِلَىٰ أَنْ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِإِظْهَارِ دِينِهِ ثَلاثَ سِنِينَ - فِيمَا بَلَغَنِي - مِنْ مَبْعَثِهِ، ثُمَّ قالَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

رَوَىٰ الإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ عَنْ عبدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قالَ: ما زَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا، حتَّىٰ نَزَلَتْ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فَخَرَجَ هُوَ وأَصْحَابُهُ[4].

---

(١) انظر الرحيق المختوم ص ٧٨.

(٢) سورة الحجر آية (٩٤).

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/٢٩٩).

(٤) انظر تفسير الطبري (٧/٥٤٩)، وتفسير ابن كثير (٤/٥٥١).

۞ الدَّعْوَةُ فِي الأَقْرَبِينَ:

بَدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَنْفِيذِ أَمْرِ رَبِّهِ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ فَعَلَهُ أَنْ دَعَا جَمِيعَ ذَوِيهِ وأَهْلِ قَرَابَتِهِ، وعَشِيرَتِهِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، ونَفَرٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ، فَاجْتَمَعَ أَرْبَعُونَ أَوْ خَمْسَةٌ وأَرْبَعُونَ رَجُلًا، فَصَنَعَ لَهُمْ مُدًّا مِنْ طَعَامٍ عَلَيْهِ رِجْلُ شَاةٍ، فَأَكَلُوا حَتَّىٰ شَبِعُوا، وبَقِيَ الطَّعَامُ كَمَا هُوَ كَأَنَّهُ لَمْ يُمَسَّ، ثُمَّ دَعَا بِغُمَرٍ[1] مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبُوا حَتَّىٰ رَوَوْا وبَقِيَ الشَّرَابُ كأَنَّهُ لَمْ يُمَسَّ، فَلَمَّا انْتَهَوْا مِنْ طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ بَدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخْبِرُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ، وأَرَادَ ﷺ أَنْ يُكْمِلَ كَلَامَهُ ويَدْعُوَهُمْ إِلَىٰ اللهِ، فَابْتَدَرَهُ أَبُو لَهَبٍ الْكَلَامَ، وَقَالَ:

هَؤُلَاءِ هُمْ عُمُومَتُكَ وبَنُو عُمُومَتِكَ فَتَكَلَّمْ بِمَا تُرِيدُ وَدَعِ الصُّبَاةَ[2]، واعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ لِقَوْمِكَ بِالْعَرَبِ قَاطِبَةً طَاقَةٌ، وأَنَّ أَحَقَّ مَنْ أَخَذَكَ فَحَبَسَكَ بَنُو أَبِيكَ، إِنْ أَقَمْتَ عَلَىٰ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، فَهُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْ تَثِبَ عَلَيْكَ بُطُونُ قُرَيْشٍ وتُمِدَّهَا العَرَبُ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا جَاءَ عَلَىٰ بَنِي أَبِيهِ بِشَرٍّ مِمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ.

فَتَفَرَّقَ القَوْمُ، وَلَمْ يُكَلِّمْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ في ذَلِكَ المَجْلِسِ.

ثُمَّ دَعَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَانِيَةً، وصَنَعَ لَهُمْ مِنَ الطَّعَامِ مِثْلَ مَا صَنَعَ أَوَّلَ

---

(١) الغُمَر: بضم الغين وفتح الميم، هوَ القَدَحُ الصَّغيرُ. انظر النهاية (٣/٣٤٥).

(٢) يُقالُ: صَبَأَ فُلانٌ إذا خَرَجَ مِنْ دِينٍ إلىٰ دِينٍ غيره، وكانت العرب تُسَمِّي النبي ﷺ الصَّابِئَ، لأنه خرجَ مِن دِين قُرَيش إلىٰ دينِ الإسلام. انظر النهاية (٣/٣).

مَرَّةٍ، فأكَلُوا وشَرِبُوا، ثُمَّ خَطَبَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**الحَمْدُ للهِ أَحْمَدُهُ وأَسْتَعِينُهُ، وأُؤْمِنُ بِهِ، وأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**»، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**إِنَّ الرَّائِدَ**[1] **لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللهِ لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَبْتُكُمْ، ولَوْ غَرَرْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا غَرَرْتُكُمْ، وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهُ إِلَّا هُوَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً، وَإِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً، وَاللهِ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَلَتُحَاسَبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَلَتُجْزَوُنَّ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، وَبِالسُّوءِ سُوءًا، وَإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدًا أَوْ لَنَارٌ أَبَدًا، وَاللهِ يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ مَا أَعْلَمُ شَابًّا فِي العَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلَ مِمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ أَمَرَنِي اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ أَخِي وَصَاحِبِي؟**».

فقَالَ أَبُو طَالِبٍ: مَا أَحَبَّ إِلَيْنَا مُعَاوَنَتَكَ، وَأَقْبَلَنَا لِنَصِيحَتِكَ، وَأَشَدَّ تَصْدِيقًا لِحَدِيثِكَ، وهَؤُلَاءِ بَنُو أَبِيكَ مُجْتَمِعُونَ، وإِنَّمَا أَنَا أَحَدُهُمْ غَيْرَ أَنِّي أَسْرَعُهُمْ إِلَىٰ مَا تُحِبُّ، فَامْضِ لِمَا أُمِرْتَ بِهِ، فَوَاللهِ لَا أَزَالُ أَحُوطُكَ، وَأَمْنَعُكَ غَيْرَ أَنَّ نَفْسِي لَا تُطَاوِعُنِي عَلَىٰ فِرَاقِ دِينِ عَبْدِ المُطَّلِبِ[2].

ثُمَّ تَكَلَّمَ سَائِرُ القَوْمِ كَلَامًا لَيِّنًا غَيْرَ أَبِي لَهَبٍ فَإِنَّهُ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ

---

(١) أَصْلُ الرَّائِدِ: الذي يَتَقَدَّم القومَ يُبْصِرُ لهم الكَلَأَ ومَسَاقِطَ الغَيْثِ. انظر النهاية (٢/٢٥٠).

(٢) أخرج ذلك كلَّه: الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٣٧١) وأخرجه في فضائل الصحابة ـ رقم الحديث (١٢٢٠) ـ وإسناده صحيح.

المُطَّلِبِ! هَذِهِ وَاللهِ السَّوْأَةُ، خُذُوا عَلَىٰ يَدَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ عَلَىٰ يَدَيْهِ غَيْرُكُمْ، فَإِنْ أَسْلَمْتُمُوهُ حِينَئِذٍ ذَلَلْتُمْ، وَإِنْ مَنَعْتُمُوهُ قُتِلْتُمْ.

فَقَالَتْ صَفِيَّةُ عَمَّةُ الرَّسُولِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ: أَيْ أُخَيَّ! أَيَحْسُنُ بِكَ خُذْلَانُ ابْنِ أَخِيكَ؟ فَوَاللهِ مَا زَالَ العُلَمَاءُ يُخْبِرُونَ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ عَبْدِ المُطَّلِبِ نَبِيٌّ فَهُوَ هُوَ.

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: هَذَا وَاللهِ البَاطِلُ وَالْأَمَانِيُّ، وكَلَامُ النِّسَاءِ فِي الحِجَالِ(١)، إِذَا قَامَتْ بُطُونُ قُرَيْشٍ، وقَامَتْ مَعَهَا العَرَبُ فَمَا قُوَّتُنَا بِهِمْ؟ فَوَاللهِ مَا نَحْنُ عِنْدَهُمْ إِلَّا أَكْلَةُ رَأْسٍ(٢)، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: واللهِ لَنَمْنَعَنَّهُ مَا بَقِينَا(٣).

۞ الدَّعْوَةُ عَلَىٰ جَبَلِ الصَّفَا(٤):

بَعْدَمَا تَأَكَّدَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ تَعَهُّدِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ بِحِمَايَتِهِ، أَخَذَ ﷺ يُفَكِّرُ فِي وَسِيلَةٍ جَدِيدَةٍ يُبَلِّغُ فِيهَا قَوْمَهُ رِسَالَةَ رَبِّهِ، فَصَعِدَ ﷺ جَبَلَ الصَّفَا ذَاتَ يَوْمٍ

---

(١) الحَجَلَةُ: بَيْتٌ كالقُبَّةِ يُسْتَرُ بالثِّيَابِ، وتُجمَعُ علىٰ حِجَالٍ. انظر النهاية (٣٣٤/١).

(٢) ما هُمْ إلا أَكَلَةُ رَأْسٍ: أي قَلِيلٍ، قدر ما يُشْبعهُم رأسٌ واحِدٌ. انظر لسان العرب (١٧١/١).

(٣) انظر الكامل في التاريخ (٦٦٠/١)، وسبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد (٣٢٢/٢).

(٤) الصَّفَا والمَرْوَةُ: هُمَا جبلانِ بينَ بَطْحَاء مكة والمسجد، أما الصَّفا فمكان مُرْتَفِعٌ من جبلِ أبي قُبَيْسٍ بينهُ وبين المسجِدِ الحرام عَرْضُ الوادِي، ومن وَقَفَ علىٰ الصَّفا كان بِحِذَاءِ الحَجَرِ الأَسْوَدِ. انظر معجم البلدان (١٩٢/٥).

فَقَالَ: «يَا صَبَاحَاهُ»[1]، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ[2]؟، قَالُوا: مُحَمَّدٌ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وقُرَيْشٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرَأَيْتُكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**»[3]، قالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ! أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟، فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ[4] وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ...﴾[5].

ورَوَى الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ

(١) هذه كلمَةٌ تقُولُهَا العرَبُ إذا صاحُوا للغَارَةِ؛ لأنَّهُم أكثر ما يُغِيرُونَ عند الصَّبَاحِ، ويسمُّون يومَ الغارَةِ يومَ الصَّبَاحِ، فكأن القائل: يا صَبَاحَاهُ، يقول: قد غَشِيَنَا العَدُوُّ. انظر لسان العرب (٧/٢٧٣).

(٢) يَهْتِفُ: يُنَادِي. انظر النهاية (٥/٢١١).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٩/٤٥١): أرادَ بذلكَ تَقْرِيرَهُمْ بأنهم يَعْلَمُونَ صِدْقَهُ إذا أَخْبَرَ عن الأمرِ الغائِبِ.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٩/٧٦٣): أَبُو لَهَبٍ هوَ ابنُ عبدِ المُطَّلِبِ واسمُهُ عبدُ العُزَّىٰ، وكُنِّيَ أبا لَهَبٍ إما بِابنِهِ لهَب، وإما بشدَّةِ حمْرَةِ وجْنَتِهِ، وقد أخرج الفاكهي من طريق عبد الله بن كثير، قال: إنما سُمِّيَ أبا لَهَبٍ؛ لأن وَجْهَهُ كان يَتَلَهَّبُ من حسْنِهِ.
ووافق ذلك ما آلَ إليه أمرُهُ من أنَّه سيَصْلَىٰ نارًا ذات لَهَبٍ، ولهذا ذُكر في القرآن بكُنْيَتِهِ دونَ اسمه، ولكونه بها أشْهَر.

(٥) أخرج ذلك البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب وأنذر عَشِيرتك الأقربين ـ رقم الحديث (٤٧٧٠) ـ وباب سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ـ رقم الحديث (٤٩٧١) (٤٩٧٢) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ـ رقم الحديث (٢٠٨).

ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ[1] لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ! لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[2].

وَرَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ وخَصَّ، فَقَالَ: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ! يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ! أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلَالِهَا»[3].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٩/٤٥٢): باعتبار تَخْلِيصِهَا منَ النار، كأنه قال: أسلموا تَسْلَمُوا من العذَاب، فكان ذلك كالشِّراء، كأنهم جعَلوا الطاعة ثَمنَ النَّجَاةِ، وفيه إشارةٌ إلىٰ أن النفُوسَ كلها مُلكٌ لله تعَالَىٰ، وأنَّ مَنْ أطاعه حقَّ طاعتهِ في امتثالِ أوامرِه واجتنابِ نَوَاهيهِ وفَّىٰ ما عليه من الثَّمنِ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب وأنذر عَشِيرَتك الأقربين ـ رقم الحديث (٤٧٧١) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ـ رقم الحديث (٢٠٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ـ رقم الحديث (٢٠٤).
=

❁ **فَوَائِدُ الحَدِيثِ:**

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: وفِي الحَدِيثِ:

١ ـ أنَّ الأَقْرَبَ لِلرَّجُلِ مَنْ كَانَ يَجْمَعُهُ هُوَ وَجَدٌّ أَعَلَىٰ، وكُلُّ مَنِ اجْتَمَعَ مَعَهُ فِي جَدٍّ دُونَ ذَلِكَ كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ.

٢ ـ وَفِيهِ السِّرُّ فِي الأَمْرِ بِإِنْذَارِ الأَقْرَبِينَ أَوَّلًا أَنَّ الحُجَّةَ إِذَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ تَعَدَّتْ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ، وإِلَّا فَكَانُوا عِلَّةً لِلأَبْعَدِينَ في الِامْتِنَاعِ، وأَنْ لَا يَأْخُذَهُ مَا يَأْخُذُهُ القَرِيبُ لِلْقَرِيبِ مِنَ العَطْفِ وَالرَّأْفَةِ فِيُحَابِيَهُمْ فِي الدَّعْوَةِ والتَّخْوِيفِ، فَلِذَلِكَ نَصَّ لَهُ عَلَىٰ إِنْذَارِهِمْ[1].

هَذِهِ الصَّيْحَةُ العَالِيَةُ هِيَ غَايَةُ البَلَاغِ، فَقَدْ فَاصَلَ الرَّسُولُ ﷺ قَوْمَهُ عَلَىٰ دَعْوَتِهِ، وأَوْضَحَ لِأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ أَنَّ التَّصْدِيقَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ هُوَ حَيَاةُ الصِّلَةِ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ، وأَنَّ عَصَبِيَّةَ القَرَابَةِ التِي تَقُومُ عَلَيْهَا العَرَبُ ذَابَتْ فِي حَرَارَةِ هَذَا الإِنْذَارِ الآتِي مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ كَبِيرَ المَنْزِلَةِ فِي بَلَدِهِ مَرْمُوقًا بِالثِّقَةِ والمَحَبَّةِ، وهَاهُوَ ذَا يُوَاجِهُ مَكَّةَ بِمَا تَكْرَهُ، وَيَتَعَرَّضُ لِخِصَامِ السُّفَهَاءِ والكُبَرَاءِ، وأَوَّلُ قَوْمٍ يُغَامِرُ بِخُسْرَانِ مَوَدَّتِهِمْ هُمْ عَشِيرَتُهُ الأَقْرَبُونَ، لَكِنْ هَذِهِ الآلَامُ تَهُونُ في سَبِيلِ الحَقِّ

= قال الحافظ في الفتح (١٢/٣٠): والبِلَالُ بمعنَىٰ البَلَلِ وهو النَّدَاوَةُ، وأُطْلِقَ ذلك علىٰ الصِّلَةِ كما أُطْلِقَ اليَبْسُ علىٰ القَطِيعَةِ؛ لأن النَّدَاوةَ من شأنها تَجْمِيعُ ما يحصلُ فيها وتأليفُهُ، بخلاف اليَبْسِ فمِنْ شأنِهِ التَّفْرِيق.

(١) انظر فتح الباري (٩/٤٥٢).

الذِي شَرَحَ اللهُ بِهِ صَدْرَهُ، فَلَا عَلَيْهِ أنْ يَبِيتَ بَعْدَ هَذَا الإِنْذَارِ ومَكَّةُ تَمُوجُ بالغَرَابَةِ والِاسْتِنْكَارِ، وتَسْتَعِدُّ لِحَسْمِ هَذِهِ الثَّوْرَةِ التِي انْدَلَعَتْ بَغْتَةً، وتَخْشَىٰ أنْ تَأْتِيَ عَلَىٰ تَقَالِيدِهَا ومَوْرُوثَاتِهَا[1].

الصَّدْعُ بالدَّعْوَةِ ورُدُودُ فِعْلِ قُرَيْشٍ:

لَمَّا أظْهَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّعْوَةَ لِلْإِسْلَامِ، وَصَدَعَ بالحَقِّ كَمَا أمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، لَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ قَوْمُهُ، ولَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ، حتَّىٰ ذَكَرَ آلِهَتَهُمْ وعَابَهَا، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ، أعْظَمُوهُ ونَاكَرُوهُ[2]، وأجْمَعُوا عَلَىٰ خِلَافِهِ وعَدَاوَتِهِ، إلَّا عَمُّهُ أبُو طَالِبٍ الذِي حَدَبَ عَلَيْهِ[3]، ومَنَعَهُ وقَامَ دُونَهُ[4].

ومَضَىٰ رسُولُ اللهِ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ مُظْهِرًا لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ لَا يَرُدُّهُ عَنْهُ شَيْءٌ، ومُعَكِّرًا عَلَىٰ خُرَافَاتِ الشِّرْكِ وتُرَّهَاتِهِ[5]، ويَذْكُرُ حَقَائِقَ الأصْنَامِ، وَمَا لَهَا مِنْ قِيمَةٍ فِي الحَقِيقَةِ، يَضْرِبُ بِعَجْزِهَا الأمْثَالَ، ويُبَيِّنُ بِالبَيِّنَاتِ أنَّ مَنْ عَبَدَهَا وجَعَلَهَا وَسِيلَةً بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ تَعَالَىٰ فَهُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[6].

---

(١) انظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ٩٧.

(٢) المُنَاكَرَةُ: أي المُحَارَبة. انظر النهاية (٥/١٠٠).

(٣) حَدَبَ عليهِ: أي عَطَفَ وأشْفَقَ عَليه. انظر النهاية (١/٣٣٧).

(٤) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٠١).

(٥) التُّرَّهَاتُ: هي كنايةٌ عنِ الأباطيلِ، واحِدُها تُرَّهَة بضم التاء وفتح الراء المشددة، وهي في الأصل الطرق الصِّغار المُتَشَعِّبَةُ عن الطريق الأعظم. انظر النهاية (١/١٨٤).

(٦) انظر الرحيق المختوم ص ٨٠.

إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ فَاجَأَ العَرَبَ بِمَا لَمْ يَكُونُوا يَأْلَفُونَهُ، وقَدِ اسْتَنْكَرُوا دَعْوَتَهُ أَشَدَّ الِاسْتِنْكَارِ، وكَانَ كُلُّ هَمِّهِمُ القَضَاءَ عَلَيْهِ وعَلَىٰ أَصْحَابِهِ، فكَانَ ذَلِكَ رَدًّا تَارِيخِيًّا عَلَىٰ بَعْضِ دُعَاةِ القَوْمِيَّةِ الذِينَ زَعَمُوا أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إنَّمَا كَانَ يُمَثِّلُ فِي رِسَالَتِهِ آمَالَ العَرَبِ ومَطَامِحَهُمْ حِينَذَاكَ، وهُوَ زَعْمٌ مُضْحِكٌ تَرُدُّهُ وَقَائِعُ التَّارِيخِ الثَّابِتَةُ كَمَا رَأَيْنَا، وما حَمَلَ هذَا القَائِلُ وأَمْثَالُهُ عَلَىٰ هذَا القَوْلِ إلَّا الغُلُوُّ فِي دَعْوَىٰ القَوْمِيَّةِ وجَعْلِ الإسْلَامِ أَمْرًا مُنْبَثِقًا مِنْ ذَاتِيَّةِ العَرَبِ وتَفْكِيرِهِمْ، وهَذَا إنْكَارٌ وَاضِحٌ لِنُبُوَّةِ الرَّسُولِ ﷺ وخَفْضٌ عَظِيمٌ لِرِسَالَةِ الإسْلَامِ[(١)].

۞ وَفْدُ قُرَيْشٍ إلَىٰ أَبِي طَالِبٍ:

فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ وَرَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لا يُعْتِبُهُمْ[(٢)] مِنْ شَيْءٍ أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ مِنْ فِرَاقِهِمْ وَعَيْبِ آلِهَتِهِمْ، ورَأَوْا أَنَّ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ قَدْ حَدَبَ عَلَيْهِ وقَامَ دُونَهُ فلَمْ يُسْلِمْهُ لَهُمْ، مَشَىٰ رِجَالٌ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ إلَىٰ أَبِي طَالِبٍ، وهُمْ: عُتْبَةُ وشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ[(٣)]، وأَبُو سُفْيَانَ بنُ حَرْبٍ[(٤)]، وأَبُو البَخْتَرِيِّ[(٥)]،

---

(١) انظر السِّيرة النَّبويَّة دروس وعبر، للدكتور مصطفىٰ السباعي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ٤٩.

(٢) لا يُعْتِبُهُمْ: أي لا يُرْضِيهِمْ. انظر لسان العرب (٩/٣٠).

(٣) قتلا كافرين في غزوة بدر الكبرى.

(٤) أسلم في فتح مكة وحسن إسلامه.

(٥) قُتِل كافرًا في غزوة بدر الكبرى.

والأَسْوَدُ بنُ المُطَّلِبِ[١]، وأَبُو جَهْلٍ عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ[٢]، والوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ[٣]، ونُبَيْهٌ ومُنَبِّهٌ ابْنَا الحَجَّاجِ[٤]، والعَاصُ بنُ وَائِلٍ[٥]، فقَالُوا: يا أبَا طَالِبٍ! إنَّ ابنَ أخِيكَ قَدْ سَبَّ آلِهَتَنَا وعَابَ دِينَنَا، وسَفَّهَ أحْلَامَنَا[٦]، وضَلَّلَ آبَاءَنَا، فإمَّا أنْ تَكُفَّهُ عَنَّا، وإمَّا أنْ تُخَلِّيَ بَيْنَنَا وبَيْنَهُ، فإنَّكَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ خِلَافِهِ، فَنَكْفِيكَهُ، فقَالَ لَهُمْ أبُو طَالِبٍ قَوْلًا رَفِيقًا، ورَدَّهُمْ رَدًّا جَمِيلًا، فانْصَرَفُوا عَنْهُ[٧].

۞ مَوْقِفُ الوَلِيدِ بنِ المُغِيرَةِ:

رَوَىٰ الحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ وَصَحَّحَهُ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ الوَلِيدَ بنَ المُغِيرَةِ جَاءَ إلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ القُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أبَا جَهْلٍ، فأتَاهُ فقَالَ: يَا عَمُّ! إنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أنْ يَجْمَعُوا لكَ مَالًا، قالَ: لِمَ؟ قالَ: لِيُعْطُوكَهُ، فإنَّكَ أتَيْتَ مُحَمَّدًا، قالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أنِّي مِنْ أكْثَرِهَا مَالًا، قالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ، أوْ أنَّكَ كَارِهٌ لهُ، قالَ: ومَاذَا أقُولُ؟ فَوَاللهِ ما فِيكُمْ رَجُلٌ أعْلَمَ بِالأشْعَارِ مِنِّي، ولا أعْلَمَ بِرَجَزِهِ، ولَا بِقَصِيدِهِ مِنِّي، ولا

(١) الأسود بن المطلب مات كافرًا قبل غزوة بدر الكبرى.
(٢) قُتِل كافرًا في غزوة بدر الكبرى.
(٣) مات كافرًا قبل غزوة بدر الكبرى.
(٤) قُتِلا كافرين في غزوة بدر الكبرى.
(٥) مات كافرًا قبل غزوة بدر الكبرى.
(٦) الأحلام: العقول. انظر النهاية (١/٤١٦).
(٧) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٠١ ـ ٣٠٢).

بأشْعَارِ الجنِّ، واللهِ مَا يُشْبِهُ الذِي يقُولُ شَيْئًا منْ هَذَا، ووَاللهِ إنَّ لِقَوْلِهِ الذِي يَقُولُ حَلَاوَةٌ، وإنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ[1]، وإنَّهُ لَمُثْمِرٌ أعْلَاهُ، مُغْدِقٌ[2] أسْفَلُهُ، وإنَّهُ لَيَعْلُو ومَا يُعَلَىٰ، وإنَّهُ لَيَحْطِمُ ما تَحْتَهُ، قالَ: لا يَرْضَىٰ عَنْكَ قَوْمُكَ حتَّىٰ تقُولَ فيهِ، قالَ: فَدَعْنِي حتَّىٰ أُفكِّرَ، فلَمَّا فكَّرَ قالَ: هذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأْثُرُهُ[3] عَنْ غَيْرِهِ[4].

فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ في الوَلِيدِ بنِ المُغِيرَةِ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[5].

قالَ أحْمَد شَوْقِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

الـذِّكْرُ آيَـةُ رَبِّـكَ الكُبْـرَىٰ التِـي ... فِيهَـا لِبَـاغِي المُعْجِـزَاتِ غِنَـاءُ

---

(١) الطَّلَاوَةُ: أي رَوْنَقًا وحُسْنًا. انظر النهاية (٣/١٢٥).

(٢) الغَدَقُ: المَطَرُ الكَثِيرُ. انظر لسان العرب (١٠/٢٤).
ومنه قوله تَعَالَىٰ في سورة الجن آية (١٦): ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾. ـ وأراد الوليد: أن القرآن نَدِيٌّ وطَرِيٌّ.

(٣) يُؤْثَرُ: أي يُرْوَي ويُحْكَىٰ عنه. انظر النهاية (١/٢٦).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ رقم الحديث (٣٩٢٦) ـ وقال: صحيح الإسناد على شرط البخاري ـ والبيهقي في دلائل النبوة (٢/١٩٨ ـ ١٩٩) من هذا الطريق، ومن طرق أخرى مرسلة، ثم قال بعد إيراد جميع الطرق: وكل ذلك يؤكِّد بعضه بعضًا.

(٥) سورة المدثر آية (١١ ـ ٢٥).

صَـدْرُ البَيَـانِ لَـهُ إذَا الْتَقَـتِ اللُّغَـىٰ ... وتَقَـــدَّمَ البُلَغَـــاءُ والفُصَـــحَاءُ
نُسِـخَتْ بِـهِ التَّـوْرَاةُ وهْـيَ وَضِـيئَةٌ ... وتَخَلَّــفَ الإنْجِيــلُ وَهْـوَ ذَكَـاءُ
لَمَّـا تَمَشَّـي فِـي الحِجَـازِ حَكِيمُـهُ ... فُضَّــتْ عُكَـاظُ بِـهِ وقَـامَ حِـرَاءُ
أزْرَىٰ بِمَنْطِـقِ أهْـلِ مَكَّـةَ وَبَيَـانِهِمْ ... وَحْـــيٌ يُقَصِّــرُ دُونَــهُ البُلَغَـــاءُ
حَسَـدُوا فَقَـالُوا شَـاعِرٌ أوْ سَـاحِرٌ ... ومِـنَ الحَسُـودِ يَكُـونُ الِاسْـتِهْزَاءُ
قَدْ نَـالَ بِالْهَـادِي الكَرِيـمِ وبِالْهُـدَىٰ ... مَـا لَـمْ تَنَـلْ مِـنْ سُـؤْدُدٍ سَـيْنَاءُ
أمْسَـىٰ كَأنَّـكَ مِـنْ جَلَالِـكَ أُمَّـةٌ ... وكَأنَّـــهُ مِـــنْ إنْسِـــهِ بَيْـــدَاءُ
يُـوحِي إلَيْـكَ الفَـوْزَ فِـي ظُلُمَاتِـهِ ... مُتَتَبِّعَـــا تُجْلَـــىٰ بِـــهِ الظَّلْمَـــاءُ
دِيــنٌ يُشَــيَّدُ آيَــةً فِــي آيَــةٍ ... لَبِنَاتُـــهُ السُّـــوَرَاتُ والأضْـــوَاءُ
الحَقُّ فِيـهِ هُـوَ الأسَـاسُ وكَيْـفَ لَا ... واللهُ جَـــلَّ جَلَالُـــهُ البَنَّـــاءُ

❁ **تَشَاوُرُ قُرَيْشٍ لِصَدِّ الحُجَّاجِ عَنِ اسْتِمَاعِ الدَّعْوَةِ:**

اسْتَمَرَّ الرَّسُولُ ﷺ عَلَىٰ ما هُوَ عَلَيْهِ يُظْهِرُ دِينَ اللهِ تَعالَىٰ، ويَدْعُو إلَيْهِ حتَّىٰ اقْتَرَبَ مَوْسِمُ الحَجِّ، وعَرَفَتْ قُرَيْشٌ أنَّ وُفُودَ العَرَبِ سَتَقْدُمُ عَلَيْهِمْ، واحْتَارُوا في أمْرِ الرَّسُولِ ﷺ، وكَيْفَ يَحُولُونَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الحُجَّاجِ؛ لِأنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّهُ صَادِقٌ أمِينٌ، فَاتَّفَقُوا أنْ يَصِفُوا الرَّسُولَ ﷺ بأنَّهُ سَاحِرٌ، وهُوَ رَأْيُ الوَلِيدِ بنِ المُغِيرَةِ لَعَنَهُ اللهُ.

وبَعْدَ أنِ اتَّفَقَتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ هذَا القَرَارِ بَاشَرُوا في تَنْفِيذِهِ، فَجَلَسُوا بِسُبُلِ النَّاسِ حِينَ قَدِمُوا المَوْسِمَ، لا يَمُرُّ بهِمْ أحَدٌ إلَّا حَذَّرُوهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وذَكَرُوا لهُ أمْرَهُ.

والذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَ ذَلِكَ هُوَ أَبُو لَهَبٍ، فقَدْ كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَتْبَعُ النَّاسَ إذَا وَافَىٰ المَوْسِمَ في مَنَازِلِهِمْ، وفِي عُكَاظٍ[1] ومِجَنَّةٍ[2] وذِي المَجَازِ[3] يَدْعُوهُمْ إلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، ويُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وأبُو لَهَبٍ خَلْفَهُ يقُولُ: لا تُطِيعُوهُ ولا تَسْمَعُوا مِنْهُ، فإنَّهُ صَابِئٌ كَذَّابٌ.

روَىٰ الإمَامُ أحْمَدُ في مُسْنَدِهِ، وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عنْ رَبِيعَةَ بنِ عِبَادٍ الدِّيْلِيِّ[4] وكانَ جَاهِلِيًّا أَسْلَمَ، فقَالَ: رأَيْتُ رسُولَ الله ﷺ بَصَرَعَيْنِي بِسُوقِ ذِي المَجَازِ يقُولُ: «**يا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لا إلَهَ إلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»، ويَدْخُلُ في فِجَاجِهَا[5]، والنَّاسُ مُقْتَصُّونَ[6] علَيْهِ، فمَا رأَيْتُ أحَدًا يقُولُ شَيْئًا، وهُوَ لا يَسْكُتُ يَقُولُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لا إلَهَ إلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**» إلَّا أنَّ وَرَاءَهُ رَجُلًا أحْوَلَ وَضِيءَ الوَجْهِ ذَا غَدِيرَتَيْنِ[7] يقُولُ: إنَّهُ صَابِئٌ[8]

---

(١) عُكَاظٌ: موضِعٌ بِقُرْبِ مَكةَ، كانت تُقَامُ به في الجاهلية سوقٌ يُقِيمونَ فيه أيَّامًا. انظر النهاية (٣/٢٥٧).

(٢) مِجَنَّةٌ: هو مَوْضِعٌ بأسفَلِ مَكَّةَ علىٰ أميالٍ، وكان يقَامُ بها للعرَبِ سوق. انظر النهاية (٤/٢٥٧).

(٣) ذِي المَجَازِ: هو مَوْضِعُ سوق علىٰ مسافةِ فرسَخٍ من عَرَفَةَ كانت تقومُ في الجاهليَّة ثمانية أيَّام. انظر معجم البلدان (٥/٦٦).

(٤) هو رَبِيعَةُ بن عِبَادٍ الدِّيْلِيُّ يُعدُّ في أهل المدينة، وعُمِّر عُمُرًا طَوِيلًا.
قال الحافظ في الإصابة (٢/٣٩٠): ماتَ في خِلافةِ الوَلِيد.

(٥) الفِجَاجُ: جمعُ فَجٍّ، وهو الطريق الواسع. انظر النهاية (٣/٣٧٠).

(٦) قال السِّنْدِيُّ في شرح المسند (٩/١٧٦): مقتَصُّونَ عليه: أي مجْتَمِعُونَ عليه تَعَجُّبًا مما يقول.

(٧) غَدِيرَتَيْنِ: هي ضَفَائِرُ، وهي كذلك الذَّوَائِبُ. انظر النهاية (٣/٣١٠).

(٨) كانت العربُ تُسَمِّي النبي ﷺ الصَّابئ؛ لأنه خرجَ مِن دين قُرَيش إلىٰ دينِ الإسلام، ويُسَمُّون مَنْ يدخلُ في دِينِ الإسلام مَصْبُوًّا. انظر النهاية (٣/٣).

كَاذِبٌ، فقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قالُوا: مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ وهُوَ يَذْكُرُ النُّبُوَّةَ، قُلْتُ: مَنْ هذَا الذِي يُكَذِّبُهُ؟ قالُوا: عَمُّهُ أبُو لَهَبٍ[1].

۞ قَصِيدَةُ أَبِي طَالِبٍ الشَّهِيرَةُ:

وأدَّىٰ ذلِكَ إلَىٰ أنْ صَدَرَتْ[2] العَرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَوْسِمِ، فَانْتَشَرَ ذِكْرُ رسُولِ اللهِ ﷺ في بِلَادِ العَرَبِ كُلِّهَا، وخَشِيَ أَبُو طَالِبٍ دَهْمَاءَ العَرَبِ[3] أنْ يَرْكَبُوه مَعَ قَوْمِهِ، فقَالَ قَصِيدَتَهُ المَشْهُورَةَ التِي تَعَوَّذَ فِيهَا بِحَرَمِ مَكَّةَ وبِمَكَانِهِ مِنْهَا، وتَوَدَّدَ فِيهَا أَشْرَافَ قَوْمِهِ، وهُوَ عَلَىٰ ذَلِكَ يُخْبِرُهُمْ أنَّهُ غَيْرُ مُسَلِّمٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ، ولا تَارِكُهُ لِشَيْءٍ أبَدًا حتَّىٰ يَهْلِكَ دُونَهُ. فقَالَ:

ولَمَّا رَأَيْتُ القَوْمَ لا وُدَّ فِيهِمُ ... وقَدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَىٰ والوَسَائِلِ
وقَدْ صَارَ حَوْلَنَا بِالعَدَاوَةِ والأَذَىٰ ... وقَدْ طَاوَعُوا أمْرَ العَدُوِّ المُزَايِلِ[4]
وقَدْ حَالَفُوا قَوْمًا عَلَيْنَا أَظِنَّةً[5] ... يَعَضُّونَ غَيْظًا خَلْفَنَا بِالأَنَامِلِ[6]
صَبَّرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمْرَاءَ سَمْحَةٍ[7] ... وأبْيَضَ عَضْبٍ مِنْ تُرَاثِ المَقَاوِلِ[8]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٦٠٢٣) ـ وأخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب كتب النبي ﷺ ـ رقم الحديث (٦٥٦٢).

(٢) صَدَرَ: رَجَعَ. انظر النهاية (٣/١٥).

(٣) الدَّهْمَاءُ: الجمَاعَةُ مِنَ الناس. انظر لسان العرب (٤/٤٣١).

(٤) المُزَايِلُ: أي التَّبَايُنُ والتَّفَرُّقُ. انظر لسان العرب (٦/١٢٨).

(٥) أظِنَّةً: أي مُتَّهَمِينَ. انظر لسان العرب (٨/٢٧١).

(٦) الأنَامِلُ: جمعُ أنْمُلَةٍ وهي رؤوس الأصابع. انظر لسان العرب (١٤/٢٩٥).

(٧) سَمْرَاء سَمْحَةٍ: أي فَرَسٍ سَرِيعَةٍ. انظر لسان العرب (٦/٣٥٦).

(٨) الأبيض: أي السيف، والعَضْبُ: أي القاطع. انظر لسان العرب (٩/٢٥٢).

وأحْضَـرْتُ عِنْـدَ البَيْـتِ رَهْطِي وإخْـوَتِي ... وأمْسَـكْتُ مِـنْ أثْوَابِـهِ بالوَصَـائِلِ

ومِنْهَا:

أعُـوذُ بِـرَبِّ النَّـاسِ مِـنْ كُـلِّ طَـاعِنٍ ... عَلَيْنَـا بِسُـوءٍ أوْ مُلِـحٍّ بِبَاطِـلِ

ومِـنْ كَاشِـحٍ[1] يَسْـعَىٰ لَنَـا بِمَعِيبَـةٍ ... ومِـنْ مُلْحِقٍ في الدِّينِ مَا لَمْ نُحَاوِلِ

وثَـوْرٍ ومَـنْ أَرْسَـىٰ ثَبِيـرًا[2] مَكَانَـهُ ... ورَاقٍ لِيَرْقَـىٰ فِـي حِـرَاءَ ونَـازِلِ

وبِالْبَيْتِ حَقُّ البَيْـتِ مِنْ بَطْـنِ مَكَّـةٍ ... وبِـاللهِ إنَّ اللهَ لَـيْسَ بِغَافِـلِ

وبِـالْحَجَرِ المُسَـوَّدِ إذْ يَمْسَـحُونَهُ ... إذَا اكْتَنَفُـوهُ بِالضُّـحَىٰ والأَصَـائِلِ

ومَـوْطِئِ إبْـرَاهِيمَ فِـي الصَّـخْرِ رَطْبَـةً ... عَلَـىٰ قَدَمَيْـهِ حَافِيًـا غَيْـرَ نَاعِـلِ

ومِنْهَا:

كَــذَبْتُمْ وَبَيْـتِ اللهِ نَتْـرُكَ مَكَّـةً ... وَنَظْعَـنُ إلَّا أمْـرُكُمْ فِـي بَلَابِـلِ[3]

كَـذَبْتُمْ وَبَيْـتِ اللهِ نَبْـزِي[4] مُحَمَّـدًا ... وَلَمَّـا نُطَـاعِنْ دُونَـهُ ونُنَاضِـلِ

ونُسْـلِمُهُ حَتَّـىٰ نُصَـرَّعَ حَوْلَـهُ ... ونُـذْهَلَ عَـنْ أبْنَائِنَـا والحَلَائِـلِ[5]

ويَـنْهَضُ قَـوْمٌ فِـي الحَدِيـدِ إلَـيْكُمُ ... نُهُـوضَ الرَّوَايَـا تَحْـتَ ذَاتِ الصَّلَاصِـلِ

المَقَاوِلُ: المُلُوك. انظر لسان العرب (١١/٣٥٣).

(١) الكَاشِحُ: هو العدُوُّ المُبْغِضُ. انظر لسان العرب (١٢/٩٩).

(٢) ثَورٌ وثَبِيرٌ وحِرَاءٌ: جبالٌ بمكَّةَ. انظر النهاية (١/٢٠٢ ـ ٢٢٣ ـ ٣٦٢).

(٣) بَلابِلٌ: هي وُسْوَاسُ الصَّدْرِ. انظر لسان العرب (١/٤٩٣).

(٤) نَبْزِي مُحَمدًا: أي نَسْلُبُهُ ونَغْلِبُ عليه. انظر سيرة ابن هشام (١/٣١٢).

(٥) الحَلائِلُ: الزَّوْجاتُ، واحِدَتُهَا: حليلة. انظر لسان العرب (٣/٢٩٦).

وحَتَّىٰ تَرَىٰ ذَا الضِّغْنَ يَرْكَبُ ردعَهُ[1] مِـنَ الطَّعْـنِ فِعْـلَ الأنْكَـبِ[2] المُتَحَامِـلِ

وإنَّـا لَعَمْـرُ اللهِ إنْ جَـدَّ مَـا أرَىٰ لَتَلْتَبِسَـنَّ أسْـيَافُنَا بالْأَمَاثِـلِ[3]

بِكَفَّيْ فَتًىٰ مِثْلَ الشِّهَابِ سَمَيْدَعٍ[4] أخِـي ثِقَـةٍ حَـامِي الحَقِيقَـةِ بَاسِـلِ

ومِنْهَا:

ومَـا تَـرَكَ قَـوْمٌ لَا أبَـا لَـكَ سَيِّدًا يَحُـوطُ الـذِّمَارَ غَيْـرَ ذَرِبٍ مُوَاكِـلِ[5]

وأبْـيَضُ يُسْتَسْـقَىٰ الغَمَـامُ بِوَجْهِـهِ ثِمَـالُ[6] اليَتَـامَىٰ عِصْـمَةٌ لِلْأَرَامِـلِ

يَلُـوذُ بِـهِ الهَـلَّاكُ مِـنْ آلِ هَاشِـمٍ فَهُـمْ عِنْـدَهُ فِـي رَحْمَـةٍ وَفَوَاضِـلِ

ومِنْهَا:

وَكَـانَ لَنَـا حَـوْضُ السِّـقَايَةِ فِـيهِمُ ونَحْـنُ الكَـدَىٰ مِـنْ غَالِـبٍ والكَوَاهِـلُ

شَـبَابٌ مِـنَ المُطَيَّبِـينَ وَهَاشِـمٍ كَبِيضِ السُّيُوفِ بَيْنَ أيْدِي الصَّيَاقِلِ[7]

---

(١) الضِّغن: الحقد. انظر لسان العرب (٨/٦٨).
يقال للقتيل: ركب رَدْعه: إذا خَرَّ لوجهه على دمه. انظر لسان العرب (٥/١٨٨).

(٢) الأنْكَبُ: المَائِلُ. انظر لسان العرب (١٤/٢٧٥).

(٣) أماثل القوم: خيارهم. انظر لسان العرب (١٣/٢٣).

(٤) السميدع: الكريم السيد. انظر لسان العرب (٦/٣٥٧).

(٥) الذِّمَارُ: ما يَلْزَمُكَ حِمَايَتُهُ. انظر لسان العرب (٥/٥٧).
ذَرِبٍ: هو الفاحِشُ البذيء. انظر لسان العرب (٥/٣١).
مواكل: عاجز كثير الاتكال على غيره. انظر لسان العرب (١٥/٣٨٧).

(٦) الثِّمال: الملجأ والغياث والمطعم في الشدة. انظر لسان العرب (٢/١٣٠).

(٧) الصياقل: السيوف اللامعة. انظر لسان العرب (٧/٣٧٧).

ومِنْهَا:

لَعَمْـرِي لَقَـدْ كَلِفْـتُ وجْـدًا بِأَحْمَـدٍ ... وإِخْوَتِـهِ دَأْبَ المُحِـبِّ المُوَاصِـلِ

فَـلَا زَالَ فِـي الـدُّنْيَا جَمَـالًا لِأَهْلِهَـا ... وزَيْنًـا لِمَـنْ وَاللهِ رَبَّ المَشَـاكِلِ

فَمَـنْ مِثْلُـهُ فِـي النَّـاسِ أيُّ مُؤَمِّـلٍ ... إِذَا قَاسَـهُ الحُكَّـامُ عِنْـدَ التَّفَاضُـلِ

حَلِيـمٌ رَشِـيدٌ عَـادِلٌ غَيْـرُ طَـائِشٍ ... يُـوَالِي إِلَاهًـا لَـيْسَ عَنْـهُ بِغَافِـلِ

فَـوَاللهِ لَـوْلَا أَنْ أَجِـيءَ بِسُـنَّةٍ ... تَجُـرُّ عَلَىٰ أَشْيَاخِنَا فِـي المَحَافِـلِ

لَكُنَّـا اتَّبَعْنَـاهُ عَلَـىٰ كُـلِّ حَالَـةٍ ... مِـنَ الـدَّهْرِ جِـدًّا غَيْـرَ قَـوْلِ التَّهَـازُلِ

لَقَـدْ عَلِمُـوا أَنَّ ابْنَنَـا لَا مُكَـذَّبٍ ... لَـدَيْنَا ولَا يَعْنِـي بِقَـوْلِ الأَبَاطِـلِ

فَأَصْـبَحَ فِينَـا أَحْمَـدُ فِـي أَرُومَـةٍ[(١)] ... تَقَصَّـرُ عَنْـهُ سُـورَةُ[(٢)] المُتَطَـاوِلِ

حَـدِبْتُ بِنَفْسِـي دُونَـهُ وحَمَيْتُـهُ ... ودَافَعْـتُ عَنْـهُ بِالـذُّرَا[(٣)] والكَلَاكِـلِ[(٤)]

فَأَيَّـدَهُ رَبُّ العِبَـادِ بِنَصْـرِهِ ... وأَظْهَـرَ دِينًـا حَقُّـهُ غَيْـرُ بَاطِـلِ[(٥)]

إِلَىٰ آخِرِ القَصِيدَةِ، وهِيَ قَصِيدَةٌ طَوِيلَةٌ جِدًّا.

قالَ فِيهَا الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: هَذِهِ قَصِيدَةٌ عَظِيمَةٌ بَلِيغَةٌ جِدًّا، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَهَا إِلَّا مَنْ نُسِبَتْ إِلَيْهِ، وهِيَ أَفْحَلُ مِنَ المُعَلَّقَاتِ

---

(١) الأَرُومَةُ: بفتح الهمزة: الأَصْلُ. انظر النهاية (١/٤٤).

(٢) السُّورَةُ: بضم السين هي المَنْزِلَةُ الرَّفِيعة. انظر لسان العرب (٦/٤٢٧).

(٣) الذُّرا: جمع ذُرْوَة، وهي أعْلَىٰ سَنَامِ البَعِير. انظر لسان العرب (٥/٤١).

(٤) الكَلاكِلُ: جمعُ كَلْكَلٍ، وهو الصَّدْرُ من كل شيء. انظر لسان العرب (١٢/١٤٦).

(٥) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٠٩).

السَّبْعِ، وأَبْلَغُ فِي تَأْدِيَةِ المَعْنَىٰ فِيهَا جَمِيعًا[1].

❁ مَا نَزَلَ بِشَأْنِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ[2] رضي الله عنه:

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو أَشْرَافَ قُرَيْشٍ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، ولَا يَأْلُو[3] جُهْدًا فِي نُصْحِهِمْ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَوْمًا مَعَ نَفَرٍ مِنْ زُعَمَائِهِمْ وكُبَرَائِهِمْ، فِيهِمْ: الوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ، وعُتْبَةُ، وشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ، يَتَأَلَّفُهُمْ ويَعْرِضُ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، إِذْ أَقْبَلَ عَبْدُ اللهِ بنُ أُمِّ مَكْتُومٍ الأَعْمَىٰ رضي الله عنه، فَجَعَلَ يَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، ويَسْتَقْرِئُهُ القُرْآنَ، فَشَقَّ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ أَضْجَرَهُ، وذَلِكَ أَنَّهُ شَغَلَهُ عَمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الوَلِيدِ وأَصْحَابِهِ، ومَا طَمِعَ فِيهِ مِنْ إِسْلَامِهِمْ، فلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ القَوْلَ خَافَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَكُونَ الْتِفَاتُهُ إِلَىٰ ذَلِكَ المِسْكِينِ الأَعْمَىٰ يُنَفِّرُ عَنْهُ قُلُوبَ أُولَئِكَ الزُّعَمَاءِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ وعَبَسَ فِي وَجْهِهِ، وأَقْبَلَ عَلَىٰ الآخَرِينَ، فَعَاتَبَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ، ونَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ...﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾[4].

---

(١) انظر البداية والنهاية (٣/٦٣).

(٢) مختلف في اسمه، فأهل المدينة يقولون: عبد الله، وأهل العراق يقولون: عمرو بنُ أمِّ مكتومٍ القُرَشِيُّ، وهو ابنُ خالِ خَدِيجَةَ أمِّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أسلمَ قَدِيمًا، كانَ مِنَ المهاجِرينَ الأوَّلين، قدم المدينةَ قبل أنْ يُهاجِرَ النبي ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يَسْتَخْلِفَهُ علىٰ المدينةِ في عامَّةِ غَزَوَاتِهِ يُصَلِّي بالناس، خَرَجَ رضي الله عنه إلىٰ القادِسِيَّةِ، فشَهِدَ القِتَالَ، واستشهِدَ هناك، وكان معه اللِّواءُ حِينئذ. انظر الإصابة (٤/٤٩٤).

(٣) لا يأْلُوا: أي لا يُقصِّرُ. انظر النهاية (١/٦٤).

(٤) سورة عبس آية (١ ـ ١٤).

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: أيْ يَقُولُ لَهُ: إنَّمَا بَعَثْتُكَ بَشِيرًا ونَذِيرًا، لَمْ أَخُصَّ بِكَ أحَدًا دُونَ أَحَدٍ، فَلَا تَمْنَعْهُ مِمَّنْ ابْتَغَاهُ، ولا تَتَصَدَّيَنَّ بِهِ لِمَنْ لا يُرِيدُهُ(١).

رَوَىٰ الحَاكِمُ وصَحَّحَهُ عنْ مُسْلِمِ بْنِ صُبَيْحٍ قالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وعِنْدَهَا رَجُلٌ مَكْفُوفٌ، وهِيَ تُقَطِّعُ لَهُ الْأُتْرُجَّ(٢) وتُطْعِمُهُ إِيَّاهُ بالعَسَلِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ؟، قَالَتْ: هَذَا ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ الذِي عَاتَبَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ فِيهِ نَبِيَّهُ ﷺ، قَالَتْ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَعِنْدَهُ عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ. فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمَا، فَنَزَلَتْ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ...﴾ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ(٣).

قالَ الإِمَامُ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: إنَّمَا قَصَدَ النَّبِيُّ ﷺ تَأْلِيفَ هَؤُلَاءِ الكُفَّارِ، ثِقَةً بِمَا كَانَ فِي قَلْبِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ مِنَ الإِيمَانِ، كَمَا قَالَ ﷺ فِي الحَدِيثِ المُتَّفَقِ عَلَيْهِ: **«إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يُكِبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ»**(٤).

---

(١) أخرج قِصَّةَ ابنِ أم مكتوم رضي الله عنه: ابن حبان في صحيحه ـ كتاب البر والصلة ـ باب فصل من البرِّ والإحسان ـ رقم الحديث (٥٣٥) ـ والترمذي في جامعه ـ باب ومن سورة عبس ـ رقم الحديث (٣٦٢١) ـ وإسناده صحيح على شرط مسلم ـ وانظر سيرة ابن هشام (٤٠١/١) ـ والطَّبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (٤٢٢/٤).

(٢) الأَتْرُجُّ: هي فاكِهَةٌ مَعْرُوفَةٌ، واحدَتُهُ تُرُنْجَةٌ، وأُتْرُجَّةٌ. انظر فتح الباري (٨٢/١٠) ـ ولسان العرب (٢٥/٢).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ باب تعظيمِ أهل بيتِ النبي ﷺ لابنِ أمِّ مكتوم ـ رقم الحديث (٦٧٣٠).

(٤) أخرج هذا الحديث: البخاري في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب إذا لم يكن الإسلام=

ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ عَاتَبَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ حَبِيبَهُ ونَبِيَّهُ ﷺ حَتَّىٰ لَا تَنْكَسِرَ قُلُوبُ أَهْلِ الصُّفَّةِ[1]، أَوْ لِيُعْلَمَ أَنَّ المُؤْمِنَ الفَقِيرَ خَيْرٌ مِنَ الغَنِيِّ الكَافِرِ، وكَانَ النَّظَرُ إِلَىٰ المُؤْمِنِ أَوْلَىٰ، وإِنْ كَانَ فَقِيرًا أَصْلَحُ وأَوْلَىٰ مِنَ الأَمْرِ الآخَرِ، وهُوَ الإِقْبَالُ عَلَىٰ الأَغْنِيَاءِ طَمَعًا فِي إِيمَانِهِمْ، وإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَيْضًا نَوْعًا مِنَ المَصْلَحَةِ[2].

۞ حَدِيثٌ لَا أَصْلَ لَهُ:

قُلْتُ: وَأَمَّا مَا اشْتُهِرَ مِنْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى عَبْدَ اللهِ بنَ أُمِّ مَكْتُومٍ ﵁، قَالَ لَهُ: **«أَهْلاً أَوْ مَرْحَبًا بِالَّذِي عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»**[3].

قَالَ الأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ: لَا أَعْلَمُ لِهَذَا الحَدِيثِ أَصْلاً يُمْكِنُ الاعْتِمَادُ عَلَيْهِ[4].

** ** **

= علىٰ الحقيقة ـ رقم الحديث (٢٧) ـ وأخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب تألف قلب من يخاف علىٰ إيمانه لضعفه ـ رقم الحديث (١٥٠).

(١) أهلُ الصُّفَّةِ: هم فُقَرَاءُ المُهَاجرينَ، ومَن لم يكنْ له منهم مَنْزِلٌ يَسْكُنُهُ، فكانوا يأوُون إلىٰ موضِعٍ مُظَلَّلٍ في مسجدِ المدينةِ يسْكُنُونَهُ. انظر النهاية (٣/٣٥).

(٢) انظر تفسير القرطبي (٢٢/٧٢).

(٣) أورد هذا الحديث: الواحدي في أسباب النزول (ص ٤٧٩) بدون إسناد ـ وعلَّقه القرطبي في تفسيره (٢٢/٧١) عن سفيان الثوري.

(٤) انظر السلسلة الضعيفة للألباني رحمه الله (٣/٦٣٥).

إسْلامُ أبي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ رضي الله عنه

الذِي يَظْهَرُ أنَّ إسْلَامَ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ، واسْمُهُ جُنْدُبُ بْنُ جُنَادَةَ رضي الله عنه، تَأَخَّرَ بَعْدَ البِعْثَةِ بِعِدَّةِ سَنَوَاتٍ كَمَا سَأُبَيِّنُ ذَلِكَ، وأمَّا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ(١) مِنْ أنَّهُ رضي الله عنه أسْلَمَ فِي بِدَايَةِ الدَّعْوَةِ السِّرِّيَّةِ، فَفِيهِ نَظَرٌ.

وكانَ رضي الله عنه يَبْحَثُ عَنِ الحَقِّ، وقِصَّةُ إسْلَامِهِ رضي الله عنه أخْرَجَهَا الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا مَعَ تَغَايُرٍ بَيْنَهُمَا.

* **رِوَايَةُ الإمَامِ مُسْلِمٍ وأحْمَدَ(٢) واللَّفْظُ لِأَحْمَدَ:**

قالَ أبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: خَرَجْنَا مِنْ قَوْمِنَا غِفَارٍ... أنَا وأخِي أُنَيْسٌ، وأُمُّنَا،... فقَالَ أُنَيْسٌ: إنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ، فاكْفِنِي حتَّىٰ آتِيَكَ.

قالَ: فَانْطَلَقَ فَرَاثَ(٣) عَلَيَّ، ثمَّ أتَانِي، فقُلْتُ: ما حَبَسَكَ؟

قالَ: لَقِيتُ رَجُلًا يَزْعُمُ أنَّ اللهَ أرْسَلَهُ عَلَىٰ دِينِكَ.

فقُلْتُ: مَا يَقُولُ النَّاسُ لَهُ؟

---

(١) انظر الطبَّقات الكُبْرىٰ لابن سعد (٤/٢٣١).

(٢) قَدَّمْتُ رواية الإمام مسلم والإمام أحمد علىٰ رواية البخاري؛ لأن فيهَا تَفْصِيلًا أكثر.

(٣) رَاثَ: أي أبْطَأَ. انظر النهاية (٢/٢٦١).

قال: يَقُولُونَ: إِنَّهُ شَاعِرٌ وسَاحِرٌ وكَاهِنٌ ـ وكَانَ أُنَيْسُ شَاعِرًا ـ.

فقَالَ أُنَيْسٌ: قَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الكُهَّانِ، فَمَا يَقُولُ بِقَوْلِهِمْ، وقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَىٰ أقْرَاءِ الشِّعْرِ[1]، فَوَاللهِ مَا يَلْتَئِمُ لِسَانُ أَحَدٍ أَنَّهُ شِعْرٌ، واللهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ، وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

فقَالَ أبُو ذَرٍّ ﷺ: هَلْ أنْتَ كَافِيَّ حتَّىٰ أنْطَلِقَ فَأَنْظُرَ؟[2].

قَالَ: نَعَمْ، فكُنْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَىٰ حَذَرٍ، فإِنَّهُمْ قَدْ شَنِفُوا لَهُ[3]، وتَجَهَّمُوا[4] لَهُ.

قالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ: فَانْطَلَقْتُ حتَّىٰ قَدِمْتُ مَكَّةَ، فتَضَعَّفْتُ[5] رَجُلًا مِنْهُمْ، فَقُلْتُ: أيْنَ هذَا الرَّجُلُ الذِي تَدْعُونَهُ الصَّابِئَ؟

فأشَارَ إِلَيَّ، وقَالَ: الصَّابِئُ، فَمَالَ أهْلُ الوَادِي عَلَيَّ بِكُلِّ مَدَرَةٍ[6]، وَعَظْمٍ حتَّىٰ خَرَرْتُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ، فَارْتَفَعتُ حِينَ ارْتَفَعتُ، كَأَنِّي نُصُبٌ أحْمَرُ[7]،

---

(١) أقْرَاءُ الشِّعْرِ: أي طرُقُ الشِّعْرِ وأنوَاعهُ وبُحُورُهُ. انظر النهاية (٤/٢٨).

(٢) في رواية مسلم في صحيحه قال ﷺ: فاكفِنِي حتَّىٰ أذهَبَ فأنْظُرَ.

(٣) شَنِفُوا له: أي أبْغَضُوهُ. انظر النهاية (٢/٤٥١).

(٤) تَجَهَّمَنِي القَوْمُ: إذا لَقُونِي بالغِلْظَةِ، والوجه الكَرِيهِ. انظر النهاية (١/٣١١).

(٥) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٦/٢٤): يعني نَظَرْتُ إلىٰ أضْعَفِهِمْ، فسألْتُهُ؛ لأن الضَّعِيفَ مأمُونُ الغائِلَةِ غَالبًا.

(٦) المَدَرُ: هو الطِّينُ المُتَمَاسِكُ. انظر النهاية (٤/٢٦٤).

(٧) النُّصُبُ: بضم النون هو الصَّنَمُ، وكانوا في الجاهلية يَنْصُبُونَ الصنم، ويَذْبَحونَ عنده، فيَحْمَرُّ بالدم، ويَقْصِدُ ﷺ: أنَّ مِنْ كثْرَةِ الدِّماءِ التي سَالَتْ منهُ صار كأنَّهُ الصَّنَمُ المُمْتَلِئُ بالدِّماء من كثرةِ ما يُذْبَحُ عنده. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٢٤) ـ النهاية (٥/٥٢).

فأَتَيْتُ زَمْزَمَ فَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا، وغَسَلْتُ عَنِّي الدَّمَ، ولَقَدْ لَبِثْتُ ثَلاثِينَ، بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، ما كَانَ لِي طَعَامٌ إلَّا مَاءُ زَمْزَمَ، فَسَمِنْتُ حتَّىٰ تَكَسَّرَتْ عُكَنُ[1] بَطْنِي، ومَا وَجَدْتُ عَلَىٰ كَبِدِي سَخْفَةَ[2] جُوعٍ.

قالَ ﷺ: فَبَيْنَا أَهْلُ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ إضْحِيَانَ[3]، إذْ ضَرَبَ اللهُ عَلَىٰ أَصْمِخَةِ[4] أَهْلِ مَكَّةَ، فَمَا يَطُوفُ بالبَيْتِ غَيْرُ امْرَأَتَيْنِ، فَأَتَتَا عَلَيَّ، وهُمَا تَدْعُوَانِ إسَافَ ونَائِلَةَ[5]، فَقُلْتُ: أَنْكِحُوا أَحَدَهُمَا الآخَرَ، فمَا تَنَاهَمَا ذَلِكَ، فَأَتَتَا عَلَيَّ، فَقُلْتُ: وَهَنٌ[6] مِثْلُ الخَشَبَةِ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَكْنِ[7]، فَانْطَلَقَتَا تُوَلْوِلَانِ، وتَقُولَانِ: لَوْ كَانَ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ أَنْفَارِنَا!

قَالَ: فَاسْتَقْبَلَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وأَبُو بَكْرٍ ﷺ، وهُمَا هَابِطَانِ مِنَ الجَبَلِ، فَقَالَا: «مَا لَكُمَا؟».

---

(١) العُكَنُ: بضم العَيْن: الأطْوَاءُ في البَطْنِ منَ السِّمَنِ. انظر لسان العرب (٩/٣٤٥).

(٢) قال النووي في شرح مسلم (١٦/٢٤): سَخْفَة الجُوعِ: بفتح السين وضمها، وهي رِقَّةُ الجُوعِ وضَعْفُهُ وهُزَالُهُ.

(٣) قال النووي في شرح مسلم (١٦/٢٤): الإضْحِيَانِ: بكسر الهَمْزَةِ والحَاءِ، أي مُضِيئَةٌ.

(٤) قال النووي في شرح مسلم (١٦/٢٥): أَصْمِخَتُهُمْ: جمع صِمَاخٍ، وهو الخَرْقُ الذي في الأذُنِ يُفْضِي إلىٰ الرَّأْسِ، والمراد بأصمختهمْ هنَا: آذانُهُمْ أي نَامُوا.

(٥) إسافُ ونائِلَة: هما صَنَمانِ تزعُمُ العربُ أنهما كانا رَجُلًا وامرأةً زنيا في الكعبة فمُسِخَا، وإِسَاف بكسر الهمزة وقد تُفتح. انظر النهاية (١/٥١).

(٦) قال النووي في شرح مسلم (١٦/٢٥): وهَنٌ: بفتح الهاء، هو كِنايةٌ عن كل شيءٍ، وأكثر ما يُستعملُ كنايةً عن الفَرْجِ والذَّكر، ومَثَّلَ الخشبةَ بالفرجِ، وأراد بذلك سَبَّ إسافٍ ونائلةَ، وغيظَ الكُفار.

(٧) قال السندي في شرح المسند (١٢/٤٥٨): لم أَكْنِ: من الكناية، أو التكنية، أي صرحت بذلك.

قَالَتَا: الصَّابِئُ بَيْنَ الكَعْبَةِ وأَسْتَارِهَا.

قَالَا: «**مَا قَالَ لَكُما؟**».

قَالَتَا: قَالَ لَنَا كَلِمَةً تَمْلَأُ الفَمَ[1].

قال أَبُو ذَرٍّ ﷺ: فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ هُوَ وصَاحِبُهُ حتَّىٰ اسْتَلَمَ الحَجَرَ، فَطَافَ بِالْبَيْتِ، ثُمَّ صَلَّىٰ، فلَمَّا قَضَىٰ صَلَاتَهُ أَتَيْتُهُ، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الإسْلَامِ، فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يا رَسُولَ اللهِ.

فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وعَلَيْكَ السَّلَامُ ورَحْمَةُ اللهِ**»، ثُمَّ قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**مِمَّنْ أنْتَ؟**».

قُلْتُ: مِنْ غِفَارٍ، قالَ: فَأَهْوَىٰ بِيَدِهِ، فَوَضَعَهَا عَلَىٰ جَبْهَتِهِ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: كَرِهَ أَنِّي انْتَمَيْتُ إِلَىٰ غِفَارٍ، ثمَّ قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**ومَتَىٰ كُنْتَ هَا هُنا؟**».

قُلْتُ: كُنْتُ هَاهُنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ.

فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ؟**».

قُلْتُ: مَا كَانَ لِيَ طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ، فَسَمِنْتُ حتَّىٰ تكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي، ومَا وَجَدْتُ عَلَىٰ كَبِدِي سَخْفَةَ جُوعٍ.

فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ**».

---

(١) قال النووي في شرح مسلم (١٦/٢٥): أي عَظِيمة لا شيءَ أَقْبَحَ منها.

فقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: يا رَسُولَ اللهِ! ائْذَنْ لِي فِي طَعَامِهِ اللَّيْلَةَ، قالَ: فَفَعَلَ.

فانْطَلَقَ رسُولُ اللهِ ﷺ وأبُو بَكْرٍ ﷺ، وانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، حتَّىٰ فتَحَ أبُو بَكْرٍ بَابًا، فَجَعَلَ يَقْبِضُ لَنَا مِنْ زَبِيبِ الطَّائِفِ.

قالَ أبُو ذَرٍّ ﷺ: فكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ طَعَامٍ أَكَلْتُهُ بِهَا، فَلَبِثْتُ مَا لَبِثْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ، فقَالَ: «**إِنِّي قَدْ وُجِّهَتْ لِي أَرْضٌ ذَاتُ نَخْلٍ، ولَا أَحْسِبُهَا إِلَّا يَثْرِبَ، فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ؟ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ ويَأْجُرَكَ فِيهِمْ؟**».

قالَ أبُو ذَرٍّ ﷺ: فَانْطَلَقْتُ حتَّىٰ أَتَيْتُ أَخِي أُنَيْسًا، فقَالَ لِي: مَا صَنَعْتَ؟

قُلْتُ: صَنَعْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ وصَدَّقْتُ.

قالَ أُنَيْسٌ: فَمَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكَ[1]، فإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، ثُمَّ أَتَيْنَا أُمَّنَا، فقَالَتْ: فَمَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكُمَا، فإِنِّي أَسْلَمْتُ وصَدَّقْتُ، فَاحْتَمَلْنَا حتَّىٰ أَتَيْنَا قَوْمَنَا غِفَارٍ، فأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ، وكَانَ يَؤُمُّهُمْ إِيمَاءُ بنُ رَحَضَةَ الْغِفَارِيُّ، وكَانَ سَيِّدَهُمْ.

ثُمَّ قَدِمَتْ قَبِيلَةُ غِفَارٍ عَلَىٰ رسُولِ الله ﷺ وهُوَ فِي المَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ، وَأُحُدٍ، وصَادَفَ قُدُومُهُمْ قُدُومَ قَبِيلَةِ أَسْلَمَ، فَلَمَّا أَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**غِفَارٌ غَفَرَ اللهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ**»[2].

(١) قال النووي في شرح مسلم (٢٦/١٦): أي لا أكرهُه، بل أدخُلُ فيه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أبي ذر ﷺ ـ رقم الحديث (٢٤٧٣) ـ والإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢١٥٢٥).

۞ رِوَايَةُ الإِمَامِ البُخَارِيِّ:

وفِي رِوَايَةِ البُخَارِيِّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ ﷺ مَبْعَثَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ لِأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِي فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ ثُمَّ ائْتِنِي، فَانْطَلَقَ الْأَخُ حَتَّى قَدِمَهُ وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَكَلامًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: مَا شَفَيْتَنِي مِمَّا أَرَدْتُ، فَتَزَوَّدَ، وَحَمَلَ شَنَّةً[1] لَهُ فِيهَا مَاءٌ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَأَتَى الْمَسْجِدَ، فَالْتَمَسَ النَّبِيَّ ﷺ ولَا يَعْرِفُهُ، وكَرِهَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ، حَتَّىٰ أَدْرَكَهُ بَعْضُ اللَّيْلِ، فَرَآهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه فَعَرَفَ أَنَّهُ غَرِيبٌ، فَلَمَّا رَآهُ تَبِعَهُ، فَلَمْ يَسْأَلْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَصْبَحَ، ثُمَّ احْتَمَلَ قِرْبَتَهُ وَزَادَهُ إِلَىٰ المَسْجِدِ، وظَلَّ ذَلِكَ اليَوْمَ ولَا يَرَاهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ أَمْسَىٰ فَعَادَ إِلَىٰ مَضْجِعِهِ، فَمَرَّ بِهِ عَلِيٌّ رضي الله عنه فقَالَ: أَمَا نَالَ[2] لِلرَّجُلِ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَهُ؟

فَأَقَامَهُ، فَذَهَبَ بِهِ مَعَهُ، لَا يَسْأَلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ، حَتَّىٰ إِذَا كانَ اليَوْمُ الثَّالِثُ فَعَادَ عَلِيٌّ رضي الله عنه عَلَىٰ مِثْلِ ذَلِكَ، فأَقَامَ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ: أَلَا تُحَدِّثُنِي مَا الذِي أَقْدَمَكَ؟

قَالَ: إِنْ أَعْطَيْتَنِي عَهْدًا وَمِيثَاقًا لَتُرْشِدَنَّنِي فَعَلْتُ، فَفَعَلَ، فأَخْبَرَهُ.

---

(١) الشَّنَّةُ: القربة. انظر النهاية (٢/٤٥٣).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٥٦٦/٧): نَالَ: أي حَانَ.

فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: فَإِنَّهُ حَقٌّ، وهُوَ رسُولُ اللهِ ﷺ، فإِذَا أَصْبَحْتَ فَاتْبَعْنِي... فانْطَلَقَ يَقْفُوهُ[١]، حتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، ودَخَلَ مَعَهُ، فَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ، وأَسْلَمَ مَكَانَهُ.

فقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْجِعْ إِلَىٰ قَوْمِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيكَ أَمْرِي**»[٢].

۞ الأدِلَّةُ عَلَىٰ تَأَخُّرِ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ ﷺ:

١ - ضِيَافَةُ عَلِيٍّ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ ﷺ.

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: وهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ قِصَّةَ أَبِي ذَرٍّ وَقَعَتْ بَعْدَ المَبْعَثِ بِأَكْثَرَ مِنْ سِنَتَيْنِ بِحَيْثُ يَتَهَيَّأُ لِعَلِيٍّ ﷺ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِمُخَاطَبَةِ الغَرِيبِ ويُضِيفَهُ، فَإِنَّ الأَصَحَّ فِي سِنِّ عَلِيٍّ ﷺ حِينَ المَبْعَثِ كَانَ عَشْرَ سِنِينَ[٣].

٢ - قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ ﷺ: «**إِنِّي قَدْ وُجِّهْتُ إِلَىٰ أَرْضٍ ذَاتِ نَخْلٍ، لَا أَرَاهَا إِلَّا يَثْرِبَ**».

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: فإِنَّ ذَلِكَ يُشْعِرُ بِأَنَّ وُقُوعَ ذَلِكَ كَانَ قُرْبَ الهِجْرَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ[٤].

---

(١) يَقْفُوهُ: أي يَتْبَعُهُ، وقفاه وراءَهُ وخلفَهُ. انظر النهاية (٤/٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب مناقب الأنصار - باب إسلام أبي ذر الغفاري ﷺ - رقم الحديث (٣٨٦١).

(٣) انظر فتح الباري (٧/٥٦٦).

(٤) انظر فتح الباري (٧/٥٦٨).

٣ ـ قَوْلُ أُنَيْسٍ رضي الله عنه لِأَخِيهِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: لَقِيتُ رَجُلًا يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ عَلَىٰ دِينِكَ.

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ أبَا ذَرٍّ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ قَبْلَ لِقَائِهِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، ولَمْ يَنْتَشِرْ أَمْرُ الرَّسُولِ ﷺ فِي الجَزِيرَةِ إلَّا بَعْدَ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ مِنْ بِعْثَتِهِ ﷺ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ تَأَخُّرِ إسْلَامِهِ رضي الله عنه.

۞ أحَادِيثُ ضَعِيفَةٌ:

رَوَىٰ ابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ، والحَاكِمُ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ رُبُعَ الإِسْلَامِ، أَسْلَمَ قَبْلِي ثَلَاثَةٌ، وأَنَا الرَّابِعُ، أَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَرَأَيْتُ الِاسْتِبْشَارَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَنْ أَنْتَ؟».

فَقُلْتُ: إِنِّي جُنْدُبٌ، رَجُلٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ[1].

ورَوَىٰ الحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي رُبُعَ الإِسْلَامِ، لَمْ يُسْلِمْ قَبْلِي إلَّا النَّبِيُّ ﷺ، وأَبُو بَكْرٍ، وبِلَالٌ[2].

** ** **

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة ـ باب ذكر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ـ رقم الحديث (٧١٣٤) ـ والحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب ضرب قُرَيش أبا ذَرٍّ رضي الله عنه ـ رقم الحديث (٥٥١٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب ضرب قريش أبا ذَرٍّ رضي الله عنه ـ رقم الحديث (٥٥٠٩).

أسَالِيبُ قُرَيْشٍ فِي مُحَارَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ ودَعْوَتِهِ

لَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُسْتَمِرٌّ فِيمَا هُوَ عَلَيْهِ، لا يَصْرِفُهُ عَنْ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ شَيْءٌ، فكَّرُوا مَرَّةً أُخْرَىٰ، واخْتَارُوا لِقَمْعِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ أَسَالِيبَ مِنْهَا:

١ - إِثَارَةُ الشُّبُهَاتِ حَوْلَ مَصْدَرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، وبَثُّ الدِّعَايَاتِ الكاذِبَةِ، ونَشْرُ الإيرَاداتِ الوَاهِيَةِ حَوْلَ تَعَالِيمِهِ، وحَوْلَ شَخْصِيَّتِهِ ﷺ، والإكثارُ مِنْ ذَلِكَ بِحَيْثُ لا يَبْقَىٰ لِلْعَامَّةِ مَجَالٌ في تَدَبُّرِ دَعْوَتِهِ، فكانُوا يَقُولُونَ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[1]، وكانُوا يَقُولُونَ عنِ القُرْآنِ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[2]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾[3]، وكانُوا يَقُولُونَ عنْ رسُولِ الله ﷺ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[4].

قالَ ابنُ إسْحَاقَ: كَانَ رسُولُ الله ﷺ - فِيمَا بَلَغَنِي - كَثِيرًا ما يَجْلِسُ عِنْدَ

---

(١) سورة النحل آية (١٠٣).

(٢) سورة الفرقان آية (٥).

(٣) سورة الفرقان آية (٤).

(٤) سورة الفرقان آية (٧).

المَرْوَةِ إلى مَبْيَعَةِ غُلامٍ نَصْرَانِيٍّ يُقالُ لهُ: جَبْرٌ، عَبْدٌ لابنِ الحَضْرَمِيِّ، فكانُوا يقُولُونَ: واللهِ ما يُعَلِّمُ مُحَمَّدًا كَثِيرًا مما يأتِي بهِ إلا جَبْرٌ النَّصْرَانِيُّ، غُلامُ ابنِ الحَضْرَمِيِّ، فأنزلَ اللهُ في ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

قالَ ابنُ هِشَامٍ: يُلْحِدُونَ إلَيْهِ: أي يَمِيلُونَ إلَيْهِ، والإلْحَادُ: المَيْلُ عَنِ الحَقِّ[2].

٢ ـ من أسَالِيبِهِمْ أيْضًا: مُعَارَضَةُ القُرْآنِ بأسَاطِيرِ الأوَّلِينَ لإِشْغَالِ النَّاسِ بها عَنْهُ، فقدْ ذُكِرَ أنَّ النَّضْرَ بنَ الحَارِثِ[3] وكانَ مِنْ شَيَاطِينِ قُرَيشٍ، ومِمَّنْ يُؤْذِي رسُولَ اللهِ ﷺ، ويَنْصُبُ لهُ العَدَاوَةَ، كَانَ قَدِمَ الحِيرَةَ[4]، وتَعَلَّمَ بها أحادِيثَ مُلُوكِ الفُرْسِ، وأحَادِيثَ رُسْتُمٍ، فكانَ إذَا جَلَسَ رسُولُ الله ﷺ مَجْلِسًا

---

(١) سورة النحل آية (١٠٣) ـ والخبر في سيرة ابن هشام (٦/٢) ـ وأخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب التفسير ـ باب تفسير سورة النحل ـ رقم الحديث (٣٤١٤) عن ابن عباس رضي الله عنه ـ وإسناده صحيح.

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٧/٢).

(٣) هذا الرَّجلُ مِنْ أشَدِّ مَنْ عَانَدَ الرَّسول ﷺ، ثُمَّ أُسِر في غَزْوَةِ بدرٍ الكبرى، فَقُتِلَ كافرًا، قَتَلَهُ عَلِيُّ بن أبي طَالِبٍ رضي الله عنه بأمْرٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ.

(٤) الحِيرَةُ: بكسر الحاء، مدِينةٌ على ثَلاثةِ أمْيَالٍ مِنَ الكُوفَةِ على مَوْضِعٍ يُقَالُ لهُ النَّجَفُ، كانتْ مَسْكَنَ مُلُوكِ العَرَبِ في الجاهليةِ من زَمَنِ نَصْرٍ ثم لَخْمِ النُّعمانِ وآبائِهِ، وقيل: إنَّما سُمِّيت الحِيرة لأنَّ تُبَّعًا لمَّا أقبلَ بجيوشه فبَلغَ موضِعَ الحِيرَةِ ضَلَّ دليلُهُ، وتحيَّر فسُمِّيت الحِيرَة. انظر معجم البلدان (٢٠١/٣).

فَذَكَّرَ فيهِ باللهِ، وحَذَّرَ قَوْمَهُ ما أصابَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الأمَمِ مِنْ نِقْمَةِ اللهِ، خَلَفَهُ في مَجْلِسِهِ إذَا قَامَ، ثُمَّ قالَ: أَنَا وَاللهِ يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أحْسَنُ حَدِيثًا مِنْهُ، وما حَدِيثُهُ إلَّا أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا، فَهَلُمَّ إلَيَّ، فأنَا أُحَدِّثُكُمْ أحْسَنَ مِنْ حَدِيثِهِ، ثُمَّ يُحَدِّثُهُمْ عنْ مُلُوكِ فَارِسَ ورُسْتُمٍ، ثُمَّ يَقُولُ: بِمَاذَا مُحَمَّدٌ أحْسَنُ حَدِيثًا مِنِّي؟.

قالَ ابنُ هِشَامٍ: وهُوَ الذِي قَالَ ـ فِيمَا بَلَغَنِي ـ: سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللهُ[1].

رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قالَ: نَزَلَ في النَّضْرِ بنِ الحَارِثِ ثَمَانُ آيَاتٍ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2]، وكُلُّ ما ذُكِرَ فِيهِ مِنَ الأسَاطِيرِ[3] مِنَ القُرْآنِ[4].

ونَزَلَ في النَّضْرِ بنِ الحَارِثِ ـ قَبَّحَهُ اللهُ ـ قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام آية (٩٣) ـ والخبرُ في سيرة ابن هشام (١/٣٣٧).
اختُلِفَ فيمن نَزَلت فيهِ هذه الآية، فقِيل: في مُسَيْلِمَةَ الكذَّاب، وقيل: عبدِ الله بن سَعْدِ بنِ أَبِي السَّرْحِ، وقيل: النَّضْرِ بنِ الحَارث، واللهُ أعلم.
وانظر تفسير ابن كثير (٣/٣٠٢) ـ تفسير القرطبي (٨/٤٥٧).

(٢) سورة القلم آية (١٥).

(٣) قال الإمام السُّهيلي في الرَّوْض الأُنُف (٢/٥٣): واحدُ الأسَاطِيرِ أُسْطُورَةٌ كأُحْدُوثَة وأحَادِيث، وهو ما سَطَرَهُ الأوَّلُونَ.

(٤) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٣٧).

(٥) سورة الجاثية آية (٧ ـ ٨).

٣ - ومِنْ أَسَالِيبِهِمْ: السُّخْرِيَةُ والاسْتِهْزَاءُ والتَّكْذِيبُ، وقدْ لَجَأَتْ قُرَيْشُ إلىٰ هَذَا الأُسْلُوبِ لِتَخْذِيلِ المُسْلِمِينَ، وتَوْهِينِ قُوَاهُمُ المَعْنَوِيَّةِ، فَرَمَوْا النَّبِيَّ ﷺ بالجُنُونِ: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (١).

ووَصَمُوهُ(٢) بالسِّحْرِ والكَذِبِ وقَوْلِ الشِّعْرِ: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (٣)، ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (٤).

قال ابنُ إسحاقَ: وكانَ رسُولُ الله ﷺ إذا تَلا عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، ودَعَاهُمْ إلىٰ اللهِ تَعالَىٰ، قالُوا يَهْزَؤُونَ بِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ(٥) مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ(٦) وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾ (٧)، فأنزلَ اللهُ تعالَىٰ عليهِ في ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) سورة الحجر (٦).

(٢) وصم الشيء: عابه. انظر لسان العرب (١٥/٣٢٠).

(٣) سورة ص آية (٤).

(٤) سورة الأنبياء آية (٥).

(٥) قالَ الرَّاغِبُ الأصفَهانيُّ في مُفْرَدَاتِ القرآن ص ٤٤٤: الكِنَانُ: الغِطَاءُ الذِي يُكَنُّ فيه الشَّيْءُ، والجَمْعُ أَكِنَّةٌ نحوُ غِطَاءٌ وأَغْطِيَةٌ، قال الله تَعالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ في غِطَاءٍ عَنْ تَفَهُّمِ مَا تُورِدُهُ عَلَيْنَا....

(٦) قال الراغِبُ الأَصْفَهاني في مُفردات القرآن ص ٥٤٤: الوَقْرُ: الثِّقَلُ في السَّمْعِ.
وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/١٦١): أي آذانُنا صَمَمٌ عمَّا جِئْتَنا به.

(٧) سورة فصلت آية (٥).

يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾.

أيْ كَيْفَ فَهِمُوا تَوْحِيدَكَ ربَّكَ إنْ كُنْتَ جَعَلْتَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً، وفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وبَيْنَكَ وبَيْنَهُمْ حِجَابًا بزَعْمِهِمْ، أي: إنِّي لَمْ أفْعَلْ ذَلِكَ: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أي ذَلِكَ ما تَوَاصَوْا بِهِ مِنْ تَرْكِ ما بَعَثْتُكَ بهِ إلَيْهِمْ ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أيْ أَخْطَؤُوا المَثَلَ الذِي ضَرَبُوا لكَ، فَلا يُصِيبُونَ بهِ هُدًى، ولا يَعْتَدِلُ لَهُمْ فيهِ قَوْلٌ: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: قَدْ جِئْتَ تُخْبِرُنَا أنَّا سَنُبْعَثُ بَعْدَ مَوْتِنَا إذَا كُنَّا عِظَامًا ورُفَاتًا، وذَلِكَ ما لا يَكُونُ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1] أيْ: الذِي خَلَقَكُمْ مِمَّا تَعْرِفُونَ، فَلَيْسَ خَلْقُكُمْ مِنْ تُرَابٍ بِأعَزَّ مِنْ ذَلِكَ عَلَيْهِ[2].

٤ ـ وَمِنْ أَسَالِيبِهِمْ: مُسَاوَمَاتٌ حَاوَلُوا بِهَا أَنْ يَلْتَقِي الإسْلامُ والجَاهِلِيَّةُ في مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ بأنْ يَتْرُكَ المُشْرِكُونَ بَعْضَ ما هُمْ عَلَيْهِ، ويَتْرُكَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ مَا هُوَ عَلَيْهِ، فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ[3] فَيُدْهِنُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الإسراء آية (٤٥ ـ ٥١).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٥٣).

(٣) قال الإمام القرطبي في تفسيره (٢١/١٤٧): الإدِّهَانُ: هُوَ اللِّينُ والمُصَانَعَةُ.

(٤) سورة القلم آية (٩).

قالَ الإمَامُ ابنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ في تَفْسِيرِهِ: وَدَّ هَؤُلَاءِ المُشْرِكُونَ يَا مُحَمَّدُ لَوْ تَلِينُ لَهُمْ في دِينِكَ بِإِجَابَتِكَ إِيَّاهُمْ إِلَىٰ الرُّكُونِ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ، فَيَلِينُونَ لَكَ في عِبَادَتِكَ إِلَهَكَ، كمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ وإِنَّمَا هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الدُّهْنِ شَبَّهَ التَّلْيِينَ في القَوْلِ بِتَلْيِينِ الدُّهْنِ[1].

قالَ ابنُ إِسْحَاقٍ: اعْتَرَضَ رسُولَ اللهِ ﷺ وهُوَ يَطُوفُ بِالكَعْبَةِ ـ فِيمَا بَلَغَنِي ـ الأَسْوَدُ بنُ المُطَّلِبِ بنِ أَسَدِ بنِ عَبْدِ العُزَّىٰ[2]، والوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ، وأُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ، والعَاصُ بنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ، وكانُوا ذَوِي أَسْنَانٍ[3] في قَوْمِهِمْ، فقَالُوا: يا مُحَمَّدُ هَلُمَّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ، وتَعْبُدُ ما نَعْبُدُ، فَنَشْتَرِكَ نَحْنُ وأَنْتَ فِي الأَمْرِ، فإِنْ كانَ الذِي تَعْبُدُ خَيْرًا مِمَّا نَعْبُدُ، كُنَّا قَدْ أَخَذْنَا بِحَظِّنَا مِنْهُ، وإِنْ كانَ مَا نَعْبُدُ خيرًا مِمَّا تَعْبُدُ، كُنْتَ قَدْ أَخَذْتَ بِحَظِّكَ مِنْهُ، فأَنْزَلَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[4].

أيْ: إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْبُدُونَ اللهَ، إلَّا أَنْ أَعْبُدَ مَا تَعْبُدُونَ، فَلا حَاجَةَ لِي

---

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري (١٢/١٨٢).

(٢) الأسود بن المطلب من أشدِّ الناس عداوةً للرسول ﷺ، ومات كافرًا قبل غزوة بدر الكبرى.

(٣) ذَوِي الأَسْنَانِ: هُمُ الأَكَابِرُ والأَشْرَافُ. انظر النهاية (٢/٣٧١).

(٤) سورة الكافرون بكاملها.

بِذَلِكَ مِنْكُمْ، لَكُمْ دِينُكُمْ جَمِيعًا وَلِيَ دِينِ[(١)].

وحَسَمَ اللهُ مُفَاوَضَاتِهِمُ المُضْحِكَةَ بِهَذِهِ المُفَاصَلَةِ الجَازِمَةِ[(٢)].

... لَعَلَّ اخْتِلاطَ تَصَوُّرَاتِهِمْ، واعْتِرَافِهِمْ بِاللهِ تَعَالَىٰ مَعَ عِبَادَةِ آلِهَةٍ أُخْرَىٰ مَعَهُ... لَعَلَّ هَذَا كَانَ يُشْعِرُهُمْ أَنَّ المَسَافَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَرِيبَةٌ، يُمْكِنُ التَّفَاهُمُ عَلَيْهَا، بِقِسْمَةِ البَلَدِ بَلَدَيْنِ، والالْتِقَاءِ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ، مَعَ بَعْضِ التَّرْضِيَاتِ الشَّخْصِيَّةِ!.

ولِحَسْمِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ، وَقَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَىٰ المُحَاوَلَةِ، والمُفَاصَلَةِ الحَاسِمَةِ بينَ عِبَادَةٍ وعِبَادَةٍ، ومَنْهَجٍ ومَنْهَجٍ، وتَصَوُّرٍ وتَصَوُّرٍ، وطَرِيقٍ وطَرِيقٍ.. نَزَلَتْ هذِهِ السُّورَةُ[(٣)]، بِهَذا الجَزْمِ، وبِهَذَا التَّوْكِيدِ. وبِهَذَا التَّكْرَارِ. لِتُنْهِيَ كُلَّ قَوْلٍ، وتَقْطَعَ كُلَّ مُسَاوَمَةٍ، وتُفَرِّقَ نِهَائِيًّا بَيْنَ التَّوْحِيدِ والشِّرْكِ، وتُقِيمَ المَعَالِمَ وَاضِحَةً، لا تَقْبَلُ المُسَاوَمَةَ والجَدَلَ فِي قَلِيلٍ ولا كَثِيرٍ[(٤)].

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ فِي المَسْجِدِ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ المُسْتَضْعَفُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ: خَبَّابٌ، وَعَمَّارٌ، وأَبُو فُكَيْهَةَ يَسَارٌ مَوْلَىٰ صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ، وصُهَيْبٌ، وأَشْبَاهُهُمْ مِنَ المُسْلِمِينَ، هَزَأَتْ بِهِمْ قُرَيْشٌ، فقَالَ بَعْضُهُمْ

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٤٠٠).

(٢) انظر الرحيق المختوم ص ٨٥.

(٣) سورة الكافرون بكاملها.

(٤) انظر في ظلال القرآن (٦/٣٩٩١).

لِبَعْضٍ: هَؤُلَاءِ أَصْحَابُهُ كَمَا تَرَوْنَ، أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا بِالهُدَىٰ الحَقِّ؟ لَوْ كانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ خَيْرًا ما سَبَقَنَا هَؤُلَاءِ إِلَيْهِ، ومَا خَصَّهُمُ اللهُ بِهِ دُونَنَا، فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِمْ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ إِلىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ورَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ عنْ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ المُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِؤُنَ عَلَيْنَا، قالَ: وكُنْتُ أَنَا، وابْنُ مَسْعُودٍ، ورَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وبِلَالٌ، ورَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ في نَفْسِ رسُولِ الله ﷺ ما شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[2].

** ** **

---

(١) سورة الأنعام آية (٥٢ ـ ٥٤) ـ والخبر في سيرة ابن هشام (٦/٢).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب في فضل سعد بن أبي وقَّاص ﷺ ـ رقم الحديث (٢٤١٣) (٤٦) ـ وأخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب ذكر سُؤالِ المُشركين رسول الله ﷺ طرْدَ الفُقَراءِ عنه ـ رقم الحديث (٦٥٧٣).

تَعْذِيبُ قُرَيْشٍ لِلْمُسْلِمِينَ

مَضَىٰ رسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، ويَئِسَتْ قُرَيْشٌ مِنْهُ، وأدْرَكَتْ أَلَّا جَدْوَىٰ مِنْ تِلْكَ الأَسَالِيبِ التِي سَلَكَتْهَا مَعَهُ في كَفِّ الدَّعْوَةِ الإسْلَامِيَّةِ والقَضَاءِ علَيْهَا، فاجْتَمَعَ رُؤُوسُ المُشْرِكِينَ وقَرَّرُوا اللُّجُوءَ إِلَىٰ العُنْفِ، والقُوَّةِ في مُحَارَبَةِ الإسْلَامِ والمُنْتَمِينَ إِلَيْهِ، وأصْدَرُوا أوَامِرَهُمْ إِلَىٰ القَبَائِلِ لِيَصُبُّوا العَذَابَ والأَذَىٰ عَلَىٰ كُلِّ مَنِ اتَّبَعَ النَّبِيَّ ﷺ.

قالَ ابنُ إسْحَاقَ: فَوَثَبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَىٰ مَنْ فِيهَا مِنَ المُسْلِمِينَ، فَجَعَلُوا يَحْبِسُونَهُمْ، ويُعَذِّبُونَهُمْ بالضَّرْبِ، والجُوعِ، والعَطَشِ، وبِرَمْضَاءِ مَكَّةَ إذَا اشْتَدَّ الحَرُّ(١).

فكَانَتْ فِتْنَةً شَدِيدَةَ الزِّلْزَالِ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ رسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ الإسْلامِ، فَافْتُتِنَ مَنِ افْتُتِنَ، وعَصَمَ اللهُ مِنْهُمْ مَنْ شَاءَ، ومَنَعَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ مِنْهُمْ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ.

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: . . . فحَمَىٰ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ؛ لِأَنَّهُ كانَ شَرِيفًا مُعَظَّمًا في قُرَيْشٍ، مُطَاعًا في أَهْلِهِ، وأَهْلُ مَكَّةَ لا يَتَجَاسَرُونَ عَلَىٰ

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٥٤).

مُكَاشَفَتِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الأَذَىٰ، وكانَ مِنْ حِكْمَةِ أَحْكَمِ الحَاكِمِينَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ بَقَاؤُهُ عَلَىٰ دِينِ قَوْمِهِ، لِمَا في ذَلِكَ مِنَ المَصَالِحِ التِي تَبْدُو لِمَنْ تَأَمَّلَهَا[1].

المُجَاهِرُونَ بِالظُّلْمِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

وكانَ المُجَاهِرُونَ بِالظُّلْمِ لرَسُولِ اللهِ ﷺ ولِكُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ:

١ ـ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ[2].

٢ ـ ابنُ عَمِّهِ أَبُو سُفْيَانَ بنُ الحَارِثِ[3].

٣ ـ عُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ[4].

٤ ـ شَيْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ[5].

٥ ـ عُقْبَةُ بنُ أَبِي مُعَيْطٍ[6].

٦ ـ أَبُو سُفْيَانَ بنُ حَرْبٍ[7].

٧ ـ الحَكَمُ بنُ أَبِي العَاصِ بنِ أُمَيَّةَ[8].

---

(١) انظر زاد المعاد (٣/١٩ ـ ٢٠).

(٢) ماتَ بعدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ الكبرىٰ كَافرًا.

(٣) أَسْلَمَ قَبْلَ فتحِ مَكَّةَ وحَسُنَ إِسْلامُهُ.

(٤) قُتِلَ كافِرًا في غزْوَةِ بَدْر الكبرىٰ.

(٥) قُتِلَ كافِرًا في غزْوَةِ بَدْر الكبرىٰ.

(٦) أُسِرَ في غزوَةِ بَدرٍ الكبرىٰ، ثم أَمَرَ الرَّسول ﷺ بقتْلِهِ، فقُتِلَ كافرًا.

(٧) أَسْلَمَ في فَتْحِ مَكةَ وحَسُن إسلامه.

(٨) أَسْلَمَ في فَتْحِ مَكةَ وحَسُن إسلامه.

٨ ـ النَّضْرُ بنُ الحَارِثِ[١].

٩ ـ أبُو البَخْتَرِيِّ بنُ العَاصِي بنِ هِشَامٍ[٢].

١٠ ـ أبُو جَهْلِ بنُ هِشَامٍ[٣].

١١ ـ الوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ[٤].

١٢ ـ العَاصُ بنُ وَائِلٍ[٥].

١٣ ـ أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ[٦].

١٤ ـ أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ[٧].

١٥ ـ الأَسْوَدُ بنُ الْمُطَّلِبِ بنِ أَسَدٍ[٨].

١٦ ـ الأَسْوَدُ بنُ عَبْدِ يَغُوثَ[٩].

فَهَؤُلاءِ كانُوا أَشَدَّ عَلَىٰ المُؤْمِنِينَ مُثَابَرَةً بالأذَىٰ، ومَعَهُمْ سَائِرُ قُرَيْشٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعَذِّبُونَ مَنْ لا مَنَعَةَ لَهُ، ولا جِوَارَ مِنْ قَوْمِهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يُؤْذُونَ.

---

(١) أُسِرَ في غزوةِ بَدْرٍ الكُبْرىٰ، وأمَرَ النبي ﷺ بِقَتْلِهِ، فقُتل كَافرًا.

(٢) قُتِلَ في غَزْوَةِ بدرٍ الكُبْرىٰ كافرًا.

(٣) هُوَ فِرْعَونُ هذِهِ الأمَّة قُتِلَ في غَزْوَةِ بَدرٍ الكُبْرىٰ كافرًا لعَنَه الله تَعالَىٰ.

(٤) ماتَ قَبْلَ غزوةِ بَدرٍ الكُبْرىٰ كافرًا.

(٥) ماتَ قَبْلَ غزوةِ بَدرٍ الكُبْرىٰ كافرًا.

(٦) قُتل في غزوةِ بَدرٍ الكُبْرىٰ كافرًا قَتَله بِلال ﷺ.

(٧) قتله النبي ﷺ في غَزْوة أُحُدٍ كافرًا، وهو الوَحِيدُ الذي قتلهُ النبي ﷺ.

(٨) مات كافرًا قبل غزوة بدر الكبرى.

(٩) مات كافرًا قبل غزوة بدر الكبرى.

قالَ ابنُ إسْحَاقٍ: وكانَ أبُو جَهْلٍ الفَاسِقُ الذِي يُغْرِي بِهِمْ في رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، إذَا سَمِعَ بالرَّجُلِ قَدْ أسْلَمَ، لهُ شَرَفٌ ومَنَعَةٌ، أنَّبَهُ وأخْزَاهُ، وقَالَ: تَرَكْتَ دِينَ أبِيكَ وهُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، لَنُسَفِّهَنَّ حِلْمَكَ، ولَنُفَيِّلَنَّ[1] رَأْيَكَ، ولَنَضَعَنَّ شَرَفَكَ، وإنْ كانَ تَاجِرًا قالَ: واللهِ لَنُكْسِدَنَّ تِجَارَتَكَ، ولَنُهْلِكَنَّ مَالَكَ، وإنْ كَانَ ضَعِيفًا ضَرَبَهُ وأغْرَىٰ بِهِ[2].

۞ صُوَرٌ مِنَ التَّعْذِيبِ والإيذَاءِ:

رَوَىٰ الإمَامُ أحْمَدُ في مُسْنَدِهِ، وابنُ مَاجَه بِسَنَدٍ حَسَنٍ عنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كانَ أوَّلَ مَنْ أظْهَرَ إسْلامَهُ سَبْعَةٌ: رسُولُ اللهِ ﷺ، وأبُو بَكْرٍ، وعَمَّارٌ، وأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وصُهَيْبٌ، وبِلالٌ، والمِقْدَادُ، فأمَّا رسُولُ اللهِ ﷺ فمَنَعَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ بِعَمِّهِ أبِي طَالِبٍ، وأمَّا أبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللهُ بِقَوْمِهِ، وأمَّا سَائِرُهُمْ فأخَذَهُمُ المُشْرِكُونَ وألْبَسُوهُمْ أدْرَاعَ الحَدِيدِ، وصَهَرُوهُمْ في الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أحَدٍ إلَّا وقَدْ وَاتَاهُمْ[3] عَلَىٰ ما أرَادُوا إلَّا بِلالٌ، فإنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ في اللهِ، وهَانَ عَلَىٰ قَوْمِهِ، فَأخَذُوهُ فَأعْطَوْهُ الوِلْدَانَ، فجَعَلُوا يَطُوفُونَ بهِ في شِعَابِ مَكَّةَ، وهُوَ يَقُولُ: أحَدٌ أحَدٌ[4].

---

(١) فَيَّلَ رأيَهُ: أي ضَعَّفَهُ وخَطَّأَهُ. انظر الوسيط (٢/٧١٥).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٥٧).

(٣) واتَاهُمْ: أي وَافَقَهُمْ. انظر لسان العرب (١/٦٧).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٣٨٣٢) ـ وأخرجه ابن ماجه في سننه ـ في المقدمة ـ رقم الحديث (١٥٠).

تَعْذِيبُ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ رضي الله عنه:

كَانَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ رضي الله عنه يأْخُذُهُ عَمُّهُ الحَكَمُ بنُ أَبِي العَاصِ فَيُوثِقُهُ رِبَاطًا ويَقُولُ لهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ آبَائِكَ إلىٰ دِينٍ مُحْدَثٍ؟

واللهِ لا أَحُلُّكَ أبدًا حتَّىٰ تَدَعَ ما أنْتَ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فيَقُولُ عُثْمَانُ رضي الله عنه: واللهِ لا أدعُهُ أبدًا ولا أُفَارِقُهُ، فَلَمَّا رَأَىٰ الحَكَمُ صَلابَتَهُ في دِينِهِ تَرَكَهُ[1].

تَعْذِيبُ الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ رضي الله عنه:

وكانَ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ رضي الله عنه يَأْخُذُهُ عَمُّهُ ويَلُفُّهُ في حَصِيرٍ، ويُدَخِّنُ عَلَيْهِ بالنَّارِ، ويَقُولُ لَهُ: ارْجِعْ إلَىٰ الكُفْرِ، فيَقُولُ الزُّبَيْرُ رضي الله عنه: لا أَكْفُرُ أَبَدًا[2].

تَعْذِيبُ زِنِّيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

مِنَ الذِينَ عُذِّبُوا: امْرَأَةٌ يُقَالُ لهَا: زِنِّيرَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَعْتَقَهَا أبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فَذَهَبَ بَصَرُهَا حِينَ أَعْتَقَهَا، فقَالَتْ قُرَيْشٌ: ما أذْهَبَ بَصَرَهَا إلَّا اللَّاتُ والعُزَّىٰ، فَقَالَتْ: كَذَبُوا وبَيْتِ اللهِ، ما تَضُرُّ اللَّاتُ والعُزَّىٰ ومَا تَنْفَعَانِ، فَرَدَّ اللهُ بَصَرَهَا[3].

---

(١) انظر الطبَّقَات الكُبرىٰ (٣/٣١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ باب كان عَمُّ الزُّبير يُعلِّق الزبير في حصير ـ رقم الحديث (٥٦٠١) ـ وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١/١٣١) ـ وهو مرسل صحيح.

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٥٥) ـ البداية والنهاية (٣/٦٤) ـ دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٨٣).

تَعْذِيبُ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ رضي الله عنه:

أمَّا مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ رضي الله عنه فقَدْ رَوَىٰ ابنُ سَعْدٍ في طَبَقَاتِهِ: أنَّ مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ كانَ فَتَىٰ مَكَّةَ شَبَابًا وجَمَالًا، وكانَ أبَوَاهُ يُحِبَّانِهِ، وكانَتْ أُمُّهُ مَلِيئَةً كَثِيرَةَ المَالِ تَكْسُوهُ أحْسَنَ ما يَكُونُ مِنَ الثِّيَابِ وأَرَقَّهُ، وكانَ أعْطَرَ أهْلِ مَكَّةَ، فكانَ رسُولُ الله ﷺ يَذْكُرُهُ ويَقُولُ: «**ما رَأيْتُ بِمَكَّةَ أحدًا أحْسَنَ لِمَّةً**[1] **، ولا أرَقَّ حُلَّةً ولا أنْعَمَ نِعْمَةً مِنْ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ**»، فبَلَغَهُ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ يَدْعُو إلىٰ الإسْلامِ في دَارِ الأرْقَمِ بنِ أبِي الأرْقَمِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فأسْلَمَ وصَدَّقَ بهِ، وخَرَجَ فكَتَمَ إسْلامَهُ خَوْفًا مِنْ أُمِّهِ وقَوْمِهِ، فكانَ يَخْتَلِفُ إلَىٰ رسُولِ الله ﷺ سِرًّا، فَبَصُرَ بهِ عُثْمَانُ بنُ طَلْحَةَ يُصَلِّي فأخْبَرَ أُمَّهُ وقَوْمَهُ، فأخَذُوهُ فَحَبَسُوهُ فلَمْ يَزَلْ مَحْبُوسًا حتَّىٰ خَرَجَ إلَىٰ أرْضِ الحَبَشَةِ في الهِجْرَةِ الأُولَىٰ، ثُمَّ رَجَعَ مَعَ المُسْلِمِينَ حِينَ رَجَعُوا، فَرَجَعَ مُتَغَيِّرَ الحَالِ قَدْ حَرِجَ - يَعْنِي غَلُظَ - فَكَفَّتْ أُمُّهُ عَنْهُ[2].

تَعْذِيبُ النَّهْدِيَّةِ وبِنْتِهَا:

مِنَ الذِينَ عُذِّبُوا امْرَأَةٌ يُقالُ لَهَا: النَّهْدِيَّةُ وبِنْتُهَا، وكانَتَا لِامْرَأَةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، فَمَرَّ بِهِمَا أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، وقَدْ بَعَثَتْهُمَا سَيِّدَتُهُمَا بِطَحِينٍ لَهَا، وهِيَ تَقُولُ: واللهِ لا أُعْتِقُكُمَا أبَدًا، فقالَ أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: حِلْ يَا أُمَّ فُلانٍ[3]، فَقَالَتْ:

---

(١) اللِّمَّةُ: بكسْرِ اللامِ، شَعْرُ الرَّأسِ، إذا كانَ فَوقَ الوَفْرَةِ. انظر لسان العرب (١٢/٣٣٣).

(٢) انظر الطَّبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (٣/٦٢).

(٣) حِلْ يا أُمَّ فُلانٍ: أي تَحَلَّلِي مِنْ يَمِينِكِ. انظر لسان العرب (٣/٣٠٠).

حِلْ، أَنْتَ أَفْسَدْتَهُمَا فَأَعْتِقْهُمَا، قالَ: قَدِ ابْتَعْتُهُمَا[1]، وهُمَا حُرَّتَانِ[2].

۞ تَعْذِيبُ سَعِيدِ بنِ زَيْدٍ رضي الله عنه:

وكانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه ـ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ ـ يُوثِقُ سَعِيدَ بنَ زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ رضي الله عنه ويُعَذِّبُهُ عَلَىٰ إِسْلَامِهِ.

رَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ عنْ سَعِيدِ بنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قالَ: واللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي[3] وإِنَّ عُمَرَ لَمُوثِقِي[4] عَلَىٰ الإِسْلامِ وقَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عُمَرُ[5].

۞ تَعْذِيبُ جَارِيَةِ بَنِي مُؤَمَّلٍ:

مِنَ الذِينَ عُذِّبُوا جَارِيَةٌ لِبَنِي مُؤَمَّلٍ ـ وهُمْ حَيٌّ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بنِ كَعْبٍ ـ وكانَ الذِي يُعَذِّبُهَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه وكانَ عَلَىٰ الشِّرْكِ، فَيُعَذِّبُهَا حَتَّىٰ يَمَلَّ، فيَقُولُ لَهَا: إِنِّي اعْتَذِرُ إِلَيْكِ، إِنِّي لَمْ أَتْرُكْكِ إِلَّا مَلَالَةً، فتَقُولُ رضي الله عنها: كَذَلِكَ فَعَلَ اللهُ بِكَ[6].

---

(١) ابتاع الشيء: اشتراه. انظر لسان العرب (١/٥٥٧).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٥٥) ـ البداية والنهاية (٣/٦٤) ـ سبل الهدىٰ والرشاد (٢/٣٦١).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/٥٦٩): والمعنىٰ رأيتُ نَفسي.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٧/٥٦٩): أي رَبَطه بسببِ إسلامِهِ إهانَةً لهُ وإلْزَامًا بالرُّجوع عن الإسلام.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب إسلام سعيد بن زيد رضي الله عنه ـ رقم الحديث (٣٨٦٢).

(٦) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٥٦) ـ البداية والنهاية (٣/٦٤) ـ سبل الهدىٰ والرشاد (٢/٣٦١).

تَعْذِيبُ بِلالِ بنِ رَبَاحٍ رضي الله عنه:

وكانَ بِلالُ بنُ رَبَاحٍ رضي الله عنه، مَوْلَىٰ لِبَعْضِ بَنِي جُمَحٍ، يُخْرِجُهُ سَيِّدُهُ أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ إذَا حَمِيَتِ الشَّمْسُ وَقْتَ الظَّهِيرَةِ، فَيَطْرَحُهُ عَلَىٰ ظَهْرِهِ في بَطْحَاءِ مَكَّةَ، ثُمَّ يَأْمُرُ بالصَّخْرَةِ العَظِيمَةِ، فَتُوضَعُ عَلَىٰ صَدْرِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: لا تَزَالُ هَكَذَا حتَّىٰ تَمُوتَ، أوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، وتَعْبُدَ اللَّاتَ والعُزَّىٰ، فيَقُولُ وهُوَ في ذَلِكَ البَلَاءِ: أَحَدٌ أَحَدٌ[(١)].

قالَ الشَّيخُ عَلِي الطَّنْطاوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ: وتَشْغَلُهُ لَذَّةُ المُنَاجَاةِ، عَنْ لَذْعَةِ العَذَابِ، ونَشْوَةُ الأمَلِ بالجَنَّةِ، عنْ شِقْوَةِ الألَمِ فِي الدُّنْيا[(٢)].

رِوايَةٌ ضَعِيفَةٌ:

وأَمَّا ما رَواهُ ابنُ إسْحَاقَ عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ، قالَ: كانَ وَرَقَةُ بنُ نَوْفَلٍ يَمُرُّ عَلَيْهِ ـ أيْ عَلَىٰ بِلالٍ رضي الله عنه ـ وهُوَ يُعَذَّبُ، وهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ،... فقالَ وَرَقَةُ لِأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ: لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ عَلَىٰ هَذَا ـ أيْ عَلَىٰ الإسْلامِ ـ لَأَتَّخِذَنَّهُ حَنَانًا[(٣)].

قال الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ بَعْدَ أَنْ سَاقَ هَذِهِ الرِّوَايَةَ: وفِيهِ نَظَرٌ[(٤)].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٥٤) ـ زاد المعاد (٣/٢٠).

(٢) انظر كتاب رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ١٤.

(٣) الحَنَانُ: الرَّحْمَةُ والعَطْفُ، أرادَ: لأَجْعَلَنَّ قبرَهُ مَوْضِعَ حَنَانٍ، أي مَظَنَّةً منْ رَحْمة الله، فأتَمَسَّح بهِ مُتبَرِّكًا، فيرجعُ ذلك عارًا عليكم، وسُبَّةً عِند الناس. انظر النهاية (١/٤٣٥).
وانظر الخَبَر في سيرة ابن هشام (١/٣٥٥).

(٤) انظر البداية والنهاية (٣/٦٤).

وقالَ الإمَامُ الذَّهَبِيُّ: هذا مُرْسَلٌ، وورَقَةُ لَوْ أدْرَكَ هَذَا لَعُدَّ مِنَ الصَّحَابَةِ، وإنَّمَا مَاتَ الرَّجُلُ في فَتْرَةِ الوَحْيِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ، وقَبْلَ الرِّسَالَةِ، كمَا في الصَّحِيحِ[1].

تَعْذِيبُ آلِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ:

كانَ عَمَّارُ بنُ يَاسِرٍ وأُمُّهُ وأبُوهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ الذِينَ يُعَذَّبُونَ بِمَكَّةَ لِيَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ، فكانَتْ بَنُو مَخْزُومٍ، وعَلَىٰ رَأْسِهِمْ أبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ يَخْرُجُونَ بِهِمْ إلَىٰ الأَبْطُحِ إذَا حَمِيَتِ الرَّمْضَاءُ، فَيُعَذِّبُونَهُمْ بِحَرِّهَا، فَمَرَّ بهم رسُولُ الله ﷺ، وهُمْ يُعَذَّبُونَ فقال: «صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ فإنَّ مَوْعِدَكُمُ **الجَنَّةُ**»[2].

فَمَاتَ ياسِرٌ في العَذَابِ، وأمَّا سُمَيَّةُ أُمُّ عَمَّارٍ فَطَعَنَهَا أبُو جَهْلٍ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ بِحَرْبَةٍ في قُبُلِهَا فَمَاتَتْ، وهِيَ أوَّلُ شَهِيدَةٍ في الإسْلامِ[3].

وأمَّا عَمَّارٌ ﷺ فَنَزَلَ عَلَيْهِ أبُو جَهْلٍ بالعَذَابِ الشَّدِيدِ بالحَرْقِ تَارَةً، وبالتَغْرِيقِ تَارَةً أُخْرَىٰ، ولَمْ يَزَلِ المُشْرِكُونَ يُعَذِّبُونَهُ حتَّىٰ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ فتركُوهُ، فأتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ وهُوَ يَبْكِي، فَجَعَلَ رسُولُ الله ﷺ يَمْسَحُ

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١/٣٥٢).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب مَعْرفة الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ باب إيذاءِ الكفار آل ياسِرٍ ـ رقم الحديث (٥٦٩٦) ـ وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرجه، ووافقه الذهبي ـ والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٨٢).

(٣) انظر البداية والنهاية (٣/٦٥) ـ دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٨٢) ـ سيرة ابن هشام (١/٣٥٧).

عَنْ عَيْنَيْهِ، ويَقُولُ له: «مَا وَرَاءَكَ؟» قال شَرٌّ يا رَسُولَ اللهِ! مَا تُرِكْتُ حتَّىٰ نِلْتُ مِنْكَ وذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، فقالَ لَهُ ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قالَ مُطْمَئِنًّا بالإيمَانِ، فقَالَ لَهُ ﷺ: «إنْ عَادُوا فَعُدْ»، فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1].

قالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: اتَّفَقَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ أنَّهُ يَجُوزُ أنْ يُوَالِيَ المُكْرَهُ عَلَىٰ الكُفْرِ، إبْقَاءً لِمُهْجَتِهِ[2]، ويَجُوزُ لَهُ أنْ يَسْتَقْتِلَ، كمَا كانَ بِلالٌ رضي الله عنه يَأْبىٰ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وهُمْ يَفْعَلُونَ بهِ الأفَاعِيلَ، حتَّىٰ إنَّهُمْ لَيَضَعُونَ الصَّخْرَةَ العَظِيمَةَ عَلَىٰ صَدْرِهِ في شِدَّةِ الحَرِّ، ويَأْمُرُونَهُ أنْ يُشْرِكَ باللهِ فَيَأْبَىٰ عَلَيْهِمْ، وهُوَ يَقُولُ: أحَدٌ أحَدٌ. ويَقُولُ: واللهِ لَوْ أعْلَمُ كَلِمَةً هِيَ أغْيَظُ لَكُمْ مِنْهَا لَقُلْتُهَا، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرْضَاهُ، وكذَلِكَ حَبِيبُ بنُ زَيْدٍ الأنْصَارِيُّ رضي الله عنه[3] لَمَّا

---

(١) سورة النحل آية (١٠٦).
والخبرُ أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب التفسير ـ باب تفسير سورة النحل ـ رقم الحديث (٣٤١٣) ـ وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شَرْط الشيخين، ولم يخرجاه، وأقرّه الذهبي.
وأوردَهُ الحافظ في الفتح (١٢/٢٧٨) وقال: هو مُرْسل ورجاله ثِقاتٌ، وذكره من عدة طُرق مُرسلة، وقال: وهذه المَراسيل يُقوي بَعْضُهَا بِبَعْضٍ.

(٢) المُهْجَةُ: الرُّوحُ. انظر لسان العرب (١٣/٢٠٦).

(٣) هوَ حَبِيبُ بنُ زَيْدٍ الأنْصارِيُّ الخَزْرَجِيُّ، شَهِدَ العَقَبَةَ، وشَهِدَ أُحُدًا والخَنْدَقَ والمَشاهِدَ مَعَ رسولِ الله ﷺ، أرسَلَهُ الرسولُ ﷺ إلىٰ مُسَيْلَمَةَ الكَذَّاب، صَاحِبَ اليَمَامَةِ، فكانَ مُسيلمَةُ إذا قال له: أتشهَدُ أنَّ محمداً رسول الله؟ قال: نَعَمْ، وإذا قال: أتشهَدُ أني رسول الله؟ قال: أنا أصَمُّ لا أسْمَعُ، فَفَعَلَ ذلك مِرارًا، فَقَطَّعَهُ مُسيلمَةُ عُضْوًا عُضْوًا حتىٰ ماتَ رضي الله عنه.
انظر أسد الغابة (١/٤٢١).

قالَ لَهُ مُسَيْلَمَةُ الكَذَّابُ: أتَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رسُولُ اللهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أتَشْهَدُ أنِّي رسُولُ اللهِ؟ فَيَقُولُ: لا أسْمَعُ، فَلَمْ يَزَلْ يُقَطِّعُهُ إرَبًا إرَبًا[1] وهُوَ ثَابِتٌ عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ قَتَلَهُ.

ثُمَّ قالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: والأفْضَلُ والأَوْلَىٰ أنْ يَثْبُتَ المُسْلِمُ عَلَىٰ دِينِهِ، ولَوْ أفْضَىٰ إلَىٰ قَتْلِهِ[2].

۞ تَعْذِيبُ أَبِي فُكَيْهَةَ رضي الله عنه[3]:

وَكَانَ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ يُخْرِجُونَ أَبَا فُكَيْهَةَ رضي الله عنه نِصْفَ النَّهَارِ في حَرٍّ شَدِيدٍ، وهُوَ مُقَيَّدٌ بالحَدِيدِ، فيَبْطَحُونَهُ في الرَّمْضَاءِ، ويَضَعُونَ الصَّخْرَةَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ حتَّىٰ لا يَعْقِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حتَّىٰ هاجَرَ إلىٰ الحَبَشَةِ في الهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ[4].

۞ تَعْذِيبُ خَالِدِ بنِ سَعِيدِ بنِ العَاصِ رضي الله عنه:

مِنَ الذِين عُذِّبُوا خَالِدُ بنُ سَعِيدِ بنِ العَاصِ رضي الله عنه، وَكَانَ يَلْزَمُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم، ويُصَلِّي في نَوَاحِي مَكَّةَ خَالِيًا، فَبَلَغَ ذَلِكَ أبَا أُحَيْحَةَ فدعَاهُ فكَلَّمَهُ أنْ

---

(١) الإرَبُ: العُضْوُ. انظر النهاية (١/٣٩).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٤/٦٠٦).

(٣) اسمُهُ يَسَارٌ رضي الله عنه، وكان يُعذَّب في الله، فاشتراه أبو بكر الصديق وأعتقَهُ، وهاجَرَ إلىٰ الحبشَةِ الهجرةَ الثانية، ومات رضي الله عنه قبلَ غزوَةِ بَدْرٍ الكُبْرىٰ. انظر الإصابة (٧/٢٦٨).

(٤) انظر الطبَّقات الكُبْرىٰ (٤/٣٨٠).

يَدَعَ ما هُوَ عَلَيْهِ، فقالَ خَالِدٌ: لا أَدَعُ دِينَ مُحَمَّدٍ حتَّىٰ أَمُوتَ عَلَيْهِ، فضَرَبَهُ أَبُو أُحَيْحَةَ بِقَرَّاعَةٍ[1] في يَدِهِ حتَّىٰ كَسَرَها عَلَىٰ رَأْسِهِ، ثُمَّ أَمَرَ بهِ إلىٰ الحَبْسِ، وضَيَّقَ عَلَيْهِ، وأَجَاعَهُ وأَعْطَشَهُ، حتَّىٰ لقَدْ مَكَثَ في حَرِّ مَكَّةَ ثَلاثًا ما يَذُوقُ مَاءً، فَرَأَىٰ خَالِدٌ فُرْجَةً فَخَرَجَ، فَتَغَيَّبَ عَنْ أَبِيهِ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ حتَّىٰ هَاجَرَ إلىٰ الحَبَشَةِ في الهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ[2].

۞ تَعْذِيبُ صُهَيْبٍ الرُّومِيِّ رضي الله عنه:

مِنَ الصَّحَابَةِ المُسْتَضْعَفِينَ الذِينَ عُذِّبُوا في مَكَّةَ صُهَيْبُ بنُ سِنَانٍ الرُّومِيُّ رضي الله عنه.

رَوَى ابنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ صُهَيْبُ بنُ سِنَانٍ مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ الذِينَ كانُوا يُعَذَّبُونَ في اللهِ بِمَكَّةَ[3].

۞ مِحْنَةُ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه مَعَ أُمِّهِ:

أَمَّا سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، فإِنَّ أُمَّهُ[4] حَلَفَتْ أَنْ لا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حتَّىٰ

---

(١) القَرَّاعُ: التُّرْسُ. انظر لسان العرب (١١/١٢١).

(٢) انظر الطبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (٤/٣٦٦).

(٣) انظر الطبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (٣/١٢١).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٤/١٢): اسمُ أمِّ سَعْدِ بنِ أبِي وقَّاصٍ رضي الله عنه: حَمْنَةُ بفتح الحاء وسكون الميم، بنتُ سُفيانَ بنِ أميَّة، وهي ابنَةُ عَمِّ أبي سُفْيَانَ بنِ حَرْبٍ، ولمْ أرَ في شَيْءٍ من الأخبار أَنَّها أَسْلَمَتْ.

يَكْفُرَ بِدِينِهِ، وقالَتْ لَهُ: زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ أَوْصَاكَ بِوَالِدَيْكَ، وأَنَا أُمُّكَ وأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا، لَتَدَعَنَّ دِينَكَ هَذا أَوْ لا آكُلُ ولا أَشْرَبُ حتَّىٰ أَمُوتَ، فَتُعَيَّرُ بِي فيُقَالُ: يا قَاتِلَ أُمِّهِ. فقالَ سَعْدٌ ﵁: لا تَفْعَلِي يَا أُمَّهْ! فإنِّي لا أدَعُ دِينِي هَذَا لِشَيْءٍ، فمَكَثَتْ ثَلاثًا لَمْ تَأْكُلْ حتَّىٰ غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الجَهْدِ، فَلَمَّا رَأىٰ ذَلِكَ سَعْدٌ ﵁، قالَ: يَا أُمَّهْ! واللهِ لَوْ كَانَتْ لَكِ مِائَةُ نَفْسٍ فَخَرَجَتْ نَفْسًا نَفْسًا، ما تَرَكْتُ دِينِي هَذَا لِشَيْءٍ، فإنْ شِئْتِ فَكُلِي، وإنْ شِئْتِ لا تَأْكُلِي. فَلَمَّا رَأَتْ مِنْهُ الجِدَّ أَكَلَتْ. فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾[1]، وقَوْله تَعالَىٰ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[2].

تَعْذِيبُ خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ ﵁:

أَمَّا أَشَدُّ مَنْ عُذِّبَ مِنَ الصَّحَابَةِ فَهُوَ خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ ﵁، وكانَ ﵁ مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ، قال عَنْ نَفْسِهِ ﵁: لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمًا أَخَذُونِي فَأَوْقَدُوا لِي نَارًا ثُمَّ سَلَقُونِي[3] فِيهَا، ثُمَّ وَضَعَ رَجُلٌ رِجْلَهُ عَلَىٰ صَدْرِي، فمَا اتَّقَيْتُ الأرْضَ إلَّا بِظَهْرِي، قالَ: ثُمَّ كُشِفَ عَنْ ظَهْرِهِ فإذَا هُوَ قَدْ بَرَصَ[4].

---

(١) سورة العنكبوت آية (٨).

(٢) سورة لقمان آية (١٥). والخبر أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ باب فضل سعد بن أبي وقاص ﵁ ـ رقم الحديث (٢٧٤٨).

(٣) سَلَقَهُ: أحْرَقَهُ. انظر لسان العرب (٦/٣٣٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه ـ المقدمة ـ باب فضائل خباب ـ رقم الحديث (١٥٣) ـ وإسناده صحيح ـ وابن سعد في طبقاته (٣/٨٨).

وفي رِوَايَةٍ: أَنَّهُمْ كانُوا يُوقِدُونَ لَهُ نَارًا فَمَا يُطْفِئُهَا إلَّا وَدَكُ[1] ظَهْرِهِ[2].

وَرَوَىٰ الإمَامُ التِّرْمِذِيُّ في جَامِعِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عنْ حَارِثَةَ بن مُضَرِّبٍ قالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ خَبَّابٍ، وقَدِ اكْتَوَىٰ في بَطْنِهِ، فَقَالَ: ما أَعْلَمُ أحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ لَقِيَ مِنَ البَلاءِ مَا لَقِيتُ[3].

ولَمَّا مَرَّ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه عَلَىٰ قَبْرِهِ، وهُوَ مُنْصَرِفٌ مِنْ صِفِّينَ قالَ: رَحِمَ اللهُ خَبَّابًا أَسْلَمَ رَاغِبًا، وهَاجَرَ طَائِعًا، وعَاشَ مُجَاهِدًا، وابْتُلِيَ في جِسْمِهِ أحْوَالًا، ولَنْ يُضِيعَ اللهُ أَجْرَهُ[4].

وقَائِمَةُ المُعَذَّبِينَ في اللهِ طَوِيلَةٌ ومُؤْلِمَةٌ جِدًّا، فَمَا مِنْ أحَدٍ عَلِمُوا بِإِسْلَامِهِ إلَّا تَصَدَّوْا لَهُ وآذَوْهُ.

قالَ الشَّيْخُ عَلِيّ الطَّنْطَاوِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: احْتَمَلُوا في سَبِيلِ اللهِ كُلَّ شَيْءٍ الضَّرْبَ، والجَرْحَ، والحَرْقَ، والجُوعَ، والسَّهَرَ، واسْتَحْلُوا في سَبِيلِ اللهِ

---

(١) الوَدَكُ: هو دَسَمُ اللَّحْمِ، ودُهْنُهُ الذِي يَخْرُجُ منه. انظر النهاية (٥/١٤٨).

(٢) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم (١/١٩٥).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه - كتاب الجنائز - باب ما جاء في النهي عن التمني للموت - رقم الحديث (٩٧٠) - وأورده ابن الأثير في جامع الأصول - رقم الحديث (١٠٣٠) - وأصل الحديث في صحيح البخاري - كتاب المرضى - باب تمني المريض الموت - رقم الحديث (٥٦٧٢) - ومسلم في صحيحه - كتاب الذكر والدعاء - باب تمني كراهة الموت - رقم الحديث (٢٦٨١).

(٤) انظر تحفة الأحوذي (٤/١٣).

المَرَائِرَ، واسْتَحَبُّوا بَعْضَ المَكَارِهِ إلىٰ النُّفُوسِ إنْ كانَ فِيهَا رِضَا اللهِ تَعَالَىٰ[1].

فَلَمْ تَلْقَ قُرَيْشٌ نَجاحًا في صَرْفِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ.

قالَ الدُّكْتُور مُحَمَّد سَعِيد رَمَضَان البُوطِي: أوَّلُ ما قَدْ يَخْطُرُ في بَالِ المُتَأَمِّلِ، حِينَمَا يَرَىٰ قِصَّةَ ما لَقِيَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ وأصْحَابُهُ مِنَ المُشْرِكِينَ، مِنْ صُنُوفِ الإيذَاءِ والعَذَابِ، هُوَ أنْ يَتَساءَلَ: فِيمَ هَذَا العَذَابُ الذِي لَقِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ وأصْحَابُهُ وهُمْ عَلَىٰ حَقٍّ؟ ولِمَاذَا لَمْ يَعْصِمْهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ، وهُمْ جُنُودُهُ وفِيهِمْ رسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُونَ إلىٰ دِينِهِ، ويُجَاهِدُونَ في سَبِيلِهِ؟.

والجَوَابُ: مِنْ أجْلِ إظْهَارِ صِدْقِ الصَّادِقِينَ، وَكَذِبِ الكَاذِبِينَ، فَلَوْ تُرِكَ النَّاسُ لِدَعْوَىٰ الإسْلامِ، وَمَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ فَقَطْ، لاسْتَوَىٰ الصَّادِقُ والكَاذِبُ، ولَكِنَّ الفِتْنَةَ والابْتِلَاءَ، هُمَا المِيزَانُ الذِي يُمَيِّزُ الصَّادِقَ مِنَ الكَاذِبِ[2].

** ** **

(١) انظر كتاب رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ١٤.

(٢) انظر فقه السيرة للبوطي (٧٧ ـ ٧٨).

إعْتَاقُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﵁ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ

أَمَّا وَاهِبُ الحُرِّيَّاتِ ومُحَرِّرُ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ، فَهُوَ الذِي عُرِفَ بَيْنَ قَوْمِهِ بأَنَّهُ يَكْسِبُ المَعْدُومَ، ويَصِلُ الرَّحِمَ، ويَحْمِلُ الكَلَّ، ويَقْرِي الضَّيْفَ، ويُعِينُ عَلَىٰ نَوائِبِ الحَقِّ[1]، لَمْ يَنْغَمِسْ في إثْمٍ فِي جَاهِلِيَّتِهِ، مَأْلُوفٌ في قَوْمِهِ، يَسِيلُ قَلْبُهُ رِقَّةً ورَحْمَةً عَلَىٰ الضُّعَفَاءِ والأرِقَّاءِ، أنْفَقَ جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ مَالِهِ في شِرَاءِ العَبِيدِ، وعِتْقِهِمْ للهِ، وفي اللهِ، ذَلِكُمُ المُحَرِّرُ لِلْعَبِيدِ هُوَ صِدِّيقُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﵁[2].

۞ ومِنْ هَؤُلاءِ الكِرَامِ الذِينَ أَعْتَقَهُمْ أَبُو بَكْرٍ ﵁:

١ ـ بِلَالُ بنُ رَبَاحٍ ﵁:

فَقَدْ رَوَىٰ ابنُ إسْحَاقٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﵁ مَرَّ عَلَىٰ أُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ لَعَنَهُ اللهُ، وهُوَ يُعَذِّبُ بِلَالًا ﵁، فقالَ لهُ أَبُو بَكْرٍ: أَلَا تَتَّقِي اللهَ في هَذَا المِسْكِينِ؟ حتَّىٰ مَتَىٰ؟

قال: أَنْتَ الذِي أَفْسَدْتَهُ فأَنْقِذْهُ مِمَّا تَرَىٰ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﵁: أَفْعَلُ،

---

(١) انظر شُهرةَ أبي بكر الصديق ﵁ بهذه الصِّفات: في صحيح البخاري ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب هِجْرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة ـ رقم الحديث (٣٩٠٥).

(٢) انظر السِّيرة النَّبوِيَّة (١/٣٤٥) للدكتور محمد أبو شهبة رَحِمَهُ اللهُ.

عِنْدِي غُلَامٌ أَسْوَدُ أَجْلَدُ(١) منهُ وأقْوَىٰ، عَلَىٰ دِينِكَ، أُعْطِيكَهُ بِهِ.

قالَ أُمَيَّةُ: قَدْ قَبِلْتُ، فقالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: هُوَ لَكَ، فأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ غُلَامَهُ ذَلِكَ، وأَخَذَ بِلالًا ﷺ، فَأَعْتَقَهُ(٢).

وفي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ في مُسْنَدِ مُسَدَّدٍ(٣) عنْ مَعْمَرِ بنِ أَبِي هِنْدٍ قالَ:

كانَ بِلالٌ ﷺ لِأَيْتَامِ أَبِي جَهْلٍ، فَعَذَّبَهُ، فَبَعَثَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا، فقَالَ له: اشْتَرِ بِلالًا، فَأَعْتِقْهُ(٤).

وفي رِوَايَةِ ابنِ أَبِي شَيْبَةَ في مُصَنَّفِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عنْ قَيْسِ بنِ أَبِي حَازِمٍ، قال: اشْتَرَىٰ أَبُو بَكْرٍ بِلَالًا بِخَمْسِ أَوَاقٍ، قالُوا: لَوْ أَبَيْتَ إِلَّا أُوقِيَّةً لَبِعْنَاكَهُ، فقالَ ﷺ: لَوْ أَبَيْتُمْ إِلَّا مِائَةَ أُوقِيَّةٍ لَأَخَذْتُهُ(٥).

قالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: وَيُجْمَعُ بَيْنَ القِصَّتَيْنِ بأَنَّ كُلًّا مِنْ أُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ،

---

(١) الجَلَدُ: القُوَّةُ والصَّبْرُ. انظر النهاية (١/٢٧٥).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٥٥).

(٣) هو الإمام الحافظُ الحُجَّة مُسَدَّدُ بنُ مُسَرْهَدٍ، أحدُ أعْلام الحديث، وُلِد في حُدودِ الخَمْسِينَ ومِئَةٍ من الهجرة، وتُوفي في سنة ثمانٍ وعِشرين ومئتينِ، وهو شيخُ الإمامِ البُخاري، وأبي داود، وأبي زُرْعة، وغيرهم. انظر سير أعلام النبلاء (١٠/٥٩١).

(٤) أورده الحافظ في الفتح (٥/١٦١).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ـ رقم الحديث (٣٧٧٤٤) ـ وأورده الحافظ في الفتح (٧/٤٧٠) ـ وصحح إسناده.
الأُوقِيَّةُ: بِضَمِّ الهمزَةِ: تُساوِي أَرْبَعِينَ دِرْهمًا، يَعْنِي اشْتَرَاهُ مِنْ أَبِي جَهْلٍ بمِائَتَيْ دِرْهَمٍ. انظر النهاية (١/٨٠).

وأبِي جَهْلٍ كانَ يُعَذِّبُ بِلَالًا، ولَهُمَا نَصِيبٌ فِيهِ[1].

رَوى الإمامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ قالَ: أبُو بَكْرٍ سَيِّدُنا، وأعْتَقَ سَيِّدَنَا، يَعْنِي بِلَالًا[2].

٢ ـ أبُو فُكَيْهَةَ ﷺ اشْتَرَاهُ، وأَعْتَقَهُ.

٣ ـ عَامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ ﷺ اشْتَرَاهُ، وأعْتَقَهُ لِوَجْهِ اللهِ، وقَدْ شَهِدَ عَامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ غَزْوَةَ بَدْرٍ، وأُحُدٍ، وقُتِلَ في فَاجِعَةِ بِئْرِ مَعُونَةَ شَهِيدًا سنة أَرْبَعٍ لِلْهِجْرَةِ.

٤ ـ زَنِّيرَةُ اشْتَرَاهَا، وأعْتَقَهَا.

٥ ـ جَارِيَةُ بَنِي مُؤَمَّلٍ، وكانَ الذِي يُعَذِّبُهَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﷺ قَبْلَ أنْ يُسْلِمَ، فاشْتَرَاهَا، وأعْتَقَهَا.

٦ ـ النَّهْدِيَّةُ وابْنَتُهَا، وكانَتَا لِامْرَأَةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، فَمَرَّ بِهِمَا، فاشْتَرَاهُمَا، وأعْتَقَهُمَا[3].

۞ إنَّمَا أُرِيدُ وَجْهَ اللهِ:

ولَمْ يَكُنْ أبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ يَقْصِدُ بِعَمَلِهِ مَحْمَدَةً، ولا جَاهًا، وَلا

---

(١) انظر فتح الباري (١٦٢/٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب مناقب بلال بن رباح ﷺ ـ رقم الحديث (٣٧٥٤).

(٣) انظر تفاصيل تحرير أبي بكر الصديق ﷺ للعَبيدِ في: سِيرة ابن هشام (٣٥٥/١) ـ والبداية والنهاية (٦٤/٣) ـ زاد المعاد (٢١/٣).

دُنْيَا، وإنَّمَا كانَ يُرِيدُ وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ ذِي الجَلَالِ والإكْرَامِ.

رَوىٰ الحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عنْ عَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قالَ أَبُو قُحَافَةَ وَالِدُ أَبِي بَكْرٍ: يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَاكَ تُعْتِقُ رِقَابًا ضِعَافًا، فَلَوْ أَنَّكَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ أَعْتَقْتَ رِجالًا جُلْدًا يَمْنَعُونَكَ، ويَقُومُونَ دُونَكَ؟

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: يا أَبَتِ إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُ مَا أُرِيدُ، للهِ عَزَّ وَجَلَّ، فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فيه ﷺ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾(١).

قالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ في تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَاتِ: ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ المُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الآيَاتِ نَزَلَتْ في أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ، حتَّىٰ إِنَّ بَعْضَهُمْ حَكَىٰ الإِجْمَاعَ مِنَ المُفَسِّرِينَ عَلَىٰ ذَلِكَ، ولا شَكَّ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِيهَا، وأَوْلَىٰ الأُمَّةِ بِعُمُومِهَا، فإِنَّ لَفْظَهَا لَفْظُ العُمُومِ، وهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧

---

(١) سورة الليل آية (٥ ـ ٢١) ـ والخبر أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب التفسير ـ باب تفسير سورة ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ـ رقم الحديث (٣٩٩٧) ـ والإمام أحمد في فضائل الصحابة ـ رقم الحديث (٦٦) ـ وابن إسحاق في السيرة (٣٥٦/١).

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾، ولَكِنَّهُ مُقَدَّمُ الأُمَّةِ، وسَابِقُهُمْ في جَمِيعِ هَذِهِ الأَوْصَافِ، وسَائِرِ الأَوْصَافِ الحَمِيدَةِ، فإِنَّهُ كانَ صِدِّيقًا تَقِيًّا كَرِيمًا جَوَادًا بَذَّالًا لِأَمْوَالِهِ فِي طَاعَةِ مَوْلاهُ، ونُصْرَةِ رسُولِ اللهِ ﷺ، فكَمْ مِنْ دَرَاهِمَ ودَنَانِيرَ بَذَلَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ ربِّهِ الكَرِيمِ، ولَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ عِنْدَهُ مِنَّةٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ أَنْ يُكَافِئَهُ بِهَا، ولَكِنْ كانَ فَضْلُهُ وإِحْسَانُهُ عَلَىٰ السَّادَاتِ والرُّؤَسَاءِ مِنْ سَائِرِ القَبَائِلِ، ولِهَذَا قالَ لَهُ عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ ﷺ[1] ـ وهُوَ سَيِّدُ ثَقِيفٍ، يَوْمَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ وكانَ عَلَىٰ الكُفْرِ مَا أَسْلَمَ بَعْدُ ـ: أَمَا وَاللهِ لَوْلَا يَدٌ لَكَ كانَتْ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ[2]، وكانَ الصِّدِّيقُ ﷺ قَدْ أَغْلَظَ لَهُ فِي المَقَالَةِ، فإِذَا كانَ هَذَا حَالُهُ مَعَ سَادَاتِ العَرَبِ ورُؤَسَاءِ القَبَائِلِ، فكَيْفَ بِمَنْ عَدَاهُمْ؟.

ولِهَذَا قالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[3].

---

(١) هو عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، أحدُ الأكابرِ في قَوْمِهِ، وهو الذِي عناه الله تَعَالَىٰ في القُرآن علىٰ لِسَان الكفَّار في سورة الزخرف آية (٣١): ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. والمَقْصُودُ بالرَّجلينِ الوَلِيدُ بنُ المُغِيرةِ في مَكةَ، وعُرْوَةُ بن مَسْعُودٍ في الطَّائف، وأسلَمَ ﷺ بعدَ غزوَةِ الطَّائِفِ في السنة الثامنة للهجرة، واسْتَأْذَنَ النبي ﷺ أن يَرْجعَ إلىٰ قومه يَدْعُوهم إلىٰ الإسلام، فقال له الرسول ﷺ: إنِّي أخَافُ أن يَقْتُلُوكَ، فخرج إلىٰ قومه يَدْعُوهُمْ إلىٰ الإسلامِ، فَقَتَلُوه ﷺ. انظر الإصابة (٤٠٦/٤).

(٢) أخرج ذلك البخاري في صحيحه ـ كتاب الشروط ـ باب الشروط في الجهاد، والمُصَالحة مع أهلِ الحُرُوب ـ رقم الحديث ـ (٢٧٣١) ـ وأخرجه الإمام أحمد في المسند ـ رقم الحديث (١٨٩٢٨) ـ (١٨٩١٠).

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٤٢٢/٨).

أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِالقُرْآنِ:

ومَعَ كُلِّ هَذِهِ الابْتِلَاءَاتِ التِي تَعَرَّضَ لَهَا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، إلَّا أنَّ الحَمَاسَ فِيهِمْ كانَ عَظِيمًا لِدَعْوَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَجْرُؤُونَ عَلَىٰ الجَهْرِ بالقُرْآنِ أَمَامَ قُرَيْشٍ، وأَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بالقُرْآنِ بِمَكَّةَ بَعْدَ رسُولِ اللهِ ﷺ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، وكانَ رَجُلًا ضَعِيفًا رَقِيقًا، ولَكِنَّهُ فِي المِيزَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ أَثْقَلُ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ[1].

وكانَ رضي الله عنه مِنْ أَوَائِلِ مَنْ أَسْلَمَ، فَقَدْ أَخْرَجَ ابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ، والحَاكِمُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْهُ رضي الله عنه أَنَّهُ قالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي سَادِسَ سِتَّةٍ مَا عَلَىٰ الأَرْضِ مُسْلِمٌ غَيْرُنَا[2].

رَوَىٰ الإمَامُ أحْمَدُ في فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ مُرْسَلٍ عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه قالَ: كَانَ أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، اجْتَمَعَ يومًا أَصْحَابُ رسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: واللهِ ما سَمِعَتْ قُرَيْشٌ هَذَا القُرْآنَ يُجْهَرُ لَهَا بِهِ قَطُّ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمُوهُ؟.

---

(١) روىٰ الإمام أحمد في المسند ـ رقم الحديث (٣٩٩١) ـ وأبو داوود الطيالسي في مسنده ـ رقم الحديث (٣٥٣) ـ بسند صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه كان يَجْتَنِي سِواكًا من الأَرَاكِ، وكان دَقِيقَ السَّاقَيْن، فجعلتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ القَوْمُ منه، فقالَ رسول الله ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ»؟ قالوا: يا نَبِيَّ الله، من دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فقال ﷺ: **«والذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ في المِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»**.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة ـ باب ذكر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ رقم الحديث (٧٠٦٢) ـ والحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب ذِكْرِ مَنَاقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ رقم الحديث (٥٤١٩).

فقالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ: أنَا، قَالُوا: إنَّا نَخْشَاهُمْ عَلَيْكَ، إنَّمَا نُرِيدُ رَجُلًا لَهُ عَشِيرَةٌ يَمْنَعُونَهُ مِنَ القَوْمِ إنْ أرَادُوهُ، قالَ: دَعُونِي فإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَمْنَعُنِي، قالَ: فَغَدَا ابنُ مَسْعُودٍ حتَّىٰ أَتَىٰ المَقَامَ في الضُّحَىٰ، وقُرَيْشٌ في أنْدِيَتِهَا، فَقَامَ عِنْدَ المَقَامِ، ثُمَّ قَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ رَافِعًا صَوْتَهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، قالَ: ثُمَّ اسْتَقْبَلَهَا يَقْرَأُ فِيهَا، قالَ: وتَأَمَّلُوهُ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: مَا يَقُولُ ابنُ أُمِّ عَبْدٍ؟ قالَ: ثُمَّ قَالُوا: إنَّهُ لَيَتْلُو بَعْضَ ما جَاءَ بهِ مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ فَقَامُوا إلَيْهِ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ في وَجْهِهِ، وجَعَلَ يَقْرَأُ حتَّىٰ بلَغَ ما شَاءَ اللهُ أنْ يَبْلُغَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إلَىٰ أصْحَابِهِ، وقَدْ أثَّرُوا في وَجْهِهِ، فقَالُوا لَهُ: هَذَا الذِي خَشِينَا عَلَيْكَ، فقَالَ: ما كانَ أعْدَاءُ اللهِ أهْوَنَ عَلَيَّ مِنْهُمُ الآنَ، ولَئِنْ شِئْتُمْ لَأُغَادِيَنَّهُمْ بِمِثْلِهَا، قَالُوا: حَسْبُكَ فَقَدْ أسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ[١].

ورَوَىٰ الإمَامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ عنْ حُذَيْفَةَ بنِ اليَمَانِ رضي الله عنه قالَ: مَا أعْرِفُ أحَدًا أقْرَبَ سَمْتًا[٢] وَهَدْيًا[٣] وَدَلًّا[٤] بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ[٥].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة ـ رقم الحديث (١٥٣٥) ـ وابن إسحاق في السيرة (٣٥١/١).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٤٧٤/٧): سَمْتًا: أي خُشوعًا.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٤٧٤/٧): هَدْيًا: أي طَرِيقَةً.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٤٧٤/٧): دَلًّا: أي سِيرَةً وحَالَةً وهَيْئَةً، وكأنَّهُ مأخُوذٌ ممَّا يَدُلُّ ظاهِرُ حالهِ علىٰ حُسْنِ فِعَالِهِ.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ـ باب مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ رقم الحديث (٣٧٦٢) ـ وأخرجه الإمام أحمد في المسند ـ رقم الحديث (٢٣٣٠٨).

اشْتِدَادُ أَذَىٰ قُرَيْشٍ:

واشْتَدَّتْ ضَرَاوَةُ المُشْرِكِينَ بِالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، حتَّىٰ سَامُوهُمْ أَلْوَانًا مِنَ العَذَابِ فكانُوا يَأْخُذُونَهُمْ، ويُلْبِسُونَهُمْ أدْرَاعَ الحَدِيدِ، ثُمَّ يَصْهَرُونَهُمْ في الشَّمْسِ[1].

رَوَىٰ ابنُ إسْحَاقَ عَنْ سَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ قالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ: أَكَانَ المُشْرِكُونَ يَبْلُغُونَ مِنْ أَصْحَابِ رسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ العَذَابِ مَا يُعْذَرُونَ في تَرْكِ دِينِهِمْ؟

قالَ: نَعَمْ واللهِ، إنْ كَانُوا لَيَضْرِبُونَ أحَدَهُمْ، ويُجِيعُونَهُ، ويُعَطِّشُونَهُ حتَّىٰ ما يَقْدِرُ أنْ يَسْتَوِيَ جَالِسًا مِنْ شِدَّةِ الضُّرِّ الذي نَزَلَ بِهِ، حَتَّىٰ يُعْطِيَهُمْ ما سَأَلُوهُ مِنَ الفِتْنَةِ، حتَّىٰ يَقُولُوا له: اللَّاتُ والعُزَّىٰ إِلَهُكَ مِنْ دُونِ اللهِ؟

فَيَقُولُ: نَعَمْ، حتَّىٰ إنَّ الجُعْلَ[2] لَيَمُرُّ بِهِمْ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَهَذَا الجُعْلَ إِلَهُكَ مِنْ دُونِ اللهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، افْتِدَاءً مِنْهُمْ مِمَّا يَبْلُغُونَ مِنْ جَهْدِهِ[3].

شَكْوَىٰ الصَّحَابَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

فلَمَّا طَالَ العَذَابُ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ ذَهَبَ خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ ﷺ إِلَىٰ رسُولِ

---

(١) أخرج ذلك الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٣٨٣٢) - ابن ماجه في سننه - المقدمة - باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ - رقم الحديث (١٥٠) وإسناده حسن.

(٢) الجُعْلُ: هو حَيَوانٌ مَعرُوفٌ كالخُنْفُسَاءِ. انظر النهاية (١/٢٦٨).

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٥٧).

اللهِ ﷺ يَسْتَنْجِدُ بِهِ مِنْ هَذَا العَذَابِ، فَيَضْرِبُ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ الأمْثَالَ، ويَعِظُهُمْ ويُذَكِّرُهُمْ، فَيَرْجِعُونَ رَاضِينَ مُطْمَئِنِّينَ صَابِرِينَ عَلَىٰ البَلَاءِ.

رَوَىٰ الإمَامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ عَنْ خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ ﷺ قالَ: شَكَوْنَا إلَىٰ رسُولِ اللهِ ﷺ وهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: ألَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ ألَا تَدْعُو لَنَا[1]؟.

فَقَالَ ﷺ: **«كانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ[2] يُحْفَرُ لَهُ في الأرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، ومَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، ويُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أوْ عَصَبٍ، ومَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، واللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأمْرُ[3] حتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ[4] إلَىٰ حَضْرَمَوْتٍ لا يَخَافُ إلَّا اللهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[5].**

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٣٢٧/١٤): طَلَبُ خبَّابٍ الدُّعاءَ منَ النبي ﷺ علىٰ الكفَّارِ دَالٌّ علىٰ أَنَّهُمْ كانوا قدِ اعْتَدَوْا عليهِ بالأذَىٰ ظُلْمًا وعُدْوَانًا.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٣٢٨/١٤): فيهِ تَسْلِيَةٌ لهُم وإشارَةٌ إلىٰ الصَّبرِ حتىٰ تَتَقَضَّى المُدَّةُ المَقْدُورَةُ، وإلىٰ ذلكَ الإشارةُ بقولهِ ﷺ **«ولكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»**.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٥٥٦/٧): المرادُ بالأمرِ الإسْلَام.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٣٢٦/٧): يحتملُ أن يُرِيدَ صَنْعَاءَ اليَمَنِ، وبينها وبينَ حَضْرَمَوت وهي من اليَمن أيضًا مَسَافَةٌ بعيدةٌ نحو خَمْسَة أيامٍ، ويحتمل أنْ يُرِيدَ صَنْعَاء الشَّام والمسافَةُ بينَهَا أكْبَرُ بِكَثِيرٍ، والأوَّلُ أقْرَبُ.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب علامات النبوة في الإسلام ـ رقم الحديث (٣٦١٢) ـ وأخرجه في كتاب مناقب الأنصار ـ بابُ ما لَقِيَ النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ـ رقم الحديث (٣٨٥٢) ـ وأخرجه في كتاب الإكراه ـ باب من=

قالَ الشَّيْخُ مُحَمَّد الغَزَالِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: إنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ لَمْ يَجْمَعْ أَصْحَابَهُ عَلَىٰ مَغْنَمٍ عَاجِلٍ أوْ آجِلٍ، إنَّهُ أزَاحَ الغِشَاوَةَ عَنِ الأعْيُنِ، فأبْصَرَتِ الحَقَّ الذِي حُجِبَتْ عَنْهُ دَهْرًا، ومَسَحَ الرَّانَ عَنِ القُلُوبِ، فعَرَفَتِ اليَقِينَ الذِي فُطِرَتْ عَلَيْهِ، وحَرَمَتْهَا الجَاهِلِيَّةُ مِنْهُ.

إنَّهُ وصَلَ البَشَرَ بِرَبِّهِمْ، فرَبَطَهُمْ بِنَسَبِهِمُ العَرِيقِ، وسَبَبِهِمُ الوَثِيقِ، وكانُوا قَبْلَ ذَلِكَ حَيَارَىٰ مَحْسُورِينَ، إنَّهُ وازَنَ للنَّاسِ بَيْنَ الخُلُودِ والفَنَاءِ، فآثَرُوا الدَّارَ الآخِرَةَ عَلَىٰ الدَّارِ الزَّائِلَةِ، وخَيَّرَهُمْ بَيْنَ أصْنَامٍ حَقِيرَةٍ وإِلَهٍ عَظِيمٍ، فازْدَرَوا الأوْثَانَ المَنْحُوتَةَ، وتَوَجَّهُوا لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأرْضَ.

وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبُثُّ عَنَاصِرَ الثِّقَةِ في قُلُوبِ رِجَالِهِ، ويُفِيضُ عَلَيْهِمْ ما أفَاضَهُ اللهُ عَلَىٰ فُؤَادِهِ مِنْ أمَلٍ رَحِيبٍ في انْتِصَارِ الإسْلَامِ، وانْتِشَارِ مَبَادِئِهِ وزَوَالِ سُلْطَانِ الطُّغَاةِ أمَامَ طَلَائِعِهِ المُظَفَّرَةِ في المَشَارِقِ والمَغَارِبِ(١).

** ** **

= اختَار الضَّرب والقتال والهَوَان علىٰ الكفر ـ رقم الحديث (٦٩٤٣) ـ وأخرجه الإمام أحمد في المسند ـ رقم الحديث (٢١٠٥٧).

(١) انظر فقه السيرة ص ١٠٥ للشيخ محمد الغزالي.

اسْتِهْزَاءُ المُشْرِكِينَ بالنَّبيِّ ﷺ

كانَتْ تِلْكَ الاعْتِدَاءَاتُ بالنِّسْبَةِ للمُسْلِمِينَ ولا سِيَّمَا المُسْتَضْعَفِينَ مِنْهُمْ، أمَّا بالنِّسْبَةِ إلَىٰ رسُولِ اللهِ ﷺ فإنَّهُ كانَ رَجُلًا شَهْمًا وَقُورًا، ذَا شَخْصِيَّةٍ فَذَّةٍ تَتَعَاظَمُهُ نُفُوسُ الأعْدَاءِ والأصْدِقَاءِ بِحَيْثُ لا يُقَابَلُ مِثْلُهَا إلَّا بالإجْلالِ والتَّشْرِيفِ مِنْ قِبَلِ الخَاصَّةِ والعَامَّةِ، وكان مَعَ ذَلِكَ في مَنَعَةِ عَمِّهِ أبِي طَالِبٍ.

لِذَلِكَ لَمْ تَسْتَطِعْ قُرَيْشٌ - بَادِئَ الأمْرِ - أنْ تَبْطِشَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وتَعْتَدِيَ عَلَيْهِ كمَا فَعَلَتْ بِالمُسْلِمِينَ، فجَعَلُوا يَهْمِزُونَهُ ويَسْتَهْزِئُونَ بهِ ويُخَاصِمُونَهُ، وكانَ عَلَىٰ رَأْسِ المُسْتَهْزِئِينَ: أبُو لَهَبٍ عَمُّهُ، وعُقْبَةُ بنُ أبِي مُعَيْطٍ، والحَكَمُ بنُ أبِي العَاصِ، والأسْوَدُ بنُ المُطَّلِبِ أبُو زَمْعَةَ، والأسْوَدُ بنُ عَبْدِ يَغُوثَ، والوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ، والعَاصُ بنُ وَائِلٍ، وأبُو جَهْلِ بنِ هِشَامٍ[1].

❁ عَدَاوَةُ أُمِّ جَمِيلٍ زَوْجَةِ أبِي لَهَبٍ:

رَوَىٰ الحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ، بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، أَقْبَلَتِ

(١) انظر دلائل النبوة لأبي نعيم (١/٢٦٨) ـ الرَّوْض الأُنُف (٢/١٣٤).

الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبٍ، وَلَهَا وَلْوَلَةٌ، وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ[1]، وَهِيَ تَقُولُ:

مُـــذَمَّمًا أَبَيْنَـــا ودِينَـــهُ قَلَيْنَـــا[2]

وأمْـــرَهُ عَصَـــيْنَا

وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ، فَلَمَّا رَآهَا أبُو بَكْرٍ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَاكَ، فقَالَ ﷺ: «**إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي**»، وقَرَأَ قُرْآنًا فَاعْتَصَمَ بِهِ كَمَا قَالَ، وقَرَأَ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[3].

فَوَقَفَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ، وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي، فَقَالَ ﷺ: وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكِ، فَوَلَّتْ، وَهِيَ تَقُولُ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا[4].

وَرَوَى ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ بِشَوَاهِدِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾، جَاءَتِ امْرَأَةُ أَبِي

(١) الفِهرُ: هوَ الحَجَرُ مِلْءُ الكف، وقيل: هو الحجر مُطلقًا. انظر لسان العرب (٣٤١/١٠).

(٢) قَلَيْتُهُ: أبْغَضْتُهُ وكَرِهْتُهُ. انظر لسان العرب (٢٩٣/١١).
ومنه قوله تَعَالَىٰ في سورة الضحىٰ آية (٣): ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

(٣) سورة الإسراء آية (٤٥).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب التفسير ـ باب أم جميل عميت عن رؤية رسول الله ﷺ ـ رقم الحديث (٣٤٢٨).

لَهَبٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فَلَمَّا رَآهَا أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهَا امْرَأَةٌ بَذِيئَةٌ[1]، وَأَخَافُ أَنْ تُؤْذِيَكَ، فَلَوْ قُمْتَ، فَقَالَ ﷺ: **«إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي»** فَجَاءَتْ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي، قَالَ: لَا، وَمَا يَقُولُ الشِّعْرَ، قَالَتْ: أَنْتَ عِنْدِي مُصَدَّقٌ، وَانْصَرَفَتْ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَمْ تَرَكَ؟ قَالَ ﷺ: **«لَا، لَمْ يَزَلْ مَلَكٌ يَسْتُرُنِي عَنْهَا بِجَنَاحِهِ»**[2].

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُسَمِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ مُذَمَّمًا ثُمَّ يَسُبُّونَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتُمُونَ مُذَمَّمًا، وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا، وَأَنَا مُحَمَّدٌ»**[3].

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: كَانَ الكُفَّارُ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ شِدَّةِ كَرَاهِيَتِهِمْ فِي النَّبِيِّ ﷺ لَا يُسَمُّونَهُ بِاسْمِهِ الدَّالِّ عَلَى المَدْحِ فَيَعْدِلُونَ إِلَى ضِدِّهِ، فَيَقُولُونَ: مُذَمَّمٌ، وَإِذَا ذَكَرُوهُ بِسُوءٍ قَالُوا: فَعَلَ اللهُ بِمُذَمَّمٍ، وَمُذَمَّمٌ لَيْسَ هُوَ اسْمُهُ، وَلَا يُعْرَفُ بِهِ فَكَانَ الذِي يَقَعُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ مَصْرُوفًا إِلَى غَيْرِهِ[4].

۞ شِدَّةُ عَدَاوَةِ أَبِي لَهَبٍ لِلرَّسُولِ ﷺ:

أَمَّا زَوْجُهَا أَبُو لَهَبٍ فَقَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِهِ أَنَّهُ كَانَ يَتْبَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي

(١) البذيء: الفاحشُ من الرجال، والأنثى: بذيئة. انظر لسان العرب (١/٣٥٠).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب المعجزات ـ رقم الحديث (٦٥١١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ ـ رقم الحديث (٣٥٣٣) ـ وأخرجه الإمام أحمد في السند ـ رقم الحديث (٧٣٣١).

(٤) انظر فتح الباري (٧/٢٥٠).

الأَسْوَاقِ، والمَجَامِعِ، ومَوَاسِمِ الحَجِّ، ويُكَذِّبُهُ، فَقَدْ روَىٰ الإمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ رَبِيعَةَ بنِ عِبَادٍ ﵁ قالَ: رَأَيْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ بِسُوقِ ذِي المَجَازِ يَقُولُ: «**يا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»، وَيَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا[1]، والنَّاسُ مُقْتَصُّونَ[2] عَلَيْهِ، وورَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ الوَجْهِ ذَا غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا الذِي يُكَذِّبُهُ؟ قَالُوا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ[3].

وفِي رِوَايَةِ ابنِ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ، قالَ: ورَجُلٌ يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ بالحِجَارَةِ، وقَدْ أَدْمَىٰ عُرْقُوبَيْهِ[4] وكَعْبَيْهِ[5].

❁ شِدَّةُ عَدَاوَةِ عُتَيْبَةَ[6] بنِ أَبِي لَهَبٍ:

وتَسَلَّطَ عُتَيْبَةُ بنُ أَبِي لَهَبٍ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالأَذَىٰ، وشَقَّ قَمِيصَهُ،

---

(١) الفج: الطريق الواسع. انظر لسان العرب (١٠/١٨٥).

(٢) قال السندي في شرح المسند (٩/١٧٦): مُقتصُّون: مجتمعون.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٦٠٢٣) ـ وابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب كتب النبي ﷺ ـ رقم الحديث (٦٥٦٢).

(٤) العُرْقُوبُ: هوَ الوَتَرُ الذِي خَلْفَ الكَعْبَيْنِ بَيْنَ مِفْصَلِ القَدَمِ والسَّاقِ من ذَوَاتِ الأَرْبَعِ، وهو منِ الإنسَان فُوَيْقَ العَقِبِ. انظر النهاية (٣/٢٠٠).

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب ذكر مُقَاسَاة النبي ﷺ ما كان يُقاسي من قومِهِ في إظهارِ الإسلام ـ رقم الحديث (٦٥٦٢).

(٦) قال الحافظ في الفتح (٥/٥٠٨): عُتَيْبَةُ بالتَّصْغِيرِ مَاتَ كَافِرًا.

فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وقَالَ: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا[(١)] مِنْ كِلَابِكَ».

فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ رسُولِهِ ﷺ، فَخَرَجَ عُتَيْبَةُ فِي قَافِلَةٍ إِلَىٰ الشَّامِ، فَنزَلَ مَنْزِلًا، وقالَ لِمَنْ مَعَهُ: إِنِّي أَخَافُ دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ، قَالُوا لَهُ: كَلَّا، فَحَطُّوا مَتَاعَهُمْ حَوْلَهُ، وقَعَدُوا يَحْرُسُونَهُ، فجَاءَ الأَسَدُ وهَجَمَ عَلَيْهِ، فَقَتَلَهُ[(٢)].

۞ أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ وهَمْزُهُ لِلرَّسُولِ ﷺ:

وكانَ أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ إِذَا رَأَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَمَزَهُ[(٣)] ولَمَزَهُ، فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾[(٤)].

تَعْكِسُ هَذِهِ السُّورَةُ صُورَةً مِنَ الصُّوَرِ الوَاقِعِيَّةِ في حَيَاةِ الدَّعْوَةِ فِي عَهْدِهَا الأَوَّلِ، وهِيَ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ نَمُوذَجٌ يَتَكَرَّرُ فِي كُلِّ بِيئَةٍ... صُورَةُ اللَّئِيمِ الصَّغِيرِ

---

(١) الكَلْبُ في اللغة: يُطْلَقُ علىٰ كُلِّ سَبُعٍ عَقُورٍ. انظر لسان العرب (١٢/١٣٤).

(٢) أخرج ذلك الحاكم في المستدرك - كتاب التفسير - باب سورة أبي لهب - رقم الحديث (٤٠٣٧) - وقال صحيح الإسناد - وأورده الحافظ في الفتح (٤/٥١٢): وحسن إسناده وأورده الشوكاني في نيل الأوطار (٩/٢٣٤): وحسن إسناده.

(٣) قال ابن هشام في السيرة (١/٣٩٤): الهُمَزَةُ: هوَ الذِي يشْتُمُ الرَّجُلَ علانِيَةً.

(٤) سورة الهمزة بكَاملهَا - وانظر الخبر في: سيرة ابن هشام (١/٣٩٤) - سبل الهدىٰ والرشاد (٢/٤٦٤).

النَّفْسِ، الذِي يُؤْتَىٰ المَالَ فَتُسَيْطِرُ نَفْسُهُ بِهِ، حَتَّىٰ مَا يُطِيقُ نَفْسَهُ! ويَرُوحُ يَشْعُرُ أنَّ المَالَ هُوَ القِيمَةُ العُلْيَا فِي الحَيَاةِ. القِيمَةُ التِي تَهُونُ أمَامَهَا جَمِيعُ القِيَمِ وجَمِيعُ الأقْدَارِ. أقْدَارُ النَّاسِ، وأقْدَارُ المَعَانِي. وأقْدَارُ الحَقَائِقِ. وأنَّهُ وقَدْ مَلَكَ المَالَ فَقَدْ مَلَكَ كَرَامَاتِ النَّاسِ وأقْدَارَهُمْ بِلَا حِسَابٍ.

ومِنْ ثَمَّ يَنْطَلِقُ في هَوَسٍ[1] بِهَذَا المَالِ يَعُدُّهُ ويَسْتَلِذُّ تَعْدَادَهُ، وتَنْطَلِقُ فِي كَيَانِهِ نَفْخَةٌ فَاجِرَةٌ، تَدْفَعُهُ إلَىٰ الاسْتِهَانَةِ بأقْدَارِ النَّاسِ وكَرَامَتِهِمْ، ولَمْزِهِمْ وهَمْزِهِمْ... يَعِيبُهُمْ بِلِسَانِهِ ويَسْخَرُ مِنْهُمْ بِحَرَكَاتِهِ. سَوَاءً بِحِكَايَةِ حَرَكَاتِهِمْ وأصْوَاتِهِمْ، أوْ بِتَحْقِيرِ صِفَاتِهِمْ وسِمَاتِهِمْ... وبالقَوْلِ والإشَارَةِ، بالغَمْزِ واللَّمْزِ، باللَّفْتَةِ السَّاخِرَةِ والحَرَكَةِ الهَازِئَةِ!.

وهِيَ صُورَةٌ لَئِيمَةٌ حَقِيرَةٌ مِنْ صُوَرِ النُّفُوسِ البَشَرِيَّةِ حِينَ تَخْلُو مِنَ المُرُوءَةِ وتَعْرَىٰ مِنَ الإيمَانِ. والإسْلَامُ يَكْرَهُ هَذِهِ الصُّورَةَ الهَابِطَةَ مِنْ صُوَرِ النُّفُوسِ بِحُكْمِ تَرَفُّعِهِ الأخْلَاقِيِّ، وقَدْ نَهَىٰ عَنِ السُّخْرِيَةِ واللَّمْزِ والعَيْبِ فِي مَوَاضِعَ شَتَّىٰ. إلَّا أنَّ ذِكْرَهَا هُنَا بِهَذَا التَّشْنِيعِ والتَّقْبِيحِ مَعَ الوَعِيدِ والتَّهْدِيدِ، يُوحِي بأنَّهُ كانَ يُوَاجِهُ حَالَةً وَاقِعِيَّةً مِنْ بَعْضِ المُشْرِكِينَ تِجَاهَ الرَّسُولِ ﷺ وتِجَاهَ المُؤْمِنِينَ.. فَجَاءَ الرَّدُّ عَلَيْهَا في صُورَةِ الرَّدْعِ الشَّدِيدِ، والتَّهْدِيدِ الرَّعِيبِ[2].

---

(١) الهَوَس: طرفٌ من الجنون. انظر لسان العرب (١٥/١٥٩).

(٢) انظر في ظلال القرآن (٦/٣٩٧٢).

مُجَادَلَةُ أُبَيِّ بنِ خَلَفٍ:

أَمَّا أَخُوهُ أُبَيُّ بنُ خلَفٍ[1] فَجَاءَ يَوْمًا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَظْمٍ بَالٍ، فَقَالَ: يا مُحَمَّدُ! أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرِمَ[2]، ثُمَّ فَتَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ نَفَخَهُ نَحْوَ رسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: نَعَمْ أَنَا أَقُولُ ذَلِكَ، يَبْعَثُهُ اللهُ وإِيَّاكَ بَعْدَمَا تَكُونَانِ هكَذَا، ثُمَّ يُدْخِلُكَ النَّارَ. فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3].

رَوَىٰ الإمَامُ أحْمَدُ في مُسْنَدِهِ، والطَّحَاوِيُّ في شَرْحِ مُشْكِلِ الآثَارِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّلاةَ يَوْمًا، فَقَالَ: «**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وبُرْهَانًا ونَجَاةً يَوْمَ**

---

(١) أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ قتلهُ الرسول ﷺ يومَ أُحُدٍ، وهو الوَحِيدُ الذي قتلهُ الرَّسول ﷺ، فلمَّا قتلَهُ: قال ﷺ: «**اشْتَدَّ غضَبُ اللهِ علىٰ رَجُلٍ قَتَلَهُ رسول الله**». أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المغازي ـ باب ما أصاب النبي ﷺ من الجِرَاح يوم أُحد ـ رقم الحديث (٤٠٧٣) ـ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب اشْتِدَاد غضب الله علىٰ مَنْ قتله ﷺ ـ رقم الحديث (١٧٩٣).

(٢) أَرِمَ: أي بَلِيَ. انظر النهاية (٤٣/١).

(٣) الآيات من سورة يس (٧٨ ـ ٨٣) ـ والخبر في سيرة ابن هشام (٣٩٩/١).

القِيَامَةِ، ومَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا، لَمْ تَكُنْ لَهُ نُورًا ولَا بُرْهَانًا ولَا نَجَاةً، وكَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ فِرْعَونَ، وقَارُونَ، وهَامَانَ، وأُبَيٍّ صَاحِبِ العِظَامِ»[(١)].

وَعِنْدَ الحَاكِمِ في المُسْتَدْرَكِ أَنَّ هَذِهِ الآيَاتِ نَزَلَتْ في: العَاصِ بنِ وَائِلٍ.

فأَخْرَجَ في المُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: جَاءَ العَاصُ بنُ وَائِلٍ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَظْمٍ حَائِلٍ[(٢)] فَفَتَّهُ، فَقَالَ: يا مُحَمَّدُ أَيَبْعَثُ اللهُ هَذَا بَعْدَمَا أَرِمَ؟.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ يَبْعَثُ اللهُ هَذَا، يُمِيتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ».

قالَ: فَنَزَلَتِ الآيَاتُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ...﴾[(٣)].

قالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وعَلَىٰ كُلِّ تَقْدِيرٍ سَوَاءً كَانَتْ هَذِهِ الآيَاتُ نَزَلَتْ في أُبَيِّ بنِ خَلَفٍ، أَوْ فِي العَاصِ بنِ وَائِلٍ، أو فِيهِمَا، فَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ أَنْكَرَ البَعْثَ، والأَلِفُ واللَّامُ في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ لِلْجِنْسِ، يَعُمُّ كُلَّ مُنْكِرٍ لِلْبَعْثِ[(٤)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٦٥٧٦) ـ والطحاوي في شرح مشكل الآثار ـ رقم الحديث (٣١٨٠).

(٢) حَائِلٌ: أي مُتَغَيِّرٌ قدْ غَيَّرَه البِلَىٰ. انظر النهاية (١/٤٤٥).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب التفسير ـ باب تفسير سورة يس ـ رقم الحديث (٣٦٥٩).

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٦/٥٩٤).

أَشْقَىٰ الْقَوْمِ عُقْبَةُ بنُ أَبِي مُعِيطٍ لَعَنَهُ اللهُ:

رَوَىٰ أَبُو نُعَيْمٍ في دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قَالَ: أَنَّ عُقْبَةَ بنَ أَبِي مُعَيْطٍ صَنَعَ طَعَامًا، ثُمَّ دَعَا إِلَيْهِ رَسُول اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «**مَا أَنَا بِالذِي آكُلُ مِنْ طَعَامِكَ حَتَّىٰ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأَنِّي رَسُولُ اللهِ**»، فَقَالَ عُقْبَةُ: اطْعَمْ يَا ابْنَ أَخِي، قَالَ ﷺ: «**مَا أَنَا بِالذِي أَفْعَلُ حَتَّىٰ تَقُولَ**»، فَتَشَهَّدَ عُقْبَةُ بنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِذَلِكَ، فَطَعِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ طَعَامِهِ.

فَبَلَغَ ذَلِكَ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ ـ وكانَ صَاحِبَهُ ـ فأَتَاهُ فَقَالَ: صَبَوْتَ يَا عُقْبَةُ؟.

فَقَالَ عُقْبَةُ: لا، وَاللهِ مَا صَبَوْتُ، ولَكِنْ دَخَلَ عَلَيَّ الرَّجُلُ فَأَبَىٰ أَنْ يَطْعَمَ مِنْ طَعَامِي إِلَّا أَنْ أَشْهَدَ لَهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِي قَبْلَ أَنْ يَطْعَمَ، فَشَهِدْتُ لَهُ، فَطَعِمَ، فَقَالَ أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ: ما أَنَا الذِي أَرْضَىٰ عَنْكَ أَبدًا حَتَّىٰ تَأْتِيَهُ فَتَبْزُقَ فِي وَجْهِهِ، فذَهَبَ عُقْبَةُ بنُ أَبِي مُعِيطٍ لَعَنَهُ اللهُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَبَزَقَ في وَجْهِ الرَّسُولِ ﷺ، فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِمَا ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[1].

---

(١) انظر دلائل النبوة لأبي نعيم (٢/٤٧٠) ـ سيرة ابن هشام (١/٣٩٩) ـ البداية والنهاية (٣/٩٧).

هُنَا يَعْرِضُ القُرْآنُ مَشْهَدًا مِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ اليَوْمِ، يُصَوِّرُ نَدَمَ الظَّالِمِينَ الضَّالِّينَ. يَعْرِضُ عَرْضًا طَوِيلًا مَدِيدًا، يُخَيِّلُ لِلسَّمْعِ أَنَّهُ لَنْ يَنْتَهِيَ ولَنْ يَبْرَحَ. مَشْهَدُ الظَّالِمِ يَعَضُّ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنَ النَّدَمِ، وَالأَسَفِ، وَالأَسَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾.

ويَصْمُتُ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ حَوْلِهِ، ويَرُوحُ يَمُدُّ في صَوْتِهِ المُتَحَسِّرِ، ونَبَرَاتِهِ الأَسِيفَةِ، والإيقَاعُ المَمْدُودُ يَزِيدُ المَوْقِفَ طُولًا ويَزِيدُ أَثَرَهُ عُمْقًا. حَتَّىٰ لَيَكَادُ القَارِئُ لِلْآيَاتِ، والسَّامِعُ يُشَارِكَانِ في النَّدَمِ والأَسَفِ والأَسَىٰ![1].

❁ **الأَخْنَسُ بنُ شُرَيْقٍ[2]:**

وهَذَا الرَّجُلُ هُوَ مِنْ أَشْرَافِ القَوْمِ، ومِمَّنْ يُسْتَمَعُ مِنْهُ، وكانَ مِمَّنْ يُؤْذِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، ويُصِيبُ مِنْهُ ويَرُدُّ عَلَيْهِ، ونَزَلَ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾

---

(١) انظر في ظلال القرآن (٥/٢٥٦٠).

(٢) هو الأَخْنَسُ الثَّقَفِيُّ، حَلِيفُ بنِي زُهْرَةَ، اسمُهُ أُبَيّ، وإنَّما لُقِّبَ الأَخْنَسَ، لأنه رَجَعَ بِبَنِي زُهْرَةَ من بَدْرٍ لمَّا جاءَهُمُ الخَبَرُ أن أبا سُفْيان نَجا بالعِيرِ، فقيل: خَنَسَ الأَخْنَسُ بِبَنِي زُهرة، فُسمي بذلك، ثمَّ أَسْلَم الأخنس فكان من المُؤَلَّفة قُلوبهم، وشَهِدَ حُنَينًا، ومات في أوَّل خِلافةِ عمر بن الخطاب ﷺ.
قال ابن عطية: ما ثَبَتَ قَطُّ أن الأخنس أَسْلَمَ، وتعقَّبه الحافظُ في الإصابة (١/١٩٢) بقولِهِ: قدْ أثبتَهُ في الصَّحابةِ من تقدم ذكره، ولا مَانِعَ أن يُسْلِم ثم يَرْتَدَّ ثم يَرْجِعَ إلىٰ الإسلام، والله أعلمُ.

هَمَّازٍ[1] مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ[2] ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ[3] بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[4].

الوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ:

وكانَ الوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ مِمَّنْ يُجَادِلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ويَنَالُ مِنْهُ، وَيَقُولُ: أيُنْزَلُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ، وأُتْرَكُ وأنَا كَبِيرُ قُرَيْشٍ وسَيِّدُهَا؟ ويُتْرَكُ أَبُو مَسْعُودٍ عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ سَيِّدُ ثَقِيفٍ، فَنَحْنُ عَظِيمَا القَرْيَتَيْنِ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ[5] عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ[6] نَحۡنُ

---

(١) الهَمْزُ: الغِيبَةُ والوَقِيعَةُ في النَّاسِ، وذكر عيوبهم. انظر النهاية (٥/٢٣٦).

(٢) يعنِي الذِي يَمْشِي بينَ الناسِ، ويُحَرِّشُ بينَهُم، وينقلُ الحَدِيثَ لفَسَادِ ذاتِ البَيْنِ، وهي الحَالِقَةُ. انظر النهاية (٥/١٠٥).

(٣) العُتُلُّ: هوَ الفَظُّ الغَلِيظُ. انظر لسان العرب (٩/٣٩).

روىٰ الإمام البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٤٩١٨) ـ والإمام مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٢٨٥٣) عن حارثَة بن وَهْبٍ الخُزَاعي قال: سمعتُ النبي ﷺ يقولُ: «**ألَا أخبِرُكمْ بأهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ**».

والجَوَّاظُ: هو المُخْتَالُ في مَشْيَتِهِ. انظر النهاية (١/٣٠٤).

(٤) الزَّنِيمُ: هو المُلْصَقُ في القَوْمِ، وليسَ مِنهم. انظر تفسير ابن كثير (٨/١٩٣) ـ وانظر النهاية (٢/٢٨٥).

والخَبَرُ في: سيرة ابن هشام (١/٣٩٨) ـ والرَّوْض الأُنُف (٢/١٤٦).

(٥) قال ابنُ عباسٍ، وعكرِمَة، ومحمَّد بنُ كعبٍ، وقتادَةُ، والسُّدِّي: المُرَادُ بالقَرْيَتَيْنِ مكَّة والطَّائف، واختلفُوا في تَعْيِينِ الرَّجلِ المُرَادِ، فعنْ قتادَةَ: أَرَادُوا الوَلِيدَ بنَ المُغِيرة مِن أهل مَكة، وعُرْوَةَ بنَ مَسعُود الثَّقفي منْ أهْلِ الطَّائفِ. انظر الإصابة (٤/٤٠٦).

(٦) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/٢٢٦): أيْ ليْسَ الأمْرُ مَرْدُودًا إلَيْهِمْ، بلْ إلىٰ الله تَعالَىٰ، والله أعلم حيثُ يَجْعَلُ رِسالاتِهِ، فإنه لا يُنْزِلُها إلا علىٰ أزْكَىٰ الخَلْقِ قَلْبًا ونَفْسًا، وأشْرَفِهِمْ بَيْتًا، وأطْهَرِهِمْ أَصْلًا.

قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1].

تَهَكُّمُ[2] العَاصِ بنِ وَائِلٍ[3] بِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

أَمَّا العَاصُ بنُ وَائِلٍ فإِنَّهُ كانَ أَيْضًا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلرَّسُولِ ﷺ، فَلَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللهِ بنُ الرَّسُولِ ﷺ، قالَ العَاصُ بنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ: لَقَدِ انْقَطَعَ نَسْلُهُ، وكانَ إِذَا ذُكِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قالَ: دَعُوهُ، فإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ أَبْتَرُ لا عَقِبَ لَهُ، لَوْ قَدْ مَاتَ لانْقَطَعَ ذِكْرُهُ[4] واسْتَرَحْتُمْ مِنْهُ.

---

(١) سورة الزخرف آية (٣١ - ٣٢) - وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (١/٣٩٨) - البداية والنهاية (٣/٩٧) - الرَّوْض الأُنُف (٢/١٤٧) - سبل الهدى والرشاد (٢/٤٦٧).

(٢) التهكم: التكبر. انظر لسان العرب (١٥/١١١).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٩/٣٥٦): هوَ العَاصُ بنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ، وهوَ والِدُ عَمْرِو بنِ العَاصِ رضي الله عنه الصَّحابِيِّ المَشْهُورُ، وكانَ لهُ قَدْرٌ في الجَاهِلِيَّةِ، ولم يُوَفَّقْ للإِسلامِ، وكانَ مَوْتُهُ بمَكَّةَ قبلَ الهِجْرَةِ، وهوَ أَحَدُ المُسْتَهْزِئِينَ.
قال عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: سمِعْتُ أَبِي يقولُ: عاشَ أَبِي خَمْسًا وثَمَانِينَ سَنَةً، وإنه لَيَرْكَبُ حِمَارًا إِلَىٰ الطائِفِ فيَمْشِي عنْهُ أَكثَرَ مِمَّا يَرْكَبُ، ويُقَالُ: إِنَّ حِمَارَهُ رَمَاهُ علىٰ شَوْكَةٍ أَصَابَتْ رِجْلَهُ، فانْتَفَخَتْ فمَاتَ مِنْهَا.

(٤) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/٥٠٥): حاشَا وكَلَّا، بلْ قدْ أبقَىٰ اللهُ ذِكْرَهُ علىٰ رُؤُوسِ الأَشْهَادِ، وأوجَبَ شَرْعَهُ علىٰ رِقَابِ العِبادِ، مُسْتَمِرًّا علىٰ دَوَامِ الآبَادِ، إِلىٰ يَوْمِ الحَشْرِ والمَعَادِ، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ دَائِمًا إِلىٰ يَوْمِ التَّنَادِ.
وقال حَسَّان بن ثابت رضي الله عنه:

أَغَـرُّ عليـهِ لِلنُّبُـوَّةِ خَـاتَمٌ ... مِـنَ اللهِ مشْـهُودٌ يلُـوحُ ويَشْـهَدُ
وضَمَّ الإِلَه اسْمَ النَّبِيِّ إِلَىٰ اسْمِهِ ... إِذَا قالَ في الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وشَـقَّ لـهُ مِـنِ اسْـمِهِ لِيُجِلَّـهُ ... فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وهَذَا مُحَمَّدُ

فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ في ذَلِكَ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾(١).

۞ قِصَّةٌ تُبَيِّنُ شِدَّةَ كُفْرِ العَاصِ بن وَائِلٍ:

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا عَنْ خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ قَيْنًا(٢) في الجَاهِلِيَّةِ، وكانَ لِي عَلَىٰ العَاصِ بنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ: لا أُعْطِيكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ.

فَقُلْتُ: لَا أَكْفُرُ حَتَّىٰ يُمِيتَكَ اللهُ ثُمَّ تُبْعَثَ.

قَالَ: دَعْنِي حَتَّىٰ أَمُوتَ وأُبْعَثَ، فَسَأُوتَىٰ مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيَكَ.

فَنَزَلَتْ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ

---

(١) سورة الكوثر بكاملها ـ والخبر في سيرة ابن هشام (٢/٧).
قال الإمام السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (٢/١٨٢): الأبتَرُ: هوَ الذِي لا عَقِبَ لهُ يَتْبَعُهُ، فإذا نَظَرْتَ إلىٰ العاصِ بنِ وَائِلٍ الذِي نزلتْ فيه هذهِ الآيةُ، وكان ذَا وَلَدٍ وعَقِبٍ، وولدُهُ عمرٌو وهِشَام ابنَا العَاصِ بنِ وائلٍ، فكيفَ يَثْبُتُ لهُ البَتْرُ، وانْقِطَاعُ الوَلَدِ، وهوَ ذُو وَلَدٍ ونَسْلٍ؟.
فالجوابُ: أنَّ العاصَ وإنْ كانَ ذَا وَلَدٍ فقد انقطَعَتِ العِصْمَةُ بينَهُ وبَيْنَهُمْ، فليسُوا بأتْبَاعٍ لَهُ؛ لأنَّ الإسلامَ قدْ حَجَزَهُمْ عنْهُ، فلا يَرِثُهُمْ ولا يَرِثُونَهُ، وهمْ مِنْ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأزْوَاجُهُ ﷺ أمَّهَاتُهُمْ، فهُم وجَمِيعُ المُؤْمنِينَ أتْبَاعُ النبيِّ ﷺ في الدنْيا، وأتباعُهُ في الآخِرَةِ ليَسْقِيَهُمْ منْ حوضِهِ الكَوْثَرِ يوم القِيَامَةِ، وأمَّا عدوُّ الله العَاصُ بنُ وائلٍ علىٰ هذا هُوَ الأبتَرُ علىٰ الحَقِيقةِ، إذْ قدِ انقطَعَ ذَنَبُهُ وأتْبَاعُهُ، وصارُوا تَبَعًا لمُحمَّد ﷺ.
(٢) قال الحافظ في الفتح (٥/٤٢): القَيْنُ بفتحِ القافِ هو الحَدَّادُ، ثمَّ صارَ كل صَائِغٍ عندَ العَرَبِ قَينًا.

ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[1].

۞ الكَافِرُ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ فِي الآخِرَةِ:

رَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ في سُنَنِهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عنْ عَمْرِو بنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: أَنَّ العَاصَ بنَ وَائِلٍ السَّهْمِيَّ أَوْصَىٰ أَنْ يُعْتَقَ عَنهُ مِائَةُ رَقَبَةٍ، فَأَعْتَقَ ابْنُهُ هِشَامٌ خَمْسِينَ رَقَبَةً، فَأَرَادَ ابْنُهُ عَمْرٌو أَنْ يُعْتِقَ عَنْهُ الخَمْسِينَ البَاقِيَةَ، فَقَالَ: حَتَّىٰ أَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ! إنَّ أَبِي أَوْصَىٰ أَنْ يُعْتَقَ عَنْهُ مِائَةُ رَقَبَةٍ، وإنَّ هِشَامًا أَعْتَقَ عَنْهُ خَمْسِينَ، وبَقِيَتْ عَلَيْهِ خَمْسُونَ رَقَبَةً، أَفَأُعْتِقُ عَنْهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّهُ لَوْ كَانَ مُسْلِمًا فَأَعْتَقْتُمْ عَنْهُ، أَوْ تَصَدَّقْتُمْ عَنْهُ، أَوْ حَجَجْتُمْ عَنْهُ: بَلَغَهُ ذَلِكَ»**[2].

۞ النَّضْرُ بنُ الحَارِثِ وعَبْدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى:

وكَانَ النَّضْرُ بنُ الحَارِثِ، وعَبْدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى[3] مِمَّنْ نَصَبَ العَدَاوَةَ

---

(١) سورة مريم الآيات (٧٧ ـ ٨٠).
والخبر أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب البيوع ـ باب ذكر القَيْنِ والحَدَّاد ـ رقم الحديث (٢٠٩١) ـ وأخرجه في كتاب التفسير ـ باب ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ ـ رقم الحديث (٤٧٣٤) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ باب سؤال اليهود الرسول ﷺ عن الروح ـ رقم الحديث (٢٧٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ـ كتاب الوصايا ـ باب ما جاء في وصية الحربي يُسلم ـ رقم الحديث (٢٨٨٣) ـ وأورده ابن الأثير في جامع الأصول ـ رقم الحديث (٩٢٦٠).

(٣) هو عبدُ الله بن الزِّبَعْرَى القُرَشِيُّ السَّهْمِيُّ، كانَ مِنْ أَشَدِّ الناسِ علىٰ رَسُول اللهِ ﷺ،=

لرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَدْ أخْرَجَ الطَّحَاوِيُّ في شَرْحِ مُشْكِلِ الآثَارِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: جَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا مَعَ الوَلِيدِ بن المُغِيرَةِ في المَسْجِدِ، فَجَاءَ النَّضْرُ بنُ الحَارِثِ حَتَّىٰ جَلَسَ مَعَهُمْ، وفِي المَجْلِسِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ، فتَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فعَرَضَ لَهُ النَّضْرُ بنُ الحَارِثِ، فكَلَّمَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حتَّىٰ أفْحَمَهُ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِ وعَلَيْهِمْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾(١).

ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وأَقْبَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزِّبَعْرَى السَّهْمِيُّ حَتَّىٰ جَلَسَ، فَقَالَ الوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ لعَبْدِ اللهِ بنِ الزِّبَعْرَى: وَاللهِ مَا قَامَ النَّضْرُ بنُ الحَارِثِ لابْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ آنِفًا ومَا قَعَدَ، وقَدْ زَعَمَ مُحَمَّدٌ أنَّا ومَا نَعْبُدُ مِنْ آلِهَتِنَا هَذِهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، فقَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى: أَمَا وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ لَخَصَمْتُهُ، فَسَلُوا مُحَمَّدًا: أَكُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ في جَهَنَّمَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ؟.

فَنَحْنُ نَعْبُدُ المَلَائِكَةَ، واليَهُودُ تَعْبُدُ عُزَيْرًا، والنَّصَارَىٰ تَعْبُدُ عِيسَىٰ ابنَ

= وعلى المسلمينَ بلِسَانِهِ ونفْسِهِ، وكانَ مِنْ أشْعَرِ الناسِ وأبْلَغِهِمْ، حتىٰ قالوا: أنَّهُ أشْعَرُ قريشٍ قَاطِبَةً.

ثمَّ أسلمَ في فَتْحِ مَكَّةَ، وحسُنَ إسلامُهُ، واعتذرَ إلىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَبِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُذْرَهُ. انظر الإصابة (٤/٧٦).

(١) سورة الأنبياء آية (٩٨ ـ ١٠٠).

مَرْيَمَ، فَعَجِبَ الوَلِيدُ، ومَنْ كَانَ مَعَهُ في المَجْلِسِ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللهِ بنِ الزِّبَعْرَى، ورَأَوْا أَنَّهُ قَدِ احْتَجَّ وخَاصَمَ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ قَوْلِ ابنِ الزِّبَعْرَى، فَقَالَ ﷺ: «**كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ، إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ، ومَنْ أَمَرَتْهُمْ بِعِبَادَتِهِ**».

فأَنْزَلَ اللهُ تَعالَىٰ في ذَلِكَ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ**﴾[1].

يَعْنِي عِيسَىٰ ابنُ مَرْيَمَ، وعُزَيْرٌ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ومَنْ عُبِدُوا مِنَ الأَحْبَارِ والرُّهْبَانِ الذِينَ مَضَوْا عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ، فَاتَّخَذَهُمْ مَنْ يَعْبُدُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ، أُولَئِكَ عَنِ النَّارِ مُبْعَدُونَ لا يَدْخُلُونَهَا أَبَدًا.

ونَزَلَ فِيمَا ذُكِرَ مِنْ أَمْرِ عِيسَىٰ ابنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَّهُ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ وعَجِبَ الوَلِيدُ، ومَنْ حَضَرَهُ مِنْ حُجَّتِهِ وخُصُومَتِهِ، قوله تَعَالَىٰ: ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ**[2] ﴿٥٧﴾ **وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾[3].

---

(١) سورة الأنبياء آية (١٠١ ـ ١٠٢).

(٢) أي يَضْحَكُونَ. انظر تفسير ابن كثير (٧/٢٣٤).

(٣) سورة الزخرف آية (٥٧).

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عِيسَىٰ ابنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ[1] فَلَا تَمْتَرُنَّ[2] بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[3].

رَوَىٰ الإمَامُ أحمَدُ في مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: . . .إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِقُرَيْشٍ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ فِيهِ خَيْرٌ**»، وقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ النَّصَارَىٰ تَعْبُدُ عِيسَىٰ ابنَ مَرْيَمَ، ومَا تَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ، فقَالُوا: يا مُحَمَّدُ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عِيسَىٰ كانَ نَبِيًّا وعَبْدًا مِنْ عِبَادِ

---

(١) قال ابن إسحاق في السيرة (٣٩٨/١) في تفسير هذه الآية: أي ما وُضِعت على يديه من الآيات، من إحْيَاءِ المَوْتىٰ، وإبراءِ الأسقام، فكفَىٰ به دَلِيلًا علىٰ عِلْمِ السَّاعَةِ.
وتعقَّبه الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢٣٦/٧) فقال: وفي هذا نَظَرٌ... والمرادُ بذلك نُزُولُهُ عليه السلام قبلَ يَوْمِ القِيَامَةِ، كمَا قال تبارك وتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَىٰ عليه السلام، ثم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [سورة النساء آية (١٥٩)]، ويؤيِّدُ هذا المَعْنىٰ القراءَةُ الأُخْرَىٰ «وإنه لَعَلَمٌ للسَّاعَةِ» أي: أمَارَةٌ ودَلِيلٌ علىٰ وُقُوعِ السَّاعة.
وقد تواتَرَت الأحاديثُ عن رَسُول اللهِ ﷺ، أنه أخْبَرَ بِنُزُولِ عِيسَىٰ ابنِ مريمَ عليه السلام قبلَ يَوْمِ القِيَامَةِ إمَامًا عَادِلًا، وحَكَمًا مُقْسِطًا.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢٣٦/٧): أي لا تشكُّو فيها، إنهَا واقِعَةٌ وكائِنَةٌ لا مَحَالَةَ.

(٣) سورة الزخرف آية (٥٩ - ٦١). والخبر أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (٩٨٦) (٩٨٨) - والحاكم في المستدرك - كتاب التفسير - باب مذاكرة الساعة - رقم الحديث (٣٥٠١) - وابن إسحاق في السيرة (٣٩٧/١).

اللهِ صَالِحًا، فَلَئِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَإِنَّ آلِهَتَهُمْ لَكَمَا تَقُولُونَ. قالَ: فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ قالَ: قُلْتُ: مَا يَصِدُّونَ؟ قالَ: «**يَضُجُّونَ**»، ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ قالَ: «**هُوَ خُرُوجُ عِيسَىٰ ابنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ قَبْلَ يَوْمِ القِيامَةِ**»[1].

ورَوَىٰ الإمامُ أَحْمَدُ والتِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًىٰ كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ**»[2]، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾[3].

۞ فِرْعَونُ هَذِهِ الأُمَّةِ لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

أَمَّا أَبُو جَهْلٍ - لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَىٰ - فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وعَلَىٰ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فكانَ لَعَنَهُ اللهُ يَهْزَأُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ومَا جَاءَ بِهِ مِنَ الحَقِّ، ويُؤْذِيهِ بِالقَوْلِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٩١٨) - وأخرجه ابن حبان في صحيحه - كتاب التاريخ - باب ذكر البيان بأنَّ عيسىٰ ابن مريم عليه السلام مِنْ أعْلام الساعة - رقم الحديث (٦٨١٧).

(٢) قال المباركفوري رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في تحفة الأحوذي (١٢٤/٩): والمعنىٰ ما كانَ ضَلَالَتُهُمْ ووقُوعُهُمْ في الكفرِ إلا بِسَبَبِ الجِدَالِ، وهو الخُصُومةُ بالباطلِ مع نَبِيِّهِمْ، وطلبُ المُعْجِزَةِ منهُ عِنادًا أو جُحُودًا.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٢١٦٤) - والترمذي في جامعه - كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الزخرف - رقم الحديث (٣٥٣٥).

رَوَىٰ الإمَامُ أحْمَدُ في مُسْنَدِهِ والنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ أبُو جَهْلٍ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ يَوْمًا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ، يَزْعُمُ أنَّهَا شَجَرَةٌ في النَّارِ يُقَالُ لَهَا شَجَرَةُ الزَّقُومِ، والنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ، إنَّمَا الزَّقُومُ التَّمْرُ والزُّبْدُ، هَاتُوا تَمْرًا وزُبْدًا وتَزَقَّمُوا[1]، فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ كَٱلْمُهْلِ**[2] **يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ**﴾[3].

رَوَىٰ الإمَامُ أحْمَدُ في مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ أنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ لَأَمَرَّتْ عَلَىٰ أهْلِ الأَرْضِ عَيْشَهُمْ، فكَيْفَ مَنْ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إلَّا الزَّقُّومُ**»[4].

ولَقِيَ أبُو جَهْلٍ مَرَّةً رَسُولَ اللهِ ﷺ فقَالَ لَهُ: واللهِ يا مُحَمَّدُ لَتَتْرُكَنَّ سَبَّ آلِهَتِنَا أوْ لَنَسُبَّنَّ إلَهَكَ الذِي تَعْبُدُ، فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ**

---

(١) الزَّقُّومُ: من الزَّقَم: أي اللَّقْم الشَّدِيدِ. انظر النهاية (٢/٢٧٧).

(٢) المُهْلُ: هوَ القَيْحُ والصَّدِيدُ الذي يَذُوبُ فَيَسِيلُ منَ الجَسَدِ، ومنهُ قِيلَ للنُّحَاسِ الذَّائِبِ: مُهْلٌ. انظر النهاية (٤/٣١٩).

(٣) سورة الدخان آية (٤٣ ـ ٤٦) ـ والخبر أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٣٥٤٦) ـ والنسائي في السنن الكبرىٰ ـ رقم الحديث (١١٤٢٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٧٣٥) ـ وأخرجه الطيالسي في مسنده ـ رقم الحديث (٢٧٦٥) ـ وأخرجه الترمذي في جامعه ـ كتاب صفة جهنم ـ باب ما جاء في صفة شراب أهل النار ـ رقم الحديث (٢٧٦٧).

يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1] فكَفَّ عَنْدَئِذٍ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ سَبِّ[2] آلِهَتِهِمْ، وجَعَلَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ[3].

قالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: يَقُولُ اللهُ تَعَالَى نَاهِيًا لِرَسُولِهِ ﷺ والمُؤْمِنِينَ عَنْ سَبِّ المُشْرِكِينَ، وإِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ، إِلَّا أَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ أَعْظَمُ مِنْهَا، وهِيَ مُقَابَلَةُ المُشْرِكِينَ بِسَبِّ إِلَهِ المُؤْمِنِينَ، وهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

ومِنْ هَذَا القَبِيلِ ـ وهُوَ تَرْكُ المَصْلَحَةِ لِمَفْسَدَةٍ أَرْجَحَ مِنْهَا ـ مَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ والِدَيْهِ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟

قالَ: «**يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَباهُ، ويَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ**»[4].

---

(١) سورة الأنعام آية (١٠٨).

(٢) لم يكنْ رسُول اللهِ ﷺ سَبَّابًا، ولا شَتَّامًا، ولا فَحَّاشًا، وإنما كان يَنْفِي عن آلهة المُشْرِكين ما كانوا يتَوَهَّمُونَهُ لها من صِفَاتٍ لا تليقُ إلا بالله سُبحانه وتَعَالَىٰ، ويَصِفُهَا بما وصَفَهَا الله به في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وغير ذلكَ ممَّا أنزلهُ الله عليه في تَعْرِيَةِ آلهتهم المَزْعُومةِ ممَّا كانوا يعتقدونَهُ فيها.

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٩٥) ـ سبل الهدىٰ والرشاد (٢/٤٧٠).

(٤) أخرج هذا الحديث: الإمام البخاري في صحيحه ـ كتاب الأدب ـ باب لا يسب الرجل والديه ـ رقم الحديث (٥٩٧٣) ـ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان الكبائر وأكبرها ـ رقم الحديث (٩٠) ـ وانظر كلام الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/٣١٤ ـ ٣١٥).

❁ قِصَّةُ الإِرَاشِيِّ:

قالَ ابنُ إسْحَاقَ: وقَدْ كانَ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلِ بنُ هِشَامٍ مَعَ عَدَاوَتِهِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وبُغْضِهِ إيَّاهُ، وَشِدَّتِهِ عَلَيْهِ، يُذِلُّهُ اللهُ لَهُ إذَا رَآهُ[1].

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ قالَ: قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ إرَاشٍ[2] بِإِبِلٍ لَهُ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَابْتَاعَهَا[3] مِنْهُ أَبُو جَهْلٍ، فَمَطَلَهُ[4] بِأَثْمَانِهَا، فَأَقْبَلَ الإِرَاشِيُّ حَتَّىٰ وَقَفَ عَلَىٰ نَادٍ[5] مِنْ قُرَيْشٍ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ في نَاحِيَةِ المَجْلِسِ جَالِسٌ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! مَنْ رَجُلٌ يُؤْدِينِي[6] عَلَىٰ أَبِي الحَكَمِ بنِ هِشَامٍ، فَإِنِّي رَجُلٌ غَرِيبٌ، ابْنُ سَبِيلٍ، وقَدْ غَلَبَنِي عَلَىٰ حَقِّي، فَقَالَ لَهُ أَهْلُ المَجْلِسِ: أَتَرَىٰ ذَلِكَ الرَّجُلَ الجَالِسَ - لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وهُمْ يَهْزَؤُونَ بِهِ لِمَا يَعْلَمُونَ بَيْنَهُ وبَيْنَ أَبِي جَهْلٍ مِنَ العَدَاوَةِ - اذْهَبْ إِلَيْهِ فإنَّهُ يُؤْدِيكَ عَلَيْهِ، فأَقْبَلَ الإِرَاشِيُّ حتَّىٰ وَقَفَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يا عَبْدَ اللهِ إنَّ أَبَا الحَكَمِ بنَ هِشَامٍ قَدْ غَلَبَنِي عَلَىٰ حَقٍّ لِي، وأَنَا غَرِيبٌ، ابْنُ سَبِيلٍ، وقَدْ سَأَلْتُ هَؤُلَاءِ القَوْمَ عَنْ رَجُلٍ يُؤْدِينِي عَلَيْهِ، يَأْخُذُ لِي حَقِّي مِنْهُ، فأَشَارُوا لِي إِلَيْكَ، فَخُذْ لِي حَقِّي مِنْهُ، يَرْحَمُكَ اللهُ.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٤٢٦).

(٢) إرَاشٌ: بكسر الهمْزَة: اسمُ قَبِيلَةٍ وهُمْ بَطْنٌ من خَثْعَمٍ. انظر الرَّوْض الأُنُف (٢/١٧٧).

(٣) ابْتَاعَ: اشْتَرَىٰ. انظر لسان العرب (١/٥٥٧).

(٤) المَطْلُ: هو التَّسْوِيفُ والمُدَافَعَةُ بالعِدَةِ والدَّينِ. انظر لسان العرب (١٣/١٣٤).

(٥) النَّادِي: مجْتَمَعُ القَوْمِ وأَهْلُ المَجْلِسِ. انظر النهاية (٥/٣١).

(٦) يُؤْدِينِي على فلانٍ: أي يُعِينُنِي علىٰ أَخْذِ حَقِّي مِنْهُ. انظر لسان العرب (١/١٠٠).

فَقَالَ ﷺ: انْطَلِقْ إلَيْهِ، وَقَامَ مَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامَ مَعَهُ قَالُوا لِرَجُلٍ مِمَّنْ مَعَهُمْ: اتْبَعْهُ انْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُ؟

فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ جَاءَهُ فَضَرَبَ عَلَيْهِ بَابَهُ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ، فَاخْرُجْ إِلَيَّ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ، ومَا فِي وَجْهِهِ قَطْرَةُ دَمٍ، وقَدِ انْتَقَعَ لَوْنُهُ، فقَالَ ﷺ: أَعْطِ هَذَا الرَّجُلَ حَقَّهُ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: نَعَمْ، لا تَبْرَحْ حَتَّىٰ أُعْطِيَهُ الذِي لَهُ، فَدَخَلَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ بِحَقِّهِ، فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وقَالَ لِلْإِرَاشِيِّ «الْحَقْ لِشَأْنِكَ»، فأَقْبَلَ الإِرَاشِيُّ حَتَّىٰ وَقَفَ عَلَىٰ ذَلِكَ المَجْلِسِ، فَقَالَ: جَزَاهُ اللهُ خَيْرًا، فَقَدْ وَاللهِ أَخَذَ لِي حَقِّي.

فَلَمَّا جَاءَ الرَّجُلُ الذِي أَرْسَلُوهُ لِيَرَىٰ مَا يَصْنَعُ أَبُو جَهْلٍ، قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ مَاذَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: عَجَبًا مِنَ العَجَبِ، واللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ ضَرَبَ عَلَيْهِ بَابَهُ، فَخَرَجَ، فَقَالَ لَهُ: أَعْطِ هَذَا الرَّجُلَ حَقَّهُ، فَأَعْطَاهُ.

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ أَبُو جَهْلٍ، فَلَامُوهُ، وقَالُوا لَهُ: وَيْلَكَ! مَا لَكَ؟ وَاللهِ مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَنَعْتَ قَطُّ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَيْحَكُمْ!! وَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ ضَرَبَ عَلَيَّ بَابِي، وسَمِعْتُ صَوْتَهُ، فَمُلِئْتُ مِنْهُ رُعْبًا، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَيْهِ، وإِنَّ فَوْقَ رَأْسِهِ فَحْلًا مِنَ الإِبِلِ، مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَامَتِهِ[1]، وَلَا قَصَرَتِهِ[2]، وَلَا أَنْيَابِهِ لِفَحْلٍ قَطُّ، فَوَاللهِ لَوْ أَبَيْتُ لَأَكَلَنِي[3].

(١) الهَامَةُ: الرَّأْسُ. انظر لسان العرب (١٥/١٦٢).
(٢) القَصَرَةُ: أَصْلُ العُنُقِ. انظر لسان العرب (١١/١٨٩).
(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/٤٢٧).

قِصَّةٌ أُخْرَىٰ:

مِنَ الْقِصَصِ التِي تُبَيِّنُ اسْتِهْزَاءَ أَبِي جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ، أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[1] قَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ: يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنَّ جُنُودَ اللهِ الذِينَ يُعَذِّبُونَكُمْ فِي النَّارِ، وَيَحْبِسُونَكُمْ فِيهَا تِسْعَةَ عَشَرَ، وأَنْتُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ عَدَدًا، وَكَثْرَةً، أَفَيَعْجِزُ كُلُّ مِائَةِ رَجُلٍ مِنْكُمْ عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ؟.

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[2].

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في تَفْسِيرِهِ: أيْ مَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ وَكَثْرَتَهُمْ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ، لِئَلَّا يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أَنَّمَا هُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ فَقَطْ، ...وقَدْ ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ الْمَرْوِيِّ في الصَّحِيحَيْنِ وغَيْرِهِمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ في صِفَةِ البَيْتِ المَعْمُورِ الذِي فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ: «... فَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ»[3].

---

(١) سورة المدثر آية (٣٠).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٥٠).

(٣) أخرج هذا القدر من حديث الإسراء والمعراج: الإمام البخاري في صحيحه ـ كتاب=

❁ تَيَقُّنُ أَبِي جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ مِنْ صِدْقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ والحَاكِمُ فِي المُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ بِالشَّوَاهِدِ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: قَدْ نَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ تَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، ولا نُكَذِّبُكَ، ولَكِنْ نُكَذِّبُ الذِي جِئْتَ بِهِ، فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1].

تِلْكَ صُوَرٌ مِنِ اسْتِهْزَاءِ المُشْرِكِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وقَدْ كَانَ ﷺ يُحْزِنُهُ مَا يَلْقَىٰ مِنْهُمْ كَغَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ.

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: ومَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالوَلِيدِ بنِ المُغِيرَةِ، وأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ وبِأَبِي جَهْلِ بنِ هِشَامٍ فَهَمَزُوهُ واسْتَهْزَؤُوا بِهِ، فَغَاظَهُ ذَلِكَ ﷺ، فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ

= بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة عليهم السلام ـ رقم الحديث (٣٢٠٧) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برَسُول اللهِ ﷺ إلىٰ السماوات ـ حديث رقم (١٦٢) ـ وانظر كلام الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٢٧٠).

(١) سورة الأنعام آية (٣٣).
والخبرُ أخرجه الترمذي في جامعه ـ كتاب التفسير ـ باب ومن سورة الأنعام ـ رقم الحديث (٣٣١٧) ـ والحاكم في المستدرك ـ كتاب التفسير ـ باب تفسير سورة الأنعام ـ رقم الحديث (٣٢٨٣) ـ وأورده ابن الأثير في جامع الأصول ـ رقم الحديث (٦١٥).

سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1].

قالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ فِي هَذِهِ الآيَةِ: هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبيِّ ﷺ في تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَوَعْدٌ لَهُ، ولِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ بالنُّصْرَةِ والعَاقِبَةِ الحَسَنَةِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ[2].

ومَضَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ والبَلَاغِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، مُؤَدِّيًا إِلَىٰ قَوْمِهِ النَّصِيحَةَ، فَلَمَّا تَمادَوْا فِي الشَّرِّ، وأَكْثَرُوا الإِسْتِهْزَاءَ كَفَاهُ اللهُ تَعالَىٰ المُسْتَهْزِئِينَ بِهِ فأَنْزَلَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

۞ رُكَانَةُ بنُ عَبْدِ يَزِيدَ[4] يُصارِعُ الرَّسُولَ ﷺ:

رَوَىٰ أَبُو بَكْرٍ الشَّافِعِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: أَنَّ رُكَانَةَ بنَ عَبْدِ يَزِيدَ صَارَعَ النَّبِيَّ ﷺ، فَصَرَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ مَرَّةٍ عَلَىٰ مِائَةٍ مِنَ الغَنَمِ، فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ، قَالَ: يا مُحَمَّدُ مَا وَضَعَ

---

(١) سورة الأنعام آية (١٠) ـ والخبر في سيرة ابن هشام (٢/٩) ـ والبداية والنهاية (٣/١١٤).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٣/٢٤٢).

(٣) سورة الحجر آية (٩٥ ـ ٩٦) ـ والخبر في سيرة ابن هشام (٢/٢٢ ـ ٢٣).

(٤) هو رُكَانَةُ بنُ عبدِ يزيدَ بنِ هاشِمِ المُطَّلِبِيُّ، كان مِنْ أَشَدِّ الناس، وهو الذِي صارعَهُ الرَّسول ﷺ مرَّتينِ أو ثَلاث، وأسلمَ رُكَانَةُ يوم فَتْحِ مكَّةَ، وقيل أسلمَ عَقِبَ مُصارَعَتِهِ الرَّسولَ ﷺ.

وتوفِّيَ في خلافَةِ عُثْمان، وقيل: تُوفي سنةَ اثنتينِ وأربعين. انظر أسد الغابة (٢/١٩٩).

ظَهْرِي عَلَىٰ الأَرْضِ أحَدٌ قَبْلَكَ، ومَا كَانَ أحَدٌ أبْغَضَ إِلَيَّ مِنْكَ، وأنَا أشْهَدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَقَامَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ورَدَّ عَلَيْهِ غَنَمَهُ[1].

۞ رُسُلُ قُرَيْشٍ إلَىٰ أحْبَارِ يَهُودَ وامْتِحَانُهُمُ الرَّسُولَ ﷺ:

رَوَىٰ الإِمَامُ أحْمَدُ في مُسْنَدِهِ وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلْيَهُودِ:

أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ عَنْهُ هَذَا الرَّجُلَ، فَقَالُوا: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ[2]، فَسَأَلُوهُ، فَنزَلَتْ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا﴾[3].

فَقَالُوا: لَمْ نُؤْتَ مِنَ العِلْمِ نَحْنُ إِلَّا قَلِيلًا، وقَدْ أُوتِينَا التَّوْرَاةَ، وَمَنْ يُؤْتَ التَّوْرَاةَ، فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[4].

---

(١) أورده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١١٢/٣) ـ وعزاه إلىٰ أبي بكر الشافعي وجود إسناده.

(٢) زاد ابن إسحاق في السيرة (٣٣٧/١): أنهم سألوه أيضًا عن أصحَابِ الكهْفِ، وعن ذِي القَرْنَيْنِ.

(٣) سورة الإسراء آية (٨٥).

(٤) سورة الكهف آية (١٠٩).

والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٣٠٩) ـ وابن حبان في صحيحه ـ كتاب العلم ـ باب إباحَةِ كتْمَان العالِمِ بعضَ ما يعلم ـ رقم الحديث (٩٩).

آيَةُ الرُّوحِ مَكِّيَّةٌ أَمْ مَدَنِيَّةٌ؟:

قُلْتُ: وَقَعَ في الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ اليَهُودَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الرُّوحِ، وهُوَ في المَدِينَةِ، فَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ[1]، وهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَىٰ عَسِيبٍ[2]، إِذْ مَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ؟ فقَالُوا: مَا رَابَكُمْ إِلَيْهِ[3]؟ لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَقَالُوا: سَلُوهُ فَأَسْكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَكَانِي، فَلَمَّا نَزَلَ الوَحْيُ قَالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4].

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ: قَدْ يُجَابُ عَنْ هَذَا: بِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ نَزَلَتْ عَلَيْهِ بالمَدِينَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً كَمَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ قَبْلَ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّهُ نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ بأَنَّهُ يُجِيبُهُمْ عَمَّا سَأَلُوهُ بِالآيَةِ المُتَقَدِّمِ إِنْزَالُهَا عَلَيْهِ[5].

وقالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: يُمْكِنُ الجَمْعُ بِأَنْ يَتَعَدَّ النُّزُولُ بِحَمْلِ سُكُوتِهِ فِي

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٧/١١٣): أي موضع الزرع.

(٢) العَسِيبُ: هو جَرِيدَةُ النَّخْلِ. انظر النهاية (٣/٢١٢).

(٣) ما رَابَكُمْ إليهِ: ما حاجتكم إليه. انظر النهاية (٢/٢٦٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب قوله تَعَالَىٰ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ ـ رقم الحديث (٤٧٢١) ـ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب سُؤَالِ اليهُودِ للنبي ﷺ عن الروح ـ رقم الحديث (٢٧٩٤).

(٥) انظر تفسير ابن كثير (٥/١١٤).

المَرَّةِ الثَّانِيَةِ عَلَىٰ تَوَقُّعِ مَزِيدِ بَيَانٍ في ذَلِكَ، وإنْ سَاغَ هَذَا وإلَّا فَمَا فِي الصَّحِيحِ أَصَحُّ[1].

﴿ عِنَادُ الكُفَّارِ ومَوْقِفُهُمْ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ:

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ، وعَرَفُوا صِدْقَهُ فِيمَا حَدَّثَ، ومَوْقِعَ نُبُوَّتِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمِ الغُيُوبِ حِينَ سَأَلُوهُ عَمَّا سَأَلُوهُ عَنْهُ، حَالَ الحَسَدُ مِنْهُمْ لَهُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ اتِّبَاعِهِ وتَصْدِيقِهِ، فَعَتَوْا عَلَىٰ اللهِ، وتَرَكُوا أَمْرَهُ عَيَانًا، ولَجُّوا فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[2]: أيْ اجْعَلُوهُ لَغْوًا وبَاطِلًا، واتَّخِذُوهُ هُزُوًا لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَهُ بِذَلِكَ، فإنَّكُمْ إنْ نَاظَرْتُمُوهُ أَوْ خَاصَمْتُمُوهُ يَوْمًا غَلَبَكُمْ.

فلَمَّا قالَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، جَعَلُوا إذَا جَهَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالقُرْآنِ، وهُوَ يُصَلِّي، يَتَفَرَّقُونَ عَنْهُ، ويَأْبَوْنَ أَنْ يَسْتَمِعُوا لَهُ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إذَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْضَ مَا يَتْلُو مِنَ القُرْآنِ وهُوَ يُصَلِّي، اسْتَرَقَ[3] السَّمْعَ دُونَهُمْ فَرَقًا[4] مِنْهُمْ، فإنْ رَأَىٰ أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ يَسْتَمِعُ مِنْهُ ذَهَبَ خَشْيَةَ أَذَاهُمْ، فَلَمْ يَسْتَمِعْ، وإنْ خَفَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَوْتَهُ، فَظَنَّ الذِي يَسْتَمِعُ أَنَّهُمْ

---

(١) انظر فتح الباري (٩/٣١٩).

(٢) سورة فصلت آية (٢٦).

(٣) استرَقَ السَّمْعَ: أي أنه يَسْتَمِعُهُ مُخْتَفِي كمَا يفعَلُ السَّارِقُ. انظر النهاية (٢/٣٢٦).

(٤) الفَرَقُ: بالتحريكِ الخَوْفُ والفَزَعُ. انظر النهاية (٣/٣٩٢).

لا يَسْتَمِعُونَ شَيْئًا مِنْ قِرَاءَتِهِ، وسَمِعَ هُوَ شَيْئًا دُونَهُمْ أَصَاخَ[1] لَهُ يَسْتَمِعُ مِنْهُ[2].

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، في سَبَبِ نُزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[3].

قَالَ: نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ، كانَ إذَا صَلَّىٰ بأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالقُرْآنِ، فإذَا سَمِعَ المُشْرِكُونَ سَبُّوا القُرْآنَ ومَنْ أَنْزَلَهُ، ومَنْ جَاءَ بِهِ، فقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾: أيْ بِقِرَاءَتِكَ، فَيَسْمَعَ المُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوا القُرْآنَ، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عَنْ أَصْحَابِكَ، فَلَا تُسْمِعُهُمْ ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا...﴾[4].

۞ اسْتِمَاعُ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ إلَىٰ القُرْآنِ سِرًّا:

وكانَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ يَسْتَشْعِرُونَ حَلَاوَةَ القُرْآنِ في قُلُوبِهِمْ، ولَكِنَّهُمْ يُكَابِرُونَ.

---

(١) أصاخ له: استمع وأنصت له. انظر لسان العرب (٧/٤٥٠).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٥٠).

(٣) سورة الإسراء آية (١١٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب قوله تعالَىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ ـ رقم الحديث (٤٧٢٢) ـ وأخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الصلاة ـ باب التوسُّط في القراءة في الصَّلاة الجهريَّة ـ رقم الحديث (٤٤٦).

رَوَىٰ ابنُ إسْحَاقَ: أنَّ ثَلاثَةً مِنْ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ، هُمْ: أَبُو سُفْيَانَ بنُ حَرْبٍ، وأبُو جَهْلِ بنُ هِشَامٍ، والأَخْنَسُ بنُ شُرَيْقٍ، خَرَجُوا لَيْلَةً لِيَسْتَمِعُوا مِنْ رَسُول اللهِ ﷺ، وهُوَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فِي بَيْتِهِ، فأَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسًا يَسْتَمِعُ فِيهِ، وَكُلٌّ لا يَعْلَمُ بِمَكَانِ صَاحِبِهِ، فبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حَتَّىٰ إذَا طَلَعَ الفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فتَلَاوَمُوا، وقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا تَعُودُوا، فَلَوْ رَآكُمْ بَعْضُ سُفَهَائِكُمْ لأَوْقَعْتُمْ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا، ثُمَّ انْصَرَفُوا، حَتَّىٰ إذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةُ عَادَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إلَىٰ مَجْلِسِهِ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حتَّىٰ إذَا طَلَعَ الفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِثْلَ مَا قَالُوا أوَّلَ مَرَّةٍ، ثُمَّ انْصَرَفُوا. حَتَّىٰ إذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ أَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسَهُ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حَتَّىٰ إذَا طَلَعَ الفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لا نَبْرَحُ حَتَّىٰ نَتَعَاهَدَ أَلَّا نَعُودَ، فَتَعَاهَدُوا عَلَىٰ ذلك، ثُمَّ تَفَرَّقُوا.

فَلَمَّا أَصْبَحَ الأَخْنَسُ بنُ شُرَيْقٍ أخَذَ عصَاهُ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّىٰ أَتَىٰ أَبَا سُفْيَانَ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ لهُ: أَخبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلَةَ عَنْ رَأْيِكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ: يا أَبَا ثَعْلَبَةَ: وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ أَشْيَاءَ أعْرِفُهَا وأعْرِفُ ما يُرَادُ بِهَا، وسَمِعْتُ أَشْيَاءَ مَا عَرَفْتُ مَعْنَاهَا، ولا مَا يُرَادُ بِهَا.

قالَ الأَخْنَسُ: وأَنَا وَالذِي حَلَفْتُ بِهِ كَذَلِكَ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّىٰ أَتَىٰ أَبَا جَهْلٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ، فقَالَ لهُ: يا أَبَا الحَكَمِ: مَا رَأْيُكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ

مُحَمَّدٍ؟ فقالَ أَبُو جَهْلٍ: مَاذَا سَمِعْتُ؟ تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ، أطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا، وحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وأعْطُوا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّىٰ إذَا تحَاذَيْنَا عَلَىٰ الرَّكْبِ، وكُنَّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ[1]، قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، فَمَتَىٰ نُدْرِكُ مِثْلَ هَذِهِ؟ وَاللهِ لَا نُؤْمِنِ بِهِ أَبَدًا وَلا نُصَدِّقُهُ. فَقَامَ عَنْهُ الأخْنَسُ وتَرَكَهُ[2].

۞ الْكِبْرُ وَالْحَسَدُ مَنَعَا أَبَا جَهْلٍ مِنَ الْإِسْلَامِ:

رَوَىٰ البَيْهَقِيُّ في دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ: عَنِ المُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ ﷺ قَالَ: إنَّ أَوَّلَ يَوْمٍ عَرَفْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنِّي كُنْتُ أَمْشِي أَنَا وأَبُو جَهْلِ بنُ هِشَامٍ فِي بَعْضِ أزِقَّةِ[3] مَكَّةَ، إذْ لَقِيَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي جَهْلٍ: **«يا أَبَا الحَكَمِ! هَلُمَّ إلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وإلَىٰ رَسُولِهِ أدْعُوكَ إلَىٰ اللهِ»**.

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يا مُحَمَّدُ هَلْ أنْتَ مُنْتَهٍ عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا، هَلْ تُرِيدُ إلَّا أنْ نَشْهَدَ أنْ قَدْ بَلَّغْتَ؟.

فَنَحْنُ نَشْهَدُ أنْ قَدْ بَلَّغْتَ، فَوَاللهِ لَوْ أَنِّي أعْلَمُ أَنَّ مَا تَقُولُ حَقًّا مَا اتَّبَعْتُكَ فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وأَقْبَلَ عَلَيَّ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: فَوَاللهِ إنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ مَا

---

(١) أي تَسَاوَيْنَا في الشَّرَفِ والمَنْزِلَةِ.

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٥٢ ـ ٣٥٣) ـ دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٠٦).
قال الحافظ في الإصابة (١/١٩٢): ذكر الذُّهلي في «الزُّهريات» بسند صحيح عن الزهري عن سعيد بن المسيب ... وذكر قصة استماع زعماء قريش.

(٣) الزُّقَاقُ: الطَّرِيقُ. انظر النهاية (٢/٢٧٧).

يَقُولُ حَقٌّ، ولَكِنْ بَنِي قُصَيٍّ قَالُوا: فِينَا الحِجَابَةُ، فَقُلْنَا نَعَمْ، فَقَالُوا فِينَا النَّدْوَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا: فِينَا اللِّوَاءُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، قَالُوا: فِينَا السِّقَايَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ أَطْعَمُوا وَأَطْعَمْنَا، حتَّىٰ إِذَا تَحَاكَّتِ الرُّكَبُ، قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ، وَاللهِ لَا أَفْعَلُ[1].

** ** **

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٠٧).

الهِجْرَةُ الأُولَى إِلَى الحَبَشَةِ

اسْتَمَرَّتْ قُرَيْشٌ في قَسْوَتِهَا عَلَىٰ المُسْلِمِينَ، وَتَفَنَّنُوا في إِيذَائِهِمْ، فَلَمْ يَرْعَوا فِيهِمْ قَرَابَةً، وتَخَطَّوا حُدُودَ الإنْسَانِيَّةِ، وكانَ اضْطِهَادُهُمْ لَهُمْ يَزْدَادُ ضَرَاوَةً يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ حَتَّىٰ ضَاقَ بِالمُسْلِمِينَ المُقَامُ في مَكَّةَ، وأَخَذُوا يُفَكِّرُونَ في حِيلَةٍ تُنَجِّيهِمْ مِنَ العَذَابِ الأَلِيمِ.

وفي هَذِهِ الظُّرُوفِ الصَّعْبَةِ كانَتْ سُورَةُ الكَهْفِ قَدْ نَزَلَتْ، وفِيهَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ الهِجْرَةِ مِنْ أَرْضِ الكُفْرِ عِنْدَ خَشْيَةِ الفِتْنَةِ، ثُمَّ نَزَلَتْ سُورَةُ الزُّمَرِ تُشِيرُ إِلَىٰ الهِجْرَةِ أَيْضًا، وتُعْلِنُ بِأَنَّ أَرْضَ اللهِ لَيْسَتْ ضَيِّقَةً ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(١)].

وكَانَ رَسُول اللهِ ﷺ قَدْ عَلِمَ أَنَّ أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيَّ مَلِكَ الحَبَشَةِ مَلِكٌ عَادِلٌ، لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ أَبَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ، وقَدْ رَأَىٰ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ البَلَاءِ، ومَا يُصِيبُهُمْ مِنَ القَهْرِ والأَذَى، وهُوَ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ، قَالَ لَهُمْ: **«لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَىٰ أَرْضِ الحَبَشَةِ، فإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّىٰ يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ»**[(٢)].

---

(١) سورة الزمر آية (١٠). وانظر الرحيق المختوم ص ٩٢.

(٢) أخرج هذا الحديث ابن هشام في السيرة (٣٥٨/١) بدون سند ـ والبيهقي في دلائل النبوة (٣٠١/٢) ـ وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة ـ رقم الحديث (٣١٩٠) وجود إسناده.

قالَ الشَّيْخُ عَلِي الطَّنْطَاوِي رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ: ودَعَاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ إلَىٰ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، إلَىٰ فِرَاقِ الوَطَنِ، وتَرْكِ الأَهْلِ، وأنْ يَمْشُوا فِرَارًا بِدِينِهِمْ إلَىٰ بِلَادٍ لَيْسُوا مِنْهَا، ولَيْسَتْ مِنْهُمْ، ولَا لِسَانُهَا لِسَانُهُمْ، ولا دِينُهَا دِينُهُمْ، إلَىٰ الحَبَشَةِ، فَخَرَجُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ وهَجَرُوا أَهْلِيهِمْ، ومَشَوْا إلَىٰ الحَبَشَةِ، فَلَحِقَهُمْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ إلَىٰ الحَبَشَةِ، وأَوْغَلَتْ قُرَيْشٌ فِي كُفْرِهَا وصَدِّهَا وعِنَادِهَا، ولَكِنْ هَلْ تَقْدِرُ قُرَيْشٌ أَنْ تُطْفِئَ نُورَ اللهِ تَعَالَىٰ؟[1].

❁ عَدَدُ المُهَاجِرِينَ إلَىٰ الحَبَشَةِ:

فَخَرَجَ عِنْدَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ إلَىٰ أَرْضِ الحَبَشَةِ مَخَافَةَ الفِتْنَةِ، وفِرَارًا إلَىٰ اللهِ بِدِينِهِمْ، فَكَانَتْ أَوَّلُ هِجْرَةٍ في الإسْلَامِ، وَذَلِكَ فِي رَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ الخَامِسَةِ لِلْبِعْثَةِ، وكَانُوا أحَدَ عَشَرَ رَجُلًا وأَرْبَعَ نِسْوَةٍ[2].

وأَوَّلُ مَنْ خَرَجَ إلَىٰ الحَبَشَةِ هُوَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ ﷺ، ومَعَهُ زَوْجُهُ رُقَيَّةُ بِنْتُ الرَّسُولِ ﷺ.

رَوَىٰ الحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ إسْحَاقَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: حَدَّثَنِي سَعْدٌ قالَ: قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «**إنَّهُمَا - أيْ عُثْمَانُ وَرُقَيَّةُ - لأَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ بَعْدَ لُوطٍ وإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ**»[3].

---

(١) انظر كتاب رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ ص ١٤.

(٢) انظر الطبَّقَات الكُبْرىٰ (١/٩٨) - زاد المعاد (٣/٢٦) - البداية والنهاية (٣/٧٤) - وفتح الباري (٧/٥٨٤).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك - كتاب معرفة الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - باب ذكر أوَّل=

أَمَّا البَاقُونَ مِنَ الرِّجَالِ، وهُمُ العَشَرَةُ؛ لِأَنَّ عُثْمَانَ ﷺ الحَادِيَ عَشَرَ: أَبُو حُذَيْفَةَ بنُ عُتْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ، والزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، ومُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ، وعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، وأَبُو سَلَمَةَ بنُ عَبْدِ الأَسَدِ، وعُثْمَانُ بنُ مَظْعُونٍ، وعَامِرُ بنُ رَبِيعَةَ، وأَبُو سَبْرَةَ بنُ أَبِي رُهْمٍ، وسُهَيْلُ بنُ بَيْضَاءَ، وَأَبُو حَاطِبُ بنُ عَمْرٍو.

وأَمَّا النِّسْوَةُ الثَّلَاثُ ورَابِعَتُهُنَّ رُقَيَّةُ بنتُ الرَّسُولِ ﷺ كما ذَكَرْتُ آنفًا فَهُنَّ: سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو زَوْجَةُ أَبِي حُذَيْفَةَ بنِ عُتْبَةَ، وَوَلَدَتْ بِالحَبَشَةِ ابْنَهَا مُحَمَّدَ بنَ أَبِي حُذَيْفَةَ، وأُمُّ سَلَمَةَ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ زَوْجَةُ أَبِي سَلَمَةَ بنِ عَبْدِ الأَسَدِ، وَوَلَدَتْ بِالحَبَشَةِ ابْنَتَهَا زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ، ولَيْلَىٰ بِنْتُ أَبِي حَثْمَةَ زَوْجَةُ عَامِرِ بنِ رَبِيعَةَ، فَهَؤُلَاءُ أَوَّلُ مَنْ خَرَجَ مِنَ المُسْلِمِينَ إِلَىٰ الحَبَشَةِ، وكانَ أَمِيرًا عَلَيْهِمْ عُثْمَانُ بنُ مَظْعُونٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١).

وكانَ رَحِيلُهُمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ تَسَلُّلًا في الخَفَاءِ، وقَدْ خَرَجُوا مُتَّجِهِينَ إِلَىٰ البَحْرِ، مِنْهُمُ الرَّاكِبُ والمَاشِي، ووَفَّقَ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ سَاعَةَ جَاؤُوا سَفِينَتَيْنِ لِلتِّجَارَةِ حَمَلُوهُمْ فِيهِمَا إِلَىٰ أَرْضِ الحَبَشَةِ بِنِصْفِ دِينَارٍ، وفَطِنَتْ لَهُمْ قُرَيْشٌ، فَخَرَجَتْ فِي آثَارِهِمْ، لَكِنْ عِنْدَمَا بَلَغَتْ قُرَيْشٌ السَّاحِلَ كانَ

= من هاجر بعدَ لُوط وإبراهيم عليهما السلام ـ رقم الحديث (٦٩٣٣) ـ وأورده الحافظ في الإصابة (١٣٨/٨) ونسبه إلىٰ ابن منده، وقال: إسناده واهٍ ـ وأورده الألباني في السلسلة الضعيفة ـ رقم الحديث (٤٤٦٤)، وقال: موضوع.

(١) انظر سيرة ابن هشام (٣٥٩/١ ـ ٣٦٠) ـ فتح الباري (٥٨٤/٧) ـ الطبَّقات الكُبرىٰ لابن سعد (٩٨/١).

المُسْلِمُونَ قَدِ انْطَلَقُوا آمِنِينَ[١].

وأَقَامَ المُسْلِمُونَ في الحَبَشَةِ بِخَيْرِ دَارٍ عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ بَقِيَّةَ رَجَبٍ، وشَعْبَانَ إِلَىٰ رَمَضَانَ، ثُمَّ عَادُوا إِلَىٰ مَكَّةَ[٢] - كَمَا سَيَأْتِي -.

۞ سُجُودُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ:

فِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الخَامِسَةِ لِلْبِعْثَةِ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الحَرَمِ، وكانَ هُنَاكَ جَمْعٌ كَبِيرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، كانَ فِيهِ سَادَاتُها وكُبَرَاؤُهَا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتْلُو سُورَةَ النَّجْمِ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ السَّجْدَةَ سَجَدَ، وسَجَدَ مَعَهُ القَوْمُ جَمِيعًا، المُسْلِمُونَ والمُشْرِكُونَ، إِلَّا رَجُلَانِ، هُمَا: أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ، والمُطَّلِبُ بنُ أَبِي وَدَاعَةَ.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: أَوَّلَ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ «وَالنَّجْمِ»، قَالَ: فَسَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وهُوَ أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ[٣].

ورَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ والحَاكِمُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عنِ المُطَّلِبِ بنِ أَبِي وَدَاعَةَ ﷺ قالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَجَدَ فِي النَّجْمِ، وسَجَدَ النَّاسُ مَعَهُ،

---

(١) انظر الطبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/٩٨) - زاد المعاد (٣/٢١).

(٢) انظر الطبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/٩٩).

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - كتاب التفسير - باب قوله تَعالَىٰ: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ - رقم الحديث (٤٨٦٣) - وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب المساجد - باب سجود التلاوة - رقم الحديث (٥٧٦).

ولَمْ أَسْجُدْ مَعَهُمْ ـ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ ـ فَلا أَدَعُ السُّجُودَ فِيهَا أَبَدًا[1].

قَالَ الإِمَامُ السِّنْدِيُّ في شَرْحِ المُسْنَدِ: قَوْلُهُ رضي الله عنه: فَلَا أَدَعُ السُّجُودَ فِيهَا أَبَدًا: تَفْرِيعٌ عَلَىٰ فَوْتِهِ في ذَلِكَ اليَوْمِ، أَيْ حَيْثُ فَاتَنِي في ذَلِكَ اليَوْمِ، فَكَيْفَ أَتْرُكُ بَعْدَهُ، بلْ أَلْتَزِمُ بَعْدُ جَبْرًا لِمَا فَاتَ[2].

۞ قِصَّةُ الغَرَانِيقِ[3]:

ذَكَرَ بَعْضُ المُؤَرِّخِينَ قِصَّةً بَاطِلَةً مُخْتَلَقَةً تُعْرَفُ بِاسْمِ «قِصَّةِ الغَرَانِيقِ»، وهِيَ قِصَّةٌ افْتَرَاهَا بَعْضُ الزَّنَادِقَةِ، وزَعَمُوا فِيهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَقَرَّبَ إِلَىٰ المُشْرِكِينَ بِمَدْحِ أَصْنَامِهِمْ، وأَنَّهُ قَالَ عَنْهَا بَعْدَ أَنْ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[4] قَالَ: «تِلْكَ الغَرَانِيقُ العُلَىٰ، وإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَىٰ»، وزَعَمُوا أَنَّ المُشْرِكِينَ أَعْلَنُوا رِضَاهُمْ عَمَّا تَلَا النَّبِيُّ ﷺ فَسَجَدُوا مَعَهُ حِينَ سَجَدَ[5].

واسْتِنَادًا إِلَىٰ القُرْآنِ والسُّنَّةِ فَإِنَّ القِصَّةَ بَاطِلَةٌ ومَوْضُوعَةٌ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٥٤٦٤) ـ والحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب ذكر المطلب بن أبي وَدَاعة رضي الله عنه ـ رقم الحديث (٦٧٢٢) ـ وأورده الحافظ في الإصابة (٦/١٠٤) ـ وصحح إسناده.

(٢) انظر شرح السندي لمسند الإمام أحمد (٨/٣٢٣).

(٣) الغَرَانِيقُ: هاهُنَا الأصنَامُ، وهي في الأصلِ الذُّكُورُ منْ طُيُورِ المَاءِ، واحدهَا: غُرْنُوقٌ سُمِّي به لِبَيَاضِهِ. انظر النهاية (٣/٣٢٧).

(٤) سورة النجم آية (١٩ ـ ٢٠).

(٥) انظر الطبَقَات الكُبْرىٰ (١/٩٩).

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[1]، وقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2].

وصَحَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَتَقَرَّبْ لِصَنَمٍ قَطُّ حتَّىٰ أَكْرَمَهُ اللهُ بِالنُّبُوَّةِ، وأَنَّهُ ما هَمَّ بِعَمَلٍ مِنْ أعْمَالِ الجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ إلَّا عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ـ كمَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ ـ، فكَيْفَ يَكُونُ في الإِسْلَامِ؟.

۞ أقْوَالُ العُلَمَاءِ في بُطْلَانِ هَذِهِ القِصَّةِ:

وقَدْ طَعَنَ في صِحَّةِ القِصَّةِ جَمْعٌ مِنَ العُلَمَاءِ:

قالَ القَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَّ هَذِهِ القِصَّةَ لَمْ يُخْرِجْهَا أحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصِّحَّةِ، ولَا رَوَاهَا ثِقَةٌ بِسَنَدٍ سَلِيمٍ مُتَّصِلٍ، وإِنَّمَا أُولِعَ بِهَا، وبِمِثْلِهَا المُفَسِّرُونَ والمُؤَرِّخُونَ المُولَعُونَ بِكُلِّ غَرِيبٍ، المُتَلَقِّفُونَ مِنَ الصُّحُفِ كُلَّ صَحِيحٍ وسَقِيمٍ، ومَنْ حُكِيَتْ هَذِهِ الحِكَايَةُ عَنْهُ مِنَ المُفَسِّرِينَ والتَّابِعِينَ لَمْ يُسْنِدْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ، ولَا رَفَعَهَا إلَىٰ صَاحِبٍ، وأَكْثَرُ الطُّرُقِ عَنْهُمْ فِيهَا ضَعِيفَةٌ وَاهِيَةٌ[3].

وقَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وأَمَّا مَا يَرْوِيهِ الإِخْبَارِيُّونَ والمُفَسِّرُونَ أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ مَا جرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَىٰ

(١) سورة الحاقة آية (٤٤ ـ ٤٦)، والوَتِينُ هو: العِرْقُ الذي القَلْبُ مُعَلَّقٌ فِيهِ. انظر تفسير ابن كثير (٨/٢١٨).

(٢) سورة النجم آية (٣ ـ ٤).

(٣) انظر كتاب الشِّفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (٢/١٣٢ ـ ١٣٣) للقاضي عياض.

آلِهَةِ المُشْرِكِينَ في سُورَةِ النَّجْمِ فَبَاطِلٌ لا يَصِحُّ فِيهِ شَيْءٌ، لا مِنْ جِهَةِ النَّقْلِ، ولَا مِنْ جِهَةِ العَقْلِ؛ لِأَنَّ مَدْحَ إِلَهٍ غَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ كُفْرٌ، ولا يَصِحُّ نِسْبَةُ ذَلِكَ إِلَىٰ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ولا أَنْ يَقُولَهُ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ لِسَانِهِ، ولَا يَصِحُّ تَسْلِيطُ الشَّيْطَانِ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ[(١)].

وقالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: قَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ هَاهُنَا قِصَّةَ الغَرَانِيقِ، ومَا كَانَ مِنْ رُجُوعِ كَثِيرٍ مِنَ المُهَاجِرَةِ مِنْ أَرْضِ الحَبَشَةِ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ قَدْ أَسْلَمُوا، ولَكِنَّهَا مِنْ طُرُقٍ كُلُّهَا مُرْسَلَةٌ، ولَمْ أَرَهَا مُسْنَدَةً مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ، واللهُ أَعْلَمُ[(٢)].

وقالَ الشَّيْخُ مُحَمَّد الغَزَالِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: يَزْعُمُ بَعْضُ المُغَفَّلِينَ أَنَّهُ وَقَعَتْ هُدْنَةٌ حقًّا بَيْنَ الإسْلَامِ والوَثَنِيَّةِ أَسَاسُهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَقَرَّبَ إِلَىٰ المُشْرِكِينَ بِمَدْحِ أَصْنَامِهِمْ، والاعْتِرَافِ بِمَنْزِلَتِهَا! وأَنَّ هَذِهِ الهُدْنَةَ الوَاقِعَةَ هِيَ التِي أَعَادَتِ المُسْلِمِينَ مِنَ الحَبَشَةِ...

ومَاذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَدْحِ الأَصْنَامِ؟ يُجِيبُ هَؤُلَاءِ المُغَفَّلُونَ بِأَنَّهُ قَالَ: تِلْكَ الغَرَانِيقُ العُلَا. وإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَىٰ؟

وأَيْنَ وَضَعَ هَذِهِ الكَلِمَاتِ؟ وَضَعَهَا فِي سُورَةِ (النَّجْمِ) مُقْحَمَةً وَسَطَ الآيَاتِ التِي جَاءَ فِيهَا ذِكْرُ هَذِهِ الأَصْنَامِ.

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٥/٦٤).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٥/٤٤١).

فَأَصْبَحَتْ هكَذَا: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى. تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَا. وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى. أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى. إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ..﴾.

ويَكُونُ مَعْنَىٰ الكَلامِ عَلَىٰ هَذَا: خَبِّرُونِي عَنْ أَصْنَامِكُمْ أَهِيَ كَذَا كَذَا؟ إِنَّ شَفَاعَتَها مَرْجُوَّةٌ، إِنَّها أَسْمَاءٌ لَا حَقَائِقَ لَهَا. إِنَّهَا خُرَافَاتٌ ابْتُدِعَتْ واتُّبِعَتْ. مَا لَكُمْ جَعَلْتُمُوهَا إِنَاثًا ونَسَبْتُمُوهَا للهِ تَعَالَىٰ، وأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ نِسْبَةَ الإنَاثِ لَكُمْ؟ تِلْكَ قِسْمَةٌ جَائِرَةٌ!

فَهَلْ هَذَا كَلَامٌ يَصْدُرُ عَنْ عَاقِلٍ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ وَحْيٌ حَكِيمٌ؟ ولَكِنْ هَذَا السُّخْفُ وُجِدَ مَنْ يَكْتُبُهُ ويَنْقُلُهُ.

إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَوْ كَذَبَ عَلَىٰ اللهِ بِاخْتِلَاقِ كَلَامٍ عَلَيْهِ لَقُطِعَ عُنُقُهُ بِنَصِّ الكِتَابِ الذِي جَاءَ بِهِ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾[1].

والذِي فِي الصَّحِيحِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَرَأَ سُورَةَ (النَّجْمِ) في مَحْفَلٍ يَضُمُّ مُسْلِمِينَ ومُشْرِكِينَ، وخَوَاتِيمُ هَذِهِ السُّورَةِ ـ أَيْ سُورَةِ النَّجْمِ ـ قَوَارِعُ تَطِيرُ لَهَا القُلُوبُ، فَلَمَّا أَخَذَ صَوْتُ الرَّسُولِ ﷺ يَهْدُرُ بِهَا، ويَرْعُدُ بِنُذُرِهَا حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ

(١) سورة الحاقة آية (٤٤ ـ ٤٧).

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾[1]، كانَتْ رَوْعَةُ الحَقِّ قَدْ صَدَّعَتِ العِنَادَ في نُفُوسِ المُسْتَكْبِرِينَ والمُسْتَهْزِئِينَ، فمَا تَمَالَكُوا أَنْ يَخِرُّوا للهِ سَاجِدِينَ، مَعَ غَيْرِهِمْ مِنَ المُسْلِمِينَ...»[2].

❁ لِمَاذَا سَجَدَ الكُفَّارُ إذًا؟:

والصَّحِيحُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الكُفَّارَ إِنَّمَا سَجَدُوا لِبَلَاغَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، وأَنَّهُمْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ يَسْمَعُونَ القُرْآنَ مِنْ غَيْرِ تَشْوِيشٍ.

قالَ الشَّيْخُ صَفِيُّ الرَّحْمَنِ المُبَارَكْفُورِيُّ: إِنَّ أُولَئِكَ الكُفَّارَ لَمْ يَكُونُوا سَمِعُوا كَلَامَ اللهِ قَبْلَ ذَلِكَ، لِأَنَّ أَسْلُوبَهُمْ المُتَوَاصِلَ كَانَ هُوَ العَمَلُ بِمَا تَوَاصَىٰ بِهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[3] فَلَمَّا بَاغتَهُمْ بِتِلَاوَةِ هَذِهِ السُّورَةِ ـ أيِ النَّجْمِ ـ وقَرَعَ آذَانَهُمْ كَلَامٌ إِلَهِيٌّ رَائِعٌ خَلَّابٌ لَا يُحَاطُ بِرَوْعَتِهِ وجَلَالَتِهِ البَيَانِ، تَفَانَوْا عَمَّا هُمْ فِيهِ، وبَقِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مُصْغِيًا إِلَيْهِ، لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ شَيْءٌ سِوَاهُ، حَتَّىٰ إِذَا تَلَا خَوَاتِيمَ هَذِهِ السُّورَةِ قَوَارِعَ تَطِيرُ لَهَا القُلُوبُ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾

---

(١) سورة النجم آية (٥٣ ـ ٦١).

(٢) انظر فقه السيرة ص (١١١ ـ ١١٢).

(٣) سورة فصلت آية (٢٦).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ ثم قرأ: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾[1].

ثُمَّ سَجَدَ، لَمْ يَتَمَالَكْ أَحَدٌ نَفْسَهُ حَتَّىٰ خَرَّ سَاجِدًا، وفِي الحَقِيقَةِ كانَتْ رَوْعَةُ الحَقِّ قَدْ صَدَّعَتِ العِنَادَ فِي نُفُوسِ المُسْتَكْبِرِينَ والمُسْتَهْزِئِينَ، فَمَا تَمَالَكُوا إلَّا أنْ يَخِرُّوا للهِ سَاجِدِينَ.

وسُقِطَ في أيْدِيهِمْ لَمَّا أحَسُّوا أنَّ جَلَالَ كَلَامِ اللهِ لَوَىٰ زِمَامَهُمْ، فَارْتَكَبُوا عَيْنَ مَا كَانُوا يَبْذُلُونَ قُصَارَىٰ جُهْدِهِمْ فِي مَحْوِهِ وإفْنَائِهِ، وقَدْ تَوَالَىٰ عَلَيْهِمُ اللَّوْمُ والعِتَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، مِمَّنْ لَمْ يَحْضُرْ هَذَا المَشْهَدَ مِنَ المُشْرِكِينَ، وعِنْدَ ذَلِكَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وافْتَرَوْا عَلَيْهِ أنَّهُ عَطَفَ عَلَىٰ أصْنَامِهِمْ بِكَلِمَةِ تَقْدِيرٍ، وأنَّهُ قَالَ عَنْهَا: «تِلْكَ الغَرَانِيقُ العُلَىٰ، وإنَّ شَفَاعَتَهُمْ لَتُرْتَجَىٰ» جَاؤُوا بِهَذَا الإفْكِ المُبِينِ، لِيَعْتَذِرُوا عَنْ سُجُودِهِمْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ولَيْسَ يُسْتَغْرَبُ هَذَا مِنْ قَوْمٍ كَانُوا يَأْلَفُونَ الكَذِبَ، ويُطِيلُونَ الدَّسَّ والافْتِرَاءَ[2].

۞ قِصَصٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ انبِهَارِ الكُفَّارِ بِالقُرْآنِ:

قُلْتُ: القِصَصُ كَثِيرَةٌ التِي تَدُلُّ عَلَىٰ انْبِهَارِ الكُفَّارِ بِالقُرْآنِ الكَرِيمِ، وأنَّهُمْ

---

(١) سورة النجم آية (٥٣ ـ ٦٢).

(٢) انظر الرحيق المختوم ص ٩٣.

لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقِفُوا أَمَامَ بَلَاغَتِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الإِمَامُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي قِصَّةِ إِسْلَامِ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ جُبَيْرٌ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ[1] ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ[2].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ صَعْصَعَةَ بنِ مُعَاوِيَةَ عَمِّ الفَرَزْدَقِ، قَالَ: أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾، قَالَ: حَسْبِي لَا أُبَالِي أَنْ لَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا[3].

❁ عَوْدَةُ مُهَاجِرِي الحَبَشَةِ:

وَتَرَامَتْ هَذِهِ الأَخْبَارُ إِلَى مُهَاجِرَةِ الحَبَشَةِ، ولَكِنْ فِي صُورَةٍ تَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنْ صُورَتِهَا الحَقِيقِيَّةِ، بَلَغَهُمْ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ أَسْلَمُوا، وقَدْ سَجَدُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فقَالَ المُهَاجِرُونَ: عَشَائِرُنَا أَحَبُّ إِلَيْنَا، فَخَرَجُوا مِنَ الحَبَشَةِ رَاجِعِينَ إِلَى مَكَّةَ،

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٥٨٤/٩): ذكرَ الله سبحانه وتَعَالَىٰ العلَّة التي عاقَتْهُمْ عن الإيمانِ، وهيَ عدمُ اليَقِينَ الذِي هوَ مَوْهِبَةٌ مِن الله تَعَالَىٰ ولا يَحْصُلُ إلا بِتَوْفِيقِهِ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحة ـ كتاب التفسير ـ باب سورة الطور ـ رقم الحديث (٤٨٥٤) وراجع ما كتبه القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ـ (فصل إعجازُ القُرآن) لِترَىٰ القِصَصَ الكثيرَةَ في انبهارِ هؤلاءِ الكُفَّارِ بالقُرآن.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٠٥٩٣).

وهَذَا فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الخَامِسَةِ لِلْبِعْثَةِ، حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا دُونَ مَكَّةَ بِسَاعَةٍ تَبَيَّنَتْ لَهُمُ الحَقِيقَةُ، وعَرَفُوا أَنَّ المُشْرِكِينَ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ خُصُومًا للهِ ورَسُولِهِ ولِلْمُسْلِمِينَ، فَهَمُّوا بالرُّجُوعِ إِلَىٰ أَرْضِ الحَبَشَةِ، فَقَالُوا: قَدْ بَلَغْنَا مَكَّةَ، فَدَخَلُوا مَكَّةَ، ولَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا مُسْتَخْفِيًا، أَوْ فِي جِوَارِ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وعَادَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ الحَبَشَةِ[1].

عُثْمَانُ بنُ مَظْعُونٍ ﷺ يَدْخُلُ بِجِوَارٍ:

كَانَ مِمَّنْ دَخَلَ مَكَّةَ فِي جِوَارٍ عُثْمَانُ بنُ مَظْعُونٍ ﷺ، دَخَلَ فِي جِوَارِ الوَلِيدِ بنِ المُغِيرَةِ، فَلَمَّا رَأَىٰ مَا يُفْعَلُ بالمُسْلِمِينَ مِنَ الأَذَىٰ، قَالَ: وَاللهِ إِنَّ غُدُوِّي ورَوَاحِي آمِنًا بِجِوَارِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، وأَصْحَابِي وأَهْلُ دِينِي يَلْقَوْنَ مِنَ البَلَاءِ وَالْأَذَىٰ فِي اللهِ مَا لَا يُصِيبُنِي، لَنَقْصٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِي، فَمَشَىٰ إِلَىٰ الوَلِيدِ بنِ المُغِيرَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ، وَفَتْ ذِمَّتُكَ، وقَدْ رَدَدْتُ إِلَيْكَ جِوَارَكَ، فقَالَ لَهُ الوَلِيدُ: لِمَ يَا ابْنَ أَخِي؟ لَعَلَّهُ آذَاكَ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِي، وأَنْتَ فِي ذِمَّتِي؟ قَالَ: لَا، ولَكِنِّي أَرْضَى بِجِوَارِ اللهِ، وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَسْتَجِيرَ بِغَيْرِهِ، فَقَالَ الوَلِيدُ لَهُ: فَانْطَلِقْ إِلَىٰ المَسْجِدِ، فَارْدُدْ عَلَيَّ جِوَارِي عَلَانِيَةً كَمَا أَجَرْتُكَ عَلَانِيَةً، فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ أَتَيَا المَسْجِدَ، فَقَالَ الوَلِيدُ: هَذَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ قَدْ جَاءَ يَرُدُّ عَلَيَّ جِوَارِي، فَقَالَ عُثْمَانُ: صَدَقَ، وَقَدْ وَجَدْتُهُ وَفِيًّا كَرِيمَ الجِوَارِ، ولَكِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ أَلَّا أَسْتَجِيرَ بِغَيْرِ

---

(١) انظر الطبَقَات الكُبرىٰ لابن سعد (١/٩٩) - البداية والنهاية (٣/٧٤) - زاد المعاد (٣/٢١) - سيرة ابن هشام (١/٤٠٢).

اللهِ، فَقَدْ رَدَدْتُ عَلَيْهِ جِوَارَهُ، فَقَالَ الوَلِيدُ: أُشْهِدُكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْ جِوَارِهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ عُثْمَانُ، ولَبِيدُ بنُ رَبِيعَةَ فِي مَجْلِسٍ مِنْ قُرَيْشٍ يُنْشِدُهُمْ ـ قَبْلَ إِسْلَامِهِ ـ فَجَلَسَ عُثْمَانُ مَعَهُمْ، فَقَالَ لَبِيدٌ:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ ....

فَقَالَ عُثْمَانُ: صَدَقْتَ، فَقَالَ لَبِيدٌ:

.... وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ

قَالَ عُثْمَانُ: كَذَبْتَ، نَعِيمُ الجَنَّةِ لَا يَزُولُ.

فَقَالَ لَبِيدٌ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! وَاللهِ مَا كَانَ يُؤْذَىٰ جَلِيسُكُمْ، فَمَتَىٰ حَدَثَ هَذَا فِيكُمْ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: إِنَّ هَذَا سَفِيهٌ فِي سُفَهَاءٍ مَعَهُ، قَدْ فَارَقُوا دِينَنَا، فَلَا تَجِدَنَّ فِي نَفْسِكَ مِنْ قَوْلِهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ عُثْمَانُ حَتَّىٰ شَرِيَ[1] أَمْرُهُمَا، فَقَامَ إِلَيْهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ فَلَطَمَ عَيْنَهُ، وَالوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ قَرِيبٌ يَرَىٰ مَا بَلَغَ مِنْ عُثْمَانَ، فَقَالَ الوَلِيدُ لِعُثْمَانَ: أَمَا وَاللهِ يَا ابْنَ أَخِي إِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ عَمَّا أَصَابَهَا لَغَنِيَّةٌ، لَقَدْ كُنْتَ فِي ذِمَّةٍ مَنِيعَةٍ، فَخَرَجْتَ مِنْهَا، وكُنْتَ عَنِ الذِي لَقِيتَ غَنِيًّا، ثُمَّ ضَحِكُوا، فَقَالَ عُثْمَانُ: بَلْ كُنْتُ إِلَىٰ الذِي لَقِيتُ فَقِيرًا، وَاللهِ إِنَّ عَيْنِيَ الصَّحِيحَةَ التِي لَمْ تُلْطَمْ لَفَقِيرَةٌ إِلَىٰ مَا أَصَابَ أُخْتَهَا فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِي فِيمَنْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكُمْ أُسْوَةٌ، وإِنِّي وَاللهِ لَفِي جِوَارِ مَنْ هُوَ أَعَزُّ مِنْكَ، وَأَقْدَرُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ، فَقَالَ لَهُ

(١) شَرِيَ الأمرُ بينهُمَا: أي عَظُمَ وتَفَاقَمَ. انظر النهاية (٢/٤٢٠).

الوَلِيدُ: إنْ شِئْتَ أجَرْتُكَ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ عُثْمَانُ: لا حَاجَةَ لِي فِي جِوَارِكَ[1].

❁ أبُو سَلَمَةَ بنُ عَبْدِ الأسَدِ ﷺ يَدْخُلُ مَكَّةَ فِي جِوَارٍ:

ودَخَلَ أبُو سَلَمَةَ بنُ عَبْدِ الأسَدِ الْمَخْزُومِيُّ ﷺ فِي جِوَارِ خَالِهِ أبِي طَالِبٍ، فَسَعَىٰ إلَيْهِ رِجَالٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، فَقَالُوا له: يا أبَا طَالِبٍ، لَقَدْ مَنَعْتَ ابْنَ أخِيكَ مُحَمَّدًا، فَمَا لَكَ ولِصَاحِبِنَا تَمْنَعُهُ مِنَّا؟.

فَقَالَ أبُو طَالِبٍ: إنَّهُ اسْتَجَارَ بِي وهُوَ ابْنُ أُخْتِي، وإنْ أنَا لَمْ أمْنَعْ ابْنَ أُخْتِي لَمْ أَمْنَعْ ابنَ أَخِي، فَقَامَ أبُو لَهَبٍ غَاضِبًا، وقَالَ: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، واللهِ لَقَدْ أكْثَرْتُمْ عَلَىٰ الشَّيْخِ، مَا تَزَالُونَ تَتَوَاثَبُونَ عَلَيْهِ فِي جِوَارِهِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ! وَاللهِ لَتَنْتَهُنَّ عَنْهُ، أوْ لَنَقُومَنَّ مَعَهُ فِي كُلِّ مَا قَامَ فِيهِ، حَتَّىٰ يَبْلُغَ مَا أرَادَ!

فَقَالُوا: بَلْ نَنْصَرِفُ عَمَّا تَكْرَهُ يا أبَا عُتْبَةَ، وكانَ أبُو لَهَبٍ وَلِيًّا ومُنَاصِرًا لَهُمْ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فأبْقَوْا عَلَىٰ ذَلِكَ، فَلَمَّا سَمِعَ أبُو طَالِبٍ مِنْهُ ذَلِكَ طَمِعَ فِيهِ ورَجَا أنْ يَقُومَ مَعَهُ في شَأْنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وقَالَ قَصِيدَةً يُحَرِّضُ فِيهَا أبَا لَهَبٍ عَلَىٰ نُصْرَتِهِ، ونُصْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:

وإنَّ امْـرَأً أبُـو عُتَيْبَـةَ عَمُّـهُ ... لَفِي رَوْضَةٍ مَا أنْ يُسَامَ المَظَالِمَا

أَقُولُ لَهُ وَأَيْنَ مِنْهُ نَصِيحَتِي ... أبَا مُعْتِبٍ ثَبِّتْ سَوَادَكَ قَائِمَا

ولَا تَقْبَلَنَّ الدَّهْرَ مَا عِشْتَ خُطَّةً ... تُسَبُّ بِهَا إمَّا هَبَطْتَ المَوَاسِمَا

وَوَلِّ سَبِيلَ العَجْزِ غَيْرَكَ مِنْهُمُ ... فَإنَّكَ لَمْ تُخْلَقْ عَلَىٰ العَجْزِ لَازِمَا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٤٠٧).

وَحَارِبْ فَإِنَّ الحَرْبَ نُصْفٌ ولَنْ تَرَىٰ ... أَخَا الحَرْبِ يُعْطَىٰ الخَسْفَ حَتَّىٰ يُسَالِمَا
وكَيْفَ ولَمْ يَجْنُوا عَلَيْكَ عَظِيمَةً ... ولَمْ يَخْذُلُوكَ غَانِمًا أَوْ مُغَارِمَا
جَزَىٰ اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ ونَوْفَلًا ... وَتَيْمًا ومَخْزُومًا عُقُوقًا ومَأْثَمَا
بِتَفْرِيقِهِمْ مِنْ بَعْدِ وُدٍّ وَأُلْفَةٍ ... جَمَاعَتَنَا كَيْمَا يَنَالُوا المَحَارِمَا
كَذَبْتُمْ وبَيْتِ اللهِ نُبْزِي مُحَمَّدًا ... ولَمَّا تَرَوْا يَوْمًا لَدَىٰ الشِّعْبِ قَائِمَا[1]

ولَكِنَّ أَبَا لَهَبٍ لَمْ يَسْتَجِبْ لِأَخِيهِ أَبِي طَالِبٍ فِي نُصْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وسَارَ فِي رَكْبِ قُرَيْشٍ.

۞ وَهْمُ ابنِ سَعْدٍ في أَنَّ ابنَ مَسْعُودٍ ﷺ رَجَعَ إِلَىٰ الحَبَشَةِ:

قُلْتُ: ذَكَرَ ابنُ سَعْدٍ في طَبَقَاتِهِ[2]: أَنَّ عَبْدَ اللهِ بنَ مَسْعُودٍ ﷺ لَمْ يَدْخُلْ مَكَّةَ، وأَنَّهُ رَجَعَ إِلَىٰ الحَبَشَةِ حَتَّىٰ قَدِمَ فِي المَرَّةِ الثَّانِيَةِ إِلَىٰ المَدِينَةِ مَعَ مَنْ قَدِمَ.

وتَعَقَّبَهُ ابنُ القَيِّمِ فَقَالَ: وَرُدَّ هذَا بِأَنَّ ابنَ مَسْعُودٍ شَهِدَ ﷺ بَدْرًا، وأَجْهَزَ عَلَىٰ أَبِي جَهْلٍ، وأَصْحَابُ هَذِهِ الهِجْرَةِ إِنَّمَا قَدِمُوا المَدِينَةَ مَعَ جَعْفَرِ بنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ وأَصْحَابِهِ بَعْدَ بَدْرٍ بأَرْبَعِ سِنِينَ أَوْ خَمْسٍ.

فَإِنْ قِيلَ: بَلْ هَذَا الذِي ذَكَرَهُ ابنُ سَعْدٍ يُوَافِقُ قَوْلَ زَيْدِ بنِ أَرْقَمَ ﷺ: كُنَّا نَتَكَلَّمُ في الصَّلَاةِ، يُكَلِّمُ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ، وهُوَ إِلَىٰ جَنْبِهِ في الصَّلَاةِ حَتَّىٰ

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٤٠٩).
(٢) انظر الطبَّقات الكُبْرىٰ (١/٩٩).

نَزَلَتْ، ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[1] فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ، وَنُهِينَا عَنِ الكَلَامِ[2].

وزَيْدُ بنُ أَرْقَمٍ رضي الله عنه[3] مِنَ الأنْصارِ، والسُّورَةُ مَدَنِيَّةٌ، وحِينَئِذٍ فَابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه سَلَّمَ عَلَيْهِ لَمَّا قَدِمَ وهُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ حَتَّىٰ سَلَّمَ، وأَعْلَمَهُ بِتَحْرِيمِ الكَلَامِ، فَاتَّفَقَ حَدِيثُهُ وحَدِيثُ زَيْدِ بنِ أَرْقَمٍ.

ونَقُولُ: يُبْطِلُ هَذَا شُهُودُ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه بَدْرًا، وأَهْلُ الهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ إنَّمَا قَدِمُوا عَامَ خَيْبَرَ مَعَ جَعْفَرٍ رضي الله عنه وأَصْحَابِهِ، ولَوْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مِمَّنْ قَدِمَ قَبْلَ بَدْرٍ، لَكَانَ لِقُدُومِهِ ذِكْرٌ، ولَمْ يَذْكُرْ أحَدٌ قُدُومَ مُهَاجِرِي الحَبَشَةِ إلَّا فِي القَدْمَةِ الأُولَىٰ بِمَكَّةَ، والثَّانِيَةُ عَامَ خَيْبَرٍ مَعَ جَعْفَرٍ رضي الله عنه، فَمَتَىٰ قَدِمَ ابنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فِي غَيْرِ هَاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ، وَمَعَ مَنْ؟.

---

(١) سورة البقرة آية (٢٣٨).

(٢) أخرجَ هذا الحديثَ الإمامُ البخاريُّ في صحيحه ـ كتاب العمل بالصلاة ـ باب ما يُنْهىٰ منَ الكلام في الصلاة ـ رقم الحديث (١٢٠٠) ـ وأخرجه في كتاب التفسير ـ باب قوله تَعالَىٰ ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ ـ رقم الحديث (٤٥٣٤) ـ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب المَسَاجد ومواضع الصلاة ـ باب تحريم الكلام في الصلاة ـ رقم الحديث (٥٣٩).

(٣) هو زيدُ بن أرْقَمِ الخَزْرَجِيُّ الأنصاريُّ، استُصْغِرَ يومَ أُحُدٍ، وأوَّلُ مشاهِدِهِ الخَنْدَقُ، وقِيلَ المُرَيْسِيعُ، وغزَا معَ النَّبِيِّ ﷺ سبعَ عشْرَةَ غَزْوَةً ثَبَتَ ذلكَ في الصّحيح، وله قِصَّةٌ مشهُورةٌ في نزول سُورة المُنافِقِينَ، وهوَ الذي سَمِعَ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ بنِ سَلُولَ يقُول: لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ منهَا الأذَلَّ، فأخبر رَسُولَ اللهِ ﷺ، فسَأل رسُولُ الله ﷺ ابنَ سَلُولٍ فأنْكَرَ، فأنزل الله تَعَالَىٰ تصديقَ زَيْدٍ رضي الله عنه، ثبتَ ذلك في الصَّحيحين، وفيه قال ﷺ: «**إنَّ الله قدْ صَدَّقَكَ يا زَيْدُ**»، ماتَ رضي الله عنه بالكوفة أيامَ المُخْتار سنة ست وستين وقيل سنة ثمان وستين. انظر الإصابة (٢/٤٨٧).

وبِنَحْوِ الذِي قُلْنَا في ذَلِكَ قَالَ ابنُ إسْحَاقَ، قَالَ: وبَلَغَ أَصْحَابَ رَسُول اللهِ ﷺ الذِينَ خَرَجُوا إلَىٰ الحَبَشَةِ إسْلامُ أَهْلِ مَكَّةَ، فأقْبَلُوا لَمَّا بَلَغَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّىٰ إذَا دَنَوْا مِنْ مَكَّةَ، بَلَغَهُمْ أَنَّ إسْلامَ أهْلِ مَكَّةَ كَانَ بَاطِلًا، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إلَّا بِجِوَارٍ، أَوْ مُسْتَخْفِيًا، فَكَانَ مِمَّنْ قَدِمَ مِنْهُمْ، فَأَقَامَ بِهَا حَتَّىٰ هَاجَرَ إلَىٰ المَدِينَةِ، فَشَهِدَ بَدْرًا وَأُحُدًا فَذَكَرَ مِنْهُمْ: عَبْدَ اللهِ بنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه[1].

فإنْ قِيلَ: فَمَا تَصْنَعُونَ بِحَدِيثِ زَيْدِ بنِ أرْقَمٍ رضي الله عنه؟

قِيلَ: قَدْ أُجِيبَ عَنْهُ بِجَوَابَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ عَنْهُ قَدْ ثَبَتَ بِمَكَّةَ، ثُمَّ أُذِنَ فِيهِ بِالمَدِينَةِ، ثُمَّ نُهِيَ عَنْهُ.

والثَّانِي: أَنَّ زَيْدَ بنَ أرْقَمٍ رضي الله عنه كَانَ مِنْ صِغَارِ الصَّحابَةِ، وكَانَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ يَتَكَلَّمُونَ في الصَّلاةِ عَلَىٰ عَادَتِهِمْ، ولَمْ يَبْلُغْهُمُ النَّهْيُ، فَلَمَّا بَلَغَهُمْ انْتَهَوْا، وزَيْدٌ لَمْ يُخْبِرْ عَنْ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ بأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ فِي الصَّلاةِ إلَىٰ حِينِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ، ولَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِذَلِكَ لَكَانَ وَهْمًا مِنْهُ[2].

۞ مُفَاوَضَاتُ قُرَيْشٍ مَعَ أَبِي طَالِبٍ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ:

أَيْقَنَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ بَطْشَهَا بِالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَنَيْلَهَا مِنْ غَيْرِهِمْ،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٤٠٢).

(٢) انظر زاد المعاد (٣/٢٢ - ٢٣).

لَمْ يَصْرِفِ النَّاسَ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وأَنَّ طُرُقَ الاِسْتِهْزَاءِ أَوْ تَشْوِيهِ مَعَالِمِ الدِّينِ لَمْ تُفْلِحْ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، فَلَجَأَتْ قُرَيْشٌ إِلَىٰ أَسْلُوبِ المُفَاوَضَاتِ مَرَّةً أُخْرَىٰ(١).

فَذَهَبُوا إِلَىٰ أَبِي طَالِبٍ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَقَالُوا لَهُ: يَا أَبَا طَالِبٍ، إِنَّ لَكَ سِنًّا وشَرَفًا ومَنْزِلَةً فِينَا، وإِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يُؤْذِينَا فِي نَادِينَا وفِي مَجْلِسِنَا، وإِنَّا قَدِ اسْتَنْهَيْنَاكَ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ فَلَمْ تَنْهَهُ عَنَّا، وإِنَّا وَاللهِ لا نَصْبِرُ عَلَىٰ هَذَا مِنْ شَتْمِ آبَائِنَا، وتَسْفِيهِ أَحْلَامِنَا(٢) وعَيْبِ آلِهَتِنَا، حَتَّىٰ تَكُفَّهُ عَنَّا، أَوْ نُنَازِلَهُ وإِيَّاكَ فِي ذَلِكَ حَتَّىٰ يَهْلِكَ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ.

فَعَظُمَ عَلَىٰ أَبِي طَالِبٍ فِرَاقُ قَوْمِهِ وعَدَاوَتُهُمْ، ولَمْ يَطِبْ نَفْسًا بِإِسْلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلا خُذْلَانِهِ، فَبَعَثَ عَقِيلًا(٣) ابْنَهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا جَاءَ

---

(١) لا تذكرُ المصادر التاريخية زمَنَ هاتَيْنِ الوِفَادَتَيْن - أقصدُ الوِفَادَةَ الثانِيَةَ، وهي طلبَ قُرَيْشٍ مِنْ أبي طالبٍ تَسْليمَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وستأتي في الفِقْرَةِ التاليةِ - لكنْ يَبْدُو بعدَ التأمُّلِ في القرائن والشَّوَاهد أنهما كانَتَا في أوَاسطِ السنَةِ السَّادسَةِ منَ النبوَّة. انظر الرحيق المختوم ص ٩٨.

(٢) سَفَّهَ أحلامَنَا: أي اسْتَخَفَّ بعُقُولِنَا، وأولُو الأحْلامِ: أي ذَوُوا الألبَابِ، والعُقُولِ. انظر النهاية (١/٤١٦).

(٣) هو عَقِيلُ بنُ أبي طَالِبٍ، ابنُ عمِّ النبي ﷺ، وكان عَقِيلٌ ممَّنْ خرجَ معَ المُشْرِكينَ إلىٰ بَدْرٍ مُكْرهًا، فأُسِرَ يومئذٍ وكان لا مَالَ لهُ، فَفَدَاهُ عمُّهُ العَبَّاسُ ﷺ. ثم أتىٰ عَقِيلٌ مُسْلِمًا قبلَ الحُدَيْبِيَةِ، وهاجرَ إلىٰ النبيِّ ﷺ سنةَ ثمَانٍ منَ الهجرةِ، وشهِدَ غزوَةَ مُؤْتَةَ.
قال الحافظ في الإصابة (٤/٤٣٨): ولمْ يُسْمَعْ لهُ بذِكْرٍ في غزوَةِ الفتحِ ولا حُنَيْنٍ كأنَّه كان مَرِيضًا، أشارَ إلىٰ ذلكَ ابنُ سعد في طبقاته (٤/٣٤١)، لكنْ روىٰ الزُّبير بن بكَّار بسندهِ=

رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: يا ابْنَ أَخِي، إنَّ قَوْمَكَ قَدْ جاؤُونِي، فزَعَمُوا أَنَّكَ تُؤْذِيهِمْ فِي نَادِيهِمْ، وفِي مَجْلِسِهِمْ فَانْتَهِ عَنْ ذَلِكَ، وأَبْقِ عَلَيَّ، وَعَلَىٰ نَفْسِكَ، وَلَا تُحَمِّلْنِي مِنَ الأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ.

فَحلَّقَ[1] رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبَصَرِهِ إلَىٰ السَّمَاءِ، فَقَالَ: «**تَرَوْنَ هَذِهِ الشَّمْسَ؟**».

قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «**مَا أَنَا بِأَقْدَرَ عَلَىٰ أَنْ أَدَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلَىٰ أَنْ تُشْعِلُوا مِنْهَا شُعْلَةً**».

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللهِ، مَا كَذَبَ ابْنُ أَخِي قَطُّ، فَارْجِعُوا[2].

ثُمَّ أَطْلَقَ أَبُو طَالِبٍ أَبْيَاتَهُ المَشْهُورَةَ فِي نُصْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَقَالَ:

وَاللهِ لَـنْ يَصِـلُوا إِلَيْـكَ بِجَمْعِهِـمْ ... حَتَّـىٰ أُوَسَّـدَ فِـي التُّـرَابِ دَفِينَـا

فَامْضِـي لِأَمْـرِكَ مَا عَلَيْـكَ غَضَاضَـةٌ[3] ... أَبْشِـرْ وَقَـرَّ بِـذَاكَ مِنْـكَ عُيُونَـا

= إلىٰ الحسنِ بنِ عليّ: أن عَقِيلًا كان ممَّن ثبتَ يومَ حُنَيْنٍ، وكان ﷺ عالِمًا بأنسَابِ قُرَيْشٍ ومآثِرِهَا ومَثَالِبِهَا.

وفي تاريخ البخاري الأصغر بسندٍ صحيحٍ أنَّ عَقِيلًا ماتَ في أوَّل خلافةِ يَزِيد قبل الحَرَّة. انظر الإصابة (٤/٤٣٨).

(١) حلَّقَ بِبَصرِهِ إلىٰ السَّماء: رفعَهُ. انظر النهاية (١/٤٠٩).

(٢) أخرج ذلك الحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ باب ذكر عقيل بن أبي طالب ﷺ ـ رقم الحديث (٦٥٢٦) ـ وإسناده حسن ـ وانظر السلسلة الصحيحة للألباني رَحِمَهُ اللهُ ـ رقم الحديث (٩٢).

(٣) ما عليك غضاضة: أي ذل. انظر لسان العرب (١٠/٨٢).

وَدَعَـوْتَنِي وَعَلِمْـتُ أَنَّـكَ نَاصِـحِي ... فَلَقَـدْ صَـدَقْتَ وكُنْـتَ قِـدَمَ أَمِينَـا

وَعَرَضْـتَ دِينًـا قَـدْ عَلِمْـتُ بِأَنَّـهُ ... مِـنْ خَيْـرِ أَدْيَـانِ البَرِيَّـةِ دِينَـا

لَـوْلَا المَلَامَـةُ أَوْ حَـذَارِي سُـبَّةً ... لَوَجَـدْتَنِي سَـمْحًا بِـذَاكَ أَمِينَـا[1]

۞ رِوَايَةٌ مَشْهُورَةٌ ضَعِيفَةٌ:

وَأَمَّا الرِّوَايَةُ المَشْهُورَةُ، وهِيَ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: **«يَا عَمُّ، وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، والقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَىٰ أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ، مَا تَرَكْتُهُ...»**[2].

فَهِيَ رِوَايَةٌ ضَعِيفَةٌ.

۞ طَلَبُ قُرَيْشٍ تَسْلِيمَ الرَّسُولِ ﷺ:

فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَاضٍ فِي دَعْوَتِهِ، وأَنَّ أبَا طَالِبٍ قَدْ أَبَىٰ خُذْلَانَ ابْنِ أَخِيهِ وإِسْلَامَهُ، وإِجْمَاعَهُ لِفِرَاقِهِمْ فِي ذَلِكَ وعَدَاوَتِهِمْ، مَشَوْا إِلَيْهِ بِعُمَارَةَ بنِ الوَلِيدِ بنِ المُغِيرَةِ فَقَالُوا لَهُ: يَا أَبَا طَالِبٍ: قَدْ جِئْنَاكَ بِفَتَىٰ قُرَيْشٍ جَمَالًا، ونَسَبًا، ونَهَادَةً[3]، وشِعْرًا.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٠٣) ـ البداية والنهاية (٣/٤٧) ـ الرَّوْض الأُنُف (٢/٧).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٠٣) ـ وانظر السلسلة الضعيفة للألباني رَحِمَهُ اللهُ ـ رقم الحديث (٩٠٩).

(٣) نَهَادَةٌ: أي قَوِيًا ضَخْمًا. انظر النهاية (٥/١١٨).

فَخُذْهُ فَلَكَ نَصْرُهُ وعَقْلُهُ[١] ومِيرَاثُهُ، واتَّخِذْهُ وَلَدًا فَهُوَ لَكَ، وأَسْلِمْ إِلَيْنَا ابْنَ أَخِيكَ هَذَا الذِي قَدْ خَالَفَ دِينَكَ، ودِينَ آبَائِكَ، وفَرَّقَ جَمَاعَةَ قَوْمِكَ، وسَفَّهَ أَحْلَامَهُمْ، فنَقْتُلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ لِلْعَشِيرَةِ، وأَفْضَلُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ مَغَبَّةً، وإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ بِرَجُلٍ.

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللهِ مَا أَنْصَفْتُمُونِي، أَتُعْطُونَنِي ابْنَكُمْ أَكْفُلُهُ لَكُمْ، وأُعْطِيَكُمْ ابْنِي تَقْتُلُونَهُ؟ ما هَذَا بِالنَّصَفِ، تَسُومُونَنِي[٢] سَوْمَ العَرِيرِ[٣] الذَّلِيلِ، هَذَا وَاللهِ لَا يَكُونُ أَبَدًا.

فَقَالَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ: وَاللهِ يَا أَبَا طَالِبٍ لَقَدْ أَنْصَفَكَ قَوْمُكَ، وجَهِدُوا عَلَىٰ التَّخَلُّصِ مِمَّا تَكْرَهُهُ، فَمَا أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللهِ مَا أَنْصَفْتُمُونِي، ولَكِنَّكَ قَدْ أَجْمَعْتَ خُذْلَانِي ومُظَاهَرَةَ عَلَيَّ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ[٤].

۞ مُنَاصَرَةُ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي المُطَّلِبِ لِأَبِي طَالِبٍ:

فَهُنَا قَامَ أَبُو طَالِبٍ حِينَ رَأَىٰ مَا تَصْنَعُ قُرَيْشٌ بِالمُسْلِمِينَ، فِي بَنِي هَاشِمٍ وبَنِي المُطَّلِبِ، فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ مَنْعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، والقِيَامِ دُونَهُ،

---

(١) العَقْلُ: الدِّيَةُ. انظر النهاية (٣/٢٥٢).

(٢) المُسَاوَمَةُ: المُجَاذَبَةُ بينَ البَائِعِ والمُشْتَرِي علىٰ السِّلعَةِ وفصْلِ ثَمَنِهَا. انظر النهاية (٢/٣٨٢).

(٣) العَرِيرُ: أي دَخِيلًا غَرِيبًا ولمْ أَكُنْ مِنْ صَمِيمِهِمْ. انظر النهاية (٣/١٨٥).

(٤) انظر الطَّبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/٩٧) ـ سيرة ابن هشام (١/٣٠٣) ـ الرَّوْض الأُنُف (٢/٨).

فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، وَقَامُوا مَعَهُ، وأجَابُوهُ إِلَىٰ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي لَهَبٍ عَمِّ الرَّسُولِ ﷺ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي ذَٰلِكَ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُمْ، ويُحَرِّضُهُمْ عَلَىٰ مَا وَافَقُوهُ عَلَيْهِ مِنَ الحَدْبِ[1] عَلَىٰ رَسُول اللهِ ﷺ، والنُّصْرَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ فقَالَ مِنْهَا:

إِذَا اجْتَمَعَتْ يَوْمًا قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ ... فَعَبْدُ مَنَافٍ سِرُّهَا، وصَمِيمُهَا
وإِنْ حُصِّلَتْ أَشْرَافُ عَبْدِ مَنَافِهَا ... فَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا، وقَدِيمُهَا
وإِنْ فَخَرَتْ يَوْمًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا ... هُوَ المُصْطَفَىٰ مِنْ سِرِّهَا وكَرِيمِهَا
تَدَاعَتْ قُرَيْشٌ غَثُّهَا وسَمِينُهَا ... عَلَيْنَا فَلَمْ تَظْفَرْ، وَطَاشَ حُلُومُهَا[2]

۞ مُحَاوَلَةُ الطُّغَاةِ اغْتِيَالَ الرَّسُولِ ﷺ:

وبَعْدَ فَشَلِ مُفَاوَضَاتِ قُرَيْشٍ مَعَ أَبِي طَالِبٍ، اشْتَدَّ مَكْرُ زُعَمَائِهَا، وأَجْمَعُوا عَلَىٰ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا كانَ مَسَاءُ اللَّيْلَةِ التِي عَرَضُوا فِيهَا عُمَارَةَ بنَ الوَلِيدِ عَلَىٰ أَبِي طَالِبٍ، فُقِدَ رَسُولُ ﷺ، وجَاءَ أَبُو طَالِبٍ وعُمُومَتُهُ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَجَمَعَ أَبُو طَالِبٍ فِتْيَانًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وبَنِي المُطَّلِبِ ثُمَّ قَالَ: لِيَأْخُذْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ حَدِيدَةً صَارِمَةً، ثُمّ لِيَتْبَعْنِي إِذَا دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَلْيَنْظُرْ كُلُّ فَتًىٰ مِنْكُمْ فَلْيَجْلِس إِلَىٰ عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَائِهِمْ فِيهِمْ ابنُ الحَنْظَلِيَّةِ، يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ، فَإِنَّهُ

---

(١) الحَدْبُ: العَطْفُ. انظر النهاية (١/٣٣٧).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٠٦).

لَمْ يَغِبْ عَنْ شَرٍّ إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ قُتِلَ.

فَقَالَ الفِتْيَانُ: نَفْعَلُ، فَجَاءَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ ﵁ فَوَجَدَ أَبَا طَالِبٍ عَلَىٰ تِلْكَ الحَالِ، فَقَالَ: يَا زَيْدُ: أَحْسَسْتَ ابنَ أخِي؟ قَالَ: نَعَمْ كُنْتُ مَعَهُ آنِفًا، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: لَا أَدْخُلُ بَيْتِيَ أَبدًا حَتَّىٰ أَرَاهُ، فَخَرَجَ زَيْدٌ سَرِيعًا حَتَّىٰ أَتَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وهُوَ فِي دَارِ الأَرْقَمِ، ومَعَهُ أَصْحَابُهُ يَتَحَدَّثُونَ، فأخْبَرَهُ الخَبَرَ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: يا ابْنَ أخِي أَيْنَ كُنْتَ؟ أَكُنْتَ فِي خَيْرٍ؟ قالَ ﷺ: نَعَمْ، قَالَ: ادْخُلْ بَيْتَكَ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو طَالِبٍ غَدَا عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَوَقَفَ بِهِ عَلَىٰ أَنْدِيَةِ قُرَيْشٍ، ومَعَهُ الفِتْيَانُ الهَاشِمِيُّونَ والمُطَّلِبِيُّونَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ هَلْ تَدْرُونَ مَا هَمَمْتُ بِهِ؟ قَالُوا: لَا، فَأَخْبَرَهُمُ الخَبَرَ، وقَالَ لِلْفِتْيَانِ: اكْشِفُوا عَمَّا فِي أَيْدِيكُمْ، فكَشَفُوا، فإذَا كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَعَهُ حَدِيدَةٌ صَارِمَةٌ، فَقَالَ: وَاللهِ لَوْ قَتَلْتُمُوهُ مَا بَقِيت مِنْكُمْ أحَدًا حَتَّىٰ نَتَفَانَىٰ نَحْنُ وأَنْتُمْ، فَانْكَسَرَ القَوْمُ، وكانَ أَشَدُّهُمْ انْكِسَارًا أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَىٰ[1].

ورَوىٰ البَيْهَقِيُّ في دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَنَّ أُنَاسًا مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ تَوَاصَوْا بِالنَّبِيِّ ﷺ لِيَقْتُلُوهُ، مِنْهُمْ: أَبُو جَهْلٍ، وَالوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ، وَنفَرٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، فَبَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا سَمِعُوا قِرَاءَتَهُ أَرْسَلُوا الوَلِيدَ لِيَقْتُلَهُ، فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ المَكَانِ الذِي كَانَ يُصَلِّي النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ، فَجَعَلَ يَسْمَعُ قِرَاءَتَهُ وَلَا يَرَاهُ، فَانْصَرَفَ إِلَيْهِمْ فَأَعْلَمَهُمْ ذَلِكَ، فَأَتَاهُ أَبُو

(١) انظر الطبَّقَات الكُبْرىٰ لأبي سعد (١/٩٧).

جَهْلٍ، وَالْوَلِيدُ، ونَفَرٌ مِنْهُمْ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَىٰ المَكَانِ الذِي هُوَ فِيهِ ﷺ يُصَلِّي سَمِعُوا قِرَاءَتَهُ، فَيَذْهَبُونَ إِلَىٰ الصَّوْتِ فَإِذَا الصَّوْتُ مِنْ خَلْفِهِمْ، فَيَنْتَهُونَ إِلَيْهِ فَيَسْمَعُونَ أَيْضًا مِنْ خَلْفِهِمْ، فَانْصَرَفُوا ولَمْ يَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1].

ولَمْ تَزَلْ فِكْرَةُ اغْتِيَالِ النَّبِيِّ ﷺ تَزْدَادُ في قُلُوبِ المُشْرِكِينَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ وغَيْرُهُ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ أَبَىٰ إِلَّا مَا تَرَوْنَ مِنْ عَيْبِ دِينِنَا، وشَتْمِ آبَائِنَا، وتَسْفِيهِ أَحْلَامِنَا، وشَتْمِ آلِهَتِنَا، وإِنِّي أُعَاهِدُ اللهَ لَأَجْلِسَنَّ لَهُ غَدًا بِحَجَرٍ مَا أُطِيقُ حَمْلَهُ، فَإِذَا سَجَدَ فِي صَلَاتِهِ فَضَخْتُ بِهِ رَأْسَهُ، فَأَسْلِمُونِي عِنْدَ ذَلِكَ أَوِ امْنَعُونِي، فَلْيَصْنَعْ بَعْدَ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ مَا بَدَا لَهُمْ، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا نُسْلِمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا، فَامْضِ لِمَا تُرِيدُ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو جَهْلٍ أَخَذَ حَجَرًا كَمَا وَصَفَ، ثُمَّ جَلَسَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يَنْتَظِرُهُ، وَغَدَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا كَانَ يَغْدُو، وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ وَقِبْلَتُهُ إِلَىٰ الشَّامِ، فَكَانَ إِذَا صَلَّىٰ صَلَّىٰ بَيْنَ الرُّكْنِ اليَمَانِيِّ وَالحَجَرِ الأَسْوَدِ، وجَعَلَ الكَعْبَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الشَّامِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي، وقَدْ غَدَتْ قُرَيْشٌ فَجَلَسُوا في أَنْدِيَتِهِمْ يَنْتَظِرُونَ مَا أَبُو جَهْلٍ فَاعِلٌ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ احْتَمَلَ

---

(١) سورة يس آية (٩)، والخبر في دلائل النبوة للبيهقي (٢/١٩٦).

أَبُو جَهْلٍ الحَجَرَ، ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوَهُ، حَتَّىٰ إِذَا دَنَا مِنْهُ رَجَعَ مُنْهَزِمًا مُنْتَقِعًا[1] لَوْنُهُ مَرْعُوبًا، قَدْ يَبِسَتْ يَدَاهُ عَلَىٰ حَجَرِهِ، حَتَّىٰ قَذَفَ الحَجَرَ مِنْ يَدِهِ، وقَامَتْ إِلَيْهِ رِجَالُ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: مَالَكَ يَا أَبَا الحَكَمِ؟ قَالَ: قُمْتُ إِلَيْهِ لِأَفْعَلَ بِهِ مَا قُلْتُ لَكُمُ البَارِحَةَ، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ عَرَضَ لِي دُونَهُ فَحْلٌ مِنَ الإِبِلِ، لَا وَاللهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَامَتِهِ[2] وَلَا مِثْلَ قَصَرَتِهِ[3] وَلَا أَنْيَابِهِ لِفَحْلٍ قَطُّ، فَهَمَّ بِي أَنْ يَأْكُلَنِي.

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: فَذُكِرَ لِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**ذَلِكَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ لَوْ دَنَا لَأَخَذَهُ**»[4].

۞ أَوَّلُ مَنْ سَلَّ سَيْفًا فِي سَبِيلِ اللهِ:

رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي مُصَنَّفِهِ وَالإِمَامُ أَحْمَدُ فِي فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ مُرْسَلٍ ـ لَكِنَّهُ يَتَقَوَّى إِلَى دَرَجَةِ الحَسَنِ لِشَوَاهِدِهِ ـ عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ:

أَنَّ أَوَّلَ مَنْ سَلَّ سَيْفًا فِي سَبِيلِ اللهِ الزُّبَيْرُ، نُفِحَ نَفْحَةً نَفَحَهَا الشَّيْطَانُ، أُخِذَ[5] رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَخَرَجَ الزُّبَيْرُ يَشُقُّ النَّاسَ بِسَيْفِهِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بِأَعْلَى مَكَّةَ

---

(١) مُنْتَقِع: متغير. انظر لسان العرب (١٤/٢٦٧).

(٢) الهَامَةُ: الرَّأسُ. انظر لسان العرب (١٥/١٦٢).

(٣) القَصَرَةُ: أصلُ العُنُقِ. انظر لسان العرب (١١/١٨٩).

(٤) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٣٥) ـ دلائل النبوة لأبي نعيم (١/٢٠٦) ـ دلائل النبوة للبيهقي (٢/١٩٠).

(٥) أُخِذ: أي قُتِل.

فَلَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: «مَالَكَ يَا زُبَيْرُ»؟

قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّكَ أُخِذْتَ.

قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ(١) وَدَعَا لَهُ وَلِسَيْفِهِ(٢).

** ** **

(١) المقصود بالصلاة هنا: الدعاء، أي دعا له. انظر النهاية (٣/٤٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ـ رقم الحديث (١٩٨٦٩) ـ والإمام أحمد في فضائل الصحابة ـ رقم الحديث (١٢٦٠) (١٢٦٦).

إِسْلامُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه[1]

وَخِلَالَ هَذَا الْجَوِّ الْمَشْحُونِ بِالظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ أَسْلَمَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه، وَهُوَ عَمُّ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَخُوهُ مِنَ الرَّضَاعَةِ، وَكَانَ رضي الله عنه أَسَنَّ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ بِسَنَتَيْنِ، وَقِيلَ بِأَرْبَعِ سِنِينَ وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ[2].

۞ سَبَبُ إِسْلَامِهِ رضي الله عنه:

وَسَبَبُ إِسْلَامِهِ رضي الله عنه أَنَّ أَبَا جَهْلٍ مَرَّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ الصَّفَا فَآذَاهُ، وشَتَمَهُ، وَنَالَ مِنْهُ بَعْضَ مَا يَكْرَهُ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَاكِتٌ لَا يُكَلِّمُهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ لَعَنَهُ اللهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ نَادٍ مِنْ قُرَيْشٍ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، فَجَلَسَ مَعَهُمْ، وكَانَتْ مَوْلَاةٌ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ جَدْعَانَ فِي مَسْكَنٍ لَهَا عَلَىٰ الصَّفَا تَسْمَعُ ذَلِكَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَقْبَلَ حَمْزَةُ رضي الله عنه

---

(١) اختُلِفَ في سَنَةِ إسلامِهِ رضي الله عنه، فعنْدَ ابن سعدٍ في طبقاته (٧/٣) بسندٍ ضعيفٍ: أنها في السنَةِ السَّادسةِ منَ البعثَةِ.
وقيل: في السنةِ الثانيةِ منَ البِعثةِ، وبه جزمَ الحافظُ في الإصابةِ (١٠٥/٢)، وابنُ الأثير في أسد الغابة (٥٠/٢).

(٢) قال ابن عبد البر في الاستيعاب (٤٢٣/١): قيل: إنَّ حَمزة رضي الله عنه أَسَنُّ مِنْ رَسُول اللهِ ﷺ بأربعِ سنينَ، وهذا لا يَصِحُّ عندي؛ لأنَّ الحديثَ الثابتَ أن حمزة وأبا سَلَمة عبد الله بن عبدِ الأسد، أرضَعَتْهُمَا ثُوَيْبَةُ مع رَسُول اللهِ ﷺ، إلا أنْ تكونَ أرضعتهُمَا في زَمَانَيْنِ.

مُتَوَشِّحًا[١] قَوْسَهُ رَاجِعًا مِنْ قَنَصٍ[٢] لَهُ.

فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَوْلَاةُ، قَالَتْ لَهُ: يَا أَبَا عُمَارَةَ! لَوْ رَأَيْتَ مَا لَقِيَ ابْنُ أَخِيكَ مُحَمَّدٌ آنِفًا مِنْ أَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ، وَجَدَهُ هَاهُنَا جَالِسًا فَآذَاهُ وَسَبَّهُ، وبَلَغَ مِنْهُ مَا يَكْرَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ، وَلَمْ يُكَلِّمْهُ مُحَمَّدٌ.

فَاحْتَمَلَ حَمْزَةَ رضي الله عنه الغَضَبُ لِمَا أَرَادَ اللهُ بِهِ مِنْ كَرَامَتِهِ ـ وَكَانَ حَمْزَةُ أَعَزَّ فَتًى فِي قُرَيْشٍ وَأَشَدَّ شَكِيمَةً[٣] ـ فَانْطَلَقَ يَسْعَىٰ مُصَمِّمًا أَنَّهُ إِذَا لَقِيَ أَبَا جَهْلٍ بَطَشَ بِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ نَظَرَ إِلَيْهِ جَالِسًا في الْقَوْمِ، فَأَقْبَلَ نَحْوَهُ حَتَّىٰ إِذَا قَامَ عَلَىٰ رَأْسِهِ رَفَعَ القَوْسَ، فَضَرَبَهُ بِهِ، فَشَجَّهُ شَجَّةً مُنْكَرَةً، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَتَشْتُمُ ابْنَ أَخِي وأَنَا عَلَىٰ دِينِهِ أَقُولُ مَا يَقُولُ؟ فَرُدَّ عَلَيَّ ذَلِكَ إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَقَامَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ إِلَىٰ حَمْزَةَ لِيَنْصُرُوا أَبَا جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو جَهْلٍ: دَعُوا أَبَا عُمَارَةَ، فَإِنِّي وَاللهِ قَدْ سَبَبْتُ ابْنَ أَخِيهِ سَبًّا قَبِيحًا.

وعَادَ حَمْزَةُ رضي الله عنه إِلَىٰ بَيْتِهِ، وقَدْ سَاوَرَتْهُ الْوَسَاوِسُ الشَّيْطَانِيَّةُ والهَوَاجِسُ النَّفْسِيَّةُ، كَيْفَ تَرَكْتَ دِينَ قَوْمِكَ، واتَّبَعْتَ هَذَا الصَّابِئَ، لَلْمَوْتُ خَيْرٌ لَكَ مِمَّا صَنَعْتَ، ثُمَّ الْتَمَسَ رضي الله عنه التَّوْفِيقَ والرُّشْدَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ رُشْدًا فَاجْعَلْ تَصْدِيقَهُ فِي قَلْبِي، وإِلَّا فَاجْعَلْ لِي مِمَّا وَقَعْتُ فِيهِ مَخْرَجًا، فَبَاتَ

---

(١) مُتَوَشِّحًا: أي مُتَقَلِّدًا. انظر لسان العرب (١٥/٣٠٦).

(٢) القَنَصُ: الصَّيْدُ. انظر لسان العرب (١١/٣١٩).

(٣) يُقال: فلانٌ شديدُ الشَّكِيمَةِ: إذا كان عزيزَ النفسِ أبيًّا قويًا. انظر النهاية (٢/٤٤٤).

ﷺ بِلَيْلَةٍ لَمْ يَبِتْ مِثْلَهَا مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ حَتَّىٰ أَصْبَحَ، فَغَدَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي! إِنِّي وَقَعْتُ فِي أَمْرٍ لَا أَعْرِفُ المَخْرَجَ مِنْهُ، وإِقَامَةُ مِثْلِي عَلَىٰ مَا لَا أَدْرِي: أَرُشْدٌ هُوَ أَمْ غَيٌّ شَدِيدٌ[1]!!

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ ﷺ فَحَدَّثَهُ بِحَدِيثِهِ الذِي يُنِيرُ القُلُوبَ، ويُطَمْئِنُ النُّفُوسَ، ويُذْهِبُ ظُلُمَاتِ الشَّكِّ والوَسَاوِسِ، فَذَكَّرَهُ وبَشَّرَهُ، وأَنْذَرَهُ، فَثَبَّتَ اللهُ تَعَالَىٰ الإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ، فقَالَ ﷺ: أَشْهَدُ إِنَّكَ لَصَادِقٌ، فَأَظْهِرْ دِينَكَ يا ابْنَ أَخِي، فَوَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، وأَنَا عَلَىٰ دِينِيَ الأَوَّلِ.

وسُرَّ الرَّسُولُ ﷺ بِإِسْلَامِ عَمِّهِ حَمْزَةَ ﷺ أَيَّمَا سُرُورٍ، وعَرَفَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ عَزَّ وامْتَنَعَ، وأَنَّ حَمْزَةَ سَيَمْنَعُهُ[2].

قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّد الغَزَالِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وكَمَا يَقُولُ البَعْضُ طَلَبْنَا العِلْمَ لِلدُّنْيَا فَأَبَىٰ اللهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِلدِّينِ[3]! كَانَ إِسْلَامُ حَمْزَةَ ﷺ أَوَّلَ الأَمْرِ

---

(١) قال الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه السِّيرة النَّبويَّة (١/٣٠٠): هذا يدلُّ علىٰ حصَافَةٍ في العقلِ، وأصَالةٍ في التفكيرِ، واعتدادٍ بالنَّفْسِ، وأنَّ القوم كانوا أصحَابَ عُقُولٍ ومَواهِبَ، وأنَّهُمْ كانوا أهلًا لكل تَوْجيهٍ نَبَوِيٍّ كَريمٍ حتىٰ صَارُوا خيرَ أُمَّةٍ أُخرجَتْ للنَّاسِ.

(٢) أخرج قِصةَ إسلام حمزةَ بن عبد المطلب ﷺ: الحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ ـ باب ذكر إسلام حمزة ﷺ ـ رقم الحديث (٤٩٣٠) ـ وابن إسحاق في السيرة (١/٣٢٨) ـ وإسناده صحيح.

(٣) قَائِلُ هذهِ العبارةِ: هُوَ الإمامُ البحر أبو حامد الغزالي، المتوفى سنة ٥٠٥هـ.
قال عنه الذهبي في السير (١٩/٣٢٢): الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة=

أَنَفَةَ رَجُلٍ أَبَىٰ أَنْ يُهَانَ ابْنُ أَخِيهِ، ثُمَّ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ فَاسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ، وَاعْتَزَّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ أَيَّمَا اعْتِزَازٍ[1].

** ** **

= الزمان، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف، والذكاء المفرط.

(١) انظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ١١٦.

إسْلامُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ[1] رضي الله عنه

ثُمَّ أَيَّدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ الإِسْلَامَ والمُسْلِمِينَ بإسْلامِ الفَارُوقِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ العَدَوِيِّ رضي الله عنه، وكَانَ رَجُلًا مَعْرُوفًا بِحِدَّةِ الطَّبْعِ وقُوَّةِ الشَّكِيمَةِ، وكانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً للمُسْلِمِينَ، وطَالَمَا لَقُوا مِنْهُ أَلْوَانَ الأَذَىٰ حتَّىٰ يَئِسُوا مِنْ إسْلَامِهِ.

❁ **دُعَاءُ الرَّسُولِ ﷺ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه:**

رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ، وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ**

(١) هو عُمَرُ بن الخَطَّابِ بنِ نُفَيْلٍ القُرَشِيُّ العَدَوِيُّ، أبو حفصٍ، أميرُ المؤمنينِ، كانَ فِي أوَّلِ الأَمْرِ شَدِيدًا عَلىٰ المُسلِمِينَ، ثُمَّ أسلمَ، فكانَ إسلامُهُ فَتحًا لَهُمْ، وفَرَجًا لهم من الضِّيقِ.
قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما عبَدْنَا اللهَ جَهْرًا حتَّىٰ أسلمَ عُمَرُ.
ويكفِي في فَضْلِهِ رضي الله عنه ما جاء في الصحيح: أنه ﷺ رَأىٰ الناسَ وعليهِمْ قُمُصٌ، منهَا مَا يبلُغُ الثَّدْيَ، ومنها دونَ ذلك، ورأىٰ عمرَ فإذا عليه قَمِيصٌ يَجُرُّهُ، فأوَّلَهُ الدِّين، ورأىٰ أنه أُتي له بِقَدَحٍ من لبنٍ، فشربَ وأعطىٰ فضْلَهُ عُمَرَ، وأوَّلَهُ العِلْمَ.
كانت خلافتُه رضي الله عنه عشرَ سنينَ وستةَ أشهرٍ، ضرَبَهُ أبو لؤْلُؤَةَ المجُوسي قبَّحه الله لأربعٍ بَقِينَ من ذي الحجة، ومكَثَ ثلاثًا وتُوفي، وقُبِرَ مع رَسُول اللهِ ﷺ وأبِي بكر، تُوفي وهو ابنُ ثمان أو تسع وخمسون سنة. انظر تهذيب التهذيب (٣/٢٢٢).

هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ، بِأَبِي جَهْلِ بنِ هِشَامٍ، أَوْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ»، فَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ(١).

ورَوَى ابنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ مُرْسَلٍ عَنْ سَعِيدِ بنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: كان النَّبِيَّ ﷺ كانَ إِذَا رَأَى عُمَرَ بنَ الْخَطَّابِ ﷺ، أَوْ أَبَا جَهْلِ بنَ هِشَامٍ قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ دِينَكَ بِأَحَبِّهِمَا إِلَيْكَ»(٢).

وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِعُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ خَاصَّةً»(٣).

۞ بِدَايَةُ اللِّينِ عِنْدَ عُمَرَ ﷺ:

ذَكَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ﷺ كانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَىٰ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب إخبار النبي ﷺ عن مناقب الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ باب ذكر البيانِ بأنَّ عِزَّ المسلمين بإسلام عمر ـ رقم الحديث (٦٨٨١) وأخرجه الإمام أحمد في المسند ـ رقم الحديث (٥٦٩٦) وأخرجه أحمد في فضائل الصحابة ـ رقم الحديث (٣١٢) ـ والترمذي في جامعه ـ كتاب المناقب ـ باب في مناقب عمر بن الخطاب ﷺ ـ رقم الحديث (٤٠١٣).

(٢) أخرجه ابن سعد في طبقاته (٣/١٤٢) ـ وأورده الحافظ في الفتح (٧/٤٠٤) ـ وصحح إسناده إلى سعيد بن المسيب.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب ومن مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رقم الحديث (٤٥٤١) ـ وأورده الحافظ في الفتح (٧/٤٠٤) وصحح إسناده ـ وأخرجه ابن ماجه في سننه ـ في المقدمة ـ باب فضائل عمر ﷺ ـ رقم الحديث (١٠٥) ـ وإسناده ضعيف..

المُسْلِمِينَ، حَتَّىٰ يَئِسَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ مِنْ إسْلامِهِ، لَكِنْ لَمَّا أَرادَ اللهُ لَهُ الهِدَايَةَ صَدَرَتْ مِنْهُ ﷺ بَعْضُ التَّصرُّفَاتِ التِي تُعْطِي الأَمَلَ بإسْلَامِهِ.

رَوَىٰ الإمَامُ أحْمَدُ في فَضَائِلِ الصَّحابَةِ، والحَاكِمُ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ أُمِّ عَبْدِ اللهِ لَيْلَىٰ بِنْتِ أَبِي حَثْمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ عَامِرِ بنِ رَبِيعَةَ ﷺ قَالَتْ: إنَّا لَنَرْتَحِلُ إلَىٰ أَرْضِ الحَبَشَةِ، وقَدْ ذَهَبَ عَامِرٌ في بَعْضِ حَاجَاتِنَا، إذْ أَقْبَلَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﷺ حَتَّىٰ وَقَفَ عَلَيَّ، وهُوَ عَلَىٰ شِرْكِهِ، قَالَتْ: وكُنَّا نَلْقَىٰ مِنْهُ البَلَاءَ أَذَىٰ لَنَا، وَشِدَّةً عَلَيْنَا.

فَقَالَ عُمَرُ: إنَّهُ الانْطِلَاقُ يَا أُمَّ عَبْدِ اللهِ؟

قَالَتْ: فَقُلْتُ: نَعَمْ، واللهِ لَنَخْرُجَنَّ في أَرْضِ اللهِ، آذَيْتُمُونَا وقَهَرْتُمُونَا، حَتَّىٰ يَجْعَلَ اللهُ لَنَا مَخْرَجًا، فقَالَ: صَحِبَكُمُ اللهُ.

قَالَتْ أُمُّ عَبْدِ اللهِ: ورَأَيْتُ لَهُ رِقَّةً لَمْ أَكُنْ أَرَاهَا، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَقَدْ أَحْزَنَهُ فِيمَا رَأَىٰ خُرُوجُنَا، قَالَتْ: فَجَاءَ عَامِرٌ ـ زَوْجُهَا ـ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! لَوْ رَأَيْتَ عُمَرَ آنِفًا، وَرِقَّتَهُ، وحُزْنَهُ عَلَيْنَا، قَالَ: أَطَمِعْتِ فِي إسْلَامِهِ؟

قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ: لَا يُسْلِمُ الذِي رَأَيْتِ حَتَّىٰ يُسْلِمَ حِمَارُ الخَطَّابِ.

قَالَتْ: قَالَ عَامِرٌ ذَلِكَ يَأْسًا لِمَا كَانَ يَرَىٰ مِنْ غِلْظَتِهِ وَقَسْوَتِهِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة ـ رقم الحديث (٣٧١) ـ والحاكم في=

۞ إِسْلَامُ أُخْتِهِ فَاطِمَةَ وَزَوْجِهَا:

وكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَدْ سَبَقَتْهُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ هِيَ وَزَوْجُهَا سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ وَهُوَ أَحَدُ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ، وهُوَ ابْنُ عَمِّهَا، وكانَا يُخْفِيَانِ إِسْلَامَهُمَا، وَكَانَ خَبَّابُ بنُ الْأَرَتِّ ﷺ مِنْ قُدَمَاءِ المُسْلِمِينَ يَخْتَلِفُ إِلَىٰ فَاطِمَةَ وزَوْجِهَا يُقْرِئُهَا القُرْآنَ[1].

۞ قِصَّةُ إِسْلَامِ عُمَرَ رضي الله عنه:

فَلَمَّا رَجَعَ عُمَرُ رضي الله عنه إِلَىٰ بَيْتِهِ أَخَذَ يُفَكِّرُ في أَمْرِ لَيْلَىٰ بِنْتِ أَبِي حَثْمَةَ وزَوْجِهَا عَامِرِ بنِ رَبِيعَةَ، وكَيْفَ تَفَرَّقَتْ قُرَيْشٌ، وهَاجَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ الحَبَشَةِ، فَقَالَ: كَيْفَ يَحْدُثُ هَذَا؟ مَنْ وَرَاءَ كُلِّ هَذِهِ الأَحْدَاثِ؟ وَرَاءَ كُلِّ هَذِهِ الأَحْدَاثِ مُحَمَّدٌ فعَزَمَ عَلَىٰ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَخَرَجَ رضي الله عنه مُتَوَشِّحًا سَيْفَهُ يُرِيدُ قَتْلَ الرَّسُولِ ﷺ، وَقَدْ ذَكَرُوا لَهُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَجْتَمِعُ مَعَ أَصْحَابِهِ فِي بَيْتٍ عِنْدَ الصَّفَا، وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ أَرْبَعِينَ مَا بَيْنَ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ، مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وعَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وحَمْزَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ آثَرُوا المُقَامَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَخْرُجُوا إِلَىٰ الحَبَشَةِ.

= المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب ذكر أم عبد الله ليلىٰ بنت أبي حثمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ رقم الحديث (٦٩٧٩).

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٨٠) ـ الرَّوْض الأُنُف (٢/١٢٠) ـ البداية والنهاية (٣/٨٦).

فَلَقِيَهُ نُعَيْمُ بنُ عَبْدِ اللهِ النَّحَّامُ العَدَوِيُّ ﷺ، وكَانَ يُخْفِي إسْلَامَهُ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا عُمَرُ؟ قَالَ: أُرِيدُ مُحَمَّدًا هَذَا الصَّابِئَ، الذِي فَرَّقَ أَمْرَ قُرَيْشٍ، وسَفَّهَ أحْلَامَهَا، وعَابَ دِينَهَا، وَسَبَّ آلِهَتَهَا، فَأَقْتُلَهُ!.

فَقَالَ لَهُ نُعَيْمٌ: وَاللهِ لَقَدْ غَرَّتْكَ نَفْسُكَ يَا عُمَرُ! أتَرَىٰ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وبَنِي زُهْرَةَ تَارِكِيكَ تَمْشِي عَلَىٰ الأَرْضِ، وَقَدْ قَتَلْتَ مُحَمَّدًا؟.

أفَلَا تَرْجِعُ إِلَى أَهْلِ بَيْتِكَ فتُقِيمَ أَمْرَهُمْ؟ قَالَ: وَأَيُّ أَهْلِ بَيْتِي؟ قَالَ: أُخْتُكَ فَاطِمَةُ، وزَوْجُهَا سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ قَدْ وَاللهِ أَسْلَمَا، وتَابَعَا مُحَمَّدًا عَلَىٰ دِينِهِ، وتَرَكَا دِينَكَ الذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، فَارْجِعْ إِلَىٰ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَأَقِمْ أَمْرَهُمْ.

فَرَجَعَ عُمَرُ ﷺ عَامِدًا إِلَىٰ أُخْتِهِ وزَوْجِهَا، وعِنْدَهُمَا خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ ﷺ مَعَهُ صَحِيفَةٌ فِيهَا (سُورَةُ طَه) يُقْرِئُهُمَا إِيَّاهَا ـ وكَانَ خَبَّابٌ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِمَا ويُقْرِئُهُمَا القُرْآنَ ـ وفِي رِوَايَةٍ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْمَعُ الرَّجُلَ والرَّجُلَيْنِ إِذَا أَسْلَمَا عِنْدَ الرَّجُلِ الذِي فِي يَدِهِ السَّعَةُ يَكُونَانِ مَعَهُ يُصِيبَانِ مِنْ طَعَامِهِ، وقَدْ ضَمَّ إِلَىٰ زَوْجِ أُخْتِ عُمَرَ رَجُلَيْنِ مِمَّنْ أَسْلَمَ أحَدُهُمَا: خَبَّابٌ، فَلَمَّا سَمِعُوا حِسَّ عُمَرَ، تَغَيَّبَ خَبَّابٌ ﷺ فِي مَخْدَعٍ[1] لَهُمْ، وأَخَذَتْ فَاطِمَةُ الصَّحِيفَةَ فَجَعَلَتْهَا فَخِذَهَا ـ أيْ تَحْتَ فَخِذِهَا ـ، وَقَدْ سَمِعَ عُمَرُ حِينَ دَنَا إِلَىٰ البَيْتِ قِرَاءَةَ خَبَّابٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِمَا قَالَ: مَا هَذِهِ الهَيْنَمَةُ[2] التِي سَمِعْتُهَا عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَا: مَا عَدَا حَدِيثًا

(١) المَخْدَعُ: هوَ البيتُ الصَّغيرُ الذي يكون داخلَ البيتِ الكبيرِ. انظر النهاية (١٥/٢).

(٢) الهَيْنَمَةُ: الكلامُ الخَفِيُّ الذي لا يُفهم. انظر لسان العرب (١٤٨/١٥).

تَحَدَّثْنَاهُ بَيْنَنَا، قَالَ: فَلَعَلَّكُمَا قَدْ صَبَوْتُمَا؟ فَقَالَ لَهُ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ زَوْجُ فَاطِمَةَ: يَا عُمَرُ أرَأَيْتَ إنْ كَانَ الحَقُّ فِي غَيْرِ دِينِكَ؟ فَضَرَبَ عُمَرُ سَعِيدَ بنَ زَيْدٍ ضَرْبَةً شَدِيدَةً، فَسَقَطَ، فَقَامَتْ فَاطِمَةُ لِتَمْنَعَ زَوْجَهَا سَعِيدًا مِنْ عُمَرَ، فَضَرَبَهَا عُمَرُ فَشَجَّهَا حَتَّىٰ سَالَ مِنْهَا الدَّمُ، فَلَمَّا فَعَلَ عُمَرُ بِهِمْ ذَلِكَ قَالَا لَهُ: نَعَمْ قَدْ أسْلَمْنَا، وَآمَنَّا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ!!.

فَلَمَّا رَأَىٰ عُمَرُ مَا بِأُخْتِهِ مِنَ الدَّمِ نَدِمَ عَلَىٰ مَا صَنَعَ، وَارْعَوَىٰ[1]، وهَدَأَتْ نَفْسُهُ، فَقَالَ لِأُخْتِهِ: أعْطِينِي هَذِهِ الصَّحِيفَةَ التِي سَمِعْتُكُمْ تَقْرَأُونَهَا آنِفًا، أنْظُرْ مَا هَذَا الذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ - وَكَانَ عُمَرُ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ - فَقَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ فَاطِمَةُ: إنَّا نَخْشَاكَ عَلَيْهَا، قَالَ: لَا تَخَافِي، وحَلَفَ لَهَا بِآلِهَتِهِ لَيَرُدَّنَّهَا إلَيْهَا إذَا قَرَأَهَا، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ، طَمِعَتْ فِي إسْلَامِهِ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا أخِي إنَّكَ نَجِسٌ عَلَىٰ شِرْكِكَ، وإنَّهُ لَا يَمَسُّهَا إلَّا المُطَهَّرُونَ، فَقُمْ فَاغْتَسِلْ، فَقَامَ عُمَرُ فَاغْتَسَلَ، فَأَعْطَتْهُ الصَّحِيفَةُ، فَقَرَأَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[2].

حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[3].

---

(١) ارْعَوَىٰ: كَفَّ وارْتَدَع. انظر لسان العرب (٥/٢٥٣).

(٢) سورة طه آية (١ - ٥).

(٣) سورة طه آية (١٤).

فَرَقَّ قَلْبُهُ، وقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الكَلَامَ وأَكْرَمَهُ، مَا يَنْبَغِي لِمَنْ يَقُولُ هَذَا الكَلَامَ أَنْ يُعْبَدُ مَعَهُ غَيْرُهُ، دُلُّونِي عَلَىٰ مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ خَبَّابٌ خَرَجَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: أَبْشِرْ يَا عُمَرُ، فَإِنِّي وَاللهِ لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللهُ قَدْ خَصَّكَ بِدَعْوَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: **«اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ أَوْ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ»**، فَاللهَ اللهَ يَا عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَدُلَّنِي يَا خَبَّابُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ حَتَّىٰ آتِيَهُ فَأُسْلِمَ، فقَالَ لَهُ خَبَّابٌ: هُوَ فِي دَارِ أَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ بِأَسْفَلِ الصَّفَا، مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَخَذَ عُمَرُ سَيْفَهُ، فَتَوَشَّحَهُ، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَصْحَابِهِ فِي دَارِ الأَرْقَمِ، فَضَرَبَ البَابَ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فنظَرَ مِنْ خَلَلِ[1] البَابِ فَرَآهُ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ، فَرَجَعَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وهُوَ فَزِعٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ، وَوَجِلَ القَوْمُ، فَقَالَ لَهُمْ حَمْزَةُ رضي الله عنه: مَالَكُمْ؟ قَالُوا: عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فَقَالَ: افْتَحُوا لَهُ البَابَ، فَإِنْ كَانَ جَاءَ يُرِيدُ خَيْرًا بَذَلْنَاهُ لَهُ، وإِنْ كَانَ جَاءَ يُرِيدُ شَرًّا قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«ائْذَنْ لَهُ»**، فَفَتَحُوا لَهُ، ونَهَضَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ لَقِيَهُ، فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ ثَوْبِهِ، ثُمَّ جَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، فَمَا تَمَالَكَ عُمَرُ أَنْ وَقَعَ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ عَلَىٰ الْأَرْضِ، فقَالَ لَهُ ﷺ: **«مَا جَاءَ بِكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟، فَوَاللهِ مَا أَرَىٰ أَنْ تَنْتَهِيَ حَتَّىٰ يُنْزِلَ اللهُ بِكَ قَارِعَةً»**.

فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ! جِئْتُ لِأُؤْمِنَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، وبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ

---

(١) خَلَلُ البابِ: شِقُّ البابِ أو الفُرْجَةُ. انظر النهاية (٢/٦٩).

اللهِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

فكَبَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَكْبِيرَةً، عَرَفَ مِنْهَا أَهْلُ البَيْتِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّ عُمَرَ قَدْ أَسْلَمَ، وَكَبَّرَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ تَكْبِيرَةً سَمِعَهَا أَهْلُ مَكَّةَ(١).

۞ رِوَايَةٌ ثَانِيَةٌ فِي خَبَرِ إِسْلَامِهِ رضي الله عنه:

رَوَى أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ جِدًّا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَأَلْتُ عُمَرَ رضي الله عنه: لِأَيِّ شَيْءٍ سَمِّيتَ الْفَارُوقَ؟

قَالَ: أَسْلَمَ حَمْزَةُ قَبْلِي بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلْإِسْلَامِ، فَقُلْتُ: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، فَمَا فِي الْأَرْضِ نَسْمَةٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: أَيْنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ أُخْتِي: هُوَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ

---

(١) أخرج قِصةَ إسلام عمر رضي الله عنه: الإمام أحمدُ في فضائل الصحابة ـ رقم الحديث (٣٧٦) ـ والحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب استقامة فاطمة على الإسلام ـ رقم الحديث (٦٩٨١) ـ وابن سعد في طبقاته (١٤٢/٣) ـ وسندها ضعيف ـ وأخرجها ابن إسحاق في السيرة (٣٨١/١) بدون سند.

قال الإمام البخاري فيما نقله عنه الحافظ في لسان الميزان (٥٠٢/٥) في ترجمة: قاسم بن عثمان البصري ـ أحدِ رُواةِ قِصةِ إسلامِ عُمر رضي الله عنه ـ: له أحاديث لا يتابع عليها.

وقال الحافظ في لسان الميزان (٥٠٣/٥): في ترجمةِ قاسمِ بنِ عُثمان البصري حدث عنه إسحاق الأزرقُ بمتنٍ محفُوظٍ، وبقصَّة إسلام عُمَر رضي الله عنه، وهي مُنْكَرَةٌ جِدًا.

الْأَرْقَمِ عِنْدَ الصَّفَا، فَأَتَيْتُ الدَّارَ وَحَمْزَةُ فِي أَصْحَابِهِ جُلُوسٌ فِي الدَّارِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْبَيْتِ، فَضَرَبْتُ الْبَابَ فَاسْتَجْمَعَ الْقَوْمُ، فَقَالَ لَهُمْ حَمْزَةُ: مَالَكُمْ؟ قَالُوا: عُمَرُ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ ثِيَابِهِ ثُمَّ نَتَرَهُ فَمَا تَمَالَكَ أَنْ وَقَعَ عَلَى رُكْبَتِهِ، فَقَالَ ﷺ: «**مَا أَنْتَ بِمُنْتَهٍ يَا عُمَرُ؟**»

قَالَ: فَقُلْتُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، قَالَ: فكَبَّرَ أَهْلُ الدَّارِ تَكْبِيرَةً سَمِعَهَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ إِنْ مُتْنَا، وَإِنْ حَيِينَا؟

قَالَ ﷺ: «**بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ عَلَى الْحَقِّ إِنْ مُتُّمْ وَإِنْ حَيِيتُمْ**».

قَالَ: فَفِيمَا الِاخْتِفَاءُ؟ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَتَخْرُجَنَّ، فَأَخْرَجْنَاهُ فِي صَفَّيْنِ، حَمْزَةُ فِي أَحَدِهِمَا، وَأَنَا فِي الْآخَرِ، لَهُ كَدِيدٌ كَكَدِيدِ[1] الطَّحِينِ حَتَّى دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ، قَالَ: فَنَظَرَتْ إِلَيَّ قُرَيْشٌ وَإِلَى حَمْزَةَ، فَأَصَابَتْهُمْ كَآبَةٌ لَمْ يُصِبْهُمْ مِثْلُهَا، فَسَمَّانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ الْفَارُوقَ، وَفَرَّقَ اللهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ[2].

---

(١) الكديد: التراب الناعم، فإذا وُطِئ ثار غُباره، أراد أنهم كانوا في جماعة، وأن الغبار كان يثور من مشيهم. انظر النهاية (٤/١٣٥).

(٢) أخرج ذلك أبو نعيم في حلية الأولياء (١/٧٥) ـ وأوردها الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة ـ رقم الحديث (٦٥٣١)، وقال: إسناده ضعيف جدًا.... ومن طريقه أخرجه عبد الله بن أحمد في فضائل الصحابة ـ رقم الحديث (٣٧٦)، وذكر في إسلام عمر ﷺ عدة روايات لا يصح شيء من أسانيدها.

۞ قِصَّةٌ أُخْرَىٰ فِي خَبَرِ إِسْلَامِهِ رضي الله عنه:

رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ لِانْقِطَاعِهِ عَنْ شُرَيْحِ بنِ عُبَيْدٍ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: خَرَجْتُ أَتَعَرَّضُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ أُسْلِمَ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَىٰ المَسْجِدِ، فَقُمْتُ خَلْفَهُ، فَقُلْتُ: هَذَا وَاللهِ شَاعِرٌ كَمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ، قَالَ: فَقَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾(1).

قُلْتُ: كَاهِنٌ، قَالَ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾(2) إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ، قَالَ رضي الله عنه: فَوَقَعَ الإِسْلَامُ فِي قَلْبِي كُلَّ مَوْقِعٍ(3).

۞ مَتَىٰ كَانَ إِسْلَامُ عُمَرَ رضي الله عنه؟:

وَقَعَ عِنْدَ ابنِ سَعْدٍ في طَبَقَاتِهِ(4) أَنَّ إِسْلَامَ عُمَرَ رضي الله عنه كانَ فِي ذِي الحِجَّةِ مِنَ السَّنَةِ السَّادِسَةِ لِلْبِعْثَةِ، وهَذَا فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ ابنَ عُمَرَ رضي الله عنه يَوْمَ أَسْلَمَ أَبُوهُ عُمَرُ رضي الله عنه كَانَ عُمُرُهُ سِتَّ سِنِينَ كَمَا عِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ(5)، وقَدِ اسْتُصْغِرَ ابْنُ عُمَرَ

---

(1) سورة الحاقة آية (٤١).

(2) سورة الحاقة آية (٤٢ - ٤٧).

(3) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٠٧).

(4) انظر الطبَقات الكُبرىٰ لابن سعد (١٤٣/٣).

(5) انظر الطبَقات الكُبرىٰ (١٤٣/٣).

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَوْمَ غَزْوَةِ أُحُدٍ، وهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، وكَانَتْ غَزْوَةُ أُحُدٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ مِنَ الهِجْرَةِ، فعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ إسْلَامُ عُمَرَ ﷺ قَبْلَ الهِجْرَةِ بِنَحْوٍ مِنْ أَرْبَعِ سِنِينَ وذَلِكَ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِلْبعْثَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ(1).

وكَانَ ﷺ فِي السَّادِسَةِ والعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ يَوْمَ أَسْلَمَ، بَعْدَ أَنْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دَارَ الأَرْقَمِ، وبَعْدَ أَرْبَعِينَ نَفْسًا بَيْنَ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ أَحْرَارًا، قَدْ أَسْلَمُوا قَبْلَهُ(2).

۞ انْتِشَارُ خَبَرِ إسْلَامِهِ ﷺ:

رَوَىٰ ابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ والإمَامُ أَحْمَدُ في فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ بِسَنَدٍ قَوِيٍّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا أَسْلَمَ أَبِي عُمَرُ ﷺ، لَمْ تَعْلَمْ قُرَيْشٌ بِإسْلَامِهِ، فَقَالَ: أَيُّ قُرَيْشٍ أَنْقَلُ لِلْحَدِيثِ؟ قَالَ: قِيلَ لَهُ: جَمِيلُ بنُ مَعْمَرٍ الجُمَحِيُّ(3)، قَالَ: فَغَدَا عَلَيْهِ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ: وَغَدَوْتُ أَتْبَعُ أَثَرَهُ، أَنْظُرُ مَا يَفْعَلُ، وأَنَا غُلَامٌ، أَعْقِلُ كُلَّ مَا رَأَيْتُ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَمَا عَلِمْتَ يَا جَمِيلُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، ودَخَلْتُ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: فَوَاللهِ مَا رَاجَعَهُ حَتَّىٰ قَامَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ، وأَتْبَعُهُ عُمَرُ، واتَّبَعْتُ أَبِي، حَتَّىٰ إذَا قَامَ عَلَىٰ بَابِ المَسْجِدِ صَرَخَ بِأَعْلَىٰ

(1) انظر البداية والنهاية (٣/٨٩) - وفتح الباري (٧/٥٧١).

(2) انظر الطبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (٣/١٤٣).

(3) هو جميلُ بنُ معمرِ بنِ حبيبِ الجُمَحِيُّ، وكان لا يكتُمُ ما استُودِعه مِن سِرٍّ، وخبره في ذلكَ مع عمر بن الخطاب ﷺ مشهورٌ لمَّا أسلم عمر، أسلمَ جميلٌ عام الفتح، وكان مُسِنًّا وشهدَ مع رَسُول اللهِ ﷺ حُنَينًا، ومات في خلافةِ عُمر، وحزنَ عليهِ عُمر حُزنًا شديدًا.

صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! ـوَهُمْ فِي أَنْدِيَتِهِمْ حَوْلَ الكَعْبَةِ ـ، أَلَا إِنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ قَدْ صَبَأَ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ مِنْ خَلْفِهِ: كَذَبَ، ولَكِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَثَارُوا إِلَيْهِ، فَمَا بَرِحَ يُقَاتِلُهُمْ ويُقَاتِلُونَهُ حَتَّىٰ قَامَتِ الشَّمْسُ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ، ونَالَ مِنْهُ الْإِعْيَاءُ[1] فَقَعَدَ.

قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ شَيْخٌ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَيْهِ حُلَّةٌ[2] حَتَّىٰ وَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: صَبَأَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: فَمَهْ؟ رَجُلٌ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَمْرًا فَمَاذَا تُرِيدُونَ؟

أَتُرِيدُونَ بَنِي عَدِيِّ بنِ كَعْبٍ يُسْلِمُونَ لَكُمْ صَاحِبَهُمْ هَكَذَا؟ خَلُّوا عَنِ الرَّجُلِ، قَالَ: فَتَرَكُوهُ.

قَالَ ابنُ عُمَرَ: فَقُلْتُ لِأَبِي بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ إِلَىٰ المَدِينَةِ: يَا أَبَتِ! مَنِ الرَّجُلُ الذِي زَجَرَ القَوْمَ عَنْكَ بِمَكَّةَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ، وهُمْ يُقَاتِلُونَكَ؟ فَقَالَ: ذَاكَ العَاصُ بنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ[3].

قَالَ ابنُ هِشَامٍ: حَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ، قَالَ لِعُمَرَ:

---

(١) أي عَجزَ وتَعِبَ. انظر النهاية (٣/٣٠١).

(٢) الحُلَّةُ: واحدةُ الحُلَلِ، وهِيَ بُرودُ اليَمَنِ، ولا تُسمَّىٰ حُلَّة إلا أن تكونَ ثَوبيْنِ منْ جِنْسٍ واحِدٍ. انظر النهاية (١/٤١٥).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب مناقب الصحابة ـ باب وصف إسلام عمر ﷺ ـ رقم الحديث (٦٨٧٩) ـ والإمام أحمد في فضائل الصحابة ـ رقم الحديث (٣٧٢) ـ وأورده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٨٩) ـ وقال: إسناده جيد قَويّ.

يَا أَبَتِ! مَنِ الرَّجُلُ الذِي زَجَرَ القَوْمَ عَنْكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ، وهُمْ يُقَاتِلُونَكَ، جَزَاهُ اللهُ خَيْرًا؟

قَالَ: يَا بُنَيَّ، ذَاكَ العَاصُ بنُ وَائِلٍ، لَا جَزَاهُ اللهُ خَيْرًا[1].

زَحْفُ المُشْرِكِينَ لِقَتْلِ عُمَرَ رضي الله عنه:

ثُمَّ زَحَفَ المُشْرِكُونَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ بَيْتِ عُمَرَ رضي الله عنه يُرِيدُونَ قَتْلَهُ، فَقَدْ رَوَىٰ الْإِمَامُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ فِي الدَّارِ ـ أيْ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ـ خَائِفًا إِذْ جَاءَهُ العَاصُ بنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ أَبُو عَمْرٍو، وَهُوَ مِنْ بَنِي سَهْمٍ، وَهُمْ حُلَفَاؤُنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ لَهُ: مَا بَالُكَ؟ قَالَ: زَعَمَ قَوْمُكَ أَنَّهُمْ سَيَقْتُلُونَنِي أَنْ أَسْلَمْتُ، قَالَ: لَا سَبِيلَ إِلَيْكَ، فَخَرَجَ العَاصُ، فَلَقِيَ النَّاسَ قَدْ سَالَ بِهِمُ الوَادِي، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُونَ؟ فَقَالُوا: نُرِيدُ هَذَا ابْنَ الخَطَّابِ الذِي صَبَأَ، قَالَ: لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ[2]، قَالَ: فَكَرَّ[3] النَّاسُ[4].

عِزَّةُ المُسْلِمِينَ بِإِسْلَامِ عُمَرَ رضي الله عنه:

وَبِإِسْلَامِ عُمَرَ رضي الله عنه عَزَّ الإِسْلَامُ والمُسْلِمُونَ، وصَارُوا يَغْشَوْنَ الكَعْبَةَ

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٨٧).

(٢) في رواية أخرى في الصحيح، قال العاص بن وائل: فأنا له جار.

(٣) كَرَّ: رجَع. انظر لسان العرب (١٢/٦٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ رقم الحديث (٣٨٦٤) (٣٨٦٥).

ويَطُوفُونَ حَوْلَهَا، ويُصَلُّونَ لَا يَخَافُونَ قُرَيْشًا.

رَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﷺ[1].

قَالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: لِمَا كَانَ فِيهِ مِنَ الجَلَدِ والقُوَّةِ في أَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ[2].

ورَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ في فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، والحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: كَانَ إِسْلَامُ عُمَرَ فَتْحًا، وهِجْرَتُهُ نَصْرًا، وإِمَارَتُهُ رَحْمَةً، واللهِ مَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نُصَلِّيَ حَوْلَ البَيْتِ ظَاهِرِينَ حَتَّىٰ أَسْلَمَ عُمَرُ[3].

قَالَ الحَافِظُ في الإِصَابَةِ: ثُمَّ أَسْلَمَ عُمَرُ ﷺ، فَكَانَ إِسْلَامُهُ فَتْحًا عَلَىٰ المُسْلِمِينَ، وفَرَجًا لَهُمْ مِنَ الضِّيقِ[4].

۞ آيَةٌ نَزَلَتْ:

ذَكَرَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْزَلَ فِي عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ، وأَبِي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ ـ رقم الحديث (٣٦٨٤).

(٢) انظر فتح الباري (٧/٤٠٤).

(٣) قُلْتُ: يُرِيدُ ابنُ مَسْعُودٍ ﷺ الضُّعَفَاءَ مِنْهُمْ، وإِلَّا فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وحَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ وأَمْثَالُهُمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مِمَّنْ لَهُ مَنَعَةٌ يُصَلُّونَ عِنْدَ الكَعْبَةِ.
والخبر أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة ـ رقم الحديث (٣٠٧) ـ والحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب النهي عن لبس الديباج والحرير ـ رقم الحديث (٤٥٤٣).

(٤) انظر الإصابة (٤/٤٨٤).

جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ تَعالَىٰ، قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ: والصَّحِيحُ أَنَّ الآيَةَ عَامَّةٌ، يَدْخُلُ فِيهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ[2].

وَقَالَ سَعِيدُ بنُ المُسَيَّبِ، وسَعِيدُ بنُ جُبَيْرٍ رَحِمَهُمَا اللهُ تَعالَىٰ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[3].

قَالَا: إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ حِينَ أَسْلَمَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﷺ، وَكَمُلَ بِهِ الأَرْبَعُونَ.

وَرَدَّ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ ذَلِكَ، وقَالَ: وَفِي هَذَا نَظَرٌ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَدَنِيَّةٌ، وإِسْلَامُ عُمَرَ ﷺ كَانَ بِمَكَّةَ قَبْلَ الهِجْرَةِ إِلَىٰ المَدِينَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ[4].

** ** **

(١) سورة الأنعام آية (١٢٢).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٣٠).

(٣) سورة الأنفال آية (٦٥).

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٤/٨٧).

إغْرَاءَاتُ قُرَيْشٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ

لَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَاضٍ فِي دَعْوَتِهِ، وأَصْحَابُهُ يَزِيدُونَ ويَكْثُرُونَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وأَنَّ كُلَّ مُحَاوَلَاتِهَا فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وَصَرْفِ النَّاسِ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَاعِي اللهِ تَعَالَىٰ قَدْ فَشِلَتْ، رَأَتْ أَنْ تُجَرِّبَ أُسْلُوبًا آخَرَ مِنَ المُفَاوَضَاتِ والإِغْرَاءِ، تَعْرِضُ فِيهِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ المَالَ، أوِ الجَاهَ، أوِ المُلْكَ والسُّلْطَانَ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُ رُبَّمَا يُغْرِيهِ بَرِيقُ هَذِهِ العُرُوضِ.

❁ حِوَارُ عُتْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

رَوَىٰ ابنُ إِسْحَاقَ: أَنَّ عُتْبَةَ بنَ رَبِيعَةَ[1] - وكَانَ سَيِّدًا مُطَاعًا فِي قَوْمِهِ، وكَانَ قَدْ جَاوَزَ الثَّمَانِينَ مِنْ عُمُرِهِ - قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ في نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! أَلَا أَقُومُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا، فَنُعْطِيَهُ أَيَّهَا شَاءَ، ويَكُفَّ عَنَّا؟ فَقَالُوا: بَلَىٰ يَا أَبَا الوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمْهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ رَسُولِ

(١) هو عتبةُ بنُ ربيعةَ بنِ عبدِ شمسٍ، أَبُو الوليدِ، كبيرُ قُرَيشٍ وأحدُ ساداتِهَا في الجاهليةِ، كان مَوصوفًا بالرأيِ، والحِلْمِ، والفضلِ، خَطِيبًا، نافذَ القولِ، نشأَ يتيمًا في حِجْرِ حَرب بن أميّة، أدركَ الإسلامَ، وطَغَىٰ، فشهِدَ بدرًا مع المشركين، وكان ضَخْمَ الجُثَّةِ، عظيمَ الهامةِ، طلبَ خَوْذَةً يلبسُهَا يومَ بدرٍ فلم يجِدْ ما يسَعُ هامَتَهُ، فاعتَجَرَ علىٰ رأسِهِ بثوبٍ لهُ، وقُتلَ في غزوةِ بدرٍ الكبرىٰ كافرًا لعنهُ الله تَعَالَىٰ. انظر كتاب الأعلام للزركلي (٤/٢٠٠).

اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا ابْنَ أخِي! إنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السِّطَةِ[1] فِي العَشِيرَةِ، والمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وإنَّكَ قَدْ أتَيْتَ قَوْمَكَ بِأمْرٍ عَظِيمٍ، فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وسَفَّهْتَ بِهِ أحْلامَهُمْ، وَعِبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ ودِينَهُمْ، وَكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مَضَىٰ مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا، قَالَ: قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُلْ يَا أبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ**»، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! إنْ كُنْتَ إنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأمْرِ مَالًا جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أمْوَالِنَا حَتَّىٰ تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وإنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا، حَتَّىٰ لا نَقْطَعَ أمْرًا دُونَكَ، وإنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا، وإنْ كَانَ هَذَا الذِي يَأْتِيكَ رِئْيًا تَرَاهُ، لا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ، وبَذَلْنَا فِيهِ أمْوَالَنَا حَتَّىٰ نُبْرِئَكَ مِنْهُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَوْلِهِ ورَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أبَا الوَلِيدِ؟**»، قالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَاسْتَمِعْ مِنِّي**»، قَالَ: أفْعَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾[2].

ثُمَّ مَضَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ، أَنْصَتَ لَهَا، وَألْقَىٰ يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ

---

(١) وسَطَ فلانٌ في حَسَبِهِ سِطَةً: أي كانَ مِنْ خِيارِ قَومه نَسَبًا وأرفعِهم مَجْدًا. انظر لسان العرب (١٥/٢٩٦).

(٢) سورة فصلت آية (١ ـ ٥).

إِلَىٰ السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ!»[١].

وفِي رِوَايَةٍ لِلْبَيْهَقِيِّ فِي الدَّلَائِلِ: أَنَّ عُتْبَةَ اسْتَمَعَ حَتَّىٰ وَصَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٢]، فَقَامَ عُتْبَةُ مَذْعُورًا، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ فَمِ الرَّسُولِ ﷺ يُنَاشِدُهُ اللهَ وَالرَّحِمَ أَنْ يَكُفَّ عَنْهُ، وذَلِكَ مَخَافَةَ أَنْ يَقَعَ النَّذِيرُ[٣].

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَنِ النَّدْوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كُلَّ ذَلِكَ فِي هُدُوءٍ وتَأَنٍّ، ثُمَّ رَفَضَهُ فِي غَيْرِ شَكٍّ وتَأْخِيرٍ، ولَمْ يَكُنْ هَذَا العَرْضُ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَىٰ شَخْصِ الرَّسُولِ ﷺ فَحَسْبُ، بَلْ كَانَ عَلَىٰ هَذِهِ الأُمَّةِ التِي يُمَثِّلُهَا ويَقُودُهَا، ولَمْ يَكُنْ رَفْضُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا عَرَضَتْ قُرَيْشٌ، رَفْضًا عَنْ نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ فَقَطْ، بَلْ كَانَ رَفْضًا عَنْ أُمَّتِهِ إِلَىٰ آخِرِ الأَبَدِ... فَاقْتَنَعَتْ قُرَيْشٌ بِهَذِهِ المُحَاوَرَةِ، ويَئِسَتْ مِنْ مُسَاوَمَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ، ولَمْ تَعُدْ تَعْرِضُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُبَاشَرَةً، وَعَلَىٰ هَذِهِ الأُمَّةِ بِوَاسِطَةٍ مَا عَرَضَتْهُ مِنْ قَبْلُ، وقَطَعَتْ مِنْهَا أَمَلَهَا[٤].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٣٠) ـ الرَّوْض الأُنُف (٢/٤٧).

(٢) سورة فصلت آية (١٣).

(٣) انظر دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٠٤ ـ ٢٠٥).

(٤) انظر كتاب إلىٰ الإسلام من جديد لأبي الحسن النَّدْوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ١٣.

❁ مَا أَشَارَ بِهِ عُتْبَةُ عَلَىٰ قُرَيْشٍ:

فَلَمَّا سَمِعَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ مَا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَامَ، وَرَجَعَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْلِفُ بِاللهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الذِي ذَهَبَ بِهِ، فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ، قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الوَلِيدِ؟ فَقَالَ لَهُمْ: ورَائِي أَنِّي سَمِعْتُ قَوْلًا، وَاللهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، ومَا دَرَيْتُ مَا أَرُدُّ عَلَيْهِ، وَاللهِ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ، وَلَا بِالسِّحْرِ، وَلَا بِالْكَهَانَةِ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! أَطِيعُونِي واجْعَلُوهَا بِي، وفِي رِوَايَةٍ: أَطِيعُونِي فِي هَذَا اليَوْمِ وَاعْصُونِي فِيمَا بَعْدَهُ، وخَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ، فَاعْتَزِلُوهُ، فَوَاللهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ العَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وإِنْ يَظْهَرْ عَلَىٰ العَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ، قَالُوا: سَحَرَكَ وَاللهِ يَا أَبَا الوَلِيدِ بِلِسَانِهِ، قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ[1].

❁ تَصْوِيرٌ لِمَوْقِفِ قُرَيْشٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

قَالَ الشَّيْخُ عَلِي الطَّنْطَاوِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ وهُوَ يُصَوِّرُ مَوْقِفَ قُرَيْشٍ مِنْ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِقُرَيْشٍ: افْتَحُوا لِيَ الطَّرِيقَ لِأَخْرُجَ إِلَىٰ الأَرْضِ الفَضَاءِ، فَأَنْصُرَ الضَّعِيفَ، وأُنْجِدَ المَظْلُومَ، وأُعِيدَ

(١) أخرج قصَّة إرسالِ قريشٍ عُتبة بن ربيعة إلىٰ رَسُول اللهِ ﷺ ليحاوره: ابن إسحاق في السيرة (١/٣٣٠) - والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٠٤ - ٢٠٥) - وحسن إسنادها الألباني في تحقيقه لفقه السيرة للشيخ محمد الغزالي.

لِلْبَشَرِيَّةِ كَرَامَتَهَا، ولِلْعَقْلِ سُلْطَانَهُ، قَالُوا: لَا.

قَالَ: افْسَحُوا لِرِسَالَتِي لِتَنْطَلِقَ فِي الزَّمَانِ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لِبَلَدٍ وَاحِدٍ، وَلَا لِيَوْمٍ وَاحِدٍ، قَالُوا: لَا! وَلَكِنْ تَعَالَ نُمَلِّكْكَ إِنْ شِئْتَ عَلَيْنَا، ونَمْنَحَكَ أَمْوَالَنَا ونَجْعَلَكَ سَيِّدَ هذَا البَلَدِ كُلِّهِ.

وسَخِرَ التَّارِيخُ مِنْ قُرَيْشٍ... يَدْعُوهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ لِيُعْطِيَهُمْ سِيَادَةَ الْأَرْضِ، وزَعَامَةَ الدُّنْيَا، ويَضَعَ فِي أَيْدِيهِمْ مَفَاتِيحَ الكُنُوزِ: كُنُوزَ المَالِ، وكُنُوزَ العِلْمِ، ويَمْنَحَهُمْ مَا يَمْلِكُ كِسْرَىٰ وقَيْصَرُ، وهُمْ يَدْعُونَهُ لِيُعْطُوهُ إِمَارَةَ هَذِهِ القَرْيَةِ، النَّائِمَةِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، ورَاءَ رِمَالِ الصَّحْرَاءِ(١).

** ** **

(١) انظر كتاب رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ١٣.

تَعَنُّتُ قُرَيْشٍ وَطَلَبُهُمُ الآيَاتِ وَالمُعْجِزَاتِ

وهَكَذَا لَمْ تُفْلِحْ طُرُقُ الإِغْرَاءِ، ولَا الْإِرْهَابِ فِي كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ دَعْوَتِهِ فَهُنَا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تَطْلُبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ الخَوَارِقَ، والمُعْجِزَاتِ المَادِيَّةَ والحِسِّيَّةَ.

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ حَدِيثَ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وإِغْرَاءَاتِهِمْ لَهُ، قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! فَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ مِنَّا شَيْئًا مِمَّا عَرَضْنَاهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَضْيَقَ بَلَدًا، ولَا أَقَلَّ مَاءً، وَلَا أَشَدَّ عَيْشًا مِنَّا، فَسَلْ لَنَا رَبَّكَ الذِي بَعَثَكَ بِمَا بَعَثَكَ بِهِ، فَلْيُسَيِّرْ عَنَّا هَذِهِ الجِبَالَ التِي قَدْ ضَيَّقَتْ عَلَيْنَا، ولْيَبْسُطْ لَنَا بِلَادَنَا، ولْيُفَجِّرْ لَنَا فِيهَا أَنْهَارًا كَأَنْهَارِ الشَّامِ والعِرَاقِ، ولْيَبْعَثْ لَنَا مَنْ مَضَىٰ مِنْ آبَائِنَا، ولْيَكُنْ فِيمَنْ يَبْعَثُ لَنَا مِنْهُمْ: قُصَيَّ بنَ كِلَابٍ، فَإِنَّهُ كَانَ شَيْخَ صِدْقٍ، فَنَسْأَلَهُمْ عَمَّا تَقُولُ: أَحَقٌّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ، فَإِنْ صَدَّقَكَ وَصَنَعْتَ مَا سَأَلْنَاكَ صَدَّقْنَاكَ، وعَرَفْنَا بِهِ مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللهِ، وأَنَّهُ بَعَثَكَ رَسُولًا كَمَا تَقُولُ، فَقَالَ لَهُمْ ﷺ: **«مَا بِهَذَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ، إِنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنَ اللهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ، وقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، فإِنْ تَقْبَلُوهُ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرُ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي**

وبَيْنَكُمْ»، قَالُوا: فَإِذَا لَمْ تَفْعَلْ هَذَا لَنَا، فَخُذْ لِنَفْسِكَ، سَلْ رَبَّكَ أَنْ يَبْعَثَ مَعَكَ مَلَكًا يُصَدِّقُكَ بِمَا تَقُولُ، ويُرَاجِعُنَا عَنْكَ، وسَلْهُ فَلْيَجْعَلْ لَكَ جِنَانًا وقُصُورًا وكُنُوزًا مِنْ ذَهَبٍ وفِضَّةٍ، يُغْنِيكَ بِهَا عَمَّا نَرَاكَ تَبْتَغِي، فإِنَّكَ تَقُومُ بِالْأَسْوَاقِ كَمَا نَقُومُ، وتَلْتَمِسُ المَعَاشَ كمَا نَلْتَمِسُ، حتَّىٰ نَعْرِفَ فَضْلَكَ ومَنْزِلَتَكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولًا كمَا تَزْعُمُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، ومَا أَنَا بِالذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا[١]، وما بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ بِهَذَا، ولَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي بَشِيرًا ونَذِيرًا، فإِنْ تَقْبَلُوا مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرُ لِأَمْرِ اللهِ، حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ»**.

قَالُوا: فأَسْقِطِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا كِسَفًا[٢]، كَمَا زَعَمْتَ أَنَّ رَبَّكَ إِنْ شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّا لا نُؤْمِنُ لَكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«ذَلِكَ إِلَىٰ اللهِ، إِنْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَهُ بِكُمْ فَعَلَ»**.

قَالُوا: يا مُحَمَّدُ، أَفَمَا عَلِمَ رَبُّكَ أَنَّا سَنَجْلِسُ مَعَكَ، ونَسْأَلُكَ عَمَّا سَأَلْنَاكَ عَنْهُ، ونَطْلُبُ مِنْكَ مَا نَطْلُبُ، فَيَتَقَدَّمَ إِلَيْكَ فَيُعْلِمَكَ مَا تُرَاجِعُنَا بِهِ، ويُخْبِرَكَ مَا هُوَ صَانِعٌ فِي ذَلِكَ بِنَا، إِذَا لَمْ نَقْبَلْ مِنْكَ مَا جِئْتَنَا بِهِ؟.

إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكَ إِنَّمَا يُعَلِّمُكَ هَذَا رَجُلٌ بِاليَمَامَةِ، يُقَالُ لَهُ: الرَّحْمَنُ، وإِنَّا

---

(١) قال الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه السِّيرة النَّبويَّة (٣١٦/١): لأنه لا يسألُ هذا إلا من جَهِلَ رسالتَهُ، وجهِلَ سُنَنَ ربهِ، ورَسُول اللهِ ﷺ بريءٌ منهما.

(٢) قال ابن هشام في السيرة (٣٤٧/١): الكِسَفُ: القِطَعُ منَ العَذابِ، وواحدتُهُ: كِسْفَةٌ.

وَاللهِ لَا نُؤْمِنُ بالرَّحْمَنِ أَبَدًا، فَقَدْ أَعْذَرْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ!.

وإِنَّا وَاللهِ لَا نَتْرُكُكَ، ومَا بَلَغْتَ مِنَّا حَتَّىٰ نُهْلِكَكَ أَوْ تُهْلِكَنَا، وقَالَ قَائِلُهُمْ: نَحْنُ نَعْبُدُ المَلَائِكَةَ، وهِيَ بَنَاتُ اللهِ، وقَالَ آخَرُ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا بِاللهِ وَالمَلَائِكَةِ قَبِيلًا[1].

❁ مَقَالَةُ عَبْدِ اللهِ بنِ أَبِي أُمَيَّةَ المَخْزُومِيِّ[2]:

فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، قَامَ عَنْهُمْ، وقَامَ مَعَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ بنِ المُغِيرَةِ المَخْزُومِيُّ ـ وهُوَ ابنُ عَمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ عَاتِكَةَ بِنْتِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ـ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، عَرَضَ عَلَيْكَ قَوْمُكَ مَا عَرَضُوا فَلَمْ تَقْبَلْهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ لِأَنْفُسِهِمْ أُمُورًا لِيَعْرِفُوا بِهَا مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللهِ فَلَمْ تَفْعَلْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تَأْخُذَ لِنَفْسِكَ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ فَضْلَكَ عَلَيْهِمْ، ومَنْزِلَتَكَ مِنَ اللهِ، فَلَمْ تَفْعَلْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تُعَجِّلَ لَهُمْ بَعْضَ مَا تُخَوِّفُهُمْ بِهِ مِنَ العَذَابِ، فَلَمْ تَفْعَلْ، فَوَاللهِ لَا أُؤْمِنُ بِكَ أَبَدًا حَتَّىٰ تَتَّخِذَ إِلَىٰ السَّمَاءِ سُلَّمًا، ثُمَّ تَرْقَىٰ فِيهِ، وأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهَا، وتَأْتِيَ مَعَكَ بِنُسْخَةٍ مَنْشُورَةٍ، ثُمَّ تَأْتِيَ مَعَكَ أَرْبَعَةٌ مِنَ المَلَائِكَةِ يَشْهَدُونَ لَكَ أَنَّكَ كَمَا تَقُولُ، وأَيْمُ اللهِ، لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ مَا ظَنَنْتُ أَنِّي أُصَدِّقُكَ، ثُمَّ انْصَرَفَ

---

(١) قال ابن هشام في السيرة (١/٣٤٧): القبيلُ: يكونُ مُقابلةً ومُعاينةً، وهو كقوله تعَالَىٰ في سورة الكهف آية (٥٥): ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي عيانًا ـ والخبر في سيرة ابن هشام (١/٣٣٣ ـ ٣٣٤).

(٢) أسلمَ ﷺ في فتحِ مكةَ وحسُن إسلامه.

عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ أَهْلِهِ حَزِينًا آسِفًا مِمَّا فَاتَهُ، مِمَّا كَانَ يَطْمَعُ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ حِينَ دَعَوْهُ، وَلِمَا رَأَىٰ مِنْ مُبَاعَدَتِهِمْ إِيَّاهُ(١).

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: فَدَعَا رَسُول اللهِ ﷺ قَوْمَهُ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، وَكَلَّمَهُمْ، فَأَبْلَغَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ لَهُ زَمْعَةُ بنُ الأَسْوَدِ، والنَّضْرُ بنُ الحَارِثِ، والأَسْوَدُ بنُ عَبْدِ يَغُوثَ، وأُبَيُّ بنُ خَلَفٍ، والعَاصُ بنُ وَائِلٍ: لَوْ جُعِلَ مَعَكَ يَا مُحَمَّدُ مَلَكٌ يُحَدِّثُ عَنْكَ النَّاسَ وَيُرَىٰ مَعَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(٢).

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: وأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ فِيمَا سَأَلَهُ قَوْمُهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ تَسْيِيرِ الجِبَالِ، وتَقْطِيعَ الأَرْضِ، وبَعْثِ مَنْ مَضَىٰ مِنْ آبَائِهِمْ مِنَ المَوْتَىٰ، قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾(٣).

وأَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ فِي قَوْلِهِمْ: خُذْ لِنَفْسِكَ، مَا سَأَلُوهُ أَنْ يَأْخُذَ لِنَفْسِهِ، أَنْ يَجْعَلَ لَهُ جِنَانًا وقُصُورًا وكُنُوزًا، ويَبْعَثَ مَعَهُ مَلَكًا يُصَدِّقُهُ بِمَا يَقُولُ ويَرُدُّ عَنْهُ، قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٣٤ - ٣٣٥).

(٢) سورة الأنعام آية (٨ - ٩).

(٣) سورة الرعد آية (٣١) - والخبر في سيرة ابن هشام (١/٣٤٥).

ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾[1].

وأَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِمْ، قَوْلَهُ تَعالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ[2] وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[3]، أيْ: جَعَلْتُ بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ بَلاءً لِتَصْبِرُوا، ولَوْ شِئْتُ أنْ أجْعَلَ الدُّنْيَا مَعَ رُسُلِي فَلا يُخالِفُوا لَفَعَلْتُ.

وأَنْزَلَ اللهُ تَعالَىٰ فِيمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ

---

(١) سورة الفرقان آية (٧ ـ ١٠) ـ والخبر في سيرة ابن هشام (١/٣٤٦).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/١٠٠): يقول الله تَعالَىٰ مُخبرًا عن جميعَ من بَعَثَهُ من الرُّسل المتقدمينَ: أنهم كانوا يأكُلون الطعامَ، ويحتاجُون إلىٰ التَّغَذِّي به ﴿وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي: للتكَسُّبِ والتجارَةِ، وليسَ ذلك بمُنَافٍ لحالِهم ومَنْصبهم، فإنَّ الله جعل لهم من السِّمات الحسنةِ، والصِّفاتِ الجميلةِ، والأقوالِ الفاضلةِ، والأعمالِ الكاملةِ، والخوارقِ البَاهِرةِ، والأدلَّة القاهِرَة، ما يَستدلُّ به كل ذِي لُبٍّ سَليم، وبصيرةٍ مُسْتقيمة، علىٰ صِدْق ما جاؤُوا به منَ الله عَزَّ وَجَلَّ.

(٣) سورة الفرقان آية (٢٠) ـ والخبر في سيرة ابن هشام (١/٣٤٦).

خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1].

وأَنْزَلَ اللهُ تَعالَىٰ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ فِي قَوْلِهِمْ: إنَّا قَدْ بَلَغَنا أَنَّكَ إنَّما يُعَلِّمُكَ رَجُلٌ بِاليَمامَةِ، يُقالُ لَهُ: الرَّحْمَنُ، ولَنْ نُؤْمِنَ بِهِ أَبدًا: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[2].

۞ الحِكْمَةُ فِي أَنَّهُمْ لَمْ يُجابُوا لِما طَلَبُوا:

رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ، والحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا، وأَنْ يُنَحِّيَ الجِبالَ عَنْهُمْ، فَيَزْرَعُوا، فَقِيلَ لَهُ - أَيِ النَّبِيِّ ﷺ -: إنْ شِئْتَ أَنْ تَسْتَأْنِيَ بِهِمْ، وإنْ شِئْتَ أَنْ نُؤْتِيَهُمُ الذِي سَأَلُوا، فإنْ كَفَرُوا أُهْلِكُوا كَمَا أَهْلَكْتُ مَنْ قَبْلَهُمْ، فَقالَ ﷺ: «لَا، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[3].

---

(١) سورة الإسراء آية (٩٠ - ٩٣)، والخبر في سيرة ابن هشام (١/٣٤٦).

(٢) سورة الرعد آية (٢٠)، والخبر في سيرة ابن هشام (١/٣٤٨).

(٣) سورة الإسراء آية (٥٩) - والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث=

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: ولِهَذَا اقْتَضَتِ الحِكْمَةُ الإِلَهِيَّةُ، والرَّحْمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ، أَلَّا يُجَابُوا إِلَىٰ مَا سَأَلُوا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَلِمَ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ فَيُعَاجِلَهُمْ بِالعَذَابِ[1].

وقَالَ الدُّكْتُور مُحَمَّد أَبُو شَهْبَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: واللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ لَمْ يُجِبْهُمْ عَلَىٰ مَا سَأَلُوا ـ وهُوَ القَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ـ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا مُسْتَرْشِدِينَ وجَادِّينَ، وإِنَّمَا سَأَلُوا مُتَعَنِّتِينَ ومُسْتَهْزِئِينَ، وقَدْ عَلِمَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ أَنَّهُمْ لَوْ عَايَنُوا وشَاهَدُوا مَا طَلَبُوا لَمَا آمَنُوا، ولَظَلُّوا فِي غَيِّهِمْ، وضَلالِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[2].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[3].

= (٢٣٣٣) ـ وأخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب التفسير ـ باب سأل أهل مكة أن تتنحىٰ عنهم الجبال ـ رقم الحديث (٣٤٣١).

(١) انظر البداية والنهاية (٣/٥٧).

(٢) سورة الأنعام آية (١٠٩ ـ ١١١).

(٣) سورة الأنعام آية (٧).

وَلِهَذَا اقْتَضَتِ الحِكْمَةُ الإِلَهِيَّةُ، والرَّحْمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ أَلَّا يُجَابُو عَلَىٰ مَا سَأَلُوا، لِأَنَّ سُنَّتَهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ أَنَّهُ إذَا طَلَبَ قَوْمٌ آيَاتٍ فَأُجِيبُوا، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا عَذَّبَهُمْ عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ، كَمَا فَعَلَ بِعَادٍ، وثَمُودَ، وقَوْمِ فِرْعَوْنَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[1].

فَلَوْ أُعْطِيَتْ قُرَيْشٌ مَا سَأَلُوا مِنَ الآيَاتِ الحِسِّيَّةِ التِي اقْتَرَحُوهَا ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا لَأُهْلِكُوا، ولَكِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ ـ رَفَعَ عَنْ هَذِهِ الأُمَّةِ عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ بِفَضْلِ نَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَدْ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَىٰ رَحْمَةً، وَلَمْ يَبْعَثْهُ نِقْمَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

وَلِهَذَا قِيلَ:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... كَانَتْ بَدَاهَتُهُ تُنْبِيكَ بِالخَبَرِ

رَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ يا رَسُولَ اللهِ! ادْعُ عَلَىٰ المُشْرِكِينَ، فَقَالَ ﷺ: **«إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»**[3].

---

(١) سورة الإسراء آية (٥٩).

(٢) سورة الأنبياء آية (١٠٧) ـ وانظر كلام الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه السِّيرة النَّبويَّة (٣١٩/١ ـ ٣٢٠).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب البر والصلة والآداب ـ باب النهي عن لعن الدواب وغيرها ـ رقم الحديث (٢٥٩٩).

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الإِمَامِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُصْبِحْ لَنَا الصَّفَا ذَهَبًا، فَإِنْ أَصْبَحَتْ ذَهبًا اتَّبَعْنَاكَ، وعَرَفْنَا أَنَّ مَا قُلْتَ كَمَا قُلْتَ، فَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَتْ لَهُمْ هَذِهِ الصَّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، وإِنْ شِئْتَ، فَتَحْنَا لَهُمْ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَا رَبِّ، لَا، بَلِ افْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ»**(١).

۞ القُرْآنُ مُعْجِزَةُ المُعْجِزَاتِ:

وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ القَوْمَ كَانُوا مُتَعَنِّتِينَ وسَاخِرِينَ، ومُعَوِّقِينَ لَا جَادِّينَ مِنْ أَنَّ عِنْدَهُمُ القُرْآنُ، وهُوَ آيَةُ الآيَاتِ، وبَيِّنَةُ البَيِّنَاتِ.

قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ: وأَوْجُهُ إِعْجَازِ القُرْآنِ كَثِيرَةٌ، فَمِنْهَا:

١ ـ حُسْنُ تَأْلِيفِهِ وَالْتِئَامِ كَلِمِهِ مَعَ الإِيجَازِ والبَلَاغَةِ.

٢ ـ ومِنْهَا صُورَةُ سِيَاقِهِ وأُسْلُوبِهِ المُخَالِفِ لِأَسَالِيبِ كَلَامِ أَهْلِ البَلَاغَةِ مِنَ العَرَبِ نَظْمًا ونَثْرًا حَتَّىٰ حَارَتْ فِيهِ عُقُولُهُمْ، ولَمْ يَهْتَدُوا إِلَىٰ الإِتْيَانِ بِشَيْءٍ مِثْلِهِ مَعَ تَوَفُّرِ دَوَاعِيهِمْ عَلَىٰ تَحْصِيلِ ذَلِكَ، وتَقْرِيعِهِ لَهُمْ عَلَىٰ العَجْزِ عَنْهُ.

٣ ـ ومِنْهَا مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الأَخْبَارِ عَمَّا مَضَىٰ مِنْ أَحْوَالِ الأُمَمِ السَّالِفَةِ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٣٢٢٣).

والشَّرَائِعِ الدَّائِرَةِ مِمَّا كَانَ لَا يُعْلَمُ مِنْهُ بَعْضُهُ إِلَّا النَّادِرُ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ.

٤ ـ ومِنْهَا الإِخْبَارُ بِمَا سَيَأْتِي مِنَ الكَوَائِنِ التِي وَقَعَ بَعْضُهَا فِي العَصْرِ النَّبَوِيِّ، وبَعْضُهَا بَعْدَهُ.

٥ ـ ومِنْهَا الرَّوْعَةُ التِي تَحْصُلُ لِسَامِعِهِ.

٦ ـ ومِنْهَا أَنَّ قَارِئَهُ لَا يَمَلُّ مِنْ تَرْدَادِهِ، وسَامِعَهُ لَا يَمُجُّهُ، ولا يَزْدَادُ بِكَثْرَةِ التَّكْرَارِ إِلَّا طَرَاوَةً وَلَذَاذَةً.

٧ ـ ومِنْهَا أَنَّهُ آيَةٌ بَاقِيَةٌ لَا تُعْدَمُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا.

٨ ـ ومِنْهَا جَمْعُهُ لِعُلُومٍ، وَمَعَارِفَ لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهَا وَلَا تَنْتَهِي فَوَائِدُهَا[1].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2].

** ** **

(١) انظر فتح الباري (١٠/٩).

(٢) سورة العنكبوت آية (٥٠ ـ ٥٢).

الهِجْرَةُ الثَّانِيَةُ إلَى الحَبَشَةِ

هُنَا عَادَتْ قُرَيْشٌ إِلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ التَّنْكِيلِ والِاضْطِهَادِ كَأَشَدِّ مَا كَانَتْ، وأغْرَتْ سَائِرَ القَبَائِلِ بِمُضَاعَفَةِ الأَذَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ، فَسَطَتْ[1] بِهِمْ عَشَائِرُهُمْ ولَقُوا مِنْهُمْ أذًىٰ شَدِيدًا، حَتَّىٰ بَلَغَ الجَهْدُ واشْتَدَّ عَلَيْهِمُ البَلَاءُ، فَلَمَّا رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَصَابَ أَصْحَابَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مِنَ البَلَاءِ أَذِنَ لَهُمْ بِالهِجْرَةِ إِلَىٰ الحَبَشَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً.

وكانَتِ الهِجْرَةُ الثَّانِيَةُ أَشَقَّ مِنْ سَابِقَتِهَا، ولَقِيَ المُسْلِمُونَ مِنْ قُرَيْشٍ تَعَنِيفًا شَدِيدًا، ونَالُوهُمْ بِالأَذَىٰ.

۞ الشَّكُّ فِي هِجْرَةِ عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ رضي الله عنه:

وكَانَ عِدَّةُ مَنْ خَرَجَ فِي هَذِهِ الهِجْرَةِ مِنَ الرِّجَالِ: ثَلَاثَةٌ وثَمَانُونَ رَجُلًا - إِنْ كَانَ فِيهِمْ عَمَّارُ بنُ يَاسِرٍ رضي الله عنه - فَإِنَّهُ يُشَكُّ فِيهِ، واثْنَانِ وثَمَانُونَ رَجُلًا إِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ[2].

قَالَ الإِمَامُ السُّهَيْلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وشَكَّ ابنُ إِسْحَاقَ فِي عَمَّارِ بنِ

---

(١) السطو: القهر بالبطش. انظر لسان العرب (٦/٢٦٠).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٦٨).

يَاسِرٍ ﵁: هَلْ هَاجَرَ إِلَىٰ الحَبَشَةِ أَمْ لَا ؟

والأَصَحُّ عِنْدَ أَهْلِ السِّيَرِ كَالْوَاقِدِيِّ وابْنِ عُقْبَةَ، وغَيْرِهِمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ[1].

ومِنَ النِّسَاءِ ثَمَانِي عَشْرَةَ امْرَأَةً: إِحْدَىٰ عَشْرَةَ قُرَشِيَّاتٍ، وسَبْعٌ غَيْرُ قُرَشِيَّاتٍ، وذَلِكَ عَدَا أَبْنَائِهِمُ الذِينَ وُلِدُوا لَهُمْ فِي الحَبَشَةِ[2].

وكَانَ أَمِيرُهُمْ فِي هَذِهِ الهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ ﵁[3].

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَنِ النَّدْوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: واسْتِعْرَاضُ قَائِمَةِ المُهَاجِرِينَ يَدُلُّ عَلَىٰ سَعَةِ الدَّائِرَةِ البَشَرِيَّةِ، وتَنَوُّعِهَا، وشُمُولِهَا لِلطَّبَقَاتِ والمُسْتَوَيَاتِ فِي المُجْتَمَعِ المَكِّيِّ، فَفِيهَا الغَنِيُّ والفَقِيرُ، والكَهْلُ والشَّابُّ، والرِّجَالُ والنِّسَاءُ، ويَنْتَمِي أَغْلَبُهُمْ إِلَىٰ أُسْرَةٍ مَكِّيَّةٍ عَرِيقَةٍ، فَدَلَّ عَلَىٰ شِدَّةِ تَأْثِيرِ الدَّعْوَةِ وقُوَّتِهَا وشُمُولِهَا[4].

۞ وَهْمُ ابنِ إِسْحَاقَ وغَيْرِهِ:

قُلْتُ: وَقَعَ فِي رِوَايَةِ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ[5]، ....

(١) انظر الرَّوْض الأُنُف (٢/٩٩).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٦٨).

(٣) انظر طبقات ابن سعد (٤/٣٣٦).

(٤) انظر كتاب السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدْوي ص ١٣٢.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٤٤٠٠) ـ وإسناده ضعيف، فيه حُدَيْج بن معاوية، وهو ضعيف، ومع ذلك حسن إسناده الحافظ في الفتح (٧/٥٨٥) ـ وجوده إسناده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٧٦).

وابْنِ إسْحَاقَ[١]، والطَّيَالِسِيِّ فِي مُسْنَدِهِ[٢]، أنَّ فِي هَذِهِ الهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ لِلْحَبَشَةِ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ رضي الله عنه، وَعَبْدَ اللهِ بنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، وجَمَاعَةً مِمَّنْ شَهِدُوا بَدْرًا، وهَذَا فِيهِ نَظَرٌ.

قَالَ الإمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: قَدْ ذُكِرَ فِي هَذِهِ الهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ رضي الله عنه، وجَمَاعَةٌ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، فَإِمَّا أنْ يَكُونَ هَذَا وَهْمًا، وإمَّا أنْ يَكُونَ لَهُمْ قَدْمَةٌ أُخْرَىٰ قَبْلَ بَدْرٍ، فَيَكُونُ لَهُمْ ثَلَاثُ قَدَمَاتٍ: قَدْمَةٌ قَبْلَ الهِجْرَةِ، وقَدْمَةٌ قَبْلَ بَدْرٍ، وقَدْمَةٌ عَامَ خَيْبَرَ، ولِذَلِكَ قَالَ ابنُ سَعْدٍ، وغَيْرُهُ: إنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا مُهَاجَرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلَىٰ المَدِينَةِ، رَجَعَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ وثَلَاثُونَ رَجُلًا، ومِنَ النِّسَاءِ ثَمَانُ نِسْوَةٍ، فمَاتَ مِنْهُمْ رَجُلَانِ بِمَكَّةَ، وَحُبِسَ بِمَكَّةَ سَبْعَةٌ، وشَهِدَ بَدْرًا مِنْهُمْ أرْبَعَةٌ وعِشْرُونَ رَجُلًا[٣].

۞ وَهْمٌ آخَرُ لِابْنِ إسْحَاقَ وَغَيْرِهِ:

قُلْتُ: وَقَعَ أيْضًا فِي رِوَايَةِ الإمَامِ أحْمَدَ في مُسْنَدِهِ[٤]، وابْنِ إسْحَاقَ[٥]،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٦٠) بدون سند.

(٢) أخرجه الطيالسي في مسنده ـ رقم الحديث (٣٤٤) ـ وإسناده ضعيف، لضعف حُدَيْج بن معاوية.

(٣) انظر زاد المعاد (٣/٢٣).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٤٤٠٠) ـ والطيالسي في مسنده ـ رقم الحديث (٣٤٤) ـ وإسناده ضعيف لضعف حُدَيْج بن معاوية، ومع ذلك حسن إسناده الحافظ في الفتح (٧/٥٨٥)، وجود إسناده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٧٦).

(٥) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٦١) بدون سند.

والبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ[1] أَنَّ أبَا مُوسَىٰ الأشْعَرِيَّ ﷺ فِيمَنْ هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ إلَىٰ الحبَشَةِ.

قَالَ البَيْهَقِيُّ: وظَاهِرُهُ يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ أبَا مُوسَىٰ كَانَ بِمَكَّةَ، وأَنَّهُ خَرَجَ مَعَ جَعْفَرِ بنِ أَبِي طَالِبٍ إلَىٰ أَرْضِ الحَبَشَةِ.

والصَّحِيحُ مَا رَوَاهُ الإمَامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ ﷺ قَالَ: بَلَغَنَا مَخْرَجُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ونَحْنُ بِالْيَمَنِ فَخَرَجْنَا فَأَلْقَتْنَا سَفِينَتُنَا إلَىٰ النَّجَاشِيِّ بالحبَشَةِ فَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بنَ أَبِي طَالِبٍ فأَقَمْنَا مَعَهُ حَتَّىٰ قَدِمْنَا فَوَافَقْنَا النَّبِيَّ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ[2].

وَتَكَلَّفَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ[3] الْجَمْعَ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ[4]، وَالْأَجْوَدُ أَنْ يُقَالَ: هَذِهِ الرِّوَايَةُ ضَعِيفَةٌ لَا تُعَارِضُ الرِّوَايَةَ الصَّحِيحَةَ التِي رَوَاهَا البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ.

۞ مَوْتُ خَالِدِ بْنِ حِزَامٍ ﷺ:

وَفِي طَرِيقِ الْهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ إِلَى الْحَبَشَةِ، مَاتَ خَالِدُ بنُ حِزَامٍ ﷺ، مِنْ حَيَّةٍ نَهَشَتْهُ[5]، فَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ الزُّبَيْرِ بنِ الْعَوَّامِ ﷺ

(١) أخرج ذلك البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٩٨) ـ وإسناده ضعيف، لضعف حُديج بن معاوية.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب هجرة الحبشة ـ رقم الحديث (٣٨٧٦) ـ انظر كلام البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٠٠).

(٣) انظر فتح الباري (٧/٥٨٥).

(٤) أعني الرواية الضعيفة التي رواها الإمام أحمد ـ رقم الحديث (٤٤٠٠) ـ والطيالسي ـ رقم الحديث (٤٤٣) ـ وابن إسحاق في السيرة (١/٣٦١) ـ والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٠٠) ـ ورواية الإمام البخاري في صحيحه.

(٥) نهشته: أي لسعته. انظر لسان العرب (١٤/٣٠٦).

قَالَ: هَاجَرَ خَالِدُ بنُ حِزَامٍ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَنَهَشَتْهُ حَيَّةٌ فِي الطَّرِيقِ فَمَاتَ، فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[١].

قَالَ الزُّبَيْرُ ﷺ: وَكُنْتُ أَتَوَقَّعُهُ، وَأَنْتَظِرُ قُدُومَهُ وَأَنَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَمَا أَحْزَنَنِي شَيْءٌ حُزْنَ وَفَاتِهِ حِينَ بَلَغَنِي، لِأَنَّهُ قَلَّ أَحَدٌ مِمَّنْ هَاجَرَ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا مَعَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ، أَوْ ذَوِي رَحِمِهِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعِي أَحَدٌ مِنْ بَنِي أَسَدِ بنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَلَا أَرْجُو غَيْرَهُ[٢].

قَالَ الْحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ: وَهَذَا الْأَثَرُ غَرِيبٌ جِدًّا، فَإِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ مَكِّيَّةٌ، وَنُزُولُ هَذِهِ الْآيَةِ مَدَنِيَّةٌ، فَلَعَلَّهُ أَرَادَ أَنَّهَا أُنْزِلَتْ تَعُمُّ حُكْمَهُ مَعَ غَيْرِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ سَبَبَ النُّزُولِ، وَاللهُ أَعْلَمُ[٣].

❁ نُبْذَةٌ عَنْ خَالِدِ بْنِ حِزَامٍ ﷺ:

وَخَالِدُ بنُ حِزَامٍ ﷺ، أَخُو حَكِيمِ بنِ حِزَامٍ ﷺ، وَابْنُ أَخِي خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَسْلَمَ قَدِيمًا، وَهَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ الهِجْرَةَ الثَّانِيَةَ، فَنَهَشَتْهُ حَيَّةٌ، فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ[٤].

---

(١) سورة النساء، آية (١٠٠) ـ قلت: المشهور أن هذه الآية نزلت في جُندب بن ضَمرة ﷺ، وهو الذي رجحه الحافظ في الإصابة (١٦٩/٢) ـ وبه جزم ابن الأثير في أسد الغابة (٣٤٦/١).

(٢) أورد هذا الخبر: ابن كثير في تفسيره (٣٩٢/٢) ـ والألباني في السلسلة الصحيحة ـ رقم الحديث (٣٢١٨) ـ وحسَّن إسناده.

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٣٩٢/٢).

(٤) انظر أسد الغابة (٨٣/٢).

۞ تَعقُّبُ قُرَيْشٍ لِمُهَاجِرَةِ الحَبَشَةِ:

فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَمِنُوا وَاطْمَأَنُّوا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ، وأَنَّهُمْ قَدْ أَصَابُوا بِهَا دَارًا وَاسْتِقْرَارًا، وحُسْنَ جِوَارٍ مِنَ النَّجَاشِيِّ ﵁، ائْتَمَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ وَفْدًا مِنْهُمْ فَيَرُدَّهُمْ عَلَيْهِمْ، فَاخْتَارُوا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ(١) وهُمَا: عَمْرُو بنُ العَاصِ، وَعَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وأَرْسَلُوا مَعَهُمَا الهَدَايَا لِلنَّجَاشِيِّ وَلِبَطَارِقَتِهِ(٢)، وكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا الأُدْمُ(٣).

فَجَمَعُوا لَهُ أُدمًا، وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً، فَقَالُوا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ بَعْدَ أَنْ دفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ ـ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ ـ: إِنَّهُ قَدْ ضَوَىٰ(٤) إِلَىٰ بَلَدِ المَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، ولَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وجَاؤُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثَنَا قَوْمُنَا لِيَرُدَّهُمُ المَلِكُ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا المَلِكَ فِيهِمْ، فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْنَا، وَلَا يُكَلِّمَهُمْ، فإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَىٰ بِهِمْ عَيْنًا(٥)، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ.

---

(١) الجَلْدُ: أي القَوِيُّ. انظر النهاية (١/٢٧٥).

(٢) البَطَارِقَةُ: جمعُ بِطْرِيقٍ وهوَ الحَاذِقُ بالحَرْبِ وأُمُورِهَا بِلُغَةِ الرُّومِ، وهو ذُو مَنْصِبٍ مُتَقَدِّمٍ عِندهم. انظر النهاية (١/١٣٤).

(٣) الأُدْمُ: جمع أديم، وهو الجِلْدُ. انظر لسان العرب (١/٩٦).

(٤) ضَوَىٰ إليه: أي انضَمَّ ولجَأ. انظر لسان العرب (٨/١٠٤).

(٥) أَعْلَىٰ بِهِمْ عَيْنًا: أي أَبْصَرُ بهِم، وأعلَمُ بحَالِهم. انظر النهاية (٣/٢٦٧).

ثُمَّ إِنَّهُمَا حَضَرَا إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ، وقَدَّمَا لَهُ الهَدَايَا، وكَانَ فِيهَا أُدْمٌ كَثِيرٌ وفَرَسٌ، وَجُبَّةُ دِيبَاجٍ، ثُمَّ كَلَّمَاهُ، فَقَالَا لَهُ: أَيُّهَا المَلِكُ! إِنَّهُ قَدْ ضَوَىٰ إِلَىٰ بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، ولَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وجَاؤُوا بِدِينٍ ابْتَدَعُوهُ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ، وقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وأَعْمَامِهِمْ وعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعْلَىٰ بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وعَاتَبُوهُمْ فِيهِ، فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقَا أَيُّهَا المَلِكُ، قَوْمُهُمْ أَعْلَىٰ بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا فَلْيَرُدَّاهُمْ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ وقَوْمِهِمْ.

فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ، وَأَبَىٰ أَنْ يَقْبَلَ كَلَامَهُمْ، وَحَلَفَ أَلَّا يُسَلِّمَ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ وإِلَىٰ بِلَادِهِ حَتَّىٰ يَدْعُوَهُمْ، فَيَسْأَلَهُمْ عَمَّا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ.

۞ إِحْضَارُ النَّجَاشِيِّ لِلْمُسْلِمِينَ وسُؤَالُهُمْ:

ثُمَّ أَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ودَعَاهُمْ، فَحَضَرُوا، وكَانُوا قَدْ أَجْمَعُوا عَلَىٰ صِدْقِهِ[1] فِيمَا سَاءَهُ، وسَرَّهُ كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/٢٣٣) في قوله تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (سورة التوبة آية ١١٩)، قال: أي اصدُقُوا والْزَمُوا الصِّدق تكُونوا معَ أهلهِ، وتَنْجوا من المَهَالك، ويجعل لكم فَرَجًا من أُمُوركُم، ومَخْرجًا.

وروىٰ الإمام البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٦٠٩٤) ـ والإمام مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٢٦٠٧) ـ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رَسُول اللهِ ﷺ: «عَلَيْكُم بالصِّدْق، فإن الصدق يَهْدِي إلىٰ البِرِّ، وإن البرَّ يَهدِي إلىٰ الجنةِ، وما يزال الرَّجلُ يَصدقُ ويتحرى الصدق حتَّىٰ يُكتبَ عِندَ الله صِدِّيقًا»

فَقَالَ لَهُمُ النَّجَاشِيُّ: مَا هَذَا الدِّينُ الذِي قَدْ فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، ولَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي، وَلَا دِينِ أَحَدٍ مِنَ المِلَلِ؟

فَتَوَلَّىٰ الكَلَامَ عَنِ الصَّحَابَةِ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ[1]، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا المَلِكُ! كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، ونَأْكُلُ المَيْتَةَ، وَنَأْتِي الفَوَاحِشَ، ونَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الجِوَارَ، ويَأْكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ.

فَكُنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ، حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وصِدْقَهُ، وأَمَانَتَهُ وعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَىٰ اللهِ، لِنُوَحِّدَهُ ونَعْبُدَهُ، ونَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ والأَوْثَانِ، وأَمَرَنَا بِصِدْقِ الحَدِيثِ، وأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وحُسْنِ الجِوَارِ، والكَفِّ عَنِ المَحَارِمِ والدِّمَاءِ، ونَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ، وقَوْلِ الزُّورِ، وأَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ، وقَذْفِ المُحْصَنَاتِ[2]، وأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ[3]، والزَّكَاةِ[4] وَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، واتَّبَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ

---

(١) قال أبو نعيم في الحلية (١/١٦٠): ومنهم الخَطِيبُ المِقْدَامُ، السَّخِيُّ المِطْعَامُ، خَطِيبُ العارفينَ، ومُضِيفُ المَسَاكِين، ومُهَاجرُ الهجرتينِ، ومُصَلِّي القبلتين، البَطَلُ الشُّجَاعُ الجَوَادُ الشَّعْشَاعُ، جَعْفَرُ بنُ أبي طالبٍ ﷺ فَارِقُ الخَلْقِ، ورَامِقُ الحَقِّ.

(٢) المحصنات: العفائف من النساء. انظر لسان العرب (٣/٢٠٩).

(٣) قولُ جعفرَ للنَّجاشِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: وأمَرَنا بالصلاةِ، أي الصَّلاة التي كانت قَبْلَ فَرْضِ الصلوات الخمسِ في الإسراءِ والمِعْراج، وقد بَيَّنْتُ ذلكَ في بِدَايةِ أَمْرِ البِعْثَةِ، فراجِعْهُ.

(٤) وقوله ﷺ: الزَّكَاةُ، أرادَ مُطْلَقَ الصَّدَقَةِ؛ لأنَّ زكاةَ المَالِ إنَّما فُرِضَتْ بالمدِينَةِ.

وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لَيَرُدُّونَا إِلَىٰ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَىٰ بِلَادِكَ، واخْتَرْنَاكَ عَلَىٰ مَنْ سِوَاكَ، ورَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، ورَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا المَلِكُ(١).

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ رضي الله عنه: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ شَيْءٌ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ سُورَةِ مَرْيَمَ، فَبَكَىٰ النَّجَاشِيُّ حَتَّىٰ اخْضَلَّتْ(٢) لِحْيَتُهُ، وبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ(٣)، حَتَّىٰ أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ جَعْفَرُ رضي الله عنه، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ رضي الله عنه: إِنَّ هَذَا

---

(١) قال الشيخُ أبُو الحسنِ النَّدْوي في كتابه السِّيرة النَّبويَّة، ص ١٣٤: إنَّ كلامَ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمامَ مَلِك الحَبَشَةِ، وتصويرَهُ للإسْلام، كلامُ حَكِيمٍ قد جَاءَ في أَوَانِهِ ومَكانِهِ، وقدْ دَلَّ على بلاغةِ صَاحِبِهِ العَقْلِيَّةِ، قبلْ أن يدُلَّ علىٰ بلاغَتِهِ العَرَبِيَّةِ البَيَانِيَّةِ، ولا يعَلَّلُ ذلكَ إلا بالإلهَامِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، وتأييدِ هذَا الدِّينِ الذي أرادَ الله أنْ يُتِمَّ نُوره، وأن يُظْهِره علىٰ كُل دِين، ويدلُّ كذلك علىٰ سَلامةِ الفِطْرَةِ، ورَجَاحَةِ العقلِ، اللَّتَيْنِ فَاقَ فيهما بنو هاشم قريشًا، وفاقت فيهما قريش العرب كلهم، فقد فضّل جعفر رضي الله عنه أن يكون جوابه حِكايةَ حَالٍ لِمَا كان عليهِ أهلُ الجاهليةِ في الجزيرةِ العَرَبِيةِ، ولِمَا آلَ إليه أمرُهُم بعدما أرسل الله تَعَالَىٰ رسوله ﷺ فيهم، ودعا إلىٰ الله تَعَالَىٰ وإلىٰ الدِّين الحنيفِ السَّمْحِ، ومكارمِ الأخلاقِ، وآمَنُوا بهِ واتَّبَعُوهُ، وحِكايةُ الحَالِ ـ خُصُوصًا إذا لم يُجَانِبْ فيه صاحِبُهَا الصَّوَابَ ـ أبعدُ شيءٍ عنِ المُنَاقشةِ والمُنَاظرَةِ، وأقدرُ شَيْءٍ علىٰ غَرْسِ المعاني المَقْصُودةِ، وتحقيقِ الأهداف المَنْشُودة، والتَّهَيُّؤِ للتأمُّلِ والإنصَافِ وحُسْنِ الاستِمَاعِ.

(٢) اخضَلَّتْ: أي ابْتَلَّتْ. انظر النهاية (٢/٤٢).

(٣) الأَسَاقِفَةُ: جمعُ أُسْقُفٍ بِضمِّ الهمزةِ وهُم علماءُ النصارىٰ. انظر النهاية (٢/٣٤١).

وَالذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ[1] لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ[2] وَاحِدَةٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ رَسُولَيْ قُرَيْشٍ فَقَالَ لَهُمَا: انْطَلِقَا! فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمَا أَبَدًا، وَلَا يُكَادُونَ.

أَخْرَجَ الإِمَامُ النَّسَائِيُّ فِي السُّنَنِ الكُبْرَىٰ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي النَّجَاشِيِّ وأَصْحَابِهِ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[3].

ورَدَّ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ذَلِكَ، فَقَالَ: وهَذَا القَوْلُ فِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ هَذِهِ الآيَةَ مَدَنِيَّةٌ، وقِصَّةُ جَعْفَرَ مَعَ النَّجَاشِيِّ قَبْلَ الهِجْرَةِ[4].

۞ مُحَاوَلَةٌ أُخْرَىٰ لِلْوَقِيعَةِ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ والنَّجَاشِيِّ:

فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّجَاشِيِّ، قَالَ عَمْرُو بنُ العَاصِ: وَاللهِ لَآتِيَنَّهُ غَدًا

---

(١) هذه رواية الإمام أحمد في مسنده - قال السندي في شرح المسند (٢/٢١٧): لم يقل عيسى، مع أنه نبيُّهم، لما فيه من خلاف اليهود، بخلاف موسى، فلم يختلف أحدٌ من الطوائف المعلومة في نبوَّته.
وفي رواية ابن إسحاق في السيرة (١/٣٧٤): قال: عيسى.

(٢) المِشْكَاةُ: هي الكُوَّةُ غيرُ النَّافِذَةِ، وقيل هي الحَديدةُ التي يُعلَّق عليها القَنَاديلُ، أراد أن القرآنَ والإنجيلَ كَلامُ اللهِ، وأنهما مِنْ شيءٍ واحدٍ، وهوَ الوحْيُ. انظر النهاية (٤/٢٨٥).

(٣) سورة المائدة آية (٨٣).
والخبر أخرجه النسائي في السنن الكبرى - كتاب التفسير - باب (٩) - رقم الحديث (١١٠٨٣).

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٣/١٦٦).

عَنْهُمْ بِمَا أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ[1]، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي رَبِيعَةَ: لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا، وإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا، لَكِنَّ عَمْرَو بنَ الْعَاصِ أَصَرَّ عَلَىٰ رَأْيِهِ.

فَلَمَّا كَانَ الغَدُ غَدَا عَلَىٰ النَّجَاشِيِّ، وقَالَ لَهُ: أَيُّهَا المَلِكُ! إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَىٰ ابنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ النَّجَاشِيُّ يَسْأَلُهُمْ عَنْ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ النَّجَاشِيِّ إِلَيْهِمْ. قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَىٰ ابنِ مَرْيَمَ، إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟.

قَالُوا: نَقُولُ وَاللهِ مَا قَالَ اللهُ، وَمَا جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنَا، كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ النَّجَاشِيِّ، قَالَ لَهُمْ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ؟

فَقَالَ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: نَقُولُ فِيهِ الذِي جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ، هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، ورُوحُهُ، وكَلِمَتُهُ[2] أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ العَذْرَاءَ البَتُولِ[3].

فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ بِيَدِهِ الأَرْضَ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا العُودَ[4].

---

(١) خَضْرَاءُهُمْ: أي دَهْمَاؤُهُم وسَوَادُهُم ومُعْظَمُهُم. انظر النهاية (٢/٤٠).

(٢) قال الإمام السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (٢/١١٣): ومعنىٰ كلمتِهِ: أي قال له، كما قال لِآدمَ حينَ خلقهُ من تُرابٍ: كُنْ فَيَكُونُ.

(٣) امرأةٌ بَتُولٌ: أي مُنْقَطِعَةٌ عن الرِّجالِ لا شهوَةَ لها فِيهِمْ. انظر النهاية (١/٩٥).

(٤) قال السندي في شرح المسند (٢/٢١٨): أي: هذا القدر، يريد: أن قدره هذا، ولا يتجاوز عنه إلى ما يقوله الظلمة من البنوة، وغيرها.

فَتَنَاخَرَتْ[1] بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللهِ، ثُمَّ قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ: اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي ـ والسُّيُومُ: الآمِنُونَ بِلِسَانِ الحَبَشَةِ ـ مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ جَبَلًا مِنْ ذَهَبٍ، وأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ.

ثُمَّ قَالَ لِبَطَارِقَتِهِ: رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا، فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا.

فخَرَجَ عَمْرُو بنُ العَاصِ وَعَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي رَبِيعَةَ مِنْ عِنْدَ النَّجَاشِيِّ خَائِبَيْنِ، وأَقَامَ المُسْلِمُونَ عِنْدَ النَّجَاشِيِّ بِخَيْرِ دَارٍ، مَعَ خَيْرِ جَارٍ[2].

قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّد الغَزَالِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا النَّجَاشِيَّ كَانَ رَجُلًا رَاشِدًا نَظِيفَ العَقْلِ، حَسَنَ المَعْرِفَةِ للهِ، سَلِيمَ الاعْتِقَادِ فِي عِيسَىٰ عَبْدِ اللهِ ورَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَكَانَتْ مُرُونَةُ فِكْرِهِ سِرَّ المُعَامَلَةِ الجَمِيلَةِ التِي وَفَّرَهَا لِأُولَئِكَ اللَّاجِئِينَ إِلَىٰ مَمْلَكَتِهِ، فَارِّينَ بِدِينِهِمْ مِنَ الفِتَنِ[3].

وَقَالَ الدُّكْتُور مُحَمَّد أَبُو شَهْبَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وهَكَذَا نَرَىٰ مِنْ هَذِهِ

---

(١) تنَاخَرَتْ: أي تَكَلَّمَتْ، وكأنه كلامٌ معَ غضَبٍ ونُفُورٍ، والنَّخِيرُ: صَوْتُ الأنفِ. انظر لسان العرب (١٤/٨١)، النهاية (٥/٢٧).

(٢) أخرج قصة النجاشي مع جعفر ﷺ وأصحابه: الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٧٤٠) ـ (٢٢٤٩٨) ـ والحاكم في المستدرك ـ كتاب التفسير ـ باب قصة إسلام النجاشي ـ رقم الحديث (٣٢٦١) ـ والطحاوي في شرح مشكل الآثار ـ رقم الحديث (٥٥٩٨) ـ وابن إسحاق في السيرة (١/٣٧٢) ـ وإسنادها حسن.

(٣) انظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ١١٤.

القِصَّةِ أَنَّ مَنْ يَصْدُقِ اللهِ يَصْدُقْهُ، ويَنْصُرْهُ عَلَىٰ مَنْ يُرِيدُ بِهِ سُوءًا، ويَجْعَلُ لَهُ مِنْ ضِيقِهِ وأزَمَاتِهِ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، وعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ فِيهَا عِبْرَةٌ لِلذِينَ يَتَصَدَّوْنَ لِلدَّعْوَةِ الإسْلَامِيَّةِ، وذَلِكَ بِأَنْ يَلْتَزِمُوا جَانِبَ الحَقِّ وَالصِّدْقِ فِي دَعْوَتِهِمْ، وأَنْ لَا يَحُرِّفُوا فِيهَا، أَوْ يُغَيِّرُوا، أَوْ يُدَاهِنُوا تَبَعًا لِلْأَهْوَاءِ السِّيَاسِيَّةِ وغَيْرِهَا، ولْيُجَاهِرُوا بِالحَقَائِقِ الإِسْلَامِيَّةِ، ولْيَكُنْ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ[١].

۞ إِسْلَامُ النَّجَاشِيِّ رضي الله عنه:

وَأَسْلَمَ النَّجَاشِيُّ رضي الله عنه عَلَى يَدِ جَعْفَرَ بن أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، وصَدَّقَ بِنُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وكَانَ يُخْفِي إِسْلَامَهُ عَنْ قَوْمِهِ.

قَالَ الإِمَامُ الذَّهَبِيُّ في السِّيَرِ: النَّجَاشِيُّ، وَاسْمُهُ أَصْحَمَةُ مَلِكُ الْحَبَشَةِ، مَعْدُودٌ فِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وكَانَ مِمَّنْ حَسُنَ إِسْلَامُهُ، ولَمْ يُهَاجِرْ، وَلَا لَهُ رُؤْيَةٌ، فَهُوَ تَابِعِيٌّ مِنْ وَجْهٍ، وَصَاحِبٌ مِنْ وَجْهٍ، وقَدْ تُوُفِّيَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَصَلَّىٰ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ بالنَّاسِ صَلَاةَ الغَائِبِ[٢] ولَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ صَلَّىٰ ﷺ عَلَىٰ غَائِبٍ سِوَاهُ، وسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ مَاتَ بَيْنَ قَوْمٍ نَصَارَىٰ، ولَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ، لِأَنَّ الصَّحَابَةَ الذِينَ كَانُوا مُهَاجِرِينَ عِنْدَهُ خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ مُهَاجِرِينَ إِلَىٰ المَدِينَةِ عَامَ خَيْبَرَ سَنَةَ سَبْعٍ مِنَ الهِجْرَةِ[٣].

---

(١) انظر كتاب السِّيرة النَّبويَّة للدكتور محمد أبي شهبة رَحِمَهُ اللهُ (١/٣٨٠).

(٢) قلتُ: سأذكرُ في وفَاتِهِ رضي الله عنه في سنةِ تِسْع للهجرةِ تفصِيلَ صلاةِ النبي ﷺ عليه صلاة الغَائِبِ.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (١/٤٢٨).

وقَالَ الحَافِظُ في الإِصَابَةِ: النَّجَاشِيُّ اسْمُهُ أَصْحَمَةُ بنُ أَبْحَرٍ مَلِكُ الحَبَشَةِ، والنَّجَاشِيُّ لَقَبٌ لَهُ، أَسْلَمَ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، ولَمْ يُهَاجِرْ إِلَيْهِ، وكَانَ رِدْءًا[1] لِلْمُسْلِمِينَ نَافِعًا[2].

قُلْتُ: وَمَاتَ النَّجَاشِيُّ رضي الله عنه فِي رَجَبَ سَنَةَ تِسْعٍ مِنَ الهِجْرَةِ.

التَّمْكِينُ للنَّجَاشِيِّ فِي مُلْكِهِ:

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ... فَوَاللهِ إِنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ إِذْ نَزَلَ بِهِ ـ أي النَّجَاشِيُّ ـ مَنْ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْنَا حُزْنًا قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْ حُزْنٍ حَزِنَّاهُ عِنْدَ ذَلِكَ، تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَىٰ النَّجَاشِيِّ، فَيَأْتِيَ رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ، قَالَتْ: وَسَارَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ، وبَيْنَهُمَا عُرْضُ نَهْرِ النِّيلِ، قَالَتْ: فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّىٰ يَحْضُرَ وَقْعَةَ القَوْمِ، ثُمَّ يَأْتِيَنَا بِالخَبَرِ؟

فَقَالَ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ رضي الله عنه: أَنَا، وَكَانَ مِنْ أَحْدَثِ القَوْمِ سِنًّا.

قَالَتْ: فَنَفَخُوا لَهُ قِرْبَةً، فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ سَبح حَتَّىٰ خَرَجَ إِلَىٰ نَاحِيَةِ النِّيلِ التِي بِهَا مُلْتَقَىٰ القَوْمِ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّىٰ حَضَرَهُمْ، قَالَتْ: ودَعَوْنَا اللهَ

---

(١) رِدْءًا: أي عَوْنًا ونَاصِرًا. انظر النهاية (٢/١٩٥) ـ ومنه قوله تعالى في سورة القصص آية: ٣٤: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾.

(٢) انظر الإصابة (١/٣٤٧).

تَعالَىٰ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَىٰ عَدُوِّهِ، والتَّمْكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ(١).

قَالَتْ: ثُمَّ جَاءَ الزُّبَيْرُ رضي الله عنه وهُوَ يَسْعَىٰ، فَلَمَعَ بِثَوْبِهِ(٢)، وهُوَ يَقُولُ: أَلَا أَبْشِرُوا، فَقَدْ ظَفَرَ النَّجَاشِيُّ، وأَهْلَكَ اللهُ عَدُوَّهُ، ومَكَّنَ لَهُ فِي بِلَادِهِ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فَوَاللهِ مَا عَلِمْنَا فَرِحْنَا فَرْحَةً قَطُّ مِثْلَهَا(٣).

بَقَاءُ المُسْلِمِينَ فِي الحَبَشَةِ:

وَبَقِيَ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه مَعَ عَدَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي الحَبَشَةِ إِلَىٰ سَنَةِ سَبْعٍ مِنَ الهِجْرَةِ، ثُمَّ قَدِمَ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ، فَكَانَ بَقَاؤُهُ فِي الحَبَشَةِ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، وهِيَ مُدَّةٌ طَوِيلَةٌ، لَابُدَّ أَنَّ جَعْفَرًا قَدِ انْتَفَعَ بِهَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ الإِسْلامِ، والتَّعْرِيفِ بِهِ فِي بَلَدٍ امْتَازَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ البِلَادِ النَّصْرَانِيَّةِ بِالتَّسَامُحِ وإِيوَاءِ المُضْطَهَدِينَ، وعُرِفَ حَاكِمُهُ بِالعَدْلِ والإِنْسَانِيَّةِ، ولَكِنِ العَهْدَ لَمْ يَكُنْ عَهْدَ تَسْجِيلِ الحَوَادِثِ، ولَيْسَتْ أَمَامَنَا وثَائِقُ تَارِيخِيَّةٌ تُثْبِتُ ذَلِكَ، ولَكِنِ القِيَاسَ يَقْتَضِيهِ(٤).

---

(١) قال الشيخ أبو الحسن النَّدْوي في كتابه السِّيرة النَّبويَّة، ص ١٣٥: وكانَ هذا الدُّعاء من المسلمينَ للنجاشِيِّ اعترَافًا بحُسْنِ مَوقفِهِ منَ المهاجرينَ المُضْطَهَدِينَ، ومكافأَتُهُ علىٰ حُسْنِ صَنيعِهِ، وكانَ ذلكَ مُطَابقًا لتعاليمِ الإسلامِ الخُلُقِيَّةِ، وَلائِقًا بأخلاقِ المُسْلِمِينَ.

(٢) لَمَعَ بِثَوْبِهِ: إِذَا رَفَعَهُ وحرَّكَهُ لِيَرَاهُ غيرهُ فيَجِيءَ إليه. انظر النهاية (٤/٢٣٣).

(٣) أخرج قِصَّة التمكين للنجاشي في ملكه: الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٧٤٠) (٢٢٤٩٨) ـ وابن إسحاق في السيرة (١/٣٧٥) ـ وإسناده حسن..

(٤) انظر السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدْوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ١٣٥.

۞ بَعْضُ الفَوَائِدِ مِنْ قِصَّةِ الهِجْرَةِ إِلَىٰ الحَبَشَةِ:

قَالَ الإِمَامُ السُّهَيْلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وفِي قِصَّةِ الهِجْرَةِ إِلَىٰ الحَبَشَةِ مِنَ الفِقْهِ: ـ الخُرُوجُ عَنِ الوَطَنِ، وإِنْ كَانَ الوَطَنُ مَكَّةَ عَلَىٰ فَضْلِهَا، إِذَا كَانَ الخُرُوجُ فِرَارًا بِالدِّينِ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَىٰ إِسْلَامٍ، فَإِنَّ الحَبَشَةَ كَانُوا نَصَارَىٰ يَعْبُدُونَ المَسِيحَ، وَلَا يَقُولُونَ: هُوَ عَبْدُ اللهِ، وقَدْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي كَلَامِ جَعْفَرَ بنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ مَعَ النَّجَاشِيِّ، وكَيْفَ نَخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ، وسُمُّوا بِهَذِهِ الهِجْرَةِ مُهَاجِرِينَ، وَهُمْ أَصْحَابُ الهِجْرَتَيْنِ الذِينَ أَثْنَىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ بِالسَّبْقِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[1].

ـ وَجَاءَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ: أَنَّهُمْ الذِينَ صَلُّوا القِبْلَتَيْنِ، وهَاجَرُوا الهِجْرَتَيْنِ، وقَدْ قِيلَ أَيْضًا: هُمُ الذِينَ شَهِدُوا بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، فَانْظُرْ كَيْفَ أَثْنَىٰ

---

(١) سورة التوبة آية (١٠٠).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/٢٠٣): أخبرَ اللهُ العظيمُ أنه قد رضِيَ عن السَّابقين الأوَّلينَ منَ المُهَاجرينَ والأنصارِ، والذينَ اتَّبَعُوهم بإحسَانٍ، فيَا وَيْلَ من أبغَضَهُمْ أو سَبَّهُمْ، أو أبغضَ أو سَبَّ بعضهم، ولاسيما سَيِّدُ الصحابة بعد الرسول ﷺ وخيرهم، وأفضلهم، أعْنِي الصديق الأكبر والخَليفة الأعظَم أبَا بكر بن أبي قحافة ﷺ، فإنَّ الطائِفَةَ المَخْذُولةَ منَ الرَّافضَةِ يُعَادُونَ أفضلَ الصحابةِ ويُبْغِضُونَهُمْ ويَسُبُّونهُم، عِيَاذًا بالله من ذلك، وهذا يدُل علىٰ أن عُقُولهُم مَعْكُوسة، وقلوبهم مَنْكُوسة، فأينَ هؤلاءِ مِنَ الإيمان بالقرآنِ، إذ يَسُبُّون مَنْ رضيَ الله تَعَالَىٰ عنهم؟ وأمَّا أهل السُّنَّة فإنهم يترَضَّوْنَ عمَّن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ويسُبُّونَ من سبَّهُ الله ورسولُهُ، ويُوَالونَ مَنْ يُوَالي اللهَ، ويعادونَ من يُعادِي اللهَ، وهم مُتَّبِعُونَ لا مُبْتَدِعُونَ، ويقتَدُونَ ولا يَبْتَدِرُونَ ولهذا هُم حِزْبُ اللهِ المُفْلِحُونَ، وعِبَادُهُ المُؤمنون.

اللهُ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الهِجْرَةِ، وهُمْ قَدْ خَرَجُوا مِنْ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ إِلَىٰ دَارِ كُفْرٍ، لِمَا كَانَ فِعْلُهُمْ ذَلِكَ احْتِيَاطًا عَلَىٰ دِينِهِمْ، ورَجَاءَ أَنْ يُخَلَّى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ، يَذْكُرُونَهُ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ، وهَذَا حُكْمٌ مُسْتَمِرٌّ مَتَىٰ غَلَبَ المُنْكَرُ فِي بَلَدٍ، وَأُوذِيَ عَلَىٰ الحَقِّ مُؤْمِنٌ، ورَأَىٰ البَاطِلَ قَاصِرًا لِلْحَقِّ، ورَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِي بَلَدٍ آخَرَ يُخَلَّى بَيْنَهُ وبَيْنَ دِينِهِ، ويُظْهِرَ فِيهِ عِبَادَةَ رَبِّهِ، فَإِنَّ الخُرُوجَ عَلَىٰ هَذَا الوَجْهِ حَتْمٌ عَلَىٰ المُؤْمِنِ، وهَذِهِ الهِجْرَةُ التِي لَا تَنْقَطِعُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ(١).

وقَالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: فَالهِجْرَةُ وَاجِبَةٌ مِنْهَا عَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ، وخَشِيَ أَنْ يُفْتَنَ عَنْ دِينِهِ(٢).

۞ أَوَّلُ وَفْدٍ قَدِمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ:

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ قَدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وهُوَ بِمَكَّةَ، عِشْرُونَ رَجُلًا، أَوْ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ مِنَ النَّصَارَىٰ، حِينَ بَلَغَهُمْ خَبَرُهُ مِنَ الحَبَشَةِ، فَوَجَدُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي المَسْجِدِ، فَجَلَسُوا إِلَيْهِ وكَلَّمُوهُ، وسَأَلُوهُ، ورِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ فِي أَنْدِيَتِهِمْ حَوْلَ الكَعْبَةِ، فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ مَسْأَلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَمَّا أَرَادُوا، دَعَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وتَلَا عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ فَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ، ثُمَّ اسْتَجَابُوا للهِ، وآمَنُوا بِهِ، وصَدَّقُوهُ، وعَرَفُوا مِنْهُ مَا كَانَ يُوصَفُ لَهُمْ فِي كِتَابِهِمْ مِنْ أَمْرِهِ.

---

(١) انظر الرَّوْض الأُنُف (٢/١١١ - ١١٢).

(٢) انظر فتح الباري (٧/٦٣٥).

فَلَمَّا قَامُوا عَنْهُ اعْتَرَضَهُمْ أَبُو جَهْلِ بنُ هِشَامٍ لَعَنَهُ اللهُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُمْ: خَيَّبَكُمُ اللهُ مِنْ رَكْبٍ، بَعَثَكُمْ مَنْ وَرَاءَكُمْ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ تَرْتَادُونَ[١] لَهُمْ لِتَأْتُوهُمْ بِخَبَرِ الرَّجُلِ، فَلَمْ تَطْمَئِنَّ مَجَالِسُكُمْ عِنْدَهُ، حَتَّىٰ فَارَقْتُمْ دِينَكُمْ وصَدَّقْتُمُوهُ بِمَا قَالَ، مَا نَعْلَمُ رَكْبًا أَحْمَقَ مِنْكُمْ، فَقَالُوا لَهُمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، لَا نُجَاهِلُكُمْ، لَنَا مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، ولَكُمْ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، لَمْ نَأْلُ[٢] أَنْفُسَنَا خَيْرًا.

وَيُقَالُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - إِنَّ فِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٣].

قالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ في تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَاتِ: يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ العُلَمَاءِ الأَوْلِيَاءِ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ

---

(١) ارْتَادَ يَرْتَادُ: أي يَنْظُرُ ويَطْلُبُ ويختَارُ الأفضلَ، مِنَ الرَّائِدِ الذي يتَقَدَّمُ القومَ يُبْصِرُ لهم الكَلأَ ومَسَاقِطَ الغَيْثِ. انظر لسان العرب (٥/٣٦٥).

(٢) لَمْ نَأْلُ أنفُسَنَا خَيْرًا: أيْ لَمْ نَقْتَصِرْ بِهَا عَنْ بُلُوغِ الخَيْرِ، يُقالُ مَا أَلَوْتُ: أي ما فَعَلْتُ كَذَا، وكَذَا، أي ما قَصَّرْتُ. انظر سبل الهدىٰ والرشاد (٢/٤٢٢).

(٣) سورة القصص آية (٥٢ - ٥٥).

والخبر في سيرة ابن هشام (٢/٥ - ٦) - والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٠٦).

﴿ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾(١).

وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾(٢).

أيْ هَؤُلَاءِ المُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ الذِينَ آمَنُوا بِالكِتَابِ الأَوَّلِ ثُمَّ بِالثَّانِي، يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِإِيمَانِهِمْ بِالرَّسُولِ الأَوَّلِ ثُمَّ بالثَّانِي، وقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، وعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّىٰ حَقَّ اللهِ وَحَقَّ سَيِّدِهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا، ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا»**(٣).

وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾(٤). أيْ: لَا يُخَالِطُونَ أَهْلَهُ ولَا يُعَاشِرُونَهُمْ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾(٥).

وأَمَّا مَنْ كَانَ الذِينَ نَزَلَتْ فِي أَمْرِهِمْ هَذِهِ الآيَاتُ، فَالقُرْآنُ يَرُدُّ المُشْرِكِينَ

---

(١) سورة البقرة آية (١٢١).

(٢) سورة القصص آية (٥٤)

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ـ كتاب العلم ـ باب تعليم الرجل أمته وأهله ـ رقم الحديث (٩٧) ـ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلىٰ جميع الناس ـ رقم الحديث (١٥٤).

(٤) سورة القصص آية (٥٥).

(٥) سورة الفرقان آية (٧٢) ـ وانظر كلام الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/ ٢٤٤).

إِلَىٰ حَادِثٍ وَقَعَ، يَعْلَمُونَهُ، وَلَا يُنْكِرُونَهُ، كَيْ يَقِفَهُمْ وَجْهًا لِوَجْهٍ أَمَامَ نَمُوذَجٍ مِنَ النُّفُوسِ الخَالِصَةِ كَيْفَ تَتَلَقَّىٰ هَذَا القُرْآنَ، وتَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ، وتَرَىٰ فِيهِ الحَقَّ، وتَعْلَمَ مُطَابَقَتَهُ لِمَا بَيْنَ أَيْدِيهَا مِنَ الكِتَابِ، ولَا يَصُدُّهَا عَنْهُ صَادٌّ مِنْ هَوَىٰ وَلَا مِنْ كِبْرِيَاءٍ، وتَحْتَمِلُ فِي سَبِيلِ الحَقِّ الذِي آمَنَتْ بِهِ ما يُصِيبُهَا مِنْ أَذًىٰ وَتَطَاوُلٍ مِنَ الجُهَلَاءِ، وتَصْبِرُ عَلَىٰ الحَقِّ فِي وَجْهِ الأَهْوَاءِ وَوَجْهِ الإِيذَاءِ... إِنَّهَا صُورَةٌ وَضِيئَةٌ لِلنَّفْسِ المُؤْمِنَةِ المُطْمَئِنَّةِ إِلَىٰ إِيمَانِهَا.. تَفِيضُ بِالتَّرَفُّعِ عَنِ اللَّغْوِ.. كَمَا تَفِيضُ بِالسَّمَاحَةِ والوُدِّ.. وتَرْسُمُ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَأَدَّبَ بِأَدَبِ اللهِ طَرِيقَهُ وَاضِحًا لَا لُبْسَ فِيهِ. فَلَا مُشَارَكَةَ لِلْجُهَّالِ، وَلَا مُخَاصَمَةَ لَهُمْ، وَلَا مُوْجِدَةَ عَلَيْهِمْ، وَلَا ضَيْقَ بِهِمْ. إِنَّمَا هُوَ التَّرَفُّعُ، والسَّمَاحَةُ، وحُبُّ الخَيْرِ حَتَّىٰ لِلْجَارِمِ[1] المُسِيءِ[2].

** ** **

(١) جَرَمَهُ: قَطَعَهُ. انظر لسان العرب (٢/٢٥٧).

(٢) انظر في ظلال القرآن (٥/٢٧٠٠ - ٢٧٠١) لسيد قطب رَحِمَهُ اللهُ.

مُقَاطَعَةُ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وحِصَارَ الشِّعْبِ

لَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أمْرَ الإِسْلَامِ يَنْتَشِرُ ويَعْلُو، وأنَّ أَسَالِيبَهَا كُلَّهَا بَاءَتْ بِالفَشَلِ، وَلَمْ تَمْنَعْ مِنِ انْتِشَارِ الإسْلَامِ، وأنَّ مُسَاوَمَتَهَا لِأَبِي طَالِبٍ، وَلِلنَّبِيِّ ﷺ مِنْ بَعْدِه قَدْ قُوبِلَتْ بِالرَّفْضِ، أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَىٰ المُقَاطَعَةِ.

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَدْ نَزَلُوا بَلَدًا، وأَصَابُوا بِهِ أَمْنًا وَقَرَارًا، وأَنَّ النَّجَاشِيَّ قَدْ مَنَعَ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ، وأنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَدْ أَسْلَمَ، فَكَانَ هُوَ وحَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَصْحَابِهِ، وجَعَلَ الإِسْلَامُ يَفْشُو فِي القَبَائِلِ، اجْتَمَعُوا وَائْتَمُّوا بَيْنَهُمْ أنْ يَكْتُبُوا كِتَابًا يَتَعَاقَدُونَ فِيهِ عَلَىٰ بَنِي هَاشِمٍ، وبَنِي المُطَّلِبِ: عَلَىٰ أَنْ لَا يُنْكِحُوا إِلَيْهِمْ، ولَا يُنْكِحُوهُمْ، وَلَا يَبِيعُوهُمْ شَيئًا، وَلَا يَبْتَاعُوا[1] مِنْهُمْ، وأَنْ يُضَيِّقُوا عَلَيْهِمْ، وَلَا يُجَالِسُوهُمْ، ولَا يُخَالِطُوهُمْ حَتَّىٰ يُسَلِّمُوا إِلَيْهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ لِلْقَتْلِ.

فَلَمَّا اجْتَمَعُوا لِذَلِكَ كَتَبُوهُ فِي صَحِيفَةٍ، ثُمَّ تَعَاهَدُوا وتَوَاثَقُوا عَلَىٰ ذَلِكَ، ثُمَّ عَلَّقُوا الصَّحِيفَةَ فِي جَوْفِ الكَعْبَةِ تَوْكِيدًا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ.

---

(١) ابْتَاعَ الشيءَ: أي اشتَرَاه. انظر لسان العرب (١/٥٥٧).

وكَانَ كَاتِبُ الصَّحِيفَةِ مَنْصُورُ بنُ عِكْرِمَةَ بنِ عَامِرِ بنِ هَاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنَافِ بنِ عَبْدِ الدَّارِ[١].

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ: والمَشْهُورُ أَنَّ مَنْصُورَ بنَ عِكْرِمَةَ هُوَ الذِي كَتَبَ الصَّحِيفَةَ كَمَا ذَكَرَهُ ابنُ إسْحَاقَ، فَدَعَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ فَشُلَّتْ يَدُهُ فَمَا كَانَ يَنْتَفِعُ بِهَا[٢].

فَلَمَّا رَأَىٰ أَبُو طَالِبٍ تَأَلُّبَ[٣] قُرَيْشٍ عَلَىٰ ابْنِ أَخِيهِ ﷺ، قَامَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وبَنِي المُطَّلِبِ، ودَعَاهُمْ إِلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ مَنْعِ ابْنِ أَخِيهِ، وَحِيَاطَتِهِ والقِيَامِ دُونَهُ، فَأَجَابُوا إِلَىٰ ذَلِكَ، وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَىٰ أَنْ يُدْخِلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ شِعْبَهُمْ[٤]: شِعْبَ بَنِي هَاشِمٍ، ويَمْنَعُوهُ مِمَّنْ أَرَادَ قَتْلَهُ، فَأَجَابُوا لِذَلِكَ فَانْحَازَتْ بَنُو هَاشِمٍ، وبَنُو المُطَّلِبِ إِلَىٰ أَبِي طَالِبٍ، فَدَخَلُوا مَعَهُ فِي شِعْبِهِ، حَتَّىٰ كُفَّارُهُمْ دَخَلُوا الشِّعْبَ حَمِيَّةً لِلرَّحِمِ، وَالقَرَابَةِ، وَلَمْ يَشُذَّ عَنْ هَذَا الإِجْمَاعِ إِلَّا أَبُو لَهَبِ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَدِ انْحَازَ إِلَىٰ قُرَيْشٍ، وَفَارَقَ بَنِي هَاشِمٍ وبَنِي المُطَّلِبِ.

وكَانَ أَبُو طَالِبٍ يَخَافُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَانَ إِذَا أَخَذَ النَّاسُ

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٨٨).

(٢) انظر البداية والنهاية (٣/٩٤).

(٣) تألَّبوا عليه: تجمَّعوا. انظر لسان العرب (١/١٧٧).

(٤) الشِّعْبُ: هو الطريقُ في الجبَل، وما انفرَجَ بينَ جبَلين. انظر لسان العرب (٧/١٢٨).

مَضَاجِعَهُمْ، أَمَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَتَىٰ فِرَاشَهُ حَتَّىٰ يَرَاهُ مَنْ أَرَادَ بِهِ مَكْرًا، فَإِذَا نَامَ النَّاسُ، أَخَذَ أَحَدَ بَنِيهِ أَوْ إِخْوَتَهُ أَوْ بَنِي عَمِّهِ، فَأَضْجَعَهُ عَلَىٰ فِرَاشِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وأَمَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ بَعْضَ فُرُشِهِمْ فَيَرْقُدَ عَلَيْهَا[1].

۞ شِدَّةُ الحِصَارِ:

لَبِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَالمُسْلِمُونَ فِي الشِّعْبِ ثَلَاثَ سِنِينَ، واشْتَدَّ عَلَيْهِمْ فِيهِنَّ البَلَاءُ وَالجَهْدُ[2]، فَقَدْ قَطَعَتْ عَنْهُمْ قُرَيْشٌ المِيرَةَ[3] والمَادَّةَ، وَقَطَعَتْ عَلَيْهِمُ الأَسْوَاقَ، فكَانُوا لَا يَتْرُكُونَ طَعَامًا يَدْنُو مِنْ مَكَّةَ وَلَا بَيْعًا إِلَّا بَادَرُوا إِلَيْهِ فَاشْتَرَوْهُ دُونَهُمْ لِيَقْتُلَهُمُ الجُوعُ، وكَانَ أَبُو لَهَبٍ يَدُورُ بَيْنَ التُّجَّارِ، وَيَقُولُ لَهُمْ: غَالُوا عَلَىٰ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، حَتَّىٰ لَا يُدْرِكُوا مَعَكُمْ شَيْئًا، وأَنَا أَدْفَعُ لَكُمْ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، فَيَزِيدُونَ عَلَيْهِمْ فِي السِّلْعَةِ قِيمَتَهَا أَضْعَافًا حَتَّىٰ يَرْجِعَ الرَّجُلُ إِلَىٰ أَطْفَالِهِ، وهُمْ يَتَضَاغَوْنَ[4] مِنَ الجُوعِ، ولَيْسَ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ يُطْعِمُهُمْ بِهِ، ويَغْدُو التُّجَّارُ عَلَىٰ أَبِي لَهَبٍ فَيُرْبِحُهُمْ، حَتَّىٰ جَهِدَ المُؤْمِنُونَ، وَمَنْ مَعَهُمْ جُوعًا وَعُرْيًا،

---

(١) انظر دلائل النبوة لأبي نعيم (١/٢٧٣).

(٢) قُلتُ: هذه إحدىٰ الشَّدَائِدِ الثلاثِ التي دَلَّ عليها تأويلُ الغَطَّاتِ الثلاثِ التي غَطّ جِبريلُ عليهِ السلامُ رَسُول اللهِ ﷺ حينَ قَال له: اقرأ، قال: ما أنا بِقَارِئٍ فغطَّهُ جبريلُ عليه السلام ثلاثَ مرَّاتٍ، وقد فصَّلْتُ في ذلكَ في بِداية نُزُولِ الوَحْيِ، فراجعه.

(٣) المِيرَةُ: هي الإبلَ التي تُحمَلُ عليهَا المِيرَةُ، وهي الطعَامُ ونحوُهُ، مما يُجلَبُ للبَيْعِ. انظر النهاية (٤/٣٢٣).

(٤) يتضاغون: يبكون. انظر لسان العرب (٨/٦٩).

وحَتَّىٰ سُمِعَ أَصْوَاتُ صِبْيَانِهِمْ مِنْ وَرَاءِ الشِّعْبِ، واضْطُرُّوا إِلَىٰ أَكْلِ وَرَقِ الشَّجَرِ والجُلُودِ، وهَلَكَ مِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ.

أَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الحِلْيَةِ عَنْ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ...خَرَجْتُ مِنَ اللَّيْلِ أَبُولُ، وَإِذَا أَنَا أَسْمَعُ بِقَعْقَعَةٍ تَحْتَ بَوْلِي، فَإِذَا قِطْعَةٌ جِلْدِ بَعِيرٍ، فَأَخَذْتُهَا وغَسَلْتُهَا، ثُمَّ أَحْرَقْتُهَا، ثُمَّ رَضَضْتُهَا[1] وسَفَفْتُهَا بِالمَاءِ[2]، وَشَرِبْتُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ، فَقَوِيتُ بِهَا ثَلَاثًا[3].

وَضُيِّقَ الحِصَارُ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ، وَانْقَطَعَ عَنْهُمُ العَوْنُ، وَقَلَّ الغِذَاءُ حَتَّىٰ بَلَغَ الجَهْدُ أَقْصَاهُ، وسُمِعَ بُكَاءُ أَطْفَالِهِمْ مِنْ وَرَاءِ الشِّعْبِ، وعَضَّتْهُمُ الأَزَمَاتُ العَصِيبَةُ حَتَّىٰ رَثَىٰ لِحَالِهِمُ الخُصُومُ، ومَعَ اكْفِهْرَارِ[4] الجَوِّ في وُجُوهِهِمْ، فَقَدْ تَحَمَّلُوا فِي ذَاتِ اللهِ الوَيْلَاتِ[5].

وَقَدْ سَرَّ هَذَا الأَمْرُ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، وَكَانَ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَبْعَثَ إِلَىٰ المُحْصُورِينَ طَعَامًا إِلَّا سِرًّا مُسْتَخْفِيًا مِمَّنْ أَرَادَ صِلَتَهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانَ مِمَّنْ يَصِلُهُمْ حَكِيمُ بنُ حِزَامٍ[6] ابْنُ أَخِي السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وهِشَامُ بنُ

---

(١) رُضَاضُ الشَّيْءِ: فُتَاتُهُ، وكلُّ شيءٍ كَسَرْتَهُ، فقد رضدته. انظر لسان العرب (٥/٢٣٠).
(٢) سَفَفْتُهَا بالمَاءِ: أي خَلَطْتُهَا بالماءِ. انظر لسان العرب (٦/٢٨٢).
(٣) انظر حلية الأولياء (١/١٣٦).
(٤) اكْفَهَرَّ: تَغَيَّرَ إلىٰ الغُبْرَةِ مَعَ الغِلَظِ. انظر لسان العرب (١٢/١٣٠).
(٥) انظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ١١٨.
(٦) أسلم حَكِيمُ بنُ حِزَامٍ ﷺ في فَتْحِ مكةَ وحسُن إسلامه.

عَمْرٍو العَامِرِيُّ[1] وكَانَ أَوْصَلَهُمْ لِبَنِي هَاشِمٍ، فكَانَ يَأْتِي بِالبَعِيرِ لَيْلًا فَيُوقِرُهُ[2] طَعَامًا، ثُمَّ يَضْرِبُهُ بِاتِّجَاهِ الشِّعْبِ، ويَتْرُكُ زِمَامَهُ لِيَصِلَ إِلَىٰ المَحْصُورِينَ[3].

۞ بَيْنَ حَكِيمِ بنِ حِزَامٍ وَأَبِي جَهْلٍ:

وفِي ذَاتِ يَوْمٍ كَانَ حَكِيمُ بنُ حِزَامٍ، مَعَهُ غُلَامٌ يَحْمِلُ قَمْحًا يُرِيدُ بِهِ عَمَّتَهُ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وهِيَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَعَهُ فِي الشِّعْبِ فَقَابَلَهُ أَبُو جَهْلٍ فَتَعَلَّقَ بِهِ، وقَالَ لَهُ: أَتَذْهَبُ بِالطَّعَامِ إِلَىٰ بَنِي هَاشِمٍ؟ فَوَاللهِ لَا تَبْرَحُ أَنْتَ وطَعَامُكَ حَتَّىٰ أَفْضَحَكَ بِمَكَّةَ، فَجَاءَهُ أَبُو البَخْتَرِيِّ بنُ هِشَامٍ، فَقَالَ: مَالَكَ وَلَهُ؟

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَحْمِلُ الطَّعَامَ إِلَىٰ بَنِي هَاشِمٍ!.

فَقَالَ لَهُ أَبُو البَخْتَرِيِّ: طَعَامٌ كَانَ لِعَمَّتِهِ عِنْدَهُ بَعَثَتْ إِلَيْهِ، أَفَتَمْنَعُهُ أَنْ يَأْتِيَهَا بِطَعَامِهَا؟

خَلِّ سَبِيلَ الرَّجُلِ، فَأَبَىٰ أَبُو جَهْلٍ حَتَّىٰ نَالَ أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخَرِ، فَأَخَذَ أَبُو البَخْتَرِيِّ لَحْيَ[4] بَعِيرٍ فَضَرَبَهُ بِهِ فَشَجَّهُ، ووَطِئَهُ وَطْئًا شَدِيدًا، وحَمْزَةُ بنُ

---

(١) أسلم هِشَامُ بن عَمرو العَامِرِيُّ ﷺ في فَتحِ مَكةَ، وهوَ مِنَ المُؤَلَّفَةِ قُلوبُهم أعْطَاه الرسول ﷺ دُونَ المِائَةِ مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ. انظر الإصابة (٦/٤٢٦).

(٢) أَوْقَرَ رَاحِلَتَهُ: حَمَّلها. انظر النهاية (٥/١٨٥).

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/٤١٢).

(٤) اللَّحْيَانِ: هُمَا العَظْمَانِ اللذَانِ فيهِمَا الأسنَان من داخِلِ الفَمِ. انظر لسان العرب (١٢/٢٥٩).

عَبْدِ المُطَّلِبِ ﷺ قَرِيبٌ يَرَىٰ ذَلِكَ، وهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وأَصْحَابَهُ، فَيَشْمَتُوا بِهِمْ.

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: ومَعَ كُلِّ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو قَوْمَهُ لَيْلًا ونَهَارًا، سِرًّا وَجَهْرًا، مُبادِيًا بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ لَا يَتَّقِي فِيهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ[1].

قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّد الغَزَالِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ - مُعَلِّقًا عَلَى كَلَامِ ابْنِ إِسْحَاقَ -: لِأَنَّ الاضْطِهَادَ لَا يَقْتُلُ الدَّعَوَاتِ، بَلْ يَزِيدُ جُذُورَهَا عُمْقًا وفُرُوعَهَا امْتِدَادًا، وقَدْ كَسِبَ الإِسْلَامُ أَنْصارًا كَثِيرًا فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ، وكَسِبَ إِلَىٰ جَانِبِ ذَلِكَ أَنَّ المُشْرِكِينَ قَدْ بَدَؤُوا يَنْقَسِمُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، ويَتَسَاءَلُونَ عَنْ صَوَابِ مَا فَعَلُوا، وشَرَعَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَعْمَلُ عَلَىٰ إِبْطَالِ هَذِهِ المُقَاطَعَةِ، ونَقْضِ الصَّحِيفَةِ التِي تَضَمَّنَتْهَا[2].

۞ وِلَادَةُ حَبْرِ الأُمَّةِ وتَرْجُمَانِ القُرْآن:

وَفِي فَتْرَةِ المُقَاطَعَةِ فِي الشِّعْبِ وُلِدَ حَبْرُ الْأُمَّةِ، وتَرْجُمَانُ القُرْآنِ عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قَالَ الإمَامُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: هُوَ حَبْرُ الأُمَّةِ، وفَقِيهُ العَصْرِ، وإِمَامُ التَّفْسِيرِ، أَبُو العَبَّاسِ، عَبْدُ اللهِ ابنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٩٢) - دلائل النبوة لأبي نعيم (١/٢٧٦).

(٢) انظر كتاب فقه السيرة ص ١٢١.

القُرَشِيِّ الهَاشِمِيِّ، مَوْلِدُهُ بِشِعْبِ بَنِي هَاشِمٍ قَبْلَ الهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ.

صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ شَهْرًا، وَحَدَّثَ عَنْهُ بِجُمْلَةٍ صَالِحَةٍ.

وَكَانَ ؓ وَسِيمًا، جَمِيلًا، مَدِيدَ القَامَةِ، مَهِيبًا، كَامِلَ العَقْلِ، ذَكِيَّ النَّفْسِ، مِنْ رِجَالِ الكَمَالِ.

تُوُفِّيَ ؓ بِالطَّائِفِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ لِلْهِجْرَةِ[1].

۞ نَقْضُ الصَّحِيفَةِ وإنْهاءُ المُقَاطَعَةِ:

مَكَثَ بَنُو هَاشِمٍ وبَنُو المُطَّلِبِ بِالشِّعْبِ ثَلَاثَ سِنِينَ[2]، حَتَّىٰ بَلَغَ مِنْهُمُ الجَهْدُ وَالأَذَىٰ مَبْلَغَهُ كَمَا رَأَيْنَا، ثُمَّ قَامَ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، مِنْ أَهْلِ المُرُوءَةِ، وَالضَّمَائِرِ، فِي مُقَدِّمَتِهِمْ: هِشَامُ بنُ عَمْرِو بْنِ رَبِيعَةَ، الذِي تَصِلُهُ بِبَنِي هَاشِمٍ صِلَةُ قَرَابَةٍ، وَكَانَ ذَا شَرَفٍ فِي قَوْمِهِ، وكَانَ قَدْ بَذَلَ جُهْدَهُ أَيَّامَ الحِصَارِ، فَقَدْ مَشَىٰ إِلَىٰ زُهَيْرِ بنِ أَبِي أُمَيَّةَ المَخْزُومِيِّ ـ وكَانَتْ أُمُّهُ عَاتِكَةَ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ ـ فَقَالَ: يَا زُهَيْرُ! أَقَدْ رَضِيتَ أَنْ تَأْكُلَ الطَّعَامَ، وَتَلْبَسَ الثِّيَابَ، وتَنْكِحَ النِّسَاءَ، وَأَخْوَالُكَ حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ، لَا يُبَاعُونَ وَلَا يُبْتَاعُ[3] مِنْهُمْ، وَلَا يَنْكِحُونَ وَلَا

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٣/٣٣١).

(٢) قلتُ: وعَلىٰ هذا يكُونُ حِصَارُ الشِّعْبِ في مُحرم سنة سبع من المَبْعَثِ إلىٰ السنة العاشرة من المَبعثِ، وفيها تُوفي أبو طالب. وانظر فتح الباري (٧/٥٩٠) ـ الطَّبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/١٠١).

(٣) ابْتَاعَ الشَّيْءَ: اشْتَرَاهُ. انظر النهاية (١/١٧٠).

يُنْكَحُ إِلَيْهِمْ، أمَا إِنِّي أَحْلِفُ بِاللهِ لَوْ كَانُوا أَخْوَالَ أَبِي الحَكَمِ بنِ هِشَامٍ، ثُمَّ دَعَوْتَهُ إِلَىٰ مِثْلِ مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ، مَا أَجَابَكُمْ إِلَيْهِ أَبَدًا، قَالَ: وَيْحَكَ يَا هِشَامُ! فَمَاذَا أَصْنَعُ؟ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَاللهِ لَوْ كَانَ مَعِيَ رَجُلٌ آخَرُ لَقُمْتُ فِي نَقْضِهَا حَتَّىٰ أَنْقُضَهَا، قَالَ: قَدْ وَجَدْتُ رَجُلًا، قَالَ: مَنْ هُوَ؟.

قَالَ: أَنَا، قَالَ لَهُ زُهَيْرٌ: ابْغِنَا رَجُلًا ثَالِثًا.

فَذَهَبَ إِلَىٰ المُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ، فَقَالَ: يَا مُطْعِمُ! أَقَدْ رَضِيتَ أَنْ يَهْلِكَ بَطْنَانِ(١) مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَنْتَ شَاهِدٌ عَلَىٰ ذَلِكَ، مُوَافِقٌ لِقُرَيْشٍ فِيهِ؟

أَمَا وَاللهِ لَئِنْ أَمْكَنْتُمُوهُمْ مِنْ هَذِهِ لَتَجِدُنَّهُمْ إِلَيْهَا مِنْكُمْ أَسْرَعُ، قَالَ: وَيْحَكَ! فَمَاذَا أَصْنَعُ؟ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، قَالَ: قَدْ وَجَدْتُ ثَانِيًا، قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: أَنَا، قَالَ: ابْغِنَا ثَالِثًا، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: زُهَيْرُ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: ابْغِنَا رَابِعًا، فَذَهَبَ إِلَىٰ أَبِي البَخْتَرِيِّ بنِ هِشَامٍ، فَقَالَ لَهُ نَحْوًا مِمَّا قَالَ لِلْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ، فَقَالَ: وَهَلْ مِنْ أَحَدٍ يُعِينُ عَلَىٰ هَذَا؟

قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَنْ هُوَ؟، قَالَ: زُهَيْرُ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ، وَالمُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ، وَأَنَا مَعَكَ، قَالَ: ابْغِنَا خَامِسًا.

فَذَهَبَ إِلَىٰ زَمْعَةَ بنِ الأَسْوَدِ بْنِ المُطَّلِبِ فَكَلَّمَهُ، وَذَكَرَ لَهُ قَرَابَتَهُمْ وَحَقَّهُمْ، فَقَالَ لَهُ: وَهَلْ عَلَىٰ هَذَا الأَمْرِ الذِي تَدْعُونِي إِلَيْهِ مِنْ أَحَدٍ؟.

(١) البَطْنُ: مَا دُونَ القَبِيلَةِ وفَوْقَ الفَخِذِ. انظر النهاية (١/١٣٧).

قَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ سَمَّىٰ لَهُ القَوْمَ.

فَاتَّعَدُوا[١] الحَجُونِ[٢] لَيْلًا بِأَعْلَىٰ مَكَّةَ.

فَاجْتَمَعُوا هُنَالِكَ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ، وتَعَاقَدُوا عَلَىٰ القِيَامِ فِي الصَّحِيفَةِ حَتَّىٰ يَنْقُضُوهَا، وَقَالَ زُهَيْرٌ: أَنَا أَبْدَؤُكُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَتَكَلَّمُ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا إِلَىٰ أَنْدِيَتِهِمْ[٣]، وغَدَا زُهَيْرُ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ عَلَيْهِ حُلَّةٌ، فَطَافَ بِالبَيْتِ سَبْعًا، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ فَقَالَ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ! أَنَأْكُلُ الطَّعَامَ، ونَلْبَسُ الثِّيَابَ، وبَنُو هَاشِمٍ هَلْكَىٰ لَا يُبَاعُونَ وَلَا يُبْتَاعُ مِنْهُمْ؟ وَاللهِ لَا أَقْعُدُ حَتَّىٰ تُشَقَّ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ القَاطِعَةُ الظَّالِمَةُ.

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ، وَكَانَ فِي نَاحِيَةِ المَسْجِدِ: كَذَبْتَ وَاللهِ لَا تُشَقُّ، فَقَالَ زَمْعَةُ بنُ الأَسْوَدِ: أَنْتَ وَاللهِ أَكْذَبُ، مَا رَضِينَا كِتَابَهَا حَيْثُ كُتِبَتْ!.

فَقَالَ أَبُو البَخْتَرِيِّ: صَدَقَ زَمْعَةُ، لَا نَرْضَىٰ مَا كُتِبَ فِيهَا، وَلَا نُقِرُّ بِهِ.

فَهُنَا قَامَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ، فَقَالَ: صَدَقْتُمَا، وَكَذَبَ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ، نَبْرَأُ إِلَىٰ اللهِ مِنْهَا، وَمِمَّا كُتِبَ فِيهَا، وقَالَ هِشَامُ بنُ عَمْرٍو نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ.

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ: هَذَا أَمْرٌ قُضِيَ بِلَيْلٍ، تُشُووِرَ فِيهِ فِي غَيْرِ هَذَا المَكَانِ.

---

(١) اتَّعَدُوا: أي تَوَاعَدُوا. انظر لسان (١٥/٣٤٢).

(٢) الحَجُونِ: هوَ الجَبَل المُشْرف ممَّا يلي شِعْبَ الجَزَّارِينَ بمكةَ. انظر النهاية (١/٣٣٥).

(٣) النَّادِي: مُجْتَمَعُ القَوْمِ وأَهْلُ المَجْلِسِ. انظر النهاية (٥/٣١).

إِخْبَارُ الرَّسُولِ ﷺ عَمَّهُ بِنَقْضِ الصَّحِيفَةِ:

وكَانَ الرَّسُولُ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ أَنَّ اللهَ قَدْ أَطْلَعَهُ عَلَىٰ أَمْرِ الصَّحِيفَةِ، وأَنَّهُ سَلَّطَ عَلَيْهَا الأَرَضَةَ[1] فَلَحَسَتْ كُلَّ مَا كَانَ فِيهَا مَنْ جَوْرٍ، أَوْ ظُلْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ أَوْ بُهْتَانٍ[2]، ولَمْ تَدَعْ فِيهَا اسْمًا للهِ إِلَّا أَثْبَتَتْهُ فِيهَا.

وفِي رِوَايَةٍ: لَمْ تَتْرُكِ الأَرَضَةُ اسْمًا للهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا لَحَسَتْهُ، وبَقِيَ مَا فِيهَا مِنْ شِرْكٍ، أَوْ ظُلْمٍ بَغْيٍ، وَالرِّوَايَةُ الأُولَىٰ أَثْبَتُ[3]، فَلَمَّا ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَلِكَ لِعَمِّهِ، قَالَ لَهُ: أَرَبُّكَ أَخْبَرَكَ بِهَذَا؟

قَالَ: «نَعَمْ»، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: لَا وَالثَّوَاقِبِ[4] مَا كَذَبْتَنِي.

صِدْقُ الرَّسُولِ ﷺ فِيمَا قَالَ:

فَانْطَلَقَ يَمْشِي فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، حَتَّىٰ أَتَوا المَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَتْهُمْ قُرَيْشٌ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ خَرَجُوا مِنْ شِدَّةِ البَلَاءِ لِيُسْلِمُوهُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَتَكَلَّمَ أَبُو طَالِبٍ، فَقَالَ: قَدْ حَدَثَتْ أُمُورٌ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ، فَأْتُوا بِصَحِيفَتِكُمْ الَّتِي فِيهَا مَوَاثِيقُكُمْ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ صُلْحٌ - وإِنَّمَا قَالَ أَبُو طَالِبٍ ذَلِكَ خَشْيَةَ أَنْ يَنْظُرُوا فِي الصَّحِيفَةِ قَبْلَ أَنْ يَأْتُوا بِهَا - ثُمَّ قَالَ أَبُو طَالِبٍ: إِنَّمَا أَتَيْتُكُمْ لِأُعْطِيَكُمْ أَمْرًا

(١) الأَرَضَةُ: هِيَ دُوَيْبَّةٌ تَأْكُلُ الخَشَبَ ونحوه. انظر لسان العرب (١/١١٩).
(٢) البُهْتَانُ: هوَ الكَذِبُ والافْتِرَاءُ. انظر النهاية (١/١٦٢).
(٣) انظر فتح الباري (٧/٥٩٠).
(٤) الثَّوَاقِبُ: هي الكَوَاكِبُ المُضِيئَةُ. انظر لسان العرب (٢/١١١).

فِيهِ نَصَفٌ[1] بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، إِنَّ ابْنَ أَخِي قَدْ أَخْبَرَنِي ولَمْ يَكْذِبْنِي قَطُّ، أَنَّ اللهَ سَلَّطَ عَلَىٰ صَحِيفَتِكُمْ التِي كَتَبْتُمُ الأَرَضَةَ، فَأَكَلَتْ جَمِيعَ مَا فِيهَا إِلَّا: «بِاسِمِكَ اللَّهُمَّ»[2].

وفِي رِوَايَةٍ قَالَ: لَمْ تَتْرُكْ فِيهَا اسْمًا للهِ إِلَّا لَحَسَتْهُ، وتَرَكَتْ فِيهَا غَدْرَكُمْ وتَظَاهُرَكُمْ عَلَيْنَا بِالظُّلْمِ، فَإِنْ كَانَ الحَدِيثُ كَمَا يَقُولُ فَأَفِيقُوا، فَوَاللهِ لَا نُسْلِمُهُ حَتَّىٰ نَمُوتَ عَنْ آخِرِنَا، وإِنْ كَانَ الذِي يَقُولُ بَاطِلًا دَفَعْنَا إِلَيْكُمْ صَاحِبَنَا، فَقَتَلْتُمْ أَوِ اسْتَحْيَيْتُمْ، فَقَالُوا: قَدْ أَنْصَفْتَنَا رَضِينَا بِالذِي تَقُولُ، فَفَتَحُوا الصَّحِيفَةَ، فَوَجَدُوا الأَمْرَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ ﷺ، فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ صِدْقَ مَا جَاءَ بِهِ أَبُو طَالِبٍ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَنُكِسُوا عَلَىٰ رُؤوسِهِمْ، ثُمَّ قَالُوا: هَذَا سِحْرُ ابنِ أَخِيكَ، وزَادَهُمْ ذَلِكَ بَغْيًا وعُدْوَانًا.

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! عَلَامَ نُحْبَسُ ونُحْصَرُ، وَقَدْ بَانَ الأَمْرُ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّكُمْ أَوْلَىٰ بِالظُّلْمِ، وَالقَطِيعَةِ، والإِسَاءَةِ؟

ثُمَّ دَخَلَ هُوَ وأَصْحَابُهُ بَيْنَ أَسْتَارِ الكَعْبَةِ وَالكَعْبَةِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ! انْصُرْنَا عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَنَا، وَقَطَعَ أَرْحَامَنَا، واسْتَحَلَّ مَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ مِنَّا، ثُمَّ انْصَرَفُوا إِلَىٰ الشِّعْبِ.

---

(١) النَّصَفُ: أيْ أَمْرٌ وَسَطٌ. انظر لسان العرب (١٤/١٦٦).

(٢) قال الإمام الطبري في تاريخه (١/٥٥٣): وهي فَاتِحَةُ ما كَانَتْ تَكْتُبُ قُرَيْشٌ، تَفْتَتِحُ بها كِتَابَهَا إذا كَتَبَتْ.

وعِنْدَ ذَلِكَ قَامَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ إِلَىٰ الصَّحِيفَةِ فَمَزَّقَهَا، ثُمَّ مَشَىٰ إِلَىٰ أُولَئِكَ الرَّهْطِ مِنْ قُرَيْشٍ الذِينَ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَىٰ نَقْضِ الصَّحِيفَةِ، فَلَبِسُوا السِّلَاحَ ثُمَّ خَرَجُوا إِلَىٰ بَنِي هَاشِمٍ وبَنِي المُطَّلِبِ فَأَمَرُوهُمْ بِالخُرُوجِ إِلَىٰ مَسَاكِنِهِمْ، فَفَعَلُوا.

وكَانَ خُرُوجُهُمْ مِنَ الشِّعْبِ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ العَاشِرَةِ مِنَ البِعْثَةِ[1].

آخِرُ مُفَاوَضَاتِ قُرَيْشٍ مَعَ أَبِي طَالِبٍ:

خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الشِّعْبِ يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وعَادَتْ قُرَيْشٌ لِشَرِّ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ، وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالشِّدَّةِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَصْحَابِهِ، وَظَلَّ أَبُو طَالِبٍ يَحُوطُ ابنَ أَخِيهِ، ويَمْنَعُهُ إِلَىٰ أَنْ لَاحَقَهُ المَرَضُ وَاشْتَدَّ بِهِ، وحِينَئِذٍ حَاوَلَ المُشْرِكُونَ مَرَّةً أُخْرَىٰ أَنْ يُفَاوِضُوا النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَ يَدَيْ أَبِي طَالِبٍ، لِخَوْفِهِمْ أَنْ تُعَيِّرَهُمُ العَرَبُ إِنْ أَتَوْا بَعْدَ وَفَاتِهِ بِمُنْكَرٍ عَلَىٰ ابْنِ أَخِيهِ، فَيَقُولُونَ: تَرَكُوهُ حَتَّىٰ إِذَا مَاتَ عَمُّهُ تَنَاوَلُوهُ.

فَلَمَّا اشْتَكَىٰ[2] أَبُو طَالِبٍ وبَلَغَ قُرَيْشًا ثِقَلُهُ، قَالَتْ قُرَيْشٌ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ: إِنَّ

---

(١) انظر تفاصيل المقاطعة في:
سيرة ابن هشام (٣٨٨/١) - الطَّبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/١٠٠) - دلائل النبوة للبيهقي (٣١١/٢) - دلائل النبوة لأبي نعيم (٢٧١/١) - فتح الباري (٧/ ٥٨٩) - البداية والنهاية (٩٣/٣) - وروىٰ البخاري في صحيحه - كتاب الأنصار - باب تقاسم المشركين علىٰ النبي ﷺ - رقم الحديث (٣٨٨٢) - مختصرًا جدًا عن المقاطعة.

(٢) أي مَرِضَ.

حَمْزَةَ وعُمَرَ قَدْ أَسْلَمَا، وَقَدْ فَشَا أَمْرُ مُحَمَّدٍ فِي قَبَائِلِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا، فَانْطَلِقُوا بِنَا إِلَىٰ أَبِي طَالِبٍ، فَلْيَأْخُذْ لَنَا عَلَىٰ ابْنِ أَخِيهِ، ولْيُعْطِهِ مِنَّا، وَاللهِ مَا نَأْمَنُ أَنْ يَبْتَزُّونَا[١] أَمْرَنَا.

فَمَشَىٰ إِلَيْهِ أَشْرَافُهُمْ، وَكَانُوا خَمْسَةٌ وعِشْرُونَ رَجُلًا، مِنْهُمْ: عُتْبَةُ وشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ، وأَبُو جَهْلِ بنُ هِشَامٍ، وَأُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ، وأَبُو سُفْيَانَ بنُ حَرْبٍ، وَالعَاصُ بنُ وَائِلٍ، والأَسْوَدُ بنُ المُطَّلِبِ، والأَسْوَدُ بنُ عَبْدِ يَغُوث، فَقَدَّمُوا رَجُلًا مِنْهُمْ، فَاسْتَأْذَنَ لَهُمْ عَلَىٰ أَبِي طَالِبٍ، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ، قَالُوا: يَا أَبَا طَالِبٍ! إِنَّكَ كَبِيرُنَا وسَيِّدُنَا، فَأَنْصِفْنَا مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، فَمُرْهُ فَلْيَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا ونَدَعَهُ وإِلَهَهُ - وفِي لَفْظٍ: قَالُوا يَا أَبَا طَالِبٍ! إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَىٰ، وتَخَوَّفْنَا عَلَيْكَ، وقَدْ عَلِمْتَ الذِي بَيْنَنَا وبَيْنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَادْعُهُ، فَخُذْ لَهُ مِنَّا، وخُذْ لَنَا مِنْهُ، لِيَكُفَّ عَنَّا، وَنَكُفَّ عَنْهُ، ولِيَدَعَنَا ودِينَنَا، ونَدَعَهُ ودِينَهُ.

فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَبُو طَالِبٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ البَيْتَ، وبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَبِي طَالِبٍ قَدْرُ مَجْلِس رَجُلٍ، فَخَشِيَ أَبُو جَهْلٍ إِنْ جَلَسَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَىٰ جَنْبِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَكُونَ أَرَقَّ لَهُ عَلَيْهِ، فَوَثَبَ فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ المَجْلِسِ، ولَمْ يَجِدِ

---

(١) ابتَزَّهُ: أي قَهَرَهُ وغَلَبَهُ. انظر النهاية (١/١٢٥).

النَّبيُّ ﷺ مَجلِسًا قُرْبَ عَمِّهِ فَجَلَسَ عِنْدَ البَابِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي! هَؤُلَاءِ أَشْرَافُ قَوْمِكَ، قَدِ اجْتَمَعُوا لَكَ، لِيُعْطُوكَ ولِيَأْخُذُوا مِنْكَ، وفِي لَفْظٍ: هَؤُلَاءِ مَشْيَخَةُ قَوْمِكَ، وَقَدْ سَأَلُوكَ أَنْ تَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِهِمْ، ويَدَعُوكَ وإِلَهَكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ فَقَدْ أَنْصَفُوكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ هَذِهِ، هَلْ أَنْتُمْ مُعْطِيَّ كَلِمَةً إِنْ أَنْتُمْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا مَلَكْتُمْ بِهَا العَرَبَ، ودَانَتْ لَكُمْ بِهَا العَجَمُ؟»**.

وفِي رِوَايَةٍ: فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي! مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا العَرَبُ، وتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ العَجَمُ الجِزْيَةَ»**، قَالَ أَبُو طَالِبٍ: كَلِمَةً وَاحِدَةً؟ قَالَ ﷺ: **«كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ»**، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ: نَعَمْ وأَبِيكَ، وعَشْرَ كَلِمَاتٍ.

وفِي رِوَايَةٍ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ مِنْ بَيْنِ القَوْمِ: إِنَّ هَذِهِ لَكَلِمَةٌ مُرْبِحَةٌ، لَنُعْطِيَنَّكَهَا وَعَشْرًا مَعَهَا فَمَا هِيَ؟.

قَالَ ﷺ: **«تَقُولُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وتَخْلَعُونَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ»**.

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللهِ يَا ابْنَ أَخِي مَا رَأَيْتُكَ سَأَلْتَهُمْ شَطَطًا[1].

---

(١) أي ما ظَلَمْتَهُم بسُؤَالِكَ. انظر النهاية (٢/٤٢٥).
الشَّطَطُ: هوَ الجَوْرُ في الحُكْم. انظر لسان العرب (٧/١١٩).
ومنهُ قوله تعَالَىٰ في سورة الكهف آية (١٤): ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا =

أَمَّا زُعَمَاءُ المُشْرِكِينَ فَصَفَّقُوا بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ قَالُوا: أَتُرِيدُ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تَجْعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ إِنَّ أَمْرَكَ لَعَجَبٌ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللهِ مَا هَذَا الرَّجُلُ بِمُعْطِيكُمْ شَيْئًا مِمَّا تُرِيدُونَ، فَانْطَلِقُوا وَامْضُوا عَلَىٰ دِينِ آبَائِكُمْ، حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُ، ثُمَّ قَامُوا مِنْ عِنْدِهِ وَهُمْ يَقُولُونَ: وَاللهِ لَنَشْتُمَنَّكَ، وَإِلَهَكَ الذِي يَأْمُرُكَ بِهَذَا.

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ[1] ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ[2] ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ[3] حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ

= رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

(١) قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإسماعيل بن أبي خالد، وابن عيينة: أي ذِي الشَّأْنِ والمَكَانَةِ. انظر تفسير ابن كثير (٧/٥١).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/٥١): أي إنَّ في هذا القرآن لَذِكْرًا لمن يتذَكَّر، وعِبْرة لمن يَعْتَبِرَ، وإنما لم يَنْتَفِعْ بهِ الكافِرُونَ لأنَّهُمْ «في عِزَّةٍ» أي اسْتِكْبارًا عنهُ وحَمِيَّةً، و«شِقَاق» أي: مُخَالَفَةٍ له ومُعَانَدَةٍ ومُفَارَقَةٍ.

(٣) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/٥٢ ـ ٥٣): هذه الكلمة وهي «لَاتَ»، هِي: «لا» التِي للنَّفْيِ، زِيدتْ معها «التَّاءُ»، كما تُزَادُ في «ثَمَّ»، فيقولون: ثَمَّتَ، و«رُبَّ»، فيقولون: رُبَّتْ، وهي مَفْصُولةٌ، والوَقْفُ عليها.
وأنشدَ بعضُهم: وَلَاتَ سَاعَةَ مَنْدَمٍ.
بِخَفْضِ السَّاعة، وأهلُ اللغةِ يَقولونَ: النَّوصُ: التَّأَخُّرُ، والبَوصُ: التَقدُّمُ، ولهذَا قَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾: أي ليسَ الحِينُ حِينَ فِرَارٍ ولا ذَهَابٍ.

ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ[1] يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾[2].

** ** **

(١) قال الإمام الطبري في تفسيره (١٠/٥٥٢): أي: أن هذا القول الذي يقول محمد، ويدعونا إليه، من قول لا إله إلا الله، شيءٌ يريده منا محمد يطلب به الاستعلاء علينا، وأن نكون له فيه أتباعًا، ولسنا مجيبيه إلى ذلك.

(٢) أخرج هذه القصة: الإمام الترمذي في جامعه ـ كتاب تفسير القرآن ـ باب سورة ص ـ رقم الحديث (٣٥١٢) ـ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح ـ والإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٠٠٨) ـ وابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب ذكر الإخبار عن أداء العجم الجزية إلى العرب ـ رقم الحديث (٦٦٨٦) ـ وابن إسحاق في السيرة (٢/٣١) ـ وإسنادها ضعيف ـ وأخرجها الحاكم في المستدرك ـ كتاب التفسير ـ باب سورة ص ـ رقم الحديث (٣٦٧٠) ـ وإسناده حسن.

وَفاةُ أَبِي طَالِبٍ[1]

وَلَمْ يَلْبَثْ أَبُو طَالِبٍ أَنْ وَافَتْهُ المَنِيَّةُ، وكَانَتْ وَفَاتُهُ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الشِّعْبِ فِي آخِرِ السَّنَةِ العَاشِرَةِ مِنَ المَبْعَثِ[2]، وذَلِكَ قَبْلَ الهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ وهُوَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً[3].

ولَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ[4] دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، وعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ وعَبْدُ اللهُ

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/٥٩١)، والإصابة (٧/١٩٦): أبو طالب، واسمُهُ عندَ الجَمِيعِ عَبْدُ مَنَافٍ، وُلِدَ قبل النبي ﷺ بخمس وثلاثين سنة، وكان شَقِيقَ عبدِ اللهِ والدَ رَسُول اللهِ ﷺ، ولذلكَ أَوْصَىٰ به عبدُ المُطَّلِبِ عِنْدَ موتِهِ فكفِلَهُ إلىٰ أن كَبُرَ، واستمَرَّ علىٰ نَصْرِهِ بعد أن بُعِث إلىٰ أن مات أبو طالب، وكان يَذُبُّ عن النبي ﷺ، ويَرُدُّ عنه كل من يُؤْذِيهِ، وأخباره في حِيَاطَتِهِ، والذَّبِّ عنه مَعروفة مشهورَة، ومما اشتهر من شِعْرِهِ في ذلك قوله:

والله لَــنْ يَصِــلُوا إليــكَ بِجمعِهِــمْ ... حتَّــىٰ أُوسَّــدَ فــي التُّــرَابِ دَفِينَـا

وهو مُقيمٌ مع ذلك علىٰ دِين قومِهِ، وتوفي بعد خُرُوجه ﷺ من الشِّعبِ في العَامِ العاشر منَ المَبْعَثِ.

(٢) قلتُ: اخْتُلِفَ في الشهر الذي مات فيه أبو طالب، فقيل: في رمضان، وقيل: في شوال، وقيل: في رجب. والله أعلم.

(٣) انظر فتح الباري (٧/٥٩١) - زاد المعاد (١/٩٥) - الطبَقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/٥٩).

(٤) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١/١٩٠): المراد قَرُبَتْ وفاته، وحضَرَت دلائلها، وذلك قبل المُعَايَنَةِ والنَّزْعِ، ولو كان في حالِ المُعاينة لما نَفَعَهُ الإيمان لقوله تَعَالَىٰ في سورة النساء آية (١٨): ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾. ويدُل علىٰ أنه قبل المُعَاينة محاوَرَتُهُ للنبي ﷺ، ومعَ كُفَّارِ قريش.

بنُ أَبِي أُمَيَّةَ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَيْ عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ**[1] **لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟

فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ[2].

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ**»[3].

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَمِّهِ: «**قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، قَالَ: لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ: يَقُولُونَ:

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٥٩٣): أُحَاجُّ: بتشديدِ الجيم وأصلُهُ أُحَاجِجُ، وكأنهُ ﷺ فَهِمَ من امتِنَاعِ أبي طالب منَ الشَّهادَةِ في تلك الحالةِ أنه ظَنَّ أن ذلك لا يَنْفَعُهُ لِوُقُوعِهِ عند المَوْتِ، أو لكونه لم يتمكَّنْ من سائر الأعمالِ كالصلاةِ وغيرها، فلذلك ذَكَرَ لَهُ المُحَاجَجَةَ.

(٢) قلتُ: انظروا وتأمَّلُوا أثر الصُّحبة الفاسدةِ كيفَ جعلت أبا طالب يموتُ علىٰ الكفر، وصَدَقَ الرسول ﷺ عندَما قال: «**المرءُ علىٰ دِينِ خليلِهِ، فلْيَنْظُرْ أحدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**»، وفي رِواية: «**مَنْ يُخَالِطْ**». رواه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٨٤١٧)، (٤٠٢٨) ـ وأبو داود في سننه ـ كتاب الأدب ـ باب من يؤمر أن يجالس ـ رقم الحديث (٤٨٣٣) وإسناده جيد.
وقالَ الشَّاعر:

عنِ المرءِ لا تَسَلْ وسَلْ عن قَرِينِهِ ... فكُلُّ قَرِينٍ بالمُقَارَنِ يَقْتَدِي
فإنْ كَانَ ذَا شَرٍّ فَجَنِّبْهُ سُرْعَةً ... وإنْ كَانَ ذَا خَيْرٍ فَقَارِنْهُ تَهْتَدِي
إذَا كُنْتَ في قومٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ ... ولا تَصْحَبِ الأرْدَىٰ فَتَرْدَىٰ مَعَ الرَّدِي

(٣) أخرج ذلك: البخاري في صحيحه ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب قصة أبي طالب ـ رقم الحديث (٣٨٨٤) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت.. ـ رقم الحديث (٢٤).

إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ، لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1].

❁ فَوَائِدُ الْحَدِيثِ:

قَالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: وفِي هَذَا الحَدِيثِ:

١ ـ جَوَازُ زِيَارَةِ القَرِيبِ المُشْرِكِ وَعِيَادَتُهُ.

٢ ـ وَفِيهِ أَنَّ التَّوْبَةَ مَقْبُولَةٌ وَلَوْ فِي شِدَّةِ مَرَضِ المَوْتِ، حتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ المُعَايَنَةِ فَلَا يُقْبَلُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾[2].

٣ ـ وَفِيهِ أَنَّ الكَافِرَ إِذَا شَهِدَ شَهَادَةَ الحَقِّ نَجَا مِنَ العَذَابِ؛ لِأَنَّ الإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ.

٤ ـ وَفِيهِ أَنَّ عَذَابَ الكُفَّارِ مُتَفَاوِتٌ، وَالنَّفْعُ الذِي حَصَلَ لِأَبِي طَالِبٍ مِنْ خَصَائِصِهِ بِبَرَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وإِنَّمَا عَرَضَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَمْ يَقُلْ فِيهَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ؛ لِأَنَّ الكَلِمَتَيْنِ صَارَتَا كَالكَلِمَةِ الوَاحِدَةِ، ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَبُو طَالِبٍ كَانَ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَلَكِنْ لَا يُقِرُّ بِتَوْحِيدِ اللهِ، وَلِهَذَا قَالَ فِي الأَبْيَاتِ النُّونِيَّةِ:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت. . ـ رقم الحديث (٢٥) (٤٢).

(٢) سورة غافر آية (٨٥).

وَدَعَـوْتَنِي وَعَلِمْـتُ أَنَّـكَ صَـادِقٌ ... وَلَقَـدْ صَـدَقْتَ وَكُنْـتَ قَبْـلُ أَمِينَـا

فَاقْتَصَرَ عَلَىٰ أَمْرِهِ بِقَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ لَمْ يَتَوَقَّفْ عَلَىٰ الشَّهَادَةِ بِالرِّسَالَةِ[1].

❁ اسْتِغْفَارُ المُسْلِمِينَ لِمَوْتَاهُمُ الكُفَّارِ:

وَأَخَذَ المُسْلِمُونَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَوْتَاهُمُ الذِينَ مَاتُوا وَهُمْ مُشْرِكُونَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[2].

وأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ كَذَلِكَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[3].

---

(١) انظر فتح الباري (٧/٥٩٤).

(٢) سورة التوبة آية (١١٣).

(٣) سورة القصص آية (٥٦).

قال الحافظ في الفتح (٧/٥٩٣) - (٩/٤٥٩): أما نُزول هذهِ الآيةِ الثانيةِ فَواضِحٌ في قِصَّةِ أبي طالب، وأما نُزُولُ التي قبلها فَفِيهِ نظرٌ، ويظهرُ أنَّ المُراد أن الآية المُتَعَلِّقَةَ بالاستغفارِ نَزَلت بعدَ أبي طالب بِمُدَّةٍ، وهي عامَّة في حقِّه وفي حَقِّ غيره، ويُؤَيِّدُ تأخيرَ النُّزُولِ، ما تقدَّمَ في تفسيرِ براءَة من استغفارِ النبيِّ ﷺ للمُنَافِقِينَ حتىٰ نَزَلَ النهيُ عن ذلك، فإن ذلك يَقْتَضِي تأخِيرَ النُّزُولِ، وإن تَقَدَّمَ السَّبب، ويُشير إلىٰ ذلك أيضًا قوله في حديثِ البابِ وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لأنهُ يُشْعِرُ بأن الآية الأولىٰ نزلت في أبِي طالب وفي غيره، والثانية نزلت فيه وَحْدَه، ويؤيِّدُ تعدُّدَ السَّبَبِ ما أخرجَ أحمدُ في مسندِهِ بسندٍ حسن - رقم الحديث (٧٧١) من طريق أبي إسحاق عن=

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ: هُوَ أَعْلَمُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الغِوَايَةَ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ كَانَ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ، ويَقُومُ فِي صَفِّهِ ويُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا طَبِيعِيًّا لَا شَرْعِيًّا، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ وَحَانَ أَجَلُهُ، دَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الإِيمَانِ، وَالدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ، فَسَبَقَ القَدَرُ فِيهِ، وَاخْتُطِفَ مِنْ يَدِهِ، فَاسْتَمَرَّ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ، وَللهِ الحِكْمَةُ التَّامَّةُ[1].

۞ عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ لِمَنْ تَدَبَّرَ:

وإِنَّ الإِنْسَانَ لَيَقِفُ أَمَامَ هَذَا الخَبَرِ مَأْخُوذًا بِصَرَامَةِ هَذَا الدِّينِ وَاسْتِقَامَتِهِ، فَهَذَا عَمُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَافِلُهُ وحَامِيهِ وَالذَّائِدُ عَنْهُ، لَا يَكْتُبُ اللهُ لَهُ الإِيمَانَ، عَلَىٰ شِدَّةِ حُبِّهِ لرَسُولِ اللهِ ﷺ، وشِدَّةِ حُبِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ. ذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا قَصَدَ إِلَىٰ عَصَبِيَّةِ القَرَابَةِ وحُبِّ الأُبُوَّةِ، وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَىٰ العَقِيدَةِ. وَقَدْ عَلِمَ اللهُ هَذَا مِنْهُ، فَلَمْ يُقَدِّرْ لَهُ مَا كَانَ يُحِبُّهُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ويَرْجُوهُ. فَأَخْرَجَ هَذَا الأَمْرَ - أَمْرَ الهِدَايَةِ - مِنْ حِصَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعَلَهُ خَاصًّا بِإِرَادَتِهِ سُبْحَانَهُ وتَقْدِيرِهِ. ومَا عَلَىٰ الرَّسُولِ إِلَّا البَلَاغُ، ومَا عَلَىٰ الدَّاعِينَ بَعْدَهُ إِلَّا النَّصِيحَةَ. وَالقُلُوبُ بَعْدَ

= أبي الخَلِيلِ عن علي قال: سمعتُ رَجُلًا يستغْفِرُ لأبويه، وهُمَا مُشْرِكَانِ، فقلتُ: أَيَسْتَغْفِرُ الرجلُ لأبويهِ وهُما مشركان؟ فقال: أَوَلَمْ يَسْتَغْفِرْ إبرَاهِيمُ لأبيهِ؟ فذكرتُ ذلكَ للنبيِّ ﷺ فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ... إلىٰ قوله تَعالَىٰ: تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ (سورة التوبة آية ١١٣ - ١١٤).

(١) انظر تفسير ابن كثير (٦/٢٤٦).

ذَلِكَ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، وَالهُدَىٰ وَالضَّلَالُ وِفْقَ مَا يَعْلَمُهُ مِنْ قُلُوبِ العِبَادِ وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِلْهُدَىٰ أَوْ لِلضَّلَالِ[1].

۞ دَفْنُ أَبِي طَالِبٍ:

رَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ، وَالطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا مَاتَ أَبُو طَالِبٍ، أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ عَمَّكَ الشَّيْخَ الضَّالَّ قَدْ مَاتَ.

فَقَالَ ﷺ: «اذْهَبْ فَوَارِ[2] أَبَاكَ، ثُمَّ لَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّىٰ تَأْتِيَنِي».

قَالَ ﷺ: فَوَارَيْتُهُ، ثُمَّ جِئْتُهُ، فَأَمَرَنِي، فَاغْتَسَلْتُ، وَدَعَا لِي[3].

۞ مَصِيرُ أَبِي طَالِبٍ:

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ الحَارِثِ عَنِ العَبَّاسِ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ ﷺ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَوَاللهِ كَانَ يَحُوطُكَ[4]

---

(١) انظر في ظلال القرآن (٥/٢٧٠٣).

(٢) التَّوَارِي: الاستِتَارُ، أرادَ بهِ الدَّفْنَ. انظر جامع الأصول (٧/٣٣٧).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ـ كتاب الجنائز ـ باب الرجل يموت وله قرابة مشرك ـ رقم الحديث (٣٢١٤) ـ والطيالسي في مسنده ـ رقم الحديث (١٢٢) ـ وأورده الذهبي في السيرة النبوية (١/١٩٣) وقال: هذا حديث حسن متصل.

(٤) قال الإمام النووي في شرح مسلم (٣/٧١): يُقال: حَاطَهُ يَحُوطُهُ حَوْطًا وحِيَاطَةً: إذا صَانَهُ وحَفِظَهُ وذَبَّ عَنْهُ.

ويَغْضَبُ لَكَ، فَقَالَ ﷺ: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ[1] مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[2].

وَرَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ فَقَالَ: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ»[3].

قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ: وَالنَّفْعُ الَّذِي حَصَلَ لِأَبِي طَالِبٍ مِنْ خَصَائِصِهِ بِبَرَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ[4].

وَأَخْرَجَ الإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»[5].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/٥٩٢): الضَّحْضَاحُ: هوَ استِعَارَةٌ، فإن الضَّحْضَاحَ منَ الماء ما يَبْلُغُ الكَعْبَ، والمعنىٰ أنه خَفَّفَ عنهُ العذابَ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب قصة أبي طالب ـ رقم الحديث (٣٨٨٣) ـ وأخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه ـ رقم الحديث (٢٠٩).

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب قصة أبي طالب ـ رقم الحديث (٣٨٨٥) ـ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه ـ رقم الحديث (٢١٠).

(٤) انظر فتح الباري (٧/٥٩٤).

(٥) رواه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب أهون أهل النار عذابًا ـ رقم=

قَالَ الإِمَامُ السُّهَيْلِيُّ: الحِكْمَةُ فِيهِ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ تَابِعًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بِجُمْلَتِهِ، إِلَّا أَنَّهُ مُثَبِّتٌ لِقَدَمَيْهِ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَسُلِّطَ العَذَابُ عَلَىٰ قَدَمَيْهِ خَاصَّةً لِتَثْبِيتِهِ إِيَّاهُمَا عَلَىٰ مِلَّةِ آبَائِهِ[1].

قُلْتُ: فَلَمْ يُفْلِحْ أَبُو طَالِبٍ رَغْمَ كُلِّ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الحِيَاطَةِ وَالنَّصْرِ لِرَسُول اللهِ ﷺ.

** ** **

= الحديث (٢١٢) ـ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٦٣٦).

(١) انظر الرَّوْض الأُنُف (٢/٢٢٥).

وَفَاةُ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

إِنَّ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ الجَلِيلَةِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَدْ آزَرَتْهُ فِي أَحْرَجِ الأَوْقَاتِ، وَأَعَانَتْهُ عَلَىٰ إِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ، وشَارَكَتْهُ مَغَارِمَ الجِهَادِ المُرِّ، وَوَاسَتْهُ بِنَفْسِهَا وَمَالِهَا، وإِنَّكَ لَتُحِسُّ قَدْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ عِنْدَمَا تَعْلَمُ أَنَّ مِنْ زَوْجَاتِ الأَنْبِيَاءِ مَنْ خُنَّ[1] الرِّسَالَةَ وَكَفَرْنَ بِرِجَالِهِنَّ، وَكُنَّ مَعَ المُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِهِنَّ وَآلِهِنَّ حَرْبًا عَلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ[2].

۞ وَقْتُ وَفَاتِهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

رَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: تُوُفِّيَتْ خَدِيجَةُ قَبْلَ مَخْرَجِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ المَدِينَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ[3].

---

(١) قال الله تَعَالَىٰ في سورة التحريم آية (١٠): ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/١٧١) في قوله تَعَالَىٰ ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: وليس المرادُ في فاحِشَةٍ، بل فِي الدِّين، فإن نساءَ الأنبياءِ مَعْصُومَاتٌ عن الوُقُوعِ في الفاحِشَةِ، لحُرْمَةِ الأنبياءِ.

(٢) انظر كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ١٢٢.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب تزويج النبي ﷺ عائشة،=

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: وَكَانَ مَوْتُهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَبْلَ الهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ، وَذَلِكَ بَعْدَ المَبْعَثِ عَلَىٰ الصَّوَابِ بِعَشْرِ سِنِينَ(١).

قُلْتُ: مَاتَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَاةُ فِي الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ، لَكِنْ اخْتُلِفَ فِي تَعْيِينِ اليَوْمِ وَالشَّهْرِ، فَقِيلَ: بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وقِيلَ: بِشَهْرٍ، وَقِيلَ: بِشَهْرَيْنِ(٢).

وَدُفِنَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِالحَجُونِ فِي مَقَابِرِ أَهْلِ مَكَّةَ، ونَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حُفْرَتِهَا، وَلَمْ تَكُنْ صَلَاةُ الجَنَازَةِ شُرِعَتْ، وَكَانَتْ مُدَّةُ إِقَامَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَهَا خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، فَقَدْ تُوُفِّيتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَلَهَا مِنَ العُمُرِ خَمْسٌ وسِتُّونَ سَنَةً، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ إِذْ ذَاكَ فِي الخَمْسِينَ مِنْ عُمُرِهِ(٣).

حُزْنُ الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

وَقَدْ وَجِدَ(٤) رَسُولُ اللهِ ﷺ لِفَقْدِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَلَزِمَ

= وقدومها المدينة ـ رقم الحديث (٣٨٩٦).

(١) انظر فتح الباري (٧/٥١٣).

(٢) انظر اختلاف الروايات في موتها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في: دلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٥٢) ـ سبل الهدىٰ والرشاد (٢/٤٣٤).

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢/١١١ ـ ١١٢).

(٤) وَجِدَ: أي حَزِنَ. انظر لسان العرب (١٥/٢٢٠).

بَيْتَهُ، وَأَقَلَّ الخُرُوجَ.

قَالَ ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ: لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا... اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُصِيبَتَانِ[1]، فَلَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَقَلَّ الخُرُوجَ[2].

۞ هَدْيُهُ ﷺ عِنْدَ المُصِيبَةِ:

كَانَ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ عِنْدَ المُصِيبَةِ السُّكُونُ، وَالرِّضَىٰ بِقَضَاءِ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، وَالِاسْتِرْجَاعُ، ويَبْرَأُ مِمَّنْ خَرَّقَ لِأَجْلِ المُصِيبَةِ ثِيَابَهُ، أَوْ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالنَّدْبِ والنِّيَاحَةِ، أَوْ حَلَقَ لَهَا شَعْرَهُ[3].

۞ فَضْلُ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ[4] مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا[5] وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ

---

(١) وهُمَا: مَوْتُ عمِّه أبي طالب، وخَدِيجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) انظر الطبَّقَات الكُبْرىٰ (١/١٠١).

(٣) انظر زاد المعاد (١/٥٠٨).

(٤) في رواية الإمام مسلم في صحيحه قال: أَتَتْكَ.

(٥) قال ابن القيم في جلاء الأفهام ص ٣٤٩: وهذه لعَمْرُ اللهِ خاصَّةٌ لم تكُنْ لِسِوَاهَا.

فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ(١)، لَا صَخَبَ(٢) فِيهِ وَلَا نَصَبَ»(٣).

قَالَ السُّهَيْلِيُّ: مُنَاسَبَةُ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ ـ أَعْنِي المُنَازَعَةَ وَالتَّعَبَ ـ أَنَّهُ ﷺ لَمَّا دَعَا إِلَىٰ الإِسْلَامِ أَجَابَتْ خَدِيجَةُ طَوْعًا فَلَمْ تُحْوِجْهُ إِلَىٰ رَفْعِ صَوْتٍ، وَلَا مُنَازَعَةٍ، وَلَا تَعَبٍ فِي ذَلِكَ، بَلْ أَزَالَتْ عَنْهُ كُلَّ نَصَبٍ، وَآنَسَتْهُ مِنْ كُلِّ وِحْشَةٍ، وَهَوَّنَتْ عَلَيْهِ كُلَّ مَكْرُوهٍ، فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ مَنْزِلُهَا الذِي بَشَّرَهَا بِهِ رَبُّهَا بِالصِّفَةِ المُقَابِلَةِ لِفِعَالِهَا(٤).

وَرَوَىٰ ابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ والتِّرْمِذِيُّ والإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ العَالَمِينَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ،**

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٥/١٦٢): القَصَبُ: قال جمهُورُ العلماءِ: المرادُ به اللُّؤْلُؤُ المُجَوَّفُ.
وقال الإمام السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (١/٤١٧): وإنما بشَّرهَا ببَيْتٍ في الجنَّةِ من قَصَبٍ؛ لأنها حازَتْ قَصَبَ السَّبْقِ إلىٰ الإيمَانِ.
قال ابنُ الأثير في النهاية (٤/٥٩): ومعنىٰ قَصَبُ السَّبْقِ: أي استَوْلَىٰ عَلَىٰ الأمر.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/٥١٨): الصَّخَبُ: هو الصِّيَاحُ والمُنَازَعَةُ برفعِ الصَّوْتِ.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/٥١٨): النَّصَبُ: هو التَّعَبُ.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ رقم الحديث (٣٨٢٠) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل خديجة أم المؤمنين ـ رقم الحديث (٢٤٣٢).

(٤) انظر الرَّوْض الأُنُف (١/٤١٧).

وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»[1].

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ: وَالقَدْرُ المُشْتَرَكُ بَيْنَ آسِيَةَ، ومَرْيَمَ، وخَدِيجَةَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُنَّ كَفِلَتْ نَبِيًّا مُرْسَلًا، وَأَحْسَنَتِ الصُّحْبَةَ فِي كَفَالَتِهَا وصَدَّقَتْهُ، فَآسِيَةُ رَبَّتْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأَحْسَنَتْ إِلَيْهِ، وصَدَّقَتْهُ حِينَ بُعِثَ، ومَرْيَمُ عَلَيْهَا السَّلَامُ كَفِلَتْ وَلَدَهَا أَتَمَّ كَفَالَةٍ، وأَعْظَمَهَا، وصَدَّقَتْهُ حِينَ أُرْسِلَ، وخَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا رَغِبَتْ فِي تَزْوِيجِ رَسُول اللهِ ﷺ بِهَا، وَبَذَلَتْ فِي ذَلِكَ أَمْوَالَهَا، وصَدَّقَتْهُ حِينَ نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ[2].

وَرَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ، وخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ**»[3].

قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ: وَالأَظْهَرُ أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا خَيْرُ نِسَاءِ الأَرْضِ فِي عَصْرِهَا[4].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة ـ باب ذكر خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ رقم الحديث (٧٠٠٣) ـ والترمذي في جامعه ـ كتاب المناقب ـ باب فضل خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا رقم الحديث (٣٢١٦) ـ والإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٢٣٩١).

(٢) انظر البداية والنهاية (١٤١/٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ رقم الحديث (٣٨١٥) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ رقم الحديث (٢٤٣٠).

(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٦١/١٥).

وروَىٰ الإمَامُ أحْمَدُ في مُسْنَدِهِ وابْنُ حِبَّانَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الأَرْضِ خُطُوطًا أَرْبَعَةً قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قَالُوا: اللهُ ورَسُولُهُ أعْلَمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، ومَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ**»[1].

وروَىٰ الإمَامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَىٰ أحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ[2] عَلَىٰ خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا، ولَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، ورُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ؟ فَيَقُولُ: «**إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ**[3]، **وكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ**»[4].

وأخْرَجَ الإمَامُ أحْمَدُ فِي المُسْنَدِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٦٦٨) ـ وابن حبان في صحيحه ـ كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة ـ باب ذكر البيان بأن خديجة من أفضل نساء أهل الجنة ـ رقم الحديث (٧٠١٠).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٥١٥/٧): فيه إثباتُ الغَيْرَةِ وأنها غيرُ مُسْتَنْكَرٍ، وُقُوعها من فاضِلاتِ النسَاءِ فضلًا عمَّنْ دُونَهُنَّ، وأن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كانت تَغَارُ من نساء النبي ﷺ لكن كانت تغَارُ من خديجَةَ أكثر، وقد بَيَّنَتْ سببَ ذلك وأنه لكثرة ذكر النبي ﷺ إياها.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٥١٦/٧): أي كانت فاضِلةً وكانت عَاقِلَةً، ونحو ذلك.

(٤) رواه الإمام البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ رقم الحديث (٣٨١٨).

قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ، أَثْنَىٰ عَلَيْهَا، فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ، قَالَتْ: فَغِرْتُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشِّدْقِ[1]، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، فَقَالَ ﷺ: «مَا أَبْدَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِيَ النَّاسُ، وصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، ورَزَقَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا[2] إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ»[3].

۞ مُكَافَأَةُ الرَّسُولِ ﷺ لِخَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

وَمِمَّا كَافَأَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ فِي حَيَاتِهَا غَيْرَهَا، فَرَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ[4] مِنْ طَرِيقِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمْ يَتَزَوَّجِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ خَدِيجَةَ حَتَّىٰ مَاتَتْ، وهَذَا مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ بِالأَخْبَارِ، وفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ عِظَمِ

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/٥٢١): والمرادُ بالشّدْقَيْنِ: ما في باطنِ الفمِ فكَنَّتْ بذلِكَ عن سُقُوطِ أسنَانِهَا حتىٰ لا يَبْقَىٰ داخلِ فَمِهَا إلا اللحمِ الأحمرِ من اللِّثَةِ وغيرها.
وقال النووي في شرح مسلم (١٥/١٦٤): معناه عجوزٌ كبيرةٌ جِدًا، حتىٰ سقطَتْ أسنَانُهَا من الكِبَرِ، ولم يبقَ لِشِدْقِهَا بياضُ شيءٍ من الأسنان، إنمَا بقِيَ فيه حُمْرَةُ لِثَاتِهَا.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/١٤٠): كان هذا الحديثُ قبل أن يُولَدَ إبراهيمُ ابن النبي ﷺ من مارِيَة، وقبل مقدَمِهَا بالكليَّةِ وهذا مُعيَّن، فإن جميعَ أولادِ النبي ﷺ من خديجةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إلا إبراهيم فمن مَارِيَة القِبْطِيَّة المِصْرِيَّة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٤٨٦٤) ـ وأورده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/١٤٠) وقال: تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، رقم الحديث (٢٤٣٦).

قَدْرِهَا عِنْدَهُ، وَعَلَىٰ مَزِيدِ فَضْلِهَا لِأَنَّهَا أَغْنَتْهُ عَنْ غَيْرِهَا وَاخْتَصَّتْ بِهِ بِقَدْرِ مَا اشْتَرَكَ فِيهِ غَيْرُهَا مَرَّتَيْنِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ عَاشَ بَعْدَ أَنْ تَزَوَّجَهَا ثَمَانِيَةً وَثَلَاثِينَ عَامًا، انْفَرَدَتْ خَدِيجَةُ مِنْهَا بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا، وَهِيَ نَحْوُ الثُّلُثَيْنِ مِنَ المَجْمُوعِ، وَمَعَ طُولِ المُدَّةِ فَصَانَ قَلْبَهَا فِيهَا مِنَ الغَيْرَةِ، ومِنْ نَكَدِ الضَّرَائِرِ[1] الذِي رُبَّمَا حَصَلَ لَهُ هُوَ مِنْهُ مَا يُشَوِّشُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَهِيَ فَضِيلَةٌ لَمْ يُشَارِكْهَا فِيهَا غَيْرُهَا، وَمِمَّا اخْتُصَّتْ بِهِ سَبْقُهَا نِسَاءَ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَىٰ الإِيمَانِ، فَسَنَّتْ ذَلِكَ لِكُلِّ مَنْ آمَنَتْ بَعْدَهَا، فَيَكُونُ لَهَا مِثْلُ أَجْرِهِنَّ، لِمَا ثَبَتَ فِي الحَدِيثِ الذِي أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ[2] فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ **«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ»** الحَدِيثَ.

وَقَدْ شَارَكَهَا فِي ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الرِّجَالِ، وَلَا يَعْرِفُ قَدْرَ مَا لِكُلٍّ مِنْهُمَا مِنَ الثَّوَابِ بِسَبَبِ ذَلِكَ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ[3].

وقَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: فِي هَذِهِ الأَحَادِيثِ دَلِيلٌ لِحُسْنِ العَهْدِ، وحِفْظِ الوُدِّ، ورِعَايَةِ حُرْمَةِ الصَّاحِبِ، وَالعَشِيرَةِ حَيًّا وَمَيْتًا، وَإِكْرَامِ أَهْلِ ذَلِكَ الصَّاحِبِ[4].

---

(١) الضَّرَائِرُ: زوجاتُ الرَّجُلِ. انظر لسان العرب (٤٨/٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم الحديث (١٩١٥٦).

(٣) انظر فتح الباري (٥١٧/٧).

(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٦٤/١٥).

۞ خَصَائِصُ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وَمِنْ خَصَائِصِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

١ ـ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا غَيْرَهَا.

٢ ـ وَمِنْهَا: أَنَّ أَوْلَادَهُ ﷺ كُلَّهُمْ مِنْهَا إِلَّا إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَإِنَّهُ مِنْ سُرِّيَتِهِ[١] مَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

٣ ـ وَمِنْهَا: أَنَّهَا خَيْرُ نِسَاءِ الأُمَّةِ.

٤ ـ ومِنْهَا: أَنَّهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لَمْ تَسُؤْهُ ﷺ قَطُّ، وَلَمْ تُغَاضِبْهُ، وَلَمْ يَنَلْهَا مِنْهُ بَلَاءٌ، ولَا عَتْبٌ قَطُّ، وَلَا هَجْرٌ، وَكَفَىٰ بِهَذِهِ مَنْقَبَةً وَفَضِيلَةً.

٥ ـ وَمِنْ خَوَاصِّهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّهَا أَوَّلُ امْرَأَةٍ آمَنَتْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهَا

٦ ـ وَمِنْهَا: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعَثَ السَّلَامَ مَعَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذِهِ لَعَمْرُ اللهِ خَاصَّةٌ لَمْ تَكُنْ لِسِوَاهَا، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[٢].

---

(١) السُّرِّيَّةُ: بضم السِّين وتشدِيد الراءِ المكسُورة: هي الجارِيَةُ المُتَّخَذَةُ للمِلْكِ والجِمَاعِ. انظر لسان العرب (٦/٢٣٥).

(٢) انظر جلاء الأفهام ص ٣٤٨.

۞ النَّبِيُّ ﷺ يَعْقِدُ عَلَىٰ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

رَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ وأَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ، وَاللَّفْظُ لِأَحْمَدَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا كَبِرَتْ سَوْدَةُ، وَهَبَتْ يَوْمَهَا لِي، فكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ لِي بِيَوْمِهَا مَعَ نِسَائِهِ، قَالَتْ: وكَانَتْ أَوَّلَ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا بَعْدِي[1].

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: مَعْنَاهُ عَقَدَ عَلَيْهَا ـ أَيْ عَلَىٰ سَوْدَةَ ـ بَعْدَ أنْ عَقَدَ عَلَىٰ عَائِشَةَ، وأَمَّا دُخُولُهُ ﷺ عَلَيْهَا ـ أيْ سَوْدَةُ ـ فكَانَ قَبْلَ دُخُولِهِ عَلَىٰ عَائِشَةَ بِالاتِّفَاقِ[2].

ورَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: تَزَوَّجَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ في شَوَّالَ، وَبَنَىٰ[3] بِي فِي شَوَّال[4]، فَأَيُّ نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ـ كتاب الرضاع ـ باب جواز هبتها نوبتها لضرتها ـ رقم الحديث (١٤٦٣) ـ والإمام أحمد في المسند ـ رقم الحديث (٢٤٣٩٥).

(٢) انظر فتح الباري (١٠/٣٩١).

(٣) البِنَاءُ: هو الدُّخول بالزَّوجَةِ. انظر النهاية (١/١٥٦).

(٤) شَوَّالُ: من أسمَاء الشُّهور معروفٌ، اسم الشهر الذي يَلِي شهر رمضان، وهو أوَّل أشهر الحج، قيل: سُمي بتشوِيلِ لَبَن الإبل، وهو تَوَلِّيهِ وإدبَارُهُ، وكانت العرب تَطَّيَّر من عقدِ المَناكحِ فيه، وتقولُ: إن المنكوحَةَ تَمتنعُ من ناكِحِهَا كما تَمتنعُ طُروقةُ الجَمَل إذا لقحتْ وشَالتْ بِذَنَبِهَا، فأبطلَ النبي ﷺ طِيَرَتَهُمْ، وتزوَّج عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في شوال. انظر لسان العرب (٧/٢٤٣).

قال الإمام النووي في شرح مسلم (٩/١٧٩): قَصَدت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بهذا الكلامِ رَدَّ ما كانت الجاهليةُ عليه، وما يتخيَّلُه بعض العوَامِّ اليوم من كَراهة التزوُّجِ والتزويج،=

كَانَ أَحْظَىٰ عِنْدَهُ مِنِّي[1].

وَكَانَ عُمُرُهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عِنْدَمَا عَقَدَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ سِتُّ سِنِينَ، ودَخَلَ بِهَا فِي المَدِينَةِ بَعْدَ الهِجْرَةِ، وعُمْرُهَا تِسْعُ سِنِينَ.

فَقَدْ رَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: تَزَوَّجَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وأَنَا بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ، وبَنَىٰ بِي وَأَنَا بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ[2].

وفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: تَزَوَّجَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَوَفَّىٰ خَدِيجَةَ، قَبْلَ مَخْرَجِهِ إِلَىٰ المَدِينَةِ بِسَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ، وأَنَا بِنْتُ سَبْعِ سِنِينَ[3].

قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ: وأَمَّا قَوْلُهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي رِوَايَةٍ: تَزَوَّجَنِي وَأَنَا بِنْتُ سَبْعٍ، وفِي أَكْثَرِ الرِّوَايَاتِ بِنْتُ سِتٍّ فَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّهُ كَانَ لَهَا سِتٌّ وكَسْرٌ فَفِي

= والدخولِ في شوال، وهذا باطلٌ لا أصلَ له، وهو من آثارِ الجاهليةِ كانوا يتطيَّرون بذلك لما في اسم شوَّال من الإشَالةِ والرَّفْعِ.

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب النكاح ـ باب استحباب التزوج والتزويج في شوال، واستحباب الدخول فيه ـ رقم الحديث (١٤٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب النكاح ـ باب إنكاحِ الرجل ولده الصغار ـ رقم الحديث (٥١٣٣) ـ (٥١٣٤) ـ وأخرجه في مناقب الأنصار ـ باب تزويج النبي ﷺ عائشة ـ رقم الحديث (٣٨٩٤) ـ (٣٨٩٦) ـ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب النكاح ـ باب تزويج الأب البكر الصغيرة ـ رقم الحديث (١٤٢٢) (٧٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٦٣٩٧).

رِوَايَةٍ اقْتَصَرَتْ عَلَىٰ السِّنِينَ، وفِي رِوَايَةٍ عَدَّتِ السَّنَةَ التِي دَخَلَتْ فِيهَا، وَاللهُ أَعْلَمُ[1].

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وَهَذِهِ السِّيَاقَاتُ كُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَىٰ أنَّ العَقْدَ عَلَىٰ عَائِشَةَ كانَ مُقَدَّمًا عَلَىٰ العَقْدِ بِسَوْدَةَ[2].

۞ زَوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ بِسَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

ثُمَّ عَقَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بَعْدَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وَهِيَ أَوَّلُ مَنْ دَخَلَ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ بَعْدَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وانْفَرَدَتْ بِهِ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِ سِنِينَ أَوْ أَكْثَرَ، حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ عَائِشَةَ، وكَانَتْ سَيِّدَةً جَلِيلَةً نَبِيلَةً ضَخْمَةً[3].

وكَانَتْ سَوْدَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عِنْدَ ابْنِ عَمِّهَا السَّكْرَانُ بنُ عَمْرٍو رضي الله عنه أَخِي سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو رضي الله عنه، وَكَانَ السَّكْرَانُ أَسْلَمَ مَعَهَا قَدِيمًا، وَهَاجَرَ بِهَا إِلَىٰ أَرْضِ الحَبَشَةِ الهِجْرَةَ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ رَجَعَ بِهَا إِلَىٰ مَكَّةَ، فَمَاتَ بِهَا قَبْلَ الهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وقِيلَ إِنَّهُ مَاتَ بِالحَبَشَةِ[4].

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٩/١٧٧).

(٢) انظر البداية والنهاية (٣/١٤٥).

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢/٢٦٥).

(٤) انظر الطبَقَات الكُبرىٰ لابن سعد (٧/٢٦٨) ـ الإصابة (٣/١١٣) ـ البداية والنهاية (٣/١٤٥).

أَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، والحَاكِمُ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ ويَحْيَىٰ، قَالَا: لَمَّا هَلَكَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، جَاءَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ[1] امْرَأَةُ عُثْمَانَ بنِ مَظْعُونٍ ﷺ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَزَوَّجُ؟ قَالَ: «مَنْ؟» قَالَتْ: إِنْ شِئْتَ بِكْرًا، وإِنْ شِئْتَ ثَيِّبًا، قَالَ: «فَمَنِ البِكْرُ؟» قَالَتْ: ابْنَةُ أَحَبِّ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْكَ، عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، قَالَ: «وَمَنِ الثَّيِّبُ؟» قَالَتْ: سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ، آمَنَتْ بِكَ واتَّبَعَتْكَ عَلَىٰ مَا تَقُولُ، قَالَ: «فَاذْهَبِي فَاذْكُرِيهِمَا عَلَيَّ»... قَالَتْ: فَذَهَبْتُ إِلَىٰ سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ، فَقُلْتُ لَهَا: مَاذَا أَدْخَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكِ مِنَ الخَيْرِ وَالبَرَكَةِ؟ قَالَتْ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَخْطِبُكِ عَلَيْهِ، قَالَتْ: وَدِدْتُ، ادْخُلِي إِلَىٰ أَبِي، فَاذْكُرِي ذَاكَ لَهُ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ أَدْرَكَتْهُ السِّنُّ، قَدْ تَخَلَّفَ عَنِ الحَجِّ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ، فَحَيَّتْهُ بِتَحِيَّةِ الجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ فَقَالَتْ: خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ، قَالَ: فَمَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَرْسَلَنِي مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ، أَخْطِبُ عَلَيْهِ سَوْدَةَ، قَالَ: كُفْءٌ[2] كَرِيمٌ، مَاذَا تَقُولُ صَاحِبَتُكِ؟ قَالَتْ: تُحِبُّ ذَاكَ، قَالَ: ادْعُهَا لِي، فَدَعَتْهَا، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّةُ، إِنَّ هَذِهِ تَزْعُمُ أَنَّ مُحَمَّدَ بنَ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ،

---

(١) هي خَولَةُ بنتُ حَكِيمٍ السُّلَمِيَّةُ امرأةُ عثمان بن مَظْعون رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. كنيتها أمُّ شَرِيكٍ، وكانت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا صالحةً فاضلةً، روت عن النبي ﷺ، وروىٰ عنها سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن المسيب. انظر الإصابة (٨/١١٦).

(٢) الكُفْءُ: النظيرُ والمُسَاوِي، ومنه الكفاءةُ في النكاحِ، وهو أن يكونَ الزوجُ مُسَاويًا للمرأةِ في حَسَبِهَا ودِينها ونسَبها وبيْتها، وغير ذلك. انظر النهاية (٤/١٥٦).

قَدْ أَرْسَلَ يَخْطِبُكِ، وَهُوَ كُفْءٌ كَرِيمٌ، أَتُحِبِّينَ أَنْ أُزَوِّجَكِ بِهِ؟

قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: ادْعِيهِ لِي، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِ، فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ[(١)].

۞ شِدَّةُ اتِّبَاعِ سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ:

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وأَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِه بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِنِسَائِهِ عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ: **«هَذِهِ، ثُمَّ ظُهُورُ الحُصُرِ»**[(٢)]، قَالَ: فَكُنَّ كُلُّهُنَّ يَحْجُجْنَ إِلَّا زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، وسَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ، وكَانَتَا تَقُولَانِ: وَاللهِ لَا تُحَرِّكُنَا دَابَّةٌ بَعْدَ أَنْ سَمِعْنَا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ[(٣)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٥٧٦٩) ـ والحاكم في المستدرك ـ كتاب النكاح ـ باب تزويج عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ رقم الحديث (٢٧٥٢).

(٢) أي: أنكُنَّ لا تَعُدْنَ تَخْرُجْنَ من بيوتِكُنَّ وتلزَمْنَ الحُصُرَ، وهي جمع الحَصِيرِ الذي يُبْسَطُ في البيوت. انظر النهاية (١/٣٨٠).

قال البيهقي فيما نقله الحافظ عنه في الفتح (٤/٥٥٦): في هذا الحديث دليلٌ علىٰ أن المُراد وجوبُ الحج مرَّة واحدةً كالرجالِ، لا المنعَ من الزِّيارة، وفيه دليل علىٰ أن المراد بالقرار في البيوتِ ليسَ علىٰ سبيلِ الوُجُوب.

قُلتُ: ولذلك قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كما في صحيح البخاري ـ كتاب جزاء الصيد ـ بابُ حج النساء ـ رقم الحديث (١٨٦١) قالت: قلتُ: يا رَسُول اللهِ ألا نَغْزُو ونُجَاهِدُ معكم؟ فقال ﷺ: **«لكُنَّ أحْسَنُ الجهادِ وأجمَلُهُ الحجُّ حجٌّ مَبْرُورٌ»** فقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فلا أَدَعُ الحجَّ بعد إذا سمعتُ هذا من رَسُول اللهِ ﷺ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢١٩٠٥) ـ (٢٦٧٥١) ـ وأخرجه أبو داود في سننه ـ كتاب المناسك ـ باب فرض الحج ـ رقم الحديث (١٧٢٢) ـ وأخرجه الطحاوي في شرح المشكل ـ رقم الحديث (٥٦٠٣).

جَعْلُ سَوْدَةَ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ:

ولَمَّا كَبِرَتْ سَوْدَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، خَشِيَتْ أَنْ يُفَارِقَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَتْهُ أَنْ يَجْعَلَ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَلَا يُفَارِقَهَا، فَفَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَشِيَتْ سَوْدَةُ أَنْ يُطَلِّقَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَتْ: لَا تُطَلِّقْنِي وأَمْسِكْنِي، وَاجْعَلْ يَوْمِي لِعَائِشَةَ، فَفَعلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[1].

وَفَاةُ سَوْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

مَكَثَتْ سَوْدَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عِنْدَ الرَّسُولِ ﷺ حَتَّىٰ تُوُفِّيَتْ بِالمَدِينَةِ فِي آخِرِ خِلَافَةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه، هَذَا هُوَ المَشْهُورُ فِي وَفَاتِهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[2].

** ** **

(١) سورة النساء آية (١٢٨) ـ والحديث أخرجه الترمذي في جامعه ـ كتاب التفسير ـ باب ومن سورة النساء ـ رقم الحديث (٣٢٨٩) ـ وأورده الحافظ في الإصابة (١٩٦/٨) ـ وحسَّن إسناده.

(٢) انظر الإصابة (١٩٧/٨) ـ سير أعلام النبلاء (٢٦٦/٢).

اشْتِدَادُ إِيذَاءِ قُرَيْشٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَفَاةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ

رَأَيْنَا كَيْفَ تَتَابَعَتِ المَصَائِبُ عَلَىٰ رَسُول اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ مِنَ الشِّعْبِ فِي العَامِ العَاشِرِ مِنَ البِعْثَةِ، حَتَّىٰ تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ، وخَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فِي العَامِ نَفْسِهِ، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ تَتَوالَىٰ عَلَيْهِ ﷺ المَصَائِبُ مِنْ قَوْمِهِ، فَقَدِ اجْتَرَؤُوا عَلَيْهِ، ونَالُوهُ بِالنَّكَالِ، وَالأَذَىٰ بِالقَوْلِ وَالفِعْلِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ مُقْتَصِرًا عَلَىٰ الكَلَامِ وَالِاسْتِهْزَاءِ قَبْلَ وَفَاةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ.

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ: وعِنْدِي أَنَّ غَالِبَ مَا رُوِيَ مِنْ طَرْحِ الكُفَّارِ سَلَا الجَزُورِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ﷺ، وهُوَ يُصَلِّي، وكَذَلِكَ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرِو بنِ العَاصِ مِنْ خَنْقِهِمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَنْقًا شَدِيدًا، حَتَّىٰ حَالَ دُونَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، وَكَذَلِكَ عَزْمُ أَبِي جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ عَلَىٰ أَنْ يَطَأَ عَلَىٰ عُنُقِهِ ﷺ، وهُوَ يُصَلِّي، فَحِيلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ ذَلِكَ، مِمَّا أَشْبَهَ ذَلِكَ كَانَ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ[(١)].

رَوَىٰ الحَاكِمُ فِي المُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا زَالَتْ قُرَيْشٌ كَاعَةً**[(٢)] **حَتَّىٰ تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ**»[(٣)].

---

(١) البداية والنهاية (٣/١٤٦).

(٢) كَاعَةً: جمع كَاعٍ، وهو الجَبَانُ، أرادَ أنهم كانُوا يجبُنُونَ عن أذىٰ النبي ﷺ في حيَاةِ أبي طالب، فلمَّا ماتَ اجترَؤُوا عليه. انظر النهاية (٤/١٥٦).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك - كتاب الهجرة الأولىٰ إلىٰ الحبشة - رقم الحديث=

وَرَوَىٰ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا نَالَتْ مِنِّي قُرَيْشٌ شَيْئًا أَكْرَهُهُ حَتَّىٰ مَاتَ أَبُو طَالِبٍ»**(١).

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا هَلَكَ أَبُو طَالِبٍ نَالَتْ قُرَيْشٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الأَذَىٰ مَا لَمْ تَكُنْ تَطْمَعُ بِهِ فِي حَيَاةِ أَبِي طَالِبٍ، حَتَّىٰ اعْتَرَضَهُ سَفِيهٌ مِنْ سُفَهَاءِ قُرَيْشٍ، فَنَثَرَ عَلَىٰ رَأْسِهِ تُرَابًا، فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتَهُ، وَالتُّرَابُ عَلَىٰ رَأْسِهِ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ إِحْدَىٰ بَنَاتِهِ فَجَعَلَتْ تَغْسِلُ عَنْهُ التُّرَابَ، وهِيَ تَبْكِي، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَهَا: **«لَا تَبْكِي يَا بُنَيَّةُ، فَإِنَّ اللهَ مَانِعُ أَبَاكِ»**(٢).

رَوَىٰ ابنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«كُنْتُ بَيْنَ شَرِّ جَارَيْنِ، بَيْنَ أَبِي لَهَبٍ وعُقْبَةَ بنِ أَبِي مُعَيْطٍ، إنْ كَانَا لَيَأْتِيَانِ بِالفُرُوثِ فَيَطْرَحَانِهَا عَلَىٰ بَابِي، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ لَيَأْتُونَ بِبَعْضِ مَا يَطْرَحُونَ مِنَ الأَذَىٰ فَيَطْرَحُونَهُ عَلَىٰ بَابِي»**، فَيَخْرُجُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَقُولُ: **«يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! أَيُّ جِوَارٍ هَذَا؟»**، ثُمَّ يُلْقِيهِ(٣).

= (٤٣٠٢) ـ والبيهقي في الدلائل (٢/٣٥٠).

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٥٠) ـ وأخرجه ابن إسحاق في السيرة (٢/٣٠) بسند صحيح إلىٰ عروة، لكنه مرسلًا.

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/٣٠).

(٣) انظر الطبَقَات الكُبرىٰ لابن سعد (١/٩٧) ـ وانظر السلسلة الضعيفة ـ رقم الحديث (٤١٥١) ـ وضعيف الجامع ـ رقم الحديث (٤٢٧٧) ـ للألباني رَحِمَهُ اللهُ.

❁ قِصَّةٌ فِي إِيذَاءِ الكُفَّارِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

رَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: سَأَلْتُ ابنَ عَمْرِو بنِ العَاصِ أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ المُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بنُ أَبِي مُعَيْطٍ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ حَتَّىٰ أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ ودَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[1].

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: وَهَذَا الذِي أَجَابَ بِهِ عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرِو بنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يُخَالِفُ حَدِيثَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهُ ﷺ قَالَ لَهَا: «وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ...»، فَذَكَرَ قِصَّتَهُ بِالطَّائِفِ مَعَ ثَقِيفٍ، وَالجَمْعُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ عَبْدَ اللهِ بنَ عَمْرِو بنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا اسْتَنَدَ إِلَىٰ مَا رَوَاهُ، وَلَمْ يَكُنْ حَاضِرًا لِلْقِصَّةِ التِي وَقَعَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بِالطَّائِفِ[2].

❁ قِصَّةٌ أُخْرَىٰ فِي إِيذَاءِ الرَّسُولِ ﷺ:

ومِمَّا لَقِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قُرَيْشٍ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ مَا رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي المُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: لَقَدْ ضَرَبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَجَعَلَ يُنَادِي، وَيَقُولُ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ

---

(١) سورة غافر آية (٢٨) ـ والحديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب ما لقي النبي ﷺ من المشركين بمكة ـ رقم الحديث (٣٨٥٦).

(٢) انظر فتح الباري (٧/٥٥٨).

يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ؟ فَقَالُوا مَنْ هَذَا؟

قَالُوا: هَذَا ابنُ أَبِي قُحَافَةَ المَجْنُونُ[(١)].

❁ قِصَّةٌ أُخْرَىٰ فِي إِيذَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

وَرَوَىٰ الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ، وأَبُو جَهْلٍ وأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَا[(٢)] جَزُورِ[(٣)] بَنِي فُلَانٍ، فَيَضَعُهُ عَلَىٰ ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ، فَانْبَعَثَ أَشْقَىٰ القَوْمِ فَجَاءَ بِهِ، وهُوَ عُقْبَةُ بنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَنَظَرَ[(٤)] حَتَّىٰ إِذَا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَىٰ ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغْنِي[(٥)] شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ[(٦)]، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ، وَيُحِيلُ[(٧)] بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، ورَسُولُ اللهِ ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّىٰ جَاءَتْهُ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - كتاب معرفة الصحابة - باب خلافة أبي بكر - رقم الحديث (٤٤٨١).

(٢) السَّلَا: هو الجلدُ الرقيقُ الذي يَخرج فيهِ الولدُ من بطنِ أُمِّهِ مَلْفُوفًا فيه، وهو بالنسبة للآدميَّات يسمىٰ المَشِيمَةَ. انظر النهاية (٢/٣٥٧).

(٣) الجَزُورُ: البَعيرُ ذكرًا كان أو أنثىٰ. انظر النهاية (١/٢٥٨).

(٤) أي: انتَظِرْ.

(٥) قال الحافظ في الفتح (١/٤٦٥): أي لا أُغْنِي في كِفِّ شرِّهم، أو لا أُغيِّرُ شيئًا من فِعلهم.

(٦) قال الحافظ في الفتح (١/٤٦٥): المَنَعَةُ بفتح النون القُوَّة، وإنما قال ذلك ابن مسعود؛ لأنه لم يكن له بمكَّة عشيرةٌ؛ لكونه هُذَليًا.

(٧) في رواية الإمام مسلم: «ويَميل» أي من كثرةِ الضحِكِ أخذوا يتمَايلُونَ.

فَاطِمَةُ[1] فطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ**[2] **بِقُرَيْشٍ**» ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: وَكَانُوا يَرَوْنَ[3] أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ البَلَدِ[4] مُسْتَجَابَةٌ. ثُمَّ سَمَّىٰ ﷺ: «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ، وشَيْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ، والوَلِيدِ بنِ عُتْبَةَ، وأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ، وعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ**»، قَالَ ابنُ مَسْعُودٍ: فَوَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ الذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَرْعَىٰ فِي القَلِيبِ[5]، قَلِيبِ بَدْرٍ[6].

---

(١) هي فاطمةُ بنت رَسُول اللهِ ﷺ، وقد وقع التصريح باسمها في رواية الإمام مسلم في صحيحه.
قال الشيخ محمد الغزالي في كتابه فقه السيرة ص ١٢٤: والبنتُ في المجتمَعِ العربي تعيشُ في كنَفِ أبِيها، وتفخرُ بقوّتهِ، وتأنَسُ بحمايَتِه، ومما يَحُزُّ في قلب الرجل أن يرىٰ نفسه في وضع تدفَعُ عنه ابنتهُ، وتشعُرُ بالعجزِ وقِلَّةِ النَّاصِرِ.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٤٦٦/١): أيْ بإهلاكِ قُريشٍ، والمرادُ الكفارُ منهم أو ممن سمي منهم، فهوَ عام أُريدَ به الخُصُوص.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٤٦٦/١): أي يعتقدونَ.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٤٦٦/١): المراد بالبلدِ مكة.

(٥) قال العلماء: إنما أمرَ بإلقائِهم فيه لئلا يتأذّىٰ الناس بريحِهم، وإلا فالحربيُّ لا يجبُ دفنهُ، والظاهرُ أن البِئْرَ لم يكن فيها ماء. انظر فتح الباري (٤٦٨/١).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الوضوء ـ باب إذا ألقىٰ علىٰ ظَهْرِ المصَلِّي قَذَر أو جِيفَة لم تفسد عليه صلاته ـ رقم الحديث (٢٤٠)، وأخرجه كذلك في غير موضع في الصحيح ـ وأخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب ما لقي النبي ﷺ من أذىٰ المشركين والمنافقين ـ رقم الحديث (١٧٩٤).

❁ **فَوَائِدُ الحَدِيثِ:**

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: وَفِي هَذَا الحَدِيثِ مِنَ الفَوَائِدِ:

١ - تَعْظِيمُ الدُّعَاءِ بِمَكَّةَ عِنْدَ الكُفَّارِ، وَمَا ازْدَادَتْ عِنْدَ المُسْلِمِينَ إِلَّا تَعْظِيمًا.

٢ - وَفِيهِ مَعْرِفَةُ الكُفَّارِ بِصِدْقِهِ ﷺ لِخَوْفِهِمْ مِنْ دُعَائِهِ، وَلَكِنْ حَمَلَهُمُ الحَسَدُ عَلَىٰ تَرْكِ الِانْقِيَادِ لَهُ.

٣ - وَفِيهِ حِلْمُهُ ﷺ عَمَّنْ آذَاهُ، فَفِي رِوَايَةِ الطَّيَالِسِيِّ فِي مَسْنَدِهِ عَنْ شُعْبَةَ فِي هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ ابنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمْ أَرَهُ دَعَا عَلَيْهِمْ إِلَّا يَوْمَئِذٍ[1]، وإِنَّمَا اسْتَحَقُّوا الدُّعَاءَ حِينَئِذٍ لِمَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِنَ الِاسْتِخْفَافِ بِهِ حَالَ عِبَادَةِ رَبِّهِ.

٤ - وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ الدُّعَاءِ ثَلَاثًا.

٥ - وَفِيهِ جَوَازُ الدُّعَاءِ عَلَىٰ الظَّالِمِ، لَكِنْ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَحَلُّهُ مَا إِذَا كَانَ كَافِرًا، فَأَمَّا المُسْلِمُ فَيُسْتَحَبُّ الِاسْتِغْفَارُ لَهُ، والدُّعَاءُ، وَالتَّوْبَةُ.

٦ - وَفِيهِ قُوَّةُ نَفْسِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ مِنْ صِغَرِهَا، لِشَرَفِهَا فِي قَوْمِهَا ونَفْسِهَا، لِكَوْنِهَا صَرَّحَتْ بِشَتْمِهِمْ، وَهُمْ رُؤُوسُ قُرَيْشٍ، فَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهَا كَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ.

٧ - وَفِيهِ أَنَّ المُبَاشَرَةَ آكَدُ مِنَ السَّبَبِ، والإِعَانَةِ لِقَوْلِهِ فِي عُقْبَةَ: «أَشْقَىٰ

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده - رقم الحديث (٣٢٣) - وإسناده صحيح.

القَوْمِ»، مَعَ أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ: أَبُو جَهْلٍ، وهُوَ أَشَدُّ مِنْهُ كُفْرًا، وأَذًى لِلنَّبِيِّ ﷺ لَكِنَّ الشَّقَاءَ هُنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ القِصَّةِ لِأَنَّهُمُ اشْتَرَكُوا فِي الأَمْرِ والرِّضَا، وانْفَرَدَ عُقْبَةُ بِالمُبَاشَرَةِ فَكَانَ أَشْقَاهُمْ، ولِهَذَا قُتِلُوا فِي الحَرْبِ، وقُتِلَ عُقْبَةُ صَبْرًا[١].

أيْ أنَّ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ قُتِلُوا فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ بِاسْتِثْنَاءِ عُقْبَةَ فَإِنَّهُ كَانَ أَسِيرًا فَأَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِقَتْلِهِ بِالسَّيْفِ.

۞ قِصَّةٌ أُخْرَىٰ فِي إِيذَاءِ الرَّسُولِ ﷺ:

ومِمَّا لَقِيَهُ ﷺ مِنَ المُشْرِكِينَ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ[٢] مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَعَنَهُ اللهُ: واللَّاتِ وَالعُزَّىٰ! لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: فَأَتَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ وهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وهُوَ يَنْكُصُ[٣] عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ويَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَالَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا، وأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ**

---

(١) كل من قُتِل في غير معركة، ولا حرب، ولا خطأ، فإنه مقتول صبرًا. انظر النهاية (٨/٣).

وانظر كلام الحافظ في فتح الباري (٤٦٨/١).

(٢) يُرِيدُ به سُجوده علىٰ التراب، من التَّعفِيرِ، وهو التَّمرِيغِ في التراب. انظر النهاية (٢٣٧/٣).

(٣) النُّكوصُ: الرجُوعُ إلىٰ وراءِ، وهو القَهقَرَىٰ. انظر النهاية (١٠١/٥).

المَلائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا»[1]، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾[2].

وَرَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وابْنُ مَاجه بِسَنَدٍ قَوِيٍّ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، وهُوَ جَالِسٌ حَزِينًا قَدْ خُضِبَ[3] بالدِّمَاءِ، ضَرَبَهُ بَعْضُ أَهْلِ مَكَّةَ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: مَالَكَ؟

قَالَ: فَقَالَ لَهُ: «فَعَلَ بِي هَؤُلَاءِ وفَعَلُوا» قَالَ: فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ: أَتُحِبُّ أَنْ أُرِيكَ آيَةً[4]؟

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧٤٦/٩): إنما شُدِّد الأمر في حقِّ أبي جهلٍ، ولم يقعْ مثل ذلك لِعُقبَةَ بن أبي مُعيط حيث طرَحَ سَلَىٰ الجزورِ علىٰ ظهره ﷺ وهو يصلي ـ كما مر معنا ـ لأنهما وإن اشترَكا في مطلقِ الأذيَّة حالةَ صلاتهِ ﷺ لكن زادَ أبو جهل بالتهديدِ، وبدعْوَىٰ أهلِ طاعته، وبإرادَةِ وطءِ العُنُقِ الشَّريف، وفي ذلك من المُبَالغةِ ما اقتضَىٰ تعجِيلَ العُقوبة لو فعل ذلك، ولأن سَلَىٰ الجزور لم يتحقَّق نجاسَتُها، وقد عوقب عُقبةُ بدعائه ﷺ عليه، وعلىٰ من شاركه في فعله، فقُتِلُوا يوم بدر.

(٢) سورة العلق من آية (٦ ـ ١٩) ـ والحديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب قوله تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ ـ رقم الحديث (٤٩٥٨) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ باب قوله تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ ـ رقم الحديث (٢٧٩٧).

(٣) خُضِبَ: أي ابْتُلَّ. انظر لسان العرب (١١٧/٤).

(٤) قال الإمام السندي في شرح المسند (١٤١/٧): قولُ جبريل عليه السلام: أتُحِبُّ أن=

قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: فَنَظَرَ إِلَىٰ شَجَرَةٍ مِنْ وَرَاءِ الوَادِي، فَقَالَ: ادْعُ بِتِلْكَ الشَّجَرَةِ، فَدَعَاهَا فَجَاءَتْ تَمْشِي، حَتَّىٰ قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: مُرْهَا فَلْتَرْجِعْ، فَأَمَرَهَا فَرَجَعَتْ إِلَىٰ مَكَانِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حَسْبِي»[1].

وَرَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وابْنُ مَاجه بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ، وَمَا يُؤْذَىٰ أَحَدٌ، وَأُخِفْتُ[2] فِي اللهِ[3]، ومَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَالِي وَبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا مَا يُوَارِي إِبْطَ بِلَالٍ»**[4].

قَالَ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ: مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ: حِينَ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ هَارِبًا مِنْ مَكَّةَ وَمَعَهُ بِلَالٌ، إِنَّمَا كَانَ مَعَ بِلَالٍ مِنَ الطَّعَامِ مَا يُحْمَلُ تَحْتَ إِبْطِهِ[5].

وفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي المُسْنَدِ والتِّرْمِذِيِّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الإِمَامِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ، ومَا يُخَافُ أَحَدٌ، ولَقَدْ أُوذِيتُ في اللهِ ومَا يُؤْذَىٰ أَحَدٌ، ولَقَدْ**

= أريكَ آية، تدل علىٰ مالك عند الله تَعَالَىٰ من الكرامةِ، والشَّرَف الذي تنسىٰ في جنبه ما يلحقُ بك من التَّعبِ في تبليغِ الرسالةِ.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ـ رقم الحديث (١٢١١٢) ـ وابن ماجه في سننه ـ كتاب الفتن ـ باب الصبر علىٰ البلاء ـ رقم الحديث (٤٠٢٨) ـ والبيهقي في الدلائل (٢/١٥٤).

(٢) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٧/٢١٤): أي هُدِّدْتُ وتُوُعِّدْتُ بالتَّعْذِيبِ والقتلِ.

(٣) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٧/٢١٤): أي في إظهَارِ دِينه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٢٢١٢) ـ وابن ماجه في سننه في المقدمة ـ فضل سلمان وأبي ذر والمقداد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ رقم الحديث (١٥١).

(٥) انظر: جامع الترمذي (٤/٤٥٩).

أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ[1] وَمَالِي وَلَا لِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ»[2].

❁ قَوْلَةٌ جَمِيلَةٌ لِلشَّيْخِ عَلِي الطَّنْطَاوِي:

قالَ الشَّيْخُ عَلِي الطَّنْطَاوِي رَحِمَهُ اللهُ: وانْطَلَقُوا يُؤْذُونَهُ ﷺ، ويَتَوَعَّدُونَهُ، لَعَلَّ التَّرْهِيبَ يَفْعَلُ فِيهِ مَا لَمْ يَفْعَلِ التَّرْغِيبُ... رَمَوْا فِي طَرِيقِهِ الشَّوْكَ وَهُوَ مَاشٍ، وَأَلْقَوْا عَلَيْهِ أَحْشَاءَ النَّاقَةِ وهُوَ سَاجِدٌ، ورَمَوْهُ فِي الطَّائِفِ بِالحِجَارَةِ، وأَسَالُوا دَمَهُ، وهَزِئُوا بِهِ، وسَلَّطُوا عَلَيْهِ سُفَهَاءَهُمْ.

فَلَمْ يُثِرْ هَذَا كُلُّهُ غَضَبَهُ ﷺ ولَكِنْ أَثَارَ إِشْفَاقَهُ، إِشْفَاقَ الكَبِيرِ عَلَىٰ الأَطْفَالِ المُؤْذِينَ، والعَاقِلِ عَلَىٰ المَجَانِينَ، وكَانَ جَوَابُهُ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[3].

وَأَوْغَلَتْ قُرَيْشٌ فِي كُفْرِهَا، وصَدِّهَا، وعِنَادِهَا، ولَكِنْ هَلْ تَقْدِرُ قُرَيْشٌ أَنْ تُطْفِئَ نُورَ اللهِ؟[4].

---

(١) قال الطيبي: تأكيد للشُّمول: أي ثلاثين يومًا وليلةً متواتِرَات، لا ينقصُ منها شيءٌ من الزَّمان. انظر تحفة الأحوذي (٧/٢١٥).

(٢) والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٤٠٥٥) - والترمذي في جامعه - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع - باب رقم (٢٨) - رقم الحديث (٢٦٤٠).

(٣) أخرج هذا الحديث: ابن حبان في صحيحه - كتاب الرقائق - باب الأدعية - رقم الحديث (٩٧٣) وإسناده حسن - لكن بلفظ: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» - وأخرجه البخاري في صحيحه - كتاب أحاديث الأنبياء - باب (٥٤) - رقم الحديث (٣٤٧٧) عن النبي ﷺ يحكي قصة نبي من الأنبياء مع قومه، فدعا لقومه بمثل هذا الدعاء.

(٤) انظر كلام الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في كتابه: رجال من التاريخ ص ١٣ - ١٤.

اسْتِئْذَانُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ فِي الهجْرَةِ إلَى الحَبَشَةِ

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: وقَدْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ حِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِ مَكَّةُ وأَصَابَهُ فِيهَا الأَذَىٰ، وَرَأَىٰ مِنْ تَظَاهُرِ قُرَيْشٍ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وأَصْحَابِهِ مَا رَأَىٰ، اسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي الهِجْرَةِ فَأَذِنَ لَهُ[1].

رَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ[2] إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ[3]، ولَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ طَرَفَيِ النَّهَارِ بُكْرَةً وعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ المُسْلِمُونَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الحَبَشَةِ[4] حَتَّىٰ إذَا بَلَغَ بَرْكَ الغِمَادِ[5]، لَقِيَهُ ابنُ الدُّغُنَّةِ[6]، - وَهُوَ سَيِّدُ

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٤١٠).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٢/١٤١): المراد بأبَوَي عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أبُو بكر وأم رُومَان، وهو دالٌّ علىٰ تقدُّم إسلام أمِّ رُومان رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/٦٣٨): أي بدينِ الإسلام.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٧/٦٣٨): أي ليلحَقَ بمَنْ سبقه إليها من المسلمين، وقد قدمت أن الذين هاجَرُوا إلىٰ الحبشة أوَّلًا ساروا إلىٰ جُدَّة وهي ساحِلُ مَكَّةَ؛ ليركبوا منها البحر إلىٰ الحبشة.

(٥) قال الحافظ في الفتح (٧/٦٣٩): بَرْكُ الغِمَادِ: هو موضعٌ علىٰ خمسِ لَيالٍ من مكة إلىٰ جِهَةِ اليَمَنِ.

(٦) قال الحافظ في الفتح (٧/٦٣٩): ابنُ الدُّغُنَّةِ: بضمِّ المهملة والمعجمة وتشديد النون=

القَارَةِ[1] ـ. فقَالَ: أيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي[2] فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ[3] فِي الأَرْضِ وأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدُّغُنَّةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ ولَا يُخْرَجُ، إنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ[4]، فأَنَا لَكَ جَارٌ[5]. ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ، فَرَجَعَ، وارْتَحَلَ مَعَهُ ابنُ الدُّغُنَّةِ، فَطَافَ ابنُ الدُّغُنَّةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَقَالَ لَهُمْ: إنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ[6] ولَا يُخْرَجُ[7]، أَتُخْرِجُونَ

= عند أهل اللغة، وعند الرواة بفتح أوله وكسر ثانيه وتخفيف النون.
والدغنَّةُ هي أمُّه، وقيل: أمُّ أبيه، وقيل دابَّته، ومعنىٰ الدُّغنة: المُسْتَرْخِيَةُ وأصلها الغَمَامَةُ الكثيرة المَطَر.

(١) قال الحافظ في الفتح (٦٣٩/٧): القَارَة: هي قبيلةٌ مشهورةٌ من بَنِي الهون، بالضم، والتخفيف، ابن خزيمةَ بن مدركةَ بنِ إلياسَ بن مُضَر، وكانوا حلفاءَ بني زُهرة من قريش، وكانوا يضرب بهم المثل في قوة الرَّمْيِ.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٦٣٩/٧): أي تسببوا في إخراجي.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٦٤٠/٧): لعل أبا بكر طَوَىٰ عن ابنِ الدُّغُنَّةِ تعيينَ جهة مَقصده لكونه كان كَافرًا، وإلا فقد تقدَّم أنه قَصَد التوجُّهَ إلىٰ أرض الحبشةِ، ومن المعلومِ أنه لا يَصِلُ إليها من الطريق التي قصدها حتىٰ يسيرَ في الأرضِ وحدَهُ زَمَانًا فَيَصْدُق أنه سَائِحٌ، لكن حقيقةُ السياحة أن لا يَقْصِدَ مَوْضِعًا بعينِهِ يَسْتَقِرُّ فيه.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٦٤٠/٧): وفي موافقةِ وصْفِ ابنِ الدُّغُنَّةِ لأبي بكر بمِثْلِ ما وصَفَتْ به خَدِيجَةُ النبي ﷺ ما يدُل علىٰ عَظِيم فَضْلِ أبي بكر ﷺ، واتِّصَافِهِ بالصفاتِ البالغَةِ في أنواعِ الكمال.

(٥) قال الحافظ في الفتح (٦٤٠/٧): أي مجير أمنع من يؤذيك.

(٦) قال الحافظ في الفتح (٦٤٠/٧): أي مِن وطنِهِ باختيارِهِ علىٰ نيَّةِ الإقامة في غيره مع ما فيه من النَّفعِ المُتَعَدِّي لأهل بلدِهِ.

(٧) قال الحافظ في الفتح (٦٤٠/٧): أي ولا يخرجه أحد بغيرِ اختيارِهِ للمعنىٰ المذكور،=

رَجُلًا يَكْسِبُ المَعْدُومَ، ويَصِلُ الرَّحِمَ، ويَحْمِلُ الكَلَّ، ويَقْرِي الضَّيْفَ، ويُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ؟.

فَلَمْ تُكَذِّبْ[1] قُرَيْشٌ بِجِوَارِ ابنِ الدُّغُنَّةِ، وقَالُوا لِابْنِ الدُّغُنَّةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ فِيهَا ولْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلَا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلَا يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا نَخْشَىٰ أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ ذَلِكَ ابنُ الدُّغُنَّةِ لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ لِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، ولَا يَسْتَعْلِنُ بِصَلَاتِهِ ولَا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ[2] فَابْتَنَىٰ مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ[3] وكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، ويَقْرَأُ القُرْآنَ فَيَنْقَذِفُ[4] عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ ويَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وكَانَ أَبُو بَكْر رَجُلًا بَكَّاءً لَا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ[5] إذَا قَرَأَ

= واستَنْبَطَ بعضُ المالكيةِ مِن هذا أنَّ من كانت فيه مَنفعة مُتَعَدِّية لا يُمكَّن من الانتقالِ عن البَلَدِ إلىٰ غيرِهِ بغيرِ ضَرُورَةٍ رَاجِحَةٍ.

(١) قال الحافظ في الفتح (٦٤٠/٧): أي لَمْ تَرُدَّ عليه قوله في أمَانِ أبي بَكر ﷺ، وكل من كَذَّبَكَ فقد رَدَّ قولك.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٦٤٠/٧): أي ظَهَرَ له رأيٌ غيرُ الرأي الأول.

(٣) الفِنَاء: بكسر الفَاء، وهو المُتَّسَعُ أَمَامَ الدَّار. انظر النهاية (٤٢٨/٣).

(٤) في رواية أخرىٰ في صحيح البخاري ـ رقم الحديث (٢٢٩٧) ـ: فيتَقَصَّفُ: أي يزدَحِمُونَ عليه. انظر النهاية (٦٥/٤).

قال الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه السِّيرة النَّبويَّة (٣٨٣/١): وهذه القصة تَدُل دلالةً واضحة علىٰ تأثيرِ القرآن وإعجازِهِ البيانِيِّ والبلاغي في نُفوس العَرَب الخُلَّصِ، وسَواء في ذلك الرجال والنساء، بل والصبيان.

قلتُ: قد مرَّ معنا تأثير القرآنِ علىٰ العرب في قِصَّةِ سجودِ الكفار عندما نزلت سورة النجم.

(٥) قال الحافظ في الفتح (٦٤١/٧): أي لا يُطِيقُ إمساكهُمَا عن البُكَاءِ من رِقَّةِ قلبه.

القُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ[1] أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ ابنِ الدُّغُنَّةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ عَلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ فَابْتَنَىٰ مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ والقِرَاءَةِ فِيهِ، وإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وأَبْنَاءَنَا، فَانْهَهُ، فإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وإِنْ أَبَىٰ إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِكَ فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ[2]، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، ولَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلَانَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَتَىٰ ابنُ الدُّغُنَّةِ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وإِمَّا أَنْ تُرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ العَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ، وأَرْضَىٰ بِجِوَارِ[3] اللهِ عَزَّ وَجَلَّ[4].

** ** **

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/٦٤١): أي أخافَ الكفار لِمَا يعلمونهُ من رِقَّةِ قلوبِ النساء والشَّباب أن يَمِيلُوا إلىٰ دين الإسلام.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/٦٤١): أي أمَانَكَ له.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/٦٤١): أي أمانَهُ وحمايَتَهُ، وفيه جوازُ الأخذِ بالأشَدِّ في الدين، وقوَّة يقينِ أبي بكر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة ـ رقم الحديث (٣٩٠٥) ـ وأخرجه في كتاب الكفالة ـ باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ ـ رقم الحديث (٢٢٩٧) ـ وابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب ذكر وصف كيفية خروج المصطفىٰ ﷺ من مكة ـ رقم الحديث (٦٢٧٧).

خُرُوجُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ

لَمَّا ازْدَادَتْ وَطْأَةُ قُرَيْشٍ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، واشْتَدَّ أَذَاهَا لَهُ بَعْدَ أَنْ صَارَ وَحِيدًا بِلَا نَصِيرٍ يَحْمِيهِ ويُؤْوِيهِ مِنَ النَّاسِ، ولَمَّا زَهِدَتْ قُرَيْشٌ فِي الإِسْلَامِ، وانْصَرَفَتْ عَنْهُ، رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي قُرَيْشٍ لَمْ تَعُدْ مُجْدِيَةً، وبَدَأَ يُفَكِّرُ بِالخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ بَلَدٍ آخَرَ لَعَلَّهُ يَجِدُ فِيهِ نَصِيرًا، وقَبُولًا، واسْتِجَابَةً لِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ إِلَىٰ الطَّائِفِ حَيْثُ تَقْطُنُ[1] ثَقِيفٌ[2]، يَلْتَمِسُ نُصْرَتَهُمْ، والمَنَعَةَ بِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ.

وَقَصَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الطَّائِفَ، إِمَّا لِأَنَّهُ المَرْكَزُ الثَّانِي لِلْقُوَّةِ والسِّيَادَةِ فِي الحِجَازِ بَعْدَ مَكَّةَ، أَوْ لِأَنَّ أَخْوَالَهُ مِنْ بَنِي ثَقِيفٍ مِنْ جِهَةِ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةِ، فَرَأَىٰ أَنْ يَخْرُجَ إِلَىٰ الطَّائِفِ، يَلْتَمِسُ مِنْ ثَقِيفٍ النَّصْرَ والمَنَعَةَ لَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وكَانَ يَرْجُو أَنْ يَهْدِيَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فَيَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ[3].

---

(١) قَطَنَ المكان: إذَا لَزِمَهُ. انظر لسان العرب (١١/٢٣١).

(٢) قال الشيخ أبو الحسن في كتابه السِّيرة النَّبويَّة ص ١٤٤: مما يُذْكَر لثقيفٍ منَ المَآثِرِ أنه ارتَدَّ كثيرٌ من العرَبِ بعدَ وفاةِ النبي ﷺ إلا قُرَيشًا وثَقِيفًا، وكان لهم أثرٌ وبَلاء في الحُروب الإسلامية، ومواقِفَ بُطُولية مَحْمُودة.

(٣) انظر السِّيرة النَّبوِيَّة لأبي الحسن النَّدْوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ١٤٤.

وَالطَّائِفُ بَلْدَةٌ مَعْرُوفَةٌ بَيْنَهَا وبَيْنَ مَكَّةَ اليَوْمَ (٨٠) كيلُو مِتر تَقْرِيبًا، قَطَعَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ مَوْلَاهُ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ(١) مَاشِيًا عَلَىٰ الأَقْدَامِ ذَهَابًا ورُجُوعًا.

وَكَانَ خُرُوجُهُ إِلَيْهَا لِثَلَاثٍ بَقِينَ مِنْ شَوَّالَ سَنَةَ عَشْرٍ مِنَ البِعْثَةِ(٢).

❁ **وُصُولُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ الطَّائِفِ:**

فَلَمَّا انْتَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الطَّائِفِ عَمَدَ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ ثَقِيفٍ، هُمْ يَوْمَئِذٍ سَادَةُ ثَقِيفٍ وأَشْرَافُهُمْ، وهُمْ إِخْوَةٌ ثَلَاثَةٌ: عَبْدُ يَالِيلَ بنُ عَمْرِو بنِ عُمَيْرٍ، ومَسْعُودُ بنُ عَمْرِو بنِ عُمَيْرٍ، وحَبِيبُ بنُ عَمْرِو بنِ عُمَيْرٍ(٣)، وعِنْدَ أَحَدِهِمُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي جُمَحٍ، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ اللهِ، وكَلَّمَهُمْ بِمَا جَاءَهُمْ لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ عَلَىٰ الإِسْلَامِ، والقِيَامِ مَعَهُ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ.

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: هُوَ يَمْرُطُ(٤) ثِيَابَ الكَعْبَةِ إِنْ كَانَ اللهُ أَرْسَلَكَ.

وقَالَ الثَّانِي: أَمَا وَجَدَ اللهُ أَحَدًا يُرْسِلُهُ غَيْرُكَ؟

---

(١) هذا الذي رواه ابن سعد في طبقاته (١/١٠٢) عن جبير بن مطعم، وذكر موسىٰ بن عقبة، وابن إسحاق في السيرة (٢/٣٢) وغيرهما: أنه ﷺ خرج وحده ماشيًا، فيمكن الجمعُ أن زيدًا ﷺ لحِقَهُ بعد ذلك. انظر شرح المواهب (٢/٥٠).

(٢) انظر الطبَّقَات الكُبرىٰ لابن سعد (١/١٠٢) - سيرة ابن هشام (٢/٣٣) - دلائل النبوة لأبي نعيم (١/٢٩٥) - شرح المواهب (٢/٤٩).

(٣) هؤلاءِ الإخوَةُ أسلموا جَميعًا وجاؤُوا مع قومِهِم في عامِ الوُفُود من السنة التاسعة للهجرة.

(٤) يَمْرُطُ: يَنْتِفُ. انظر لسان العرب (١٣/٨١).

وقَالَ الثَّالِثُ: وَاللهِ لَا أُكَلِّمُكَ أَبَدًا، لَئِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِنَ اللهِ كَمَا تَقُولُ لَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ الكَلَامَ، ولَئِنْ كُنْتَ تَكْذِبُ عَلَىٰ اللهِ مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلِّمَكَ.

فَلَمَّا يَئِسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ خَيْرِهِمْ، قَالَ لَهُمْ: «**إِذَا فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَاكْتُمُوا عَنِّي**»، وَكَرِهَ رَسُول اللهِ ﷺ أَنْ يَبْلُغَ قَوْمَهُ خَبَرَ قُدُومِهِ عَلَىٰ الطَّائِفِ فَيَجْتَرِؤُا عَلَيْهِ، وَتَزْدَادَ عَدَاوتُهُمْ وَشَمَاتَتُهُمْ، ولَكِنَّ القَوْمَ لَمْ يَفْعَلُوا، وقَالُوا لَهُ: اخْرُجْ مِنْ بَلَدِنَا، وأَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ وعَبِيدَهُمْ، فَجَعَلُوا يَسُبُّونَهُ ويَصِيحُونَ بِهِ، حَتَّىٰ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، وقَعَدُوا لَهُ صَفَّيْنِ عَلَىٰ طَرِيقِهِ، وأَخَذُوا لَا يَرْفَعُ رِجْلَيْهِ وَلَا يَضَعُهُمَا إِلَّا رَضَخُوهُمَا بِالحِجَارَةِ حَتَّىٰ أَدْمَوْهُمَا، وهُمْ فِي ذَلِكَ يَسْتَهْزِئُونَ ويَسْخَرُونَ، وكَانَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه يَقِيهِ بِنَفْسِهِ حَتَّىٰ لَقَدْ أَصَابَهُ شِجَاجٌ[1] فِي رَأْسِهِ، ولَمْ يَزَلْ بِهِ السُّفَهَاءُ حَتَّىٰ أَلْجَؤُوهُ إِلَىٰ حَائِطٍ[2] لِعُتْبَةَ وشَيْبَةَ[3] ابْنَيْ رَبِيعَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ الحَائِطَ رَجَعَ عَنْهُ مَنْ كَانَ يَتْبَعُهُ مِنْ سُفَهَاءِ ثَقِيفٍ، وعَمَدَ إِلَىٰ ظِلِّ شَجَرَةٍ مِنْ عِنَبٍ، فَجَلَسَ فِيهِ هُوَ وزَيْدُ بنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه.

---

(١) الشَّجُّ: في الرأس خاصَّةً، وهو أن يضربَهُ بشيءٍ فيجرحَهُ فيه ويشقَّه، ثم استعمل في غيره من الأعضاء. انظر النهاية (٢/٣٩٩).

(٢) الحائطُ: البُستان من النَّخيل إذا كان عليه حائط وهو الجدار. انظر النهاية (١/٤٤٤).

(٣) هذانِ الرَّجُلانِ من سادَاتِ مَكة، وهما من أشدُّ من آذىٰ الرسول ﷺ، وقد قُتلا كافرين في غزوة بدر الكبرىٰ.

۞ هِمَّةٌ عَجِيبَةٌ:

هَلْ تَرَوْنَ كُلَّ هَذِهِ المَصَائِبَ والأَهْوَالَ أَثَّرَتْ فِي عَزِيمَةِ الرَّسُولِ ﷺ؟ أَوْ نَقَصَتْ مِنْ إِيمَانِهِ بِدَعْوَتِهِ وحَمَاسَتِهِ لَهَا؟

... واسْتَمَرَّ هَذَا البَلَاءُ، وامْتَدَّ، لَا يَوْمًا وَلَا يَوْمَيْنِ، وَلَا أُسْبُوعًا، وَلَا شَهْرًا، امْتَدَّ سَنَوَاتٍ طِوَالًا، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا غَيْرَ الرَّسُولِ ﷺ، لَقَالَ: حَسْبِي. لَقَدْ عَمِلْتُ مَا عَلَيَّ، وبَذَلْتُ الجُهْدَ، فَإِذًا النَّجَاحُ مُسْتَحِيلٌ، وقَدْ آنَ لِي أَنْ أَنْسَحِبَ، وَأَقْعُدَ فِي بَيْتِي.

ولَكِنَّ الِانْسِحَابَ لَا مَكَانَ لَهُ فِي مَنْهَجِ الرَّسُولِ ﷺ، وكَلِمَةُ مُسْتَحِيلٌ لَا وُجُودَ لَهَا فِي مُعْجَمِهِ ﷺ، وإِذَا لَمْ يَنْجَحْ فِي مَكَّةَ فَلْيَنْتَقِلْ إِلَىٰ غَيْرِهَا. فَإِنَّ الدَّعْوَةَ لِلدُّنْيَا كُلِّهَا، وَلِلْعُصُورِ كُلِّهَا(١).

۞ تَضَرُّعٌ وَدُعَاءٌ:

وَهُنَا وَقَدْ بَلَغَ الهَوْلُ هَذَا المَبْلَغَ، دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ دُعَاءً، مَا تَلَوْتُهُ مَرَّةً إِلَّا فَاضَتْ عَيْنَايَ، ومَا أَحْسَبُ أَحَدًا يَسْمَعُهُ ويَفْهَمُهُ، يَمْلِكُ قَلْبَهُ أَنْ يَسِيلَ مِنَ الرِّقَّةِ دَمْعًا مِنْ عَيْنَيْهِ(٢).

فَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْحَائِطِ تَوَجَّهَ إِلَىٰ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ بِهَذَا

---

(١) انظر كتاب رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ٢٦.

(٢) انظر كتاب رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ص ٢٦.

الدُّعَاءِ المَشْهُورِ فقَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وهَوَانِي عَلَىٰ النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ وأَنْتَ رَبِّي، إِلَىٰ مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَىٰ بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي[1]؟! أَمْ إِلَىٰ عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟! إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ. لَكَ العُتْبَىٰ حَتَّىٰ تَرْضَىٰ، وَلَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[2].

❁ قِصَّةُ عَدَّاسٍ:

فَلَمَّا رَآهُ ابْنَا رَبِيعَةَ عُتْبَةُ وشَيْبَةُ، وَكَانَا فِي الحَائِطِ، وَرَأَيَا مَا لَقِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ سُفَهَاءِ أَهْلِ الطَّائِفِ، تَحَرَّكَتْ لَهُ رَحِمُهُمَا، فَدَعَوْا غُلَامًا لَهُمَا نَصْرَانِيًّا، يُقَالُ لَهُ: عَدَّاسٌ، فَقَالَا لَهُ: خُذْ قِطْفًا مِنْ هَذَا العِنَبِ فَضَعْهُ فِي هَذَا الطَّبَقِ، ثُمَّ اذْهَبْ بِهِ إِلَىٰ ذَلِكَ الرَّجُلِ، فَقُلْ لَهُ يَأْكُلْ مِنْهُ، فَفَعَلَ عَدَّاسٌ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ حَتَّىٰ وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُلْ، فَلَمَّا وَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهِ يَدَهُ قَالَ: «بِسْمِ اللهِ»[3] ثُمَّ أَكَلَ، فَنَظَرَ عَدَّاسٌ فِي وَجْهِهِ مُسْتَغْرِبًا، ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ

---

(١) يَتَجَهَّمُنِي: أي يَلْقَانِي بالغِلْظَةِ والوجهِ الكَرِيهِ. انظر النهاية (١/٣١٢).

(٢) انظر سيرة بن هشام (٢/٣٣) - البداية والنهاية (٣/١٤٧) - زاد المعاد (٣/٢٨) - ودلائل النبوة لأبي نعيم (١/٢٩٦).

(٣) قال ابن القيم في زاد المعاد (١/١٤٣): كان رَسُول اللهِ ﷺ يُسَمِّي الله تَعَالَىٰ علىٰ أول طعَامِهِ، ويحمدُهُ في آخره فيقول عندَ انقضائِهِ: «الحمد لله الذي أَطْعَمَ وسَقىٰ، وسَوَّغه=

إنَّ هَذَا الكَلَامَ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ البِلَادِ، فَقَالَ لَهُ رَسُول اللهِ ﷺ: «**مِنْ أَهْلِ أَيِّ البِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ؟ وَمَا دِينُكَ؟**»[1].

قَالَ: نَصْرَانِيٌّ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نِينَوَىٰ[2]، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بنِ مَتَّىٰ؟**» فَقَالَ عَدَّاسٌ: وَمَا يُدْرِيكَ مَا يُونُسُ بنُ مَتَّىٰ؟. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاكَ أَخِي كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ**».

فَأَكَبَّ عَدَّاسٌ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُ رَأْسَهُ، ويَدَيْهِ، وَقَدَمَيْهِ، وأَسْلَمَ[3].

= وجعلَ لهُ مَخْرجًا».

أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ رقم الحديث (٥٢٢٠) ـ وإسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فيما نقله عنه ابن القيم في زاد المعاد (٤/٢١٣): إذا جَمَعَ الطعامُ أربعًا، فقد كَمُلَ: إذا ذُكر اسمُ اللهِ في أوَّله، وحُمِدَ الله في آخرِه، وكثُرَتْ عليهِ الأيدِي، وكان مِنْ حَلَالٍ.

(١) قال الشيخ علي الطنطاوي في كتابه رجال من التاريخ ص ٢٧: وهنا مَوْقِفٌ عَجَبٌ من العَجَبِ، الرسول ﷺ في هذه الحالِ من الشدَّة، وفي هذا الموقف الذِي يُقنطُ أجْلد الأبطَالِ، رأىٰ بادِرَةَ قبولٍ للدعوَةِ عندَ عبدٍ ضَعِيفٍ يُقال له: عَدَّاسٌ، فلم يمنعْهُ كلُّ ما لَقِيَ من أن يُبلِّغَهُ دعوةَ الله تَعَالَىٰ، وينصَرِفَ إليه، ويَنْسَىٰ ألَمَهُ وتعَبَهُ ﷺ حتىٰ أسلم عَدَّاس، هذا موقفٌ صَغِيرٌ بالنسبةِ للرسول ﷺ، ولكنَّهُ عَظِيمٌ عَظِيمٌ بالنسبةِ إلىٰ دُعَاة البَشَرِ في كل تَوَارِيخِهِم، ولا يستطيعُ باحِثٌ أن يلقىٰ في الإخلاص للدعوَةِ، ونسيانِ الذَّات في سَبِيلها، مَوقِفًا مثلَهُ لِرَجل آخرَ غير الرسول ﷺ.

(٢) نِينَوَىٰ: بكسر أوله، وسكون ثانيه، هي قريةُ يُونس بن متىٰ عليه السلام بالموصل في العِراق. انظر معجم البلدان (٥/٣٩١).

(٣) أسلَمَ عَدَّاس رضي الله عنه، وهو معدودٌ في الصحابة، وفي سِيَرِ التيميِّ أن عَدَّاسًا قال: وأنا أشهدُ أنك عبدُ الله ورسوله. انظر الإصابة (٤/٣٨٥).

فَقَالَ ابْنَا رَبِيعَةَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَمَّا غُلَامُكَ فَقَدْ أَفْسَدَهُ عَلَيْكَ، فَلَمَّا جَاءَهُمَا عَدَّاسٌ، قَالَا لَهُ: وَيْلَكَ يَا عَدَّاسُ! مَالَكَ تُقَبِّلُ رَأْسَ هَذَا الرَّجُلِ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ؟

قَالَ: يَا سَيِّدِي! مَا فِي الأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ هَذَا، لَقَدْ أَخْبَرَنِي بِأَمْرٍ مَا يَعْلَمُهُ إِلَّا نَبِيٌّ، قَالَا لَهُ: وَيْحَكَ يَا عَدَّاسُ! لَا يَصْرِفَنَّكَ عَنْ دِينِكَ، فَإِنَّ دِينَكَ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ(١).

۞ رُجُوعُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ مَكَّةَ:

ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الطَّائِفِ، وهُوَ مَهْمُومٌ ومَحْزُونٌ، فَلَمْ يَسْتَفِقْ ﷺ إلَّا وَهُوَ بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلَ أَتَىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قال: **«لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ(٢) مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ**

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢/٣٤) ـ البداية والنهاية (٣/١٤٧) ـ شرح المواهب (٢/٥٠) ـ طبقات ابن سعد (١/١٠٢) ـ زاد المعاد (٣/٢٨).

(٢) قال الحافظ في الفتح: المرادُ بقومِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في قوله ﷺ: **«القد لَقِيتُ من قَوْمِكِ»**: قريشٌ، لا أهلَ الطائف الذين هُم ثَقِيف، لأنهم ـ أي قريش ـ كانوا السبب الحَامِلَ علىٰ ذهابه ﷺ لثَقِيفٍ، ولأن ثَقِيفًا ليسُوا قوم عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وَجْهِي[1]، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وأنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ[2]، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فنظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وقَدْ بَعَثَ اللهُ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ»[3]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو[4] أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[5].

قُلْتُ: وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَىٰ دَعْوَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَؤُلَاءِ الكُفَّارِ، فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِ أَبِي طَالِبٍ، عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، وَجَعْفَرَ بنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه،

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٦/٤٦٢): أي علىٰ الجِهَةِ المُوَاجِهَةِ لي.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٦/٤٦٢): قَرْنُ الثعَالِبِ: هو مِيقَاتُ أهلِ نَجْدٍ، ويقال له: قرنُ المَنَازِلِ أيضًا.

قلتُ: وقرنُ المنازل يبعُدُ اليوم عن مكة (٨٠) كيلو متر تقريبًا.

(٣) الأَخْشَبَانِ: الجَبَلَانِ المُطِيفَانِ بمكةَ، وهما أبو قُبَيْسٍ والأحمر، وهو جبل مُشرِفٌ وجهه علىٰ جبل قُعَيْقِعَان، والأخشبُ كل جبلٍ خَشِنٍ غَلِيظ الحجارة. انظر النهاية (٢/٣١).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٦/٤٦٢): وفي هذا الحديث بيان شفقة النبي ﷺ علىٰ قومه، ومزيدُ صبرِهِ وحلمِهِ، وهو موافقٌ لقوله تَعَالَىٰ في سورة آل عمران آية (١٥٩): ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾، وقوله تَعَالَىٰ في سورة الأنبياء آية (١٠٧): ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب بدء الخلق ـ باب إذا قال أحدكم آمين ـ رقم الحديث (٣٢٣١) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الجهاد ـ باب ما لقي النبي ﷺ من أذىٰ المشركين والمنافقين ـ رقم الحديث (١٧٩٥) ـ وابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب صبر المصطفىٰ ﷺ علىٰ أذىٰ المشركين ـ رقم الحديث (٦٥٦١).

وأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِ أَبِي جَهْلٍ، عِكْرَمَةَ بنَ أَبِي جَهْلٍ رضي الله عنه، وأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِ الوَلِيدِ بنِ المُغِيرَةِ، خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ رضي الله عنه، وأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِ العَاصِ بنِ وَائِلٍ، عَمْرَو بنَ العَاصِ رضي الله عنه، وأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِ المُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ، جُبَيْرَ بنَ مُطْعِمٍ رضي الله عنه، وغَيْرَهُمْ كَثِيرٌ الذِينَ خَرَجُوا مِنْ أَصْلَابِ هَؤُلَاءِ الكُفَّارِ.

* وَهْمُ ابْنِ إِسْحَاقَ وَابْنِ سَعْدٍ وَغَيْرِهِمَا فِي إِسْلَامِ الْجِنِّ:

ذَكَرَ ابنُ إسْحَاقَ(١)، وابْنُ سَعْدٍ(٢)، وابْنُ القَيِّمِ فِي زَادِ المَعَادِ(٣): أَنَّ سَمَاعَ الجِنِّ لِقِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلَ مَرَّةٍ وإسْلَامَهُمْ كَانَ عِنْدَمَا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الطَّائِفِ حِينَ بَاتَ بِنَخْلَةَ(٤)، وهَذَا فِيهِ نَظَرٌ، فَإِنَّ اسْتِمَاعَهُمْ لَهُ ﷺ كَانَ فِي ابْتِدَاءِ المَبْعَثِ، كَمَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ.

❁ دُخُولُ الرَّسُولِ ﷺ مَكَّةَ فِي جِوَارِ المُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ:

ثُمَّ قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ، وقَوْمُهُ أَشَدُّ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خِلَافِهِ، وفِرَاقِ دِينِهِ.

فَلَمَّا أَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ دُخُولَ مَكَّةَ، قَالَ لَهُ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه: كَيْفَ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ أَخْرَجُوكَ؟

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢/٣٥).

(٢) انظر الطبَقَات الكُبْرى (١/١٠٢).

(٣) انظر زاد المعاد (٣/٢٩).

(٤) نخلة: موضع بالحجاز قريب من مكة، فيه نخل وزرع. انظر معجم البلدان (٨/٣٨١).

فَقَالَ ﷺ: «يَا زَيْدُ! إِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لِمَا تَرَىٰ فَرَجًا ومَخْرَجًا، وإِنَّ اللهَ نَاصِرُ دِينِهِ، ومُظْهِرُ نَبِيِّهِ».

ثُمَّ انْتَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ حِرَاءٍ، فَبَعَثَ رَجُلًا مِنْ خُزَاعَةَ هُوَ: عَبْدُ اللهِ بنُ أُرَيْقِطٍ إِلَىٰ الأَخْنَسِ بنِ شَرِيقٍ لِيُجِيرَهُ، فَقَالَ الأَخْنَسُ: أَنَا حَلِيفُ قُرَيْشٍ، وَرَفَضَ إِجَارَةَ النَّبِيِّ ﷺ.

فَبَعَثَ إِلَىٰ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو لِيُجِيرَهُ، فَقَالَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو: إِنَّ بَنِي عَامِرِ بنِ لُؤَيٍّ لَا تُجِيرُ عَلَىٰ بَنِي كَعْبٍ، ورَفَضَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو أَنْ يُجِيرَ الرَّسُولَ ﷺ.

فَبَعَثَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَىٰ المُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ[1] لِيُجِيرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ المُطْعِمُ: نَعَمْ وَأَجَابَهُ إِلَىٰ ذَلِكَ، وقَالَ لِعَبْدِ اللهِ بنِ أُرَيْقِطٍ: قُلْ لِمُحَمَّدٍ فَلْيَأْتِ.

فَرَجَعَ إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ فَبَاتَ عِنْدَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ، وَقَدْ لَبِسَ سِلَاحَهُ هُوَ وبَنُوهُ سِتَّةٌ أَوْ سَبْعَةٌ فَدَخَلُوا المَسْجِدَ، وَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: طُفْ، وأَمَرَ بَنِيهِ أَنْ يَكُونُوا عِنْدَ أَرْكَانِ البَيْتِ لِحِمَايَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

فَهُنَا أَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَىٰ المُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ، وقَالَ لَهُ: أَمُجِيرٌ أَمْ تَابِعٌ[2]؟.

---

(١) المُطعِمُ بن عَدِيٍّ: ماتَ كافرًا.

(٢) أي: اتَّبَعْتَهُ ودخلتَ دِينَهُ.

فَقَالَ المُطْعِمُ: بَلْ مُجِيرٌ.

قَالَ أبُو سُفْيَانَ: إِذَنْ لَا نَخْفِرُ ذِمَّتَكَ[1] قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتَ. فَجَلَسَ مَعَهُ حَتَّىٰ قَضَىٰ رَسُولُ اللهِ طَوَافَهُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ الرَّسُولُ ﷺ انْصَرَفُوا مَعَهُ، ورَجَعَ أبُو سُفْيَانَ إِلَىٰ مَجْلِسِهِ[2].

۞ وَفَاءُ الرَّسُولِ ﷺ لِلْمُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ:

وَلِهَذَا الصَّنِيعِ الذِي فَعَلَهُ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أُسَارَىٰ بَدْرٍ: «**لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَىٰ[3] لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ**»[4].

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: أَيْ بِغَيْرِ فِدَاءٍ، ثُمَّ ذَكَرَ الحَافِظُ سَبَبَ تَرْكِهِمْ لَهُ: مِنْ أَنَّ المُطْعِمَ بنَ عَدِيٍّ كَانَ مِنْ أَشَدِّ مَنْ قَامَ فِي نَقْضِ الصَّحِيفَةِ التِي كَتَبَتْهَا قُرَيْشٌ

---

(١) لا نَخْفِرُ ذمَّتَكَ: أي لا نَنْقُضُ ولا نَغْدِرُ بجوارِكَ وعهدِكَ. انظر النهاية (٢/٥٠).

(٢) انظر تفاصيل ذهاب الرسول ﷺ إلىٰ الطائف والرجوع منها في: زاد المعاد (٣/٣٨ - ٤٠) - شرح المواهب (٢/٤٩ - ٦٦) - سيرة ابن هشام (٢/٣٢ - ٣٥) - البداية والنهاية (٣/١٤٧) - سبل الهدىٰ والرشاد (٢/٤٣٨ - ٤٤٠) - الطبَّقات الكُبْرىٰ لابن سعد (١/١٠١ - ١٠٢) - دلائل النبوة للبيهقي (٢/٤١٥ - ٤١٧).

(٣) النَّتْنُ: الرائِحَةُ الكريهَةُ، والمراد بالنَّتْنِ في هذا الحديث أُسَارىٰ بدرٍ من المشركين. انظر لسان العرب (١٤/٣٦).

(٤) أخرج هذا الحديث: البخاري في صحيحه - كتاب الخمس - باب ما مَنّ النبي ﷺ علىٰ الأسارىٰ من غير أن يخمس - رقم الحديث (٣١٣٩) - وأخرجه في كتاب المغازي - باب رقم (١٢) - رقم الحديث (٤٠٢٤).

عَلَىٰ بَنِي هَاشِمٍ وَمَنْ مَعَهُمْ مِنَ المُسْلِمِينَ حِينَ حَصَرُوهُمْ فِي الشِّعْبِ، والسَّبَبُ الثَّانِي إِجَارَتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ عِنْدَمَا أَرَادَ دُخُولَ مَكَّةَ عِنْدَمَا رَجَعَ مِنَ الطَّائِفِ ﷺ[١].

قَالَ الزُّرْقَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وهَذَا مِنْ شِيَمِهِ ﷺ الكَرِيمَةِ تَذَكَّرَ وَقْتَ النَّصْرِ، والظَّفَرِ لِلْمُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ هَذَا الجَمِيلَ[٢].

۞ اسْتِهْزَاءُ أَبِي جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ:

وَقَدْ أَرَادَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَسْتَهْزِئَ بِالرَّسُولِ ﷺ كَيْفَ يَحْتَاجُ نَبِيٌّ إِلَىٰ جِوَارٍ، وَكَأَنَّهُ يَتَسَاءَلُ لِمَ لَمْ تَنْزِلِ المَلَائِكَةُ لِحِفْظِهِ ﷺ؟

فَقَالَ لَعَنَهُ اللهُ لَمَّا رَأَىٰ الرَّسُولَ ﷺ دَخَلَ المَسْجِدَ الحَرَامَ، وَالمُشْرِكُونَ عِنْدَ الكَعْبَةِ: هَذَا نَبِيُّكُمْ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! فَرَدَّ عَلَيْهِ عُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ، وقَالَ: ومَا تُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ مِنَّا نَبِيٌّ أَوْ مَلَكٌ؟

فَلَمَّا سَمِعَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ أَتَاهُمْ، فَقَالَ: **«أَمَّا أَنْتَ يَا عُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ، فَوَاللهِ مَا حَمَيْتَ للهِ وَلَا لِرَسُولِهِ، ولَكِنْ حَمَيْتَ لِنَفْسِكَ، وأَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا جَهْلِ بنَ هِشَامٍ، فَوَاللهِ لَا يَأْتِي عَلَيْكَ غَيْرُ كَبِيرٍ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّىٰ تَضْحَكَ قَلِيلًا، وتَبْكِيَ كَثِيرًا، وَأَمَّا أَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ المَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ، فَوَاللهِ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ غَيْرُ كَبِيرٍ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّىٰ تَدْخُلُوا فِيمَا تُنْكِرُونَ، وأَنْتُمْ كَارِهُونَ»**[٣].

---

(١) انظر فتح الباري (٨/٥٩ ـ ٦٠).

(٢) انظر شرح المواهب (٢/٦٧).

(٣) أخرج ذلك الطبري في تاريخه (١/٥٥٥) بدون إسناد ـ وابن سعد في طبقاته (١/١٠٢) من طريق الواقدي، وإسناده ضعيف.

الإِسْرَاءُ والمِعْرَاجُ

جَاءَتْ هَذِهِ الحَادِثَةُ حَادِثَةُ الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ تَثْبِيتًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وتَكْرِيمًا لَهُ فِي أَعْقَابِ سِنِينَ طَوِيلَةٍ مِنَ الدَّعْوَةِ، والصَّبْرِ عَلَىٰ أَذَىٰ المُشْرِكِينَ واضْطِهَادِهِمْ، ونُكْرَانِهِمْ، وجَفَائِهِمْ.

۞ المَقْصُودُ بِالْإِسْرَاءِ:

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: أَسْرَىٰ، مَأْخُوذَةٌ مِنَ السَّرَىٰ: وهُوَ سَيْرُ اللَّيْلِ، تَقُولُ: أَسْرَىٰ وسَرَىٰ إِذَا سَارَ لَيْلًا بِمَعْنًىٰ[1].

وَالمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ: أَيْ جَعَلَ البُرَاقَ يَسْرِي بِهِ.

والمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: بِعَبْدِهِ: مُحَمَّدٍ ﷺ اتِّفَاقًا، وَالضَّمِيرُ للهِ تَعَالَىٰ والإِضَافَةُ لِلتَّشْرِيفِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: لَيْلًا: ظَرْفٌ لِلْإِسْرَاءِ وهُوَ لِلتَّأْكِيدِ، ويُقَالُ بَلْ هُوَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ لَا فِي جَمِيعِهِ، والعَرَبُ تَقُولُ: سَرَىٰ فُلَانٌ لَيْلًا إِذَا سَارَ بَعْضَهُ، وَسَرَىٰ لَيْلَةً إِذَا سَارَ جَمِيعَهَا، وَلَا يُقَالُ أَسْرَىٰ إِلَّا إِذَا وَقَعَ سَيْرُهُ فِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ، وإِذَا وَقَعَ فِي أَوَّلِهِ يُقَالُ أَدْلَجَ[2].

(١) انظر فتح الباري (٧/٥٩٧) ـ لسان العرب (٦/٢٥٢).

(٢) انظر فتح الباري (٧/٥٩٧).

ويُقْصَدُ بِالْإِسْرَاءِ هُنَا: الرِّحْلَةُ الَّتِي أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا نَبِيَّهُ ﷺ مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ إِلَىٰ المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ بِالقُدْسِ.

المَقْصُودُ بِالمِعْرَاجِ[1]:

أَمَّا المِعْرَاجُ: فَهُوَ مَا أَعْقَبَ هَذِهِ الرِّحْلَةَ مِنَ العُرُوجِ بِهِ ﷺ إِلَىٰ السَّمَوَاتِ العُلَا حَتَّىٰ الوُصُولِ إِلَىٰ مُسْتَوَىٰ تَنْقَطِعُ عِنْدَهُ عُلُومُ الخَلَائِقِ.

وَقَدْ أَشَارَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ إِلَىٰ تِلْكَ الحَادِثَةِ فِي سُورَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ، فَذَكَرَ قِصَّةَ الإِسْرَاءِ فِي سُورَةِ الإِسْرَاءِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2].

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قِصَّةَ المِعْرَاجِ فِي سُورَةِ النَّجْمِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[3].

تَوَاتَرَتِ الأَخْبَارُ فِي الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ:

قَالَ الحَافِظُ أَبُو الخَطَّابِ عُمَرُ بنُ دِحْيَةَ فِي كِتَابِهِ: «التَّنْوِير فِي مَوْلِدِ السِّرَاجِ المُنِير» فِيمَا نَقَلَهُ عَنْهُ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ: وقَدْ تَوَاتَرَتِ الرِّوَايَاتُ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ

(١) المِعْرَاجُ: بكسر الميم هو السُلم، والعُرُوجُ: الصُّعود. انظر النهاية (٣/١٨٤).
(٢) سورة الإسراء آية (١).
(٣) سورة النجم آية (١٣ ـ ١٨).

عَنْ: عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، وَعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وابْنِ مَسْعُودٍ، وأَبِي ذَرٍّ، ومَالِكِ بنِ صَعْصَعَةَ، وأَبِي هُرَيْرَةَ، وأَبِي سَعِيدٍ، وابْنِ عَبَّاسٍ، وشَدَّادِ بنِ أَوْسٍ، وأُبَيِّ بنِ كَعْبٍ، وعَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ قُرْطٍ، وأَبِي حَبَّةَ وأَبِي لَيْلَىٰ الأَنْصَارِيَّيْنِ، وعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، وجَابِرٍ، وحُذَيْفَةَ، وبُرَيْدَةَ، وأَبِي أَيُّوبَ، وأَبِي أُمَامَةَ، وَسَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ، وأَبِي الحَمْرَاءِ، وصُهَيْبٍ الرُّومِيِّ، وأُمِّ هَانِئٍ، وعَائِشَةَ وأَسْمَاءَ ابْنَتَيْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا.

مِنْهُمْ مَنْ سَاقَهُ بِطُولِهِ، ومِنْهُمْ مَنْ اخْتَصَرَهُ عَلَىٰ مَا وَقَعَ فِي المَسَانِيدِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ رِوَايَةُ بَعْضِهِمْ عَلَىٰ شَرْطِ الصِّحَّةِ، فَحَدِيثُ الإِسْرَاءِ أَجْمَعَ عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ، واعْتَرَضَ فِيهِ الزَّنَادِقَةُ المُلْحِدُونَ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[١].

۞ مَتَىٰ حَدَثَ الإِسْرَاءُ والمِعْرَاجُ؟:

اخْتُلِفَ فِي وَقْتِ وُقُوعِ الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ، فَقِيلَ: قَبْلَ الهِجْرَةِ بِسَنَةٍ قَالَهُ ابْنُ سَعْدٍ[٢]، وغَيْرُهُ، وَبِهِ جَزَمَ النَّوَوِيُّ، وبَالَغَ ابنُ حَزْمٍ فَنَقَلَ الإِجْمَاعَ فِيهِ، وهُوَ مَرْدُودٌ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافًا كَثِيرًا يَزِيدُ عَلَىٰ عَشَرَةِ أَقْوَالٍ[٣].

---

(١) سورة الصف آية (٦). وانظر تفسير ابن كثير (٤٥/٥).

(٢) قال ابن سعد في طبقاته (١٠٣/١): كان الإسراء والمعراج ليلة السابع عشر من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة.

(٣) انظر فتح الباري (٦٠٢/٧).

وقِيلَ: كَانَ فِي رَجَبَ حَكَاهُ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ وجَزَمَ بِهِ النَّوَوِيُّ فِي الرَّوْضَةِ، وَقِيلَ: قَبْلَ الهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ حَكَاهُ ابنُ الأَثِيرِ(١).

قُلْتُ: وَالذِي لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ العُلَمَاءِ أَنَّ الإِسْرَاءَ والمِعْرَاجَ كَانَ بَعْدَ عَوْدَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الطَّائِفِ، لَكِنْ لَمْ يَتَعَيَّنْ بِالضَّبْطِ اليَوْمُ، والشَّهْرُ، والسَّنَةُ التِي وَقَعَ فِيهَا(٢).

۞ الإِسْرَاءُ والمِعْرَاجُ بِالجَسَدِ والرُّوحِ:

الصَّحِيحُ أَنَّ الإِسْرَاءَ والمِعْرَاجَ كَانَ بِجَسَدِهِ ورُوحِهِ ﷺ.

قَالَ الإِمَامُ ابنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: والصَّوَابُ مِنَ القَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَىٰ المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ عِبَادَهُ، وَكَمَا تَظَاهَرَتْ بِهِ الأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ حَمَلَهُ عَلَىٰ البُرَاقِ حَيْثُ أَتَاهُ بِهِ، وَصَلَّىٰ هُنَالِكَ بِمَنْ صَلَّىٰ مِنَ الأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ، فَأَرَاهُ مَا أَرَاهُ مِنَ الآيَاتِ، وَلَا مَعْنَىٰ لِقَوْلِ مَنْ قَالَ: أَسْرَىٰ بِرُوحِهِ دُونَ جَسَدِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ، وَلَا حُجَّةَ لَهُ عَلَىٰ رِسَالَتِهِ، وَلَا كَانَ الذِينَ أَنْكَرُوا حَقِيقَةَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَكَانُوا يَدْفَعُونَ بِهِ عَنْ صِدْقِهِ فِيهِ، إِذْ لَمْ

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/٦٥٠).

(٢) انظر فتح الباري (٧/٢٠٢).

يَكُنْ مُنْكَرًا عِنْدَهُمْ، وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ ذَوِي الفِطْرَةِ الصَّحِيحَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنْ يَرَىٰ الرَّائِي مِنْهُمْ فِي المَنَامِ مَا عَلَىٰ مَسِيرَةِ سَنَةٍ، فَكَيْفَ مَا هُوَ عَلَىٰ مَسِيرَةِ شَهْرٍ أَوْ أَقَلَّ؟ وبَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِنَّمَا أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ أَنَّهُ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ، ولَمْ يُخْبِرْنَا أَنَّهُ أَسْرَىٰ بِرُوحِ عَبْدِهِ، ولَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَعَدَّىٰ مَا قَالَ اللهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ.. وَلَا دَلَالَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مُرَادَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ أَسْرَىٰ بِرُوحِ عَبْدِهِ، بَلْ الأَدِلَّةُ الوَاضِحَةُ، والأَخْبَارُ المُتَتَابِعَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَسْرَىٰ بِهِ عَلَىٰ دَابَّةٍ يُقَالُ لَهَا: البُرَاقُ، ولَوْ كَانَ الإِسْرَاءُ بِرُوحِهِ لَمْ تَكُنِ الرُّوحُ مَحْمُولَةً عَلَىٰ البُرَاقِ، إِذْ كَانَتِ الدَّوَابُّ لَا تَحْمِلُ إِلَّا الأَجْسَامَ[1].

وقَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: الأَكْثَرُونَ مِنَ العُلَمَاءِ عَلَىٰ أَنَّهُ ﷺ أُسْرِيَ بِبَدَنِهِ ورُوحِهِ يَقَظَةً لَا مَنَامًا، والدَّلِيلُ عَلَىٰ هَذَا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ فَالتَّسْبِيحُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ، وَلَوْ كَانَ مَنَامًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَبِيرُ شَيْءٍ وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَعْظَمًا، وَلَمَا بَادَرَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَىٰ تَكْذِيبِهِ، وَلَمَا ارْتَدَّ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعَبْدَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ، وَقَدْ قَالَ عَزَّ شَأْنُهُ: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[2].

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيَهَا

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٦/٨).

(٢) سورة الإسراء آية (٦٠). وانظر كلام الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/٤٣ ـ ٤٤).

رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ، والشَّجَرَةُ المَلْعُونَةُ: شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(١).

ثُمَّ قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ: وقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾(٢) وَالبَصَرُ مِنْ آلَاتِ الذَّاتِ لَا الرُّوحِ، وأَيْضًا فَإِنَّهُ ﷺ حُمِلَ عَلَىٰ البُرَاقِ، وهُوَ دَابَّةٌ بَيْضَاءُ بَرَّاقَةٌ لَهَا لَمَعَانٌ، وإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا لِلْبَدَنِ لَا لِلرُّوحِ، لِأَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ فِي حَرَكَتِهَا إِلَىٰ مَرْكَبٍ تَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ(٣).

وقَالَ الحَافِظُ في الفَتْحِ: وقَدِ اخْتَلَفَ السَّلَفُ بِحَسْبِ اخْتِلَافِ الأَخْبَارِ الوَارِدَةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَىٰ أَنَّ الإِسْرَاءَ والمِعْرَاجَ وَقَعَا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ فِي اليَقَظَةِ بِجَسَدِ النَّبِيِّ ﷺ ورُوحِهِ بَعْدَ المَبْعَثِ، وإِلَىٰ هَذَا ذَهَبَ الجُمْهُورُ مِنْ عُلَمَاءِ المُحَدِّثِينَ والفُقَهَاءِ والمُتَكَلِّمِينَ، وتَوَارَدَتْ عَلَيْهِ ظَوَاهِرُ الأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ، وَلَا يَنْبَغِي العُدُولُ عَنْ ذَلِكَ، إِذْ لَيْسَ فِي العَقْلِ مَا يُحِيلُهُ حَتَّىٰ يَحْتَاجَ إِلَىٰ تَأْوِيلٍ(٤).

۞ الإِسْرَاءُ والمِعْرَاجُ كَانَ مَرَّةً وَاحِدَةً:

وإِذَا حَصَلَ الوُقُوفُ عَلَىٰ مَجْمُوعِ الأَحَادِيثِ صَحِيحِهَا، وحَسَنِهَا، وضَعِيفِهَا،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحة ـ كتاب التفسير ـ باب وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ـ رقم الحديث (٤٧١٦) ـ وأخرجه في مناقب الأنصار ـ باب المعراج ـ رقم الحديث (٦٨٨٨) ـ والإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٩١٦).

(٢) سورة النجم آية (١٧).

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٥/٤٤.

(٤) انظر فتح الباري (٧/٥٩٥).

يَحصُلُ مَضمُونُ مَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَسْرَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ، وأَنَّهُ مَرَّةً وَاحِدَةً، وإِنِ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الرُّوَاةِ فِي أَدَائِهِ، أَوْ زَادَ بَعْضُهُمْ فِيهِ أَوْ نَقَصَ مِنْهُ، فَإِنَّ الخَطَأَ جَائِزٌ عَلَىٰ مَنْ عَدَا الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، ومَنْ جَعَلَ مِنَ النَّاسِ كُلَّ رِوَايَةٍ خَالَفَتِ الأُخْرَىٰ مَرَّةً عَلَىٰ حِدَةٍ، فَأَثْبَتَ إِسْرَاءَاتٍ مُتَعَدِّدَةً فَقَدْ أَبْعَدَ وأَغْرَبَ، وهَرَبَ إِلَىٰ غَيْرِ مَهْرَبٍ، ولَمْ يَحصُلْ عَلَىٰ مَطْلَبٍ.

وقَدْ صَرَّحَ بَعْضُهُمْ مِنَ المُتَأَخِّرِينَ بِأَنَّهُ ﷺ أُسْرِيَ بِهِ مَرَّةً مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ فَقَطْ، ومَرَّةً مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَقَطْ، ومَرَّةً إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ وَمِنْهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وفَرِحَ بِهَذَا المَسْلَكِ، وأَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ بِشَيْءٍ يَخْلُص بِهِ مِنَ الإِشْكَالَاتِ، وهَذَا بَعِيدٌ جِدًّا، وَلَمْ يُنْقَلْ هَذَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ، وَلَوْ تَعَدَّدَ هَذَا التَّعَدُّدَ لَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِ أُمَّتَهُ، ولَنَقَلَتْهُ النَّاسُ عَلَىٰ التَّعَدُّدِ والتَّكْرَارِ(١).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: والصَّوَابُ الذي عَلَيْهِ أَئِمَّةُ النَّقْلِ أَنَّ الإِسْرَاءَ كَانَ مَرَّةً وَاحِدَةً بِمَكَّةَ بَعْدَ البِعْثَةِ(٢).

قِصَّةُ الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ:

أَمَّا قِصَّةُ الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ فَقَدْ رَوَاهَا الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا، كَمَا رَوَاهَا غَيْرُهُمَا مِنْ أَئِمَّةِ الحَدِيثِ وَعُلَمَاءِ السِّيَرِ، وَسَأُفَصِّلُ هَذِهِ الحَادِثَةَ، وأَجْمَعُ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٧/٤٢).

(٢) انظر زاد المعاد (٣/٣٨).

عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: أَنَّ مَالِكَ بنَ صَعْصَعَةَ ﷺ قَالَ: أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ، قَالَ ﷺ: «**بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيمِ** ـ وَرُبَّمَا قَالَ فِي الحِجْرِ[1] ـ **مُضْطَجِعًا**[2]، **إِذْ أَتَانِي آتٍ**[3] **فَقَدَّ**»[4] ـ قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَىٰ هَذِهِ**». فَقُلْتُ لِلْجَارُودِ وهُوَ إِلَىٰ جَنْبِي: مَا يَعْنِي بِهِ؟ قَالَ: «**مِنْ ثُغْرَةِ**[5]

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٦٠٣/٧): هو شَكٌّ من قتادة كما بيَّنه الإمام أحمد في مسنده رقم الحديث (١٧٨٣٥) عن عفَّان عن هَمَّام، ولفظه: «**بينَا أنا نائمٌ في الحَطِيمِ**»، وربما قال قتادة في الحِجر، والمراد بالحَطِيمِ هنا الحِجرُ، وأبعدَ مَنْ قالَ المراد به ـ أي الحَطِيم ـ ما بينَ الركن والمقامِ أو بينَ زمزم والحِجر، وهو وإن كان مختلفًا في الحَطِيم هل هو الحِجر أم لا؟، لكن المراد هنا بيان البقعة التي وقع ذلك فيها، وقد وقع في أول بدء الخلق في صحيح البخاري ـ رقم الحديث (٣٢٠٧): بلفظ «**بَيْنَا أنا عندَ البيت**» وهو أعمُّ، ووقع في رواية الزهري في صحيح البخاري ـ رقم الحديث (٣٤٩): عن أنس عن أبي ذر «**فُرِجَ عن سقفِ بَيْتِي وأنا بمَكَّةَ**»، وفي رواية الواقدي بأسانيده: أنه أسري به من شعب أبي طالب، وفي حديث أم هانئ عند الطبراني أنه بات في بيتها قالت: ففقدته من الليلِ فقال: «**إنَّ جبريلَ أتاني**». والجَمْعُ بين هذه الأقوال أنه نَامَ في بيتِ أمِّ هَانِئٍ، وبيتها عند شِعْبِ أبي طالب، ففُرِجَ سقفُ بيتِهِ، وأضافَ البيتَ إليهِ لكَونِهِ كان يسكُنُهُ، فنزل منه المَلَك فأخرجَهُ من البيتِ إلىٰ المسجد فكان به مُضْطَجِعًا، وبه أثرُ نُعَاسٍ، ثم أخرجه الملك إلىٰ المسجد فأركبَهُ البُراق.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٦٠٤/٧): زاد في بدء الخلق ـ أي البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٣٢٠٧) ـ قال: «**بينَ النائمِ واليَقْظَانِ**»، وهو مَحمولٌ على ابتداءِ الحال، ثم لما أخرجَ به إلىٰ بابِ المسجدِ فأركبَهُ البُرَاق استَمَرَّ في يَقَظَتِهِ.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٦٠٤/٧): هو جِبريل عليه السلام.

(٤) القَدُّ: هو القَطْعُ طُولًا كالشَّقِّ. انظر النهاية (٢٠/٤)

(٥) الثُّغْرَةُ: هي نُقْرَةُ النَّحْرِ فوقَ الصَّدْرِ. انظر النهاية (٢٠٨/١).

نَحْرِهِ[1] إِلَىٰ شِعْرَتِهِ[2]، فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ[3] مِنْ ذَهَبٍ[4] مَمْلُوءَةٍ[5] إِيمَانًا[6]، فَغَسَلَ قَلْبِي[7]، ثُمَّ حُشِيَ[8]، ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ

---

(١) النَّحْرُ: هو أعْلَىٰ الصَّدر. انظر النهاية (٥/٢٣).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/٦٠٤): قوله: شِعْرَتِهِ بكسر الشين، أي شعر العَانة.
وفي رواية الإمام مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (١٦٤) قال: إلىٰ أسفَلِ بَطْنِهِ.

(٣) قال الإمام النووي في شرح مسلم (٢/١٨٦): هي إناءٌ معروفٌ وهي مُؤَنَّثَة.
وقال الحافظ في الفتح (٧/٦٠٥): خص الطَّستُ لكونِهِ أشهَر آلاتِ الغُسْلِ عُرفًا.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٧/٦٠٥): خُصَّ الذهبُ لكونهِ أغْلَي أنواعِ الأواني الحِسِّيَّةِ وأصفَاهَا؛ ولأن فيه خَوَاصٌ ليستْ لغيرِهِ ويظهَرُ لها هنا مُناسباتٌ: منها أنه مِنْ أوَاني الجنةِ، ومنها أنه لا تأكُلُهُ النارُ، ولا التُّرابُ، ولا يلحَقُهُ الصَّدأ، ومنها أنه أثقَلُ الجَوَاهر فناسَبَ ثِقَلَ الوَحْيِ.

(٥) قال الحافظ في الفتح (٢/٦): والمعنَىٰ أن الطَّسْتَ جُعِلَ فيها شَيءٌ يحصُلُ به كَمَالُ الإيمانِ والحِكْمَةِ فسُمِّيَ حكمةً وإيمانًا مَجازًا، أو مُثِّلا له بناء علىٰ جوازِ تَمثِيل المعاني، كما يُمَثَّلُ الموتُ كَبْشًا في الآخرة.
حديث: «**يُؤْتَىٰ بالموتِ يومَ القِيامَةِ كأنه كَبْشٌ أمْلَحُ**».
أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ ـ رقم الحديث (٤٧٣٠) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الجنة وصفتها ـ باب النار يدخلها الجبارون ـ رقم الحديث (٢٨٤٩).

(٦) قال الحافظ في الفتح (٧/٦٠٥): هذا المِلْءُ يحتمل أن يكون علىٰ حَقِيقته، وتَجْسِيد المعاني جائزٌ كما جاء أن سورة البقرة وآل عمران تأتِيَانِ يوم القيامة كأنهما غَمَامَتَان.

(٧) في رواية الإمام مسلم في الصحيح ـ رقم الحديث (١٦٣): «**ثم غسله ـ أي قلبه ـ من ماء زمزم**».

(٨) في رواية شريك في صحيح البخاري ـ رقم الحديث (٧٥١٧)، قال: فحَشَا به صدرُه ولَغَادِيدُهُ ﷺ. وهو بفتح اللام والغين أي عروق حلقه. =

دُونَ البَغْلِ وفَوْقَ الحِمَارِ أَبْيَضَ»، فَقَالَ لَهُ الجَارُودُ: هُوَ البُرَاقُ[1] يَا أَبَا حَمْزَةَ؟ قَالَ أَنَسٌ: نَعَمْ، «يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أقصىٰ طَرْفِهِ»[2]، وكَانَ مُسْرَجًا مُلَجَّمًا[3]. فَلَمَّا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْكَبَهُ، اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَبِمُحَمَّدٍ تَفْعَلُ هَذَا؟ فَمَا رَكِبَكَ[4] أَحَدٌ أَكْرَمُ عَلَىٰ اللهِ مِنْهُ، قَالَ: «فَارْفَضَّ[5] عَرَقًا»[6].

= قال الحافظ (٦٠٦/٧): وقد اشتَمَلت هذه القصة من خَوارق العادَةِ علىٰ ما يُدْهِشُ سامعه فضلًا عمَّن شاهده، فقد جَرَت العادة بأن من شُقَّ بطنه، وأُخرجَ قلبه يمُوتَ لا مَحَالة، ومع ذلك فلم يُؤَثِّر فيه ذلك ضَرَرًا ولا وَجَعًا فضلًا عن غير ذلك.

(١) قال الحافظ في الفتح (٦٠٧/٧): سُمي البُرَاقَ لأنه مشتَقٌّ من البَرِيقِ، فقد جاء في لونه أنه أبيضُ، أو من البَرْقِ لأنه وصفه بسُرعَةِ السَّير، أو من قَولهم شاة بَرْقاء إذا كان خلال صُوفها الأبيض طَاقَاتٌ سُود، ولا يُنافِيه وصفُهُ في الحديث بأن البُرَاق أبيض لأن البَرْقَاءَ مِنَ الغنم معدُودَةٌ في البَيَاض.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٦٠٦/٧): أي يضَعُ رجلهُ عندَ مُنْتَهَىٰ ما يَرىٰ بَصَرُهُ.
إلى هذا القدر أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب المعراج ـ رقم الحديث (٣٨٨٧) ـ والإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٧٨٣٥).

(٣) اللِّجَامُ: هو حَبْلٌ أو عَصا تدخل في فَمِ الدَّابةِ، وتُلْزَف إلىٰ قَفَاهُ. انظر لسان العرب (٢٤٢/١٢)

(٤) قال الحافظ في الفتح (٦٠٧/٧): فيه دلالة علىٰ أن البُرَاق كانَ مُعَدًا لرُكُوبِ الأنبياءِ، خِلافًا لِمَنْ نَفَىٰ ذلك، وقد روىٰ النسائي من طَرِيق يَزِيد بن أبي مَالكٍ عن أنس مَوْصُولًا وزاد: وكانَتْ تُسَخَّرُ للأنبياءِ قَبْلَهُ، ويؤَيِّدُهُ ظاهِرُ قَوْلِهِ.
وجاء في صحيح مسلم رقم الحديث (١٦٢) قال ﷺ: «**فَرَبَطْتُهُ ـ أي البراق ـ بالحلقة التي يَرْبط به الأنبياء**».
وقال الإمام السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (١٩٤/٢): إنما استَصْعَبَ عليه لبُعْدِ عَهْدِ البُراق برُكوبِ الأنبياء قَبْله، وطولِ الفترة بينَ عِيسَى عليه السلام ومُحَمَّد ﷺ.

(٥) فَارْفَضَّ عَرَقًا: أي جَرَىٰ عرَقُهُ، وسالَ، ثم سَكَنَ، وانقادَ وتَرَكَ الاستِصْعَابَ. انظر لسان العرب (٢٦٧/٥).

(٦) أخرج ذلك: ابن حبان في صحيحه ـ كتاب الإسراء ـ باب استصعاب البراق عند ركوب النبي=

«فَرَكِبْتُهُ - أَيِ الْبُرَاقَ - حَتَّىٰ أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ[1]، فَرَبَطْتُهُ بِالحَلْقَةِ التِي يَرْبِطُ بِهَا الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ»[2].

۞ الآيَاتُ التِي رَآهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ:

رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْضَ المَشَاهِدِ، وهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ، مِنْهَا:

*** المَشْهَدُ الأَوَّلُ:**

رَوَىٰ الإِمَامُ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ عَنْ يَحْيَىٰ بنِ سَعِيدٍ أَنَّهُ قَالَ: أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَأَىٰ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ يَطْلُبُهُ بِشُعْلَةٍ مِنْ نَارٍ، كُلَّمَا الْتَفَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَآهُ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: أَفَلَا أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ تَقُولُهُنَّ، إِذَا قُلْتَهُنَّ طُفِئَتْ شُعْلَتُهُ وَخَرَّ لِفِيهِ[3]؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَلَىٰ».

= ﷺ - رقم الحديث (٤٦) - والترمذي في جامعه - كتاب التفسير - باب ومن سورة بني إسرائيل - رقم الحديث (٣٣٩٧) - وإسناده صحيح.

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/٥٩٥): والحكمةُ في الإسراء إلىٰ بَيْت المَقْدس حتىٰ يجمع ﷺ في تلك الليلة بين رُؤْية القِبْلَتَيْنِ، أو لأنَّ بيتَ المقدس كان هِجرَةَ غالبِ الأنبياء قَبْله فحصل له الرَّحيل إليه ليجمع بين أشتَاتَ الفضائلِ، أو لأنه محَلّ المَحْشر، وغالب ما اتفق له في تلك الليلة يُناسب الأحوالَ الأخروية، فكان المِعْراج منه ألْيَقَ بذلك، أو للتفاؤلِ بِحُصُولِ أنواعِ التَّقْدِيسِ له حِسًّا ومَعْنىٰ.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب الإسراء بالرسول ﷺ - رقم الحديث (١٦٢).

(٣) خَرَّ لِفِيهِ: أي سَقَطَ عَلَىٰ وَجْهِهِ. انظر لسان العرب (٤/٥٧).

فَقَالَ جِبْرِيلُ: فَقُلْ: أَعُوذُ بِوَجْهِ اللهِ الكَرِيمِ، وبِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ اللَّاتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وشَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وشَرِّ مَا ذَرَأَ[١] فِي الأَرْضِ، وشَرِّ مَا يَخْرُجُ فِيهَا، ومِنْ فِتَنِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، ومِنْ طَوَارِقِ[٢] اللَّيْلِ والنَّهَارِ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ[٣].

* **المَشْهَدُ الثَّانِي:**

وَرَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّالَ، فَقَدْ رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ جَاءَ مِنْ لَيْلَتِهِ، فَحَدَّثَهُمْ بِمَسِيرِهِ فَقَالَ: ... وَرَأَى الدَّجَّالَ فِي صُورَتِهِ رُؤْيَا عَيْنٍ... فَسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الدَّجَّالِ؟ فَقَالَ: **«رَأَيْتُهُ فَيْلَمَانِيًّا[٤]، أَقْمَرَ[٥] هِجانًا[٦]، إِحْدَىٰ عَيْنَيْهِ قَائِمَةٌ[٧] كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، كَأَنَّ شَعْرَ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ»**[٨].

---

(١) ذَرَأَ: أي خَلَقَ. انظر لسان العرب (٥/٢٩).

(٢) طَوَارِقُ الليْلِ: أي حَوَادِثُهُ التي تأتِي لَيْلًا. انظر جامع الأصول (٤/٣٦٧).

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ - كتاب الشعر - باب ما يؤمر به من التعوذ - رقم الحديث (١٠) - مرسلًا - ووصله الإمام أحمد في مسنده - وإسناده حسن - وانظر جامع الأصول (٤/٣٦٧) - والسلسلة الصحيحة للألباني رَحِمَهُ اللهُ - رقم الحديث (٨٤٠).

(٤) الفَيْلَمَانِيُّ: بفتح الفاء وسكون الياء هو العظيمُ الجُثَّة. انظر النهاية (٣/٤٢٦).

(٥) أقْمَر: هو الشديد البياض، والأنثىٰ: قَمْراء. انظر النهاية (٤/٩٣).

(٦) الهِجان: هو الأبيض. انظر النهاية (٥/٢١٥).

(٧) العينُ القَائِمَة: هي البَاقيةُ في مكانها صحيحة.

(٨) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٣٥٤٦) - وأورده الحافظ ابن كثير في=

* المَشْهَدُ الثَّالِثُ:

رَوَىٰ البَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِهِ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ: ...وَسَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ بِعَجُوزٍ عَلَىٰ جَانِبِ الطَّرِيقِ، وفِي رِوَايَةٍ قَالَ ﷺ: «**إِذَا أَنَا بِامْرَأَةٍ حَاسِرَةٍ عَنْ ذِرَاعَيْهَا، وعَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةٍ خَلَقَهَا اللهُ**»، فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْظِرْنِي أَسْأَلُكَ، فَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، وَلَمْ أَقُمْ عَلَيْهَا، فَقَالَ ﷺ: «**مَا هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ؟**» قَالَ: سِرْ يَا مُحَمَّدُ، فَسَارَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسِيرَ، فَإِذَا شَيْءٌ يَدْعُوهُ مُتَنَحِّيًا عَنِ الطَّرِيقِ، يَقُولُ: هَلُمَّ يَا مُحَمَّدُ!، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: سِرْ يَا مُحَمَّدُ، فَسَارَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسِيرَ، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ، ... ثُمَّ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: أَمَّا العَجُوزُ التِي رَأَيْتَ عَلَىٰ جَانِبِ الطَّرِيقِ، فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِ تِلْكَ العَجُوزِ، وأَمَّا الذِي أَرَادَ أَنْ تَمِيلَ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ عَدُوُّ اللهِ إِبْلِيسُ أَرَادَ أَنْ تَمِيلَ إِلَيْهِ(1).

* المَشْهَدُ الرَّابِعُ:

وَوَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ رِيحَ قَبْرِ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ، فَقَدْ رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ التِي**

= تفسيره (٥/٢٨) - وصحح إسناده.

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٦٢ - ٣٩٠).

أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ: مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟».

قَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا.

قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟

قَالَ: بَيْنَا هِيَ تَمْشُطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَتْ الْمِدْرَى[1] مِنْ يَدِهَا، فَقَالَتْ: «بِسْمِ اللهِ». فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ.

قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ! قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ.

قَالَ: فَأَمَرَ بِنُقْرَةٍ[2] مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أُمِرَ بِهَا أَنْ تُلْقَىٰ هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَّا، قَالَ: ذَاكَ لَكِ عَلَيْنَا، قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَىٰ أَنِ انْتَهَىٰ إِلَىٰ صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، كَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ: قَالَ: يَا أُمَّه، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ.

---

(١) قال السندي في شرح المسند (٣/٩٢): المِدْرى: بكسر الميم ما يُسَوَّى به شعر الرأس.

(٢) النُّقْرَة: قِدْرٌ يسخَّن فيها الماءُ وغيره. انظر النهاية (٥/٩٢).

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ: ابْنُ مَاشِطَةِ اِبْنَةِ فِرْعَوْنَ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَعِيسَىٰ ابنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ(١).

*** المَشْهَدُ الخَامِسُ:**

وَرَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَالَ المُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَيْ كُشِفَ لَهُ عَنْ حَالِهِمْ فِي دَارِ الجَزَاءِ بِضَرْبِ مِثَالِهِ، فَرَأَىٰ قَوْمًا يَزْرَعُونَ فِي يَوْمٍ، وَيَحْصُدُونَ فِي يَوْمٍ، كُلَّمَا حَصَدُوا عَادَ كَمَا كَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟»**، قَالَ: هَؤُلَاءِ المُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ تُضَاعَفُ لَهُمُ الحَسَنَةُ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَمَا أَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٨٢١) ـ وابن حبان في صحيحه ـ كتاب الجنائز ـ رقم الحديث (٢٩٠٣).

قلتُ: في هذا الحَصْر نَظَرٌ، فقد ثبتَ أن هناك من تكلم في المَهْدِ غير هؤلاء الأربعة، فمنهم: الذي كان يَرضع من أمه، فمَرَّ به رجل راكبٌ ذو شارَةٍ ـ أي صاحب هَيئَةٍ ومَنْظرٍ ومَلْبَسٍ حسن يُتعجب منه ويُشار إليه ـ، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مِثله، فترك ثَدْيَهَا، وأقبلَ إليه فنظر، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثمَّ أقبل علي ثَدْيِهَا يَمُصُّهُ، ثم مَرَّ بأَمةٍ وهو يضربونها، ويقولون: زنت، سرقت، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هَذِهِ، فترك ثَدْيَهَا، فقال: اجعَلْنِي مِثْلَهَا. فقالت: لِمَ ذَاكَ؟ فقال: الرَّاكب جبَّارٌ من الجبابرةِ، وهذه الأمة يقولونَ: سَرَقَتْ وزَنَيَتْ ولم تَفْعَل.

وقد أخرج ذلك البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٣٤٣٦) ـ ومسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٢٥٥٠).

ومنهم الصبي الذي طَرَحَتْهُ أمه في الأُخْدُودِ، وقد أخرج قصته الإمام مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٣٠٠٥).

(٢) انظر تفسير الطبري (٨/٨) ـ دلائل النبوة للبيهقي (٣٩٨/٢).

* المَشْهَدُ السَّادِسُ:

وَرَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ قَوْمًا تُرْضَخُ رُؤُوسُهُمْ بِالصَّخْرِ، كُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ لَا يُفْتَّرُ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَقَالَ ﷺ: «يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟» قَالَ: هَؤُلَاءِ الذِينَ تَتَثَاقَلُ رُؤُوسُهُمْ عِنْدَ الصَّلَاةِ[1].

* المَشْهَدُ السَّابِعُ:

ثُمَّ أَتَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ قَوْمٍ عَلَىٰ أَقْبَالِهِمْ رِقَاعٌ، وَعَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ رِقَاعٌ يَسْرَحُونَ كَمَا تَسْرَحُ الأَنْعَامُ، وَيَأْكُلُونَ الضَّرِيعَ[2]، والزَّقُّومَ[3]، وَرَضَفَ جَهَنَّمَ[4]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟»، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الذِينَ لَا يُؤَدُّونَ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمْ[5].

---

(١) انظر تفسير الطبري (٨/٨) دلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٩٨).
قلتُ: أما تَرْكُ الصلاة فهو من الأمُورِ الخَطِيرَةِ جِدًا، وقد جاءت أحاديث كثيرة في عُقُوبة تارِكِ الصلاة، منها ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٨٢) عن جابر ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إنَّ بينَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الشِّرْكِ والكُفرِ تَرْكُ الصَّلاة**».
وروىٰ الإمام مالك في الموطأ بسند صحيح عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: لَا حَظَّ في الإسلام لِمَنْ تَرَكَ الصلاة. وأورده ابن الأثير في جامع الأصول ـ رقم الحديث (٥٢٢٥).

(٢) الضَّرِيعُ: هو نَبْتٌ له شَوْكٌ كِبار. انظر لسان العرب (٨/٥٤).

(٣) الزَّقُّومُ: هو كُل طعام يَقْتُلُ، وهو ما وَصَف الله تَعَالَىٰ في كتابه، وهو فعول من الزَّقْمِ: أي: اللَّقْمِ الشديدِ والشُّرب المُفْرِط. انظر لسان العرب (٦/٦١) ـ النهاية (٢/٢٧٧).

(٤) رَضْفُ جَهَنَّمَ: هي الحِجَارة المُحَمَّاةُ علىٰ النار. انظر النهاية (٢/٢١٠).

(٥) انظر تفسير الطبري (٨/٨) ـ دلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٩٨). =

* المَشْهَدُ الثَّامِنُ:

ثُمَّ أَتَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ خَشَبَةٍ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، لَا يَمُرُّ بِهَا شَيْءٌ إِلَّا قَطَعَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» قَالَ: هَذَا مَثَلُ أَقْوَامٍ مِنْ أُمَّتِكَ يَقْعُدُونَ عَلَىٰ الطَّرِيقِ فَيَقْطَعُونَهَا، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾(1).

* المَشْهَدُ التَّاسِعُ:

ثُمَّ رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ رَجُلًا قَدْ جَمَعَ حِزْمَةَ حَطَبٍ عَظِيمَةً، لَا يَسْتَطِيعُ حَمْلَهَا، وهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» قَالَ: هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أُمَّتِكَ تَكُونُ عِنْدَهُ أَمَانَاتُ

= قلتُ: أما الذين لا يؤدُّون زكاة أموالهم، فقد أخرج ابن ماجه في سننه ـ رقم الحديث (١٧٨٤) بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رَسُول اللهِ ﷺ قال: «ما مِنْ أحدٍ لا يُؤدِّي زكاةَ مَالِهِ إلا مُثِّل له يوم القيامةِ شُجَاعًا أقرَعَ حتىٰ يُطَوّق عُنُقه»، ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مِصْدَاقَهُ من كتاب الله تعالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ الآية. سورة آل عمران آية (١٨٠).

(1) سورة الأعراف آية (٨٦) ـ والخبر في تفسير الطبري (٨/٨) ـ دلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٩٨).

قلتُ: أما قَطْعُ الطريق، فقد أخرج البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٢٤٦٥) ـ والإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١١٣٠٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال رَسُول اللهِ ﷺ: «إيَّاكم والجُلُوسَ على الطُّرُقاتِ» فقالوا: ما لنا بُدٌّ، إنما هي مجالسُنا نتحدَّثُ فيها. قال: «فإذَا أتيتُمْ إلىٰ المَجالِسِ فأعطُوا الطَّرِيقَ حقَّهَا»، قالوا: وما حَقُّ الطريق؟ قال ﷺ: «غضُّ البَصَرِ، وكفُّ الأذىٰ، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروفِ، والنَّهْيُ عنِ المُنْكرِ».

النَّاسِ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ أَدَائِهَا، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا(١).

* **المَشْهَدُ العَاشِرُ:**

ثُمَّ أَتَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ قَوْمٍ تُقْرَضُ أَلْسِنَتُهُمْ وَشِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، كُلَّمَا قُرِضَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ، لَا يَفْتُرُ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟**»، قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ، وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ(٢).

* **المَشْهَدُ الحَادِي عَشَرَ:**

ثُمَّ أَتَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ جُحْرٍ صَغِيرٍ يَخْرُجُ مِنْهُ ثَوْرٌ عَظِيمٌ، فَجَعَلَ الثَّوْرُ يُرِيدُ أَنْ يَرْجِعَ مِنْ حَيْثُ خَرَجَ فَلَا يَسْتَطِيعُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟**»، قَالَ: هَذَا الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ عَظِيمَةٍ، ثُمَّ يَنْدَمُ عَلَيْهَا فَيُرِيدُ أَنْ يَرُدَّهَا وَلَا يَسْتَطِيعُ(٣).

---

(١) انظر تفسير الطبري (٨/٨) ـ دلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٩٨).
قلتُ: وأما أمانَاتُ الناس وتأدِيَةُ حقِّها، فقد أخرج البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٧١٥٠) والإمام مسلم في صحيحه ـ ـ رقم الحديث (١٤٢) ـ عن مَعْقِل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رَسُول اللهِ ﷺ: «**ما من عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ الله رَعِيَّةً فلم يَحُطْهَا بنُصْحِهِ لم يَجِدْ رائحةَ الجنَّة**».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٢٢١١) ـ والطيالسي في مسنده ـ رقم الحديث (٢١٧٢) وإسناده صحيح.

(٣) انظر تفسير الطبري (٨/٨) ودلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٩٨).
قلتُ: يصدقُ هذا المثل قوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٦٤٧٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٢٩٨٨)، عن=

* **المَشْهَدُ الثَّانِي عَشَرَ:**

وَكُشِفَ لَهُ ﷺ عَنْ حَالِ آكِلِ الرِّبَا فِي دَارِ الجَزَاءِ بِضَرْبِ مِثَالٍ: فَرَأَىٰ رَجُلًا يَسْبَحُ فِي نَهْرٍ مِنْ دَمٍ، ويُلْقَمُ الحِجَارَةَ، فَقَالَ ﷺ: «**مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟**» قَالَ: هَذَا آكِلُ الرِّبَا[1].

* **المَشْهَدُ الثَّالِثَ عَشَرَ:**

ثُمَّ رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ، فَقَدْ أَخْرَجَ الإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَتَيْتُ أَوْ مَرَرْتُ عَلَىٰ مُوسَىٰ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ**»[2].

= أبي هريرة ﷺ قال: قال رَسُول اللهِ ﷺ: «**...وإن العَبْدَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ مِنْ سَخَطِ الله، لا يُلْقِي لها بَالًا، يَهْوِي بها في جهنم**».

وفي رواية مسلم قال رَسُول اللهِ ﷺ: «**يَهْوِي بها في النارِ، أبْعَدَ ما بينَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ**».

(١) أخرج ذلك الإمام أحمد في مسنده (٢٠١٠١) ـ وإسناده قوي.

ووقع في صحيح البخاري ـ رقم الحديث (٧٠٤٧) أن رَسُول اللهِ ﷺ شَاهَدَ مِثْلَ هذا المَشْهَدِ لِآكلِ الرِّبا، لكنَّها رُؤْيَا مَنَام.

قلتُ: وقد هَدَّدَ الله سبحانه وتَعَالَىٰ آكل الربا تهديدًا شديدًا في القرآن فقال تَعَالَىٰ في سورة البقرة آية (٢٧٥): ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾، وقال الله تَعَالَىٰ في سورة البقرة الآيتان (٢٧٨ و٢٧٩): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الفضائل ـ باب من فضائل موسىٰ عليه السلام=

۞ صَلَاةُ الرَّسُولِ ﷺ بِالأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ:

ثُمَّ وَصَلَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَىٰ المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ(١)، وَمَعَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَوَجَدَ الأَنْبِيَاءَ قَدْ جُمِعُوا لَهُ، فَقَدَّمَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الرَّسُولَ ﷺ، وَصَلَّىٰ بِالأَنْبِيَاءِ إِمَامًا.

رَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ**»(٢).

وَفِي رِوَايَةِ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ المَسْجِدَ الأَقْصَىٰ قَامَ يُصَلِّي، ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا النَّبِيُّونَ أَجْمَعُونَ يُصَلُّونَ مَعَهُ(٣).

۞ مَتَىٰ صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالأَنْبِيَاءِ؟

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: والأَظْهَرُ أَنَّ صَلَاتَهُ ﷺ بِالأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ

= ـ رقم الحديث (٢٣٧٥).

(١) قال الحافظ في الفتح (٣/٣٨٥): والمسجد الأَقْصَىٰ هو بيتُ المَقْدِس، وسُمِّي الأَقْصَىٰ لِبُعْده عن المسجد الحرام في المَسَافَةِ، وقيل: لأنه لم يكن وراءَهُ مَسجد، والمقدِسُ المُطَهَّرُ، ولبيتِ المقْدِسِ عِدَّةُ أسماء منها: إيلْيَاءَ، وبيتُ المَقْدِسِ، وغيرها.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب ذكر المسيح ابن مريم ـ رقم الحديث (١٧٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٣٢٤) ـ وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/٢٨) وصحح إسناده.

والسَّلَامُ كَانَتْ قَبْلَ العُرُوجِ إِلَىٰ السَّمَاوَاتِ[١].

بَيْنَمَا يَرَىٰ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ أَنَّ صَلَاتَهُ ﷺ بِالأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ كَانَتْ بَعْدَ العُرُوجِ إِلَىٰ السَّمَاوَاتِ، قَالَ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ إِنَّمَا اجْتَمَعَ بِالأَنْبِيَاءِ فِي السَّمَوَاتِ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ ثَانِيًا، وَهُمْ مَعَهُ، وَصَلَّىٰ بِهِمْ فِيهِ، ثُمَّ إِنَّهُ رَكِبَ البُرَاقَ وَكَرَّ رَاجِعًا إِلَىٰ مَكَّةَ، وَاللهُ أَعْلَمُ[٢].

وَقَالَ فِي البِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ: ثُمَّ هَبَطَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ، والظَّاهِرُ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ هَبَطُوا مَعَهُ تَكْرِيمًا لَهُ، وتَعْظِيمًا عِنْدَ رُجُوعِهِ مِنَ الحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ العَظِيمَةِ، كَمَا هِيَ عَادَةُ الوَافِدِينَ لَا يَجْتَمِعُونَ بِأَحَدٍ قَبْلَ الذِي طُلِبُوا إِلَيْهِ، ولِهَذَا كَانَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَىٰ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا يَتَقَدَّمُ ذَاكَ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ: هَذَا فُلَانٌ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَلَوْ كَانَ قَدِ اجْتَمَعَ بِهِمْ قَبْلَ صُعُودِهِ لَمَا احْتَاجَ إِلَىٰ التَّعَرُّفِ بِهِمْ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: فَلَمَّا حَانَتِ الصَّلَاةُ أَمَمْتُهُمْ، وَلَمْ يَحِنْ وَقْتُ إِذْ ذَاكَ إِلَّا صَلَاةَ الفَجْرِ، فَتَقَدَّمَهُمْ إِمَامًا بِهِمْ عَنْ أَمْرِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَاسْتَفَادَ بَعْضُهُمْ مِنْ هَذَا أَنَّ الإِمَامَ الأَعْظَمَ يُقَدَّمُ فِي الإِمَامَةِ عَلَىٰ رَبِّ المَنْزِلِ حَيْثُ كَانَ بَيْتُ المَقْدِسِ مَحَلَّهُمْ ودَارَ إِقَامَتِهِمْ[٣].

---

(١) انظر فتح الباري (٧/٦١٠).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٥/٣١).

(٣) انظر البداية والنهاية (٣/١٢٣).

قَالَ أحْمَد شَوْقِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

أَسْـرَىٰ بِـكَ اللهُ لَـيْلًا إِذْ مَلَائِكُـهُ ... وَالرُّسْلُ فِي المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ عَلَىٰ قَدَمِ
لَمَّـا خَطَـرْتَ بِـهِ الْتَفُّـوا بِسَـيِّدِهِمْ ... كَالشُّهْبِ بِالبَدْرِ أَوْ كَالجُنْدِ بِـالعَلَمِ
صَـلَّىٰ وَرَاءَكَ مِـنْهُمْ كُـلُّ ذِي خَطَـرٍ ... وَمَـنْ يَفُـزْ بِحَبِيـبِ اللهِ يَـأْتَمِمِ
جُبْتَ السَّمَاوَاتِ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بِهِمْ ... عَلَـىٰ مُنَـوَّرَةٍ دُرِّيَّـةِ اللُّجُـمِ
رَكُوبَـةً لَـكَ مِـنْ عِـزٍّ وَمِـنْ شَـرَفٍ ... لَا فِي الْجِيَادِ وَلَا فِي الأَيْنُقِ الرُّسُمِ
مَشِـيئَةُ الخَـالِقِ البَـارِي وَصَـنْعَتُهُ ... وَقُـدْرَةُ اللهِ فَـوْقَ الشَّـكِّ والـتُّهَمِ
حَتَّىٰ بَلَغْـتَ سَـمَاءً لَا يُطَـارُ لَهَـا ... عَلَىٰ جَنَاحٍ وَلَا يُسْعَىٰ عَلَىٰ قَدَمِ
وَقِيـلَ كُـلُّ نَبِـيٍّ عِنْـدَ رُتْبَتِـهِ ... وَيَـا مُحَمَّـدُ هَـذَا العَرْشُ فَاسْـتَلِمِ

۞ عَرْضُ الآنِيَةِ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ:

وبَعْدَ أنْ فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ صَلَاتِهِ بِالأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، أُتِيَ بِقَدَحَيْنِ أحَدُهُمَا فِيهِ لَبَنٌ، وَالآخَرُ فِيهِ خَمْرٌ.

فَقَدْ رَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «...**ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ**[1]،

(١) قال الحافظ في الفتح (١١/٢٠٠): والحكمةُ في التَّخْيير بين الخمرِ مع كونه حَرَامًا واللَّبَنِ مع كونِهِ حَلالًا؛ إمَّا لأنَّ الخَمْرَ حِينَئِذٍ لم تكن حُرِّمت، أو لأنَّها من الجنة، وخمرُ الجنَّة ليست حَرَامًا.

فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ..»[1].

صُعُودُ الرَّسُولِ ﷺ فِي المِعْرَاجِ إِلَىٰ السَّمَاوَاتِ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «...**ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي - أَيْ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَعَرَجَ**[2] **بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا، قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ**»[3]. فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟.

قَالَ: جِبْرِيلُ.

قَالَ: وَمَنْ مَعَكَ؟[4].

قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ.

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٨٤/١): فسَّرُوا الفِطْرة هنا بالإسلام والاستِقَامة، ومعناهُ والله أعلم: اخترْتُ عَلامَةَ الإسلام والاستقامةِ، وجُعِلَ اللبن علامةً لكونه سَهْلًا طَيِّبًا طاهرًا سَائِغًا للشاربين، والله أعلم.
والحديث أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب الإسراء برَسُول اللهِ ﷺ إلىٰ السماوات - رقم الحديث (١٦٢) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٥٠٥).

(٢) العروج: الصعود. انظر النهاية (١٨٤/٣).
قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١٢١/٣): ولم يكن صُعُودُ الرسول ﷺ إلىٰ السماوات علىٰ البُرَاق كما قد يَتَوَهَّمُهُ بعضُ الناس، بل كان البُرَاق مَرْبُوطًا علىٰ باب مسجِدِ بيتِ المقدس لِيَرْجعَ عليه إلىٰ مَكَّةَ، فصَعِدَ من سَمَاءٍ إلىٰ سماء في المِعْرَاجِ.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/٢): وهذا يَدُلُّ علىٰ أن البابَ كان مُغْلَقًا.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٦١٠/٧): يشعر بأنهم أحسُّوا معه برَفِيقٍ وإلا لكان السُّؤال بلفظِ: أمَعَكَ أحدٌ، وذلك الإحساسُ إما بمُشَاهَدَةٍ لكونِ السماء شَفَّافة، وإما بأمرٍ معنَوِيٍّ كزيادةِ أنوارٍ، أو نحوها يشعر بتجدُّدِ أمرٍ يَحْسُنُ معه السُّؤال بهذه الصِّيغَةِ.

فَقَالَ: وَقَدْ أُرْسِلَ[١] إِلَيْهِ؟

قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ[٢]، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ. فَفُتِحَ لَنَا.

قَالَ ﷺ: «**فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ[٣] وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَىٰ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ**»؟

قَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ.

ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ قَالَ جِبْرِيلُ: وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ[٤]، فَأَهْلُ

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١/١٨٥): أي أرسل إليه للإسراء وصُعُود السموات، وليس مُرَادهُ الاستفهامُ عن أصلِ البِعْثَةِ والرِّسالة، فإن ذلك لا يَخْفىٰ عليه إلىٰ هذه المُدَّة، فهذا هو الصحيح.
وقال الحافظ في الفتح (٧/٦١٠): والحكمةُ في سُؤَال الملائكة: وقد أُرْسِلَ إليه؟ أن الله تَعَالَىٰ أراد إطلاعَ نَبِيِّهِ ﷺ علىٰ أنه معروفٍ عند الملأ الأعلىٰ؛ لأنهم قالوا: وقد أُرْسِلَ إليه... فدل علىٰ أنهم كانوا يعرفون أن ذلك سَيَقَعُ له، وإلا لكانُوا يقولون: ومن مُحَمَّد؟ مثلًا.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/٦١٠): أي أصابَ رَحْبًا وسَعَةً.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/٢): أسوِدَة: بوزن أزمِنَة، وهي الأشخَاصُ.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٧/٢): النَّسَمُ جمعُ نَسَمَةٍ، وهي الرُّوح، وظاهره أن أرواحَ بَنِي آدَمَ من أهلِ الجنَّة والنار في السماء، وهو مُشْكِلٌ، قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: قد جاءَ أنَّ أرواحَ الكفَّار في سِجِّين، وأن أرواح المؤمنين مُنَعَّمَةٌ في الجنة، يعني فكيف تكونُ مُجْتَمِعَةً في سَمَاءِ الدُّنيا؟
وأجابَ: بأنه يحتمل أنها تُعْرَض علىٰ آدم أَوْقَاتًا، فصادفَ وقتُ عرضها مُرُورَ النبي ﷺ، ويدل علىٰ أن كونهم في الجنة والنار إنما هو في أوقات دونَ أوقاتٍ قوله تَعَالَىٰ في سورة غافر آية (٤٦): ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾.

الْيَمِينِ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَىٰ[1].

۞ الْمَشَاهِدُ الَّتِي شَاهَدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا:

١ ـ حَالُ أَكَلَةِ أمْوَالِ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمَّا دَخَلْتُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا... رَأَيْتُ رِجَالًا لَهُمْ مَشَافِرُ[2] كَمَشَافِرِ الإِبِلِ، فِي أَيْدِيهِمْ قِطَعٌ مِنْ نَارٍ كَالأَفْهَارِ[3] يَقْذِفُونَهَا فِي أَفْوَاهِهِمْ فَتَخْرُجُ مِنْ أَدْبَارِهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟**».

قَالَ: هَؤُلَاءِ، أَكَلَةُ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا[4].

٢ ـ حَالُ النِّسَاءِ اللَّاتِي يُدْخِلْنَ عَلَىٰ الأَزْوَاجِ مَا لَيْسَ مِنْهُمْ:

قَالَ ﷺ: «**ثُمَّ رَأَيْتُ نِسَاءً مُعَلَّقَاتٍ بِثَدْيِهِنَّ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟**».

---

(١) أخرج ذلك: البخاري في صحيحه ـ كتاب الصلاة ـ باب كيف فرضت الصلوات في الإسلاء؟ ـ رقم الحديث (٣٤٩) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات ـ رقم الحديث (١٦٣).

(٢) المشَافِرُ: جمع مِشْفَرٍ، والمِشْفَرُ للبعيرِ كالشَّفَةِ للإنسان. انظر النهاية (٤/٢٨٤).

(٣) الأَفْهارُ: جمع فِهْرٍ، وهو الحَجَرُ مِلْءُ الكف، وقيل الحجرُ مُطْلَقًا. انظر النهاية (٣/٤٣٣).

(٤) انظر دلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٩٢) سيرة ابن هشام (٢/١٩).
قُلْتُ: توعَّد الله تَعَالَىٰ أكلةَ أموالِ اليتامىٰ ظُلمًا بالنارِ، فقال تَعَالَىٰ في سورة النساء آية (١٠): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

قَالَ: هَؤُلَاءِ اللَّاتِي أَدْخَلْنَ عَلَىٰ الرِّجَالِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ[1].

٣ ـ حَالُ الْمُغْتَابِينَ[2]:

رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وأَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمِشُونَ[3] وُجُوهَهُمْ وصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ، مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟»**.

قَالَ: هَؤُلَاءِ الذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، ويَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ[4].

٤ ـ حَالُ الزُّنَاةِ:

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: **«ثُمَّ رَأَيْتُ رِجَالًا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَحْمٌ سَمِينٌ طَيِّبٌ، إِلَىٰ جَنْبِهِ لَحْمٌ غَثٌّ[5] مُنْتِنٌ[6]، فَيَأْكُلُونَ مِنَ الغَثِّ المُنْتِنِ، ويَتْرُكُونَ السَّمِينَ**

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢/١٩).

(٢) الغِيبَةُ: فسَّرَهَا رَسُول اللهِ ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٢٥٨٩) قال رَسُول اللهِ ﷺ: **«أَتَدْرُونَ ما الغِيبَةُ؟»**، قالُوا: اللهُ ورسوله أعلم، قال رَسُول اللهِ ﷺ: **«ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»**.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/٣٨٠): الغِيبَةُ مُحَرَّمَةٌ بالإجمَاعِ.

(٣) يَخْمِشُونَ: أي يَخْدِشُونَ. انظر النهاية (٢/٧٥).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٣٣٤٠) وأبو داود في سننه ـ كتاب الأدب ـ باب في الغيبة ـ رقم الحديث (٤٨٧٨).

(٥) الغَثُّ: الضَّعيف المَهْزُول. انظر النهاية (٣/٣٠٨).

(٦) النَّتْنُ: الرَّائحَةُ الكَرِيهَةُ. انظر لسان العرب (١٤/٣٦).

الطَّيِّبِ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟»**.

قَالَ: هَؤُلَاءِ الذِينَ يَتْرُكُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ، وَيَذْهَبُونَ إِلَىٰ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْهُنَّ[1].

٥ ـ حَالُ أَكَلَةِ الرِّبَا:

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: **«ثُمَّ رَأَيْتُ رِجَالًا لَهُمْ بُطُونٌ لَمْ أَرَ مِثْلَهَا قَطُّ»**.

وَفِي رِوَايَةٍ: **«بُطُونُهُمْ أَمْثَالُ البُيُوتِ بِسَبِيلِ[2] آلِ فِرْعَوْنَ يَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ كَالإِبِلِ المَهْيُومَةِ[3] حِينَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ النَّارِ، يَطَؤُونَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْ مَكَانِهِمْ ذَلِكَ»**، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟»**، قَالَ: هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ الرِّبَا[4].

۞ صُعُودُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ:

قَالَ ﷺ: **«ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»**، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ:

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١٩/٢) ـ دلائل النبوة للبيهقي (٣٩٢/٢).

(٢) السبيل: هو الطريق. انظر لسان العرب (١٦٢/٦).
ومنه قوله تعالى في سورة الأعراف، آية (١٤٦): ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

(٣) الهُيَامُ: هو دَاءٌ يُشْبِهُ الحُمَّىٰ يأخذُ الإبلَ فيُكْسِبُهَا العَطَشَ الشَّديدَ، فتَهِيمُ في الأرض لا تَرْوَىٰ ولا تَرْعىٰ حتىٰ تَهْلِكَ. انظر لسان العرب (١٨٤/١٥).

(٤) انظر سيرة ابن هشام (١٩/٢) دلائل النبوة للبيهقي (٣٩٢/٢).

وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ.

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: **«فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَي الخَالَةِ يَحْيَىٰ بنِ زَكَرِيَّا، وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ»**.

فَقَالَ: جِبْرِيلُ: هَذَا يَحْيَىٰ[1]، وَعِيسَىٰ[2] فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، فَسَلَّمْتُ، فَرَدَّا.

ثُمَّ قَالَا: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ.

❁ صُعُودُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ:

قال ﷺ: **«ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ»**، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟

---

(١) أما يَحْيَىٰ عليه السلام، فقد قال الله تَعَالَىٰ فيه في سورة مريم آية (١٢): ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية (٥/٢١٦): أي يا يَحْيَي تَعَلَّمِ الكتاب وهُوَ التَّوْرَاةُ بِقُوَّةٍ، أي بِجِدٍّ وحِرْصٍ واجتِهَادٍ، وآتيناهُ الحُكْمَ صَبِيًّا، أي الفَهمَ، والعِلم، والجِدَّ، والعَزْم، والإِقبَالَ علىٰ الخَيْرِ، والإِكْبَابَ عليه، والاجتِهَاد فيه.

(٢) جاء في وصفِ عِيسَىٰ عليه السلام، ما أخرجه البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٣٤٣٧) ـ ومسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (١٦٨) ـ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رَسُول اللهِ ﷺ حين أسرىٰ به: «... **ولَقِيتُ عِيسَىٰ عليه السلام رَبْعَةٌ أحمرُ، كأنه أُخرِجَ من دِيمَاسٍ**»، يعني الحَمَّام.

قال الحافظ في الفتح (٧/١٥٧): رَبْعَة: يعني ليس بطوِيل جداً، ولا قَصِير جداً بل وسط.

والمرادُ من ذلك وصفه عليه السلام بصَفَاءِ اللونِ ونَضَارَة الجسم، وكَثْرَةِ ماءِ الوجه حتىٰ كأنه كان في حمَّام، فخرج منه وهو عَرْقَان.

وجاء في رواية الإمام مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (١٦٧) عن جابر ﷺ قال: قال رَسُول اللهِ ﷺ: «... **ورأيتُ عِيسَىٰ ابن مريم عليه السلام، فإذا أقربَ من رأيتُ به شَبَهًا عُرْوةُ بنُ مَسْعُودٍ** ﷺ».

قَالَ: جِبْرِيلُ.

فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ.

فَقِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قَالَ: نَعَمْ

قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»**.

قَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ: **«فَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ»**.

۞ صُعُودُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ:

قال ﷺ: **«ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ»**.

فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟

قَالَ: جِبْرِيلُ

فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ.

قَالَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قَالَ: نَعَمْ

قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلامُ**».

قَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ.

فَرَدَّ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1].

۞ صُعُودُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ السَّمَاءِ الخَامِسَةِ:

قال ﷺ: «**ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ**».

فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟

قَالَ: جِبْرِيلُ

فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ.

---

(١) سورة مريم آية (٥٧).
قال الشيخ المباركفوي في تحفة الأحوذي (٥٧٧/٨): ولا شكَّ في كونها مَكَانًا عليًا، واستُشْكِلَ بأنَّ غيرَهُ من الأنبياء أرفَعُ مكانًا منه، وهذا الاستشكال ليس بشيءٍ، لأنه لم يذكر أنه أعْلَىٰ من كُل أحد.

قَالَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قَالَ: نَعَمْ

قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلامُ**».

قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ[1].

صُعُودُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ:

قال ﷺ: «**ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ**».

فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟

قَالَ: جِبْرِيلُ

فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ.

قَالَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قَالَ: نَعَمْ.

---

(١) هذه رواية الشيخين في صحيحيهما، وفي رواية ابن إسحاق في السيرة (٢/٢٠) قال ﷺ: «**فإذا فيها كَهْلٌ أبيض الرأس واللحية، لم أرَ كهلاً أجمل منه، فقلت: من هذ يا جبريل**»؟ قال: هذا المحبب في قومه هارون عليه السلام.

قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ.

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ**».

قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلرَّسُولِ ﷺ: هَذَا مُوسَىٰ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ.

وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

وَصَفَ رَسُولُ ﷺ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: «**مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَىٰ مُوسَىٰ بنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلٍ آدَمَ**(١) **طِوَالٍ جَعْدٍ**(٢) **كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ**»(٣).

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: فَلَمَّا تَجَاوَزْتُهُ بَكَىٰ.

قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟

(١) الأَدَمَةُ: أي السُّمْرَةُ الشَّدِيدة. انظر النهاية (٣٦/١).

(٢) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٩٥/١): وأما الجَعْدُ في صِفَة موسىٰ عليه السلام: فيه معنيَان: أحدهما: هو اكتِنَازُ الجِسْمِ، واجتماعُهُ، والثاني: جُعُودَةُ الشَّعر، والأول أَصَحُّ؛ لأنه جاءَ في رِوايةِ أبي هريرة في صحيح البخاري ـ رقم الحديث (٣٤٣٧) أنه عليه السلام رَجِل الشعر.

(٣) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٩٤/١): شَنُوءَةَ هي قَبِيلَةٌ معروفة، سُمُّوا بذلك من قولِكَ رجُلٌ فيه شَنُوءَة، أي تَقَزُّز وهو التَّبَاعُدُ من الأدنَاسِ.

وهذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برَسُول اللهِ ﷺ ـ رقم الحديث (١٦٥) (٢٦٧).

قَالَ: أَبْكِي[1]؛ لِأَنَّ غُلَامًا[2] بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي.

۞ صُعُودُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ:

قال ﷺ: «ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ».

فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ؟

قَالَ: جِبْرِيلُ.

فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ.

قَالَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قَالَ: نَعَمْ.

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٦١٣/٧): قال العُلَماءُ: لم يَكُنْ بُكَاءُ مُوسَىٰ عليه السلام حَسَدًا، مَعَاذَ اللهِ، فإن الحَسَد في ذلك العالم مَنْزُوعٌ عن آحادِ المؤمنين، فكيفَ بمَنِ اصطَفَاه الله تَعَالَىٰ، بل كان أَسَفًا علىٰ ما فاتَهُ من الأجْرِ الذي يترتَّبُ عليه رفعِ الدَّرَجَةِ بسببِ ما وقع من أمَّته من كثرَةِ المُخَالفَةِ المُقْتَضِيَةِ لتَنْقِيصِ أجُورِهم المستَلْزِم لتنقِيص أجْرِهِ؛ لأن لكل نَبِيٍّ مِثْلُ أجرِ كلِّ من اتَّبعه، ولهذا كان من اتَّبعه من أمته في العدد دُون من اتبع نبينا محمد ﷺ مع طولِ مُدَّتهم بالنسبة لهذهِ الأمةِ.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٦١٣/٧): قوله ﷺ: «غُلَامًا»، فليسَ علىٰ سبيل النَّقْص، بل علىٰ سبيلِ التَّنْوِيهِ بقُدرَةِ الله تَعَالَىٰ، وعظيمِ كَرَمِهِ إذ أعطىٰ لمن كان في ذلك السِّن ما لم يُعطِهِ أحدًا قبلَهُ ممَّنْ هو أَسَنُّ منه.

قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ.

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: **«فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَىٰ البَيْتِ المَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ[1]، لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ[2]»**.

فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا أَبُوكَ إِبْرَاهِيمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ.

ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ[3].

رَوَىٰ الإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ وَالإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ المَاءِ، وأَنَّهَا قِيعَانٌ[4]، وأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ**

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/٦١٧): استدل به علىٰ أن الملائكةَ أكثرُ المخلوقاتِ لأنَّه لا يُعرف من جَمِيع العوَالم من يتجدَّد من جِنْسِه في كل يوم سبعون ألفًا غير ما ثَبَت عن الملائكة في هذا الخَبَر.

(٢) زاد ابن إسحاق في السيرة (٢/٢٠): إلى يوم القيامة.

(٣) أخرج ذلك كله: البخاري في صحيحه ـ كتاب الصلاة ـ باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء؟ ـ رقم الحديث (٣٤٩) ـ وأخرجه في كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب ذكر إدريس عليه السلام ـ رقم الحديث (٣٣٤٢) ـ وأخرجه في كتاب مناقب الأنصار ـ باب المعراج ـ رقم الحديث (٣٨٨٧) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات ـ رقم الحديث (١٦٢) (١٦٣) ـ والإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٢٥٠٥).

(٤) قِيعَان: جمع قَاعٍ وهو المكان المُسْتَوي في وطأةٍ من الأرض يعلوُه ماءُ السماء فيُمسِكُهُ، ويستَوِي نَبَاتُهُ. انظر النهاية (٤/١١٦).

لِلّٰهِ، وَلَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ»[1].

۞ الْحِكْمَةُ فِي لِقَاءِ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ:

اخْتُلِفَ فِي الْحِكْمَةِ فِي اخْتِصَاصِ كُلٍّ مِنْ هَؤُلَاءِ الأَنْبِيَاءِ بِالسَّمَاءِ الَّتِي تَلَقَّاهُ بِهَا، فَقِيلَ أُمِرُوا بِمُلَاقَاتِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَدْرَكَهُ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأَخَّرَ فَلَحِقَ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَاتَهُ.

وَقِيلَ: الْحِكْمَةُ فِي الِاقْتِصَارِ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الأَنْبِيَاءِ الْمَذْكُورِينَ: لِلْإِشَارَةِ إِلَىٰ مَا سَيَقَعُ لَهُ ﷺ مَعَ قَوْمِهِ مِنْ نَظِيرِ مَا وَقَعَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ:

أ ـ فَأَمَّا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَوَقَعَ التَّنْبِيهُ بِمَا وَقَعَ لَهُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَىٰ الأَرْضِ بِمَا سَيَقَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَالْجَامِعُ بَيْنَهُمَا مَا حَصَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مِنَ الْمَشَقَّةِ وَكَرَاهَةِ فِرَاقِ مَا أَلِفَهُ مِنَ الْوَطَنِ، ثُمَّ كَانَ مَآلُ كُلٍّ مِنْهُمَا أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ مَوْطِنِهِ الَّذِي أُخْرِجَ مِنْهُ.

ب ـ وَبِعِيسَىٰ وَيَحْيَي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَىٰ مَا وَقَعَ لَهُ ﷺ مِنْ أَوَّلِ الْهِجْرَةِ مِنْ عَدَاوَةِ الْيَهُودِ وَتَمَادِيهِمْ عَلَىٰ الْبَغْيِ عَلَيْهِ وَإِرَادَتِهِمْ وُصُولَ السُّوءِ إِلَيْهِ.

ج ـ وَبِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ مَا وَقَعَ لَهُ ﷺ مِنْ إِخْوَتِهِ مِنْ قُرَيْشٍ فِي

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه ـ كتاب الدعوات ـ باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد رقم الحديث (٣٧٦٧) ـ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٣٥٥٢).

نَصْبِهِمُ الْحَرْبَ لَهُ وَإِرَادَتِهِمْ هَلَاكَهُ، وَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَىٰ ذَلِكَ ﷺ بِقَوْلِهِ لِقُرَيْشٍ يَوْمَ الْفَتْحِ: «**أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ: لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ...**».

د ـ وَبِإِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ رَفِيعِ مَنْزِلَتِهِ ﷺ عِنْدَ اللهِ.

هـ ـ وَبِهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ أَنَّ قَوْمَهُ ﷺ رَجَعُوا إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ بَعْدَ أَنْ آذَوْهُ.

و ـ وَبِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ مَا وَقَعَ لَهُ مِنْ مُعَالجَةِ قَوْمِهِ، وَقَدْ أَشَارَ ﷺ إِلَىٰ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «**لَقَدْ أُوذِيَ مُوسَىٰ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**».

ز ـ وَبِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي اسْتِنَادِهِ إِلَىٰ البَيْتِ المَعْمُورِ بِمَا خُتِمَ لَهُ ﷺ فِي آخِرِ عُمُرِهِ مِنْ إِقَامَةِ مَنْسَكِ الحَجِّ وتَعْظِيمِ البَيْتِ[1].

۞ دُخُولُ الرَّسُولِ ﷺ الجَنَّةَ وَمَا رَآهُ فِيهَا:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثُمَّ أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ[2] اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ**»[3].

---

(١) انظر فتح الباري (٧/٦١٢).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٢/١٠): كذَا وقَعَ لجَمِيعِ رُوَاةِ البخاري في هذا الموضع بالحاء المهملة ثم الموحدة، وبعد الألف تحتانية ثم لام، وذكر كثير من الأئمة أنه تَصْحِيف وإنما هو (جَنَابِذُ) كما وقع عند المصنف ـ أي البخاري ـ في أحاديث الأنبياء ـ باب ذكر إدريس عليه السلام ـ رقم الحديث (٣٣٤٢) من رواية ابن المبارك وغيره عن يونس.
وقال ابن الأثير في النهاية (١/٢٩٤ ـ ٣٢٢): هكذا جاء في كتاب البخاري، والمعروفُ جَنَابِذُ اللؤلُؤِ، والجنَابِذُ جمعُ جنبذة: وهي القبة.

(٣) أخرج ذلك البخاري في صحيحه ـ كتاب الصلاة ـ باب كيف فرضت الصلوات في=

«...وإِذَا أَنَا بِأَنْهَارٍ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[1]، وأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ[2]، وأَنْهَارٍ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ[3]، وأَنْهَارٍ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى[4]، وإِذَا رُمَّانُهَا كَأَنَّهُ الدِّلَاءُ[5] عِظَمًا، وإِذَا أَنَا بِطَيْرٍ كَالبَخَاتِيِّ[6] هَذِهِ»، فَقَالَ عِنْدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَعَدَّ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»[7].

= الإسراء؟ ـ رقم الحديث (٣٤٩) ـ وأخرجه في كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب ذكر إدريس عليه السلام ـ رقم الحديث (٣٣٤٢).

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣١٢/٧): يعني الصَّافي الذي لا كَدَرَ فيه.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣١٣/٧): في غايةِ البَيَاض والحلاوَةِ والدُّسُومَةِ.

(٣) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣١٣/٧): ليست كَرِيهَةَ الطعم والرائحَةِ، كخمرِ الدُّنيا، بل هي حَسَنة المَنْظر والطعْمِ والرَّائحة والفعل.. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ سورة الصافات آية (٤٧) ـ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ سورة الواقعة آية (١٩) ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ سورة الصافات آية (٤٦).

(٤) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣١٣/٧): أي في غايةِ الصَّفَاءِ، وحُسْنِ اللَّوْنِ والطَّعْمِ والرِّيح.

روىٰ الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٠٠٥٢) ـ والترمذي في جامعه ـ كتاب صفة الجنة ـ باب ما جاء في صفة أنهار الجنة ـ رقم الحديث (٢٧٤٤)، بسند حسن، عن حكيمِ بن معاويةَ أبي بَهْزٍ عن أبيه قال: سمعت رَسُول اللهِ ﷺ، يقول: **«إِنَّ في الجنة بَحْرُ اللبَنِ، وبحرُ المَاء، وبحرُ العَسَل، وبحرُ الخَمْرِ، ثُمَّ تشقق الأنهارُ مِنهَا بَعْدُ».**

(٥) الدِّلاءُ: معرُوفةٌ، وهي التي يُسْتَقَىٰ بها. انظر لسان العرب (٣٩٧/٤).

(٦) البَخَاتِي والبُخْتُ: هي جِمَالٌ طِوَالُ الأعنَاق. انظر النهاية (١٠١/١).

(٧) أخرج ذلك: البيهقي في دلائل النبوة (٣٩٤/٢ ـ ٤٠١).

❁ رُؤْيَةُ الرَّسُولِ ﷺ نَهَرَ الكَوْثَرِ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ، وإِذَا أَنَا بِنَهَرٍ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، ومَجْرَاهُ عَلَىٰ الدُّرِّ وَاليَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَىٰ مِنَ العَسَلِ وأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ»[1].

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي الصَّحِيحِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَيْتُ عَلَىٰ نَهرٍ حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا»[2].

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَضَرَبْتُ بِيَدِي إِلَىٰ مَا يَجْرِيْ فِيهِ المَاءُ، فَإِذَا مِسْكٌ أَذْفَرُ[3]، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ الذِي أَعْطَاكَهُ اللهُ»[4].

❁ جَارِيَةٌ لِزَيْدِ بنِ حَارِثَةَ رضي الله عنه:

وَرَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الجَنَّةِ جَارِيَةً شَابَّةً، قَالَ: «فَسَأَلْتُهَا لِمَنْ أَنْتِ؟ وَقَدْ أَعْجَبَتْنِي حِينَ رَأَيْتُهَا»، فَقَالَتْ: لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، فَبَشَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْدًا رضي الله عنه[5].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الرقائق ـ باب في الحوض ـ رقم الحديث (٦٥٨١) ـ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٣١٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب سورة ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ ـ رقم الحديث (٤٩٦٤).

(٣) أَذْفَرُ: أي طيِّبُ الرَّائحة. انظر النهاية (٢/١٤٩).

(٤) أخرجه الإمام في مسنده ـ رقم الحديث (١٢٠٠٨) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٥) أورد ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء (١/٢٣٠) ـ وقال: إسناده حسن ـ والألباني في السلسلة الصحيحة ـ رقم الحديث (١٨٥٩) وقال: إسناده صحيح ـ وقيّد ابن إسحاق في السيرة (٢/٢١) هذا الخبر في الإسراء والمعراج.

صَوْتُ بِلَالٍ ﷺ فِي الجَنَّةِ:

وَرَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِنَبِيِّ اللهِ ﷺ، ودَخَلَ الجَنَّةَ، فَسَمِعَ فِي جَانِبِهَا وَجْسًا[1]، قَالَ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا بِلَالٌ المُؤَذِّنُ، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ حِينَ جَاءَ إِلَىٰ النَّاسِ: «**قَدْ أَفْلَحَ بِلَالٌ**»[2].

وَرَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا بِلَالُ! حَدِّثْنِي بِأَرْجَىٰ عَمَلٍ عَمِلْتَهُ عِنْدَكَ فِي الإِسْلَامِ مَنْفَعَةً، فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشْفَ**[3] **نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الجَنَّةِ**».

قَالَ بِلَالٌ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا فِي الإِسْلَامِ أَرْجَىٰ عِنْدِي مَنْفَعَةً، مِنْ أَنِّي لَا أَتَطَهَّرُ طُهُورًا تَامًّا، فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ، مَا كَتَبَ اللهُ لِي[4] أَنْ أُصَلِّيَ[5].

---

(١) الوَجْسُ: هو الصَّوْتُ الخَفِيّ. انظر النهاية (٥/١٣٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٣٢٤) ـ وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/٢٧) وصحح إسناده.

(٣) الخَشْفُ: بسكون الشين الحس والحركة. انظر النهاية (٢/٣٣).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٣/٣٤٥): والذي يظهرُ أن المُرادَ بالأعمال التي سَأله عن إرجَائِهَا الأعمال المتطوَّعُ بها، وإلا فالفريضةُ أفضَلُ قَطْعًا، ويستفادُ منه جوازُ الاجتهَادِ في توقيتِ العِبَادَةِ؛ لأن بِلالًا توصل إلىٰ ما ذكرنا بالاستنبَاطِ، فصوَّبَهُ النبي ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التهجد ـ باب فضل الطهور بالليل والنهار ـ رقم الحديث (١١٤٩) ـ وأخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضل بلال ﷺ ـ رقم الحديث (٢٤٥٨).

❁ فَوَائِدُ الحَدِيثِ:

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: وفِي هَذَا الحَدِيثِ مِنَ الفَوَائِدِ:

١ ـ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِبِلَالَ ﷺ.

٢ ـ وفِيهِ اسْتِحْبَابُ إِدَامَةِ الطَّهَارَةِ، ومُنَاسَبَةُ المُجَازَاةِ عَلَىٰ ذَلِكَ بِدُخُولِ الجَنَّةِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَازَمَ الدَّوَامَ عَلَىٰ الطَّهَارَةِ أَنْ يَبِيتَ المَرْءُ طَاهِرًا، ومِنْ بَاتَ طَاهِرًا عَرَجَتْ رُوحُهُ، فَسَجَدَتْ تَحْتَ العَرْشِ، كَمَا رَوَاهُ البَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ، والعَرْشُ سَقْفُ الجَنَّةِ.

٣ ـ وفِيهِ سُؤَالُ الصَّالِحِينَ عَمَّا يَهْدِيهِمُ اللهُ لَهُ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ لِيَقْتَدِيَ بِهَا غَيْرُهُمْ فِي ذَلِكَ.

٤ ـ وفِيهِ سُؤَالُ الشَّيْخِ عَنْ عَمَلِ تِلْمِيذِهِ لِيَحُضَّهُ عَلَيْهِ، وَيُرَغِّبَهُ فِيهِ إِنْ كَانَ حَسَنًا، وَإِلَّا فَيَنْهَاهُ.

٥ ـ وَفِيهِ أَنَّ الجَنَّةَ مَوْجُودَةٌ الآنَ خِلَافًا لِمَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ مِنَ المُعْتَزِلَةِ(١).

❁ عَرْضُ الآنِيَةِ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ:

يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ: «ثُمَّ رُفِعَ لِيَ البَيْتُ المَعْمُورُ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فَأَخَذْتُ الذِي فِيهِ اللَّبَنَ، فَشَرِبْتُ»(٢)،

---

(١) انظر فتح الباري (٣٤٦/٣).

(٢) قال ابن المنيِّر فيما نقله عنه الحافظ في الفتح (٢٠٣/١١): ولعل السِرَّ في عُدُوله ﷺ عن العَسَلِ إلىٰ اللبَنِ: كون اللبن أنفع، وبه يشتَدُّ العَظْمُ وينبُتُ اللحْمُ، وهو بمجرَّدِهِ=

فَقِيلَ لِي: هِيَ الفِطْرَةُ التِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ[1].

وفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي الصَّحِيحِ، قَالَ: أصبت الفِطْرَةَ أَنْتَ وَأُمَّتُكَ[2].

❁ انْتِهَاءُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ:

ثُمَّ انْطَلَقَ جِبْرِيلُ بِالرَّسُولِ ﷺ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ سِدْرَةِ[3] المُنْتَهَى[4].

= قُوتٌ، ولا يدخل في السَّرَفِ بوَجهٍ، وهو أقربُ إلىٰ الزُّهدِ، وأما العَسَلُ وإن كانَ حَلَالًا لكنه من المُسْتَلَذَّاتِ التي قد يُخْشَىٰ علىٰ صاحبها أن يَنْدَرِجَ في قوله تَعَالَىٰ سورة الأحقاف آية (٢٠): ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾.

وقال الحافظ في الفتح (٢٠٣/١١): ويحتمل أن يكون السِّرُّ فيه ما وقع في بعضِ طُرُق الإسراء أنه ﷺ عَطِشَ، فآثرَ اللبَنَ دونَ غيرِهِ لما فيه من حصولِ حاجتِهِ دونُ الخَمْرِ والعَسَلِ، فهذا هو السببُ الأصلي في إيثَارِ اللبن، وصادفَ مع ذلكَ رُجْحَانه عليهما من عدة جهات.

قلتُ: الطريق التي أشار إليها الحافظ من أنَّ النبي ﷺ أصابه العطش فآثر اللبن أخرجها البيهقي في دلائل النبوة (٣٥٦/٢)، وقال البيهقي: إسناده صحيح.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب المناقب - باب المعراج - رقم الحديث (٣٨٨٧) - والإمام مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب الإسراء برَسُول اللهِ ﷺ - رقم الحديث (٢٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الأشربة - باب شرب اللبن - رقم الحديث (٥٦١٠).

(٣) قال ابن دِحيَةَ فيمَا نقلهُ عنه الحافظ في الفتح (٦١٦/٧): اختيرت السِّدْرَةُ دون غيرها؛ لأن فيها ثلاثُ أوصافٍ: ظِلٌّ مَمْدُود، وطعَامُ لَذِيذٌ، ورائحةٌ زَكِيَّةٌ، فكانت بِمَنزلة الإيمان الذي يَجْمَعُ القولَ والعملَ والنِّيَةَ، والظل بمنزلةِ العمل، والطعمُ بمنزلةِ النية، والرائحةُ بمنزلة القَوْل.

(٤) وفي رواية أخرىٰ في صحيح مسلم - رقم الحديث (١٧٣) عن ابن مسعود ﷺ قال: إن سِدْرَةَ المُنْتهىٰ في السماء السَّادسة، وهذا تعارض لا شكَّ فيه، وطريق الجَمْعِ بينهما،=

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا نَبْقُهَا[1] كَأَنَّهُ قِلَالُ[2] هَجَرَ[3]، وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الفِيلَةِ، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ[4] لَا أَدْرِي مَا هِيَ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا» فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيهِ السَّلَامُ: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنهَارٍ[5]: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟»

قَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ[6].

= كما قال الحافظ في الفتح (٧/٦١٥) أن يقال: إن أصلَ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ في السماء السادسة، وأغصانُهَا وفروعُهَا في السماء السابعة.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: وسُمِّيَتْ سَدْرَةَ المُنْتَهَىٰ؛ لأن إليها يَنْتَهي ما يُعْرَجُ به من الأرض، فَيُقْبَضُ منها، وإليها يَنْتَهِي ما يَهْبِطُ به من فوقها، فَيُقْبَضُ منها. أخرجه مسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (١٧٣).

(١) النَّبْقُ: هو ثَمَرُ السِّدْرِ. انظر النهاية (٥/٨).

(٢) قال الإمام الخطابي فيما نقله عنه الحافظ في الفتح (٧/٦١٥): القِلالُ بالكسر جمعُ قُلَّة بالضم وهي الجِرَارُ، يريد أن ثمرها في الكِبَر مثل القِلَال، وكانت معروفةً عند المُخَاطَبِينَ، فلذلك وقَعَ التَّمْثِيلُ بها.

(٣) هَجَر: هي مدينةٌ الإحسَاء. انظر معجم البلدان (٥/٤٥٢).

(٤) وغَشِيَهَا أَلوَانٌ: أي تَعْلُوها. انظر النهاية (٣/٣٣٢).

(٥) في رواية أخرى في صحيح البخاري، قال ﷺ: «**فإذا في أصلها أربعة أنهار**».

قال الحافظ في الفتح (٧/٦١٦): يحتمل أن تكون سدرة المنتهى مغروسة في الجنة، والأنهار تخرج من تحتها.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الفضائل ـ باب المعراج ـ رقم الحديث (٣٨٨٧) ـ وأخرجه في كتاب أحاديث الأنبياء ـ رقم الحديث (٣٣٤٢) ـ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله ﷺ ـ رقم الحديث (١٦٢) ـ وباب ذكر سدرة المنتهىٰ ـ رقم الحديث (١٧٣).

❁ رُؤْيَةُ الرَّسُولِ ﷺ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ عَلَىٰ صُورَتِهِ الحَقِيقِيَّةِ:

وَهُنَاكَ عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ رَأَىٰ ﷺ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلام عَلَىٰ الصُّورَةِ التِي خَلَقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا، فِي حُلَّةٍ مِنْ رَفْرَفٍ[1] أَخْضَرَ، لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الأُفُقَ، يَتَنَاثَرُ مِنْ أَجْنِحَتِهِ التَّهَاوِيلُ، والدُّرُّ واليَاقُوتُ[2]، وكَانَ الرَّسُولُ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ لَا يَرَىٰ جِبْرِيلَ إِلَّا عَلَىٰ صُورَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَكْثَرُ مَا يَرَاهُ ﷺ عَلَىٰ صُورَةِ دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ ﷺ[3].

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ هَذَا المَشْهَدِ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ[4] ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ[5] ﴿١٧﴾

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٩/٥٩٣): وأصل الرَّفْرَفِ ما كان من الدِّيباجِ رَقِيقًا حَسَنَ الصَّنْعَةِ.

(٢) التَّهاوِيلُ والدُّرَرُ واليَاقُوتُ: أي الأشياء المختلفةُ الألوانِ، أرادَ بالتهاويلِ، تَزَايينُ رِيشِهِ وما فيه من صُفْرَةٍ وحُمْرَةٍ وبَيَاضٍ وخُضْرَةٍ مثل تَهَاوِيلِ الرِّيَاض. انظر لسان العرب (١٥/١٦١).

(٣) أخرج ذلك البخاري في صحيحه - كتاب التفسير - باب لقد رأىٰ من آيات ربه الكبرىٰ - رقم الحديث (٤٨٥٨) - وأخرجه في كتاب بدء الخلق - باب إذ قال أحدكم آمين والملائكة في السماء - رقم الحديث (٣٢٣٣) - وأخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب ولقد رآه نزلة أخرىٰ - رقم الحديث (١٧٧).

(٤) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/٤٥١): هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء. وروىٰ الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن ابن مسعود ﷺ قال: في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ - سورة النجم آية (١٣) قال: قال رَسُول اللهِ ﷺ: «رأيتُ جبريلَ عند سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ عليه سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، ينتَثِرُ من رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ: الدُّرُّ واليَاقُوتُ».

(٥) روىٰ الحاكم في المستدرك بسند صحيح علىٰ شرط مسلم - رقم الحديث (٣٨٠١) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قوله تَعَالَىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾، قال: ما ذهب يمينًا ولا شمالًا، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾، قال: ما جاوز. =

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[1].

رَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، والإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَ: قُلْتُ: أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[2]، وقَالَ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[3]، قَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْهَا، فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ». لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ التِي خُلِقَ عَلَيْهَا إِلَّا مَرَّتَيْنِ: رَآهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ، سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ[4].

۞ افْتِرَاضُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ:

ثُمَّ نَظَرَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَىٰ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَوَجَدَهُ كَالحِلْسِ[5] البَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ[6]، ثُمَّ غَشِيَتْ تِلْكَ السِّدْرَةَ سَحَابَةٌ، فَتَأَخَّرَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ،

= وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/١٢٢): وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه ﷺ ما فعل إلا بما أُمِرَ به، ولا سأل فوق ما أعطي.

(١) سورة النجم آية (١٣ ـ ١٨).

(٢) سورة التكوير آية رقم (٢٣).

(٣) سورة النجم آية رقم (١٣).

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب في ذكر سدرة المنتهىٰ ـ رقم الحديث (١٧٧) ـ والإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٦٠٤٠).

(٥) الحِلْسُ: وهو البِسَاطُ والحَصِيرُ. انظر لسان العرب (٣/٢٨٣).

(٦) أورد ذلك الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٧٨) وقال: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح ـ وأورد طرقه الألباني في السلسلة الصحيحة ـ رقم الحديث (٢٢٨٩) وقال: وبالجملة: فالحديث بمجموع الطريقين حسن أو صحيح، والله أعلم.

وعُرِجَ بِالرَّسُولِ ﷺ حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ مُسْتَوًى سَمِعَ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلَامِ، قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ**»، فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ؟

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: مَا فَرَضَ اللهُ لَكَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ؟

فَقَالَ ﷺ: «**فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ**».

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، وإِنِّي وَاللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قال ﷺ: «**فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا**»، فَقُلْتُ: «**حَطَّ عَنِّي خَمْسًا**»، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. قَالَ ﷺ: «**فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَىٰ**»، حَتَّىٰ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً[1].

قال ﷺ: فَنَزَلْتُ حَتَّىٰ انْتَهَيْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٦١٩/٧): هذا من أقوىٰ ما استدل به علىٰ أنَّ الله سبحانه وتَعالَىٰ كلَّمَ نبيَّهُ محمد ﷺ ليلةَ الإسراءِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ.
وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١٢٢/٣): فحصَلَ له التكلِيمُ من الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ ليلَتَئِذٍ وأئمَّة السنة كالمطبِقِينَ علىٰ هذا.

فَسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَدْ رَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي حَتَّىٰ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ».

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَانِي مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»(١).

۞ مَا خُصَّ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأُمَّتُهُ:

رَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: ... فَأُعْطِيَ رَسُول اللهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، وأُعْطِيَ خَوَاتِمَ سُورَةِ البَقَرَةِ، وغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا، المُقْحِمَاتُ(٢).

---

(١) أخرج ذلك كله: البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب المعراج ـ رقم الحديث (٣٨٨٧) ـ وأخرجه في كتاب الصلاة ـ باب كيف فرضت الصلاة ـ رقم الحديث (٣٤٩) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برَسُول اللهِ ﷺ ـ رقم الحديث (١٦٢) ـ وباب ذكر سدرة المنتهىٰ ـ رقم الحديث (١٧٣) ـ والإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٢٥٠٥).

(٢) قال الإمام النووي في شرح مسلم (٢/٣ ـ ٤): المُقْحِمَاتُ: الذُّنوبُ العَظَائِمُ الكبائرُ التي تُهْلِكُ أصحابَهَا وتُورِدُهُمُ النارَ وتُقْحِمُهُم إياهَا، والتَّقَحُّمُ الوُقُوع في المهالكِ، ومعنىٰ الكلام: من مَاتَ من هذه الأمة غير مشركٍ بالله غفر له المُقْحِمَات، والمراد والله أعلم بغُفْرَانها أنه لا يخلَّدُ في النار بخلافِ المشركين، وليس المرادُ أنه لا يُعَذَّبُ أصلًا، فقد تقرَّرَتْ نصُوصُ الشَّرعِ، وإجماعُ أهل السنة علىٰ إثبات عذابِ بعضِ العُصَاة من المُوَحِّدِينَ.

والحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب ذكر سدرة المنتهىٰ ـ رقم الحديث (١٧٣) ـ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٣٦٦٥).

۞ هَلْ رَأَى الرَّسُولُ ﷺ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ؟:

اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي رُؤْيَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ، فَرَوَىٰ الشَّيْخَانِ في صَحِيحَيْهِمَا عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يَا أُمَّتَاهُ هَلْ رَأَىٰ مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ[1] شَعْرِي مِمَّا قُلْتَ، أَيْنَ أَنْتَ[2] مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ:

مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَىٰ رَبَّهُ؟ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[3]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾[4].

وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿...وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[5].

وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ ﷺ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[6].

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٥٨٨/٩): أي قامَ من الفزَع، لما حصل عِندَهَا من هَيْبَةِ الله واعتقدته من تَنْزِيهِهِ واستِحالَة وقوع ذلك.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٥٨٨/٩): أي كيفَ يَغِيبُ فَهمُكَ عن هذه الثلاث؟ وكان ينبغي لك أن تكونَ مُسْتَحْضِرها ومعتقدًا كَذِبَ من يَدَّعي وقوعها.

(٣) سورة الأنعام آية (١٠٣).

(٤) سورة الشورىٰ آية (٥١).

(٥) سورة لقمان آية (٣٤).

(٦) سورة المائدة آية (٦٧).

وأخْرَجَ الشَّيْخَانِ كَذلِكَ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[1]، قَالَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَىٰ جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ[2].

وَرَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ»[3].

وَرَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[4]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[5]، قَالَ: رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ[6].

قَالَ البَيْهَقِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: فِي حَدِيثِ شَرِيكٍ زِيَادَةٌ تَفَرَّدَ بِهَا[7]، عَلَى

= والحديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب سورة النجم ـ رقم الحديث (٤٨٥٥) ـ وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان ـ باب معنىٰ قوله تعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ـ رقم الحديث (١٧٧).

(١) سورة النجم آية (٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب قوله تعَالَىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ ـ رقم الحديث (٤٨٥٧) ـ وأخرجه مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب ذكر سدرة المنتهىٰ ـ رقم الحديث (١٧٤).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب في قوله عليه السلام ـ نورا أنىٰ أراه ـ رقم الحديث (١٧٨).

(٤) سورة النجم آية (١١).

(٥) سورة النجم آية (١٣).

(٦) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب معني قوله تعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ـ رقم الحديث (١٧٦) (٢٨٥).

(٧) حديث شريك أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التوحيد ـ باب ما جاء في قوله=

مَذْهَبِ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ، وَقَوْلُ عَائِشَةَ، وابْنِ مَسْعُودٍ، وأَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ فِي حَمْلِهِمْ هَذِهِ الآيَاتِ عَلَىٰ رُؤْيَتِهِ، جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلام، أَصَحُّ[(١)].

وعَلَّقَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَى كَلَامِ الْبَيْهَقِيِّ بِقَوْلِهِ: وهَذَا الذِي قَالَهُ البَيْهَقِيُّ هُوَ الحَقُّ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ[(٢)].

وقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وأَمَّا الرُّؤْيَةُ فَالذِي ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: رَأَىٰ مُحَمَّدٌ رَبَّهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ، وعَائِشَةُ أَنْكَرَتِ الرُّؤْيَةَ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فَقَالَ: عَائِشَةُ أَنْكَرَتْ رُؤْيَةَ العَيْنِ، وابنُ عَبَّاسٍ أَثْبَتَ رُؤْيَةَ الفُؤَادِ. والأَلْفَاظُ الثَّابِتَةُ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ هِيَ مُطْلَقَةٌ، أَوْ مُقَيَّدَةٌ بِالفُؤَادِ، تَارَةً يَقُولُ: رَأَىٰ مُحَمَّدٌ رَبَّهُ، وتَارَةً يَقُولُ: رَآهُ مُحَمَّدٌ، وَلَمْ يَثْبُتْ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ لَفْظٌ صَرِيحٌ بِأَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِهِ.

وَكَذَلِكَ الإِمَامُ أَحْمَدُ، تَارَةً يُطْلِقُ الرُّؤْيَةَ، وتَارَةً يَقُولُ: رَآهُ بِفُؤَادِهِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ أَنَّهُ سَمِعَ أَحْمَدَ يَقُولُ رَآهُ بِعَيْنِهِ، لَكِنَّ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِهِ سَمِعُوا بَعْضَ

= تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ - رقم الحديث (٧٥١٧).

ولفظ الزيادة التي تفرد بها شريك: **«ودنا الجبار رب العزة، فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى»**.

(١) انظر دلائل النبوة (٢/٣٨٥).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٥/٨).

كَلَامِهِ المُطْلَقَ، فَفَهِمُوا مِنْهُ رُؤْيَةَ العَيْنِ، كَمَا سَمِعَ بَعْضُ النَّاسِ مُطْلَقَ كَلَامِ ابنِ عَبَّاسٍ، فَفَهِمَ مِنْهُ رُؤْيَةَ العَيْنِ.

وَلَيْسَ فِي الأَدِلَّةِ مَا يَقْتَضِي أَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِهِ، وَلَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَا فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ، بَلِ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ عَلَىٰ نَفْيِهِ أَدَلُّ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ»[1].

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾[2]، وَلَوْ كَانَ قَدْ أَرَاهُ نَفْسَهُ بِعَيْنِهِ لَكَانَ ذِكْرُ ذَلِكَ أَوْلَىٰ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[3] وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[4]، وَلَوْ كَانَ رَآهُ بِعَيْنِهِ لَكَانَ ذِكْرُ ذَلِكَ أَوْلَىٰ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾[5]، قَالَ ﷺ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب في قوله عليه السلام: «نور أنىٰ أراه» ـ رقم الحديث (١٧٨).

(٢) سورة الإسراء آية (١).

(٣) سورة النجم آية (١٢).

(٤) سورة النجم آية (١٨).

(٥) سورة الإسراء آية (٦٠).

أُرِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ[1]، وَهَذِهِ رُؤْيَا الآيَاتِ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ النَّاسَ بِمَا رَآهُ بِعَيْنِهِ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ، فَكَانَ ذَلِكَ فِتْنَةً لَهُمْ، حَيْثُ صَدَّقَهُ قَوْمٌ وَكَذَّبَهُ قَوْمٌ، ولَمْ يُخْبِرْهُمْ بِأَنَّهُ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِهِ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَحَادِيثِ المِعْرَاجِ الثَّابِتَةِ ذِكْرُ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ قَدْ وَقَعَ ذَلِكَ لَذَكَرَهُ كَمَا ذَكَرَ مَا دُونَهُ. وَقَدْ ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ وَاتِّفَاقِ سَلَفِ الأُمَّةِ أَنَّهُ لَا يَرَىٰ اللهَ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنِهِ، إِلَّا مَا نَازَعَ فِيهِ بَعْضُهُمْ مِنْ رُؤْيَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ خَاصَّةً، وَاتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنَّ المُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللهَ يَوْمَ القِيَامَةِ عِيَانًا، كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ[2].

وَقَالَ أَيْضًا شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وَأَمَّا قَوْلُ ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ كَانَ اسْتِنَادُهُ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[3].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[4] وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مُسْتَنَدُهُ، فَقَدْ صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّ هَذَا المَرْئِيَّ جِبْرِيلُ، رَآهُ مَرَّتَيْنِ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، وَقَوْلُ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا هَذَا هُوَ مُسْتَنَدُ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي قَوْلِهِ: رَآهُ بِفُؤَادِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب قوله تعالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ ـ حديث (٤٧١٦) ـ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٩١٦).

(٢) انظر مجموع الفتاوىٰ (٦/٥٠٩ ـ ٥١٠).

(٣) سورة النجم آية (١١).

(٤) سورة النجم آية (١٣).

وأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ النَّجْمِ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[1] فَهُوَ غَيْرُ الدُّنُوِّ والتَّدَلِّي فِي قِصَّةِ الإِسْرَاءِ، فَإِنَّ الذِي فِي سُورَةِ النَّجْمِ هُوَ دُنُوُّ جِبْرِيلَ وتَدَلِّيهِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ وابنُ مَسْعُودٍ، والسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[2] وَهُوَ جِبْرِيلُ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ فَالضَّمَائِرُ كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَىٰ هَذَا المُعَلِّمِ الشَّدِيدِ القُوَىٰ، وَهُوَ ذُو المِرَّةِ، أَيِ: القُوَّةِ، وهُوَ الذِي اسْتَوَىٰ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ، وَهُوَ الذِي دَنَىٰ فَتَدَلَّىٰ، فَكَانَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ قَدْرَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى[3].

وَقَالَ الإِمَامُ الذَّهَبِيُّ: فِي قَوْلِهِ ﷺ: «رَأَيْتُ رَبِّي»[4] قَالَ: مَا قَيَّدَ الرُّؤْيَةَ بِالنَّوْمِ، وبَعْضُ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَىٰ رَبَّهُ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ يَحْتَجُّ بِظَاهِرِ الحَدِيثِ، والذِي دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ عَدَمُ الرُّؤْيَةِ مَعَ إِمْكَانِهَا، فَنَقِفُ عَنْ هَذِهِ المَسْأَلَةِ، فَإِنَّ «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»[5]، فَإِثْبَاتُ ذَلِكَ أَوْ نَفْيُهُ صَعْبٌ، والوُقُوفُ سَبِيلُ السَّلَامَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ، وإِذَا ثَبَتَ شَيْءٌ قُلْنَا بِهِ، وَلَا نُعَنِّفُ مَنْ أَثْبَتَ الرُّؤْيَةَ لِنَبِيِّنَا ﷺ فِي الدُّنْيَا، وَلَا مَنْ نَفَاهَا، بَلْ نَقُولُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، بَلْ نُعَنِّفُ وَنُبَدِّعُ مَنْ أَنْكَرَ الرُّؤْيَةَ فِي الآخِرَةِ، إِذْ رُؤْيَةُ اللهِ تَعَالَىٰ

---

(١) سورة النجم آية (٨).

(٢) سورة النجم آية (٥).

(٣) انظر زاد المعاد (٣/٣٤).

(٤) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٥٨٠) وإسناده صحيح.

(٥) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٧٣٧) وأخرجه الترمذي في جامعه ـ كتاب الزهد ـ باب رقم (٩) ـ رقم الحديث (٢٤٧٠) وإسناده حسن.

فِي الآخِرَةِ ثَبَتَتْ بِنُصُوصٍ مُتَوَاتِرَةٍ[1].

۞ **عَوْدَةُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ مَكَّةَ وإِخْبَارُهُ النَّاسَ بِمَسْرَاهُ:**

ثُمَّ هَبَطَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالرَّسُولِ ﷺ مِنَ السَّمَاوَاتِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، ثُمَّ رَكِبَ الْبُرَاقَ مُنْصَرِفًا إِلَىٰ مَكَّةَ بِصُحْبَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ، ثُمَّ أَتَىٰ مَكَّةَ قَبْلَ الصُّبْحِ.

۞ **بَعْضُ الْمَشَاهِدِ وَهُوَ فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ إِلَىٰ مَكَّةَ:**

يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ: «**مَرَرْتُ بِعِيرِ بَنِي فُلَانٍ فَأَنْفَرَهُمْ حِسُّ الدَّابَّةِ، - أَيِ الْبُرَاقُ - فَنَدَّ[2] لَهُمْ بَعِيرٌ، فَدَلَلْتُهُمْ عَلَيْهِ، وأَنَا مُتَوَجِّهٌ إِلَى الشَّامِ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُ بِضَجْنَانَ[3] مَرَرْتُ بِعِيرِ بَنِي فُلَانٍ فَوَجَدْتُ الْقَوْمَ نِيَامًا، وَلَهُمْ إِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ قَدْ غَطُّوا عَلَيْهِ بِشَيْءٍ، فَكَشَفْتُ غِطَاءَهُ وَشَرِبْتُ[4] مَا فِيهِ، ثُمَّ غَطَّيْتُ عَلَيْهِ**

---

(١) انظر كلام الذهبي في: سير أعلام النبلاء (١١٤/١٠).
قلتُ: جاء في رُؤيَةِ الله تبارك وتَعَالَىٰ يوم القيامة أحاديث كثيرة منها: ما أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب التوحيد - باب قوله تَعَالَىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ - رقم الحديث (٧٤٣٤) - ومسلم في صحيحه - كتاب المساجد - باب فضل صلاتي الصبح والعصر - رقم الحديث (٦٣٣) - عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «**إنكم سَتَرون ربّكم كما ترونَ هذا القمَر لا تُضَامُونَ في رُؤيَتِهِ، فإن استطعتُمْ أن لا تُغْلَبُوا عن صَلاةٍ قبلَ طُلُوعِ الشّمسِ وصلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشمسِ فافعلوا**».
لا تُضَامُونَ: أي لا تَتخَالَفُونَ ولا تَتَجَادَلُونَ في صحة النظر إليه. انظر فتح الباري (٣٨٩/١٥).
(٢) نَدَّ البعير: أي شَرَدَ وذهب علىٰ وجهه. انظر النهاية (٣٠/٥).
(٣) ضَجْنَانُ: هو جبلٌ بناحِيَةِ تِهَامَة. انظر معجم البلدان (٢٢٥/٥).
(٤) قال الإمام السهيلي في الرَّوْض الأُنُف (١٩٧/٢): كيف استَبَاح الرسول ﷺ شُرْبَ=

كَمَا كَانَ، وَعَلَىٰ رَأْسِ العِيرِ جَمَلٌ أَوْرَقُ[1] عَلَيْهِ غَرَارَتَانِ[2]، إِحْدَاهُمَا سَوْدَاءُ، والأُخْرَىٰ بَرْقَاءُ[3]».

۞ هَلْ صَدَّقَتْ قُرَيْشٌ الرَّسُولَ ﷺ فِي إِسْرَائِهِ ومِعْرَاجِهِ؟

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ جَاءَ مِنْ لَيْلَتِهِ، فَحَدَّثَهُمْ بِمَسِيرِهِ، وَبِعَلَامَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَبِعِيرِهِمْ...[4].

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، ...عَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ، فَقَعَدْتُ مُعْتَزِلًا حَزِينًا، فَمَرَّ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَيَّ».

= الماء وهو مِلْكٌ لغيره؟

والجوابُ أن العَرَبَ في الجاهلية كان في عُرفِ العادَةِ عندهُم إباحَةُ اللَّبَنِ لابنِ السَّبيل فَضْلًا عن الماء، وكانوا يَعْهَدُونَ بذلك إلىٰ رُعَائِهِم، ويشترِطُونه عليهم عند عَقْدِ إجارتهم ألا يَمْنَعُوا اللبن من أحَدٍ مَرَّ بهم.

(١) الأورَقُ من الإبلِ: هو الذي في لَونُهُ بياضٌ إلىٰ سَوَاد. انظر لسان العرب (١٥/٢٧٥).

(٢) الغَرَارَةُ: وِعَاءٌ من الخَيْشِ ونحوه يُوضعُ فيه القَمْح ونحوه. انظر الوسيط (٢/٦٦٢).

(٣) يقالُ لِكُلِّ شَيءٍ اجتمَعَ فيه سَوَادٌ وبياضٌ أبرَقُ. انظر لسان العرب (١/٣٨٣).

والخبر أخرجه ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد، وأخرجه بنحوه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٥٧) وقال البيهقي: هذا إسناد صحيح.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٣٥٤٦) - وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/٢٨) وصحح إسناده.

فَقَالَ كَالمُسْتَهْزِئِ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟

قُلْتُ: «نَعَمْ».

قَالَ: مَا هُوَ؟

قُلْتُ: «إِنَّهُ أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ».

قَالَ: إِلَىٰ أَيْنَ؟

قُلْتُ: «إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ».

قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانِينَا؟

قُلْتُ: «نَعَمْ».

فَلَمْ يُرِهِ أَنْ يُكَذِّبَهُ، مَخَافَةَ إِنْ يَجْحَدَهُ الحَدِيثَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ أَتُحَدِّثُهُمْ بِمَا حَدَّثْتَنِي؟.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ».

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ: هَيَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ! فَانْفَضَّتْ إِلَيْهِ المَجَالِسُ، وجَاؤُوا حَتَّىٰ جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي يَا مُحَمَّدُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ».

قَالُوا: إِلَىٰ أَيْنَ؟

قَالَ: «إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ»

قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانِينَا؟

قَالَ: «نَعَمْ».

فَضَجَّ المُشْرِكُونَ وَأَعْظَمُوا ذَلِكَ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ يُصَفِّقُ، وَبَعْضُهُمْ يَضَعُ يَدَهُ عَلَىٰ رَأْسِهِ تَعَجُّبًا[1].

وَكَانَتْ فِتْنَةً عَظِيمَةً، ارْتَدَّ بَعْضُ مَنْ أَسْلَمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيمَنِ ارْتَدَّ عَنْ إِسْلَامِهِ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾[2].

---

(١) أخرج ذلك الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح علىٰ شرط الشيخين ـ رقم الحديث (٢٨١٩). وأخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ ـ كتاب التفسير ـ باب سورة الإسراء ـ رقم الحديث (١١٢٢١) ـ وابن إسحاق في السيرة (١٢/٢).

(٢) سورة الإسراء آية (٦٠).

وأخرج ذلك البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب المعراج ـ باب حديث (٣٨٨٨) وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٩١٦) ـ والحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب الأحاديث المشعرة بتسمية أبي بكر صديقًا ﷺ ـ رقم الحديث (٤٤٦٣).

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠٣/٨): وأولَىٰ الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ من قالَ: عني به رُؤْيا رَسُول اللهِ ﷺ ما رأىٰ من الآيات والعِبَر في طريقهِ إلىٰ بيت المقدس ليلةَ أُسْرِي به، قال: وإنما قُلنا ذلك أولىٰ بالصواب، لإجمَاعِ الحُجَّة من أهل التأويلِ علىٰ أن هذه الآية إنما نزلت في ذلك، وإيَّاه عنىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ بها، فإذا كان=

۞ مَوْقِفُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﵁:

ذَهَبَ النَّاسُ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ ﵁، فَقَالُوا: هَلْ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ فِي صَاحِبِكَ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَصَلَّىٰ فِيهِ، وَرَجَعَ إِلَىٰ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ.

فَقَالَ: إِنَّكُمْ تَكْذِبُونَ عَلَيْهِ، فَقَالُوا: بَلَىٰ، هَا هُوَ ذَاكَ فِي المَسْجِدِ، يُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللهِ لَئِنْ كَانَ قَالَهُ لَقَدْ صَدَقَ، فَقَالُوا: أَوَتُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَمَا يُعْجِبُكُمْ مِنْ ذَلِكَ؟

إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ يَأْتِيهِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ، فَهَذَا أَبْعَدُ مِمَّا تَعْجَبُونَ مِنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَحَدَّثْتَ هَؤُلَاءِ القَوْمَ أَنَّكَ جِئْتَ بَيْتَ المَقْدِسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟

قَالَ: «نَعَمْ».

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ.

= ذلك كذلك، فتأويلُ الكلامِ: وما جعلنا رُؤْيَاكَ التي أريناكَ ليلةَ أسرَيْنَا بكَ من مكة إلىٰ بيتِ المقدس، إلا فتنةً للناس يقول: إلا بلاءً للناس الذين ارتدُّوا عن الإسلام، لما أُخبِروا بالرؤيا التي رآها عليه الصلاة والسلام، وللمشركين من أهل مكة الذين ازدادُوا بسماعهم ذلك من رَسُول اللهِ ﷺ تَمادياً في غَيِّهِمْ، وكُفْرًا إلىٰ كفرهم.

فَقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «وَأَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقُ»، فَيَوْمَئِذٍ سُمِّيَ الصِّدِّيقَ[1].

قَالَ أَبُو مِحْجَنٍ الثَّقَفِيُّ:

وَسُمِّيتَ صِدِّيقًا وَكُلُّ مُهَاجِرٍ ... سِوَاكَ يُسَمَّىٰ بِاسْمِهِ غَيْرَ مُنْكَرِ

سَبَقْتَ إِلَىٰ الإِسْلَامِ وَاللهُ شَاهِدٌ ... وَكُنْتَ جَلِيسًا بِالعَرِيشِ المُشَهَّرِ

وَبِالغَارِ إِذْ سُمِّيتَ بِالغَارِ صَاحِبًا ... وَكُنْتَ رَفِيقًا لِلنَّبِيِّ المُطَهَّرِ[2]

❁ طَلَبُ قُرَيْشٍ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يَصِفَ لَهُمْ بَيْتَ المَقْدِسِ:

قَالُوا: هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصِفَ لَنَا بَيْتَ المَقْدِسِ، وَفِي القَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَىٰ ذَلِكَ البَلَدِ، وَرَأَىٰ المَسْجِدَ.

فَقَامَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ[3] وَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِبَيْتِ المَقْدِسِ، وَكَيْفَ

---

(١) أخرج ذلك الحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب الأحاديث المشعرة بتسمية أبي بكر صديقًا ﷺ ـ رقم الحديث (٤٤٦٣) ـ وقال: صحيح الإسناد ـ ووافقه الذهبي ـ وانظر السلسلة الصحيحة للألباني ـ رقم الحديث (٣٠٦).

(٢) انظر الأبيات في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (٣/٩٤).

(٣) قلتُ ذكر البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٥٥) ـ وابن إسحاق في السيرة (٢/١٢) أن الذي قال لرَسُول اللهِ ﷺ: صِفْ لنا بيتَ المَقْدِسِ هو أبو بكر الصديق ﷺ، وهذا غير صحيح، بل الذي قال له: صِفْ لنا بيتَ المَقْدِسِ، هو المُطْعِمُ بن عدي، كما روىٰ ذلك أبو يعلىٰ في مسنده من حديث أم هانئ. وانظر فتح الباري (٧/٥٩٩) ـ (٩/٣٠٧).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/٢٧): ولا شَكَّ أن هذا الحديث الذي ساقَهُ البيهقي أعني الحديث المروي عن شَدَّادِ بن أَوْس مشتَمِلٌ علىٰ أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقي ومنها ما هو منكرٌ: كالصلاة في بيتِ لَحْمٍ، وسؤال الصديق عن نعتِ بيت المقدس.

بِنَاؤُهُ، وكَيْفَ هَيْئَتُهُ، فَإِنْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ صَادِقًا فَسَأُخْبِرُكُمْ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَسَأُخْبِرُكُمْ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِبَيْتِ المَقْدِسِ فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ بِنَاؤُهُ وكَيْفَ هَيْئَتُهُ؟.

يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ: «**لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الحِجْرِ، وقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ**»[(١)].

وَفِي رِوَايَةِ الإِمَامِ البُخَارِيِّ فِي صَحِيحِهِ قَالَ ﷺ: «**فَجَلَّىٰ**[(٢)] **اللهُ لِيَ بَيْتَ المَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ**[(٣)] **أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ، وأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ**»[(٤)].

وَفِي رِوَايَةِ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ قَالَ ﷺ: «**فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ**[(٥)]**، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّىٰ التَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ**»، قَالَ: «**فَجِيءَ بِالمَسْجِدِ**[(٦)] **وأَنَا أَنْظُرُ حَتَّىٰ**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب ذكر المسيح ابن مريم ـ رقم الحديث (١٧٢).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٥٩٩/٧): معناه كشف الحجب بيني وبينه حتىٰ رأيته.

(٣) طَفِقَ: أخَذَ وجَعَلَ. انظر النهاية (١١٨/٣).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب حديث الإسراء ـ رقم الحديث (٣٨٨٦) ـ وأخرجه في كتاب التفسير ـ باب قوله تعالَىٰ: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ ـ رقم الحديث (٤٧١٠).

(٥) النَّعْتُ: هو وَصْفُ الشَّيْءِ بما فيهِ من حُسْنٍ، ولا يقال في القَبِيح. انظر النهاية (٦٨/٥).

(٦) قال الحافظ في الفتح (٥٩٩/٧): وهذا أبلغُ في المعجزةِ، ولا استِحَالةَ فيه، فقد أُحضِرَ عرشُ بلقيس في طَرْفَةِ عينٍ لسليمانَ عليه السلام، وهو يَقتَضِي أنه أُزِيلَ من مكانِهِ حتىٰ أُحضِرَ إليه، وما ذاك في قُدرة الله بِعَزِيزٍ.

وُضِعَ دُونَ دَارِ عَقِيلٍ فَنَعَتُّهُ، وأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ».

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ نَعْتِهِ قَالَ الْمُشْرِكُونَ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللهِ لَقَدْ أَصَابَ[1].

ثُمَّ إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «آيَةُ ذَلِكَ أَنِّي مَرَرْتُ بِعِيرٍ لَكُمْ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، فَأَنْفَرَهُمْ حِسُّ الدَّابَّةِ - أَيِ الْبُرَاقِ - فَنَدَّ لَهُمْ بَعِيرٌ، فَدَلَلْتُهُمْ عَلَيْهِ، وَلَهُمْ إِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ قَدْ غَطَّوْا عَلَيْهِ بِشَيْءٍ، فَكَشَفْتُ غِطَاءَهُ وَشَرِبْتُ مَا فِيهِ، ثُمَّ غَطَّيْتُ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ، وَعَلَىٰ عِيرِهِمْ جَمَلٌ أَوْرَقُ عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ، إِحْدَاهُمَا سَوْدَاءُ، وَالأُخْرَىٰ بَرْقَاءُ»، فَلَمَّا جَاءَتِ الْعِيرُ، إِذَا عَلَيْهَا ذَلِكَ الجَمَلُ الذِي وَصَفَهُ الرَّسُولُ ﷺ، وسَأَلُوهُمْ عَنِ الإِنَاءِ، فَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهُمْ وَضَعُوهُ مَمْلُوءًا مَاءً، ثُمَّ غَطَّوْهُ، وَأَنَّهُمْ ذَهَبُوا فَوَجَدُوهُ مُغَطًّىٰ كَمَا غَطَّوْهُ، وَلَمْ يَجِدُوا فِيهِ مَاءً، وَسَأَلُوهُمْ: هَلْ ضَلَّ لَكُمْ بَعِيرٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، نَدَّ لَنَا بَعِيرٌ فَسَمِعْنَا صَوْتَ رَجُلٍ يَدْعُونَا إِلَيْهِ حَتَّىٰ أَخَذْنَاهُ[2].

فَعَجِبَ الكُفَّارُ لَمَّا عَرَفُوا صِدْقَ الرَّسُولِ ﷺ، ومَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا نُفُورًا وَطُغْيَانًا كَبِيرًا.

قُلْتُ: وَقَدْ أَخْبَرَ الرَّسُولُ ﷺ قَوْمَهُ بِالإِسْرَاءِ أَوَّلًا، فَلَمَّا ظَهَرَتْ لَهُمْ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٨١٩) - وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/١٦).

أَمَارَاتُ صِدْقِهِ عَلَىٰ تِلْكَ المُعْجِزَةِ أَخْبَرَهُمْ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا، وَهُوَ المِعْرَاجُ[1].

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وَقَدْ عَايَنَ ﷺ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِنَ الآيَاتِ وَالأُمُورِ التِي لَوْ رَآهَا أَوْ بَعْضَهَا غَيْرُهُ لَأَصْبَحَ مُنْدَهِشًا أَوْ طَائِشَ العَقْلِ، وَلَكِنَّهُ ﷺ أَصْبَحَ سَاكِنًا، يَخْشَى إِنْ بَدَأَ فَأَخْبَرَ قَوْمَهُ بِمَا رَأَىٰ أَنْ يُبَادِرُوا إِلَىٰ تَكْذِيبِهِ، فَتَلَطَّفَ بِإِخْبَارِهِمْ أَوَّلًا بِأَنَّهُ جَاءَ بَيْتَ المَقْدِسِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ[2].

---

(١) انظر تفاصيل قصة الإسراء والمعراج في: صحيح البخاري ـ كتاب الصلاة ـ باب كيف فرضت الصلاة ـ رقم الحديث (٣٤٩) ـ كتاب الحج ـ باب ما جاء في زمزم ـ رقم الحديث (١٦٣٦) ـ وكتاب بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة عليهم السلام ـ رقم الحديث (٣٢٠٧). وكتاب أحاديث الأنبياء ـ باب ذكر إدريس عليه السلام ـ رقم الحديث (٣٣٤٢) وكتاب المناقب ـ باب حديث الإسراء ـ رقم الحديث (٣٨٨٦) ـ وكتاب المناقب ـ باب المعراج ـ رقم الحديث (٣٨٨٧) ـ (٣٨٨٨) وصحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برَسُول اللهِ ﷺ ـ رقم الحديث (١٦٢) ـ (١٦٣) ـ (١٦٤) ـ (١٦٥) ـ (١٦٦) ـ (١٦٧) ـ (١٧٢) ومسند الإمام أحمد ـ رقم الحديث (١٢٥٠٥) ـ (١٢٦٧٣) ـ (١٤٠٥٠) ـ (١٢٥٥٨) ـ (١٣٧٣٩) ـ (١٢٦٤١) وصحيح ابن حبان ـ كتاب الإسراء الأحاديث من (٤٥ ـ ٦٠) ـ السنن الكبرىٰ للنسائي ـ كتاب الصلاة ـ باب فرض الصلاة ـ رقم الحديث (٣٠٩) ـ (٣١٠) ـ (٣١١) السنن الصغرىٰ للنسائي ـ كتاب الصلاة ـ باب فرض الصلاة ـ رقم الحديث (٤٤٨) (٤٤٩) (٤٥٠) (٤٥١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٥٤) وما بعدها ـ البداية والنهاية (٣/١١٨ ـ ـ ١٢٨) ـ زاد المعاد (٣/٣٠ ـ ٣٨) ـ سيرة ابن هشام (٢/٩ ـ ٢١) الرَّوْض الأُنُف (٢/١٨٧) ـ تفسير ابن كثير ـ تفسير سورة الإسراء ـ تفسير الطبري ـ تفسير سورة الإسراء.

(٢) انظر البداية والنهاية (٣/١٢٣).

* **فَوَائِدُ قِصَّةِ الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ:**

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: وَفِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ مِنَ الفَوَائِدِ:

١ ـ أَنَّ لِلسَّمَاءِ أَبْوَابًا حَقِيقِيَّةً وَحَفَظَةً مُوَكَّلِينَ بِهَا.

٢ ـ وَفِيهِ إِثْبَاتُ الاِسْتِئْذَانِ.

٣ ـ وَفِيهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ يَسْتَأْذِنُ أَنْ يَقُولَ أَنَا فُلَانٌ، وَلَا يَقْتَصِرَ عَلَىٰ أَنَا لِأَنَّهُ يُنَافِي مَطْلُوبَ الاِسْتِفْهَامِ.

٤ ـ وأَنَّ المَارَّ يُسَلِّمُ عَلَىٰ القَاعِدِ، وَإِنْ كَانَ المَارُّ أَفْضَلَ مِنَ القَاعِدِ.

٥ ـ وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ تَلَقِّي أَهْلِ الفَضْلِ بِالبِشْرِ، والتَّرْحِيبِ، والثَّنَاءِ، وَالدُّعَاءِ.

٦ ـ وَفِيهِ جَوَازُ مَدْحِ الإِنْسَانِ المَأْمُونِ عَلَيْهِ الاِفْتِتَانُ فِي وَجْهِهِ.

٧ ـ وَفِيهِ جَوَازُ الاِسْتِنَادِ إِلَىٰ القِبْلَةِ بِالظَّهْرِ وَغَيْرِهِ، مَأْخُوذٌ مِنِ اسْتِنَادِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ إِلَىٰ البَيْتِ المَعْمُورِ، وَهُوَ كَالكَعْبَةِ فِي أَنَّهُ قِبْلَةٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

٨ ـ وَفِيهِ جَوَازُ نَسْخِ الحُكْمِ قَبْلَ وُقُوعِ الفِعْلِ.

٩ ـ وَفِيهِ فَضْلُ السَّيْرِ بِاللَّيْلِ عَلَىٰ السَّيْرِ بِالنَّهَارِ لِمَا وَقَعَ مِنَ الإِسْرَاءِ بِاللَّيْلِ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَكْثَرُ عِبَادَتِهِ ﷺ بِاللَّيْلِ، وَكَانَ أَكْثَرُ سَفَرِهِ ﷺ بِاللَّيْلِ، وَقَالَ ﷺ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ الذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ: «**عَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ**[1]، **فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَىٰ بِاللَّيْلِ**»[2].

---

(١) الدُّلجَةُ: هو السَّيرُ في الليل. انظر النهاية (٢/١٢٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٥٠٩١).

١٠ ـ وَفِيهِ أَنَّ التَّجْرِبَةَ أَقْوَىٰ فِي تَحْصِيلِ المَطْلُوبِ مِنَ المَعْرِفَةِ الكَثِيرَةِ، يُسْتَفَادُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ عَالَجَ النَّاسَ قَبْلَهُ وجَرَّبَهُمْ، ويُسْتَفَادُ مِنْهُ تَحْكِيمُ العَادَةِ، والتَّنْبِيهُ بِالْأَعْلَىٰ عَلَىٰ الأَدْنَىٰ لِأَنَّ مَنْ سَلَفَ مِنَ الأُمَمِ كَانُوا أَقْوَىٰ أَبْدَانًا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَقَدْ قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ فِي كَلَامِهِ أَنَّهُ عَالَجَهُمْ عَلَىٰ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ فَمَا وَافَقُوهُ، ويُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ مَقَامَ الخُلَّةِ مَقَامُ الرِّضَا والتَّسْلِيمِ، وَمَقَامُ التَّكْلِيمِ مَقَامُ الإِدْلَالِ والِانْبِسَاطِ، وَمِنْ ثَمَّ اسْتَبَدَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ بِطَلَبِ التَّخْفِيفِ دُونَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَعَ أَنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الاخْتِصَاصِ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ أَزْيَدُ مِمَّا لَهُ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ لِمَقَامِ الأُبُوَّةِ، وَرِفْعَةِ المَنْزِلَةِ، وَالاتِّبَاعِ فِي المِلَّةِ.

١١ ـ وَفِيهِ أَنَّ الجَنَّةَ وَالنَّارَ قَدْ خُلِقَتَا، لِقَوْلِهِ ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ والنَّارُ**»[١].

١٢ ـ وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ الإِكْثَارِ مِنْ سُؤَالِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَتَكْثِيرِ الشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ، لِمَا وَقَعَ مِنْهُ ﷺ فِي إِجَابَتِهِ مَشُورَةَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ فِي سُؤَالِ التَّخْفِيفِ.

١٣ ـ وَفِيهِ فَضِيلَةُ الاسْتِحْيَاءِ.

١٤ وَفِيهِ بَذْلُ النَّصِيحَةِ لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا، وَإِنْ لَمْ يُسْتَشَرِ النَّاصِحُ فِي ذَلِكَ[٢].

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٩٤).

(٢) انظر فتح الباري (٧/٦٢١).

مَوَاقِيتُ الصَّلَاةِ:

لَمَّا أَصْبَحَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ صَبِيحَةِ لَيْلَةِ الإِسْرَاءِ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ زَاغَتِ الشَّمْسُ، فَبَيَّنَ لَهُ كَيْفِيَّةَ الصَّلَاةِ، وَأَوْقَاتَهَا[1].

فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَنَادَىٰ بِأَصْحَابِهِ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ[2]، فَاجْتَمَعُوا، فَصَلَّىٰ بِهِ جِبْرِيلُ، وَصَلَّىٰ الرَّسُولُ ﷺ بِالنَّاسِ[3]، وسُمِّيَتْ تِلْكَ الصَّلَاةُ الظُّهْرَ لِأَنَّهَا أَوَّلُ صَلَاةٍ ظَهَرَتْ، أَوْ لِأَنَّهَا فُعِلَتْ عِنْدَ قِيَامِ الظَّهِيرَةِ[4].

رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ والحَاكِمُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: قُمْ فَصَلِّهْ، فَصَلَّىٰ الظُّهْرَ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ جَاءَهُ العَصْرُ، فَقَالَ: قُمْ فَصَلِّهْ، فَصَلَّىٰ العَصْرَ حِينَ صَارَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُهُ أَوْ قَالَ: صَارَ ظِلُّهُ مِثْلُهُ، ثُمَّ جَاءَهُ المَغْرِبَ، فَقَالَ: قُمْ فَصَلِّهْ، فَصَلَّىٰ حِينَ وَجَبَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ جَاءَهُ العِشَاءَ، فَقَالَ: قُمْ فَصَلِّهْ، فَصَلَّىٰ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ، ثُمَّ جَاءَهُ الفَجْرَ، فَقَالَ: قُمْ فَصَلِّهْ، فَصَلَّىٰ حِينَ بَرَقَ الفَجْرُ أَوْ قَالَ: حِينَ

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٢/١٨٤): وفي هذا رَدٌّ علىٰ من زَعَم أن بيان الأوقات إنما وقع بعد الهجرة، والحقُّ أن ذلك وقَعَ قبلها بِبَيَان جبريل عليه السلام، وبعدَها ببيانُ الرَّسول ﷺ.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٢/١٨٤): إنما دعَاهُم إلىٰ الصلاة بقوله: الصلاة جامِعَة؛ لأن الأذانَ لم يكُنْ شُرِعَ حينئذ.

(٣) قال الحافظ في الفتح (٢/١٨٤): واستدل بهذا الحديث علىٰ جوازِ الائْتِمَامِ بمَنْ يأتَمُّ بغيره، ويجابُ عنه بما يُجَابُ عن قِصَّة أبي بكر ؓ في صلاتِهِ خلفِ الرسول ﷺ، وصلاةُ الناسِ خلفِهِ، فإنه محمُولٌ علىٰ أنه مُبَلِّغٌ فَقَط.

(٤) انظر سيرة ابن هشام (١/٢٨٢).

سَطَعَ الفَجْرُ، ثُمَّ جَاءَهُ فِي الغَدِ لِلظُّهْرِ، فَقَالَ: قُمْ فَصَلِّهْ، فَصَلَّىٰ الظُّهْرَ حِينَ صَارَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُهُ، ثُمَّ جَاءَهُ لِلْعَصْرِ، فَقَالَ: قُمْ فَصَلِّهْ، فَصَلَّىٰ العَصْرَ حِينَ صَارَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَيْهِ، ثُمَّ جَاءَهُ لِلْمَغْرِبِ وَقْتًا وَاحِدًا لَمْ يَزَلْ عَنْهُ، ثُمَّ جَاءَ لِلْعِشَاءِ حِينَ ذَهَبَ نِصْفُ اللَّيْلِ أَوْ قَالَ: ثُلُثُ اللَّيْلِ فَصَلَّىٰ العِشَاءَ، ثُمَّ جَاءَهُ لِلْفَجْرِ حِينَ أَسْفَرَ جِدًّا فَقَالَ: قُمْ فَصَلِّهْ، فَصَلَّىٰ الفَجْرَ، ثُمَّ قَالَ: مَا بَيْنَ هَذَيْنِ وَقْتٌ[1].

۞ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ الرُّبَاعِيَّةُ رَكْعَتَانِ:

كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَمَا فُرِضَتْ عَلَىٰ رَسُول اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ رَكْعَتَيْنِ: الظُّهْرَ وَالعَصْرَ وَالعِشَاءَ وَالفَجْرَ، وَالمَغْرِبَ ثَلَاثًا، ثُمَّ هَاجَرَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَىٰ المَدِينَةِ فَفُرِضَتْ أَرْبَعًا، وَذَلِكَ بَعْدَ مَقْدَمِهِ ﷺ إِلَىٰ المَدِينَةِ، وتُرِكَتْ صَلَاةُ السَّفَرِ عَلَىٰ الأُولَىٰ.

رَوَىٰ الإِمَامُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ في صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: فَرَضَ اللهُ الصَّلَاةَ حِينَ فَرَضَهَا رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ[2] فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ[3].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٤٥٣٨) ـ والحاكم في المستدرك ـ كتاب الصلاة ـ باب وقت صلاة العشاء ـ رقم الحديث (٧٣٠).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٢/١١): كُرِّرَتْ لفظُ ركعتَيْنِ لتُفِيدُ عُمُومَ التَّثْنِيَةِ لكل صلاة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الصلاة ـ باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء ـ رقم الحديث (٣٥٠) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب صلاة المسافرين ـ باب صلاة المسافرين وقصرها ـ رقم الحديث (٦٨٥).

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَفُرِضَتْ أَرْبَعًا، وتُرِكَتْ صَلَاةُ السَّفَرِ عَلَىٰ الأُولَىٰ(١).

ورَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا افْتُرِضَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ: رَكْعَتَانِ رَكْعَتَانِ، إِلَّا المَغْرِبَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَتَمَّ اللهُ الظُّهْرَ وَالعَصْرَ وَالعِشَاءَ الآخِرَةَ أَرْبَعًا فِي الحَضَرِ، وَأَقَرَّ الصَّلَاةَ عَلَىٰ فَرْضِهَا الأَوَّلِ فِي السَّفَرِ(٢).

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: يُعَارِضُ حَدِيثُ عَائِشَةَ هَذَا حَدِيثَ ابنَ عَبَّاسٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، قَالَ: فَرَضَ اللهُ الصَّلَاةَ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّكُمْ فِي الحَضَرِ أَرْبعًا، وفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ(٣)، والذِي يَظْهَرُ لِي وَبِهِ تَجْتَمِعُ الأَدِلَّةُ أَنَّ الصَّلَوَاتِ فُرِضَتْ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، إِلَّا المَغْرِبَ، ثُمَّ زِيدَتْ بَعْدَ الهِجْرَةِ إِلَّا الصُّبْحَ، كَمَا رَوَىٰ ذَلِكَ ابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: فُرِضَتْ صَلَاةُ الحَضَرِ والسَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، فَلَمَّا قَدِمَ الرَّسُولُ ﷺ المَدِينَةَ وَاطْمَأَنَّ زِيدَ فِي صَلَاةِ الحَضَرِ رَكْعَتَانِ رَكْعَتَانِ، وتُرِكَتْ صَلَاةُ الفَجْرِ لِطُولِ

---

(١) أخرجه البخاري ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب التاريخ ـ رقم الحديث (٣٩٣٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٣٦٣٣٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ـ باب صلاة المسافرين وقصرها ـ رقم الحديث (٦٨٧).

القِرَاءَةِ، وَصَلَاةُ المَغْرِبِ؛ لِأَنَّهَا وِتْرُ النَّهَارِ[١].

ثُمَّ بَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ فَرْضُ الرُّبَاعِيَّةِ خُفِّفَ مِنْهَا فِي السَّفَرِ عِنْدَ نُزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾[٢]. فَعَلَىٰ هَذَا: المُرَادُ بِقَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ، أَيْ بِاعْتِبَارِ مَا آلَ إِلَيْهِ الأَمْرُ مِنَ التَّخْفِيفِ، لَا أَنَّهَا اسْتَمَرَّتْ مُنْذُ فُرِضَتْ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ القَصْرَ عَزِيمَةٌ[٣].

۞ الصَّلَاةُ كَانَتْ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ:

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَيَجْعَلُ الكَعْبَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ بَيْتِ المَقْدِسِ، حَتَّىٰ هَاجَرَ وَنَزَلَ الوَحْيُ بِتَحْوِيلِ القِبْلَةِ ـ كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ ـ.

رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ بِمَكَّةَ نَحْوَ بَيْتِ المَقْدِسِ، والكَعْبَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَبَعْدَمَا هَاجَرَ إِلَىٰ المَدِينَةِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ صُرِفَ إِلَىٰ الكَعْبَةِ[٤].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب الصلاة ـ باب فصل في صلاة السفر ـ رقم الحديث (٢٧٣٨).

(٢) سورة النساء آية (١٠١).

(٣) انظر فتح الباري (٢/١١ ـ ١٢).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٩٩١).

انْشِقَاقُ القَمَرِ

قَالَ القَاضِي عِيَاضٌ: انْشِقَاقُ القَمَرِ مِنْ أُمَّهَاتِ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا ﷺ، وَقَدْ رَوَاهَا عِدَّةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ مَعَ ظَاهِرِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ وسِيَاقِهَا[1].

وقَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ: أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَىٰ وُقُوعِ ذَلِكَ فِي زَمَانِهِ ﷺ، وَجَاءَتْ بِذَلِكَ الأَحَادِيثُ المُتَوَاتِرَةُ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ تُفِيدُ القَطْعَ عِنْدَ مَنْ أحَاطَ بِهَا، ونَظَرَ فِيهَا[2].

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ القَمَرَ شِقَّتَيْنِ، حَتَّىٰ رَأَوْا حِرَاءَ[3] بَيْنَهُمَا[4].

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/١١٩).

(٢) انظر البداية والنهاية (٣/١٢٩).

(٣) حِراء: جبلٌ معروف بمكة. انظر النهاية (١/٣٦٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب انشقاق القمر ـ رقم الحديث (٣٨٦٨) ـ وأخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ باب انشقاق القمر ـ رقم الحديث (٢٨٠٢).

وَرَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: انْشَقَّ القَمَرُ ونَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمِنًىٰ(١) فَقَالَ: «اشْهَدُوا»(٢)، وَذَهَبَتْ فِرْقَةٌ نَحْوَ الجَبَلِ(٣).

ورَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ والإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَاللَّفْظُ لِأَحْمَدَ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ آيَةً، فَانْشَقَّ القَمَرُ بِمَكَّةَ مَرَّتَيْنِ(٤)، فَقَالَ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً(٥) يُعْرِضُوا۟(٦) وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾(٧).

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/٥٧٩): وهذا يُعارِضُ قول أنس ﷺ أن ذلك كان بمكة، لأنه لم يُصَرِّح بأن النبي ﷺ كان لَيْلَتَئِذٍ بمكة، وعلىٰ تقدير تصريحِهِ، فمِنَىٰ من جُملَةِ مَكة فلا تَعَارض.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/٥٧٩): أي اضبِطُوا هذا القَدْر بالمُشَاهدة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب انشقاق القمر ـ رقم الحديث (٣٨٦٩) ـ وأخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ باب انشقاق القمر ـ رقم الحديث (٢٨٠٠).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٧/٥٧٨): وقد خَفِيَ علىٰ بعضِ الناس، فادَّعىٰ أن انشقاقَ القمر وقعَ مرتين، وهذا مما يَعلم أهل الحديث والسِّيَر أنه غَلَط، فإنه لم يَقَعْ إلا مرَّةً واحدة.
وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/١٣٢): وقوله مرتين: فيهِ نظر، والظاهر أنه أرادَ فِرْقَتَيْنِ، والله أعلم.

(٥) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/٤٧٥): أي دَلِيلًا وحُجَّةً وبُرْهانًا.

(٦) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/٤٧٥): أي لا يَنْقَادُونَ له، بل يُعرِضُونَ عنه ويتركُونهُ وراءَ ظُهُورهم.

(٧) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/٤٧٥): أي يقولونَ هذا الذي شَاهدنَاهُ من الحُجَجِ=

وَرَوَىٰ الطَّحَاوِيُّ فِي شَرْحِ مُشْكِلِ الآثَارِ، والطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ البُخَارِيِّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: انْشَقَّ القَمَرُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: هَذَا سِحْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ(١)، وقَالُوا: انْتَظِرُوا مَا يَأْتِيكُمْ بِهِ السُّفَّارُ(٢)، فَإِنَّ مُحَمَّدًا لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ، فَجَاءَ السُّفَّارُ، فَقَالُوا: ذَاكَ(٣).

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وَقَدْ شُوهِدَ ذَلِكَ - أَي انْشِقَاقُ القَمَرِ - فِي كَثِيرٍ مِنْ بِقَاعِ الأَرْضِ، ويُقَالُ أَنَّهُ أُرِّخَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ بِلَادِ الهِنْدِ(٤).

وقَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ وَقَعَ انْشِقَاقُ القَمَرِ لَجَاءَ مُتَوَاتِرًا واشْتَرَكَ أَهْلُ الأَرْضِ فِي مَعْرِفَتِهِ ولَمَا اخْتُصَّ بِهَا أَهْلُ مَكَّةَ.

وَجَوَابُهُ: أَنَّ ذَلِكَ وقَعَ لَيْلًا، وَأَكْثَرُ النَّاسِ نِيَامٌ، وَالأَبْوَابُ مُغْلَقَةٌ، وَقَلَّ مَنْ يَرْصُدُ السَّمَاءَ إِلَّا النَّادِرُ، وَقَدْ يَقَعُ بِالمُشَاهَدَةِ فِي العَادَةِ أَنْ يَنْكَسِفَ القَمَرُ،

= سِحْرٌ سَحَرَنا به.

والحديث أخرجه مسلم في صحيحه - صفات المنافقين وأحكامهم - باب انشقاق القمر - رقم الحديث (٢٨٠٢) وأخرجه أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٢٦٨٨).

(١) قال الحافظ في الفتح (٥٨/١): وابن أبي كَبْشَةَ أرادُوا به رَسُول اللهِ ﷺ، وأبو كَبْشَةَ هو الحارثُ بن عَبْدِ العُزَّىٰ والد الرسول ﷺ من الرضاعة، زوجُ حَلِيمَةَ السعدية.

(٢) السُّفَّار: أي المُسَافرون. انظر النهاية (٣٣٥/٢).

(٣) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار - رقم الحديث (٦٩٧) - والطيالسي في مسنده - رقم الحديث (٢٩٣).

(٤) انظر البداية والنهاية (١٣١/٣).

وتَبْدُو الكَوَاكِبُ العِظَامُ وغَيْرُ ذَلِكَ فِي اللَّيْلِ، وَلَا يُشَاهِدُهَا إِلَّا الآحَادُ، فَكَذَلِكَ الِانْشِقَاقُ كَانَ آيَةً وَقَعَتْ فِي اللَّيْلِ لِقَوْمٍ سَأَلُوا، وَاقْتَرَحُوا فَلَمْ يَتَأَهَّبْ غَيْرُهُمْ لَهَا، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ القَمَرُ لَيْلَتَئِذٍ كَانَ فِي بَعْضِ المَنَازِلِ التِي يَظْهَرُ لِبَعْضِ أَهْلِ الآفَاقِ دُونَ بَعْضٍ كمَا يَظْهَرُ الكُسُوفُ لِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ(١).

وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا طَلَبُوا ذَلِكَ اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا.

** ** **

(١) انظر فتح الباري (٧/٥٨٠).

عَرْضُ الرَّسُولِ ﷺ نَفْسَهُ الشَّرِيفَةَ عَلَى القَبَائِلِ وَالأَفْرَادِ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ في السَّنَةِ العَاشِرَةِ لِلْبِعْثَةِ، في جِوَارِ المُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ، ـ وَذَلِكَ عِنْدَمَا رَجَعَ مِنَ الطَّائِفِ ـ وَقَوْمُهُ أَشَدُّ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خِلَافِهِ وَفِرَاقِ دِينِهِ، وَكَانَ مَوْسِمُ الحَجِّ في ذَلِكَ العَامِ قَد اقْتَرَبَ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَهَيَّأُ لِدَعْوَةِ قَبَائِلِ العَرَبِ إِلَى الإِسْلَامِ، كَمَا كَانَ شَأْنُهُ كُلَّ عَامٍ مُنْذُ أَنْ جهَرَ بالدَّعْوَةِ في السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِلْبِعْثَةِ، وَاسْتَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ الأَمْرِ حَتَّى آخِرِ مَوْسِمٍ لِلْحَجِّ قَبْلَ هِجْرَتِهِ ﷺ إلى المدِينَةِ، فَكَانَ كُلَّمَا اجْتَمَعَ لَهُ النَّاسُ بالمَوْسِمِ أَتَاهُمْ يَدْعُو القَبَائِلَ إِلَى اللهِ وَإِلَى الإِسْلَامِ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللهِ مِنَ الهُدَى وَالرَّحْمَةِ، وَيَسْأَلُهُمْ أَنْ يُصَدِّقُوهُ، وَيَمْنَعُوهُ حَتَّى يُبَيِّنَ مَا بَعَثَهُ اللهُ بِهِ[1].

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشَرَ سِنِينَ يَتَتَبَّعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ[2]،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢/٣٥).

(٢) عُكَاظٌ: هو مَوْضِعٌ بِقُرْبِ مكةَ، كَانَتْ تُقامُ بِهِ في الجَاهِلِيّةِ سُوقٌ يُقيمونَ فيهِ أيّامًا. انظر النهاية (٣/٢٥٧).

وَمِجَنَّةٍ[(١)]، وَفِي المَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الجَنَّةُ»، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ اليَمَنِ أَوْ مِنْ مِصْرَ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ، فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ[(٢)].

وَرَوَى أَبُو دَاودَ وابنُ مَاجَه وَالتِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ جَابِرِ بن عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي المَوْقِفِ[(٣)]، فَيَقُولُ: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي»[(٤)].

۞ شِدَّةُ عَدَاوَةِ أَبِي لَهَبٍ لِلإِسْلَامِ:

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كُلَّمَا مَرَّ عَلَى قَوْمٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ، وَإِلَى الإِسْلَامِ تَبِعَهُ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ وَرَاءَهُ يَرْمِيهِ بِالحِجَارَةِ.

فَقَدْ أَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ رَبِيْعَةَ بنِ عِبَادٍ الدَّيْلِيِّ ﷺ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوْقِ ذِي

---

(١) مِجَنَّة: هو مَوْضِعٌ بأسْفَلِ مكةَ على أميالٍ، وكانَ يُقامُ بها للعربِ سُوقًا. انظر النهاية (٢٥٧/٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٤٤٥٦).

(٣) المَوْقِفُ: أي المَوْسم، مَوسم الحج. انظر تحفة الأحوذي (٢٤٢/٨).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه ـ كتاب السنة ـ باب في القرآن ـ رقم الحديث (٤٧٣٤)، وابن ماجه في المقدمة ـ باب فيما أنكرت الجهمية ـ رقم الحديث (٢٠١)، وأخرجه الترمذي في جامعه ـ كتاب فضائل القرآن ـ باب رقم (٢٥) ـ رقم الحديث (٣١٥٢).

المَجَازِ[١] يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا»، وَيَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا[٢]، وَالنَّاسُ مُتَقَصِّفُونَ[٣] عَلَيْهِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَقُولُ شَيْئًا، وَهُوَ لَا يَسْكُتُ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا»، إِلَّا أَنَّ وَرَاءَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ[٤] وَضِيءُ الوَجْهِ ذَا غَدِيرَتَيْنِ[٥] يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ[٦]. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ وَهُوَ يَذْكُرُ النُّبُوَةَ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا الذِي يُكَذِّبُهُ؟ قَالُوا: عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ[٧].

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي المُسْنَدِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، قَالَ: وَإِذَا رَجُلٌ خَلْفَهُ يَحْثِي[٨] عَلَيْهِ التُّرَابَ، فَإِذَا هُوَ أَبُو جَهْلٍ[٩].

---

(١) ذُو المَجَازِ: موضعُ سُوقٍ لمكة في الجاهلية بِعَرَفة على فَرْسَخٍ منها، كانت تُقَام إذا أَهَلَّ هِلالُ ذي الحجة، وتستَمِرُّ إلى يومِ التَّروِيَةِ، وهو يوم الثامن من ذي الحجة. معجم البلدان (٧/٢٠٧).

وفي رواية أخرى عند الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٦٠٢٤) قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يَطُوف على الناس بِمِنَى.

(٢) الفِجَاجُ: جمعُ فَجٍّ، وهو الطريقُ الوَاسِع. انظر النهاية (٣/٣٧٠).

(٣) قال السندي في شرح المسند (٩/١٧٦): مُتَقَصِّفُونَ: مُجْتمعون عليه.

(٤) قال السندي في شرح المسند (٩/١٧٦): الحَوَلُ: هو عَيْبٌ في العين مَعروف.

(٥) غَدِيرَتَيْنِ: هي الذَّوَائِبُ، واحدَتُهَا غَدِيرَةٌ. انظر النهاية (٣/٣١٠).

(٦) في رواية ابن حبان في صحيحه قال: ورجلٌ يَتْبَعُهُ يَرْمِيه بالحجارة، وقد أدْمَى عُرْقُوبَيْهِ وكَعْبَيْهِ.

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٦٠٢٣) ـ وأخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب ذكر مقاساة المصطفى ﷺ ما كان يقاسي من قومه ـ رقم الحديث (٦٥٦٢).

(٨) حَثَا: رَمَى. انظر النهاية (١/٣٢٧).

(٩) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٦٦٠٣) ـ (٢٣١٥١).

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ: كَذَا قَالَ فِي هَذَا السِّيَاقِ: أَبُو جَهْلٍ، وَقَدْ يَكُونُ وَهْمًا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَارَةً يَكُونُ ذَا، وَتَارَةً يَكُونُ ذَا، وَأَنَّهُمَا كَانَا يَتَنَاوَبَانِ عَلَى إِيْذَائِهِ ﷺ(١).

۞ القَبَائِلُ التِي عَرَضَ عَلَيْهَا الرَّسُولُ ﷺ الإِسْلَامَ:

قَالَ ابنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ: فَكَانَ مَنْ سَمَّى لَنَا مِنَ القَبَائِلِ الذِيْنَ أَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَنُو عَامِرِ بنِ صَعْصَعَةَ، وَمُحَارِبِ بنِ خَصْفَةَ، وَبَنُو فِزَارَةَ، وَغَسَّانٍ، وَبَنُو مُرَّةَ، وَبَنُو حَنِيفَةَ، وَبَنُو سُلَيْمٍ، وَبَنُو عَبْسٍ، وَبَنُو نَصْرٍ مِنْ هَوَازِنَ، وَبَنُو البُكَاءِ، وَكِنْدَةٍ، وَكَلْبٍ، وَبَنُو الحَارِثِ بنِ كَعْبٍ، وَبَنُو عُذْرَةَ، وَهَمَدَانَ، وَثَقِيفٍ(٢).

١ ـ قَبِيلَةُ هَمَدَانَ:

رَوَى الإِمَامَ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِ البُخَارِيِّ عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ بِالمَوْقِفِ، فَيَقُولُ: **«هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؟، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي»**.

فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنْ هَمَدَانَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مِمَّنْ أَنْتَ؟»**.

---

(١) انظر البداية والنهاية (٣/١٥١).

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد (١/١٠٤) ـ ودلائل النبوة لأبي نعيم (١/٢٩٣).

قَالَ: مِنْ هَمَدَانَ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَهَلْ عِنْدَ قَوْمِكَ مِنْ مَنَعَةٍ؟**».

قَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَشِيَ أَنْ يُخْفِرَهُ[1] قَوْمُهُ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: آتِيهِمْ فَأُخْبِرُهُمْ، ثُمَّ آتِيكَ مِنْ عَامٍ قَابِلٍ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَمْ**»، فَانْطَلَقَ، وَجَاءَ وَفْدُ الأَنْصَارِ فِي رَجَبَ[2].

٢ - قَبِيلَةُ بَنِي عَامِرِ بنِ صَعْصَعَةَ:

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى بَنِي عَامِرِ بنِ صَعْصَعَةَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: بَيْحَرَةُ بنُ فِرَاسٍ: وَاللهِ لَوْ أَنِّي أَخَذْتُ هَذَا الفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ لأَكَلْتُ بِهِ العَرَبَ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَرَأَيْتَ إِنْ نَحْنُ تَابَعْنَاكَ عَلَى أَمْرِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ، أَيَكُونُ لَنَا الأَمْرُ مِنْ بَعْدِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الأَمْرُ إِلَى اللهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**».

فَقَالَ لَهُ بَيْحَرَةُ بنُ فِرَاسٍ: أَفَنُهْدِفُ نُحُورَنَا[3] لِلْعَرَبِ دُونَكَ، فَإِذَا أَظْهَرَكَ اللهُ كَانَ الأَمْرُ لِغَيْرِنَا؟ لَا حَاجَةَ لَنَا بِأَمْرِكَ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ.

---

(١) أَخْفَرْتَ الرَّجُلَ: إِذَا نَقَضْتَ عَهْدَهُ. انظر النهاية (٢/٥٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥١٩٢).

(٣) أيْ: نجعلها هَدَفًا لِسِهَامِهِم. انظر الروض الأنف (٢/٢٣٧).

فَلَمَّا صَدَرَ[1] النَّاسُ رَجَعَتْ بَنُو عَامِرٍ إِلَى شَيْخٍ لَهُمْ، قَدْ كَانَتْ أَدْرَكَتْهُ السِّنُّ، حَتَى لَا يَقْدِرَ أَنْ يُوَافِيَ مَعَهُمُ المَوَاسِمَ، فَكَانُوا إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِ حَدَّثُوهُ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ المَوْسِمِ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ العَامَ سَأَلَهُمْ عَمَّا كَانَ فِي مَوْسِمِهِمْ، فَقَالُوا: جَاءَنَا فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، يَدْعُونَا إِلَى أَنْ نَمْنَعَهُ، وَنَقُومَ مَعَهُ، وَنَخْرُجَ بِهِ إِلَى بِلَادِنَا.

فَوَضَعَ الشَّيْخُ يَدَيْهِ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا بَنِي عَامِرٍ! هَلْ لَهَا مِنْ تَلَافٍ؟ هَلْ لِذُنَابَاهَا مِنْ مَطْلَبٍ[2]؟ وَالذِي نَفْسُ فُلَانٍ بِيَدِهِ، مَا تَقَوَّلَهَا إِسْمَاعِيلِيٌّ[3] قَطُّ، وَإِنَّهَا لَحَقٌّ، فَأَيْنَ رَأْيُكُمْ كَانَ عَنْكُمْ[4].

قَالَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ أَبُو شَهْبَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: وَفِي هَذِهِ القِصَّةِ دِلَالَةٌ قَوِيَّةٌ عَلَى صِدْقِهِ ﷺ، فَلَوْ كَانَ طَالِبَ مُلْكٍ، أَوْ جَاهٍ، أَوْ يَتَّجِرُ بِالمَبَادِئِ يَصْنَعُ كَمَا يَصْنَعُ دِهَاقِينُ[5] السِّيَاسَةِ فِي القَدِيمِ، وَالحَدِيثِ مِن اسْتِمَالَةِ النَّاسِ بِالأَحَادِيثِ الكَاذِبَةِ، وَالوُعُودِ الخَادِعَةِ البَرَّاقَةِ، وَيُمَنِّيهِم الأَمَانِي الفَارِغَةَ حَتَّى إِذَا تَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ نَسِيَ مَا قَالَ، وَرَجَعَ فِي وُعُودِهِ، بَلْ قَدْ يَتَنَكَّرُ لَهُمْ، وَيُسَفِّهُ عَلَيْهِمْ، وَيُنَكِّلُ

---

(١) الصَّدَرُ: بالتحريك هو رُجوعُ المُسَافِرِ من مَقْصِدِهِ. انظر النهاية (٣/١٥).

(٢) هذا مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَا فَاتَ، وَأَصْلُهُ مِنْ ذُنَابَى الطَّائِرِ، وهو مَنْبَتُ ذَنَبِ الطَّائِرِ، إذا أُفْلِتَ مِن الحِبَالَةِ، فَطَلَبْتَ الأَخْذَ بِذُنَابَاهُ. انظر الروض الأنف (٢/٢٣٧) - النهاية (٢/١٥٧).

(٣) أي: ما ادَّعَى النُّبُوَّةَ كَاذبًا أَحَدٌ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ. انظر الروض الأنف (٢/٢٣٧).

(٤) انظر سيرة ابن هشام (٢/٣٨).

(٥) الدِّهْقَانُ: هو القَوِيُّ عَلَى التَّصَرُّفِ مَعَ حِدَّةٍ. انظر لسان العرب (٤/٤٢٩).

بِهِمْ، وَهَذَا فَرْقُ مَا بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَغَيْرِهَا، وَمَا بَيْنَ الدَّاعِي إِلَى الحَقِّ وَطَالِبِ الدُّنْيَا[1].

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ عَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرِنِي الخَاتَمَ الذِي بَيْنَ كَتِفَيْكَ[2]، فَإِنِّي مِنْ أَطَبِّ النَّاسِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا أُرِيكَ آيَةً؟**» قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَنَظَرَ إِلَى نَخْلَةٍ، فَقَالَ ﷺ: «**ادْعُ ذَلِكَ العَذْقَ**»[3]. قَالَ: فَدَعَاهُ، فَجَاءَ يَنْقُزُ[4] حَتَّى قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ارْجِعْ**». فَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ، فَقَالَ العَامِرِيُّ: يَا آلَ بَنِي عَامِرٍ، مَا رَأَيْتُ كَاليَوْمِ رَجُلًا أَسْحَرَ[5].

٣ ـ قَبِيلَةُ كِنْدَةَ:

رَوَى أَبُو نُعَيْمٍ فِي دَلَائِلِهِ عَنْ أُمِّ رُومَانَ وَعَبْدِ اللهِ بنِ أَبِي بَكْرٍ وَغَيْرِهِمَا قَالُوا: جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كِنْدَةَ فِي مَنَازِلِهِم بِعُكَاظٍ، فَلَمْ يَأْتِ حَيًّا مِنَ العَرَبِ كَانَ أَلْيَنَ مِنْهُمْ، فَلَمَّا رَأَى لِينَهُمْ، وَقُوَّةَ جَبْهِهِمْ[6] لَهُ، جَعَلَ يُكَلِّمُهُمْ وَيَقُولُ:

---

(١) انظر السيرة النبوية (١/٤٣٠) للدكتور محمد أبو شهبة رحمه الله.

(٢) الخاتَمُ: هو خَاتَمُ النُّبُوَّةِ الذي بَيْنَ كَتِفَي النَّبِي ﷺ ـ وقد فصَّلتُ ذلك فيما تقدم، فَرَاجِعه ـ.

(٣) العَذْقُ: بفتح العين هو النَّخْلَةُ. انظر النهاية (٣/١٨١).

(٤) نَقَزَ: أي وَثَبَ. انظر النهاية (٥/٩٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٩٥٤) ـ وابن حبان في صحيحه ـ كتاب التاريخ ـ باب المعجزات ـ رقم الحديث (٦٥٢٣).

(٦) جَبْهُهُمْ: أي اسْتِقْبَالُهُم. انظر لسان العرب (٢/١٧٣).

«أَدْعُوكُمْ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ فَإِنْ أَظْهَرْ فَأَنْتُمْ بِالخِيَارِ»، فَقَالَ عَامَّتُهُمْ: مَا أَحْسَنَ هَذَا القَوْلَ، وَلَكِنَّا نَعْبُدُ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَقَالَ أَصْغَرُ القَوْمِ: يَا قَوْمُ! اسْبِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ قَبْلَ أَنْ تُسْبَقُوا إِلَيْهِ، فَوَاللهِ إِنَّ أَهْلَ الكِتَابِ لَيُحَدِّثُونَ أَنَّ نَبِيًّا يَخْرُجُ مِنَ الحَرَمِ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ، وَكَانَ فِي القَوْمِ إِنْسَانٌ أَعْوَرُ، فَقَالَ: أَمْسِكُوا عَلَيَّ، أَخْرَجَتْهُ عَشِيرَتُهُ وَتُؤْوُونَهُ أَنْتُمْ؟ تَحْمِلُونَ حَرْبَ العَرَبِ قَاطِبَةً، لَا، ثُمَّ لَا، فَانْصَرَفَ عَنْهُمْ حَزِينًا، فَانْصَرَفَ القَوْمُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَخَبَّرُوهُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ: وَاللهِ إِنَّكُمْ مُخْطِئُونَ بِخَطَئِكُمْ لَوْ سَبَقْتُمْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ لَسُدْتُمُ العَرَبَ، وَنَحْنُ نَجِدُ صِفَتَهُ فِي كِتَابِنَا، فَوَصَفَهُ لِلْقَوْمِ الذِينَ رَأَوْهُ، كُلُّ ذَلِكَ يُصَدِّقُونَهُ بِمَا يَصِفُ مِنْ صِفَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: نَجِدُ مَخْرَجَهُ بِمَكَّةَ، وَدَارَ هِجْرَتِهِ يَثْرِبَ، فَأَجْمَعَ القَوْمُ لِيُوَافُوهُ فِي المَوْسِمِ القَادِمِ، فَحَبَسَهُمْ سَيِّدٌ لَهُمْ عَنْ تِلْكَ السَّنَةِ، فَلَمْ يُوَافِ أَحَدٌ مِنْهُمْ(١).

٤ ـ قَبِيْلَةُ بَنِي حَنِيفَةَ:

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى بَنِي حَنِيفَةَ فِي مَنَازِلِهِمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ العَرَبِ أَقْبَحَ عَلَيْهِ رَدًّا مِنْهُمْ(٢).

---

(١) انظر دلائل النبوة لأبي نعيم (١/٢٩٧).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/٣٧).

٥ ـ قَبِيلَةُ عَبْسٍ:

رَوَى أَبُو نُعَيْمٍ فِي الدَّلَائِلِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ وَابِصَةَ العَبْسِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: جَاءَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَنَازِلِنَا بِمِنًى، وَنَحْنُ نَازِلُونَ بِالجَمْرَةِ الأَوْلَى التِي تَلِي مَسْجِدَ الخَيْفِ، وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، مُرْدِفًا خَلْفَهُ زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ، فَدَعَانَا، فَوَاللهِ مَا اسْتَجَبْنَا لَهُ، وَلَا خَيْرَ لَنَا، قَالَ: وَقَدْ كُنَّا سَمِعْنَا بِهِ وَبِدُعَائِهِ فِي المَوْسِمِ، فَوَقَفَ عَلَيْنَا يَدْعُونَا، فَلَمْ نَسْتَجِبْ لَهُ، وَكَانَ مَعَنَا مَيْسَرَةُ بنُ مَسْرُوقٍ العَبْسِيُّ، فَقَالَ: أَحْلِفُ بِاللهِ لَوْ صَدَّقْنَا هَذَا الرَّجُلَ وَحَمَلْنَاهُ حَتَّى نَحُلَّ بِهِ وَسَطَ رِحَالِنَا لَكَانَ الرَّأْيُ، فَأَحْلِفُ بِاللهِ لَيَظْهَرَنَّ أَمْرُهُ حَتَّى يَبْلُغَ كُلَّ مَبْلَغٍ، فَقَالَ لَهُ القَوْمُ: دَعْنَا عَنْكَ لَا تُعَرِّضْنَا لِمَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ، فَطَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَيْسَرَةَ، فَكَلَّمَهُ، فَقَالَ مَيْسَرَةُ: مَا أَحْسَنَ كَلَامَكَ وَأَنْوَرَهُ، وَلَكِنَّ قَوْمِي يُخَالِفُونَنِي، وَإِنَّمَا الرَّجُلُ بِقَوْمِهِ، فَإِنْ لَمْ يَعْضُدُوهُ(١) فَالعِدَا أَبْعَدُ، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَخَرَجَ القَوْمُ صَادِرِينَ(٢) إِلَى أَهْلِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ مَيْسَرَةُ: مِيلُوا بِنَا إِلَى فَدَكَ(٣)، فَإِنَّ بِهَا يَهُودًا، نَسْأَلُهُمْ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَمَالُوا إِلَى يَهُودٍ، فَأَخْرَجُوا سِفْرًا(٤) لَهُمْ، فَوَضَعُوهُ، ثُمَّ

---

(١) يَعْضُدُ فلان: أي يُعِينُهُ. انظر لسان العرب (٩/٢٥٣).

(٢) الصَّدَرُ: بالتحريك رجوع المسافر من مقصده. انظر النهاية (٣/١٥).

(٣) فَدَكٌ: هي قريةٌ بالحِجَازِ، بينها وبينَ المَدِينَةِ يومَانِ، وقيل: ثلاثةٌ، أفاءَهَا اللهُ على رسوله ﷺ في سنةَ سبعٍ من الهِجرةِ صُلْحًا، فكانت خَالِصَةً لرسولِ الله ﷺ، وفيها عينٌ فَوَّارَةٌ ونَخِيلٌ كثير. انظر معجم البلدان (٦/٤١٧).

(٤) السِفْرُ: بكسر السِّين: هو الكتاب. انظر لسان العرب (٦/٢٧٩). =

دَرَسُوا ذِكْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ النَّبِيِّ الأمِّيِّ العَرَبِيِّ، يَرْكَبُ الجَمَلَ، وَيَجْتَزِئُ بِالكِسْرَةِ، وَلَيْسَ بِالطَّوِيلِ ولَا بِالقَصِيرِ، وَلَا بِالجَعْدِ[1] وَلَا بِالسَّبِطِ[2]، فِي عَيْنَيْهِ حُمْرَةٌ، مُشْرَبُ[3] اللَّوْنِ، فَإِنْ كَانَ هُوَ الذِي دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَادْخُلُوا فِي دِينِهِ، فَإِنَّا نَحْسُدُهُ فَلَا نَتَّبِعُهُ، وَلَنَا مِنْهُ فِي مَوَاطِنَ بَلَاءٌ عَظِيمٌ، وَلَا يَبْقَى أَحَدٌ مِن العَرَبِ إِلَّا اتَّبَعَهُ أَوْ قَاتَلَهُ، فكُونُوا مِمَّنْ يَتَّبِعُهُ، فَقَالَ مَيْسَرَةُ: يَا قَوْمُ! إِنَّ هَذَا الأَمْرَ بَيِّنٌ، فَقَالَ القَوْمُ: نَرْجِعُ إِلَى المَوْسِمِ فنَلْقَاهُ، فَرَجَعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ، وَأَبَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ رِجَالُهُمْ، فَلَمْ يَتْبَعْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِيْنَةَ، وَحَجَّ حَجَّةَ الوَدَاعِ، لَقِيَهُ مَيْسَرَةُ، فعَرَفَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا زِلْتُ حَرِيصًا عَلَى اتِّبَاعِكَ مِنْ يَوْمِ أَنَخْتَ بِنَا، حَتَّى كَانَ مَا كَانَ، وَأَبَى اللهُ إِلَّا مَا تَرَى مِنْ تَأْخِيرِ إِسْلَامِي، فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الذِي اسْتَنْقَذَنِي بِكَ مِن النَّارِ[4].

= ومنه قوله تعالى في سورة الجمعة آية (٥): ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ...﴾.

(١) جَعْدُ الشَّعْرِ: هو ضِدُّ السَّبِطِ. انظر النهاية (١/٢٦٦).

(٢) السَّبِطُ مِنَ الشَّعْرِ: المُنْبَسِطُ المُسْتَرْسِلُ، أي كانَ شَعْرُهُ ﷺ وسَطًا بينَهُمَا. انظر النهاية (٢/٣٠١).

(٣) الإِشْرَابُ: هو خَلْطُ لونٍ بِلَونٍ، كأنَّ أحدَ اللَّوْنَيْنِ سُقِيَ اللونَ الآخَرَ. انظر النهاية (٢/٤٠٧).
روى ابن حبان في صحيحه بسند صحيح - كتاب التاريخ - باب صفة الرسول ﷺ - رقم الحديث (٦٣١١) عن علي بن أبي طالب ؓ أنه كان إذا وصف النبي ﷺ قال: كان عظيم الهامة، أبيض، مشربًا حُمْرةً.

(٤) انظر دلائل النبوة لأبي نعيم (١/٢٩٣) - أسد الغابة (٤/٢٠٦) - البداية والنهاية (٣/١٥٧).

٦ ـ قَبِيلَةُ كَلْبٍ:

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى كَلْبًا فِي مَنَازِلِهِمْ إِلَى بَطْنٍ مِنْهُمْ، يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو عَبْدِ اللهِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ لَهُمْ: «**يَا بَنِي عَبْدِ اللهِ! إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ أَحْسَنَ اسْمَ أَبِيكُمْ**»، فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ[١].

٧ ـ قَبِيلَةُ بَنِي شَيْبَانَ:

مِمَّنْ عَرَضَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَفْسَهُ جَمَاعَةً مِنْ بَنِي شَيْبَانَ، فِيهِمْ مَفْرُوقُ بنُ عَمْرٍو، وَهَانِئُ بنُ قَبِيصَةَ، وَالمُثَنَّى بنُ حَارِثَةَ، وَالنُّعْمَانُ بنُ شَرِيكٍ، فَدَعَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الإِسْلَامِ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَاسْتَحْسَنُوا قَوْلَهُ وَأَعْجَبَهُمْ مَا يَدْعُوا إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُمُ اعْتَذَرُوا عَنْ نُصْرَتِهِ لِكَوْنِ كِسْرَى، قَدْ أَخَذَ عَلَيْهِمْ عَهْدًا أَلَا يُحْدِثُوا حَدَثًا[٢] وَلَا يُؤْوُوا مُحْدِثًا[٣]، وَكَانَتْ أَرْضُهُمْ مِمَّا يَلِي بِلَادَ فَارِسٍ[٤].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢/٣٧) ـ البداية والنهاية (٣/١٥١).

(٢) الحَدَثُ: الأَمْرُ الحَادِثُ المُنْكَرُ الذِي لَيْسَ بِمُعْتَادٍ، وَلا مَعْرُوفٍ. انظر النهاية (١/٣٣٨).

(٣) المُحْدِث: يُرْوَى بِكَسْرِ الدَّالِ وفَتْحِهَا ـ فَمَعْنَى الكَسْرِ: مَنْ نَصَرَ جَانِيًا أو آواهُ مِنْ خَصْمِهِ ـ وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يُقْتَصَّ مِنْهُ.
وبالفَتْحِ: هو الأَمْرُ المُبْتَدَعُ نَفْسُهُ، ويَكونُ معنى الإيواءِ فِيْهِ الرِّضَا بِهِ، والصَّبْرَ عَلَيْهِ. انظر النهاية (١/٣٣٨).

(٤) انظر دلائل النبوة للبيهقي (٢/٤٢٢) ـ دلائل النبوة لأبي نعيم (١/٢٨٨).

٨ ـ قَبِيلَةُ بَنِي مُحَارِبٍ:

رَوَى أَبُو نُعَيْمٍ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ قَالَ: انْتَهَى رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَى بَنِي مُحَارِبِ بنِ خَصْفَةَ، فَوَجَدَ فِيهِمْ شَيْخًا ابنَ مائةِ سَنَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةٍ، فكَلَّمَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَدعَاهُ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَنْ يَمْنَعَهُ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، فَقَالَ الشَّيْخُ: أَيُّهَا الرَّجُلُ! قَوْمُكَ أَعْلَمُ بِنَبَئِكَ، وَاللهِ لَا يَؤُوبُ[(١)] بِكَ رَجُلٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا آبَ بِشَرٍّ مَا يَؤُوبُ بِهِ أَهْلُ المَوْسِمِ، فَأَغْنِ عَنَّا نَفْسَكَ، وَإِنَّ أَبَا لَهَبٍ لَقَائِمٌ يَسْمَعُ كَلَامَ المُحَارِبِيِّ، ثُمَّ وَقَفَ أَبُو لَهَبٍ عَلَى المُحَارِبِيِّ فَقَالَ: لَوْ كَانَ أَهْلُ المَوْسِمِ كُلُّهُمْ مِثْلَكَ لَتَرَكَ هَذَا الدِّيْنَ الذِي هُوَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ صَابِئٌ[(٢)] كَذَّابٌ، فَقَالَ المُحَارِبِيُّ، أَنْتَ وَاللهِ أَعْرَفُ بِهِ، هُوَ ابنُ أَخِيكَ، لُحْمَتُكَ[(٣)]، ثُمَّ قَالَ المُحَارِبِيُّ: لَعَلَّ بِهِ يَا أَبَا عُتْبَةَ لَمَمًا[(٤)]، فَإِنَّ مَعَنَا رَجُلاً مِن الحَيِّ يَهْتَدِي لِعِلَاجِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ أَبُو لَهَبٍ بِشَيْءٍ، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا رَآهُ وَقَفَ عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ صَاحَ بِهِ أَبُو لَهَبٍ: إِنَّهُ صَابِئٌ كَذَّابٌ[(٥)].

---

(١) الأَوْبُ: الرُّجُوعُ. انظر النهاية (١/٧٩).
ومنه قوله تعالى في سُورة ق آية (٣٢): ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾.
قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/٤٠٦): أي رَجَّاعٌ تائِبٌ مُقْلِعٌ.

(٢) يُقالُ صَبَأَ فلانٌ: إذا خَرَجَ مِن دِينٍ إلى دِينِ غَيْرِهِ، وكانت العربُ تُسَمِّي النبيَّ ﷺ الصَابِئَ؛ لأَنَّهُ خَرَجَ مِن دِينِ قُرَيْشٍ إلى دِيْنِ الإسلامِ. انظر النهاية (٣/٣).

(٣) اللُّحْمَةُ بالضَّمِّ: القَرَابَةُ. انظر لسان العرب (١٢/٢٥٤).

(٤) اللَّمَمُ: هو طَرَفٌ مِن الجُنونِ يُلِمُّ بالإنسانِ: أيْ يَقْرَبُ مِنْهُ ويَعْتَرِيهِ. انظر النهاية (٤/٢٣٣).

(٥) انظر دلائل النبوة لأبي نعيم (١/٢٩٣).

❁ الأَفْرَادُ الذِينَ عَرَضَ عَلَيْهِمْ الرَّسُولُ ﷺ الإسْلَامَ:

قَالَ ابنَ إِسْحَاقَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَسْمَعُ بِقَادِمٍ يَقْدُمُ مَكَّةَ مِن العَرَبِ، لَهُ اسْمٌ وَشَرَفٌ، إِلَّا تَصَدَّى لَهُ، فَدَعَاهُ إِلَى الإِسْلَامِ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ مَا عِنْدَهُ[1].

فَمِنْ هَؤُلَاءِ الأَفْرَادِ الذِينَ عَرَضَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ الإِسْلَامَ:

❁ سُوَيْدُ بنُ الصَّامِتِ:

كَانَ شَاعِرًا مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ بَنِي عَمْرِو بنِ عَوْفٍ، يُسَمِّيهِ قَوْمُهُ الكَامِلَ لِجَلَدِهِ[2] وَشَرَفِهِ، وَنَسَبِهِ، قَدِمَ مَكَّةَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، فَتَصَدَّى لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِيْنَ سَمِعَ بِهِ، فَدَعَاهُ إِلَى اللهِ وَإِلَى الإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ سُوَيْدُ: فَلَعَلَّ الذِي مَعَكَ مِثْلَ الذِي مَعِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَمَا الذِي مَعَكَ؟

قَالَ مَجَلَّةٌ[3] لُقْمَانَ ـ يَعْنِي حِكْمَةَ لُقْمَانَ ـ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اعْرِضْهَا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢/٣٨).

(٢) الجَلَدُ: القُوَّةُ. انظر النهاية (١/٢٧٥).

(٣) يُرِيدُ كِتَابًا فيه حِكْمَةَ لُقْمَانَ، وَكُلُّ كِتَابٍ عندَ العربِ مَجَلَّةٌ. انظر النهاية (٤/٢٥٦).
وأمَّا لُقْمانُ عليهِ السَّلامُ فقد اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فيهِ هَلْ كانَ نَبِيًّا، أو عَبْدًا صَالحًا مِنْ غَيرِ نُبُوَّةٍ؟ على قَولَينِ، والأكثرون على أنَّهُ لَيْسَ نَبيًا.
قال ابن عباس رَضِيَ الله عَنهما: كانَ لُقمانُ عبدًا حَبَشيًا نَجارًا.
وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/٣٣٤) بعد أنْ سَاقَ بعضَ الآثارِ: فهذِهِ الآثارُ منهَا ما هُو مُصَرَّحٌ فيهِ بِنَفْيِ كَوْنِهِ نبيًا، ومنهَا ما هو مُشْعِرٌ بِذَلِكَ؛ لأنَّ كَوْنَهُ عَبْدًا قَدْ مَسَّهُ الرِّقُّ=

عَلَيَّ، فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ هَذَا لَكَلَامٌ حَسَنٌ، وَالذِي مَعِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، قُرْآنٌ أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيَّ، هُوَ هُدًى وَنُورٌ، فَتَلَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ القُرْآنَ، وَدَعَاهُ إِلَى الإِسْلَامِ، فَلَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَقَوْلٌ حَسَنٌ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ، فَقَدِمَ المَدِينَةَ عَلَى قَوْمِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَتَلَتْهُ الخَزْرَجُ، فَكَانَ رِجَالٌ مِنْ قَوْمِهِ يَقُولُونَ: إِنَّا لَنَرَاهُ قَدْ قُتِلَ وَهُوَ مُسْلِمٌ، وَكَانَ قَتْلُهُ قَبْلَ يَوْمِ بُعَاثٍ(١).

قَالَ ابنُ عَبْدِ البَرِّ: أَنَا شَاكٌّ فِي إِسْلَامِ سُوَيْدِ بنِ الصَّامِتِ كَمَا شَكَّ فِيهِ غَيْرِي مِمَّنْ أَلَّفَ فِي هَذَا الشَّأْنِ قَبْلِي(٢).

وَقَالَ الحَافِظُ فِي الإِصَابَةِ: فَإِنْ صَحَّ مَا قَالُوا ـ أَنَّهُ أَسْلَمَ ـ لَمْ يُعَدَّ فِي الصَّحَابَةِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَلْقَ النَّبِيَّ ﷺ مُؤْمِنًا(٣).

❁ ضِمَادُ بنُ ثَعْلَبَةَ:

وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ(٤) مِنَ اليَمَنِ، كَانَ صَدِيقًا لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي

= يُنافي كونَهُ نبيًا؛ لأنَّ الرُّسُلَ كانَتْ تُبْعَثُ في أَحْسَابِ قَومِهَا، ولهذا كانَ جمهورُ السَّلَفِ على أنَّه لم يكنْ نبيًا.

(١) يَومُ بُعَاث: بضم الباء هو يومٌ مَشْهورٌ كانَ فيهِ حَرْبٌ بَيْنَ الأوْسِ والخَزْرَجِ ـ وبُعَاثٌ اسْمُ حِصْنٍ للأوْسِ. انظر النهاية (١٣٨/١) ـ وسَيَأْتِي ذِكْرُ تَفْصِيلِ هذهِ الوَقْعَةِ.
انظر تفاصيل لقاء الرسول ﷺ بسويد بن الصامت في: سِيرَةِ ابنِ هِشَامٍ (٣٩/٢) ـ البِدايَةِ والنِّهَايَةِ (١٥٨/٣) ـ دَلائِلِ النُّبُوَّةِ للبيهقي (٤١٩/٢) ـ الرَّوْضِ الأُنُفِ (٢٤١/٢).

(٢) انظر الاستيعاب (٢٣٦/٢).

(٣) انظر الإصابة (٢٤٧/٣).

(٤) قالَ الإمَامُ النَّوَوِي في شَرْحِ مُسْلِمٍ (١٩٤/٢): شَنُوءَةُ: هي قَبِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ، سُمُّوا بِذَلِكَ=

الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَرْقِي[1] مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ[2]، قَدِمَ مَكَّةَ مُعْتَمِرًا، فَجَلَسَ مَجْلِسًا فِيهِ أَبُو جَهْلٍ، وَعُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ، وَأُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَذَا الرَّجُلُ الذِي فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَفَّهَ أَحْلَامَنَا، وَأَضَلَّ مَنْ مَاتَ مِنَّا، وَعَابَ آلِهَتَنَا، فَقَالَ أُمَيَّةُ: الرَّجُلُ مَجْنُونٌ غَيْرُ شَكٍّ، قَالَ ضِمَادُ: فَوَقَعَتْ فِي نَفْسِي كَلِمَتُهُ، فَقُلْتُ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيَهُ عَلَى يَدَيَّ، فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدَيَّ مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ...»**

فَقَالَ ضِمَادُ بنُ ثَعْلَبَةَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ[3] البَحْرِ.

فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلَامِ، فَبَايَعَهُ.

= مِنْ قَولِكَ رَجُلٌ فِيهِ شَنُوءَةٌ أَيْ تَقَزُّزٌ، وهُمْ حَيٌّ مِن اليَمَنِ.

(١) يُقالُ رَقَى الرَّاقِي رُقْيَةً: إذَا عَوَّذَ وَنَفَثَ في عُوذَتِهِ. انظر لِسَانَ العَرَبِ (٥/٢٩٣).
وقالَ ابنُ الأثِيرِ: الرُّقْيَةُ: العُوذَةُ التِي يُرْقَى بِهَا صَاحِبُ الآفَةِ كالحُمَّى وَالصَّرَعِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِن الآفَاتِ. انظر النِّهَايَةَ (٢/٢٣١).

(٢) قالَ الإمامُ النَّوَوِي في شَرْحِ مُسْلِمٍ (٦/١٣٧): المُرَادُ بِالرِّيحِ هُنَا الجُنُونُ، وَمَسُّ الجِنِّ.

(٣) نَاعُوسٌ: هكذا في صحيح مسلم، وفي غَيْرِه: قَامُوسُ البَحْرِ: وهو وسَطُهُ ولُجَّتُهُ. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٦/١٣٧).

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَعَلَى قَوْمِكَ».

قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي[1].

۞ الطُّفَيْلُ بنُ عَمْرٍو الدُّوسِيُّ:

وَكَانَ رضي الله عنه رَجُلًا شَرِيفًا شَاعِرًا لَبِيبًا، رَئِيسَ قَبِيلَةِ دَوْسٍ بِاليَمَنِ، قَدِمَ مَكَّةَ، وَذَلِكَ بَعْدَ عَوْدَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِن الطَّائِفِ، فَمَشَى إِلَيْهِ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ بِقُدُومِ أَحَدٍ مِن العَرَبِ عَلَيْهِمْ، إِلَّا اسْتَقْبَلُوهُ، وَحَذَّرُوهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَوَصَفُوهُ بِكُلِّ نَقِيصَةٍ خَشْيَةَ أَنْ يُسْلِمَ، فَقَالُوا لَهُ: يَا طُفَيْلُ! إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادَنَا، وَهَذَا الرَّجُلُ الذِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَدْ أَعْضَلَ[2] بِنَا، وَقَدْ فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتَ أَمْرَنَا، وَإِنَّمَا قَوْلُهُ كَالسِّحْرِ، يُفَرِّقُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَبِيهِ، وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَخِيهِ، وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ، وَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ مَا قَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا، فَلَا تُكَلِّمْهُ، وَلَا تَسْمَعَنَّ مِنْهُ شَيْئًا. قَالَ الطُّفَيْلُ: فَوَاللهِ مَا زَالُوا بِي - أَيْ مَا زَالُوا يُخَوِّفُونِي - حَتَّى أَجْمَعْتُ أَلَّا أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا أُكَلِّمُهُ، وَحَتَّى حَشَوْتُ فِي أُذُنِي حِينَ غَدَوْتُ إِلَى المَسْجِدِ كُرْسُفًا[3]، فَرَقًا[4] مِنْ أَنْ يَبْلُغَنِي

(١) أخرج هذه القصة: الإمام مسلم في صحيحه - كتاب الجمعة - باب تخفيف الصلاة والخطبة - رقم الحديث (٨٦٨) - والإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٧٤٩).

(٢) أعضَلَ الأمرُ: اشتَدَّ واستَغْلَقَ. انظر لسان العرب (٩/٢٦٠).

(٣) الكُرْسُفُ: القُطْنُ. انظر النهاية (٤/١٤٢).

(٤) الفَرَقُ: بالتحريك أي الخَوْفُ والفَزَعُ. انظر النهاية (٣/٣٩٢).

شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ، وَأَنَا لا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَهُ. قَالَ الطُّفَيْلُ: فَغَدَوْتُ إِلَى المَسْجِدِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الكَعْبَةِ، قَالَ: فَقُمْتُ مِنْهُ قَرِيبًا، فَأَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ، قَالَ: فَسَمِعْتُ كَلامًا حَسَنًا، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاثُكْلَ[1] أُمِّي، وَاللهِ إِنِّي لَرَجُلٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ مَا يَخْفَى عَلَيَّ الحَسَنُ مِن القَبِيحِ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ مَا يَقُولُ؟ فَإِنْ كَانَ الذِي يَأْتِي بِهِ حَسَنًا قَبِلْتُهُ، وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا تَرَكْتُهُ.

قَالَ: فَمَكَثْتُ حَتَّى انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى بَيْتِهِ، فَاتَّبَعْتُهُ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ دَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ قَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا، لِلَّذِي قَالُوا، فَوَاللهِ مَا بَرِحُوا[2] يُخَوِّفُونَنِي أَمْرَكَ حَتَّى سَدَدْتُ أُذُنَيَّ بِكُرْسُفٍ لِئَلَّا أَسْمَعَ قَوْلَكَ، ثُمَّ أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُسْمِعَنِي قَوْلَكَ، فَسَمِعْتُهُ قَوْلًا حَسَنًا، فَاعْرِضْ عَلَيَّ أَمْرَكَ، قَالَ: فَعَرَضَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ الإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيَّ القُرْآنَ، فَلَا وَاللهِ مَا سَمِعْتُ قَوْلًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَلَا أَمْرًا أَعْدَلَ مِنْهُ، فَأَسْلَمْتُ وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الحَقِّ، وَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! إِنِّي امْرُؤٌ مُطَاعٌ فِي قَوْمِي، وَأَنَا رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ، وَدَاعِيهِمْ إِلَى الإِسْلَامِ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي آيَةً، تَكُونُ لِي عَوْنًا عَلَيْهِمْ فِيمَا أَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ آيَةً»**.

---

(١) ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ: أيْ فَقَدَتْكَ، وَالثُّكْلُ: فَقْدُ الوَلَدِ. انظر النهاية (١/٢١٢).

(٢) مَا بَرِحَ: أيْ ما زَالَ. انظر لِسانَ العربِ (١/٣٦١).

❁ خُرُوجُ الطُّفَيْلِ ﵁ إِلَى قَوْمِهِ دَاعِيًا إِلَى الإِسْلَامِ:

قَالَ الطُّفَيْلُ ﵁: فَخَرَجْتُ إِلَى قَوْمِي، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِثَنِيَّةٍ[1] تُطْلِعُنِي عَلَى الحَاضِرِ[2]، وَقَعَ نُورٌ بَيْنَ عَيْنَيَّ مِثْلُ المِصْبَاحِ، قُلْتُ: اللَّهُمَّ فِي غَيْرِ وَجْهِي، إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَظُنُّوا أَنَّهَا مُثْلَةٌ[3] وَقَعَتْ فِي وَجْهِي لِفِرَاقِي دِينِهِمْ، قَالَ: فَتَحَوَّلَ النُّورُ فَوَقَعَ فِي رَأْسِ سَوْطِي، قَالَ: فَجَعَلَ الحَاضِرُ يَتَرَاءَوْنَ ذَلِكَ النُّورَ فِي سَوْطِي كَالقِنْدِيلِ المُعَلَّقِ، وَأَنَا أَهْبِطُ لَهُمْ مِن الثَّنِيَّةِ، حَتَّى جِئْتُهُمْ فَأَصْبَحْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا نَزَلْتُ أَتَانِي أَبِي، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، فَقُلْتُ: إِلَيْكَ عَنِّي يَا أَبَتِ، فَلَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّي، قَالَ: لِمَ يَا بُنَيَّ؟ قُلْتُ: أَسْلَمْتُ وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! فَدِينِي دِينُكَ، فَقُلْتُ: فَاذْهَبْ فَاغْتَسِلْ، وَطَهِّرْ ثِيَابَكَ، ثُمَّ تَعَالَ حَتَّى أُعَلِّمَكَ مَا عُلِّمْتُ، قَالَ: فَذَهَبَ فَاغْتَسَلَ، وَطَهَّرَ ثِيَابَهُ، ثُمَّ جَاءَ فَعَرَضْتُ عَلَيهِ الإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ أَتَتْنِي صَاحِبَتِي[4]، فَقُلْتُ: إِلَيكِ عَنِّي، فَلَسْتُ مِنْكِ وَلَسْتِ مِنِّي، قَالَتْ: لِمَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؟ قَالَ: فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكِ الإِسْلَامُ، وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَتْ: فَدِينِي دِينُكَ، قَالَ: فَاذْهَبِي وَاغْتَسِلِي، فَذَهَبَتْ فَاغْتَسَلَتْ، ثُمَّ جَاءَتْ فَعَرَضْتُ عَلَيْهَا الإِسْلَامَ فَأَسْلَمَتْ.

(١) الثَّنِيَّةُ في الجَبَلِ: الطَّرِيقُ العالِي فيه. انظر النهاية (١/٢٢٠).

(٢) الحَاضِرُ: الحَيُّ، القَوْمُ النُّزُولُ على ماءٍ يُقِيمُونَ بِهِ ولا يَرْتَحِلُونَ عنهُ. انظر النهاية (١/٣٨٤).

(٣) المُثْلَةُ: العُقُوبَةُ والتَّنْكِيلُ. انظر لسان العرب (١٣/٢٥).

(٤) صَاحِبَتِي: أيْ زَوْجَتِي.

❁ دُعَاءُ الرَّسُولِ ﷺ لِقَبِيلَةِ دَوْسٍ بِالهِدَايَةِ:

قَالَ الطُّفَيْلُ ﵁: وَدَعَوْتُ دَوْسًا إِلَى الإِسْلَامِ فَأَبْطَأُوا عَلَيَّ، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ دَوْسًا قَدْ عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهَا، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ القِبْلَةَ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ النَّاسُ: هَلَكُوا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ، اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ»**(1).

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلطُّفَيْلِ ﵁: **«ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَادْعُهُمْ وَارْفُقْ بِهِمْ»**.

قَالَ الطُّفَيْلُ: فَرَجَعْتُ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ أَزَلْ بِأَرْضِ دَوْسٍ أَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ حَتَّى هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ، وَقَضَى بَدْرًا وَأُحُدًا وَالخَنْدَقَ، ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِي، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَيْبَرَ(2)، حَتَّى نَزَلْتُ المَدِينَةَ بِسَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ بَيْتًا مِنْ دَوْسٍ، ثُمَّ لَحِقْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ بِخَيْبَرَ.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب الدعاء للمشركين بالهُدى ليتألفهم ـ رقم الحديث (٢٩٣٧) ـ وأخرجه في كتاب الدعوات ـ باب الدعاء للمشركين ـ رقم الحديث (٦٣٩٧) ـ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل غفار وأسلم ودوس ـ رقم الحديث (٢٥٢٤) ـ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٧٣١٥).

(2) سيأتي خبرُ هِجرته ﵁ في وَفْدِ دَوْسٍ في أحداثِ غزْوَةِ خَيْبَرَ إن شاء الله.

وَكَانَ مِنْ بَيْنِ قَبِيلَةِ دَوْسٍ الذِينَ أَسْلَمُوا عَلَى يَدِ الطُّفَيْلِ بنِ عَمْرٍو الدَّوْسِي ﷺ رَاوِيَةُ الإِسْلَامِ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ.

۞ اسْتِشْهَادُ الطُّفَيْلِ بنِ عَمْرٍو ﷺ:

وَأَقَامَ الطُّفَيْلُ ﷺ بِالمَدِينَةِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ، فَلَمَّا ارْتَدَّتِ العَرَبُ، خَرَجَ مَعَ المُسْلِمِينَ لِقِتَالِ المُرْتَدِّينَ، وَاسْتُشْهِدَ ﷺ فِي مَعْرَكَةِ اليَمَامَةِ، وَقَدْ رَأَى رُؤْيَا فِي المَنَامِ قَبْلَ مَعْرَكَةِ اليَمَامَةِ، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رُؤْيَا فَاعْبُرُوهَا لِي: رَأَيْتُ أَنَّ رَأْسِي حُلِقَ، وَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ فَمِي طَائِرٌ، وَأَنَّهُ لَقِيَتْنِي امْرَأَةٌ فَأَدْخَلَتْنِي فِي فَرْجِهَا، وَأُرَى ابْنِي يَطْلُبُنِي طَلَبًا حَثِيثًا، ثُمَّ رَأَيْتُهُ حُبِسَ عَنِّي، قَالُوا: خَيْرًا، قَالَ: أَمَّا أَنَا وَاللهِ فَقَدْ أَوَّلْتُهَا، قَالُوا: مَاذَا؟ قَالَ: أَمَّا حَلْقُ رَأْسِي فَقَطْعُهُ، وَأَمَّا الطَّائِرُ الذِي خَرَجَ مِنْ فَمِي فَرُوحِي، وَأَمَّا المَرْأَةُ التِي أَدْخَلَتْنِي فَرْجَهَا فَالأَرْضُ تُحْفَرُ لِي فَأَغِيبُ فِيهَا، وَأَمَّا طَلَبُ ابْنِي إِيَّايَ ثُمَّ حَبْسُهُ عَنِّي، فَإِنِّي أَرَاهُ سَيَجْهَدُ أَنْ يُصِيبَهُ مَا أَصَابَنِي.

فَقُتِلَ ﷺ فِي مَعْرَكَةِ اليَمَامَةِ، ثُمَّ قُتِلَ ابْنُهُ فِي مَعْرَكَةِ اليَرْمُوكِ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ[1].

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: وَقَدْ وَقَعَ الأَمْرُ كَمَا أَوَّلَهَا ﷺ[2].

---

(١) انظر تفاصيل قصة إسلام الطفيل بن عمرو ﷺ في: سيرة ابن هشام (٢/٤٢٠) ـ دلائل النبوة لأبي نعيم (١/٢٣٩) ـ الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/٤٣٩).

(٢) انظر البداية والنهاية (٦/٧٣١).

۞ إِسْلَامُ إِيَاسِ بنِ مُعَاذٍ:

كَانَ إِيَاسُ بنُ مُعَاذٍ غُلَامًا حَدَثًا مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، قَدِمَ مَكَّةَ فِي وَفْدِ الأَوْسَ يَلْتَمِسُونَ الحِلْفَ[1] مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى قَوْمِهِمْ مِن الخَزْرَجِ، وَذَلِكَ قُبَيْلَ حَرْبِ بُعَاثٍ، فَنَزَلُوا عَلَى عُتْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ، فَأَكْرَمَهُمْ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ وَإِلَى قُرَيْشٍ أَنْ يُحَالِفُوهُمْ عَلَى قِتَالِ الخَزْرَجِ، فَسَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَتَاهُمْ وَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ فِي خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ؟ فَقَالُوا لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: أَنَا رَسُولُ اللهِ بَعَثَنِي إِلَى العِبَادِ، أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الكِتَابَ، ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمُ الإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَقَالَ إِيَاسُ بنُ مُعَاذٍ: أَيْ قَوْمُ! هَذَا وَاللهِ خَيْرٌ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ.

فَأَخَذَ أَبُو الحَيْسَرِ، وَاسْمُهُ أَنَسُ بنُ رَافِعٍ حَفْنَةً[2] مِنْ تُرَابِ البَطْحَاءِ فَضَرَبَ بِهَا وَجْهَ إِيَاسِ بنِ مُعَاذٍ، وَقَالَ: دَعْنَا مِنْكَ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ جِئْنَا لِغَيْرِ هَذَا، مَا قَدِمَ وَفْدٌ إِذًا عَلَى قَوْمٍ بِشَرٍّ مِمَّا قَدِمْنَا بِهِ عَلَى قَوْمِنَا، إِنَّا خَرَجْنَا نَطْلُبُ حِلْفَ قُرَيْشٍ عَلَى عَدُوِّنَا، فَنَرْجِعُ بِعَدَاوَةِ قُرَيْشٍ مَعَ عَدَاوَةِ الخَزْرَجِ، فَصَمَتَ إِيَاسٌ، وَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْهُمْ، وَانْصَرَفُوا إِلَى المَدِينَةِ، وَكَانَتْ وَقْعَةُ بُعَاثٍ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ إِيَاسُ بنُ مُعَاذٍ أَنْ هَلَكَ، وَكَانَ يُهَلِّلُ اللهَ تَعَالَى، وَيُكَبِّرُهُ، وَيَحْمَدُهُ، وَيُسَبِّحُهُ عِنْدَ

---

(١) أَصْلُ الحِلْفِ: المُعَاقَدَةُ والمُعَاهدَةُ على التَّعَاضُدِ والتَّسَاعُدِ والاتِّفَاقِ. انظر النهاية (١/٤٠٧).

(٢) الحَفْنَةُ: مِلْءُ الكَفِّ. انظر النهاية (١/٣٩٣).

مَوْتِهِ، فَلَا يَشُكُّ قَوْمُهُ أَنَّهُ مَاتَ مُسْلِمًا[1].

قُلْتُ: ذَكَرَهُ الإِمَامُ البُخَارِي فِي تَارِيْخِهِ الأَوْسَطِ فِيمَنْ مَاتَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ المُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ وَالأَنْصَارِ، وَتَرْجَمَ لَهُ فِي التَّارِيخِ الكَبِيرِ.

۞ يَوْمُ بُعَاثٍ:

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ يَوْمُ بُعَاثٍ يَوْمًا قَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدْ افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ، وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ[2] وَجُرِحُوا، فَقَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي دُخُولِهِم فِي الإِسْلَامِ[3].

وَبُعَاثٌ هُوَ مَكَانٌ، وَيُقَالُ حِصْنٌ، وَقِيلَ مَزْرَعَةٌ، عِنْدَ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى مِيلَيْنِ مِنَ المَدِينَةِ، وَكَانَتْ بِهِ وَقْعَةٌ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، فَقُتِلَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَكَانَ رَئِيسَ الأَوْسِ فِيهِ: حُضَيْرٌ وَالِدُ أُسَيْدِ بنِ حُضَيْرٍ ﷺ، وَكَانَ رَئِيسَ الخَزْرَجِ يَوْمَئِذٍ: عَمْرُو بنُ النُّعْمَانِ البَيَاضِيُّ فَقُتِلَ فِيهَا، وَكَانَ النَّصْرُ فِيهَا أَوَّلًا لِلْخَزْرَجِ، ثُمَّ ثَبَّتَهُمْ حُضَيْرٌ فَرَجَعُوا، وَانْتَصَرَت الأَوْسُ، وَجُرِحَ حُضَيْرٌ يَوْمَئِذٍ

---

(١) أخرج قصة إيَاسُ بن معاذ رضي الله عنه: الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٣٦١٩) والحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب ذكر إياس بن معاذ ـ رقم الحديث (٤٨٨٤) ـ وابن إسحاق في السيرة (٤١/٢) ـ وإسناده حسن.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٤٨٥/٧): سَرَوَاتُهُم: خِيَارُهُم، والسُّرَاةُ جَمْعَ سَرِيٍّ، وهو الشَّرِيف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب مناقب الأنصار ـ رقم الحديث (٣٧٧٧) ـ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٤٣٢٠).

فَمَاتَ فِيهَا، وَذَلِكَ قَبْلَ الهِجْرَةِ بِخَمْسِ سِنِينَ.

وَقَدْ قُتِلَ فِيهَا مِنْ أَكَابِرِهِمْ مَنْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ، أَيْ يَتَكَبَّرُ وَيأْنَفُ أَنْ يَدْخُلَ فِي الإِسْلَامِ، حَتَّى لَا يَكُونَ تَحْتَ حُكْمِ غَيْرِهِ، وَقَدْ كَانَ بَقِيَ مِنْهُمْ مِنْ هَذَا النَّحْوِ عَبْدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ بنِ سَلُولٍ المُنَافِقُ لَعَنَهُ اللهُ[1].

قَالَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ أَبُو شَهْبَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: وَقَدْ شَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الوَقْعَةُ العَظِيمَةُ قُبَيْلَ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ المَدِينَةَ لِتَتَهَيَّأَ النُّفُوسُ لِقَبُولِ الإِسْلَامِ وَالإِيْمَانِ بِالرَّسُولِ ﷺ، وَلِيَظْهَرَ فَضْلُ الإِسْلَامِ عَلَى الأَنْصَارِ، فَقَدْ جَمَعَهُمْ بَعْدَ الفُرْقَةِ، وَغَرَسَ فِي قُلُوبِهِمُ المَحَبَّةَ بَعْدَ العَدَاوَةِ، وَالوِئَامَ بَعْدَ الشِّقَاقِ[2].

** ** **

(١) انظر فتح الباري (٧/٤٨٤).

(٢) انظر كتاب السيرة النبوية (١/٤٣٢) للدكتور محمد أبو شهبة رحمه الله تعالى.

بَدْءُ إِسْلَامِ الأَنْصَارِ(١)

قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ الغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: مَا وَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي هَذِهِ القَبَائِلِ التِي عَرَضَ عَلَيْهَا نَفْسَهُ الشَّرِيفَةَ قَلْبًا مَفْتُوحًا، وَلَا صَدْرًا مَشْرُوحًا، بَلْ كَانَ الرَّاحِلُونَ وَالمُقِيمُونَ يَتَوَاصَوْنَ بِالبُعْدِ عَنْهُ، وَيُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ.

(١) قال الحافظ في الفتح (٩١/١) ـ (٤٨٤/٧): الأنصارُ: جمعُ نَاصرٍ كأصحَابٍ وصاحِبٍ، أو جمعُ نَصِيرٍ كأشرافٍ وشريفٍ، واللامُ فيه للعهدِ أي أنصارُ رسولِ الله ﷺ، والمرادُ الأوسُ والخزرَجُ، والأوسُ يُنسبُون إلى أوْسِ بنِ حَارِثَةَ، والخَزْرَجُ يُنسبونَ إلى الخَزْرَجِ بنِ حَارِثَةَ، وكانوا قَبْل ذلك يُعرفون بِبَنِي قَيْلَةَ ـ بقاف مفتوحة ـ، وهي الأمُّ التي تَجْمَعُ القَبِيلَتَيْنِ، فسمَّاهم رسول الله ﷺ الأنصار، أخرج البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٣٧٧٦) ـ عن غَيْلان بن جَرير قال: قلتُ لأنسٍ: أرأيتَ اسمَ الأنصارِ كُنتم تُسَمَّون به، أمْ سَمَّاكم اللهُ؟ قال: بل سَمَّانا اللهُ. فصارَ ذلك عَلمًا عليهم، وأُطْلِق أيضًا على أولادهم وحُلَفَائهم ومَوَاليهم، وخُصُّوا بهذه المَنْقَبَة العُظمى لما فَازُوا به دون غيرهم من القبائل من إيوَاءِ النبي ﷺ ومَنْ مَعَهُ، والقيامِ بأمرهم، ومُوَاسَاتهم بأنفسِهِمْ وأموالِهِمْ وإيثَارِهِمْ إياهُم في كثيرٍ من الأمُورِ على أنفسهم، فكان صَنِيعُهُم لذلكَ مُوجِبًا لمُعَادَاتِهِمْ جَمِيعَ الفِرَقِ المَوْجُودِينَ من عَرَبٍ وعَجَمٍ، والعَدَاوة تَجُرُّ البُغْضَ، ثم كان ما اختُصُّوا به مما ذُكِرَ مُوجِبًا للحَسَدِ، والحَسَدُ يَجُرُّ البُغْضَ، فلهذا جاء التَّحْذِيرُ من بُغْضِهِمْ، والتَّرْغِيب في حُبِّهِم حتى جُعِلَ ذلك آية الإيمان والنِّفاق، تَنْويهًا بِعَظِيم فَضْلِهِمْ، وتَنْبيهًا على كَرِيم فِعلهم.

روى الإمام البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (١٧) ـ ومسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (٧٤) عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«آيةُ الإيمانِ حُبُّ الأنصَارِ، وآيةُ النفَاقِ بُغضُ الأنصَارِ»**.

وَكَانَ الرَّجُلُ يَجِيءُ مِنَ الآفَاقِ البَعِيدَةِ فَيُزَوِّدُهُ قَوْمُهُ بِهَذِهِ الوَصَاةِ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ(١).

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ فِي هَذَا الجَوِّ القَابِضِ، لَمْ يُخَامِرِ(٢) اليَأْسُ قَلْبَهُ، وَاسْتَمَرَّ مُثَابِرًا فِي جِهَادِ الدَّعْوَةِ حَتَّى تَأَذَّنَ الحَقُّ أَخِيرًا بِالفَرَجِ(٣).

دَخَلَت السَّنَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ البِعْثَةِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَا يَفْتُرُ عَنْ ذَلِكَ رُغْمَ ازْدِيَادِ تَضْيِيقِ قُرَيْشٍ عَلَيْهِ، وَإِثَارَتِهِمْ حَوْلَهُ الشَّائِعَاتِ، وَالأَكَاذِيبِ لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ الاِسْتِجَابَةِ لَهُ، فَلَمَّا اقْتَرَبَ مَوْسِمُ الحَجِّ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ رَاحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَعِدُّ لِدَعْوَةِ الوُفُودِ وَالقَبَائِلِ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ.

فَلَمَّا كَانَ مَوْسِمُ حَجِّ السَّنَةِ الحَادِيَةِ عَشْرَةَ مِنَ البِعْثَةِ، وَأَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِظْهَار دِينِهِ، وَإِعْزَازَ نَبِيِّهِ ﷺ، وَإِنْجَازَ مَوْعِدِهِ لَهُ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَ العَقَبَةِ(٤) لَقِيَ رَهْطًا(٥) مِن الخَزْرَجِ أَرَادَ اللهُ بِهِمْ خَيْرًا، فَقَالَ

---

(١) هذا جُزءٌ من حَديثٍ أخرجه الإمام أحمد في مسنده بسندٍ صحيح على شرط مسلم - رقم الحديث (١٤٤٥٦) - وقد مَرَّ قبلَ قَليلٍ.

(٢) التَّخْميرُ: التَّغْطِيَةُ. انظر لسان العرب (٤/٢١١).

(٣) انظر فِقهَ السيرة للشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى ص١٤٠.

(٤) العَقَبَةُ: الجَبَلُ الطَّويل - يعرض للطريق فيأخذ فيهِ - وهو طَوِيلٌ صَعْبٌ شَدِيد. انظر لسان العرب (٩/٣٠٦).

(٥) الرَّهْطُ: ما دُونَ العشرة. انظر لسان العرب (٥/٣٤٣).

لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَنْتُمْ؟».

قَالُوا: نَفَرٌ مِن الخَزْرَجِ.

قَالَ: «أَمِنْ مَوَالِي[1] اليَهُودِ؟».

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ ﷺ: «أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ؟».

قَالُوا: بَلَى، فَجَلَسُوا مَعَهُ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَرَضَ عَلَيْهِم الإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِم القُرْآنَ.

وَكَانَ مِمَّا صَنَعَ اللهُ لَهُمْ بِهِ فِي الإِسْلَامِ، أَنَّ يَهُودَ كَانُوا مَعَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَعِلْمٍ، وَكَانُوا هُمْ ـ أَيْ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ ـ أَهْلَ شِرْكٍ وَأَصْحَابَ أَوْثَانٍ، وَكَانُوا قَدْ عَزُّوهُمْ[2] بِبِلَادِهِمْ، فَكَانُوا إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ، قَالُوا لَهُمْ: إِنَّ نَبِيًّا مَبْعُوثٌ الآنَ، قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ، نَتَّبِعُهُ فَنَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ[3] وَإِرَمٍ[4].

---

(١) قال الإمام السهيلي في الروض الأنف (٢/٢٤٦): أي مِن حُلَفَائِهِم.

(٢) عَزُّوهُم: أي غَلَبُوهُم. انظر لسان العرب (٩/١٨٧).

(٣) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/٣٩٤): عادٌ قومٌ كانوا مُتَمَرِّدِينَ عُتَاةً جَبَّارِين، وهم الذين بَعَثَ الله فيهم رسولَهُ هُودًا عليه السلام، فكذبُوه وخَالفُوه، فأنجَاهُ الله من بين أظهُرِهِمْ، ومن آمن معه منهم، وأهلكَهُم الله تعالى بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَة.

(٤) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/٣٩٥): إرَمٌ هي قبيلةٌ وأمةٌ منَ الأمم، لم يُخْلَق مثل تلك القَبِيلة في البلادِ، يعني في زَمَانِهِمْ.

يقول الله تعالى عن اليهُودِ وهم يُهَدِّدُونَ الأوسَ والخزْرَجَ بخُرُوج الرسول ﷺ:=

فَلَمَّا كَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُولَئِكَ النَّفَرَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا قَوْمُ!، تَعْلَمُوا وَاللهِ إِنَّهُ لَلنَّبِيُّ الذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ، فَلَا تَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، بِأَنْ صَدَّقُوهُ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الإِسْلَامِ، وَكَانُوا - أَيْ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ مِنَ الخَزْرَجِ - مِنْ عُقَلَاءِ يَثْرِبَ، أَنْهَكَتْهُمْ الحَرْبُ الأَهْلِيَّةِ التِي مَضَتْ مِنْ قَرِيبٍ(1)، وَالتِي لَا يَزَالُ لَهِيبُهَا مُسْتَعِرًا، فَأَمَّلُوا أَنْ تَكُونَ دَعْوَتُهُ ﷺ سَبَبًا لِوَضْعِ الحَرْبِ، فَقَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ العَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللهُ بِكَ، فَسَنَقْدُمُ عَلَيْهِمْ، فَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِم الذِي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ عَلَيْهِ فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ.

۞ أَوَّلُ مَسْجِدٍ قُرِئَ فِيهِ القُرْآنُ بِالمَدِينَةِ:

ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ، وَقَدْ آمَنُوا وَصَدَّقُوا، فَكَانَ أَوَّلَ مَسْجِدٍ قُرِئَ فِيهِ القُرْآنُ بِالمَدِينَةِ مَسْجِدُ بَنِي زُرَيْقٍ(2).

قَالَ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: زُرَيْقٌ بِتَقْدِيمِ الزَّاي مُصَغَّرًا، وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ جَوَازُ

= ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ سورة البقرة آية (٨٩).

(١) هي حربُ بُعَاث التي ذكرتها قَبْل قليل.

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٤٢/٢) - زاد المعاد (٩٧/١) - البداية والنهاية (١٦٠/٣) - دلائل النبوة للبيهقي (٤٣١/٢) - الطبقات الكبرى لابن سعد (١٠٥/١).

إِضَافَةِ المَسَاجِدِ إِلَى بَانِيهَا، أَو المُصَلِّي فِيهَا، وَيُلْتَحَقُ بِهِ جَوَازُ إِضَافَةِ أَعْمَالِ البِرِّ إِلَى أَرْبَابِهَا[1].

۞ عَدَدُ وَأَسْمَاءُ رَهْطِ الخَزْرَجِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ:

وَكَانَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطُ سِتَّةَ نَفَرٍ مِنَ الخَزْرَجِ، كَمَا ذَكَرَ ابنُ إِسْحَاقَ، وَهُمْ:

- من بني النجار:

١ - أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ رضي الله عنه[2]. ٢ - عَوْفُ بنُ الحَارِثِ رضي الله عنه[3]- وَهُوَ ابنُ عَفْرَاءَ رضي الله عنه.

- مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ:

٣ - رَافِعُ بنُ مَالِكٍ الْعَجْلَانِيُّ رضي الله عنه[4].

---

(١) انظر فتح الباري (٢/٧٧).

(٢) هو أسعدُ بنُ زُرَارَةَ بن النجَّار الأنصاري، أبو أُمامَة، غلبت عليه كُنْيته واشتهرَ بها، كان عَقَبِيًّا نَقِيبًا، شَهِدَ العَقَبَةَ الأولى والثانية وبايعَ فيهما، ومات أسعدُ بن زُرارة رضي الله عنه قبل غزوة بدرٍ الكبرى، والمسجدُ النبوي يُبْنَى، فكوَاهُ الرسول ﷺ، ومات في تلكَ الأيامِ، وذلك في السنة الأولى من الهجرة، ودُفِنَ بالبقِيعِ رضي الله عنه، وهو أوَّل من دُفِنَ بها من الأنصار. انظر الإصابة (١/٢٠٨).

(٣) هو عوفُ بن عَفْرَاءَ، ذكره ابن إسحاق في السيرة فيمن شَهِد بدرًا، وقُتِلَ فيها. انظر أسد الغابة (٣/٤٢٦).

(٤) هو رافعُ بنُ مَالِكِ بن العَجْلانِ بنِ زُرَيْقٍ الأنصَاري، يُكْنَى أبا مَالِكٍ، وقيل: أبا رِفَاعَة، شهد العَقَبَة، وكان أحدَ النُّقَبَاءِ، وشهد بَدرًا فيما ذكره موسى بن عُقْبة، ولم يذكره ابن إسحاق في البَدْرِيِّينَ. انظر الإصابة (٢/٣٦٩).

● مِنْ بَنِي سَلِمَةَ:

٤ ـ قُطْبَةُ بنُ عَامِرٍ ﷺ[1].

● مِنْ بَنِي حَرَامِ بْنِ كَعْبٍ:

٥ ـ عُقْبَةُ بنُ عَامِرٍ ﷺ[2].

● مِنْ بَنِي عُبَيْدِ بنِ عَدِيٍّ:

٦ ـ جَابِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ رِئَابٍ ﷺ[3]، وَهُوَ غَيْرُ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ حَرَامٍ المَشْهُورِ ﷺ[4].

❁ رِوَايَةُ مُوسَى بنِ عُقْبَةَ:

وَذَكَرَ مُوسَى بنُ عُقْبَةَ فِي مَغَازِيهِ أَنَّهُمْ كَانُوا ثَمَانِيَةً، مِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَهُ ابنُ إِسْحَاقَ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يَذْكُرْهُ وَهُمْ:

---

(١) هو قُطبَةُ بنُ عامرِ الخزرجِيُّ الأنصاريّ، شهد العقبَةَ الأولى والثانِيَة، ولم يختلفوا في ذلك، وشَهِدَ بَدْرًا، وأحُدًا، والخنَدَق، والمَشَاهِدَ كلَّها مع رسول الله ﷺ، وكانت معه رايَةُ بَنِي سلِمَةَ يوم الفَتحِ، وجُرِحَ يومَ أُحُدٍ تِسْعَ جِرَاحَاتٍ، وتوفي ﷺ في خلافة عُثمان ﷺ. انظر أسد الغابة (٣/٤٨٦).

(٢) هو عُقْبَةُ بنُ عَامِرِ الخَزْرَجِيُّ الأنصارِيُّ، شهد العَقَبة الأولى وبَدرًا وأُحُدًا والخَنْدق، وسائرَ المَشَاهد، واستشهد بمعركةِ اليَمَامة في قِتال مُسَيْلَمَةَ الكذَّاب في خِلافة أبي بكر الصديق ﷺ. انظر أسد الغابة (٣/٢٥٩).

(٣) هو جابر بن عبد الله بن رِئاب بن سلمة الأنصاري السُلمي، شهد العقبة وبدرًا وأحدًا والخندق، وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ. انظر أسد الغابة (١/٢٩٣).

(٤) انظر سيرة ابن هشام (٢/٤٢).

١ ـ أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ رضي الله عنه.

٢ ـ رَافِعُ بنُ مَالِكٍ رضي الله عنه.

٣ ـ مُعَاذُ بنُ عَفْرَاءَ رضي الله عنه(١).

٤ ـ يَزِيدُ بنُ ثَعْلَبَةَ رضي الله عنه(٢).

٥ ـ أَبُو الهَيْثَمِ بنُ التَّيِّهَان رضي الله عنه(٣).

٦ ـ عُوَيْمُ بنُ سَاعِدَةَ رضي الله عنه(٤).

٧ ـ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ رضي الله عنه(٥).

---

(١) هو مُعَاذُ بنُ عَفْرَاءَ، ونُسِبَ إلى أمِّه عَفْرَاءَ بنتِ عُبَيْدِ بنِ مَالك، وهو مُعاذُ بنُ الحَارِثِ، شَهِدَ العَقَبَة الأولى وشَهِدَ بَدرًا، وشارَكَ في قَتْلِ أبي جَهْلٍ، وعاشَ بعدَ ذَلِكَ، وقيلَ: بل جُرِحَ بِبَدْرٍ فمَاتَ من جِرَاحَتِهِ. انظر الإصابة (٦/١١٠).

(٢) هو يزِيدُ بن ثَعْلَبَةَ الخزرجي شهدَ العقبةَ الأولى والثانية. انظر أسد الغابة (٤/٣٣٤).

(٣) هو مالكُ بن عَتِيكٍ مشهُورٌ بكنيتِهِ الخَزْرَجيُّ، كان أحدَ النُّقَبَاءِ ليلَةَ العَقَبَة، وآخَى رسولُ الله ﷺ بينهُ وبينَ عُثْمَانَ بن مَظْعُونٍ، ثم شَهِدَ بدرًا، واختُلِف في وقتِ وفَاتِهِ، والأصوَبُ أنه تُوفي سنة عِشرين أو إحدى وعشرين للهجرة. انظر الإصابة (٧/٣٦٥).

(٤) هو عُوَيْمُ بن سَاعِدَةَ الأنصاري الأوسِي، شهِدَ العَقَبَتَيْنِ، آخَى الرسولُ ﷺ بينه وبين حَاطِبِ بن أَبِي بَلْتَعة، وشهد بدرًا، وأحدًا، والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وتوفي رضي الله عنه في خِلافَةِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر أسد الغابة (٣/٤٣١).

(٥) هو عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ الخزرجي الأنصاري، يُكنى أبَا الوليد، شهِدَ العقبةَ الأولى والثانيةَ، وشهِدَ بدرًا والمشَاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ثم وجَّهَهُ عمرُ بن الخطابِ إلى الشام قَاضِيًا ومُعَلمًا، فأقام بِحِمْص، ثم انتقل إلى فِلِسْطِين، ومات بها، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. انظر الإصابة (٣/٥٠٦).

٨ ـ ذَكْوَانُ بنُ عَبْدِ قَيْسٍ[١].

وَذَكَرَ ابنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ القَوْلَيْنِ، وَعِنْدَمَا ذَكَرَ الرِّوَايَةَ الَّتِي تَقُولُ بِأَنَّهُمْ سِتَّةٌ ـ وَهِيَ رِوَايَةُ ابنِ إِسْحَاقَ ـ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بنُ عُمَرَ الوَاقِدِيُّ: هَذَا عِنْدَنَا أَثْبَتُ مَا سَمِعْنَا فِيهِمْ، وَهُوَ المُجْتَمِعُ عَلَيْهِ[٢].

** ** **

(١) هو ذَكْوَانُ بن عَبْدِ قَيْسٍ، يكنى أبا السَّبُع، شهد العقبة الأولى والثانية، ثم خرجَ من المدينة مهاجرًا إلى النبي ﷺ، وهو بمكة، فكانَ يُقَال له: أنصَارِي مُهَاجِري، وشهد بدرًا، وقُتِل ﷺ يوم أحد شهيدًا. انظر أسد الغابة (٢/١٤٥).

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد (١/١٠٥).

بَيْعَةُ العَقَبَةِ الأوْلَى

فَلَمَّا رَجَعَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ إِلَى المَدِينَةِ ذَكَرُوا لِقَوْمِهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَدَعَوْهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ حَتَّى فَشَا[1] فِيهِمْ، فَلَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا ذِكْرٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا كَانَ العَامُ المُقْبِلُ، وَذَلِكَ سَنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مِنَ البِعْثَةِ وَافَى[2] مَوْسِمَ الحَجِّ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، اثْنَانِ مِنَ الأَوْسِ، وَعَشَرَةٌ مِنَ الخَزْرَجِ، فِيهِمْ خَمْسَةٌ مِنَ السِّتَّةِ الذِينَ اجْتَمَعُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي العَامِ السَّابِقِ، وَهُمْ:

- مِنَ الخَزْرَجِ مِنْ بَنِي النَّجَارِ:

١ ـ أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ رضي الله عنه ـ ٢ ـ ٣ ـ عَوْفُ وَمُعَاذُ ابْنَا الحَارِثِ وَهُمَا ابْنَا عَفْرَاءَ.

- مِنْ بَنِي زُرَيْقِ بنِ عَامِرٍ:

٤ ـ رَافِعُ بنُ مَالِكٍ العَجْلَانِيُّ رضي الله عنه ـ ٥ ـ ذَكْوَانُ بُن عَبْدِ قَيْسٍ رضي الله عنه.

- مِنْ بَنِي عَوْفِ بنِ الخَزْرَجِ:

٦ ـ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ رضي الله عنه ـ ٧ ـ يَزِيدُ بنُ ثَعْلَبَةَ رضي الله عنه.

---

(١) فَشَا: انتَشَر وذَاعَ. انظر لسان العرب (١٠/٢٦٩).

(٢) وافَى: أي أَتَى. انظر لسان العرب (١٥/٣٥٩).

● مِنْ بَنِي سَالِمِ بنِ عَوْفٍ:

٨ ـ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بنِ نَضْلَةَ ﷺ[١].

● مِنْ بَنِي سَلِمَةَ:

٩ ـ قُطْبَةُ بنُ عَامِرٍ ﷺ.

● مِنْ بَنِي حَرَامِ بنِ كَعْبٍ:

١٠ ـ عُقْبَةُ بنُ عَامِرٍ ﷺ.

● مِنَ الأَوْسِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ:

١١ ـ أَبُو الهَيْثَمِ بنُ التَّيِّهَانِ ﷺ.

● مِنْ بَنِي عَمْرِو بنِ عَوْفٍ:

١٢ ـ عُوَيْمُ بنُ سَاعِدَةَ ﷺ.

لَقِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَؤُلَاءِ عِنْدَ العَقَبَةِ بِمِنًى، فَبَايَعُوهُ[٢].

عَلَامَ كَانَتِ البَيْعَةُ؟:

رَوَى ابنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ عَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مِمَّنْ

---

(١) هو العباسُ بن عُبادةَ بن نَضْلَةَ الأنصاري الخزرجي، شهد بيعة العَقَبَتين، ثم إنه خرج إلى رسول الله ﷺ وهو بمَكَّة، وقام معه حتى هاجر إلى المدينة فكان أنصاريًا مُهَاجِريًا، لم يشهَدْ بَدْرًا، وقُتِلَ ﷺ في غَزْوَةِ أُحُدٍ. انظر الإصابة (٣/٥١١).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/٤٤) ـ الروض الأنف (٢/٢٤٨) ـ البداية والنهاية (٣/١٦٢) ـ دلائل النبوة للبيهقي (٢/٤٣٥).

حَضَرَ العَقَبَةَ الأُولَى، وَكُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَبَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ[1]، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الحَرْبُ: عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِي، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا، وَلَا نَأْتِي بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلَا نَعْصِيهِ فِي مَعْرُوفٍ، فَإِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمُ الجَنَّةَ، وَإِنْ غَشِيتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ[2].

وَرَوَى الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عُبَادَةَ بنَ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: أَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ[3] مِنْ أَصْحَابِهِ: **«بَايِعُونِي[4] عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ[5]، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ[6] تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَّى[7]**

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/١٦٢): يعني على وَفْقِ ما نَزَلَتْ عليهِ آيةُ بيعَةِ النِّسَاءِ بعد ذلكَ عامَ الحُدَيْبِيَة ـ وهي في سورة الممتحنة آية (١٢).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/٤٧).

(٣) العِصَابةُ: بكسر العين الجَمَاعَةُ من العَشرةِ إلى الأربعين. انظر لسان العرب (٩/٢٣٢).

(٤) المُبَايَعَةُ: هي عبارةٌ عن المعاقدة والمعاهدة. انظر النهاية (١/١٧١).

(٥) قال الحافظ في الفتح (١/٩٢): خَصَّ القتلَ بالأولادِ لأنَّهُ قَتْلٌ وقطِيعَةُ رَحِمٍ، فالعِنَايةُ بالنهيِ عنه آكَدُ؛ ولأنه كان شَائِعًا فيهم، وهو وَأْدُ البَنَاتِ، وقتلُ البَنِينَ خَشْيَةَ الإملاقِ أي الفَقْرِ.

(٦) قال الحافظ في الفتح (١/٩٢): البُهْتَانُ: الكَذِبُ الذي يَبْهَتُ سَامِعَه، وخَصَّ الأيدي والأَرْجُل بالافتراءِ لأن مُعْظَم الأفعَالِ تَقَعُ بهما، إذ كانت هِيَ العَوَامل والحَوَامل للمباشرة والسَّعي، وقد يُعاقَبُ الرجل بجنَايَةٍ قولية، فيقال: هذا بما كَسَبَتْ يَدَاكَ.

(٧) فمَنْ وَفَى منكم: أي ثَبَتَ على العَهْدِ. انظر فتح الباري (١/٩٣).

مِنْكُمْ، فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ[1]، وَمَنْ أَصَابَ[2] مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ[3] لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ»[4]، فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ[5].

وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ الصَّحِيحَةِ تَصْرِيحٌ بِأَنَّ هَذِهِ البَيْعَةَ كَانَتْ لَيْلَةَ العَقَبَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ آيَةَ بَيْعَةِ النِّسَاءِ نَزَلَتْ بَعْدَ الحُدَيْبِيَةِ بِلَا خِلَافٍ، وَأَيْنَ العَقَبَةُ الأَوْلَى مِنَ الحُدَيْبِيَةِ؟

---

(١) قال الحافظ في الفتح (١/٩٣): أطلقَ هذا على سَبيلِ التَّفْخِيمِ، وعبر هنا بلفظ «**عَلَى**» للمبالغةِ في تحقُّقِ وقُوعِهِ كالواجبات، ويتعيَّنُ حملهُ على غير ظاهِرِهِ للأدلَّةِ القائِمَةِ على أنه لا يَجِبُ على الله شيءٌ، فإن قيلَ: لِمَ اقتصَرَ على المَنْهِيَّاتِ ولم يذكُر المأمُورات؟ فالجوابُ أنه لم يُهمِلْهَا، بل ذكرَهَا على طريقِ الإجمَالِ في قَوْلِهِ ﷺ: «**وَلَا تَعْصُوا**» إِذِ العِصْيَانُ مُخَالَفَةُ الأمرِ، والحِكْمَةُ في التَّنْصِيصِ على كثيرٍ من المَنْهِيَّاتِ دُونَ المَأْمُورَاتِ أن الكَفَّ أيسَرُ من إنشَاءِ الفِعْلِ؛ لأن اجتِنَابَ المفاسد مُقَدَّمٌ على اجتِلابِ المصالح، والتخَلِّي عن الرَّذَائِلِ قبل التحَلِّي بالفَضَائِلِ.

(٢) قال الإمام النووي في شرح مسلم (١١/١٨٦): المرادُ به ما سِوَى الشِّرْكِ، وإلا فالشِّرْكُ لا يُغْفَرُ لَهُ، وتكونُ عُقُوبَتُهُ كفَّارته له.

(٣) قال الحافظ في الفتح (١/٩٧): يُستفاد من الحديث أن إقامَةَ الحدِّ كفَّارة للذنبِ، ولو لم يَتُب المَحْدُودُ، وهو قولُ الجمهور.

(٤) قال الحافظ في الفتح (١/٩٧): ذهبَ الجمهورُ إلى أن مَنْ تَابَ لا يَبْقَى عليه مُؤَاخَذَةٌ، ومع ذلك فلا يأمن مَكْرَ الله؛ لأنه لا اطلاعَ لهُ هل قُبِلَتْ توبتُهُ أم لا.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الإيمان - باب (١١) - رقم الحديث (١٨) - وأخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الحدود - باب الحدود كفارات لأهلها - رقم الحديث (١٧٠٩).

فَمِنْ ثَمَّ سَلَكَ العُلَمَاءُ المُحَقِّقُونَ فِي مَقَالَةِ ابنِ إِسْحَاقَ عَلَى «بَيْعَةِ النِّسَاءِ» مَسَالِكَ:

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ: وَقَوْلُهُ - أَيْ ابنُ إِسْحَاقَ - عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ، يَعْنِي: عَلَى وَفْقِ مَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ آيةُ بَيْعَةِ النِّسَاءِ بَعْدَ ذَلِكَ عَامَ الحُدَيْبِيَةِ، وَكَانَ هَذَا مِمَّا نَزَلَ عَلَى وَفْقِ مَا بَايَعَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ لَيْلَةَ العَقَبَةِ، وَلَيْسَ هَذَا بِعَجِيبٍ، فَإِنَّ القُرْآنَ نَزَلَ بِمُوَافَقَةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ فِي غَيْرِ مَا مَوْطِنٍ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي سِيرَتِهِ، وَفِي التَّفْسِيرِ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ البَيْعَةُ وَقَعَتْ عَنْ وَحْيٍ غَيْرِ مَتْلُوٍّ فَهُوَ أَظْهَرُ، وَاللهُ أَعْلَمُ[1].

۞ الصَّحِيحُ فِي هَذِهِ البَيْعَةِ:

وَالصَّحِيحُ هُوَ مَا قَالَهُ الحَافِظُ فِي الفَتْحِ: أَنَّ المُبَايَعَةَ المَذْكُورَةَ فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ ﷺ عَلَى الصِّفَةِ المَذْكُورَةِ لَمْ تَقَعْ لَيْلَةَ العَقَبَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ الذِي وَقَعَ لَيْلَةَ العَقَبَةِ مَا ذَكَرَ ابنُ إِسْحَاقَ[2] وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ المَغَازِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِمَنْ حَضَرَ مِنَ الأَنْصَارِ: **«أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ»**، فَبَايَعُوهُ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى أَنْ يَرْحَلَ إِلَيْهِمْ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، وَمِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ ﷺ أَيْضًا عِنْدَ البُخَارِيِّ فِي صَحِيحِهِ قَالَ: بَايَعْنَا

---

(١) انظر البداية والنهاية (٣/١٦٢).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/٤٧).

رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ(١).

وَأَصْرَحُ مِنْ ذَلِكَ فِي هَذَا المُرَادِ مَا أَخْرَجَهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ عُبَادَةَ ﵁ أَنَّهُ جَرَتْ لَهُ قِصَّةٌ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ ﵁ بِالشَّامِ، فَقَالَ عُبَادَةُ ﵁: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، إِنَّكَ لَمْ تَكُنْ مَعَنَا إِذْ بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالكَسَلِ، وَعَلَى الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ الحَقَّ، وَلَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ نَنْصُرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ عَلَيْنَا يَثْرِبَ، فَنَمْنَعُهُ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَنْفُسَنَا، وَأَزْوَاجَنَا، وَأَبْنَاءَنَا، وَلَنَا الجَنَّةُ، فَهَذِهِ بَيْعَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ التِي بَايَعْنَاهُ عَلَيْهَا(٢).

فَهَذَا هُوَ الذِي وَقَعَ فِي هَذِهِ البَيْعَةِ الأُولَى، ثُمَّ صَدَرَتْ مُبَايَعَاتٌ أُخْرَى، مِنْهَا هَذِهِ البَيْعَةُ التِي فِي حَدِيثِ البَابِ فِي الزَّجْرِ عَنِ الفَوَاحِشِ المَذْكُورَةِ، وَالذِي يُقَوِّي أَنَّهَا وَقَعَتْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ الآيَةُ التِي فِي المُمْتَحِنَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الأحكام - باب كيف يبايع الإمام الناس - رقم الحديث (٧١٩٩) - (٧٢٠٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٠٩) (٤٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (٢٢٧٦٩).

(٣) سورة الممتحنة آية (١٢).

وَنُزُولُ هَذِهِ الآيَةِ مُتَأَخِّرٌ بَعْدَ قِصَّةِ الحُدَيْبِيَةِ بِلَا خِلَافٍ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ ﷺ هَذَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا بَايَعَهُمْ قَرَأَ الآيَةَ كُلَّهَا[1]، وَعِنْدَ مُسْلِمٍ فِي صَحِيحِهِ قَالَ: فَتَلَا عَلَيْنَا آيَةَ النِّسَاءِ قَالَ: ﴿... أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[2].

وَلِلطَّبَرَانِيِّ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ قَالَ عُبَادَةُ ﷺ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى مَا بَايَعَ عَلَيْهِ النِّسَاءُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَلِمُسْلِمٍ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُبَادَةَ ﷺ قَالَ: أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا أَخَذَ عَلَى النِّسَاءِ[3].

فَهَذِهِ أَدِلَّةٌ ظَاهِرَةٌ فِي أَنَّ هَذِهِ البَيْعَةَ إِنَّمَا صَدَرَتْ بَعْدَ نُزُولِ الآيَةِ، بَلْ بَعْدَ صُدُورِ البَيْعَةِ، بَلْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، ... وَإِنَّمَا حَصَلَ الالْتِبَاسُ مِنْ جِهَةِ أَنَّ عُبَادَةَ بنَ الصَّامِتِ ﷺ حَضَرَ البَيْعَتَيْنِ مَعًا: بَيْعَةَ العَقَبَةِ الأُولَى، وَالبَيْعَةَ عَلَى مِثْلِ بَيْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ الفَتْحِ، وَكَانَتْ بَيْعَةُ العَقَبَةِ مِنْ أَجَلِّ مَا يُمْتَدَحُ بِهِ، فَكَانَ يَذْكُرُهَا إِذَا حَدَّثَ تَنْوِيهًا بِسَابِقَتِهِ، فَلَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ البَيْعَةَ الَّتِي صَدَرَتْ عَلَى مِثْلِ بَيْعَةِ النِّسَاءِ عَقِبَ ذَلِكَ تَوَهَّمَ مَنْ لَمْ يَقِفْ عَلَى حَقِيقَةِ الحَالِ أَنَّ البَيْعَةَ الأُولَى وَقَعَتْ عَلَى ذَلِكَ، وَالرَّاجِحُ أَنَّ التَّصْرِيحَ بِذَلِكَ ـ بِأَنَّ بَيْعَةَ العَقَبَةِ الأُولَى كَانَتْ عَلَى بَيْعَةِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الحدود ـ باب الحدود كفارة ـ رقم الحديث (٦٧٨٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الحدود ـ باب الحدود كفارات لأهلها ـ رقم الحديث (١٧٠٩) (٤٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الحدود ـ باب الحدود كفارات لأهلها ـ رقم الحديث (١٧٠٩) (٤٣).

النِّسَاءِ - وَهْمٌ مِنْ بَعْضِ الرُّوَاةِ[1].

قَالَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ أَبُو شَهْبَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: وَهَذَا الذِي ذَكَرَهُ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ هُوَ الذِي يَجِبُ أَنْ يُصَارَ إِلَيْهِ، فَهُوَ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِالقُرْآنِ وَتَنَزُّلَاتِهِ، وَالسُّنَةِ وَطُرُقِ الجَمْعِ بَيْنَ رِوَايَاتِهَا المُخْتَلِفَةِ، وَبِالسِّيرَةِ وَتَوَارِيخِ الصَّحَابَةِ، وَلَهُ انْتِقَادَاتٌ كَثِيرَةٌ صَائِبَةٌ عَلَى ابنِ إِسْحَاقَ، وَغَيْرِهِ مِنْ كُتَّابِ السِّيَرِ وَتَارِيخِ الرِّجَالِ.

وَهَذِهِ التَّحْقِيقَاتُ وَالتَّنْبِيهُ إِلَى المَغَالِطِ وَالأَوْهَامِ فِي الرِّوَايَةِ، هِيَ مِنْ أَهَمِّ مَا يُعْنَى بِهِ الدَّارِسُونَ لِلسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي ضَوْءِ القُرْآنِ وَالسُّنَةِ، وَهِيَ قَدْ تَخْفَى عَلَى غَيْرِ المُتَخَصِّصِينَ فِي عُلُومِ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَعُلُومِهَا، فَالحَمْدُ للهِ الذِي هَدَانَا لِهَذَا[2].

وَالخُلَاصَةُ: أَنَّ المُبَايَعَةَ فِي العَقَبَةِ الأُوْلَى كَانَتْ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي العُسْرِ وَاليُسْرِ، وَفِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ وَقَوْلِ الحَقِّ، وَأَنْ لَا يَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى الوَلَاءِ وَالنُّصْرَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ المَدِينَةَ، وَأَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَهُمْ وَأَزْوَاجَهُمْ، وَأَوْلَادَهُمْ[3]، وَأَمَّا المُبَايَعَةُ عَلَى مِثْلِ بَيْعَةِ النِّسَاءِ فَقَدْ كَانَتْ بَعْدَ ذَلِكَ.

---

(١) انظر فتح الباري (١/٩٥).

(٢) انظر كتاب السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/٤٣٩) للدكتور محمد أبو شهبة رحمه الله تعالى.

(٣) أخرج هذه البيعة على هذا النحو: البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٧٠٥٥) (٧٠٥٦) - (٧١٩٩) (٧٢٠٠) - ومسلم في صحيحه - رقم الحديث (١٧٠٩) (٤٢).

أَوَّلُ جُمُعَةٍ[1] جُمِعَتْ فِي المَدِينَةِ قَبْلَ الهِجْرَةِ:

كَانَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ الجُمُعَةَ قَبْلَ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى المَدِينَةِ هُوَ: أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ رضي الله عنه.

فَقَدْ أَخْرَجَ ابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَأَبُو دَاودَ فِي سُنَنِهِ بِسَنَدٍ قَوِيٍّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنْتُ قَائِدَ أَبِي بَعْدَمَا ذَهَبَ بَصَرُهُ، وَكَانَ لَا يَسْمَعُ الأَذَانَ بِالجُمُعَةِ إِلَّا قَالَ: رَحْمَةُ اللهِ عَلَى أَسْعَدَ بنِ زُرَارَةَ، قُلْتُ: يَا أَبَتِ، إِنَّهُ لَتُعْجِبُنِي صَلَاتُكَ[2] عَلَى أَبِي أُمَامَةَ[3] كُلَّمَا سَمِعْتَ الأَذَانَ بِالجُمُعَةِ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ جَمَّعَ الجُمُعَةَ بِالمَدِينَةِ فِي حَرَّةٍ[4]

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/١١٩): إنما سُميت الجمعة جُمُعة؛ لأنها مشتَقَّة من الجَمْعِ، فإن أهل الإسلام يجتَمِعُون فيه في كُلِّ أسبوع مرَّة بالمَسَاجِدِ الكبار.
وقال الحافظ في الفتح (٣/٣): واختلف في تسمية اليوم بذلك، ... فقيل: لأن خلق آدم عليه السلام جُمِعَ فيه، فأخرج الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح - رقم الحديث (٢٣٧١٨) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «**أتدري ما يوم الجمعة؟**» قلتُ: هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم.
وهذا أوضح الأقوال، ويليه ما أخرجه عبد بن حميد، وابن حبان في قصة تجميع الأنصار مع أسعد بن زرارة رضي الله عنه.
وقال ابن القيم في زاد المعاد (١/٣٦٣): وكان من هَدْيِهِ ﷺ في يومِ الجُمُعَةِ تعظِيم هذا اليوم وتشرِيفُهُ، وتخصِيصُهُ بعبادَاتٍ يَختص بها عن غيره.

(٢) المقصود بالصلاة هنا الدعاء، لأن معنى الصلاةُ في اللغة: الدُّعاء. انظر النهاية (٣/٤٦).

(٣) أبو أُمَامة هي كُنية أسعدِ بن زُرارة رضي الله عنه.

(٤) الحرة: أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كثيرة. انظر النهاية (١/٣٥١).

بَنِي بَيَاضَةَ، فِي نَقِيعٍ يُقَالُ لَهُ: الخَضَمَاتُ[1]، قُلْتُ: وَكَمْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ رَجُلًا[2].

** ** **

(١) نقيع الخضمات: موضع كان يستنقع فيه الماء: أي يجتمع. انظر النهاية (٥/٩٤).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة ـ باب ذكر البيان بأن أسعدَ بن زُرارة هو الذي جمعَ أوَّل جمعةٍ بالمدينةِ ـ رقم الحديث (٧٠١٣) ـ وأخرجه أبو داود في سننه ـ كتاب الصلاة ـ باب الجمعة في القرى ـ رقم الحديث (١٠٦٩).

بَعْثُ مُصْعَبِ بنِ عُمَيرٍ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلامِ

لَمَّا انْتَهَى المَوْسِمُ وَانْصَرَفَ القَوْمُ رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ، بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُمْ شَابًّا مِنْ شَبَابِ المُسْلِمِينَ، السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ إِلَى الإِسْلَامِ، وَهُوَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ ﷺ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُقْرِئَهُم القُرْآنَ، وَيُعَلِّمَهُمْ الإِسْلَامَ، وَيُفَقِّهَهُمْ فِي الدِّينِ، فكَانَ مُصْعَبٌ ﷺ يُسَمَّى بِالمَدِينَةِ: المُقْرِئَ.

وَكَانَ نُزُولُ مُصْعَبٍ ﷺ بِالمَدِينَةِ عَلَى السَّيِّدِ الجَلِيلِ السَّابِقِ إِلَى الخَيْرِ أَسْعَدِ بنِ زُرَارَةَ ﷺ[(١)].

۞ نَجَاحُ مُصْعَبٍ ﷺ فِي مُهِمَّتِهِ:

وَقَدْ نَجَحَ مُصْعَبٌ ﷺ أَيَّمَا نَجَاحٍ فِي نَشْرِ الإِسْلَامِ، وَجَمْعِ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَتَخَطَّى الصِّعَابَ الَّتِي تُوجَدُ دَائِمًا فِي طَرِيقِ كُلِّ نَازِحٍ غَرِيبٍ، يُحَاوِلُ أَنْ يَنْقُلَ النَّاسَ مِنْ مَوْرُوثَاتٍ أَلِفُوهَا إِلَى نِظَامٍ جَدِيدٍ، يَشْمَلُ الحَاضِرَ وَالمُسْتَقْبَلَ، وَيَعُمَّ الإِيمَانَ وَالعَمَلَ، وَالخُلُقَ وَالسُّلُوكَ... وَمَا كَانَ مُصْعَبٌ ﷺ يَمْلِكُ مِنْ وَسَائِلِ الإِغْرَاءِ مَا يَطْمَعُ طُلَّابُ الدُّنْيَا وَنَهَازِي الفُرَصِ، كُلُّ مَا لَدَيْهِ

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢/٤٨) - دلائل النبوة للبيهقي (٢/٤٣١) - الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٦٣) - سبل الهدى والرشاد (٣/١٩٧).

ثَرْوَةٌ مِنَ الكِيَاسَةِ وَالفِطْنَةِ، قَبَسَهَا[(١)] مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وإِخْلَاصٌ للهِ، جَعَلَهُ يُضَحِّي بِمَالِ أُسْرَتِهِ وَجَاهِهَا فِي سَبِيلِ عَقِيدَتِهِ، . . .ثُمَّ هَذَا القُرْآنُ الذِي يَتَأَنَّقُ فِي تِلَاوَتِهِ، وَيَتَخَيَّرُ مِنْ رَوَائِعِهِ مَا يَغْزُو بِهِ الأَلْبَابَ، فَإِذَا الأَفْئِدَةُ تَرِقُّ لَهُ، وَتَنْفَتِحُ لِلدِّينِ الجَدِيدِ[(٢)].

۞ إِسْلَامُ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ وَأُسَيْدِ بنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:

وَكَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ عَلَى يَدِ مُصْعَبٍ ﷺ: سَيِّدَا بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ: سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ[(٣)]، وَأُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ[(٤)] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَبِإِسْلَامِهِمَا أَسْلَمَ جَمِيعُ بَنِي

---

(١) قَبَسَهَا: أخَذَها. انظر لسان العرب (١١/١١).

(٢) انظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى ص١٤٧.

(٣) هو سعدُ بن معاذِ بن النُّعمان الأوسي الأنصاري، البدري الذي اهتزَّ عرشُ الرحمن لِمَوْتِهِ.
أسلمَ على يَدِ مُصعبَ بنِ عُمَيْرٍ ﷺ، وبإسلامهِ أسلم كلُّ بنِي عبدِ الأشهَلِ، فكان من أعظَمِ الناسِ بَرَكَةً على قَوْمِهِ في الإسلامِ.
شهِدَ بَدْرًا باتِّفاقٍ، وأُحدًا، ورُمِيَ بسهمٍ يوم الخَنْدق، فعاشَ بعد ذلك شَهْرًا، حتى حَكَمَ في بني قُرَيْظَةَ، وأجِيبَتْ دعوتُهُ في ذلك، ثم انْتَفَضَ جُرْحُهُ، فَمَاتَ ﷺ. انظر الإصابة (٣/٧٠).

(٤) هو أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ الأوسي الأَشْهَلي الأنصاري، كان ممَّن شهدَ العقبة الثانيةَ، وهو من النُّقباء الاثنى عشر ليلةَ العقبةِ، أسلم قَدِيمًا على يَدِ مُصعَبِ بنِ عُمَيْر ﷺ.
لم يشهدْ بَدرًا، وشَهِد أُحدًا، وجُرح يوم أُحُد سبع جِرَاحات، وثبتَ مع رسول الله ﷺ حين انكشفَ الناس، وشهد باقي المَشَاهد مع رسول الله ﷺ.
توفي ﷺ في شعبان سنة عشرين على الصَّحِيحِ من الهجرةِ، وحمَلَهُ عُمَرُ بن الخطاب ﷺ وصلَّى عليه، ودُفِنَ بالبَقِيعِ ﷺ. انظر أسد الغابة (١/١٠٩).

عَبْدِ الأَشْهَلِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الأُصَيْرِمِ وَهُوَ عَمْرُو بنُ ثَابِتٍ[1]، فَإِنَّهُ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُ إِلَى يَوْمِ أُحُدٍ، فَكَانَتْ أَوَّلَ دَارٍ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ أَسْلَمَتْ بِأَسْرِهَا.

رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ: أَنَّ أَسْعَدَ بنَ زُرَارَةَ ﷺ خَرَجَ بِمُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ ﷺ يُرِيدُ بِهِ دَارَ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، وَدَارَ بَنِي ظَفَرٍ، فَدَخَلَ بِهِ حَائِطًا[2] مِنْ حَوَائِطِ بَنِي ظَفَرٍ، عَلَى بِئْرٍ يُقَالُ لَهَا: بِئْرُ مَرَقٍ، فَجَلَسَا فِي الحَائِطِ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِمَا رِجَالٌ مِمَّنْ أَسْلَمَ، وَكَانَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ، وَأُسَيْدُ بنُ حُضَيرٍ يَوْمَئِذٍ سَيِّدَا قَوْمِهِمَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، وَكِلَاهُمَا مُشْرِكٌ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، فَلَمَّا سَمِعَا بِمُصْعَبِ بنِ عُمَيرٍ ﷺ، وَنَشَاطِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلَامِ، قَالَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ لِأُسَيْدِ بنِ حُضَيرٍ: لَا أَبَالَكَ، انْطَلِقْ إِلَى هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ قَدْ أَتَيَا دَارَيْنَا لِيُسَفِّهَا ضُعَفَاءَنَا، فَازْجُرْهُمَا، وَانْهَهُمَا عَنْ أَنْ يَأْتِيَا دَارَيْنَا، فَإِنَّهُ لَوْلَا أَنَّ أَسْعَدَ بنَ زُرَارَةَ مِنِّي حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ كَفَيْتُكَ ذَلِكَ، هُوَ ابنُ خَالَتِي، وَلَا أَجِدُ عَلَيْهِ مَقْدَمًا.

فَأَخَذَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ حَرْبَتَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا رَآهُ أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ، قَالَ لِمُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ: هَذَا سَيِّدُ قَوْمِهِ قَدْ جَاءَكَ، فَاصْدُقِ اللهَ فِيهِ، قَالَ

(١) هو عَمْرُو بن ثابتِ بن وَقْشِ بن عبد الأشهل الأنصاري، ويُعرف عمرو هذا بأُصَيْرِم، وهو ابنُ أختِ حُذَيْفَةَ بنِ اليَمَانِ ﷺ.
تأَخَّر إسلامه ﷺ إلى يومِ أُحد، واستُشْهِدَ في أُحُدٍ، فهو الذي دخلَ الجنة ولم يُصَلِّ لله رَكعة. انظر الإصابة (٤/٥٠٠).

(٢) الحَائِطُ: البُسْتَانُ من النَّخيل إذا كان عليه حَائط وهو الجدار. انظر النهاية (١/٤٤٤).

مُصْعَبٌ: إِنْ يَجْلِسْ أُكَلِّمْهُ. فَجَاءَ أُسَيْدٌ فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا[١]، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمَا إِلَيْنَا تُسَفِّهَانِ ضُعَفَاءَنَا؟ اعْتَزِلَانَا إِنْ كَانَتْ لَكُمَا بِأَنْفُسِكُمَا حَاجَةٌ، فَقَالَ لَهُ مُصْعَبٌ بِلِسَانِ الْمُؤْمِنِ الهَادِئِ الوَاثِقِ مِنْ سَمَاحَةِ دَعْوَتِهِ: أَوَتَجْلِسُ فَتَسْمَعُ، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ كُفَّ عَنْكَ مَا تَكْرَهُ، فَقَالَ: أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ ﷺ: أَنْصَفْتَ، ثُمَّ رَكَزَ حَرْبَتَهُ، وَجَلَسَ إِلَيْهِمَا، فَكَلَّمَهُ مُصْعَبٌ بِالإِسْلَامِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ القُرْآنَ.

فَقَالَا ـ أَيْ مُصْعَبٌ وَأَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ: وَاللهِ لَعَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ، ثُمَّ قَالَ أُسَيْدٌ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الكَلَامَ وَأَجْمَلَهُ! كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدِّينِ؟

قَالَا لَهُ: تَغْتَسِلُ فَتَطَّهَّرُ وَتُطَهِّرُ ثَوْبَيْكَ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الحَقِّ، ثُمَّ تُصَلِّي، فَقَامَ فَاغْتَسَلَ وَطَهَّرَ ثَوْبَيْهِ، وَشَهِدَ شَهَادَةَ الحَقِّ، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: إِنَّ وَرَائِي رَجُلًا إِن اتَّبَعَكُمَا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَسَأُرْسِلُهُ إِلَيْكُمَا الآنَ: سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ.

ثُمَّ أَخَذَ حَرْبَتَهُ وَانْصَرَفَ إِلَى سَعْدٍ وَقَوْمِهِ، وَهُمْ جُلُوسٌ فِي نَادِيهِمْ[٢]، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ مُقْبِلًا، قَالَ: أَحْلِفُ بِاللهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أُسَيْدٌ بِغَيْرِ

---

(١) مُتَشَتِّمًا: أي عَابِسَ الوجه. انظر لسان العرب (٢٨/٧).

(٢) النَّادِي: مجتَمَع القوم وأهلُ المَجْلس. انظر النهاية (٣١/٥).

الوَجْهِ الذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ، فَلَمَّا وَقَفَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ عَلَى النَّادِي، قَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا فَعَلْتَ؟.

فَقَالَ: كَلَّمْتُ الرَّجُلَيْنِ، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ بِهِمَا بَأْسًا، وَقَدْ نَهَيْتُهُمَا فَقَالَا: نَفْعَلُ مَا أَحْبَبْتَ، وَقَدْ حُدِّثْتُ أَنَّ بَنِي حَارِثَةَ خَرَجُوا إِلَى أَسْعَدِ بنِ زُرَارَةَ لِيَقْتُلُوهُ، وَذلِكَ أَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ ابنُ خَالَتِكَ لِيُخْفِرُوكَ[1].

فَقَامَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ ﷺ مُغْضَبًا مُبَادِرًا، تَخَوُّفًا لِلَّذِي ذُكِرَ لَهُ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ، فَأَخَذَ الحَرْبَةَ مِنْ يَدِ أُسَيْدِ بنِ حُضَيْرٍ، ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ مَا أَرَاكَ أَغْنَيْتَ شَيْئًا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا رَآهُمَا سَعْدٌ مُطْمَئِنَّيْنِ، عَرَفَ أَنَّ أُسَيْدَ بنَ حُضَيْرٍ إِنَّمَا أَرَادَ مِنْهُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُمَا، فَوَقَفَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ عَلَى أَسْعَدِ بنِ زُرَارَةَ وَمُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ مُتَشَمِّتًا، ثُمَّ قَالَ لِأَسْعَدِ بنِ زُرَارَةَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ! أَمَا وَاللهِ لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ القَرَابَةِ مَا رُمْتَ[2] هَذَا مِنِّي، أَتَغْشَانَا فِي دَارِنَا بِمَا نَكْرَهُ؟.

وَكَانَ أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ قَدْ قَالَ لِمُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ: لَقَدْ جَاءَكَ وَاللهِ سَيِّدُ مَنْ وَرَاءِهِ مِنْ قَوْمِهِ، إِنْ يَتَّبِعْكَ لَا يَتَخَلَّفُ مِنْهُم اثْنَانِ.

فَقَالَ مُصْعَبٌ لِسَعْدِ بنِ مُعَاذٍ: أَوَتَقْعُدَ فَتَسْمَعَ؟ فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا،

---

(١) قال الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه السيرة النبوية (١/٤٤٢): كان غَرَضُ أُسَيْدِ بن حُضَيْر ﷺ إثارَةُ حميَّةِ سعدِ بن مُعاذٍ ﷺ ليَقُومَ ويذهَبَ إلى أسعَدَ بنِ زُرارة ﷺ وصاحِبِهِ مُصْعَب ﷺ، ويسمع منه.

(٢) رُمْتَ: أي بَلَغْتَ.

وَرَغِبْتَ فِيهِ قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ عَزَلْنَا مِنْكَ مَا تَكْرَهُ. فَقَالَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه: أَنْصَفْتَ، ثُمَّ رَكَزَ الحَرْبَةَ وَجَلَسَ فَعَرَضَ مُصْعَبٌ عَلَيْهِ الإِسْلَامَ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الزُّخْرُفِ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[1].

قَالَا ـ أَيْ مُصْعَبٌ وَأَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ ـ: فَعَرَفْنَا وَاللهِ فِي وَجْهِهِ الإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، لِإِشْرَاقِهِ وِتَسَهُّلِهِ.

ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَنْتُمْ أَسْلَمْتُمْ، وَدَخَلْتُمْ فِي هَذَا الدِّينِ؟

قَالَا: تَغْتَسِلُ، فَتَطَّهَّرُ وَتُطَهِّرُ ثِيَابَكَ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الحَقِّ، ثُمَّ تُصَلِّي، فَقَامَ وَاغْتَسَلَ، وَطَهَّرَ ثِيَابَهُ، ثُمَّ شَهِدَ شَهَادَةَ الحَقِّ، ثُمَّ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَخَذَ حَرْبَتَهُ، فَأَقْبَلَ عَائِدًا إِلَى نَادِي قَوْمِهِ، وَمَعَهُ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ، فَلَمَّا رَآهُ قَوْمُهُ مُقْبِلًا قَالُوا: نَحْلِفُ بِاللهِ لَقَدْ رَجَعَ إِلَيْكُمْ سَعْدٌ بِغَيْرِ الوَجْهِ الذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ! كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَمْرِي فِيكُمْ؟

قَالُوا: سَيِّدُنَا وَأَفْضَلُنَا رَأْيًا، وَأَيْمَنُنَا نَقِيبَةً[2]، قَالَ: فَإِنَّ كَلَامَ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ.

قَالَا ـ أَيْ أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ رضي الله عنه وَمُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ رضي الله عنه: فَوَاللهِ مَا أَمْسَى فِي

---

(١) سورة الزخرف ـ آية (١ ـ ٣).

(٢) مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ: أي مُنَجَّح الفِعَالِ، مُظَفَّرُ المَطَالِبِ، والنَّقِيبَةُ: النَّفس، وقيل الطبيعَة والخَلِيقَة. انظر النهاية (٥/٨٩).

دَارِ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا وَمُسْلِمَةً إِلَّا الأُصَيْرِمُ عَمْرُو بنُ ثَابِتٍ، فَإِنَّهُ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُ إِلَى يَوْمِ أُحُدٍ فَأَسْلَمَ، وَاسْتُشْهِدَ بِأُحُدٍ، وَلَمْ يُصَلِّ للهِ سَجْدَةً قَطُّ، وَأَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ[1].

وَأَقَامَ مُصْعَبٌ ﷺ فِي مَنْزِلِ أَسْعَدِ بنِ زُرَارَةَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الإِسْلَامِ، حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مُسْلِمُونَ[2].

** ** **

(١) أخرج قصة إسلام سعد بن معاذ ﷺ، وأسيد بن حضير ﷺ: ابن إسحاق في السيرة (٤٩/٢) ـ والبيهقي في دلائل النبوة (٤٣١/٢) ـ وأخرج قصة إسلام الأصيرم يوم أُحد واستشهاده فيها: ابن إسحاق في السيرة (١٠٠/٣) ـ وأوردها الحافظ في الإصابة (٥٠٠/٤) ـ وصحح إسناده.

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٤٩/٢) ـ دلائل النبوة للبيهقي (٤٣١/٢) ـ الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٢٣/٣).

سَبَبُ تَهَيُّؤِ الأنْصَارِ لِلإِسْلامْ

قَبْلَ أَنْ نَتَكَلَّمَ عَنْ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ، نَذْكُرُ سَبَبَ سُرْعَةِ إِسْلَامِ الأَنْصَارِ.

سَاعَدَتْ عَلَى سُرْعَةِ إِسْلَامِ الأَنْصَارِ عِدَّةُ عَوَامِلٍ، هِيَ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى وَتَيْسِيرِهِ وَصُنْعِهِ، كَانَتْ فَارِقَةً بَيْنَ قُرَيْشٍ وَأَهْلِ مَكَّةَ، وَقَبَائِلِ يَثْرِبَ العَرَبِيَّةِ:

١ ـ مِنْهَا مَا طَبَعَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الرِّقَّةِ وَاللِّينِ، وَعَدَمِ المُغَالَاةِ فِي الكِبْرِيَاءِ وَجُحُودِ الحَقِّ، وَذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى الخَصَائِصِ الدَّمَوِيَّةِ وَالسُّلَالِيَّةِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ وَفَدَ وَفْدٌ مِن اليَمَنِ، بِقَوْلِهِ: **«أَتَاكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ، هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً، وَأَلْيَنُ[1] قُلُوبًا»**[2] وَهُمَا ـ أَيْ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ ـ تَرْجِعَانِ فِي أَصْلِهِمَا إِلَى اليَمَنِ، نَزَحَ أَجْدَادُهُمَا مِنْهَا فِي الزَّمَنِ القَدِيمِ.

٢ ـ وَمِنْهَا أَنَّهُمَا ـ أَيْ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ ـ قَدْ أَنْهَكَتْهُمَا الحُرُوبُ الدَّاخِلِيَّةُ،

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم (٢/٢٨): وأما وصفها باللِّين والرِّقةِ والضعف، فمعناهُ: أنها ذَاتُ خَشْيَةٍ واستِكَانَةٍ، سرِيعة الاستجابَةِ، والتأثُّرِ بقَوَارع التذْكِيرِ، سالِمَةً من الغِلَظِ والشِّدَّةِ والقَسْوَة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المغازي ـ باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن ـ رقم الحديث (٤٣٨٨) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه ـ رقم الحديث (٥٢) (٩٠).

وَمَا يَوْمُ بُعَاثٍ بِبَعِيدٍ، وَقَدْ اكْتَوَوْا بِنَارِهَا، وَذَاقُوا مَرَارَتَهَا، وَعَافُوهَا، وَنَشَأَتْ فِيهِمْ رَغْبَةٌ فِي اجْتِمَاعِ الكَلِمَةِ، وَانْتِظَامِ الشَّمْلِ، وَالتَّفَادِي مِنَ الحُرُوبِ، وَذَلِكَ مَا عَبَّرُوا فِيهِ بِقَوْلِهِمْ: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ العَدَاوَةِ وَالشَّرِ مَا بَيْنَهُمْ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللهُ بِكَ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ بِكَ، فَلَا رَجُلَ أَعَزَّ مِنْكَ(١).

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كَانَ يَوْمُ بُعَاثٍ يَوْمًا قَدَّمَهُ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ(٢).

٣ ـ وَمِنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا، وَسَائِرَ العَرَبِ قَدْ طَالَ عَهْدُهُمْ بِالنُّبُوَّاتِ وَالأَنْبِيَاءِ، وَأَصْبَحُوا يَجْهَلُونَ مَعَانِيهَا بِطُولِ العَهْدِ، وَبِحُكْمِ الأُمِّيَّةِ وَالإِمْعَانِ فِي الوَثَنِيَّةِ، وَالبُعْدِ عَنِ الأُمَمِ التِي تَنْتَسِبُ إِلَى الأَنْبِيَاءِ، وَتَحْمِلُ الكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ ـ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهَا مِنَ التَّحْرِيفِ وَالعَبَثِ ـ وَذَلِكَ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ القُرْآنُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾(٣).

أَمَّا الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ فَكَانُوا يَسْمَعُونَ اليَهُودَ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ النُّبُوَّةِ وَالأَنْبِيَاءِ، وَيَتْلُونَ صُحُفَ التَّوْرَاةِ وَيُفَسِّرُونَهَا، بَلْ كَانُوا يَتَوَعَّدُونَهُمْ بِهِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ سَيُبْعَثُ نَبِيٌّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمٍ، وَفِي

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢/٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب مناقب الأنصار ـ رقم الحديث (٣٧٧٧) ـ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (٢٤٣٢٠).

(٣) سورة يس آية (٦).

ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وَبِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَ أَبْنَاءِ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ وَسُكَّانِ المَدِينَةِ مِنَ العَرَبِ المُشْرِكِينَ تِلْكَ الفَجْوَةُ العَمِيقَةُ الوَاسِعَةُ مِنَ الجَهْلِ وَالنُّفُورِ مِنَ المَفَاهِيمِ الدِّينِيَّةِ، وَالسُّنَنِ الإِلَهِيَّةِ، الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ وَجِيرَانِهِمْ مِن العَرَبِ، بَلْ قَدْ عَرَفُوهَا وَأَلِفُوهَا عَنْ طَرِيقِ اليَهُودِ وَأَهْلِ الكِتَابِ، الذِينَ كَانُوا يَخْتَلِطُونَ بِهِمْ بِحُكْمِ البَلَدِ وَالجِوَارِ وَالصُّلْحِ وَالحَرْبِ وَالمُحَالَفَاتِ، فَلَمَّا تَعَرَّفُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ حَضَرُوا المَوْسِمَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، ارْتَفَعَتْ الغِشَاوَةُ عَنْ عُيُونِهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ عَلَى مِيعَادٍ[2].

** ** **

(١) سورة البقرة آية (٨٩) ـ وانظر سيرة ابن هشام (٢/٤٢).

(٢) انظر السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي رحمه الله تعالى ص١٥٦ ـ ١٥٧.

بَيْعَةُ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ

لَمَّا اقْتَرَبَ مَوْسِمُ الحَجِّ مِنَ السَّنَةِ الثَالِثَةِ عَشْرَةَ لِلْبِعْثَةِ اجْتَمَعَ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا مِنَ الأنْصَارِ فَقَالُوا: حَتَّى مَتَى نَذَرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟.

فَتَوَاعَدُوا عَلَى المَسِيرِ إِلَى الحَجِّ، وَمُلَاقَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَخَرَجُوا مَعَ حُجَّاجِ قَوْمِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَهُمْ خَمْسُمِائَةٍ، حَتَّى قَدِمُوا مَكَّةَ مَعَ الحَجِيجِ فِي مَنَازِلِهِمْ مُسْتَخْفِينَ بِإِسْلَامِهِمْ، وَكَانَ مَعَهُمْ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ رضي الله عنه، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ جَاءَ مَنْزِلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوَّلًا، وَلَمْ يَقْرَبْ مَنْزِلَهُ، فَجَعَلَ يُخْبِرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الأنْصَارِ، وَسُرْعَتِهِمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَيَقُصُّ عَلَيْهِ خَبَرَ قَبَائِلِ يَثْرِبَ، وَمَا لَهَا مِنْ قُوَّةٍ وَمَنَعَةٍ، فَسُرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ، وَدَعَا لَهُ.

ثُمَّ جَرَتْ بَيْنَ الأنْصَارِ الثَّلَاثَةِ وَالسَّبْعُونَ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ اتِّصَالَاتٌ سِرِّيَّةٌ أَدَّتْ إِلَى اتِّفَاقِ الفَرِيقَيْنِ عَلَى أَنْ يَتَجَمَّعُوا فِي أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ(١) فِي الشِّعْبِ(٢) الذِي عِنْدَ العَقَبَةِ حَيْثُ الجَمْرَةُ الأولَى مِنْ مِنًى، لِإِبْرَامِ اتِّفَاقٍ هُوَ مِنْ

---

(١) أيامُ التشْرِيقِ: هي ثلاثةُ أيامٍ تَلِي عِيدَ الأضحَى، سُمِّيَتْ بذلك لأنَّ الهَدْيَ والضَّحَايا لا تُنْحَرُ حتى تُشْرِقَ الشَّمْسُ، أي تَطْلُعَ. انظر النهاية (٢/٤١٦).

(٢) الشِّعْبُ: ما انفَرَجَ بين جبَلَيْنِ، وقيلَ هوَ الطريقُ في الجَبَلِ. انظر لسان العرب (٧/١٢٨).

أَعْظَمِ، وَأَهَمِّ الاِتِّفَاقِيَّاتِ فِي تَارِيخِ الإِسْلَامِ، وَأَنْ يَتِمَّ هَذَا الاِجْتِمَاعُ فِي سِرِيَّةٍ تَامَّةٍ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ(١).

۞ سِيَاقُ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ:

وَلْنَتْرُكْ أَحَدَ قَادَةِ الأَنْصَارِ يَصِفُ لَنَا هَذَا الاِجْتِمَاعَ التَّارِيْخِيَّ، الذِي حَوَّلَ مَجْرَى الأَيَّامِ فِي صِرَاعِ الوَثَنِيَّةِ وَالإِسْلَامِ، قَالَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: خَرَجْنَا إِلَى الحَجِّ مَعَ حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِن المُشْرِكِينَ، وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقِهْنَا، وَمَعَنَا البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا، فَلَمَّا تَوَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا، وَخَرَجْنَا مِنَ المَدِينَةِ... قَالَ: فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ، وَكُنَّا لَا نَعْرِفُهُ، لَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَقِيَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفَانِهِ؟ قُلْنَا: لَا وَاللهِ، قَالَ: فَهَلْ تَعْرِفَانِ العَبَّاسَ بنَ عَبْدَ المُطَّلِبِ، عَمَّهُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، وَكُنَّا نَعْرِفُ العَبَّاسَ، كَانَ لَا يَزَالُ يَقْدُمُ عَلَيْنَا تَاجِرًا. قَالَ: فَإِذَا دَخَلْتُمَا المَسْجِدَ، فَهُوَ الرَّجُلُ الجَالِسُ مَعَ العَبَّاسِ، تَرَكْتُهُ مَعَهُ الآنَ جَالِسًا. قَالَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: فَدَخَلْنَا المَسْجِدَ، فَإِذَا العَبَّاسُ جَالِسٌ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ جَالِسٌ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِمَا، ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ: «**هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يا عَبَّاسُ؟**».

قَالَ: نَعَمْ، هَذَانِ الرَّجُلَانِ مِنَ الخَزْرَجِ - وَكَانَتِ الأَنْصَارُ إِنَّمَا تُدْعَى فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا - هَذَا البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢/٥٢) - الرحيق المختوم ص١٤٧ - طبقات ابن سعد (١/١٠٦).

قَوْمِهِ، وَهَذَا كَعْبُ بنُ مَالِكٍ.

قَالَ كَعْبٌ: فَوَاللهِ مَا أَنْسَى قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «الشَّاعِرُ؟»[١].

قَالَ كَعْبٌ: نَعَمْ.

قَالَ كَعْبٌ: ...وَخَرَجْنَا إِلى الحَجِّ، فَوَاعَدنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ العَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الحَجِّ، وَكَانَت اللَّيْلَةُ التِي وَعَدَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَنَا عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرِو بنِ حَرَامٍ، أَبُو جَابِرٍ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا، وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ المُشْرِكِينَ أَمْرَنَا، فَكَلَّمْنَاهُ، وَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا جَابِرٍ، إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا، ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، وَشَهِدَ مَعَنَا العَقَبَةَ، وَكَانَ نَقِيبًا.

قَالَ كَعْبٌ: فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا[٢]، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ، وَهَدَأَت الرِّجْلُ[٣]، خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَتَسَلَّلُ[٤] مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ القَطَا[٥]، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ العَقَبَةِ، وَنَحْنُ ثَلَاثَةٌ

---

(١) قلتُ: سبَبُ فَرَحِ الرَّسُولِ ﷺ بكعبِ بنِ مَالِكٍ ﷺ كونه شاعِرًا؛ لأنَّ الشِّعْرَ يُعْتَبَرُ من أهمِّ وسائِلِ الإعلام المَوْجُودَةِ في ذلكَ الوَقْتِ، فكأنَّهُ سَيَنْشُرُ الدعوةَ بشِعْرِهِ كما لا يَنْشُرُهَا أحدٌ غيرُهُ لا يملِكُ هذِهِ المَوْهِبَةَ.

(٢) الرِّحَالُ: يعنِي الدُّورُ والمَسَاكِنُ والمنازل. انظر لسان العرب (٥/١٦٩).

(٣) أي قَلّ المَشْيُ، وقلَّتْ حركَةُ النَّاس.

(٤) تَسَلَّلَ: انطلَقَ في استِخْفَاءٍ. انظر لسان العرب (٦/٣٣٨).

(٥) القَطَا: طائِرٌ مَعْرُوف، سُمي بذلك لِثِقَلِ مَشْيِهِ. انظر لسان العرب (١١/٢٣٣).

وَسَبْعُونَ، فِيهِمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا مِنْ ذَوِي أَسْنَانِهِمْ وَأَشْرَافِهِمْ، وَثَلَاثُونَ شَابًّا، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِنَا: نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ أُمُّ عُمَارَةَ[١]، إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بنِ النَّجَارِ، وَأَسْمَاءُ[٢] بِنْتُ عَمْرٍو أُمُّ مَنِيعٍ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلِمَةَ.

❁ اسْتِيثَاقُ العَبَّاسِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَعَزْمُ الأَنْصَارِ عَلَى البَيْعَةِ:

وَاجْتَمَعَتِ الأَنْصَارُ بِالشِّعْبِ يَنْتَظِرُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى جَاءَهُمْ وَمَعَهُ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابنَ أَخِيهِ، وَيَتَوَثَّقَ لَهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ قَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى ذَلِكَ المَوْضِعِ وَمَعَهُ عَمُّهُ العَبَّاسُ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ طَلَعَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ رَافِعُ بنُ مَالِكٍ ﷺ، فَلَمَّا نَظَرَ العَبَّاسُ فِي وُجُوهِهِمْ قَالَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُهُمْ، هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ[٣].

وَبَعْدَ أَنْ تَكَامَلَ المَجْلِسُ بَدَأَت المُحَادَثَاتُ لِإِبْرَامِ التَّحَالُفِ الدِّينِّي وَالعَسْكَرِيِّ، وَكَانَ أَوَّلَ المُتَكَلِّمِينَ هُوَ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، تَكَلَّمَ لِيَشْرَحَ لَهُمْ - بِكُلِّ صَرَاحَةٍ - خُطُورَةَ المَسْؤُولِيَّةِ التِي سَتُلْقَى عَلَى

(١) هي نُسَيْبَةُ بنتُ كَعْبِ بن عَمْرٍو الفاضلة المُجَاهدة الأنصارية الخزرجية النَّجَّارية المَازِنيَّة المدنيَّة أمُّ عُمَارة، مشهُورَةٌ بكُنْيَتِهَا واسمها معًا.
شهِدَت العقبةَ، وشهدت أُحُدًا، والحديبيةَ، ويومَ حُنَيْن، ويوم اليمامةِ، وجاهَدَت، وقُطِعَتْ يَدُهَا في الجِهَاد. انظر سير أعلام النبلاء (٢/٢٧٨).

(٢) هي أسماءُ بنتُ عمرٍو الأنصارية السُّلَمية، أم مُعَاذِ بن جبَل ﷺ، وكنيتُها أم مَنِيع، شهدَت العقبة الثانية. انظر الإصابة (٨/١٤).

(٣) أحداثٌ: جمعُ حَدَثٍ أي شَبَابٌ. انظر لسان العرب (٣/٧٦).

كَوَاهِلِهِمْ[1] نَتِيجَةَ هَذَا التَّحَالُفِ. فَقَالَ العَبَّاسُ: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ ـ وَكَانَتِ العَرَبُ يُسَمُّونَ هَذَا الحَيَّ مِن الأَنْصَارِ خَزْرَجَهَا وَأَوْسَهَا ـ إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَنَعَةٍ[2] فِي بَلَدِهِ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلَّا الانْحِيَازَ إِلَيْكُمْ، وَاللُّحُوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ، وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَمِنَ الآنَ فَدَعُوهُ، فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ.

قَالَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ ﵁ فَقُلْنَا لَهُ: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ[3].

فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَلَا عَلَيْنَا القُرْآنَ، وَدَعَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَغَّبَ فِي الإِسْلَامِ، فَأَجَبْنَاهُ، وَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَرَضِينَا بِمَا قَالَ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: **«تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي العُسْرِ وَاليُسْرِ، وَعَلَى الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا يَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ يَثْرِبَ، فَتَمْنَعُونِي**

---

(١) الكَوَاهِلُ: جمعُ كَاهِلٍ، وهو مُقَدَّمُ أعلَى الظَّهْرِ. انظر لسان العرب (١٢/١٧٩).

(٢) مَنَعَةٌ: أي قُوَّةٌ تَمْنَعُ مَن يريدُه بِسُوءٍ. انظر لسان العرب (١٣/١٩٥).

(٣) قال الشيخُ صفيُّ الرحمن المباركفُوري في الرحيق المختوم ص ١٤٨: وهذا الجواب يدلُّ على ما كانوا عليه من عَزْمٍ وتصميمٍ، وشجاعَةٍ وإيمانٍ وإخلاصٍ في تحمُّل هذه المسؤوليَّةِ العظِيمة، وتحمل عَوَاقِبِهَا الخَطِيرة.

مِمَا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الجَنَّةُ».

فَأَخَذَ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ ﷺ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ، وَالذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لَنَمْنَعَكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا(١)، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَنَحْنُ أَهْلُ الحُرُوبِ، وَأَهْلُ الحَلْقَةِ(٢)، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ.

فَاعْتَرَضَ القَوْلَ - وَالبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ - أَبُو الهَيْثَمِ بنُ التَّيِّهَانِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ - يَعْنِي اليَهُودَ - حِبَالًا(٣)، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا، فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟.

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، وَالهَدْمُ الهَدْمُ(٤)، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ».

فَقَالَ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ ﷺ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ابْسُطْ يَدَكَ يَا رَسُولَ اللهِ نُبَايِعْكَ.

---

(١) أُزُرَنا: أي نِساءنا وأهلنا، كنى عنهن بالأُزُرِ، وقيل: أرادَ أنفُسَنا، وقد يُكنى عن النفس بالإزَارِ. انظر النهاية (٤٧/١).

(٢) الحَلْقَة: بسكون اللام السلاح وقيل الدُّرُوع. انظر النهاية (٤١٠/١).

(٣) حِبالًا: أي عُهُودًا ومَوَاثِيق. انظر النهاية (٣٢١/١).

(٤) الهَدْمُ: يُروى بسكون الدال وفتحها، فالهَدَم بالتحريك: القَبْر يعني إني أُقبَر حيث تُقْبَرون. وقيل: هو المَنْزِل: أي منزلُكم مَنزلي، لا أفارِقُكم. والهدم بالسكون وبالفتح أيضًا: هو إهدَارُ دَمِ القَتِيل. والمعنى: إن طُلِبَ دَمُكم فقد طُلِبَ دمي، وإن أُهدر دمُكم فقد أُهدِرَ دمي، لاستِحْكَامِ الألفَةِ بَيْنَنَا، وهو قول معروفٌ للعرَبِ، يقولون: دَمِي دمُكَ وهَدْمي هَدْمُكَ، وذلك عند المُعَاهَدَة والنُّصْرَة. انظر النهاية (٢١٨/٥).

انْتِخَابُ النُّقَبَاءِ[1] وَعَقْدُ البَيْعَةِ:

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا لِيَكُونُوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ».

فَتَمَّ انْتِخَابُهُمْ فِي الحَالِ، وَكَانُوا تِسْعَةً مِنَ الخَزْرَجِ، وَثَلَاثَةً مِنَ الأَوْسِ، وَهَاكَ أَسْمَاءَهُمْ:

نُقَبَاءُ الخَزْرَجِ:

- نَقِيبُ بَنِي النَّجَارِ:

١ ـ أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ رضي الله عنه.

- نَقِيبُ بَنِي سَلِمَةَ:

٢ ـ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ رضي الله عنه ـ ٣ ـ عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرِو بنِ حَرَامٍ وَالِدُ جَابِرٍ رضي الله عنه.

- نَقِيبُ بَنِي سَاعِدَةَ:

٤ ـ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه ـ ٥ ـ المُنْذِرُ بنُ عَمْرٍو رضي الله عنه.

- نَقِيبُ بَنِي زُرَيْقٍ:

٦ ـ رَافِعُ بنُ مَالِكِ بنِ العَجْلَانِ رضي الله عنه.

---

(١) النُّقَبَاءُ: جمعُ نَقِيبٍ، وهو كالعَرِيفِ على القومِ المُقَدَّم عليهم، الذي يَتَعَرَّف أخبارهم. انظر النهاية (٥/٨٨).

● نَقِيبُ بَنِي الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ:

٧ ـ عَبْدُ اللهِ بنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه ـ ٨ ـ سَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ رضي الله عنه.

● نَقِيبُ بَنِي عَمْرِو بنِ عَوْفِ بنِ الخَزْرَجِ:

٩ ـ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ رضي الله عنه.

❁ **نُقَبَاءُ الأَوْسِ:**

● نَقِيبُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ:

١٠ ـ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ رضي الله عنه.

● نَقِيبُ بَنِي عَمْرِو بنِ عَوْفٍ:

١١ ـ سَعْدُ بنُ خَيْثَمَةَ رضي الله عنه ـ ١٢ ـ رِفَاعَةُ بنُ عَبْدِ المُنْذِرِ رضي الله عنه[١].

❁ **التَّأْكِيدُ مِنْ خُطُورَةِ البَيْعَةِ:**

وَبَعْدَ أَنْ تَمَّت المُحَادَثَةُ حَوْلَ شُرُوطِ البَيْعَةِ، وَأَجْمَعُوا عَلَى الشُّرُوعِ فِي عَقْدِهَا، قَامَ رَجُلَانِ مِنَ الرَّعِيلِ الأَوَّلِ مِمَّنْ أَسْلَمَ فِي مَوَاسِمِ سَنَتَيْ الحَادِيَةِ عَشْرَةَ، وَالثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِنَ البِعْثَةِ، قَامَ أَحَدُهُمَا تِلْوَ الآخَرِ، لِيُؤَكِّدَا لِلْقَوْمِ خُطُورَةَ المَسْؤُولِيَّةِ، حَتَّى لَا يُبَايِعُوهُ إِلَّا عَلَى وُضُوحٍ مِنَ الأَمْرِ، وَلِيَعْرِفَا مَدَى اسْتِعْدَادِ القَوْمِ لِلتَّضْحِيَةِ[٢].

---

(١) قال ابن هشام في السيرة (٢/٥٨): وأهلُ العِلمِ يَعُدُّونَ فيهم أبا الهَيْثَم بن التيِّهان، ولا يعُدُّونَ رِفَاعة.

(٢) انظر الرحيق المختوم ص١٥٠.

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا اجْتَمعُوا لِلْبَيْعَةِ، قَالَ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بنِ نَضْلَةَ ﷺ: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ! هَل تَدْرُونَ عَلَامَ تُبَايِعُونَ هَذَا الرَّجُلَ؟

قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكُمْ تُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ إِذَا نُهِكَتْ[1] أَمْوَالَكُمْ مُصِيبَةٌ، وَأَشْرَافُكُمْ قَتْلًا أَسْلَمْتُمُوهُ، فَمِنَ الآنَ، فَهُوَ وَاللهِ إِنْ فَعَلْتُمْ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ عَلَى نُهكَةِ الأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الأَشْرَافِ، فَخُذُوهُ، فَهُوَ وَاللهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُهُ عَلَى مُصِيبَةِ الأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الأَشْرَافِ، فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ نَحْنُ وَفَّيْنَا؟.

قَالَ ﷺ: «**الجَنَّةُ**»، قَالُوا: ابْسُطْ يَدَكَ، فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعُوهُ.

وَفِي رِوَايَةِ جَابِرٍ عِنْدَ ابنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، وَالإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ قَالَ: فَأَخَذَ أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ ﷺ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ - وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ - وَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ المَطِيِّ[2] إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ اليَوْمَ مُفَارَقَةُ العَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ

---

(١) النَّهكُ: النَّقْصُ. انظر النهاية (٥/١٢١).

(٢) المَطِيُّ: جمع مَطِيَّة، وهي النَّاقة التي يُركَبُ مَطَاها: أي ظَهْرها. انظر النهاية (٤/٢٩٠).
يُقال: فلانٌ تَضْرِب إليه أكبادُ الإبل: أي يُرحل إليهِ في طَلَبِ العلمِ وغَيره. انظر لسان العرب (٨/٣٦).

تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ(١)، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى السُّيُوفِ إِذَا مَسَّتْكُمْ، وَعَلَى قَتْلِ خِيَارِكُمْ، وَعَلَى مُفَارَقَةِ العَرَبِ كَافَّةً، فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ، فَهُوَ أَعْذَرُ عِنْدَ اللهِ.

فَقَالُوا: يَا أَسْعَدُ! أَمِطْ(٢) عَنَّا يَدَكَ، فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ البَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا(٣).

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلنُّقَبَاءِ: **«أَنْتُمْ عَلَى قَوْمِكُمْ بِمَا فِيهِمْ كُفَلَاءُ، كَكَفَالَةِ الحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ، وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي»** ـ يَعْنِي المُسْلِمِينَ ـ، قَالُوا: نَعَمْ.

فَقَامُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلًا رَجُلًا، يَأْخُذُ عَلَيْهِمْ بِشَرْطِهِ ـ أَيْ بِشَرْطِ الرَّسُولِ ﷺ ـ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ ﷺ، وَيُعْطِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ الجَنَّةَ(٤).

❁ أَوَّلُ مَنْ بَايَعَ:

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ ﷺ، فَقَدْ رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي

---

(١) أعضَضْتُهُ سَيْفِي: أي ضَرَبْتُه به. انظر لسان العرب (٢٥٦/٩).

(٢) أَمِطْ: أيْ أبْعِد. انظر النهاية (٣٢٥/٤).

(٣) استَقَالَ العَهْدَ: أي طَلَبَ أن يُفْسَخَ. انظر لسان العرب (٢٨٨/١١).

(٤) أخرج قصة بيعة العقبة الثانية: الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٥٧٩٨) (١٤٦٥٣) ـ وابن حبان في صحيحه ـ كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة ـ باب ذكر أسعد بن زرارة ﷺ ـ رقم الحديث (٧٠١١) (٧٠١٢) ـ وابن إسحاق في السيرة (٥٢/٢ ـ وما بعدها) ـ وأوردها الحافظ في الإصابة (١٤/٨) وصحح إسنادها ـ وهو كما قال.

مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ ﷺ، ثُمَّ تَتَابَعَ القَوْمُ(١).

وَرَوَى الحَاكِمُ فِي المُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي البِيْعَةِ لَهُ لَيْلَةَ العَقَبَةِ(٢).

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَهُ لَيْلَتَئِذٍ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ ﷺ، وَكَانَتْ لَهُ اليَدُ البَيْضَاءُ، إِذْ أَكَّدَ العَهْدَ، وَبَادَرَ إِلَيْهِ(٣).

۞ بَيْعَةُ المَرْأَتَيْنِ:

فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَيْعَةِ الرِّجَالِ بَايَعَ المَرْأَتَيْنِ قَوْلًا مِنْ غَيْرِ مُصَافَحَةٍ؛ لِأَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يُصَافِحُ النِّسَاءَ(٤)، وَإِنَّمَا كَانَ يَأْخُذُ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا أَقْرَرْنَ قَالَ: «اذْهَبْنَ فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ»(٥).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٥٧٩٨).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب كانَ أوّل من تكَلَّم من النُّقباء ـ البراء بن معرور ﷺ ـ رقم الحديث (٤٨٨٦).

(٣) انظر زاد المعاد (٣/٤٣).

(٤) روى الإمام البخاري في صحيحه ـ رقم الحديث (٥٢٨٨) ـ (٧٢١٤) ـ ومسلم في صحيحه ـ رقم الحديث (١٨٦٦) ـ عن عائشة رَضِيَ الله عَنْها قالت: والله ما مسَّت يدُ رسول الله ﷺ يَدَ امرأةٍ قط، غير أنه بايعهن بالكلام، والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النِّساء إلا بما أمره الله، يقول لهن إذا أخذ عليهن: «قد بايَعْتُكنَّ» كَلامًا.

(٥) انظر سيرة ابن هشام (٢/٧٩) ـ الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/٤٤٠).

❁ شَيْطَانٌ يَكْتَشِفُ المُعَاهَدَةَ:

قَالَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ ﷺ: فَلَمَّا بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ العَقَبَةِ بِأَنْفَذِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ: يَا أَهْلَ الجَبَاجِبِ ـ وَالجَبَاجِبُ: المَنَازِلُ ـ هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ(١) وَالصُّبَاةُ(٢) مَعَهُ؟ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا أَزَبُّ(٣) العَقَبَةِ، هَذَا ابنُ أَزْيَبَ، اسْمَعْ أَيْ عَدُوَّ اللهِ، أَمَا وَاللهِ لأَفْرَغَنَّ لَكَ**».

❁ صِدْقُ الأَنْصَارِ ﷺ فِي بَيْعَتِهِمْ:

فَقَالَ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بنَ نَضْلَةَ ﷺ لِلرَّسُولِ ﷺ: وَالذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، إِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ، وَلَكِنْ ارْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ**».

---

(١) روى الإمام البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ ـ رقم الحديث (٣٥٣٣) ـ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا تَعْجَبُونَ كيفَ يَصْرِفُ الله عني شَتْمَ قُرَيْشٍ ولعنَهُمْ؟ يشتُمُون مُذَمَّمًا، ويلعَنُونَ مُذَمَّمًا، وأنا مُحَمَّد**».

قالَ الحافظ في الفتح (٧/٢٥٠): كان الكفارُ من قُرَيش من شِدَّة كَرَاهَتِهِم في النبي ﷺ لا يُسَمُّونه باسمه الدَّالِّ على المدحِ فيعدِلُونَ إلى ضِدِّه فيقولون مُذَمم، وإذا ذكرُوهُ بِسُوءٍ قالوا: فعل اللهُ بمذمَّم، ومذمَّمٌ ليس هو اسمه ﷺ ولا يُعرف به فكان الذي يَقَع منهم في ذلك مَصْرُوفًا إلى غيره.

(٢) يُقال: صَبَأَ فُلان: إذا خَرج من دِينٍ إلى دِين غيره، وكانت العرب تُسمي النبي ﷺ الصَّابِئَ، لأنه خرج من دِين قريش إلى دين الإسلام. انظر النهاية (٣/٣).

(٣) أَزَبُّ العقَبَة: اسم شَيْطَانٍ كان بالعَقَبَة. انظر النهاية (١/٤٦).

فَرَجَعُوا إِلَى رِحَالِهِمْ وَنَامُوا حَتَّى أَصْبَحُوا[1].

قُرَيْشٌ تَبْحَثُ عَنِ الأَخْبَارِ عِنْدَ رُؤَسَاءِ يَثْرِبَ:

وَلَمَّا قَرَعَ هَذَا الخَبَرُ آذَانَ قُرَيْشٍ وَقَعَتْ فِيهِمْ ضَجَّةٌ أَثَارَتِ القَلَاقِلَ وَالأَحْزَانَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مَعْرِفَةٍ تَامَّةٍ مِنْ عَوَاقِبِ مِثْلِ هَذِهِ البَيْعَةِ وَنَتَائِجِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، فَمَا إِنْ أَصْبَحُوا حَتَّى تَوَجَّهَ وَفْدٌ كَبِيرٌ مِنْ زُعَمَاءِ مَكَّةَ وَأَكَابِرِ مُجْرِمِيهَا إِلَى مَنَازِلِ أَهْلِ يَثْرِبَ فِي مِنًى، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ! إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا[2] هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا، وَإِنَّهُ وَاللهِ مَا مِنْ حَيٍّ مِنَ العَرَبِ أَبْغَضُ إِلَيْنَا أَنْ تَنْشُبَ الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنْكُمْ[3].

فَانْبَعَثَ مِنْ هُنَاكَ مِنْ مُشْرِكِي الخَزْرَجِ يَحْلِفُونَ بِاللهِ: مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَمَا عَلِمْنَاهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ - أَيْ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ - أَتَوْا عَبْدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ بنِ سَلُولٍ، فَجَعَلَ يَقُولُ: هَذَا بَاطِلٌ، وَمَا كَانَ هَذَا، وَمَا كَانَ قَوْمِي لِيَفْتَاتُوا[4] عَلَيَّ مِثْلَ هَذَا، لَوْ كُنْتُ بِيَثْرِبَ مَا صَنَعَ قَوْمِي هَذَا حَتَّى يُؤَامِرُونِي.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٧٩٨) - وابن إسحاق في السيرة (٦١/٢) وإسناده حسن.

(٢) أي الرَّسول ﷺ.

(٣) أخرج ذلك: الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٥٧٩٨) - وابن إسحاق في السيرة (٦١/٢) وإسناده حسن.

(٤) افتَاتَ عليهِ: إذا انفَرَد برَأيه دونه في التصرف فيه. انظر النهاية (٤٢٩/٣).

أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَاذُوا بِالصَّمْتِ، فَلَمْ يَتَحَدَّثْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِنَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ.

وَصَدَّقَ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ الْمُشْرِكِينَ مِنْ يَثْرِبَ، فَرَجَعُوا خَائِبِينَ[١].

تَأَكُّدُ قُرَيْشٍ مِنْ صِحَةِ الخَبَرِ وَمُلَاحَقَتُهَا المُبَايِعِينَ:

وَنَفَرَ[٢] النَّاسُ مِنْ مِنًى، فَتَنَطَّسَتْ[٣] قُرَيْشٌ الخَبَرَ، فَوَجَدُوا أَنَّ الخَبَرَ صَحِيحٌ، وَالبَيْعَةُ قَدْ تَمَّتْ فِعْلًا، فَخَرَجُوا فِي طَلَبِ القَوْمِ، فَأَدْرَكُوا سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ، وَالمُنْذِرَ بنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَكِلَاهُمَا كَانَ نَقِيبًا، فَأَمَّا المُنْذِرُ بنُ عَمْرٍو فَأَعْجَزَ القَوْمَ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَفِرَّ، وَأَمَّا سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ فَأَخَذُوهُ، فَرَبَطُوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ، ثُمَّ أَقْبَلُوا بِهِ حَتَّى أَدْخَلُوهُ مَكَّةَ يَضْرِبُونَهُ، وَيَجْذِبُونَهُ بِشَعْرِهِ، وَكَانَ ذَا شَعْرٍ كَثِيرٍ.

قَالَ سَعْدٌ: فَوَاللهِ إِنِّي لَفِي أَيْدِيهِمْ إِذْ طَلَعَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فِيهِمْ رَجُلٌ وَضِيءٌ أَبْيَضُ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنْ يَكُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ القَوْمِ خَيْرٌ، فَعِنْدَ هَذَا، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي رَفَعَ يَدَهُ فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَا وَاللهِ مَا عِنْدَهُم بَعْدَ هَذَا مِنْ خَيْرٍ، قَالَ سَعْدٌ: فَوَاللهِ إِنِّي لَفِي أَيْدِيهِمْ يَسْحَبُونَنِي إِذْ

(١) أخرج ذلك الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٥٧٩٨) ـ والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٤٤٩) ـ وابن إسحاق في السيرة (٢/٦١) وإسناده حسن.

(٢) النَّفْرُ: التَّفَرُّق. انظر لسان العرب (١٤/٢٣١).

(٣) كلُّ من تَأَنَّق في الأمور، ودقَّق النظر فيها: فهو نَطِسٌ ومُتَنَطِّسٌ. انظر النهاية (٥/٦٣).

آوَى[1] لِي رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ مَعَهُمْ، فَقَالَ: وَيْحَكَ!! أَمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ قُرَيْشٍ جِوَارٌ وَلَا عَهْدٌ؟ فَقَالَ سَعْدٌ: بَلَى وَاللهِ، لَقَدْ كُنْتُ أُجِيرُ لِجُبَيْرِ بنِ مُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ تُجَّارَهُ، وَأَمْنَعُهُمْ مِمَّنْ أَرَادَ ظُلْمَهُمْ بِبِلَادِي، وَلِلْحَارِثِ بنِ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ، فَقَالَ لَهُ: وَيْحَكَ!! فَاهْتِفْ بِاسْمِ الرَّجُلَيْنِ، وَاذْكُرْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمَا، قَالَ: فَفَعَلْتُ، وَخَرَجَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَيْهِمَا، فَوَجَدَهُمَا فِي المَسْجِدِ عِنْدَ الكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُمَا: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الخَزْرَجِ الآنَ يُضْرَبُ بِالأَبْطَحِ[2] يَهْتِفُ بِكُمَا، وَيَذْكُرُ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَكُمَا جِوَارًا، قَالَا: مَنْ هُوَ؟

قَالَ: سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، قَالَا: صَدَقَ وَاللهِ، إِنْ كَانَ لَيُجِيرُ لَنَا تُجَّارَنَا، وَيَمْنَعُهُمْ أَنْ يُظْلَمُوا بِبَلَدِهِ، قَالَ: فَجَاءَا فَخَلَّصَا سَعْدًا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، فَانْطَلَقَ، وَكَانَ الذِي لَكَمَ سَعْدًا، سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو[3]، وَالرَّجُلُ الذِي آوَى لَهُ أَبَا البَخْتَرِيِّ بنَ هِشَامٍ[4].

وَكَانَتِ الأَنْصَارُ ائْتَمَرَتْ حِينَ فَقَدُوا سَعْدًا ﷺ، أَنْ يَكُرُّوا[5] إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ، فَرَحَلَ القَوْمُ جَمِيعًا إِلَى المَدِينَةِ[6].

---

(١) آوى له: أي رَقَّ ورَحِمَ. انظر لسان العرب (١/٢٧٥).

(٢) الأبطَح: هو أَبْطُح مكة، وهو مَسِيلُ وَادِيها. انظر النهاية (١/١٣٤).

(٣) سُهيل بن عَمرو أسلم ﷺ في فتح مكة وحسن إسلامه.

(٤) أبو البُخْتُري بن هشام قُتِل كَافرًا في غزوة بدر الكبرى.

(٥) الكَرُّ: الرُّجوع. انظر لسان العرب (١٢/٦٤).

(٦) أخرج تفاصيل بيعة العقبة الثانية: الإمام أحمد في مسنده بأسانيد قوية وحسنة - رقم الحديث (١٥٧٩٨) - (١٤٦٥٣) - (١٤٤٥٦) - وابن حبان في صحيحه بسند صحيح=

وَهْمُ ابنِ إِسْحَاقَ:

ذَكَرَ ابنُ إِسْحَاقَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَايَعَ الأَنْصَارَ فِي العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ بَيْعَةَ الحَرْبِ حَيْثُ أَذِنَ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي القِتَالِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَكُنْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي الحَرْبِ، فَلَمَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ فِيهَا، وَبَايَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي العَقَبَةِ الأَخِيرَةِ عَلَى حَرْبِ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ أَخَذَ لِنَفْسِهِ وَاشْتَرَطَ عَلَى القَوْمِ لِرَبِّهِ، وَجَعَلَ لَهُمْ عَلَى الوَفَاءِ بِذَلِكَ الجَنَّةَ، ثُمَّ ذَكَرَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ فِي القِتَالِ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾(١).

وَهَذَا مِنْ أَوْهَامِ ابنِ إِسْحَاقَ عَلَى جَلَالَتِهِ، فَالجِهَادُ لَمْ يُشْرَعْ إِلَّا فِي السَّنَةِ الأُولَى مِنَ الهِجْرَةِ، وَقَدْ وَافَقَهُ عَلَى هَذَا الوَهْمِ ابنُ هِشَامٍ أَيْضًا.

وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى عَدَمِ فَرْضِيَّةِ الجِهَادِ قَبْلَ العَقَبَةِ مِنْ أَنَّ العَبَّاسَ بنَ عُبَادَةَ بنِ نَضْلَةَ رضي الله عنه لَمَّا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: وَالذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ**»(٢).

= على شرط مسلم ـ كتاب التاريخ ـ باب وصف بيعة الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة ـ رقم الحديث (٦٢٧٤) ـ وكتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رضي الله عنهم ـ باب ذكر أسعد بن زرارة رضي الله عنه ـ رقم الحديث (٧٠١٢) ـ وباب ذكر البراء بن معرور رضي الله عنه ـ رقم الحديث (٧٠١١) ـ وابن إسحاق في السيرة (٢/٥٢) وما بعدها ـ والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٤٤٢).

(١) سورة الحج ـ آية (٣٩) ـ وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (٢/٨١).

(٢) أخرج ذلك: الإمام أحمد في مسنده ـ رقم الحديث (١٥٧٩٨) ـ وابن إسحاق في السيرة (٢/٦١) ـ وإسناده حسن.

فَضْلُ مَنْ شَهِدَ بَيْعَةَ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ:

رَوَى الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ ﵁ أَنَّهُ قَالَ: لَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ العَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَد بَدْرٍ(١)، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ(٢) فِي النَّاسِ مِنْهَا(٣).

قَالَ الشَّيْخُ صَفِيُّ الرَّحْمَنِ المُبَارَكْفُورِي: هَذِهِ هِيَ بَيْعَةُ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ ـ التِي تُعْرَفُ بِبَيْعَةِ العَقَبَةِ الكُبْرَى ـ وَقَدْ تَمَّتْ فِي جَوٍّ تَعْلُوهُ عَوَاطْفُ الحُبِّ وَالوَلَاءِ وَالتَّنَاصُرِ بَيْنَ أَشْتَاتِ المُؤْمِنِينَ، وَالثِّقَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالِاسْتِبْسَالِ فِي هَذَا السَّبِيلِ، فَمُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ يَحْنُو عَلَى أَخِيهِ المُسْتَضْعَفِ فِي مَكَّةَ، وَيَتَعَصَّبُ لَهُ، وَيَغْضَبُ مِنْ ظَالِمِهِ، وَتَجِيشُ(٤) فِي حَنَايَاهُ مَشَاعِرُ الوُدِّ لِهَذَا الأَخِ الذِي أَحَبَّهُ فِي ذَاتِ اللهِ.

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ المَشَاعِرُ وَالعَوَاطِفُ نَتِيجَةَ نَزْعَةٍ عَابِرَةٍ تَزُولُ عَلَى مَرِّ الأَيَّامِ، بَلْ كَانَ مَصْدَرُهَا هُوَ الإِيمَانَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ ﷺ وِبِكِتَابِهِ، إِيمَانٌ لَا يَزُولُ أَمَامَ أَيِّ

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٦٢٤/٧): لأن مَن شهِدَ غزوة بدر وإن كان فاضلًا بِسَبَب أنها أول غزوة نُصِرَ فيها الإسلام، لكن بَيْعَةَ العقبة كانت سَببًا في فُشُوِّ الإسلام، ومنها نشأَ مشهَدُ بَدْرٍ.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٦٢٤/٧): أي أكثر ذِكرًا بالفَضْلِ، وشهرَةً بين الناس.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة ـ رقم الحديث (٣٨٨٩) ـ ومسلم في صحيحه ـ كتاب التوبة ـ باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ـ رقم الحديث (٢٧٦٩).

(٤) تجيش: تفيض. انظر لسان العرب (٤٣٥/٢).

قُوَّةٍ مِنْ قُوَّاتِ الظُّلْمِ وَالعُدْوَانِ، إِيمَانٌ إِذَا هَبَّتْ رِيحُهُ جَاءَتْ بِالعَجَائِبِ فِي العَقِيدَةِ وَالعَمَلِ، وَبِهَذَا الإِيمَانِ اسْتَطَاعَ المُسْلِمُونَ أَنْ يُسَجِّلُوا عَلَى أَوْرَاقِ الدَّهْرِ أَعْمَالًا، وَيَتْرُكُوا عَلَيْهَا آثَارًا، خَلَا عَنْ نَظَائِرِهَا، الغَابِرُ وَالحَاضِرُ، وَسَوْفَ يَخْلُو المُسْتَقْبَلُ[1].

وَقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: تِلْكُم بَيْعَةُ العَقَبَةِ، وَمَا أُبْرِمَ[2] فِيهَا مِنْ مَوَاثِيقَ، وَمَا دَارَ فِيهَا مِنْ مُحَاوَرَاتٍ.... إِنَّ رُوحَ اليَقِينِ وَالفِدَاءِ وَالِاسْتِبْسَالِ سَادَتْ هَذَا الجَمْعَ وَتَمَشَّتْ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ قِيلَتْ، وَبَدَا أَنَّ العَوَاطِفَ الفَائِرَةَ لَيْسَتْ وَحْدَهَا الَّتِي تُوَجِّهُ الحَدِيثَ أَوْ تُمْلِي العُهُودَ كَلَّا، فَإِنَّ حِسَابَ المُسْتَقْبَلِ رُوجِعَ مَعَ حِسَابِ اليَوْمِ، وَالمَغَارِمُ[3] المُتَوَقَّعَةُ نُظِرَ إِلَيْهَا قَبْلَ المَغَانِمِ المَوْهُومَةِ.

مَغَانِمُ؟ أَيْنَ مَوْضُوعُ المَغَانِمِ فِي هَذِهِ البَيْعَةِ؟ لَقَدْ قَامَ الأَمْرُ كُلُّهُ عَلَى التَّجَرُّدِ المَحْضِ وَالبَذْلِ الخَالِصِ.

هَؤُلَاءِ السَّبْعُونَ مُثُلٌ لِانْتِشَارِ الإِسْلَامِ، عَنْ طَرِيقِ الفِكْرِ الحُرِّ وَالِاقْتِنَاعِ الخَالِصِ.

فَقَدْ جَاءُوا مِنْ يَثْرِبَ مُؤْمِنِينَ أَشَدَّ الإِيمَانِ، وَمُلَبِّينَ دَاعِيَ التَّضْحِيَةِ، مَعَ أَنَّ مَعْرِفَتَهُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ لَمْحَةً عَابِرَةً، غَبَرَتْ عَلَيْهَا الأَيَّامُ، وَكَانَ الظَّنُّ بِهَا

---

(١) انظر الرحيق المختوم ص١٥٤.

(٢) أَبْرَمَ الأمرَ: أحكَمَهُ. انظر لسان العرب (١/٣٩١).

(٣) المَغْرَمُ: هو الدَّين. انظر لسان العرب (١٠/٥٩).

أَنْ تَزُولَ، لَكِنَّنَا لَا يَجُوزُ أَنْ نَنْسَى مَصْدَرَ هَذِهِ الطَّاقَةِ المُتَأَجِّجَةِ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالثِّقَةِ، إِنَّهُ القُرْآنُ!! لَئِنْ كَانَ الأَنْصَارُ قَبْلَ بَيْعَتِهِمْ الكُبْرَى لَمْ يَصْحَبُوا الرَّسُولَ ﷺ إِلَّا لِمَامًا[1] فَإِنَّ الوَحْيَ المُشِعَّ مِنَ السَّمَاءِ أَضَاءَ لَهُمُ الطَّرِيقَ، وَأَوْضَحَ الغَايَةَ[2].

۞ إِسْلَامُ عَمْرِو بنِ الجَمُوحِ رضي الله عنه[3]:

لَمَّا رَجَعَ الأَنْصَارُ الذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ إِلَى المَدِينَةِ أَظْهَرُوا الإِسْلَامَ بِهَا، وَدَعَوْا أَهْلِيهِمْ إِلَيْهِ، وَكَانَ فِي قَوْمِهِمْ بَقَايَا مِنْ شُيُوخٍ لَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بنُ الجَمُوحِ رضي الله عنه مِنْ سَادَاتِ بَنِي سَلِمَةَ وَأَشْرَافِهِمْ، وَكَانَ ابْنُهُ مُعَاذٌ شَهِدَ العَقَبَةَ، وَبَايَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِهَا.

وَكَانَ عَمْرٌو قَد اتَّخَذَ فِي دَارِهِ صَنَمًا مَنْ خَشَبٍ، يُقَالُ لَهُ (مَنَاةٌ)، كَمَا كَانَ الأَشْرَافُ يَصْنَعُونَ، فَلَمَّا أَسْلَمَ فِتْيَانُ بَنِي سَلِمَةَ: مُعاذُ بنُ جَبَلٍ، وَابْنُهُ مُعَاذُ بنُ عَمْرٍو، فِي فِتْيَانٍ مِنْهُمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَشَهِدَ العَقَبَةَ، كَانُوا يُدْلِجُونَ[4] بِاللَّيْلِ عَلَى

(١) اللِّمام: اللقاء اليسير. انظر لسان العرب (١٢/٣٣٣).

(٢) انظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى ص١٤٨.

(٣) هو عمرُو بن الجَمُوح الأنصاري الخَزْرَجِي، كان رضي الله عنه أعْرَجًا، وشَهِدَ بَدرًا في قول، ولم يذكره ابن إسحاق فيهم، واستشهِدَ في أُحُدٍ. ودفن هو وعبد الله بن عمرو بن حرامٍ في قبْرٍ واحدٍ. وكان عمرُو بن الجَمُوحِ رضي الله عنه كَريمًا جَوَادًا، سَيِّدًا من ساداتِ الأنصار، وشريفًا من أشرافهم. انظر الإصابة (٤/٥٠٦).

(٤) الدُّلجَةُ: سَيْرُ الليل. انظر النهاية (٢/١٢٠).

صَنَمِ عَمْرِو بنِ الجَمُوحِ، فَيَحْمِلُونَهُ، فَيَطْرَحُونَهُ فِي بَعْضِ حُفَرِ بَنِي سَلِمَةَ، وَفِيهَا عِذَرُ[1] النَّاسِ، مُنَكَّسًا عَلَى رَأْسِهِ، فَإِذَا أَصْبَحَ عَمْرٌو، قَالَ: وَيْلَكُمْ!! مَنْ عَدَا عَلَى إِلَهِنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟ ثُمَّ يَغْدُو يَلْتَمِسُهُ، حَتَّى إِذَا وَجَدَهُ غَسَّلَهُ وَطَهَّرَهُ وَطَيَّبَهُ، ثُمَّ قَالَ لِلصَّنَمِ: أَمَا وَاللهِ لَوْ أَعْلَمُ مَنْ فَعَلَ بِكَ هَذَا لَأُخْزِيَنَّهُ، فَإِذَا أَمْسَى وَنَامَ عَمْرٌو عَدَوْا عَلَيْهِ، فَفَعَلُوا بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَغْدُو فَيَجِدُهُ فِي مِثْلِ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الأَذَى، فَيُغَسِّلُهُ وَيُطَهِّرُهُ وَيُطَيِّبُهُ، ثُمَّ يَعْدُونَ عَلَيْهِ إِذَا أَمْسَى، فَيَفْعَلُونَ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ.

فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ اسْتَخْرَجَهُ مِنْ حَيْثُ أَلْقَوْهُ يَوْمًا، فَغَسَّلَهُ وَطَهَّرَهُ وَطَيَّبَهُ، ثُمَّ جَاءَ بِسَيْفِهِ فَعَلَّقَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لِلصَّنَمِ: إِنِّي وَاللهِ لَا أَعْلَمُ مَنْ يَصْنَعُ بِكَ مَا أَرَى، فَإِنْ كَانَ فِيكَ خَيْرٌ فَامْتَنِعْ، فَهَذَا السَّيْفُ مَعَكَ، فَلَمَّا أَمْسَى وَنَامَ عَمْرٌو عَدَوْا عَلَيْهِ، فَأَخَذُوا السَّيْفَ فِي عُنُقِهِ، ثُمَّ أَخَذُوا كَلْبًا مَيْتًا فَقَرَنُوهُ بِهِ بِحَبْلٍ، ثُمَّ أَلْقَوْهُ فِي بِئْرٍ مِنْ آبَارِ بَنِي سَلِمَةَ فِيهَا عِذَرُ النَّاسِ، وَغَدَا عَمْرُو بنُ الجَمُوحِ فَلَمْ يَجِدْهُ فِي مَكَانِهِ الذِي كَانَ بِهِ، فَخَرَجَ يَتْبَعُهُ حَتَّى وَجَدَهُ فِي تِلْكَ البِئْرِ مُنَكَّسًا مَقْرُونًا بِكَلْبٍ مَيْتٍ، فَلَمَّا رَآهُ وَأَبْصَرَ شَأْنَهُ، وَبَانَ لَهُ صَوَابُهُ، وَرَجَعَ إِلَيْه عَقْلُهُ، وَعَلِمَ أَنَّهَا أَصْنَامٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، فَمَا إِنْ كَلَّمَهُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ حَتَّى أَسْلَمَ، وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ ﷺ، وَقَالَ حِينَ اسْتَبَانَ لَهُ الرُّشْدُ، يَذْكُرُ صَنَمَهُ هَذَا، وَمَا كَانَ

(١) العَذِرَةُ: الغَائِطُ الذي يُلْقِيهِ الإنسان. انظر النهاية (٣/١٨٠).

مِنْ أَمْرِهِ، وَيَشْكُرُ اللهَ الذِي أَنْقَذَهُ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنَ العَمَى وَالضَّلَالَةِ:

وَاللهِ لَـوْ كُنْـتَ إِلَهًـا لَـمْ تَكُـنْ ... أَنْتَ وَكَلْبٌ وَسْطَ بِئْرٍ فِي قَرَنْ[1]

أُفٍ لِمَلْقَـاكَ إِلَهـاً مُسْـتَدَنْ[2] ... الآنَ فَتَّشْنَاكَ عَنْ سُوءِ الغَبَنْ[3]

الحَمْـدُ للهِ العَلِـيِّ ذِي المِـنَنْ ... الوَاهِـبِ الـرَّزَّاقِ دَيَّـانِ الـدِّيَنْ

هُـوَ الـذِي أَنْقَـذَنِي مِـنْ قَبْـلِ أَنْ ... أَكُـونَ فِـي ظُلْمَـةِ قَبْـرٍ مُـرْتَهَنْ

بِأَحْمَـدَ المَهْـدِيِّ النَّبِـيِّ المُؤْتَمَـنْ[4]

** ** **

(١) القَرَنُ: بالتحريك الحَبْلُ. انظر لسان العرب (١١/١٣٩).

(٢) المُسْتَدْنِ: الدَّني الخَسِيس. انظر لسان العرب.

(٣) الغَبَن: السَّفَه. انظر الروض الأنف (٢/٢٧٩).

(٤) انظر قصة إسلام عمرو بن الجموح ﷺ في: سيرة ابن هشام (٢/٦٥) ـ الروض الأنف (٢/٢٧٨) ـ سبل الهدى والرشاد (٣/٢٢٢).

خَصَائِصُ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ

قَبْلَ أَنْ نَدْخُلَ فِي أَمْرِ الهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ، نَتَكَلَّمُ عَنْ خَصَائِصِ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ أَوَّلًا.

كَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِي اخْتِيَارِ المَدِينَةِ دَارًا لِلْهِجْرَةِ، وَمَرْكَزًا لِلدَّعْوَةِ، عَدَا مَا أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ إِكْرَامِ أَهْلِهَا، وَأَسْرَارٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ أُمُورٌ، مِنْهَا:

١ ـ أَنَّهَا امْتَازَتْ بِتَحَصُّنٍ طَبِيعِيٍّ حَرْبِيٍّ، لَا تُزَاحِمُهَا فِي ذَلِكَ مَدِينَةٌ قَرِيبَةٌ فِي الجَزِيرَةِ، فَكَانَتْ حَرَّةُ[١] الوَبْرَةِ مُطْبِقَةً عَلَى المَدِينَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الغَرْبِيَّةِ، وَحَرَّةُ وَاقِمٍ مُطْبِقَةً عَلَى المَدِينَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَكَانَتِ المَنْطِقَةُ الشَّمَالِيَّةُ مِنَ المَدِينَةِ، هِيَ النَّاحِيَةَ الوَحِيدَةُ المَكْشُوفَةُ[٢].

٢ ـ كَانَتِ الجِهَاتُ الأُخْرَى مِنْ أَطْرَافِ المَدِينَةِ مُحَاطَةً بِأَشْجَارِ النَّخِيلِ، وَالزُّرُوعِ الكَثِيفَةِ، لَا يَمُرُّ مِنْهَا الجَيْشُ إِلَّا فِي طُرُقٍ ضَيِّقَةٍ، لَا يَتَّفِقُ فِيهَا النِّظَامُ

(١) الحَرَّةُ: هي الأرضُ ذاتُ الحِجَارة السُّود، يمتنع فيها المَشْي بالأقدام، ومشي الإبل والخيل، فضلًا عن مُرُور الجيش. انظر النهاية (١/٣٥١).

(٢) وهي التي حَصَّنها رسول الله ﷺ بالخندَق سنة خمس من الهجرة في غزوة الخندق، كما سيأتي عند الحديث عن غزوة الخندق.

العَسْكَرِيُّ وَتَرْتِيبُ الصُّفُوفِ.

٣ ـ كَانَتْ خَفَارَاتٌ عَسْكَرِيَّةٌ صَغِيرَةٌ، كَافِيَةً لِإِفْسَادِ النِّظَامِ العَسْكَرِيِّ، وَمَنْعِهِ مِنَ التَّقَدُّمِ، يَقُولُ ابنُ إِسْحَاقَ: كَانَ أَحَدُ جَانِبَيِ المَدِينَةِ عَوْرَةً وَسَائِرُ جَوَانِبِهَا مُشَكَّكَةً بِالبُنْيَانِ وَالنَّخِيلِ، لَا يَتَمَكَّنُ العَدُوُّ مِنْهَا.

وَلَعَلَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ أَشَارَ إِلَى هَذِهِ الحِكْمَةِ الإِلهِيَّةِ فِي اخْتِيَارِ المَدِينَةِ بِقَوْلِهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ قَبْلَ الهِجْرَةِ: «**إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ**»[(١)] ـ وَهُمَا الحَرَّتَانِ ـ فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ المَدِينَةِ.

٤ ـ كَانَ أَهْلُ المَدِينَةِ مِنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ أَصْحَابَ نَخْوَةٍ[(٢)] وَإِبَاءٍ[(٣)] وَفُرُوسِيَّةٍ، وَقُوَّةٍ، وَشَكِيمَةٍ[(٤)]، أَلِفُوا الحُرِّيَّةَ، وَلَمْ يَخْضَعُوا لِأَحَدٍ، وَلَمْ يَدْفَعُوا إِلَى قَبِيلَةٍ أَوْ حُكُومَةٍ إِتَاوَةً[(٥)] أَوْ جِبَايَةً[(٦)]، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي الكَلِمَةِ التِي قَالَهَا سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ ﷺ سَيِّدُ الأَوْسِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: قَدْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الكفالة ـ باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده ـ رقم الحديث (٢٢٩٧) ـ وكتاب المناقب ـ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ـ رقم الحديث (٣٩٠٥).

(٢) يُقال: رجل فيه نَخْوَة: أي أَنَفَة وحَمِيَّة وكِبْرٌ. انظر النهاية (٢٩/٥).

(٣) الإِبَاء: هو أشدُّ الامتناع. انظر النهاية (٢٤/١).

(٤) يُقال: فلان شديد الشَّكِيمَةِ إذا كان عزيزَ النفس أبِيًّا قَوِيًّا. انظر النهاية (٤٤٤/٢).

(٥) الإِتَاوَةُ: الرشوَةُ والخَرَاج. انظر لسان العرب (٦٧/١).

(٦) الجِبَايَةُ: هي استخراجُ الأموالِ من مَظَانِّها. انظر لسان العرب (١٧٤/٢).

كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ القَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِاللهِ وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، لَا نَعْبُدُ اللهَ وَلَا نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إِلَّا قِرًى[1] أَوْ بَيْعًا[2].

وَجَاءَ فِي العِقْدِ الفَرِيدِ: وَمِنَ الأَزْدِ الأَنْصَارُ، وَهُمُ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ، وَهُمَا ابْنَا حَارِثَةَ بنِ عَمْرِو بنِ عَامِرٍ، وَهُمْ أَعَزُّ النَّاسِ أَنْفُسًا، وَأَشْرَفُهُمْ هِمَمًا، وَلَمْ يُؤَدُّوا إِتَاوَةً قَطُّ إِلَى أَحَدِ المُلُوكِ[3].

فَكَانَتِ المَدِينَةُ ـ لِكُلِّ ذَلِكَ ـ أَصْلَحَ مَكَانٍ لِهِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَاتِّخَاذِهِمْ لَهَا دَارًا وَقَرَارًا، حَتَّى يَقْوَى الإِسْلَامُ، وَيَشُقَّ طَرِيقَهُ إِلَى الأَمَامِ، وَيَفْتَحَ الجَزِيرَةَ، ثُمَّ يَفْتَحَ العَالَمَ المُتَمَدِّنَ[4].

** ** **

---

(١) القِرَى: ما يُصنع للضيْفِ من الطعام. انظر لسان العرب (١١/١٤٩).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٣/٢٤٦).

(٣) انظر العقد الفريد (٣/٢٩٧).

(٤) انظر السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي رحمه الله تعالى ص١٥٨.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة